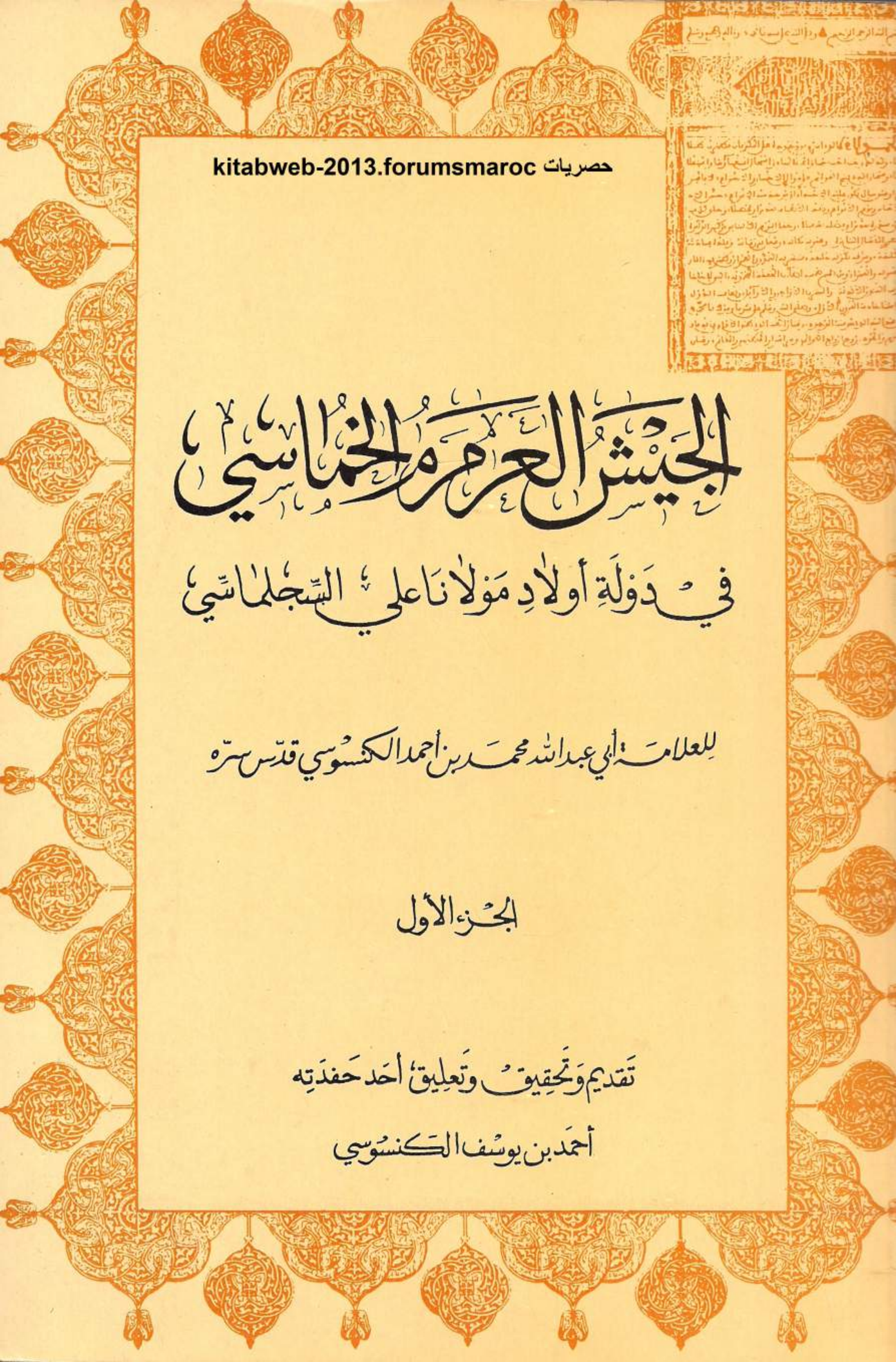


حصريات kitabweb-2013.forumsmaroc
الجيش العرمرم الخماسي
في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي
للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره
الجزء الأول
تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته
أحمد بن يوسف الكنسوسي

الجيش العرمرم الخماسي

في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي

للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره

المتوفى سنة 1294 هـ - 1877 م

الجزء الأول

تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته

أحمد بن يوسف الكنسوسي

ردمك 4-00-948-9981 (المجموعة)

ردمك 9-03-948-9981 (الجزء الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

لم يزل الأبناء والأحفاد يهتمون بمؤلفات أسلافهم، اعترافا بحقوقهم. وتنويها بأقدارهم، وإشاعة لآثارهم، وهي ظاهرة ازدهرت بالمغرب عبر العصر الحديث والمعاصر وكان من نماذج العلماء الذين ساهموا في هذه المبرة، عدد غير قليل خرجوا أعمال آبائهم أو أسلافهم من أصولها، ونسقوا حتى صارت مؤلفات متكاملة.

فمن الأبناء الذين خدموا تعاليق الآباء، نشير إلى زمرة منهم بدءا من أبي فارس عبد العزيز بن أبي الطيب الزياتي، مخرج تقاييد والده أبي الطيب بن الحسن على المختصر الخليلي، ثم تعاليق محمد بن أحمد الحريشي الفاسي على نسخته من نفس المختصر، وكان مخرجها هو ولده الذي دونها في مؤلف باسم "نفائس الدرر من حواشي المختصر". وبعده يأتي محمد العياشي بن أبي علي اليوسي، جامع ثلاث موضوعات لوالده : "القانون" و "الديوان" ورحلته الحجازية، ثم محمد بن أحمد بن الحسن اليحمدي، مرتب ومهذب كناشة والده، وخامسا : عبد الغني بن محمد بن هنو اليازغي الفاسي، وهو مخرج السفر الأول من شرح والده على كتاب "الشامل" لبهرام، ويلي هذا عبد الله بن إدريس الحسيني العراقي الفاسي، وقد جمع ما شرحه والده إدريس الحافظ على الثلث الأخير من "مشارق الأنوار" للصغاني، وسابعا : محمد العابد بن أحمد بن الطالب بن سودة المري، الذي استخرج طرر والده من هامش نسخته من صحيح البخاري في سفرين.

ومن الذين قاموا بنفس المبادرة في مخلفات أسلافهم : أبو السعود عبد القادر بن علي الفاسي الفهري، وقد بدأ في جمع تقاييد عم والده أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي ثم أكمل جمعها ابنه محمد بن عبد القادر الفاسي، وثالث هذه الفئة محمد بن محمد ميارة الحفيد، خرج تعاليق جده محمد بن أحمد ميارة على المختصر الخليلي، وسماها : "التقاط الدرر

مما كتب على المختصر". وأخيرا : عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة الفاسي، مستخرج ما وقف عليه من فهرس أشياخ جده لأمه : محمد المهدي بن الطالب ابن سودة.

وممن سار على هذا الدرب، وأحيا هذا العمل المبرور، الأستاذ العالم الميقاتي، سليل العلم، وحليف الفضل، السيد أحمد الكنسوسي، حفيد الشيخ محمد بن أحمد مؤلف : "الجيش العرمرم الخماسي" وهو الكتاب الذي اتجه الحفيد المنوه به إلى الاهتمام به، فتناوله بالتصحيح والتحقيق، حتى أخرجه في نصه المتكامل، بعد ما كانت طبعته الحجرية يتخللها النقص ويشينها خلوها من التصحيح.

وقد أضاف الأستاذ الكنسوسي لهذا المجهود، أثراء تقديمه لعمله بتعريف موسع بمؤلف "الجيش" برز فيه مركزه كعالم منوع المشاركة، ولغوي متضلع، وشاعر مبدع وكاتب لامع...

وهكذا سيكون من معطيات هذا الجهد تقديما وتحقيقا، صدور "الجيش العرمرم" في طبعة عصرية متقنة التقدم نموذجا حيا من مساهمة مراكش في مبرة اهتمام الأحفاد بتراث الأسلاف، والله سبحانه من وراء القصد.

الرباط فاتح رمضان 1414

12 فبراير 1994

محمد المنوني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

ولما من الله تعالى بكامل توفيقه وتيسيره، وجدنا من أنفسنا عزما شغل البال، رغم انني كنت أقدم رجلا وأخر أخرى، هل نعمل على إخراج "كتاب الجيش العرمرم" للطباعة، بل وأنا أعالج الفكرة أيضا هل أنا من رجال هذا الميدان، هل أعمل أم لا ؟، ولكن لما كان الشعور قويا والعزم أكيدا، قلت باسم الله القوي العظيم، فمددت يد المساعدة، وأنا أعالج مرة أخرى طريق فتح باب هذا المجهود الذي دفع بنا إليه عظيم الشوق وشديد الرغبة، فأدركت بأن الاقدام عليه شيء واجب تسأل عنه الأسرة الكنسوسية وحدها، وهذا من أكبر دافع لإخراجه على الطريقة التي يظهر عليها تحقيقه مع نشر ما عندنا من لطائف تلحق به مناسبة لمقامه، وربما يطرح هنا سؤال لماذا لم يخرج في وقت مبكر ؟ الجواب ان ذلك بقي دينا على ابن الفقيه مؤلفه العلامة الأديب أبي مهدي عبد الله بن محمد بن أحمد الكنسوسي المتوفى رحمه الله 1317هـ / 1899م. ولعله اشتغل كاتبا في الدار العالية بالله المرفوعة الراية بقدرته على عهد السلطان مولانا الحسن الأول في خلافته وعهد سلطانه ثم عهد المولى عبد العزيز، - ونستطيع أن نقول انه كان في عزمه ذلك لما رأينا من عنايته بمطالعة الكتب التاريخية مطالعة فائقة، وذلك ما رأيناه في مطالعته الاستقصاء التاريخ الفريد من نوعه للشيخ أحمد بن خالد الناصري المتوفى رحمه الله 1315هـ / 1897م. فما ترك مسألة لها علاقة بالتاريخ إلا نبه عليها بهامش الكتاب، ورأينا له نفس العمل في الروضة السليمانية للزياني تارة في الرد عليه وتارة في تعليق يناسب مقام التاريخ، ورأينا نفس العمل في جزاي كشف الظنون بما يبهر العقول، وهذا دأبه في كل كتب التاريخ كنزهة الإفراني والظل الظليل له وكالنشر الكبير للقادري وغير ذلك مما يطول ذكره، فكان موقفه هذا برهانا قويا يحملنا أن نقول انه كان في عزمه الشروع في إخراج الكتاب لولا ان الأجل بلغ حده.

وقد قابلنا نسخة الأصل التي بأيدينا المهمشة بهوامش بخط مؤلفه رحمه الله :

1- نسخة الخزانة الملكية التي جلبناها من الرباط بمساعدة مديرها جزاه الله خيرا ورمزنا لها. ب (م)

2- نسخة كلية الآداب بالرباط بمساعدة مديرها شكر الله مسعاه ورمزنا لها ب (گ)

3- الجزء الثاني من نسخة شيخنا العلامة المرحوم بكرم الله السيد أبي بكر الشنتوفي السلاوي البيضاوي المراكشي المتوفى 1353هـ / 1934م خلاف ما في اعلام الفكر للأستاذ الجراري إذ أرخ وفاته 1355هـ وتبعه الأستاذ مؤرخ الدولة في كتابه اعلام المغرب العربي ص 268، كما غلط المؤرخ الكبير السيد محمد بن علي الدكالي حيث أرخ وفاته 1346 هـ، الاتحاف الوجيز ص 152. ورمزنا للشنتوفي (ش)

4- النسخة المطبوعة بفاس على يد الفقيه السيد عمر بن الخياط، ورغم أن المصحح لها هو الفقيه العلامة عبد الكريم بنيس فإنها مشوهة، نقلنا ما كان فيها من بعض الزوائد فألحقناه بمحله المناسب ونبهنا على ما عداه ورمزنا لها بحرف (ف).

ومن الجدير بالذكر أن نذكر ما ذكره العلامة عبد الكريم بنيس في آخر الكتاب، شكر الله مسعاه، وهذا نصه :

حمدا لمن غمرتنا أياديه الوافرة وعطاياه المتظاهرة، وأطلعنا على مآثر السلف والخلف بامناء نقلة الأخبار والطرف، ونزهنا في رياض سجاياهم بما استفدناه من نفائس التحف وجواهر كانت في غياهب الصدف، والصلاة والسلام على واسطة عقد الارسال، وما له من آل وأصحاب وأصهار وأنجال، وبعد فيقول مصححه بحسب طاقته ووسعه، العبد الفقير عبد الكريم بن العربي بنيس الفاسي، ذو القلب القاسي : قد انتهى طبع هذا الكتاب النفيس، والروض الزاهر الأنيس، المسمى بالجيش العرمرم للعلامة أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد اكنسوس السوسي المراكشي تغمده الله في رحمته، وأتحفنا وإياه بأعالي جنته، فيا له من رياض ما أجمله، وكنز ما أحفله، مليء بالذخائر العوائد، وأفاد اجل الفوائد، لم ينسج ناسج على

منواله، ولا أتى مؤلف بأوضح من انقاله، وذلك في ظل السلطان المؤيد أبي يعقوب سيدنا يوسف أعز الله نصره وخلد في الصالحين ذكره.

على ذمة الفقيه النبيه الشريف سيدي عمر بن العلامة الجليل سيدي أحمد بن الخياط الزكاري الحسني، وذلك في أوائل رمضان المعظم سنة 1336 هـ. ولما تم طبعه الرائق وحسن وضعه الفائق قلت مادحا له ومؤرخا من بحر الرمل :

منة التاريخ أزكى المنن	موقظ جاهله من وسن
من روى أخبار قوم قد مضوا	فهو ذو عمر طويل الرسن
كل من يدريه من أهل النهى	ذو اعتبار بمرور الزمن
فاتخذه صاحبا تحظ به	مؤنسا ينسيك خطب المحن
سيما جيشا وفى عرمرما	بهمام ذي ذكاء حسن
العلا الكنسوسي محمد من	قد حبانا برياض بسن
فيه ما تهوى وترتاح له	كل نفس من قطوف الفنن

ومتى الطبع وافى ارخه
كمي الجيش بطبع فطن
139 83 1044 70
1336

سبب تأليف الكتاب

ومن الجدير بالذكر أن ننقل من "الدرر الفاخرة" ما يدل على اعتناء السلطان المولى محمد الرابع بالعلم والعلماء، من ظهير شريف يتعلق بما يناسب المقام، حسب ما يظهر من فحواه، وهذا نصه :

ومما يدخل في باب نهضته العلمية دخولا أوليا تشجيعه للمؤلفين وتنشيطه لهم ماديا وأدبيا، واداء المصاريف اللازمة حتى أجرة النسخ، وإليكم نص ظهير في الموضوع يكون لديكم برهانا جليا على ذلك. بعد الحمد له والصلاة، والطابع الأمامي صدره نقش داخله (محمد بن عبد الرحمان الله وليه) :

"ولدنا الأبر الا رضي سيدي حسن أصلحك الله وسلام عليك رحمة الله تعالى وبركاته،

وبعد،

فقد وصلنا كتابك وعلمنا منه توصل الفقيه السيد محمد الكنسوسي بما أنعمنا به عليك من الدراهم والكسوة وبالمنعم به على مخرج مبيضة تأليفه وناسخه ليتولى تفريق ذلك عليهما على يده باجتهاده كما أمرنا، وان الطالب العربي المطيري توصل بما نفذناه له من البلاد بالحوز، أصلحك الله ورضي عنك، والسلام.

في 12 من ذي الحجة الحرام عام 1293"

(الدرر الفاخرة ص 95)

ولنرجع الى سبب وضع كتاب الجيش، والسبب هو "الجواب المسكت" لما طالعه السلطان المولى محمد بواسطة العلامة أحمد بن الفاضل الوداني مجالس السلطان المذكور، نقلا عن رسالة للوداني المذكور لمؤلف الجيش. نص المواد منها : "أما بعد، فقد وصل جوابكم المسكت وكتابكم المفرح المبكت، جامعا بين الدب والأدب، ناديا وجه من للشر ندب، ماديا جلالة الكبار متأدبا، وطفى شرارة الصغار مادبا، منقوله بهر، ومعقوله قهر، يروق حسنه المناظر، ويعجب منه كل ناظر، ولقد أحسن من قال : وان كان لا يحسن المقال، جاء الجواب مرغبا، ومرهبا بسماعه ومصدقا ومكذبا، ومبشرا ومنفرا تشجيعه فاعجب لهذا مادبا متأدبا ومفرحا أحبابكم ومطرحا أعدائكم، ومنعما ومعذبا، أدى الكبار جلالة فتأدب، اطفى الشرار من الصغار فادب، وحاصل ما في المجيب والجواب أقول حيث شق على تتبع المقول، فنعم الجواب من جواب مجيب ونعم المجيب من مجيب جواب.

وبوصوله أبلغته يد الخليفة المنصورة أعلامه، الميمونة لياليه وأيامه، أمير العلماء وعالم الأمراء، سيدي محمد بن أمير المؤمنين نصره الله وأيده، فقرأه واستحلى مذاقه، وأعجبه نسجه وراقه، وذكر نصره الله انه مكث فيه يوما وليلة ولم يترك منه حرفا. ثم طلبه مني الوزير لما أخبره به سيدنا الأمير، فذكر لي أنه قرأه كله فيما بين الزوال الى العصر، وأنه استفاد منه قضايا لم تكن عنده ولا سمع بها قبله. هـ.

وبما أن صاحب الجلالة لما طالع الجواب المسكت وأعجبه أسلوبه أصْدر أمره الشريف الى مؤلف الجيش بأن يجعل في الدولة العلوية التاريخ المذكور. هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه.

الحمد لله الذي أشرق نور وجوده على المكونات وظهرت ظلا لها، ولذلك وجب احتياجها واعتلالها(1) واستحال استغناؤها واستقلالها وسبحان الله الذي نسج العوالم على منوال الاختيار والاختراع، لا باقتراح أو سبق مثال يكون عليه الاحتذاء أو يوخذ منه الانتزاع، جنس الاجناس ونوع الأنواع، وصنف الأصناف تقديرا وتحصيلا، (وخلق كل شئ فقدره تقديرا و فصله تفصيلا)، وجعل النوع الانساني مركز الدائرة، ومصدر الامثال السائرة «فحمله الأمانة»(2) وعمر به مكانه، وشغل به زمانه، وقلده عبادته وتكليفه وشرفه بكونه خليفة، فتيسر به التمدن والعمران، وظهر فيه(3) آثار العقوبة والغفران، ومن صميمه أضاءت الحقيقة المحمدية، التي لأجلها تكونت الشؤون الأبدية، وانتشرت الأواخر والاوائل، وتشعبت الشعوب والقبائل، وتعاقبت الدول وتناقلت أحاديث القرون الأولى.

وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد ين عبد الله الذي هو سبب الوجود، ومثار الغيث الذي طبق الآفاق باندفاق الكرم والجود، روح أرواح العوالم، وسر أسرار المظاهر والمعالم، وعلى اله الذين اشتملوا برود التنزيه والتطهير، وتصاعدوا في أفلاك التنويه الى ما لا غاية فوقه من التشهير، وعلى الصحابة السفرة، الكرام البررة، فتحة الأقاليم والمدائن والامصار، من المهاجرين والأنصار.

أما بعد، فإن النفوس والأرواح لها بالأخبار السالفة انبساط وانشراح، تدير في المجامع كؤوسها، «وتجلي على منصات المحاضرات عروسها»(4) وتزين بها أوقاتها ومجالسها، وتتحف بعجائبها مجالسها، فتشير بذلك ارتياحا وانشراحا، وايناسا وأفراحا، كأنما شربت راحا، والمتكفل بذلك هو فن(5) التاريخ، الذي هو أطيب من أزهار الشماريخ (6)،

---

(1) كذا في الاصل وفي (م) أما (ف) ففيها : (اعتلامها) وهو خطأ.
(2) مابين العلامتين ساقط من (م).
(3) في (ف) : (به) بدل : (فيه).
(4) مابين العلامتين ساقط من (م).
(5) في (م) : (علم) بدل : (فن).
(6) في مصباح الفيومي : «الشمراخ ما يكون فيه الرطب، والشمروخ وزان عصفور لغة فيه، والجمع فيهما شماريخ».

ناهيك به فنا يفيد موعظة وعلما، ويمنح العقلاء بيانا وفهما، تسمو إليه الهمم العالية، وتحيا به الرمم البالية، وتبعث به الامم الخالية وتنشر، وتعرض في عرصات الادكار والافتخار وتحشر، ويرى به الانسان ما غاب عنه حاضرا، إذا كان فيه ناظرا ويكتسب به من الاخلاق الكريمة ما لم يكن عليه مجبولا من كل مالم يزل عند النبهاء(7) محمودا مقبولا، ويجالس به أفاضل الرؤساء والملوك «وينافسهم في اقتناء الفضائل التي تزري بلآلئ السلوك»(8)، ومن أنكر فضيلة التاريخ فقد تباعد في الجهالة وتوغل، حتى تحمر بعد(9) الانسانية وتبغل.

قال الجلال السيوطي(10) رضي الله عنه ناقلا عن أبي شامة : جاهل التاريخ بركب عمياء، ويخبط خبط عشواء، ينسب خبرا تقدم لمن تأخر، «ويعكس»(11) قال : ولقد حضرت مجلسا فيه ثلاثة عشر مدرسا منهم قاضي القضاة وجرى بينهم ذكر ذوي القربى الذين تحرم عليهم الصدقات، فقالوا هم بنو عبد المطلب، وعبد المطلب هو هاشم، فما أحقهم بكل ملامة ومذمة لجهلهم أصلا «أصيلا»(12) من أصول الشريعة انتهى.

وقال ولي الدين العراقي(13) رضي الله عنه : في القرآن الاستدلال بالتاريخ في قوله تعالى «يا أهل الكتاب لم تحاجون في ابراهيم الآية» فأبطل دعوى اليهود والنصارى بقوله تعالى :«وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده» انتهى.

قال الشيخ أحمد بابا(14) «لما نقل ما تقدم : هذا من نفائس الاستدلال ولطائفه(15) انتهى.

قال الجلال [السيوطي](16) ومن فوائد التاريخ واقعة رئيس

---

(7) في (ف) : (النبلاء) بدل : (النبهاء).

(8) مابين العلامتين ساقط من (ف).

(9) في (ف) (عند) بدل : (بعد).

(10) هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن أبي بكر الخضيري السيوطي المؤلف المكثر المتوفى سنة 911 هـ -و 1505م.

(11) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(12) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(13) هو أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي شارح سنن أبي داوود المتوفى سنة 206 هـ-821 م.

(14) هو أحمد بن أحمد بابا التنبكتي الصنهاجي العلامة الكبير والمؤرخ الشهير صاحب المكتبة العظيمة المتوفى سنة 1032 هـ-1622 م.

(15) قلت : ما نقله المؤلف قدس سره عن الشيخ هو كلام أبي زرعة العراقي في شرحه على سنن أبي داوود.

(16) ما بين المعقوفين سقط من الاصل ومن (ف).

الرؤساء(17) المشهورة في قضية اليهود [لعنهم الله](18)، وحاصلها انهم أظهروا رسما قديما فيه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بسقوط(19) الجزية عن يهود خيبر، وفيه شهادة مولانا علي بن أبي طالب وغيره من أكابر الصحابة، فرفعوا ذلك الى رئيس الرؤساء، فعظمت حيرة الناس من شأنه، فقال الحافظ أبو بكر الخطيب(20) بعد تأمله : هذا مزور، فقيل له بما عرفته ؟ قال : فيه شهادة معاوية، وهو انما اسلم بعد الفتح سنة ثمان، وخيبر سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ(21) وهو مات يوم(22) بني قريضة وذلك(23) قبل فتح خيبر، فسر الناس بذلك، وزالت حيرتهم.

«قال العلامة القادري(24) في الازهار الندية : وفي حدود صدر هذه المائة أعني المائة الحادية عشرة ظهر نحو هذا الكتاب المزور بمعناه والرفع على خطوطه بتاريخ سبعة وعشرين وسبعمائة بموحدة فيهما، ثم كذلك بعام إحدى وتسعين بالمثناة فوق وسبعمائة بالموحدة، ثم ظهر ايضا عام ستة وثمانمائة ثم تعدد ظهوره مرارا لآخرها عام اثنين وأربعين وألف مسمى فيه جماعة ممن شهرتهم بالدين والعلم قاطعة بالنقول عليهم في ذلك، وأن كل من نسب اليهم ذلك كان مفتريا كذابا، وجميع الأشكال والتسميات الموضوعة فيه مفتعلة مزورة، وأدى بعض أهل التهور ممن له شهرة في تحمل الشهادة بفاس الى أن رفع على بعض الخطوط الموضوعة عليه ونسبها لأكابر أهل العلم والدين من أهل القرن العاشر والحادي وهو في رفعه على ذلك متقول كذاب مختلق سولت له نفسه الدخول في حزب أهل الشقاء والعياذ بالله تعالى وافتضح وقامت بذلك قيامته، وكتب عليه جماعة من أئمة علماء، وقت ظهور الرسم الظهور الأخير، منهم الشيخ

---

(17) هو علي بن الحسن بن أحمد المعروف بابن المسلمة استكتبه القائم بأمر الله العباسي ولقبه برئيس الرؤساء وشرف الوزراء وجمال الوزراء، كان متضلعا في علوم كثيرة مع سداد رأي ووفور عقل وبقي في الوزارة 12 سنة الى أن قتله البساسيري سنة 450 هـ-1058 م.

(18) ما بين المعقوفين سقط من الاصل ومن (ب).

(19) في الناسية : (باسقاط)

(20) هو أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الحافظ المؤرخ الجليل صاحب تاريخ بغداد المتوفى سنة 463 هـ-1070 م.

(21) هو سيد الاوس الصحابي الجليل الذي اهتز عرش الرحمان لموته من إصابته في غزوة الخندق سنة 5 هـ-626 م.

(22) في (م) : (مات بني قريظة).

(23) في (م) : (وهو) بدل : (وذلك).

(24) هو أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري المؤرخ الشهير المتوفى سنة 1187 هـ-1772 م.

الكبير أبو عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي(25)، وولده أبومحمد سيدي الطيب(26)، والعلامة الحافظ الشريف الحسني القسنطيني(27)، والقاضي سيدي العربي بردلة(28)، وكل من هؤلاء بين فضيحة الرسم المذكور وكذبه بالبراهين القاطعة، وقد وقفت على فتاويهم بذلك منقولة ولولا خوف الاطالة لجلبت نصوصها وإنما أشرت لهذا خوف ان يظهر شيطان مثل ذلك بعد هذا الزمان كما أظهره قبل»(29) انتهى.

وقد اعتنى كثير من الأئمة بالتاريخ ولا كاعتناء المرأة الغريبة بمرآتها، عند الانتباه من نومها وسناتها، وأكثروا فيه التآليف المتداولة بين رواتها، وكان لهم فيه في كل زمان فسيح مجال، وفي كل دولة ركبان ورجال، خبوا(30) فيه ووضعوا بالروية والارتجال، والريث والاستعجال، قال الزبيري(31) : ما رأيت أحدا أعلم من الشافعي رضي الله عنه بأيام الناس [حيث](32) يقول ما أردت به الا الاستعانة على القلب انتهى(33).

يريد والله أعلم كقوله تعالى (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) وقوله تعالى (ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر) وذكر المواق(34) في كتابه سنن المهتدين عن شيخه المنتوري(35) أنه حدث بسنده

---

25) أبو عبد الله محمد فتحا بن الشيخ الامام عبد القادر الفاسي المشارك النظار المؤلف المتوفى سنة 1116 هـ-1704 م.

26) هو أبو محمد الطيب محمد الفاسي العلامة الجليل المختار من قبل الحضرة الاسماعلية سفيرا لدى الاتراك في عقد مهادنة الحدود عام 1103 هـ-1691 . بعد وقعة المشارع معهم توفي سنة 1113 هـ-1701 م.

27) أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالكماد قدم على فاس وأفاد فيها وأجاد ذكره القادري في وفيات 1116 هـ-1704 .

28) ابو عبد الله محمد العربي برداله شيخ الجماعة بفاس وقاضيها العادل المتوفى سنة 1133 هـ-1720 م.
أقول وقد تكلم ابن كثير في البداية والنهاية على هذا الكتاب المزور وأفاد أنه رآه وانه جمع فيه جزءا مفردا (البداية ج 14 ص 19)

29) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

30) في (ف) (حبوا) وهو تصحيف

31) هو مصعب بن عبد الله الزبيري ابو عبد الله علامة الانساب. مؤرخ كبير 236 هـ-851 م.

32) ما بين المعقوفين ساقط من الاصل ومن (م) فأضفناه نقلا عن (ف).

33) الذي في كتاب الروضتين لابن ابي شامة (ج 1 ص2) : قال مصعب الزبيري، ما رأيت أحدا اعلم بأيام الناس من الشافعي ويروى. "يروى عن الشافعي انه اقام على تعلم ايام الناس والادب عشرين سنة وقال : ما اردت بذلك الا الاستعانة على الفقه" وهذا بخلاف رواية المؤلف التي جاء فيها لفظ (القلب) بدل (الفقه).

34) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري الغرناطي الخطيب بها. الشهير بالمواق المتوفى سنة 897 هـ-1491م.

35) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك القيسي المنتوري بكسر الميم كما في شجرة النور الزكية المتوفى سنة 834 هـ-1430 م.

الى أبي العباس ابن العريف(36) قال : كنت في مجلس أستاذي أبي علي الصدفي (37) فقرأ الحديث ثم طوى الكتاب وجعل يحكي حكايات الصالحين، فوقع في نفسي كيف يتجرأ(38) الشيخ أن يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحكي الحكايات، قال : فما تم لي الخاطر حتى نظر إلي الشيخ شزرا وقال : ياأحمد، الحكايات جند من جنود الله يثبت الله به قلوب العارفين من عباده، قال : فما بقي في جسدي شعرة إلا قطر منها العرق ولما رآني الشيخ دهشت قال لي : ياأحمد ما مصداق ذلك من كتاب الله تعالى ؟ قلت : الشيخ أعلم، قال : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) انتهى.

فمن المؤلفين في التاريخ المشاهير، الامام البخاري، وابن اسحاق(39)، والواقدي(40)، وسيف ابن عمر(41)، والطبري(42)، وابن الكلبي(43)، والذهبي(44)، والمسعودي(45) وغيرهم ممن لايحصى، هذا في العموم وأما فيما يخص قوما أو جيلا بأعيانهم أو دولة معينة دون غيرها فكثير أيضا كابن الرقيق(46) في دول افريقية وأبي مروان حيان بن خلف

---

36) أبو العباس احمد بن محمد بن محمد بن عطاء الله الصنهاجي الاندلسي الصوفي المحتسب ببلنسية المتوفى مسموما بمراكش سنة 536 هـ 1141 م. وقبره مزارة مشهورة بوسط سرقها.

37) أبو علي الحسين بن محمد بن فيره بن حيون الصدفي المعروف بابن سكرة قاضي مرسية العادل الذي انتهت اليه الرياسة في الحديث، استشهد في سادس ربيع الاول سنة 514 هـ-1120 م في غزوة كنطرة.

38) في (ف) : (يجهز) بدل (يتجرأ).

39) أبو عبد الله محمد بن اسحاق امام أهل السير قدم كتابه في السيرة للمنصور العباسي، توفي سنة 150 هـ-767 م.

40) أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي قدم من المدينة الى بغداد وولي بها القضاء للمأمون، وهو مؤرخ شهير على ما في كتبه من مبالغات وله المكتبة العظيمة التي يتحدث عنها الذهبي في الميزان والتاريخ الكبير، توفي سنة 207هـ-822 م.

41) سيف بن عمر الضبي الاسدي مصنف الفتوح والردة وغير ذلك، وهو كالواقدي من أصحاب السير والفتوح، وأحد المعروفين في الضعفاء كما يعلم من التاج والميزان كانت وفاته سنة 170 هـ-786 م.

42) هو أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير الكبير والتاريخ الشهير له مذهب خاص، توفي سنة 310 هـ-922 م.

43) هو أبو المنذر هشام بن أبي النضر بن السائب الكلبي النسابة وهو اول من فتح باب علم الانساب وضبط قواعده توفي سنة 204 هـ-819 م.

44) هو شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد الدمشقي الفارقي الشافعي مؤلف كبير ونقاد خطير مع مبالغة فائقة الحد في نقده مما لم يسلمه تلميذه السبكي في الطبقات ، توفي سنة 748 هـ-1347 م.

45) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي الشافعي شيعي رحالة نشأ في بغداد ودخل مصر وتردد بينها وبين الشام ولا تخفى مكانته في التاريخ، توفي سنة 346 هـ-957 م.

46) ابراهيم بن القاسم الكاتب الاديب الشاعر، ذكره بن خلدون في الطبقة الاولى من المؤرخين بحيث يرجع له الفضل في التاريخ الافريقي، وقد وهم صاحب كشف الظنون في تسميته احمد بدل ابراهيم وكتابه عن تاريخ افريقية والمغرب من جملة ما ضاع من كتبه ولم يبق منه عدا نتفا أوردها النويري في نهاية الارب وابن خلدون في تاريخه، توفي سنة 383 هـ-993 م.

بن حيان(47) الاموي الاندلسي القرطبي المؤرخ في الدولة الأموية بالأندلس، وصاحب دُرر الأثمان(48) في دولة آل عثمان، وكتاب القرطاس(49) في دولة الأدارسة {بفاس} (50) وابن خلدون(51) في بغية الرواد، في دولة بني عبد الواد، والتنيسي(52) في نظم الدرر والعقيان، في بني زيان، وأحمد بن عبد السلام الجراوي(53) في صفوة الادب في دولة الموحدين وصاحبي(54) رقم الحلل وروضة النسرين(55) في دولة بني مرين، والفشتالي(56) في مناهل الصفاء في دولة السعديين.

وأما هذه الدولة الشريفة العلوية الحسنية التي هي تاج مفارق الدول، وغرة الأواخر والأول، وهي التي أمن الله بها أقطار الأرضين من هذه المغارب، كما أمن أهل السماء بالنجوم الطوالع والغوارب،

يزهى بها الدهر والايام مشرقة

تهز في ظلها اعطافها تيها

---

47) أبو مروان المؤرخ الشهير صاحب المقتبس في أخبار اهل الاندلس في عشر مجلدات. والمهان في تأريخ الاندلس في ستين مجلدا، توفي سنة 469 هـ-1076 م.

48) هو محمد بن ابي السرور البكري الصديقي المتوفى بالقاهرة سنة 1028 هـ-1618 م. وكتابه هذا موجود في غوطا وله كتابان آخران في نفس الدولة وكتاب عام في التاريخ سماه «عيون الاخبار ونزهة الابصار».

49) كتاب القرطاس، سياتي ذكر ما يتعلق بالقرطاس في اللواء 6، من دول المغرب العربي في ذكر عبد الحق بن محيو او ابن يحي اول ملوك المرينيين بحول الله.

50) ما بين المعقوفين زيادة من (م).

51) ابن خلدون هذا هو أخو المؤرخ الشهير وهو ابو زكرياء يحيى بن ابي يحيى زكرياء ابن خلدون التونسي وزير ابي حمو أمير تلمسان توفي سنة 788 هـ-1386 م.

52) محمد بن عبد الله التلمساني من اكابر علمائها ومفتيها وله فتاو في المعيار، توفي سنة 899 هـ-1493 م وكتابه المذكور في نفس الموضوع السابق وبخزانتي الجزء الاول مخطوطا وافاد جرجي زيدان انه طبع بباريز سنة 1852 م ونقل للفرنسية.

53) أبو العباس احمد بن عبد السلام الجراوي اصله من تادلا وسكن مراكش، أديب كبير فصيح اللسان شاعر حضرة السلطان يعقوب الموحدي، وقد وهم صاحب كشف الظنون اذ قال فيه انه توفي آخر ايام يعقوب الموحدي المتوفى سنة 595 هـ-1198 م، وفي مشتبه النسبة انه شاعر المغرب بعد الستمائة، أما صفوة الادب فهو ليس تاريخا في الدولة الموحدية، وانما هو كتاب على نهج الحماسة الفه ليعقوب المنصور.

54) أما صاحب "رقم الحلل في نظم الدول" المطبوع بتونس سنة 1316 هـ/ 1898 م فهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني المعروف بابن الخطيب المتوفى سنة 776 هـ/ 1374 م.

55) أما صاحب "روضة النسرين في دولة بني مرين" المطبوعة بباريس سنة 1917 م مع ترجمة فرنسية فهو أبو الوليد إسماعيل بن يوسف المعروف بابن الاحمر المتوفى سنة 807 هـ / 1404 م وقد وهم جرجي زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ج 3 ص 215 إذ سماه عبد الله، وفي نيل الابتهاج أنه توفي سنة 810 هـ / 1407 م وعند جرجي سنة 804 هـ/ 1401 م.

56) هو المؤرخ الشهير أديب الدولة السعدية وشاعرها المفلق الوزير أبو فارس عبد العزيز ابن محمد المتوفى سنة 1031 هـ / 1621م. فأما "مناهل الصفاء في أخبار الملوك الشرفاء" فهو من الذخائر النفيسة من أجل ما اشتمل عليه من الوثائق التاريخية المهمة خصوصا عن العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه مؤلفه، وقد سأل الوزير ابو عبد الله محمد العربي الجامعي مؤلف الجيش عن كتاب "مناهل الصفاء" فأجابه برسالة يوجد نصها في ترجمة صاحب الجيش بقلمنا.

الدولة المباركة التي طلعت شموسها فانجلت الدجنات المدلهمة، وانزاحت المحن والشدائد عن هذه الامة، والدولة التي أفاءت على ملة الاسلام {ظلال}(57) العدل والاحسان، وجرى مدحها وشكرها على كل لسان،

بها رفعت عليا معد عمادها
ودانت لها الأيام بعد حران
فافياؤهم للمستجير معاقل
وابياتهم للمكرمات مباني

الدولة العالية الغرف السامية الذرى والشرف، في ساحة المجد والأصالة والشرف.

{إذا انتسبوا}(58)مد الفخار أكفهم
الى شرف اعلى دعائمه المجد

فإنها لما كانت محاسنها في غاية الاشتهار، كالشمس الضاحية رأد النهار، وكانت مفاخرها مما يهيم فيه واصفها ويحار، وعجائبها من الحديث عن البحار وقفت العلماء المعتبرون الذين أظلتهم أكنافها، وغمرتهم أجناس مواهبها وأصنافها، فهم على ساحل ذلك البحر المهول، ما بين انتكاص وذهول، وهم فيما ظهر من أحوالهم على أقسام دون أربعة، لايتعدى أحد منهم موضعه، فمنهم من يقر صادقا بالاعجاز، ويصرح بذلك على الحقيقة لا المجاز، ويقول : والله ما لي يد على عدر مال عالج، ولا أنا ممن يلج في تلك الموالج، ومنهم من يعتذر بقول القائل، وهو عن طريق الانصاف مائل :

والعي أن يصف الورقاء مادحها
بالطوق او يمدح الغزلان بالكحل

ويقول الآخر :

وما الحلي إلا زينة لنقيصة
يكمل من حسن إذا الحسن قصرا
واما إذا كان الجمال موفرا
كحسنك لم يحتج الى أن يزورا

---

57) ما بين المقوفين سقط من (ف).
58) ما بين الملامتين ساقط من (م).

ومنهم من نهض لذلك على ضعف وما بالبعير من قماص، وسارع الى التأليف ولات حين مناص، كمثل العلامة السيد الصغير الأفراني(59) رحمه الله في ورقات سماها : "الظل الظليل، في مفاخر مولانا اسماعيل»(60) وفي ما ألم به في آخر نزهة الحادي فإن ذلك لايبل غلة الصادي، وأما أبو القاسم الزياني(61) في البستان الظريف في دولة أولاد مولانا علي الشريف(62) فهو كخرقاء وجدت صوفا، أعانه على ماذكره تقاييد الشيخ ابن الحاج المكناسي(63) الذي كان بغاية الذكاء موصوفا، وهو في ما جمع بلا ترتيب ولا تنقيح كحاطب ليل، وباغت سيل، وأما الشريف العلامة القادري فقد ذكر في الأزهار الندية بعض أخبار الدولة الاسماعيلية(64)، الى أول الدولة المحمدية، وذلك قل من كثر، لا يسمن ولايغني، ولا يقرب من قضاء ذلك الحق ولايدني، هذا وأن مولانا المنصور بعزة الله المؤيد بتأييد الجلال والجمال من حضرة مولاه، ذا الملك الشامخ،

---

59) هو أبو عبد الله محمد الصغير مؤرخ مراكش توفي بعد سنة 1155هـ / 1742م قلت قد وقع غلط فاحش لمحقق ترجمانة الزياني الاستاذ الفلالي حيث قال في ص 187. محمد الصغير الوفراني أحد مؤرخي الدولة العلوية عاصر ابن أدريس العمراوي، وهو الذي أشار عليه بوضع كتاب روضة التعريف بمفاخر أبناء علي الشريف. » وليست هذه التسمية كما قال، بل روضة التعريف لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف كما أن الذي أشار على الافراني، هو الوزير أبو الغنائم غازي بن احمد الآتي الترجمة. هل كان للمحقق عفى الله عنه حال تحقيقه وتعليقه كتاب الروضة أمامه وفيه هذا الغلط، أو كان من حفظه وتضلعه في التاريخ كما سمعناه في دعواه الموازنة بين مؤرخي المغرب.

60) حاول ليفي بروفنصال ان يعترض على صاحب الجيش في هذه التسمية قائلا : ان تسمية الكتاب هي "الظل الوريف لمفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف" على أن صاحب الجيش اعتمد على نسخته المخطوطة ونصها : «وسميته روضة التعريف بمفاخر مولانا اسماعيل ابن الشريف «ولك ان تسميه « الظل الظليل في مفاخر مولانا اسماعيل» ... وقد وقف على نفس التسمية صاحب الاستقصا اذ قال لدى الكلام على دولة المولى اسماعيل زاد في الظل الظليل الخ 4 ص 21.

61) أما الزياني فقد كتب عنه لويس شيخو في الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ؛ ص 17 فقال :

" ومن كتبوا في التاريخ الشيخ أبو القاسم بن أحمد الزياني، كان من عمال مراكش متوليا على مدينة وجدة ثم اعتزل الاشتغال في تلمسان والف سنسنة 1813م كتاب «الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب» طبع الاستاذ الفرنسي هوداس قسما منه يحتوي تاريخ مراكش من سنة 1631م الى 1812م والباقي لايزال مخطوطا وله كذلك كتاب «البستان الظريف في دولة مولانا على الشريف » توفي1249هـ / 1833م.

62) هو التاريخ المشهور للزياني في الدولة العلوية ويذكر عنه في ديباجته أن زمن كتابته عام 1226هـ / 1811م ولما كان يتكلم بداخله على ملوك بني عثمان ذكر أن زمن التاريخ هو 1235هـ/ 1849م ولعله امتدت الكتابة إليه وإن كان لايفهم ذلك من عبارته وتوجد منه نسخ بعنوان «الروضة السليمانية، في ملوك الدولة الاسماعيلية» إلا أن نسخ الكتاب يختلف بعضها عن بعض زيادة ونقصا.

63) هو محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي كان الوزير الصدر عند المولى محمد بن عبد الله وكانت بينه وبين الزياني منافسة تعرض الزياني لبعضها في رحلته الترجمانة وغيرها من كتبه قال ابن زيدان في الاتحاف ج 4 ص 162 في ترجمة المكناسي : ونال الزياني من المترجم على عادته مع معاصريه وغيرهم» وانظر الترجمانة لترى موقفه الوشيع مع العلامة الأديب محمد بن عثمان المكناسي مشاركه في السفارة ص 104 وكانت وفاة المكناسي سنة 1223هـ/ 1808م.

64) القادري السابق الذكر مؤلف «نشر المثاني والازهار الندية بأهل المائة الحادية والثانية ومالهم من الشيم العالية، فيه تراجم لم تكن في «النشر» وتراجم في «النشر» ولجدها في «الازهار» فيها زيادات وغاية الازهار سنة 1184هـ.

والفخر الباذخ، والشرف الثابت الراسخ سلطان السلاطين وشريف الشرفاء، وإمام الأئمة وسيد الخلفاء أمير المؤمنين، وسياج ملة المسلمين مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام بن مولان محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا اسماعيل، أعز الله ذكره، وأدام نصره، وخلد مجده وفخره، أمرنا بتأليف كتاب يكون في وجه الزمان غرة، ولأعين الناظرين قرة، يجمع أخبار هذه الدولة المباركة الشريفة الحسنية، ذات المناقب (الباهرة)(65) والمحاسن السنية، وهو نصره الله لما كانت همته العالية تواقة الى أعالي المآثر والمفاخر، ومرتبته السامية لاترضى إلا بما يفوق به الأوائل والأواخر، وكانت يده الفياضة لها التصرف المطلق في علوم النقول والعقول والرياضة، كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكر أوصافه الحميدة، في راية دولته السعيدة، في قلب هذا الجيش العرموم، وفي اللواء الهاشمي المعظم، لم يقنعه أيده الله ما ذكرناه من تآليف أولئك الملأ، وأراد كتابا خاصا فائق الحلية والحلي، وكأنه نصره الله لما تأمل ما أشرنا إليه من غفلة علماء الدولة وتقصيرهم، وتعلق الملامة بطويلهم وقصيرهم، ظهر له (أطد)(66) الله عزه، أن ذممهم لحقوق هذه الدولة مازالت عامرة، وحجتهم في اكتفاء بتآليف من ذكرنا حجة عجفاء ضامرة، ورأى أيده الله أنهم لايبرأون من تابث الحقوق ولايتخلصون من ربقة العقوق، الا بتأليف بديع مستوعب حفيل(67) بجميع المحاسن والمحامد كفيل، وما ذكر من تلك التآليف إنما هو قضاء عن البازل بأفيل، والدولة الشريفة مازالت تنادي في كل محفل ونادى :

فاثنوا علينا لا أبا لأبيكم

بأفعالنا ان الثناء هو الخلد

ثم أكد علينا الوزير الأعظم، الهمام الأجل الأعز الأكرم، عصام الدولة وإمامها، ومن بيده البيضاء زمامها، الفقيه العلامة النزيه، المبارك الرئيس الوجيه، سلالة الأماجد من خزارج الانصار الذين يتساوى في

65) مابين المعلامتين ساقط من (ف).
66) كذا بالاصل وفي (م) : (مد الله عزه) أما (ف) ففيها : (أطال ...).
67) كذا بالاصل ومثله في (م) أما (ف) ففيها : (ضفيل) وهو تصحيف ظاهر.

مدحهم الإطناب والاختصار، أبو الثناء سيدي محمد الطيب(68) بن اليماني، بلغه الله من كل خير جميع الأماني، وأشار علينا حفظه الله بالانتداب لأداء هذا الغرض، وقضاء ما فات غيرنا من ذلك الواجب المفترض، فلما أشار أعزه الله بتلك الاشارة الحميدة، المباركة السديدة المفيدة، نبه مناهمة كانت قبل هذا نائمة، فعلمنا أن الحجة علينا في عدم الامتثال قائمة، لأننا لهذه الدولة الشريفة من أخص الخدم، وممن قام في محبتها قديما وحديثا على قدم، وممن رفل في ظلالها في حلل الاحسان، واطلع على مجالي عرائسها الحسان، فكنا لأجل ذلك من دون غيرنا من خدامها وأحبائها، أحق بحمل أعبائها، ونشر جميل أخبارها وأنبائها، ففزعنا إلى الاستعانة بحول الله وقوته، والاستمدادمن بحور فضله ومنته، والاعتماد على ماعودنا سبحانه فيما نحاوله من خرق العوائد بباهر قدرته، حتى يسهل علينا كل صعب من هذا الشأن ويهون، وينقاد بأزمتنا كل حرون، وتنفك من يد مطالبتنا الرهون، فإنه سبحانه يعلم أننا مفلسون من الأدوات والآلات، عاجزون في جميع الحالات، ولو قدر الله سبحانه كون هذا التآليف المبارك عند مقاربة الأربعين، لا بعد مجاوزة السبعين، لكان لنا فيه شأن يذكر، ومجد يحمد ويشكر، ولكن لا محل للعتاب، ولكل أجل كتاب، وها أنا أشرع في المقصود، في طالع السعادة المرصود، متبرئا الى الله من القوة والحول، في كل فعل وقول، فرتبت هذا الكتاب ترتيبا عجيبا، داعيا الى فتح أبواب التيسير ومجيبا، مشتملا على مقدمة وجناحين وقلب وساقة، فكان كالجيش المنصور الذي تولى الفتح المبين تعبئته واتساقه،

---

68) هو وزير الدولة المحمدية الآتي الترجمة في ساقة الجيش المتوفى سنة 1286هـ/ 1896م. وقد كتب المؤلف في أسرتهم كتابين الأول «حسام الانتصار، في وزارة بني عشرين الأنصار» يقع في جزء وسط بقال طبع بمصر والثاني «خمائل الورد والنسرين في الوزراء بني عشرين» ونص الكتاب الذي رفع للمؤلف في شأن وضع التاريخ رغبنا في نشره لما فيه من تقدير سلطاني شخصية المؤلف : والحمد لله محبنا الأرضى الفقيه العلامة الاجل البركة سيدي محمد بن احمد أكنسوس، حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله.

وبعد فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما تضمنه وقد اطلعنا به علم مولانا الشريف وانبسط له غاية وقد تركه أعزه الله عنده بقصد التفكرة فيما فيه، وقد أمرني أعزه الله أن أذكر لك أنه يحسن من مثلك تأليف كتاب في التاريخ يشتمل على ما تأخر من أخبار المغرب ويكون كالتذييل على ما سبق من تواريخ المتقدمين، وقال أيده الله : إن الزياني على ما هو عليه من القصور ألف ما ألف في ذلك ووقع من الناس تأليفه موقعا، فكيف إن تصديت أنت لذلك مع ما أنعم الله به عليك من القلم الذي لايضاهى، وما تجملت به من الصدق والخبر! فلا شك أن يتلقى بالقبول والاهتبال، وكثيرا ما كان أعزه الله يتمنى من يؤلف في هذه الدولة بالخصوص مثل ما ألف في دولة السعديين، وعلى المحبة والسلام.
الطيب بن اليماني أمنه الله.

الحمد لله

محبنا الأرضى الفقيه العلامة الأجل الأبر كذا سيدي محمد
ابن أحمد أكنسوس حفظكم الله وسلام عليكم ورحمة الله
تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله وبعد فقد وصلنا
كتابك وعرفنا ما تضمنه وقد اطلعنا به علم مولانا الشريف
وانبسط له غاية وقد تذكر أعزه الله عندك بعض التعاليق
من مناقبه وقد أمر أعزه الله أن أذكر لك أنه يحضر مداد
تأليف كتاب في التاريخ يشتمل على ما تأخر من أخبار المغرب
ويكون كالتذييل على ما استوفى تواريخ المتقدمين وقال أبقاه الله
أن الرجا فيك أن لا يشق عليك [illegible] في ذلك ووقع من ابتداء
تأليفه موفقا [illegible] ان تصرفت ان الزيادة مع ما [illegible]
به عينك من [illegible] الذي يظهر وما تجمله به من [illegible] والحكم
فلا شك أن يتلقى بالقبول والامتثال وكثيرا ما كان
أعزه الله يتمنى من يؤلف في مآثر الدولة بالخصوص مثل
ما ألف في دولة أسلافها. [illegible]

فأوجب الحال أن يسمى :

بالجيش العرموم الخماسي، في دولة اولاد مولانا علي السجلماسي والله المستعان وعليه التكلان(69). (*)

(69) ما بين المعقوفين زيادة من (م).

(*) قلت : ففي رسالة الوزير بن اليمني المذكورة حيث قال : وبعد، فقد وصلنا كتابك وعرفنا ما تضمنه، وقد اطلعنا عليه علم مولانا الشريف وانبسط له غاية، وقد تركه أعزه الله عنده بقصد التفكرة فيه. المراد بالكتاب المذكور هو الجواب المسكت في الرد على البكاري بن الشيخ المختار الكنتي وليس الجيش العرمرم كما يلهم. وبهذه المناسبة اذكر ما في رسالة للعلامة الأديب السيد أحمد بن الفاضل الرواني لصاحب الجيش في نفس موضوع الجواب المذكور، ونص المراد منها : أما بعد، فقد وصل جوابكم المسكت، وكتابكم المفرح المبكت، جامعا بين اللب والأدب، نادبا وجه من النشر ندب، وبوصوله أبلغته يد الخليفة المنصورة اعلامه، المحروسة لياليه وأيامه، أمير العلماء، وعالم الأمراء، سيدي محمد بن أمير المؤمنين نصره الله وأيده، فقراه واستحلى مذاقه، وأعجبه نسجه وواقه، وذكر نصره الله انه مكث فيه يوما وليلة ولم يترك منه حرفا هـ. قلت : فكان هو السبب ان يأمر أمير المؤمنين لما رأى من أدبه الأسلوبي بوضع التاريخ المسمى بالجيش العرمرم.

المقدمة في الأوليات(1) وحقيقة الامامة العظمى وفضلها وحكمها شرعا، والفرق بينها وبين الخلافة، وبينهما وبين الملك، فانحصر الكلام فيها في ست مسائل :

المسالة الاولى {من المقدمة}(2) في الاوليات

قد ألف الناس في الأوليات كتبا مبسوطة مفيدة كالعسكري، ونحن إنما نشير الى بعض ذلك على جهة الاختصار، اذ الغرض أمام، {وهو الذي به الاهتمام}(3). اما أول ما خلق الله سبحانه قبل كل شئ فانه نور مولانا محمد صلى الله عليه وسلم، كما جاء في أحاديث عديدة، والمراد بنوره صلى الله عليه وسلم، هو حقيقته المحمدية الموصوفة عند العارفين، وهي صعبة المدرك والتصور حتى وقع السؤال المشهور هل هي جوهر أو عرض ؟ وجواب الشيخ سيدي ابي العباس الملياني(4) معروف عندهم، واما اولية العالم في الجملة، وهو ماسوى الله تعالى، فاعلم انه انما سمى العالم عالما لانه علامة أي دليل على المرجح اي الصانع له، الذي رجح وجوده على عدمه، لأن كل ممكن {قبل ظهوره}(5).

يستوي وجوده وبقاؤه في العدم، فإذا وجد فذلك ترجيح لأحد الجانبين، وهو الوجود، قال الشيخ سيدي عبد الوهاب(6) رضي الله عنه في "اليواقيت والجواهر" : فإن قيل هل اطلع أحد من الخواص على معرفة تاريخ أول العالم على التحديد من طريق العقل أو الكشف أو الأدلة ؟ فالجواب كما قال الشيخ محيي الدين(7) في الباب التسعين وثلاثمائة من

---

(1) علم الأوائل علم يعرف به أوائل الوقائع والحوادث بحسب المواطن والنسب، وهو من فروع علم التاريخ والمحاضرات، واول من كتب فيه أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري المتوفى سنة 395 هـ موافق 1004 م والحق به بعض المتاخرين مباحث الاواخر كما فعل علي داده السكتواري البسنوي شيخ التربية المتوفى سنة 1007 هـ موافق 1598 م له محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر كتاب قيم في بابه.

(2) ما بين المعقوفين ساقط من الاصل ومن (م) وهو في (ف) فاضفناه نقلا عنها.

(3) ساقط من الاصل ومن (م) فاضفناه من (ف)

(4) ابو العباس احمد بن عثمان الملياني، له رحلة الى المشرق التقى فيها بفحول العلماء ورجع الى المغرب وسكن بجاية، وكان يحضر مجالس ابي زكرياء الحفصي لمكانته العلمية وعديه القويم، توفي بمسقط رأسه مليانة سنة 644 هـ موافق 1246 م.

(5) ما بين المعقوفين زيادة من (م)

(6) العلامة المطلع والمؤلف الكبير والصوفي الشهير أبو المواهب عبد الوهاب بن احمد الشعراني الشافعي المتوفى سنة 973 هـ موافق 1565 م.

(7) الشيخ الاكبر ابو بكر محي الدين محمد بن علي بن عربي الحاتمي الاندلسي فيلسوف الاسلام الخطير، ظاهري المذهب في العبادات باطني النظر في الاعتقادات توفي سنة 638 هـ موافق 1240 م.

«الفتوحات» : إنه لم يبلغنا أن أحدا عرف مدة خلق العالم على التحديد، وذلك أن أكثر الكواكب قطعا في الفلك الاطلس الذي لا كوكب فيه الكواكب الثابتة، والاعمار لاتدرك حركتها لظهور ثبوتها للأبصار مع أنها سابحة سبحا بطيئا ‹والعمر قد يعجز عن ادراك حركتها لقصره› (8) فإن كل كوكب منها يقطع الدرجة الواحدة من الفلك الأقصى في مائة سنة الى أن ينتهي إليها، فما اجتمع من السنين فهو يوم تلك الكواكب الثابتة، فتحسب ثلاثمائة وستين درجة، كل درجة مائة سنة، وقد ذكر في التاريخ المتقدم أن أهرام مصر بنيت والنسر في برج الأسد، وفي نسخة الحمل، وهو اليوم عندنا في الجدي، فاعمل حساب ذلك تقرب من معرفة تاريخ الاهرام، ولم يدر بانيها ولاعرف أمرها مع أن بانيها من الناس قطعا، قال الشيخ محيي الدين : وقد رأيت في واقعة أني أطوف بالبيت مع أناس لاأعرفهم فأنشدوني بيتين حفظت أحدهما ونسيت الآخر :

لقد طفنا كما طفتم سنينا :. بهذا البيت طراً أجمعينا(9) وتكلمت مع واحد منهم فقال : أما تعرفني؟ فقلت : لا، فقال : أنا من أجدادك {الأولين} (10) فقلت له : كم لك منذ مت ؟ فقال لي : بضع وأربعون ألف سنة، فقلت : ليس لأبينا آدم عليه السلام هذا القدر من السنين، فقال لي : عن أي آدم تقول هذا ؟ الأقرب إليكم أم عن غيره ؟ فذكرت حديثا رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ‹إن الله تعالى خلق مائتي ألف آدم›(11) فقلت في نفسي : قد يكون الجد الذي ينسبني إليه ذلك الشخص من أولئك، قال : والتاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك انتهى.

{ قال الشيخ محيي الدين ابن العربي : اجتمعت مرة في عالم الأرواح مع ادريس عليه السلام وسألته عن صحة ذلك الكشف، فقال ادريس عليه السلام : صدق الخبر وصدق شهودك ومكاشفتك في ذلك، نحن معاشر الأنبياء آمنا بحدوث العالم، وانقطع علمنا عن مبدأ الأعيان

---

(8) مابين العلامتين ساقط من (م)

(9) لم يرد في الاصل وفي (م) إلا بيت واحد أما (ف) ففيها فأنشدوني هذا البيت.

(10) مابين المعقوفين إضافة من الملكية وفي (ف) (الأول) بدل الاولين وهو جمع أول

(11) ساقط من (ف)

والأكوان: (12). وقال مؤلف كتاب "منظوم الأخبار" مانصه : ويروى في مناجاة موسى عليه السلام أنه قال : يارب إني أريد أن أسألك عن مسألة ولكني أخاف وأستحي فقال الله عز وجل يا موسى من لم يخفني ولم يستحيي مني لم يعرف قدرتي، ولكن سل، قال : يارب متى أنت إله في الألوهية ؟ قال الله : سأصف لك شيئا من ذلك، إني خلقت قبل أن أخلق السماوات السبع والأرضين السبع والجنة والنار ثمانين ألف مدينة، كل مدينة طولها وعرضها ثمانون ألف سنة بعضها فوق بعض، فملأتها خردلا أبيض، وخلقت طائرا أخضر، وجعلت رزقه في ذلك الخردل، فجعل يأكل كل يوم خردلة حتى ظهر النقص في الحب، فجعل يأكل كل شهر حبة حتى ظهر النقص في الحب، فجعل يأكل حبة في سنة حتى فني ما في المدائن، ثم خلقت في تلك المدائن سبعين ألف رجل عاش كل واحد منهم سبعين ألف سنة، فعصاني واحد منهم، فأمرت تلك المدائن فضرب بعضها بعضا فصارت دكا، ثم خلقت بعد ذلك بستة آلاف سنة اللوح والقلم ونور محمد والعرش والكرسي والملائكة الكروبيين والجنة والنار، وكل مرتبة من هذه المراتب بعد ستة آلاف سنة، ثم خلقت السماوات والأرضين في ستة أيام، ثم خلقت بعد ذلك بستة آلاف سنة رجلا ليس من الانس ولا من الجن ولا من الملائكة، وسميته آدم، فعاش عشرة آلاف سنة، فمات، ولم أخلق شيئا بعده عشرة آلاف سنة، ثم خلقت رجلا آخر، فسميته آدم فعاش عشرة الاف سنة فمات فلم أخلق شيئا بعده عشرة آلاف سنة... فلم أزل أخلق آدم بعد آدام حتى خلقت عشرة الاف آدم، يعيش كل واحد عشرة ألاف سنة، ولم أخلق شيئا بعد موت كل واحد منهم عشرة آلاف سنة ‹ثم خلقت إبليس، فعبدني سبعين ألف سنة› (13) ثم خلقت يا موسى أباك آدم في الجنة، وذكر كيفية خلق آدم وسارإلى آخر الحديث الطويل، وفي هذا الخبر مخالفة لما تقدم اولية الحقيقة المحمدية قبل كل شيء {وإن كانت الواو هنا قد يجاب عنها بأنها لاترتب} (14) والله أعلم.

---

(12) ساقط من الأصل ومن (م) فأضفناه من (ف)

(13) ساقط من (م)

(14) ساقط من الأصل ومن (ف) فأضفناه من (م)

وأما أول الأنبياء فآدم عليه السلام، وأول الرسل قيل : هو أول أولاده، وقيل نوح عليه السلام، وأول عاص لله تبارك وتعالى إبليس كما في "القرآن العظيم". وأول ظلم وقع في الأرض ظلم هابل[15] بن آدم لأخيه قابل ‹وهو أول قتيل› [16]، وأول من أسلم وآمن برسول الله صلى الله عليه وسلم مطلقا فأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها. فلا مطمع لأحد في لحاقها في ذلك لا أبو بكر رضي الله عنه ولاغيره، وهي مزية لها، والمزية لاتقتضي التفضيل، وقيل : أبو بكر الصديق رضي الله عنه لقول حسان[17] رضي الله عنه :

إذا تذكرت شجوا من اخي ثقة
فاذكر اخاك ابا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها واعدلها
إلا النبي واوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده
واول الناس منهم صدق الرسلا

أخرج أبو نعيم[18] عن فرات بن السائب[19] قال : سألت ميمون بن مهران[20] قلت : علي أفضل عندك أم أبو بكر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده، ثم قال :

ماكنت أظن أن أبقى الى زمن يعدل بهما، لله درهما، كانا رأسَيْ الاسلام، قلت : فأبو بكر كان أول إسلاما أو علي ؟ قال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبي صلى الله عليه وسلم زمن بحيرا الراهب حين مر به، واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه، وذلك كله قبل أن يولد علي

---

(15) كذا بالأصل وهو مايوجد في (م) وفي (ف) وهو خلاف المعروف من أن القاتل قابل والمقتول هابل، كما أن المعروف في الاسمين أنهما بدون ياء.

(16) ساقط من (م)

(17) الصحابي الجليل والشاعر المفلق المؤيد بروح القدس فشاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوءة، وشاعر اليمن في الاسلام، والابيات من قطعة في خمسة أبيات واردة في ديوانه.
المطبعة الرحمانية بمصر سنة 1347، 1929م ص 299 وذكر قبلها سبب قوله.

(18) أحمد بن عبد الله الاصبهاني مؤلف كتاب الحلية المعتبر أكبر موسوعة في تاريخ نساك الامة وزهادها يشتمل على زهاء 800 ترجمة. توفي سنة 436 ، الموافق 1044.

(19) أبو سليمان وقيل أبو المعلى فرات بن السائب الجزري قال عنه البخاري : منكر الحديث. والدارقطني وغيره إنه متروك.

(20) الحكيم اليقظان أبو أيوب ميمون بن مهران إمام أهل الجزيرة. من رجال التصرف الكبار، توفي سنة 117 هـ الموافق 735م.

انتهى، قال الجلال السيوطي : وقد قال إنه {يعني أبا بكر} [21] أول من أسلم خلائق[22] من الصحابة والتابعين وغيرهم، بل ادعى بعضهم الاجماع عليه انتهى، قلت : إذا صح ماتقدم عن الآعمش ميمون بن مهران فلا شك أنه أول بالاطلاق قبل خديجة وغيرها، لأنه هو الذي كان واسطة بين النبي النبي صلى الله عليه وسلم وبينها حتى أنكحها إياه، وذلك هو الظاهر من قول حسان المتقدم، فإذا ثبت ذلك فالمؤمنون كلهم في صحيفته كما قيل.

والمرء في ميزانيه اتباعـــه

فاقدر إذن قدر النبي محمد

وقيل : أول من أسلم مولانا علي رضي الله عنه، وقد جمع بعضهم بين هذه الأقوال جمعا حسنا، وهو أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال، ومولانا علي من الصبيان، وأم المؤمنين خديجة من النساء، وأول من تفطن لهذا الجمع أبو حنيفة رضي الله عنه، وهذه أول مناقب أبي بكر رضي الله عنه التي لا حصر لها، ومن مناقبه ما ذكره الامام سيدي عبد الوهاب الشعراني في الميزان، ونصه : وفي الحديث أن شخصا مات في عهد رسول الله صلى عليه وسلم فشهد فيه الصحابة كلهم بالشر إلا أبا بكر رضي الله عنه، فأوحى الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الذين شهدوا في فلان بالسوء صادقون، ولكن الله تبارك وتعالى أجاز شهادة أبي بكر تكرمة له، انتهى. قال الشيخ الشعراني : وذلك أن مقام الصديقية يقتضي أن لايرى صاحبه من الناس إلا حسنا قياسا على باطنه، فافهم، انتهى، وأبو بكر هو أول من ولي الخلافة وأبوه حي، وهو أول من تلقب في الاسلام، ولقبه عتيق، قيل لعتاقته أي حسنه وجماله، قاله الليث[23] بن سعد، وقيل لعتاقته من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي[24]، وقيل إنه لم يكن في نسبه شيء يعاب به، قال مصعب بن الزبير : هذا على أن لفظ عتيق لقب به، وهو الصحيح، لا اسم له كما قيل، وإنما اسمه عبد الله،

---

(21) إضافة من (م)

(22) خلائق بالرفع فاعل لقوله السابق : وقد قال، وبهذا الاعراب يظهر معنى الكلام.

(23) الليث بن سعد بن عبد الرحمان الفهمي مولاهم، عالم مصر وإمامها يشهد فيه الشافعي أنه أحفظ من مالك، إلا أن أصحابه أضاعوه، وكان بينه وبين مالك مراسلات في مسألة عمل أهل المدينة، ويحكى أنه رجع الى رأي الامام مالك، توفي سنة 175 هـ الموافق 791م.

(24) عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى عليه فقال : (انت عتيق الله من النار) فمن يومئذ سمي عتيقا.

واسم أبيه عثمان، وغلب عليه أبو قحافة، وأما وصفه بالصديق فقد اجتمعت الأمة على وصفه به، ولم ينصرف إلا إليه إذا أطلق، لأنه بادر الى تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقع منه توقف ولا ارتياب في حال من الأحوال، وهو أول من اتخذ بيت المال، وهو أول من عهد بالخلافة قبيل الموت لغيره، وهو أول من سمى المصحف مصحفا.

وأما أول من دعي بأمير المؤمنين فهو سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أبو بكر يدعى بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما ولي عمر صاروا يدعونه بخليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك ثقيلا لما فيه من التكرار ‹ولأنه يؤدي الى زيادة الثقل كلما ولي أحد بعد عمر لتضاعف التكرار›(25) حتى كتب عمر إلى عامل العراق يأمره أن يبعث إليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث إليه لبيد بن ربيعة(26) وعدى بن حاتم الجواد(27) فقدما المدينة ودخلا الى المسجد فوجدا به عمرو بن العاصي فقالا له : استأذن علينا أمير المؤمنين، فقال : أنتما والله أصبتما اسمه، فدخل عليه عمرو فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال له : ما بدا لك في هذا الاسم ! لتخرجن مما ذكرت، فأخبره وقال : أنت الأمير ونحن المومنون، فجرى دعاؤه بهذا من يومئذ، وسيدنا عمر أول من دون الديوان، أخرج ابن سعد،(28)، عن سعيد بن المسيب(29) قال : دون عمر الديوان في المحرم سنة عشرين، فدعا عقيل بن أبي طالب(30) ومخرمة بن نوفل(31) وجبير بن مطعم(32) وكانوا من نساب

---

(25) ساقط من (م)

(26) أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامري أحد أصحاب المعلقات، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم في قومه بني جعفر بن كلاب، فأسلم وحسن إسلامه، عمر فوق المائة ومات سنة 41هـ الموافق 661م.

(27) أبو طريف عدي بن حاتم الجواد، قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ومات بالكوفة سنة 67هـ الموافق 686م.

(28) أبو عبد الله محمد بن سعد الزهري كاتب الواقدي، مؤلف الطبقات الكبرى والصغرى في الصحابة والتابعين، وكتابه أقدم كتاب وصل المكتبة العربية في علم الطبقات توفي سنة 230هـ الموافق 844م.

(29) الامام الشهير سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي المدني رأس علماء التابعين وفردهم وفاضلهم وفقيههم، لايرى أصح من مرسلاته، توفي سنة 93 هـ الموافق 711م.

(30) عقيل، (بفتح أوله) بن أبي طالب أخو علي وجعفر، وهو أكبرهما، كان عالما بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها روى هشام بن الكلبي بسنده الى ابن عباس قال، كان في قريش أربعة يتحاكم الناس إليهم في المنافرات، عقيل ومخرمة، وحويطب، وأبو جهم، قال ابن سعد : مات عقيل في خلافة معاوية، وفي تاريخ البخاري الصغير أنه مات في خلافة يزيد قبل الحرة.

(31) مخرمة بن نوفل بن وهيب بن عبد مناف، قال الزبير بن بكار، كان من مسلمة الفتح، وكانت له سن عالية وعلم بالنسب، وكانوا يأخذونه عنه، توفي سنة 55 هـ الموافق 674م.

(32) جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفلي، من أكابر قريش وعلماء النسب توفي سنة 57 هـ الموافق 676م.

قريش وقال لهم : اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا وبدأوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ‹ثم عمر وقومه›(33) على الخلافة، فلما نظر فيه عمر قال : ابدأوا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله، وهو أول من أرخ بالهجرة، وأول من أمر بجمع التراويح برمضان، وأول من اتخذ الدرة.

وأما أول من حمى الحمى فسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، {وهكذا في **تاريخ الخلفاء** للسيوطي، وفي جامع **الموطأ** أن عمر رضي الله عنه قال لصاحب الحمى : إياي ونعم ابن عفان وابن عوف الى آخره، وهذا يدل على أن عمر هو أول من حمى الحمى لا عثمان رضي الله عنهما}(34) وهو أول من زاد الآذان الأول في الجمعة، وهو أول من رزق المؤذنين وهو أول من أقطع الاقطاعات بكثرة، وهو الأول من ارتج عليه في الخطبة، وهو أول من اتخذ صاحب الشرطة، وأما أول من استخلف ولي العهد في صحته فسيدنا معاوية رضي الله عنه، وهو أول من اتخذ الخصيان لخصوص خدمته، وأما أول من حملت اليه الرؤوس فسيدنا عبد الله بن الزبير، وأما أول من كتب اسمه على السكة فعبد الملك بن مروان، وهو أول من كسى الكعبة بالديباج، وهو اول من غدر في الاسلام، لغدره لابن عمه عمرو بن سعيد الاشدق(35)، وأما أول من منع من النداء باسمه فالوليد بن عبد الملك بن مروان، وأما اول من اتخذ المنجمين وقربهم فابو جعفر المنصور العباسي‹واما اول من أمر بتصنيف الكتب في الرد على أهل الزيغ فالمهدي العباسي›(36)، وأما أول من مشت الرجال أمامه بالسيوف مسلولة فالهادي بن المهدي بن منصور، وأما أول من أمر بتغيير أهل الذمة زيهم وتمييزهم من بين الناس فالمتوكل، وأما أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب، فالمعتز وأما أول من ولي الخلافة من الصبيان فالمقتدر.

وهذا القدر يكفي من الأوليات وهي كثيرة جدا، ولا يخفى مناسبة ذكر الاوليات والله واسع عليم انتهى.

---

(33) ساقط من (م) ومن (ف)

(34) ساقط من الاصل ومن (ف) فأضفناه نقلا عن (م)

(35) عمرو بن سعيد بن العصي المعروف بالأشدق، خطيب بليغ، وله وقائع شهيرة في التاريخ، قتله عبد الملك بن مروان سنة 70، الموافق 689 م.

(36) ساقط من (م) ومن (ف).

المسألة الثانية من المقدمة في حقيقة الإمامة العظمى :

هذا اللفظ هو منبع فتنة الامامية، ومناط آرائهم النائلة، ولهم في ذلك مذاهب شنيعة كلها ضلالة مبنية على أوهام خاوية تفضي الى رفض كثير من قواعد الشريعة المطهرة ونقض عقائد الاسلام من أصلها والقدح في الخلفاء الراشدين، فلذلك أدرج الكلام عليها في كتب المتكلمين من جملة العقائد الواجبة عونا للقاصدين، وصونا للأئمة المهتدين عن مطاعن المبتدعين، والا فليست واجبة عقلا كما يقول المعتزلة الضلال، وانما جعلت الامامة من ‹جملة›(1) أصول الدين لاجل ما ذكرنا، وسيأتي ان شاء الله في بيان حكمها شرعا زيادة على هذا القدر، على أن ابن عرفة(2) قال : حديث : «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»(3) وحديث : «من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية»(4) يشيران(5) الى كونهما من المعتقدات، انتهى،

وأما حدها فأولى ما يقال فيه هو قول السعد التفتازاني(6) في شرح «النسفية» هي رياسة عامة في أمور الدنيا والدين خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فتخرج النبوءة والقضاء وغيرهما من الرياسات الخاصة، انتهى قيل : هذا الحد يؤذن بتلازم الامامة والخلافة، قال شيخ الاسلام وامام الائمة أبو محمد عبد القادر الفاسي(7) رحمه الله تعالى ما نصه : لكن المحقق الصوفي يقول : النبوءة لها ظاهر وباطن، فظاهرها القيام بأمور الدين أعمالا وأخلاقا بحيث يكون له جبر غيره على القيام، فظاهر الدين خلافة، والقيام بباطنها على التمام بحيث يهدي غيره الى القيام بباطن الدين علما وتحققا امامة، فالخليفة على هذا هو القائم في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بما كان صلى الله عليه وسلم قائما به فيهم مما به

---

(1) ساقط من (ف)

(2) أبو عبد الله محمد بن عرفة الورغمي التونسي حامل راية المذهب المالكي على عهده، توفي سنة 803 هـ موافق 1400 م

(3) هو من حديث رواه مسلم اوله من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات

(4) رواه الشيخان.

(5) في (ف) : يشير

(6) هو مسعود بن عمر التفتزاني الهروي الشافعي صاحب التصانيف الشهيرة، توفي سنة 793 هـ موافق 1390 م

(7) هو شيخ الجماعة ابو محمد عبد القادر بن علي الفاسي العلامة المحدث الشهير عمدة اهل التحقيق توفي سنة 1091 هـ موافق 1680 م

صلاح الدين والدنيا ظاهرا، والامام هو القائم فيهم بما كان صلى الله عليه وسلم قائما به مما يحفظ به أمر دينهم ودنياهم باطنا، ثم ان الخلافة والامامة قد تجتمعان في شخص واحد، وقد تنفرد احداهما دون الاخرى، والى القيام بذلك اجتماعا وانفرادا الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق الى قيام الساعة»(8). وبقوله صلى الله عليه وسلم : «لا تقوم الساعة حتى يكون في أمتي اثنا عشر خليفة، ولكل خليفة إمام»(9)، أما هو في نفسه ان جمع له بين الامامة والخلافة واما غيره ان لم يجمع له، وبه يكون كما له، وقد اجتمع الامران في كل من الخلفاء الاربعة الراشدين، وكذلك في أول الأقطاب الذي انفرد له الامر الباطني سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما، ثم هذا الشأن والقيام به لا ينقطع في هذه الامة، بل هو اما ظاهر واما باطن الى قيام الساعة كما في الحديث على ان المراد بالساعة قربها أو ارتفاع القرآن، ولذا جاء موت الخضر والياس حينئذ، وكذا ينخرم أهل الدائرة من الاولياء رضوان الله عليهم، انتهى.فقد ظهر حد كل من الخلافة والامامة وحقيقتهما.

المسالة الثالثة من المقدمة في فضل الإمامة العظمى :

تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» انتهى، وهذا وعيد هائل يجب الحذر منه <كل الحذر>(10) وفي «الجامع» من حديث البيهقي(11) عن أنس : «اذا مررت ببلدة ليس فيها سلطان فلا تدخلها، انما السلطان ظل الله ورمحه في الارض»، وفي كتاب الشكر من «الاحياء» : أعلى الانبياء رتبة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويلي الانبياء العلماء هم الذين ورثتهم، فانهم في أنفسهم صالحون،و قد أصلح الله بهم سائر الخلق كما هدى بالانبياء سائر الخلق، فتمم بهم حكمته، قال : ودرجة كل بقدر ما أصلح

---

(8) بعض حديث رواه مسلم وابو داوود والترمذي
(9) رواه الامام احمد في المسند عن جابر بن سمرة، والامام مسلم عنه كذلك من عدة طرق
(10) ساقط من (م)
(11) هو ابو بكر احمد بن الحسين البيهقي النيسابوري الشافعي الحافظ المتوفى سنة 458 هـ موافق 1065م

من نفسه ومن غيره، ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ثم قال : ويلي السلاطين الصالحون الذين أصلحوا نفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله تعالى بهم الا في أنفسهم ومن سواهم همج(12).

وأعلم ان السلطان به قيام الدين، فلا ينبغي ان يستحقر وان كان ظالما فاسقا، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه : إمام غشوم خير من فتنة تدوم، انتهى. وقال النبي صلى الله عليه وسلم «ستكون عليكم أمراء يفسدون وما يصلح الله بهم أكثر، فان أحسنوا فلهم الاجر، وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر، وعليكم الصبر»(13)، وقال سهل بن عبد الله(14) رحمه الله تعالى : «من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق، ومن دعاه السلطان ولم يجب فهو مبتدع، ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل»، وسئل سيدنا سهل بن عبد الله ايضا :«أي الناس افضل؟ فقال : السلطان، فقيل له : كنا نرى ان شر الناس السلطان، فقال : مهلا، فان لله تعالى في كل يوم نظرتين الى خلقه، نظرة الى سلامة أموالهم ونظرة الى سلامة أبكارهم، فيطلع سبحانه في صحيفة السلطان وهو أعلم فيغفر له كل يوم مرتين، وكان يقول : الخشبات المعلقة على أبوابهم خير من سبعين واعظا، انتهى. وورد قوله عليه السلام : «أطعهم وإن أخذوا مالك وضربوا ظهرك»(15)، وقوله عليه الصلاة والسلام : «اسمع وأطع ولو كان عبدا حبشيا له زبيبة»(16)، وفي « صحيح البخاري » عن الزبير(17) بن عدي قال : «أتينا أنس بن مالك فشكونا له ما يلقى الناس من الحجاج بن يوسف»، فقال : «اصبروا فانه لا يأتي عليكم زمان والذي وبعده شر منه حتى تلقوا ربكم» سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم، انتهى. وورد (السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه الضعيف وينتصر به المظلوم)(18)، انتهى. وقيل :

---

(12) قال بعض الشعراء في تصنيف الناس

الناس هم ثلاثة، فواحد ذو درقة، وواحد ذو كتب، يدرسها وورقة، وواحد ذو ذهب، ينفقه وورقة، وما سواهم همج، لاردك لا مرقة

(13) رواه البيهقي في شعب الايمان

(14) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري بضم التاء الاولى وفتح الثانية من جلة الصوفية توفي سنة 283 هـ موافق 896م

(15) رواه البخاري

(16) رواه البخاري

(17) الزبير بن عدي ابو عدي الكوفي، قاضي الري توفي بالري سنة 131 هـ موافق 748 م

(18) رواه البخاري كما في المنتخب، وفي الجامع الصغير للسيوطي

لولا الخلافة لم تامن لنا سبل

وكان أضعفنا نهبا لأقوانا[19]

المسالة الرابعة في حكم الإمامة شرعا :

وقع الاجماع المعتبر على وجوب نصب الامام، وبيان دليل الاجماع، ان الصحابة رضوان الله عليهم، لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بادروا الى مبايعة ابو بكر رضي الله عنه، وسلموا اليه النظر في أمورهم عموما، وكذا في كل عصر من الاعصار بعد ذلك، ولم يترك الناس هملا في زمن من الأزمان كما قيل :

لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم

ولاسراة إذا جهالهم سادوا[20]

فطريق وجوبها كما رأيت متلقى من الشرع بطريقة السماع عندنا أهل السنة، وذهب المعتزلة الى أن طريق الوجوب العقل[21] بناء على أصلهم الفاسد من التحسين والتقبيح (العقليين) [22] وقد علم إبطال ذلك في كتب المتكلمين والأصوليين، وشذت جماعة أخرى فقالوا بعدم الوجوب رأسا لاعقلا ولا شرعا، وإنما الواجب تنفيذ أحكام الشريعة لاغير، فإذا اتفق الناس وتواطأوا على تنفيذ الأحكام الشرعية لم يحتج الى إمام.

---

(19) القائل هو عبد الله بن المبارك الخرساني توفي سنة 181 هـ موافق 797 م وقبله بيتان وهما :

ان الجماعة حبل الله فاعتصموا   منها بعروته الوثقى لمن دانا

كم يدفع الله بالسلطان مظلمة   في ديننا رحمة منه ودنيانا

(20) البيت للافوه الاودي من لطمة مطلعها

امارة الغي ان تلقى الجميع لدى الابرام للامر والاذناب اكتاد

ومنها   والبيت لا يبتنى الا له عمد   ولا عماد اذا لم ترس اوتاد

ومنها   تهدى الامور باهل الرأي ما صلحت، فان تولت فبالاشرار تنقاد

(21) الذي في كتب المتكلمين ان عامة المعتزلة يقولون بقول اهل السنة في وجوب نصب الامام شرعا والذين قالوا منهم بوجوب نصب الامام عقلا جماعة الجاحظ والخياط والكعبي وابي الحسين البصري كما في شرح المقاصد للسعد وقال العضد في مواقفه ان هؤلاء الثلاثة يقولون بوجوبه سمعا وعقلا.

(22) ساقط من الاصل

تنبيهان : الأول المراد بالوجوب المذكور وجوب الكفاية، فإن قام به البعض سقط عن الغير، وذلك راجع الى اختيار أهل الحل والعقد، فعليهم يتعين نصبه ويتعين على الناس جميعا طاعته، فليس لأحد أن يقول أنا لم أبايعه ولم أحضر بيعته، فإن المعتبر إنما هو مبايعة أهل الحل والعقد ولو انحصروا في شخص واحد، قال الامام المازري(23) : يكفي في بيعة الآمام أن تقع من أهل الحل والعقد، ولايجب الاستيعاب، ولايلزم كل أحد أن يحضر عنده ‹ويضع يده› (24)، بل يكفي التزام طاعته والانقياد له وأن لايشق العصا عليه، وهذا كان حال مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه لم يقع له إلا التأخر عن الحضور عند أبي بكر رضي الله عنه مع كونه ذكر سببا لذلك(25) وهو صادق أمين، انتهى، وقال اليفرني : قد اختلف الناس في أقل ماتنعقد به الإمامة على ثمانية أقوال : أحدها للإمام أبي الحسن الأشعري(26) والقاضي أبي بكر الباقلاني(27) وإمام الحرمين(28) أن الامامة تنعقد لمن يصلح لها برجل واحد من أهل الحل والعقد إذا كان عالما بالكتاب والسنة موصوفا بالعدالة والورع والمعرفة، إذا عقدها من هذا وصفه وجبت الطاعة على الناس والافلا، ثم ذكر بقية الأقوال الثمانية.

التنبيه الثاني : الوجوب المذكور إنما هو على الخلق كما قررنا لاعلى الخالق، فان الله سبحانه لايجب عليه شيء خلافا للمعتزلة أهل الزيغ، فإن قيل : قولكم للإمام خليفة، خليفة عن ماذا ؟ فالجواب انه قد قرر في بيان حد الامامة والخلافة ان صاحب هذا المنصب الشريف خليفة عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم، فإذا دعى الامام إنما يدعي خليفة مطلقا بلا إضافة أو بالاضافة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما

---

(23) المازري نسبة الى مازر بيت بجزيرة صقلية ابو عبد الله محمد بن علي المعروف بالامام الحافظ النظار الذي استطاع لغزارة علمه وتقرب ذهنه ان يحليه التاريخ ببلوغ درجة الاجتهاد ، وبالرغم من ذلك ما خرج عن الفتوى بمذهب مالك له تاليف عديدة، منها املاء على رسائل اخوان الصفاء ورد على احياء الغزالي يعرف بالكشف والانباء توفي سنة 536 هـ موافق 1141 م.

.24) ساقط من (م) ومن (ف)

(25) هو كونه مشغولا بتمريض زوجه فاطمة بنت رسول الله وذلك من أكد الامور

(26) الامام ابو الحسن علي بن اسماعيل البصري الفقيه الشافعي صاحب التصانيف الجمة في نصرة الدين والرد على اهل الزيغ على مشهور الاقوال توفي سنة 324 هـ موافق 935 م.

(27) القاضي ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني من كبار متكلمي الاشاعرة ورؤساء المذهب المالكي، كان صارما في الجدل قوي الحجة، شديد الوطأة على المخالفين، وكانت له سفارة من عضد الدولة الى ملك الروم الامبراطور باسيليوس الثاني توفي سنة 403 هـ موافق 1012 م.

(28) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني مؤلف البرهان والشامل، لقب بامام الحرمين لمكثه بمكة والمدينة اربع سنين توفي سنة 472 هـ موافق 1079 م.

بالاضافة الى الله تعالى فقال العلامة ابن خلدون منع من ذلك الجمهور، وقال آخرون بالجواز بدليل قوله تعالى «إني جاعل في الارض خليفة» وقوله تعالى «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض»(29) وقال الجمهور :-ان المعنى في الآيتين ليس على ذلك، وقد نهى أبو بكر رضي الله عنه من دعاه بذلك وقال له : إنما أنا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، انتهى.

المسالة الخامسة من المقدمة في شروط الإمامة الكبرى وشروط اهل الحل والعقد

أما شروطها فالمتفق عليه عند أهل السنة والجماعة على ماذكره اليفرني(30) وغيره فستة. الأول التكليف لأن الصبي والمعتوه قاصر عن القيام بأمور نفسه، فكيف أمور غيره (31)؟ الثاني الذكورة لأن النساء ناقصات عقل ودين ممنوعات من الخروج الى محل الأحكام، وفي الحديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»(32) الثالث الحرية لأن العبد مشغول بشأن سيده، وأيضا يستحقر في الأعين (33) فلا يهاب ولايمتثل أمره، الرابع العدالة فإن الفاسق لايصلح لأمور الدين ولا يوثق بأمره ونهيه، والظالم تختل به أمور الدين والدنيا، فكيف يصلح للولاية ؟ الخامس القرشية لقوله عليه السلام (الأئمة من قريش) (34) وقوله عليه السلام (الولاية في قريش ما أطاعوا واستقاموا)وقوله عليه السلام (قدموا قريشا ولاتقدموها) وتقع هنا زيادة (وتعلموا منها ولا تعلموها) لكن قال القاضي عياض : ليس

---

(29) الآية 165 من سورة الانعام، ونصها في المصحف (وهو الذي جعلكم خلائف الارض) وقد كتبت في الاصل على خلاف ما في المصحف.

(30) شكل المؤلف راءه بالضم شكل قلم وكتب فوق الشكلة (صح) وفي تاج العروس ما نصه وافرن كاحمد ويفرن كيمنع لبهاة من برابر المغرب

(31) كذا بالاصل وفي ميم (بامور) مجرورا بالباء اما فاء فقبها (فاحرى بامور)

(32) اخرج البخاري والترمذي والنسائي عن ابن ابي بكرة رضي الله عنه انه قال : لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الجمل بعد ما كدت ان الحق باصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : « لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة» وزاد الترمذي فلما قدمت عائشة البصرة ذكرت ذلك فعصمني الله به.

(33) في (م) وفي (ف) (في اعين الناس)

(34) رواه احمد في المسند عن انس أما قوله عليه السلام (قدموا قريشا) الحديث فقد رواه الشافعي والبيهقي في المعرفة عن ابن شهاب بلاغا.

بصحيح لاجماع العلماء على جواز التعلم من غير قريش، ومن الموالي، وتعليم قريش، وقد تعلم الشافعي من الامام مالك وابن عيينة(35) ومحمد بن الحسن(36) انتهى، وهذا الشرط الخامس وقع الخلاف في اعتباره، والمشهور هو ما ذكرناه الا أن نقل الاجماع عليه محل نظر، وأما القولة الشنيعة(37) التي صدرت من القاضي علامة الدنيا المقرى الجد(38) فلا يجوز ذكرها إلا لترد وتنكر، وهي زلة عظيمة {صدرت}(39) من إمام عظيم، قال بعضهم ومن عجب أن صاحب نفح الطيب ذكرها في معرض المدح لجده، والله غفور رحيم، وأما ما ذكره العلامة بن خلدون(40) من إرجاع هذا الشرط الى شرط الكفاية وبالغ في تقريره فانه بناه على قاعدة التزمها في الامامة الكبرى، وهي كونها لاتقوم الا بالعصبية، والقاعدة صحيحة ورجوع شرط القرشية الى ذلك وبناؤه عليه غير ظاهر، وغاية ما حصل في هذا هو أن الحكمة في اشتراط هذا النسب ليس لمجرد التبرك به لكونه من قبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل لان قريشا كانت لهم العصبية المسلمة عند جميع الناس في أول الأمر حين وقع الاشتراط، ثم زالت تلك العصبية من قريش وفسدت وانتقلت الى غيرهم الى العرب أو البربر أو الترك مثلا، فلم يبق في اشتراط هذا النسب حكمة لان الحكمة هي العصبية التي

---

(35) الامام ذو العقل الرسين ابو محمد بن عيينة اجمعت الامة على الاحتجاج به ولا عبرة بما قال يحيى بن سعيد القطان من انه اختلط سنة 197 هـ نقله ابن الصلاح في المقدمة ص 159 ورده الذهبي في الميزان ج 1 ص 397 ونسب القطان الى التعنت في الرجال توفي سنة 198 هـ موافق 813 م ونسبته القطان الى التعنت ذلك مما لم يسلم منه الذهبي نفسه رحمه الله.

(36) ابو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني امام جليل عليه اخذ مذهب ابي حنيفة اذ لم يكن بين ايدي رجال المذهب الا كتبه وهو من اشياخ الشافعي ويحفظ لهما التاريخ مقابلات جميلة ومجالس حميدة توفي سنة 189 هـ موافق 804 م.

(37) مقالة المقري الشنيعة. قال في نفح الطيب، ومن اخبار مولاي الجد الدالة على صرامته مع ما حكاه ابن الازرق عنه، انه كان يحضر مجلس السلطان ابي عنان ليث العلم، وكان نقيب الشرفاء بفاس اذ جاء مجلس السلطان يقوم له السلطة وجميع من في المجلس اجلالا له الا الشيخ المقري فانه كان لا يقوم في جملتهم فاحس النقيب من ذلك، وشكى الى السلطان فقال له السلطان، هذا رجل وارد علينا نتركه على حاله الى ان ينصرف فدخل النقيب في بعض الايام على عادته، فقام له السلطان على العادة واهل المجلس فنظر الى المقري وقال له ايها الفقيه ما لك لا تقوم كما يفعل السلطان نصره الله واهل مجلسه اكراما لجدي ولشرفي ومن انت حتى لا تقوم لي. فنظر اليه المقري وقال له : اما شرفي فمحقق بالعلم، واما شرفك فمظنون، ومن لنا بصحته منذ أزيد من سبعمائة، ولو علمنا شرفك قطعا لاقمنا هذا من هذا واشارك الى السلطان ابي عنان، واجلسناك مجلسه فسكت نفح ج 5 ص 281 تحقيق احسان عباس.

(38) هو الامام أبو عبد الله قاضي الجماعة بفاس الف في ترجمته ابن مرزوق كتابا سماه النور البدري في التعريف بالفقيه المقري توفي سنة 759 هـ 1357 م.

(39) زيادة من (م)

(40) ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون الشخصية الفذة في الميدان السياسي حسبما ما يرشد اليه التاريخ المغربي والافريقي والشرقي وت‍وفي سنة 808 هـ 1405م.

{وقعت حينئذ} (41) بها الكفاية، فالمشترط حينئذ إنما هو الكفاية، هذا حاصل كلام ابن خلدون، فيقال له هذا إنما يستقيم لو كانت أحكام الشرع كلها لابد من إدراك حكمتها، وليس كذلك، اذ منها ما تدرك له حكمة، ومنها ما هو تعبد، فيكون هذا من التعبد، فالشارع صلى الله عليه وسلم اشترط هذا النسب الشريف بدليل الأحاديث المتقدمة، ولم ندر ما الحكمة في ذلك، فبطل بهذا جميع ما هول به رحمه الله، السادس السلامة في الحواس وقوة الادراك والنطق، إذ مع فقد شيء منها لا يمكن له القيام بشيء من أمور الامامة، فهذه الشروط متفق عليها، وأما اشتراط الوحدة وعدم التعدد فبإن الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم، (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الثاني منهما(42) يدل على اشتراطها، قال الأبي : وكان الشيخ يعني ابن عرفة يقول إن هذا الشرط إنما هو بحسب الامكان، فإذا تباعدت الأقطار جاز التعدد انتهى، وهذا هو الذي جرى به عمل الناس الى الآن، فإن قيل : هل لابد ان يكون الخليفة مستجمعا لهذه الشروط أو يكفي كونه جامعا لأكثرها ؟ فالجواب كما قاله السعد في شرح **العقائد** النسفية {الأفضلية}(43) أنه لايشترط في الامام أن يكون أفضل أهل زمانه لأن المساوي في الأفضلية بل المفضول ربما كان أقدر على القيام بواجبها وأعرف بمصالحها ومفاسدها خصوصا اذا كان نصب المفضول أقرب لدفع الشر وأبعد من إثارة الفتنة، انتهى، قال الشيخ أبو محمد سيدي عبد القادر الفاسي : ويدل على جواز تقديم المفضول يعني مع وجود الفاضل ما في صحيح البخاري أن أبا بكر لما قال : الأمراء في قريش مخاطبا الانصار، قال : وأنا أرضى لكم أحد هذين الرجلين يعني عمر وأبا عبيدة بناء على أنه يجوز تقديم المفضول لأنه لايجهل أفضلية عمر، وحينئذ قالوا له : بل أنت سيدنا، ابسط يدك فبايعوه انتهى، هذا كله إذا كان نصب الامام مفوضا الى أهل الحل والعقد، وأما إذا كان بالتغلب والقهر فيجب الادعان والطاعة على كل حال ارتكابا لأخف الضررين كما هو القاعدة الاصولية، وقيل انه ورد حديثا (اذا اجتمع ضرران ارتكب أخفهما)(44)

---

(41) زيادة من (م)
(42) روح احمد ومسلم
(43) ساقط من الاصل
(44) تخريج الحسين

والأخف هنا هو الصبر على الظلم والحيف والاثقل هو الفتنة العامة الحالقة التي تنشأ عن الاستبدال ونزع اليد من الطاعة(45).

وأما شروط أهل الحل والعقد فثلاثة، قاله السيد الشريف(46) **في شرح البرهانية** : أحدها العدالة الجامعة لشروطها، الثاني العلم الذي يتوصل به الى معرفة من يستحق الامامة على الشروط المعتبرة عند أهل السنة وهي التي ذكرت آنفا، والثالث الرأي المؤدي الى اختيار من هو للإمامة أسلم. وأما استخلاف الامام إما لشخص معين كما فعل الصديق للفاروق رضي الله عنهما، وإما بجعل الأمر شورى بين المعينين بحيث يتفقون على واحد كما فعل سيدنا عمر فيجوز ذلك ولا إشكال. قال سعد الدين التفتزاني : الدليل على جوازه إجماع الصحابة على فعل أبي بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين.

فـــــائـــــدة

ذكر في نفح الطيب أن جده العلامة القاضي أبا عبد الله المقري سئل: ما السبب في سوء بخث المسلمين في ملوكهم ؟ إذ لم يل أمرهم في الغالب من يسلك بهم الجادة ويحملهم على الواضحة. فأجاب عن ذلك بأن ذلك(47) لأن هذه الملة الطاهرة إنما جعل الله لها الخلافة، وجعل لبني إسرائيل الملك، قال مولانا جل وعلى : "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض" وقال تعالى : "إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا" وقال سيدنا سليمان عليه السلام : «وهبَ لي ملكا لاينبغي لأحدا من بعدي» فجعلهم ملوكا ولم يجعل في شريعتنا الا الخلفاء، فكان الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعمر خليفة أبي بكر، وعثمان اتفق عليه [أهل] (48) الشورى، ومولانا علي بايعه من آثر الحق عن الهوى ‹والآخرة عن الدنيا›(49) ومولانا الحسن كذلك، فكملت ثلاثون

---

(45) كذا بالاصل اما (م) و (ف) ففيهما ونزع اليدين بدون قوله امن الطاعة.

(46) ابو الحسن علي بن محمد بن علي الحسني الحنفي ت سنة 816، 1413م وقال العيني ت 824 هـ 1421م ... والاول أصح كما افاده الشيخ محمد بن جعفر في رسالته.

(47) في (م) و (ف) فأجاب عن ذلك بان هذه

(48) زيادة من (م)

(49) ساقط من (م) ومن (ف)

سنة التي عين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مدة الخلافة، ثم تحولت الخلافة الى ملك، واللين الى الخشونة، ‹ثم إن ربك من بعدها لغفور رحيم› وسيدنا معاوية رضي الله عنه جعلها ميراثا. فلما خرجت عن موضعها لم يستقم ملك في الغالب، الا ترى أن سيدنا عمر بن عبد العزيز كان خليفة لاملكا لأن سليمان بن عبد الملك رحمه الله رغب عن إخوانه(50) من أبيه فعهد له إيثارا لحق المسلمين فلم يسلك طريق الاستقامة الا خليفة انتهى.

وأما عزل الناس للامام أو عزله هو لنفسه أما الأول فإنه لايجوز عزله بلا سبب، والسبب المتفق عليه هو ما يزول به مقصود الامامة، قال في شرح **المقاصد** مثل الردة، والجنون المطبق، وصيرورته أسيرا بحيث لايرجى خلاصه، وكذا بالمرض الذي ينسيه العلوم، وبالعمى والصمم والخرس انتهى، وأما الثاني وهو عزله نفسه بأن (51) كان لسبب كعجزه عن القيام بمصالح المسلمين فجائز، قال السعد : وإن لم يكن ظاهرا وإنما استشعره من نفسه، وعليه يحمل عزل(52) مولانا الحسن السبط لنفسه رضي الله عنه انتهى، وأما خلعه لنفسه بلا سبب ففيه خلاف، وفي **المواقف** وشرحه مثل ذلك، قال وإن أدى خلعه الى الفتنة احتمل أدنى الضررين، وأما عزله بالفسق فقال الامام البكي(53) الذي عليه الجمهور انه لاينعزل بالفسق لأن ذلك قد تنشأ عنه فتنة هي أعظم من فسقه، وفي شرح **العقائد** : المسطور في كتب الشافعية أن القاضي ينعزل بالفسق بخلاف الامام، وأما الدعاء

---

(50) في (م) و (ت) لومه بدل اخوانه

(51) (بأن) كذا بالاصل.

(52) والاصل (خلع)

(53) الصواب السبكي

للسلطان الجائر(54) بالنصر والتأييد والاصلاح فيجوز بل يندب فيما ظهر ولايعارضه من دعا لظالم بالبقاء فقد أراد أن يعصي الله تعالى أو كما قال. ابن المنير(55) : على حديث "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر"(56) مانصه : والسلطان الفاجر اذا حمى حوزة الاسلام لا يخرج عليه ولا يخلع، لان الله قد أيد به دينه، فيجب الصبر عليه والسمع والطاعة في غير المعصية، ومن هذا الوجه استباح العلماء الدعاء للسلطان بالنصر والتأييد وغير ذلك من الخير، وقد ورد عن بعض الصالحين : من كانت له دعوة صالحة فليجعلها في السلطان انتهى، وأما القتال مع السلطان الجائر(57) والمدافعة عنه أما قتاله للكفار فواجب على المسلمين القتال معه كيفما كان عادلا أو جائرا، وأما قتاله لمن خرج عليه من الخوارج الذين يريدون سلب ملكه فإن كان عادلا فيجب على المسلمين نصره والقتال معه، وإن كان غير عادل فليقعد الانسان في منزله، فإذا أراد الخوارج أخذ ماله أو هتك عرضه فليقاتلهم بعد أن ينشدهم الله تعالى، هذا حاصل ما ذكره ابن عرفة عن ابن يونس(58) وصوبه القاضي أبو الحسن(59).

---

54) بهامش الاصل" الصواب الدعاء للسلطان الجائر، ولقد طرق هذا الموضوع كثير من العلماء، لوروده في السنة روى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي عبيدة، لاتسبوا السلطان فإنه فيئ الله في الارض، وروى الطبراني في الكبير عن أبي إمامة (لاتسبوا الأئمة وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم صلاح لكم) وذكر المسيري في فهرسته، في أثناء كلام في موضوع الحديثين الشريفين فقال : قال بعض الصالحين : لو كان لي دعوة مستجابة لجعلتها في السلطان، وانشد قول الشيخ اليلوي في هذا المعنى :

وأخلص في الدعاء للخلق طرا ... وخص به القضاة مع الولاة
فإن صلحوا فيصلح من سواهم ... وما المرعى إلا بالرعاة

وكان ينشد :

الله يدفع بالسلطان معضلة ... عن ديننا منة منه ودنيانا
لولا الخلائف لم تأمن لنا سبل ... وكان اضعفنا نهبا لاقوانا

قال بعضهم : سألت أبا العلاء أسب الحجاج، قال ادع الله له بالصلاح فإن صلاحه خير لكم من فساده اهـ في كلام مسهب، وذكر نفس الموضوع الأفراني في نزهة الحادي بعد ذكر قصة ابن محلي الثائر وزيدان وابن عبد المنعم النزهة ص 193، وطرق الموضوع الشيخ محمد ابن عبد السلام الناصري في كتابه المزايا في ما أحدث من البدع بام الزوايا، نرى ذكر بدعة الدعاء للأمراء في الخطبة عيدا أو جمعة وأسهب في الموضوع بذكرها للعلماء فيه وأجاب عن الشيخ الناصري رضي الله عنه بما فيه كفاية.

(55) ابو العباس نصر الدين احمد بن محمد بن المنير الاسكندراني حافظ ت سنة 683هـ الموافق 1284م.

(56) في الجامع الصغير "رواه الطبراني" وقال فيه انه ضعيف وعلق عليه المناوي قال وظاهر صنيع المؤلف "ان هذا الحديث لا يوجد مخرجا في الصحيحين ولا أحدهما وهذا ذهول شنيع وسهو عجيب فقد قال الحافظ العراقي متفق عليه من حديث ابي هريرة رواه البخاري ومسلم.

(57) القتال مع السلطان الجائر مطلوب شرعا حسبما يأتي في السابقة.

(58) ابو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي الصقلي ت، بمدينة مازرة سنة 447هـ 1055م وفي الديباج ت 451هـ 1059م، وكذلك في الشجرة وفيها توفي بالمنستير.

(59) في كتاب تراجم المؤلفين التونسيين هو محمد بن العربي الحصاندي التونسي كان اماما في النحو وهو من شيوخ ابن خلدون، كان حيا سنة 750هـ 1350م من هنا قال في الشجرة لم اقف على وفاته.

تنبيه المراد بالعدل هنا العدل النسبي، قال عزالدين بن عبد السلام(60) : فسق الآئمة قد يتفاوت ككون فسق أحدهم بالقتل وفسق الآخر بانتهاك الأبضاع، وفسق الآخر بالتعرض للأموال فيقاتل مع الظالم بأخذ الاموال الظالم بالأبضاع والظالم بالقتل، ثم قال ابن عبد السلام : فإن قيل : كيف يجوز القتال مع أحد هؤلاء، لإقامة ولايته وإدامة تصرفه وهو معصية ؟ فالجواب أنه وإن كان فيه إعانة على المعصية فهو جائز لدفع ما هو أشد من تلك المعصية انتهى.

وقد بسطت القول في هذه المسألة لأنها من أهم المسائل، وكانت متفرقة في الدواوين غير مرتبة، فأردت جمع شملها لتوخذ من محل واحد بلا كلفة في التنقير عنها في محال متفرقة مع أني تركت أشياء منها مما لاتدعو الضرورة إليه، وهذا المحل أولى بها من ذكرها في كتب المتكلمين، ولم أر أحدا من المؤلفين(61) في أخبار الخلائق ذكرها حتى العلامة المحقق ابن خلدون مع كونه يبالغ في جمع النسيب الى نسيبه،والكمال لله سبحانه.

المسألة السادسة من المقدمة في الفرق بين الخليفة والإمام والسلطان

قد ظهر في ما تقدم في المسألة الثانية الفرق بينهما، وقد ظهر أن الخليفة قد يكون إماماً أيضا إذا جمع له بين الظاهر والباطن، فبينهما عموم وخصوص من وجه، وأما الفرق بينهما وبين الملك والسلطان <فيظهر ذلك ببيان حقيقتي الملك والسلطان>(62) وقال الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في كتاب **حسن المحاضرة** ما نصه : قال ابن فضل الله(63) في كتابه المسالك : ذكر لي علي بن سعيد(64) أن الاصطلاح تقرر أن السلطان لا يطلق الا على من يملك مثل مصر أو الشام أو إفريقية، أو الأندلس،

---

(60) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي البالغ مرتبة الاجتهاد (ت) 660هـ 1262م.

(61) في (م) و (ف) المتكلمين.

(62) ما بين المعقوفين ساقط من (م) و (ف).

(63) ابن فضل الله شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى الكرماني المصري الشافعي ت سنة 749، 1348م.

(64) علي بن سعيد مفيد ابن فضل الله. يظهر أنه المترجم في "البداية والنهاية" جزء 14 في وفيات 721. ابن سعيد بن سالم الأنصاري إمام مشهد علي من جامع دمشق توفي سنة 721هـ / 1321م. والمترجم للحافظ في الدرر الكامنة جزء 3.ص 44.

ويكون عسكره عشرة آلاف ‹فارس› (65) فأكثر، فإن زاد بلادا أو عددا في الجيش جاز أن يطلق عليه السلطان الأعظم، فإن خطب له في مثل مصر أو الشام أو الجزيرة ومثل خراسان أو العراق أو فارس أو مثل إفريقية والمغرب الأوسط أو الأندلس كان سمته سلطان السلاطين، والملك أعم من هذا، يطلق على كل من ملك بلدا أو قطرا كيفما كان، فبينهما عموم وخصوص مطلقا، فكل سلطان ملك ولا عكس انتهى، بمعناه مع بسط وبيان.

فـــائـدة

ذكر ابن خلكان(66) في الوفيات أن صلاح الدين يوسف بن أيوب(67) أمير مصر والشام كتب الى أمير المغرب أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي يستنجده على الفرنج الواصلين من المغرب الى الديار المصرية وساحل الشام ولم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين فعز ذلك عليه ولم يجبه الى ما طلب انتهى، وهذا يدل على الفرق بين اللفظين، وكأن المنصور استشعر الفرق من قوله تعالى (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) والله أعلم وأحكم.

وهنا قد انتهى الكلام على ما أردنا ذكره في المقدمة، والحمد لله على مايسره مما شأنه لولا فضل الله ومعونته أن يتعسر.

لعل الذي فوق السماوات عرشه
يسنى لنا من قصدنا ما رجوناه
ويختم بالاحسان من قد بدابه
فما يرتجي لمبلغ القصد إلاه

---

(65) في (ف) ساقط.

(66) ابن خلكان احمد بن محمد بن ابي بكر اشهر من نار على علم توفي سنة 681هـ =1282م، قال في روضات الجنات، ولد قيل في وجه تسمية جده خلكان بأنه افتخر يوما في مجلس كان له علم بمحضر قرنائه يفاخر آبائه الذين هم آل البرامكة الوزراء فقيل خل كان بمعنى دع كان ابي كذا وجدي كذا، ونسبي كذا، وحدثنا عما يكون في نفسك الان كما يقول في ذلك الشاعر.

ليس الفتى من يقول كان ابي　　　　ان الفتى من يقول ها أنا ذا

روضات ج 1 ص 320.

(67) صلاح الدين ابن أيوب بن شاذي ابو المظفر، الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الاسلام، وقد تكفل الحافظ ابو شامة المقدسي الدمشقي المتوفى سنة 645هـ 1266م بترجمته الواسعة، ولايسعنا الآن الا ان نشير الى مصادر الترجمة نقلا عن قاموس الاعلام، وفيات الاعيان ج 2 ص 376، تاريخ الخميس ج 2، ص 387، وابن أياس ج 1 ص 69، ابن خلدون ج 4 ص 79 (و) ج 5 ص 250-330، ابن الأثير ج 12 ص 37، ومصادر أخرى تراجع في أعلام الزركلي المجلد 68 في ترجمته.

الجناح الايمن من الجيش العرمرم في دول المشرق

ويشتمل على خمسة(1) ألوية كبار، وتحت كل لواء رايات متعددة صغار، المراد باللواء الدولة، والمراد بالرايات الملوك الذين لهم الصولة.

اعلم أننا إنما نذكر في هذا الكتاب الخلائف الأعاظم لا مطلق الأمراء والخوارج، واعلم أن قصدنا انما توجه الى لواء خاص ودولة خاصة، وهي الدولة الشريفة الحسنية السجلماسية أدام الله فخرها، ‹ورفع›(2) ما ارتفعت السماء قدرها، وهي التي أكرمنا الله بالاكتناف تحت ظلالها، والاحتماء بجمالها وجلالها، وهي التي نستفرغ الطاقة في بيان أحوالها وذكر جملة {من}(3) مفاخرها ومحاسنها وأخبار أوائلها وأواخرها، وغيرها فانما أذكره استطرادا وتتميما للفائدة ليكون الكتاب مجموع النظائر في الجملة، وأقتصر في غير الدولة الشريفة على تاريخ الأمراء ووفياتهم لا غير الا ما فيه نكتة عجيبة، او فائدة غريبة.

وقد جعلت هذه الألوية والرايات ملونة ‹بألوان›(4) مختلفة بمراعاة نسبة بين حالات أهل ذلك الملون ولونه، فالبياض يوصف به الخالص الكامل في أحواله الصالحة في الدين والدنيا، والأسود(5) يوصف به الثابت في سيادته وعزته، والاحمر يوصف به القوي الشهير مع خوف الافتتان به، والاصفر يوصف به الفرح القصيف مع اللهو المفرط، والاخضر يوصف به المعتدل الذي غلب عليه الخير والصلاح، والازرق عكس الاخضر، والممتزج بحسب مزاجه، والأغبر يوصف به المجهول(6) الحال، والله أعلم وأحكم.

اللواء الأول الأبيض الأكبر

والذي جمع الألوية والرايات تحت ظله، وانما ترفع وتنشر لاجله، وهو لواء الحمد لسيد الوجود صلى الله عليه وسلم سيدنا ومولانا محمد بن عبد

---

(1) في (م) وفي (ف) اربعة بدل خمسة

(2) ساقط من (ف)

(3) ساقط من الاصل ومن (ف)

(4) ساقط من (ف)

(5) كذا بالاصل بصيغة الوصف وفي (م) و (ف) والسواد والحمرة والصفرة والخضرة والزرقة والامتزاج والغبرة، بصيغة المصدر.

(6) في (م) و (ف) مجهول، منكرا

الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، الى هنا يرفع هذا النسب الطاهر، ونهي عن الزيادة فوقه، ورايات هذا اللواء خمسة، وإن ‹شئت›(7) قلت ستة، خمسة كلها خضر، والسادسة حمراء.

ولد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطالع الجامع لسعادات(8) الدارين كلها عام الفيل ‹قبل مجيئه›(9) بخمس وخمسين ليلة في القول. الراجح، وبعثه الله بشيرا ونذيرا، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا، ورحمة للعالمين على رأس أربعين سنة من عمره عليه السلام، وهاجر الى طيبة ‹بعد›(10) 13 سنة من مبعثه، وتوفاه الله تعالى على رأس(11) 63 من عمره صلى الله عليه وسلم، ولم يستخلف صلى الله عليه وسلم لسر يلوح من حديث أخرجه البزار(12) في مسنده قال : نا عبد الله بن وضاح(13) الكوفي نا يحيى بن اليمان(14) نا إسرائيل(15) عن أبي اليقظان(16) عن أبي وائل(17) عن حذيفة(18) قال : قالوا يا رسول الله ألا تستخلف علينا ؟ قال (إن استخلفت عليكم فتعصون خليفتي فينزل بكم العذاب) انتهى، فلذلك لم يستخلف عليه السلام صريحا، وإنما أخذ

---

(7) ساقط من (ف)

(8) في (م) و (ف) سعادة بالافراد

(9) ساقط من (م) و (ف)

(10) ساقط من (م) و (ف)

(11) في (ف) (عام 63) بدل (على رأس)

(12) ابو بكر احمد بن عمر بن عبد الملك البزار البصري الحافظ الشهير صاحب المسند الكبير البحر الزاخر توفي سنة 292 هـ 904 م.

(13) عبد الله بن الوضاح ابو محمد الكوفي اللؤلئي من كبار الطبقة الحادية عشرة مقبول خرج له البخاري، وابن ماجة توفي سنة 189 هـ-804 م.

(14) يحيى ابن اليمان العجلي ابو زكرياء صدوق عابد من كبار الطبقة التاسعة، خرج له البخاري في الادب المفرد ومسلم والاربعة توفي سنة 189 هـ-804 م.

(15) اسرائيل بن يونس السبيعي الهمداني، ابو يوسف الكوفي، ثقة من الطبقة السابعة خرج له الجماعة توفي سنة 160 هـ-776 م.

(16) أبو اليقظان عثمان بن عمير الكوفي الاعمى ضعيف، اختلط وكان يدلس ويغلو في التشيع، من الطبقة السادسة توفي سنة 150 هـ-767 م.

(17) ابو وائل شقيق بن سلمة الاسدي، اسد خزيمة التابعي المخضرم، كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم روى عن الخلفاء الاربعة، وعن الكثير من الصحابة قال الحافظ توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز وله مائة سنة، وفي تهذيب الاسماء انه توفي سنة 99 هـ-717 م. خرج له الجماعة.

(18) حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل، واليمان لقب ابيه واسمه حسل بكسر الحاء أو حسيل بالتصغير، ومن ميزاته بين الصحابة انه انفرد بالسؤال عن الشر والفتنة خوف ان يقع في ذلك، توفي بالمدائن سنة 36 هـ-656 م.

الصحابة رضوان الله عليهم خلافة أبي بكر بالقرائن القوية فأجمعوا على تقديمه عليهم.

راية أبي بكر رضي الله عنه[19]

وهو أبو بكر، وتقدم أن اسمه عبد الله علي الصحيح ابن أبي قحافة، واسمه عثمان بن عامر بن عمرو[20] بن كعب بن سعيد بن تيم[21] بن مرة ابن كعب بن لؤي التيمي القرشي خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب، وهو صاحب الراية الخضراء الأولى من هذا اللواء الأكبر الأبيض، وقد ظهرت حكمة الله سبحانه في ترتيب <خلافة>[22] الخلفاء الراشدين {في ترتيب وفاتهم}[23] فان وفاة أبي بكر قبل وفاة عمر، ووفاة عمر قبل وفاة عثمان، ووفاة عثمن قبل وفاة علي، فسبحان الحكيم العليم، ثم لما توفي الصديق رضي الله عنه سنة 13 ولي عمر بعهد أبي بكر له واتفاق الامة عليه.

راية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه[24]

وهو صاحب الراية الخضراء الثانية من اللواء الابيض {وهو ثاني الخلفاء الراشدين}[25] وهو ابو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح[26] بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي <العدوي القرشي>[27] يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كعب بن لؤى، ولد بعد الفيل بهذا 13 سنة، وأسلم في السنة السادسة من المبعث، وهو صاحب السفارة في الجاهلية، كانت قريش توجهه سفيرا في الامور المهمة التي تكون بينهم وبين القبائل، وهو الذي أعز الله به الاسلام بدعوة رسول

---

(19) ساقط من (م) و (ف)
(20) في (م) عمر بدل عمرو
(21) في (م) تميم بدل تيم وهو خطأ
(22) ساقط من (م)
(23) ساقط من الاصل ومن (ف) فأضفناه من (م)
(24) ساقط من (م) ومن (ف)
(25) ساقط من الاصل فاضفناه من غيره
(26) كذا هو بالياء في الاصل، ومثله في الفاسية وفي (م) رباح بالباء، وهو الصواب.
(27) ساقط من (م) و من (ف)

الله صلى الله عليه وسلم، ولما استشهد سنة 23 جعل الخلافة شورى بين النفر الستة، فوقع الاتفاق على سيدنا عثمان رضي الله عنه.

راية سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه[28]

وهو ثالث الخلفاء الراشدين صاحب الراية الخضراء الثالثة من اللواء الابيض، وهو ذو النورين ابو عمرو سيدنا عثمان بن عفان بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي، يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد مناف، ولد في السنة السادسة من الفيل، أسلم قديما لما دعاه أبو بكر الصديق، وهاجر الهجرتين، أخرج ابن عساكر عن حذيفة قال : أول الفتن قتل عثمان، وآخرها خروج الدجال، والذي نفسي بيده لا يموت رجل وفي قلبه مثقال حبة من ‹حب›[29] قتل عثمان الا تبع الدجال إن أدركه، وإن لم يدركه آمن به في قبره انتهى، قتل رضي الله عنه ظلما شهيدا سنة خمس وثلاثين، وكان الذين جاءوا لقتله اربعة آلاف، وفي المدينة نحو أربعين ألفا كلهم ما أرادوا قتله، بل جادون في نصره فمنعهم رضي الله عنه، وقال : ان النبي صلى الله عليه وسلم عهد الي بهاذا فلا أكون أول من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته، فلا يقتل أحد لحياتي وانا صابر مستسلم، ففدى الامة بنفسه رضي الله عنه، وكان ذلك بأسباب سماوية، ومقادير أزلية، ومواعد من الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم، فلا مجال للأفكار والأوهام هنا، فلما قتل عثمان بايع أهل الحل والعقد سيدنا عليا رضي الله عنه قبل بيعة غيره، فوجبت طاعته لصحة بيعته وتقدمها، بايعه جميع من بالمدينة من الصحابة وغيرهم يوم قتل عثمان، ثم كان ما جرت به الأقدار من مراد الحق تعالى.

---

(28) ساقط من (م) و من (ف)
(29) ساقط من (ف)

رابة مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه(30)

وهو صاحب الراية الخضراء الرابعة من هذا اللواء الابيض، فهو أبو الحسن علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، واسم عبد المطلب شيبة، واسم هاشم عمرو، واسم عبد مناف المغيرة، واسم قصي زيد، وعلي أيضا كان اسمه حيدرة بدليل قوله كما في الصحيح :

انا الذي سمتني امي حيدرة

اضرب بالسيف رقاب الكفرة

فهو إذن حيدرة بن عبد مناف بن شيبة بن عمرو بن المغيرة بن زيد بن كلاب بن مرة الى آخره أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمواخاة، وصهره على خير نساء الجنة فاطمة البتول، أبو السبطين، أحد السابقين الى الاسلام، وأحد العلماء الراسخين، وأحد الأبطال المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، وأحد من حفظ القرآن وعرضه على رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأحد المبشرين بالجنة، وهو أول خليفة من بني هاشم رضي الله عنه، واستشهد رضي الله عنه سنة اربعين ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان، قال الجلال السيوطي : قال ابو بكر بن عياش(31) عمي قبر علي لئلا ينبشه الخوارج، وقال شريك(32) نقله الحسن ابنه الى المدينة، وقال المبرد(33) عن محمد بن حبيب(34) أول من حول من قبر الى قبر علي رضي الله عنه، وأخرج ابن عساكر(35) عن سعيد(36) بن عبد العزيز

---

(30) ساقط من (ف)

(31) اختلف في اسمه على عشرة أقوال، وقال الحافظ، والاصح ان كنيته اسمه، صدوق ثبت في القراءة، لكنه يغلط في الحديث، من الطبقة السابعة، ولما حضرته الوفاة بكت اخته فقال، ما يبكيك، انظري الى تلك الزاوية ختمت فيها ثماني عشرة الف ختمة، توفي سنة 193 هـ-808 م.

(32) شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي بواسط، ثم الكوفة صدوق يخطئ كثيرا، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، كان شديدا على اهل البدع من الطبقة الثامنة خرج له البخاري في التاريخ ومسلم والاربعة توفي سنة 177 هـ-793 م.

(33) ابو العباس محمد بن يزيد الازدي البصري امام اهل العربية ببغداد، وصاحب الكامل توفي سنة 285 هـ-898 م.

(34) ابو جعفر محمد بن حبيب البغدادي، النسابة الاخباري اللغوي الشاعر، استقل في مؤلفاته بموضوعات جامعة مفيدة لم يسبق اليها، منها مختلف القبائل ومؤتلفها، ومنها المحبر توفي سنة 245 هـ-859 م.

(35) ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الحافظ قال فيه النووي هو حافظ الشام بل حافظ الدنيا، ويسميه البغداديون شعلة نار لتوقد ذكائه له التاريخ الكبير المشتمل على 80 جزءا من طالعه عرف الى اي مرتبة وصل هذا الامام، وهو في خزانة جامعة ابن يوسف بمراكش مخطوطة في 31 جزءا ينقصها الاول والحادي عشر والثاني والعشرون من تحبيس المولى عبد الله بن المولى اسماعيل العلوي على جامع ابي العباس السبتي بتاريخ 25 جمادى الاولى عام 1158 م، توفي ابن عساكر سنة 571 هـ-1175 م

(36) سعيد بن عبد العزيز ابو محمد التنوخي الدمشقي فقيه دمشق في عصره، كان كما قال الامام احمد، ليس بالشام أصح حديثا منه، توفي سنة 167 هـ-783 م.

قال : لما قتل علي حملوه على بعير ليدفنوه بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هم في مسيرهم ليلا إذ ند الجمل الذي هو عليه فلم يدر أين ذهب، ولم يقدر عليه، فلذلك قال أهل العراق : هو في السحابة وكان له من العمر حين(37) قتل 63 في أقرب الاقوال.

راية مولانا الحسن السبط رضي الله عنه(38)

وثم ولي سيدنا الحسن رضي الله عنه بعد قتل أبيه، بايعه أهل الحل والعقد من اهل الكوفة، فاقام فيها ستة أشهر واياما، فهو صاحب الراية الخضراء من اللواء الابيض، وهي الراية الخامسة، ثم كان من أمر الله تعالى ما هو مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن ابني هذا سيد، ولعل الله {أن}(39) يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)(40) فصالحه سيدنا معاوية على الشروط المعلومة في السير، وبه تمت مدة الخلافة التي أخبر بها سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، وهي ثلاثون سنة بلا زيادة ولا نقصان، وذلك من اعلام النبوءة، ثم ولي معاوية بن ابي سفيان، وهو {من}(41) اللواء الثاني، ورايته حمراء مشوبة بخضرة كما يأتي بحول الله.

وبقي من هذا اللواء الابيض راية سادسة حمراء مشوبة بخضرة، وهي راية عبد الله بن الزبير، فهو بين اللوائين(42) الابيض والاحمر، وهو الى الابيض أقرب {فهو ممتزج}(43) ومرتبته في الخارج إنما هي بعد معاوية وابنه يزيد وابن ابنه معاوية بن يزيد كما ترجمه المؤلفون والاخباريون، ولكن لما جعلنا رايته سادسة رايات اللواء الاكبر وجب أن نذكره هنا قبل اللواء الثاني الاحمر.

---

(37) كذا بالاصل، وفي غيره

(38) ساقط من (م) ومن (ف)

(39) ساقط من الاصل فأضفناه من غيره

(40) رواه البخاري في صحيحه

(41) ساقط من (ف)

(42) في (م) و (ف) اللواء بالافراد

(43) ساقط من الاصل فأضفناه من غيره

الراية السادسة الحمراء المشوبة بخضرة وهي راية عبد الله بن الزبير(44)

فهو أبو حبيب، وقيل أبو بكر عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي الاسدي، صحابي ابن صحابي، مشهور مذكور، أمه أسماء بنت ابي بكر الصديق ذات النطاقين، وابوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة بالمدينة [لما ولد](45) فرح المسلمون بولادته فرحا شديدا لانه قيل إن اليهود سحرتهم أن لا يولد لهم، فحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة، وسماه عبد الله، ولما مات يزيد بن معاوية بويع له في أخبار طويلة هائلة، بايعه أهل الحجاز، وأطاعه أهل اليمن والعراق وخراسان، ولم يبق خارجا عنه إلا أهل مصر، والشام، بويع فيه معاوية بن يزيد [ويقال له معاوية الصالح](46) ولم تطل مدته، فاجتمع الامر لابن الزبير، ثم خرج مروان بن الحكم في الشام ومصر، واستمر الى أن مات مروان سنة 65 وقد بايع لولده عبد الملك، ثم آل أمر ابن الزبير الى أن قتله الحجاج بن يوسف أيام عبد الملك سنة 75 ولله عاقبة الامور.

(44) ساقط من (م) ومن (ف)
(45) ساقط من الاصل فأضفناه من غيره
(46) ساقط من الاصل فأضفناه رواية عن غيره.

اللواء الثاني : لواء بني أمية

وهو أحمر، وتحته رايات بعدة ملوكهم، ‹ملونة›(1) بألوان أحوالهم، هذه الدولة ورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم أنذر بها، من ذلك ما أخرجه الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء قال : قال الترمذي : نا محمد بن غيلان(2)، نا أبو داود الطيالسي (3) نا القاسم بن الفضل الحراني(4) عن يوسف ابن سعيد(5)، قال : (قام رجل الى الحسن بن علي رضي الله عنهما بعدما بايع معاوية فقال : سودت وجوه المؤمنين، فقال : لا تؤنبني رحمك الله، فان النبي على الله عليه وسلم أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت {إنا أعطيناك الكوثر} ونزلت {إنا أنزلناه في ليلة القدر} الى قوله (خير من ألف شهر) فقيل له : يملكها بعدك بنو أمية يا محمد) انتهى، وأحاديث أخر.

راية سيدنا معاوية رضي الله عنه حمراء(6) تميل الى البياض
وهي الراية الاولى من اللواء الثاني

وهو رضي الله عنه من أجل فضلاء قريش، وأبوه صاحب العير، ومن أهل الرياسة في الجاهلية، قال الجلال السيوطي : خرج معاوية على علي وتسمى بالخلافة ‹ثم خرج›(7) على الحسن، فنزل له الحسن عن الخلافة فاستقر فيها من ربيع الآخر أو جمادى الاولى سنة 41 فسمي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الامة ‹فيه›(8) على خليفة واحد، ثم إن معاوية عهد

---

(1) ساقط من (ف)

(2) كذا في النسخ، والصواب محمود بن غيلان العدوى مولاهم المروزي الحافظ نزيل بغداد، قال الحافظ في التقريب ثقة من الطبقة العاشرة توفي سنة 239هـ - 853م.

(3) سليمان بن داوود الطيالسي نسبة الى الطيالسة التي تجعل على العمائم، حافظ ثقة صاحب المسند الذي قيل فيه انه أول مسند صنف كان يحفظ أربعين الف حديث، خرج له البخاري تعليقا، ومسلم والأربعة توفي سنة 204 هـ - 819م.

(4) القاسم بن الفضل بن معدان الحدانل بضم الحاء ودال، مفتوحة بعدها الف فهمزة ابو المغيرة البصري وهي بالارجاء. كما قال ابو داوود، من الطبقة السابعة توفي سنة 167هـ - 783م. وفي النسخ المعتمدة الحراني) بالراء والنون، وهو تصحيف.

(5) كذا بالاصل اما (م) و (ف) ففيهما (محمد) بدل يوسف، اما والده فهو سعد لا سعيد كما في النسخ المعتمدة وهو يوسف بن سعد الجمحي مولاهم البصري ابو عبد الله، وثقه ابن معين وقال الترمذي، رجل مجهول ويقال هو يوسف بن مازن، وقيل هما اثنان، ولمح في الميزان الى هذا الحديث، قال الحافظ من الطبقة الثالثة ولم يذكر احد وفاته.

(6) في (م) و (ف)، خضراء بدل حمراء، ويلاحظ ان المؤلف قال عن راية معاوية سابقا انها حمراء مشربة بخضرة بينما قال هنا أنها حمراء تميل الى البياض.

(7) لم يرد في (ف)

(8) ساقط من (م) و (ف).

بالخلافة لولده اليزيد، وهو أول من عهد بها في صحته لغيره [كما تقدم في الأوليات] (9) قال الحسن البصري : أفسد أمر الناس اثنان : عمرو بن العاصي لما أشار على معاوية برفع المصاحف في قضية التحكيم، والمغيرة بن شعبة [لما] (10) أشار عليه بالعهد لولده يزيد، توفي سيدنا معاوية عام 60 فقام يزيد ابنه ورايته زرقاء، وتوفي عام 64 ثم بويع معاوية(11) الصالح بن يزيد بن معاوية فبقى أربعين يوما ومات رحمه الله، ورايته بيضاء، وأما مروان بن الحكم فالصحيح أنه ليس من أمراء المؤمنين، قال الذهبي : بل هو باغ خارج على ابن الزبير(12)، وليس عهده الذي عهد به لولده عبد الملك بصحيح، وإنما صحت خلافة عبد الملك بالتغلب من حين قتل ابن الزبير ‹قلت وكذا يزيد بن معاوية الظاهر انه ليس من امراء المسلمين فقد نقل الحافظ السمهودي 13 أن عمر بن عبد العزيز سمع رجلا يقول : أمير المومنين يزيد بن معاوية فضربه عشرين سوطا، وفي هذا دليل واضح أن يزيد ليس من أمراء المؤمنين، وكيف يكون من أمراء المؤمنين مع أن علماء الاسلام قد اختلفوا في جواز لعنه على التعيين بل اختلفوا في كفره وعدمه، قال الامام بن الهمام(14) محقق الحنفية وشيخ أهل عصره في كتابه المسمى «بالمسايرة» الذي ساير به الرسالة القدسية تأليف أبي حامد الغزالي رضي الله عنه مانصه : واختلف في كفر يزيد بن معاوية، قيل نعم، وقيل لا، اذ لم تثبت لنا تلك الاسباب الموجبة للصراحة لكفره، وحقيقة الامر التوقف فيه، ورجع الامر فيه الى الله سبحانه انتهى، قال الحافظ السمهودي : وقد اختلف علماء الاسلام في جواز لعن يزيد بخصوص اسمه على أنه لم يثبت ما يقتضي كفره مع اختلافهم فيه انتهى، وأما فسقه الذي كاد أن يبعده عن الاسلام في ظاهر الأمر فلا خلاف فيه، قال الامام ابو الفرج الجوزي(15) في كتاب «الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد»

---

(9) ساقط من الاصل ومن (ف) فأضفناه من (م)

(10) لم يرد في الاصل فأضفناه من (م)

(11) في (ف) عمر بدل معاوية وهو خطأ.

(12) في (ف) عن بدل على.

(13) نورالدين ابو الحسن علي بن عبد الله السمهودي نسبة الى سمهرد بلدة غربي النيل بالصعيد القاهري الشافعي، نزيل المدينة ومؤرخها، له فيها، اقتناء الوفا، باخبار دار المصطفى، وله، ايضاح البيان، لما اراده الحجة من ليس في الامكان ابدع مما كان، توفي سنة 911هـ - 1456م.

(14) كمال الدين محمد بن عبد الواحد الاسكندري الدار، السيواسي النجار، نسبة الى سواس ولاية عثمانية في آسية الصغرى، حنفي له مؤلفات في فقههم تدل على علو كعبه توفي سنة 861 هـ - 1456م.

(15) عبد الرحمان بن علي الصديقي البغدادي الحنبلي توفي سنة 597 هـ - 1200م.

مانصه : سألني سائل عن يزيد بن معاوية، فقلت له يكفيه مابه، فقال أيجوز لعنه؟ فقلت قد أجازها العلماء الورعون منهم الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فإنه ذكر في حق يزيد مايزيد على اللعنة، ثم روى ابن الجوزي عن القاضي أبي يعلى[16] في كتابه المعتمد في الاصول باسناده الى صالح بن الامام[17] أحمد بن حنبل رضي الله عنه، قال : قلت لأبي أن قوما ينتسبون إلى تولي يزيد، فقال : وهل يتولى يزيد أحد يؤمن بالله ؟ فقلت : ولما لا تلعنه ؟ فقال : متى رأيتني يابني ألعن شيئا ؟ ولما لا يلعن من لعنه الله في كتابه ؟ فقلت : وأين لعن الله يزيد في كتابه ؟ فقال : في قوله (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدو في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله) فهل يكون فساد أعظم من القتل ؟[18].

راية عبد الملك

وهي حمراء شديدة، فيها علم أخضر توفي عام 86

ثم ولي بعده ولده الوليد بعهد أبيه له، ورايته خضراء ذات أعلام حمر توفي عام 95.

ثم ولي أخوه سليمان بعهد أبيه، ورايته صفراء مات 99.

فولي بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان أمير المؤمنين المزاحم في أوساط العدل الخلفاء الراشدين لولا مرتبة الصحبة، رايته بيضاء توفي عام 101.

فولي اليزيد بن عبد الملك، رايته دكناء[19]، وتوفي عام 105[20].

< فولي أخوه هشام بن عبد الملك، ورايته بين الصفرة والحمرة، توفي عام 125> [21].

---

(16) محمد بن محمد الحسين القاضي الحنبلي الشهيد. ذكر ابن رجب في ذيله على الطبقات انه كان للقاضي بيت في داره، فعلم بعض من كان يخدمه ويتردد اليه بان له مالا فدخلوا عليه ليلا واخذوا المال وقتلوه، فاشتهر بالقاضي الشهيد، قتل ليلة عاشوراء سنة 526 هـ - 1131م.

(17) ابو الفضل أكبر اولاد الامام، كان ابوه يحبه ويحب أن يكون زاهدا متقشفا ولي القضاء بطرسوس، ثم اصبهان، ويكى على تلك الولاية، وقال انما حمله عليها كثرة العيال وقلة المال توفي سنة 266 هـ - 879م.

(18) ساقط من (م) و (ف) وساقط من النسخة وقد كتب مؤلف الاصل بالهامش ما نقل من قوله قلت وكذا الى قوله أعظم من القتل.

(19) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) (بين الصفرة والحمرة) بمكان قوله (دكناء).

(20) في (م) و (ف) (عام خمسة وعشرين ومائة) وهو سهو ظاهر.

(21) سقط من (م) و (ف).

<فولي الوليد بن اليزيد، وهو الفاسق الجبار العنيد، رايته زرقاء قتل عام 126> [22].

فولي بعده اليزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وهو الناقص، رايته فيها حمرة وغبرة وزرقة، الزرقة من قوله بالقدر ودعاء الناس إليه وتقريب أهله كغيلان[23] إمام المبتدعين ، توفي الناقص من عامه وولي بعده أخوه ابراهيم ابن عبد الملك، رايته غبراء، وخلع بعد سبعين ليلة، خرج عليه مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم، فهرب ابراهيم ثم جاءه وخلع نفسه من الأمر وبايعه طائعا، وبقي ابراهيم الى سنة 132 فقتل مع من قتل من بني أمية.

فبويع مروان <بن محمد الملقب بالحمار>[24] سنة 127، رايته دكناء ذات أعلام حمر، قتل عام 132، وبقتله سقط لواء بني أمية من المشرق.

حكاية فيها عبرة وموعظة : أخرج الصولي[25] عن محمد بن صالح[26] قال : لما قتل مروان < الحمار> [27] قطع رأسه ووجه به الى عبد الله بن محمد بن علي فنظر إليه ثم طرح ناحية فجاءت هرة فاقتلعت لسانه تمضغه، فقال عبد الله بن محمد بن علي : لو لم يرنا الدهر من عجائبه الا لسان مروان في فم هرة لكفى، والملك الباقي لله سبحانه.

---

(22) ساقط من (ف).

(23) غيلان بن مسلم الدمشقي، تنسب اليه الفرقة الغيلانية، من القدرية، تاب من القول بالقدر على يد عمر بن عبد العزيز، ولما مات عمر جاهر بمذهبه، فطلبه هشام بن عبد الملك، واحضر الاوزاعي لمناظرته، فافتى الاوزاعي بقتله فصلب على باب كيسان بدمشق بعد مائة وخمسة - 723م.

(24) سقط من (م) و (ف)

(25) هناك صوليان، هما ابو اسحاق ابراهيم بن العباس الكاتب الشهير، وهو اخباري، له كتاب في التاريخ، توفي سنة 243هـ -857م. وهو عم الصولي الاخر ابو بكر محمد بن يحي بن عبد الله الشطرنجي الصولي نسبة الى جده ابي اسحاق صول، نادم ثلاثة من خلفاء بني العباس، الراضي والمكتفي والمقتدر، توفي سنة 335هـ - 946م، ويظهر ان الصولي الذي روى عن محمد بن صالح، هو ابراهيم لتقاربهما في تاريخ الوفاة.

(26) محمد بن صالح بن مهران يعرف بابن النطاح كان اخباريا نسابة راوية، له كتاب في الدولة العباسية، وهو أول من صنف في اخبارها، توفي سنة 252هـ - 866م

(27) سقط من (م) و (ف).

اللواء الثالث الاسود في دولة بني العباس
وتحته رايات كثيرة بعدة ملوكها(1) ملونة كأخلاقهم

وردت أحاديث كثيرة مبشرة بهذه الدولة، من ذلك حديث الترمذي : نا يحيى(2) ابن معلى ابن منصور نا أبو بكر ابن أبي شيبة(3) نا محمد بن اسماعيل بن أبي فديك(4)عن محمد بن عبد الرحمان العامري(5) عن سهيل(6) عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس (وفيكم النبوءة والمملكة)(7) قال السيوطي : العامري ضعيف، وقال العلقمي(8) حدثنا احمد بن محمد النصيبي(9) نا ابراهيم بن المستنير(10) نا احمد بن سعيد الجبيري(11) نا عبد العزيز(12) ابن بكار بن عبد العزيز بن ابي بكرة عن أبيه عن جده أبي بكرة، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يلي ولد العباس من كل يوم تليه بنو أمية يومين، ومن كل شهر شهرين) انتهى، ذكر في تاريخ الخلفاء أحاديث عديدة من هذا الباب، {وأخبار انقراض الدولة الاموية وظهور الدولة العباسية براح

---

(1) في (م) (ملوكهم) بضمير المذكر

(2) يحيى بن معلى ابو عرانة الرازي نزيل بغداد، صدوق من الطبقة الحادية عشرة، روى عنه ابن ماجه، لم يذكروا سنة وفاته وكونه من الحادية عشرة حسب ما في التقريب للحافظ يرشد الى ان وفاته بعد المائتين.

(3) ابو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه ابراهيم، واسطي الاصل الكوفي ثقة حافظ. من الطبقة العاشرة خرج له البخاري ومسلم وابو داوود، والنسائي، وابن ماجة سنة 235 هـ - 749م.

(4) محمد بن اسماعيل بن مسلم بن ابي فديك الديلي مولاهم المدني صدوق من صغار الطبقة الثامنة توفي سنة 200هـ 810م.

(5) محمد بن عبد الرحمان بن ثوبان العامري عامر قريش المدني ثقة، خرج له الجماعة من الطبقة الثالثة. قال السيوطي،العامري ضعيف والذي في التقريب انه ثقة، ولعله التبس على السيوطي بعامري آخر ضعيف ولامر ما قال الحافظ عامر قريش، وفي الخلاصة، وثقه النسائي.

(6) سهيل بن أبي صالح ذكوان المدني، صدوق تغير حفظه باخرة، خرج له الجماعة وروى له البخاري مقرونا وتعليقا هو من الطبقة السادسة ت في خلافة المنصور.

(7) اخرجه ابو نعيم في دلائل النبوة، وابن عدي في الكامل، وابن عساكر من طرق عن ابي فديك.

(8) كذا في النسخ كلها، وهو خطأ صوابه العقيلي، وهوأبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى العقيلي مصغرا الحافظ الكبير الثقة العالم بالحديث توفي سنة 323هـ - 934م.

(9) لم نقف على مصدر يعرفنا بهذا النصيبي.

(10) ابراهيم بن المستنير العروقي بضم العين الناجي البصري، صدوق ويغرب من الطبقة الحادية عشرة، كان حيا بعد المائتين

(11) كذا بالصل وفي م اما (ف) ففيها الحميري بحاء مهملة بعد ميم والصواب الجبري كما في الاصل.

(12) عبد العزيز بن بكار، وفي الميزان حديثه غير محفوظ، ومشاه بعضهم وقد اورد العقيلي في كتاب الضعفاء في ترجمته هذا الحديث الباطل، ونقله الحافظ في اللسان، قال الاسيوطي في تاريخ الخلفاء، حديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات و واعله بكار، وليس كما قال، فان بكارا لم يتهم بكذب ولا وضع، وقال في اللالي، ان بكارا روى له ابو داوود والترمذي وابن ماجه، ودافع عن الحديث بما في تاريخ الخلفاء.

واسع جدا، ولسنا بصدده) (13).

ولما قتل مروان بويع ابو العباس السفاح سنة 132فهو صاحب الراية الاولى من هذا اللواء ورايته شديدة الحمرة، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم توفي عام 137.

فبويع أخوه ابو جعفر المنصور، واسمه أيضا عبد الله، رايته حمراء ذات اذيال خضر، توفي عام 158.

ثم ولي ولده محمد المهدي، رايته خضراء، مات سنة 169.

ثم بويع ولده موسى الهادي، ورايته بين كدرة وحمرة، مات 170.

ثم بويع أخوه الرشيد هاورن ذو الراية العالية الخضراء، ومات 193.

ثم ولي ولده الأمين محمد بعهد أبيه، رايته بين غبرة واصفرار وزرقة قتل عام 198.

ثم بويع أخوه المامون عبد الله بعهد أبيه ولكن استعجله قبل الايان، رايته حمراء ذات أعلام زرق من أجل دعائه الى خلق القرآن مات عام 218.

ثم ولي أخوه المعتصم محمد، رايته بين حمرة وزرقة مات 226.

ثم بويع ولده الواثق هاورن، رايته بين اخضرار وازرقاق، مات عام 232.

ثم بويع أخوه المتوكل جعفر ذو الراية الصفراء ذات الأعلام البيض، قتل عام 249.

ثم بويع ولده قاتله محمد المنتصر، رايته زرقاء منكسفة، مات 250.

ثم بويع ابن عمه احمد المستعين، وعزل بالمعتز بن المتوكل عام 252، رايتاهما(14) دكناوان. ثم بويع جعفر المهتدي بن الواثق المشبه لعمر بن عبد العزيز في العدل ومحبة الخير واهله، رايته خضراء، قتل عام 270.ثم بويع(*) المعتضد ابن الموفق، رايته خضراء مرفلة مات عام 270. ثم بويع ولده علي المكتفي، رايته حمراء، مات عام 295. ثم بويع جعفر المقتدر، رايته غبراء منكسفة، خلع مرتين، وقتل عام 321، في أيامه أخذ القرامط الحجر الاسود، وانقطع الحج. ثم بويع أخوه محمد القاهر، رايته منخرقة منكسفة بتراء، خلع وسمل، وتكفف الناس في الجامع يوم جمعة عام 322. ثم بويع الراضي بن المقتدر، رايته حمراء مشرقة، مات عام 329. ثم بويع

---

(13) ساقط من الاصل ومن (ف) فاضفناه من (م).

(14) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) رايتها بافراد لفظ الراية.

(*) المذكور في كتب التاريخ ان الذي يتبع المهتدي في السلسلة هو المعتمد هـ 256 هـ 870 م ثم بويع المعتضد.

أخوه ابراهيم المتقي، ورايته مغبرة بالية، خلع وقبض على كاتبه ابن مقلة وسمل عام 333 وبقي مسجونا الى ان مات عام 357 بعد إقامته في السجن 25 سنة. فلما خلع بويع المستكفي عبد الله بن المكتفي، رايته دسماء متسخة، خلع وسمل ونهب، مات عام 334 بل هذه سنة خلعه، أما وفاته فسنة 338، فهؤلاء الثلاثة كلهم سملوا، ولما سمع القاهر أن المتقي سمل قال : صرنا شيخين أعميين لا بد لنا من ثالث، فكان كذلك، فسمل المكتفي. ثم بويع المطيع بن المقتدر، رايته حمراء مخرقة، صودر بأربعمائة الف حتى باع فيها قماشه، ثم خلع نفسه وبايع لولده عبد الكريم الطائع عام 363 ثم بويع الطائع ورايته غبراء واهية، خلع ونهب وسجن الى ان مات عام 383. ثم بويع احمد القادر عام 381 قبل موت الطائع، رايته حمراء طويلة، ، مات عام 422. وبويع بعده ولده القائم بأمر الله، رايته بين خضرة ودكونة، فيها أعلام بيض، قبض عليه ثم رد الى الخلافة، زوج بنته للسلطان قهرا، مات عام 467 انحلت حجامته وهو نائم. ثم بويع ولده المقتدي، رايته حمراء مشرقة رفافة، مات فجأة عام 487. ثم بويع بعده ولده المستظهر، رايته منكسفة اللون، فيها اعلام خضر، وفي أيامه أخذت الفرنج بيت المقدس، وهو الذي وجه الخلعة واللواء لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وسماه أمير المسلمين، مات عام 529. ثم بويع ولده الفضل المسترشد، رايته من احسن رايات قومه، حمراء فيها قليل كدرة، قتلته الباطنية غدرا في مجلسه عام 529. ثم بويع ولده منصور الراشد، ولد مسدود الدبر <لا مخرج له>[15] ففتح بآلة من ذهب، رايته زرقاء ملطخة[16] قتل عام 532. ثم بويع المقتفي، رايته واهية مغبرة مات عام 555. ثم بويع بعده ولده المستنجد، رايته خضراء تميل الى البياض، قتل مسجونا في حمام عام 566. ثم بويع ولده المستضئ، رايته حمراء مغبرة، مات عام 575 ثم بويع ولده الناصر احمد، رايته حمراء مشرقة مرفلة، في ايامه سنة 583 كانت الفتوحات العظام على المسلمين، اعظمها أخذ بيت المقدس من الفرنج بعدما بقيت بأيديهم 91 سنة، والآخذ لها منهم هو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى.

---

(15) ساقط من (م) و (ل)

(16) كذا بالاصل وفي (م) و (ل) متلطخة

فائدة عجيبة : ذكر الجلال السيوطي رحمه الله وكذلك محيي الدين بن العربي في **الفتوحات** عن أبي الحكم عبد السلام بن برجان(17) في تفسيره في سورة الروم ان بيت المقدس يبقى بيد الروم الى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ثم يغلبون ويفتح ويصير دار إسلام الى آخر الابد، أخذ ذلك من حساب الآية، فكان الامر كذلك، قال أبو شامة(18) وهذا الذي ذكره ابن برجان من عجائب ما اتفق، وقد مات ابن برجان قبل ذلك بدهر انتهى. [قلت بنحو خمسين سنة، فانه مات عام 536 وكان فتح بيت المقدس عام 583](19) انتهى، وقد ذكر محيي الدين في الفتوحات كيفية حساب الآية واستخراج ذلك منها، والمراد بالاية قوله تعالى (**آلم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون**) برواية فتح اللام في غلبت(20) وضم الباء في سيغلبون انتهى، ‹ذكر ذلك›(21) في الصفحة 65 من السفر الاول من الفتوحات، ثم أعاد الكلام عليه في السفر الرابع في الصفحة 242 فقال : ولقد كنت في مدينة فاس سنة 591 وعساكر الموحدين(22) قد عبرت الى الاندلس لقتال العدو حين استفحل أمره على الاسلام فلقيت رجلا من رجال الله ولا أزكي أحدا على الله تعالي، وكان من أخص أوداني، فسألني : ما تقول في هذا الجيش هل يفتح له وينصر في هذه السنة أم لا ؟ فقلت له : ما عندك في ذلك ؟ فقال : ان الله تعالى قد ذكر ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا الفتح في هذه السنة وبشر نبيه بذلك في كتابه الذي أنزل عليه، وهو قوله تعالى (**إنا فتحنا لك فتحا**

---

(17) عبد السلام بن عبد الرحمان ابن ابي الرجال، ويعرف بابن برجان، كان من اجل رجال المغرب في علم الكلام، عارفا بلغة العرب وله التفسير المشهور الذي سلك فيه مناهج الصوفية العارفين أصحاب الاحوال، والذي كان سببا في تغريبه من اشبيلية الى مراكش صحبة الامام ابن العريف وابي بكر محمد بن الحسين الميورقي، قال ابن الابار في معجمه، وكانوا نمطا واحدا في الانتحال، والاتصال بصلاحية الاحوال، ولابي الحكم التفوق عليهما، وفي صلة الصلة، كان متقيدا في. نظره بظواهر الكتاب والسنة، بريئا من تعمق الباطنية بعيدا من قحة الظاهرية توفي على التحقيق سنة 536هـ1141م ودفن برحبة الزرع بمراكش وبنيت عليه قبة رفيعة رغم كيد الاعداء وسعايتهم.

(18) أي في الروضتين ج 2 ص 113 وأبو شامة هو عبد الرحمان بن اسماعيل المقدسي الاصل الدمشقي الشافعي مؤلف الروضتين وذيلهما، وكشف حال بني عبيد، واصيب بلوى اذ دخل عليه رجلان الى بيته ومعهما فتوى فضرباه ضربا مبرحا فكاد يتلف منه ولم يدر به احد ولا اغاثه. وجعل السخاوي في الاعلان بالتوبيخ محنته هذه بسبب الوقيعة في العلماء والصلحاء واكابر الناس، وذكر جملة من العلماء امتحنوا بسبب الوقيعة في السلف الصالح يرحم الله الجميع توفي سنة 665هـ -1266م.

(19) زيادة من (م).

(20) في (م) و (ف) (برواية فتح الغين واللام في غلبت).

(21) ساقط من (ف).

(22) كذا بالاصل ومثله في (م) وفي (ف) (المسلمين بدل الموحدين).

مبينا) فموضع البشرى (فتحا مبينا) من غير تكرار الألف، فإنها لاطلاق الوقوف في تمام الآية، فانظر اعدادها بحساب الجمل، فنظرت فاذا هو الفتح يكون في سنة احدي وتسعين وخمسمائة، ثم جزت الى الاندلس الى أن قال : هذا عاينته، فاخذنا للفاء ثمانين، والتاء أربعمائة، وللحاء ثمانية، وللألف واحدا، وللميم أربعين، ولليا اثنين، وللباء عشرة، وللنون خمسين، وللألف واحدا، وللميم أربعين، وللباء اثنين، ولليا عشرة، وللنون خمسين، والألف قد أخذنا <عددها>(23) فكان المجموع 591 كلها سنون من الهجرة الى هذه السنة، فهذا من الفتح الالهي لهذا الشخص، وكذلك ما ذكرناه من فتح بيت المقدس فيما اجتمع بالضرب في (آلم غلبت الروم) مع البضع من السنين المذكور فيه بالحسابين الجمل الصغير والكبير، فظهر بذلك فتح بيت المقدس، وقد ذكرناه فيما تقدم من هذا الكتاب في باب الحروف، وهو ان البضع جعلناه ثمانية لكون فتح مكة كان سنة ثمان، ثم أخذنا بالجمل الصغير (آلم) ثمانية فأسقطنا الواحد لكون الاس يطلب طرحه لصحة العدد في أصل الضرب في الحساب الرومي، والفتح انما كان في الروم الذين كانوا بالبيت المقدس(24) فأضفنا ثمانية البضع الى ما اجتمع من (ألم) بعد طرح الاس فكان خمسة عشر، ثم رجعنا الى الجمل الكبير فضربنا واحدا وسبعين وهو عدد (الم) بالجمل الصغير في ثمانية، والكل سنون لانه قال (في بضع سنين) فكان المجموع 568 فجمعناها الى 15 التي في الجمل الصغير فكان المجموع 583 وفيها كان فتح بيت المقدس، وهذا العلم من هذه الحضرة ولكن عبد السلام أبو الحكم بن برجان ما أخذه من هذا الوجه، فوقع له غلط ولم يشعر به، وقد بيناه لبعض أصحابنا فتبين له انه غلط في ذلك، ولكن قارب الامر، وسبب ذلك أنه أدخل عليه علما آخر فافسده انتهى، كلام محيي الدين بن العربي.

< وذكر القاضي ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمة محي الدين(25) ابن زكي الدين الدمشقي ما نصه : ولما فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب سنة 579 أنشده القاضي محيي الدين المذكور قصيدة

(23) ساقط من (ف).

(24) كذا بالاصل ومثله في (ف) اما (م) ففيها بيت القدس

(25) ابو المعالي محمد بن علي بن ركن الدين الدمشقي الشافعي الملقب بمحيي الدين، المعروف بابن ركن الدين فقيه اديب وله انتاج شعري ونثري ولي القضاء بدمشق توفي سنة 598هـ - 1201م.

بائية أجاد فيها كل الاجادة، وكان من جملتها بيت، وهو متداول بين الناس وهو :

وفتحك القلعة الشهباء في صفر　　　مبشر بفتوح القدس في رجب

فكان كما قال، فان القدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وقيل لمحيي الدين : من أين لك هذا ؟ فقال أخذته من تفسير ابن برجان في قوله تعالى (ألم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) انتهى. المراد منه، فانظر تمامه إن أردت› (26) ومات الناصر عام 622.

ثم بويع ولده محمد الظاهر، رايته حمراء بالية، خلع وسجن وقتل عام 640.

ثم بويع ولده منصور المستنصر، رايته قصيرة محمرة، مات عام 646.

ثم بويع ولده عبد الله المستعصم (27)، رايته مغبرة بتراء، وقتل من جملة من قتله التتر سنة 656 هذا آخر خلفاء بني العباس ببغداد.

ثم انتقلوا لمصر بعد خلو الدنيا من الخليفة ثلاث سنين وأول من بويع بمصر (28) منهم أحمد المستنصر بن الظاهر، رايته عبراء قصيرة، فقد في الحرب عام 660.

ثم بويع الحاكم، ورايته دسماء واهية، مات عام 701.

ثم بويع ولده المستكفي، رايته دكناء مات عام 740. ثم بويع الواثق رايته زرقاء خلع عام 742 ثم بويع الحاكم رايته بالية مات عام 753 ثم بويع المعتضد رايته حمراء متسخة مات عام 773 ثم بويع المتوكل، رايته دكناء مستطيلة مرقوعة، خلع ثم أعيد الى ان مات عام 788 (29) وكان (30).

بويع الواثق عمر بن ابراهيم ‹لما خلع المتوكل، ورايته بتراء مغبرة مات سنة 788. ثم بويع أخوه زكرياء بن ابراهيم› (31) رايته كراية أخيه، خلع عام 791 ثم أعيد المتوكل الى أن مات سنة 808. ثم بويع المستعين بن المتوكل، رايته غبراء معلمة، مات عام 815 (32). ثم بويع أخوه ‹المعتضد

---

(26) ساقط من (م) ومن (ف) هو ما بين القوسين

(27) في ميم المعتصم وهو خطأ.

(28) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) منها

(29) قوله الى ان مات سنة 788 خطأ، لان المتوكل لم يمت الا سنة 808 كما سياتي قريبا.

(30) كذا بالاصل ومثله في (م) اما (ف) ففيها (ثم) بدل وكان.

(31) سقط من (م) و (ف).

(32) الذي في حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء، ان وفاة المستعين كانت سنة 854

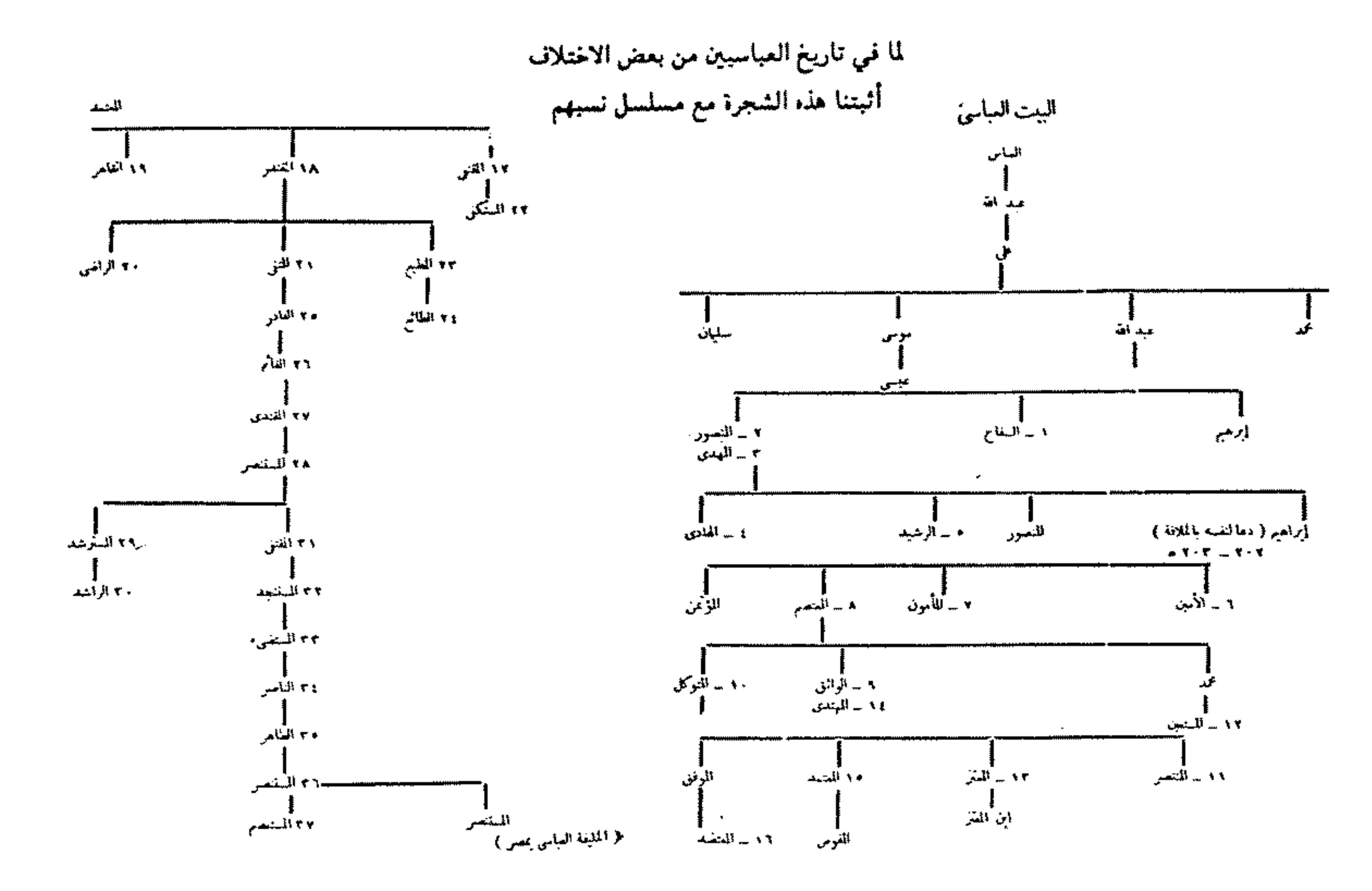
بن المتوكل، رايته مصفرة متسخة، مات عام 859. ثم بويع أخوه المستكفي، رايته حمراء مشرقة،(33)>(34). ثم بويع أخوه محمد القائم، رايته حمراء، خلع عام 863(35). ثم بويع أخوه المستنجد، رايته حمراء ذات أعلام بيض، مات عام 884.

ثم بويع المتوكل رايته محمرة بالية، مات عام 903. ثم بويع ولده يعقوب المستمسك، رايته دارسة ساكنة الرياح، أقام في الخلافة الى أن كف <بصره>(36).فبويع ولده محمد بن يعقوب، فأخذ راية أبيه الى أن أسره سليم خاقان العثماني في أخبار مختلفة، وكان ذلك آخر العهد بالدولة العباسية وتقويض أبنيتها من العالم، ولله سبحانه البقاء الذي لايزول، وحده لاشريك له.

(33) الصحيح ان وفاته كانت سنة 884هـ.
(34) ساقط من (م) و (ف) ما بين القوسين
(35) الذي في تاريخ الخلفاء للسيوطي، وفي حسن المحاضرة، ان القائم خلع سنة 859هـ وكانت وفاته سنة 863هـ.
(36) سقط من (ف).

البيت العباسي

لما في تاريخ العباسيين من بعض الاختلاف أثبتنا هذه الشجرة مع مسلسل نسبهم



تسلسل نسب الخلفاء العباسيين

١٣٢ — ٦٥٦ / ٧٥٠ — ١٢٥٨

	هـ	الخليفة	م
١	١٣٢هـ	السفاح	٧٥٠م
٢	١٣٦	المنصور	٧٥٤
٣	١٥٨	المهدى	٧٧٥
٤	١٦٩	الهادى	٧٨٥
٥	١٧٠	الرشيد	٧٨٦
٦	١٩٣	الأمين	٨٠٩
٧	١٩٨	المأمون	٨١٣
٨	٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٩	٢٢٧	الواثق	٨٤٢
١٠	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
١١	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
١٢	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
١٣	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
١٤	٢٥٥	المهتدى	٨٦٩
١٥	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
١٦	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
١٧	٢٨٩	المكتفى	٩٠٢
١٨	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٩	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
٢٠	٣٢٢هـ	الراضى	٩٣٤م
٢١	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
٢٢	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
٢٣	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
٢٤	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
٢٥	٣٨١	القادر	٩٩١
٢٦	٤٢٢	القائم	١٠٣١
٢٧	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
٢٨	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٩	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٣٠	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٣١	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٣٢	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٣٣	٥٦٦	المستضىء	١١٧٠
٣٤	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٣٥	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٣٦	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٣٧	٦٤٠ — ٦٥٦	المستعصم	١٢٤٢ — ١٢٥٨

على أن الخلاف قد دب بين أفراد البيت السلجوقى . فقد طلب طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال أن يسلم إليه مدينة همذان وما بيده من القلاع التى ببلاد الديلم . فامتنع إبراهيم عن إجابة أخيه إلى ما طلب . ويذكر ابن الأثير أن طغرلبك أمر بأخيه فضرب بين يديه وسملت إحدى عينيه وقطعت شفتاه ، ثم دارت الحرب بينهما وملك طغرلبك ما كان بيده من القلاع ، وتحصن إبراهيم بقلعة حصينة فسار إليه طغرلبك على رأس

اللواء الرابع الازرق في دولة بني عبيد بمصر وتحته رايات بعدد ملوكهم ملونة بالوان أخلاقهم

قد كنت عزمت على ان لا أذكر هذا اللواء لان العلماء المعتبرين أطبقوا على انهم ليسوا من خلفاء هذه الملة، وعلى انهم لا نسب لهم يتصل ببيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانهم كذبوا فيما ادعوا من ذلك، قال الجلال السيوطي رضي الله عنه في تاريخ الخلفاء : ولم أورد أحدا من أمراء العبيديين لان إمامتهم غير صحيحة لامور : منها انهم غير قرشيين، وانمايدعوهم بالفاطميين جهلة العوام، والا فجدهم مجوسي، قال القاضي عبد الجبار البصري[1] اسم جد الامراء المصريين سعيد، كان أبوه يهوديا حدادا بسلمية، وقال القاضي ابو بكر البقلاني ما نصه : القداح[2] جد عبيد الله الذي تسمى بالمهدي كان مجوسيا. ودخل عبيد الله المغرب وادعى انه علوي، ولم يعرفه احد من علماء النسب، وسماهم جهلة الناس فاطميين، وقال ابن خلكان : أكثر أهل العلم لا يصححون نسب عبيد الله المهدي جد أمراء مصر انتهى، وقال الذهبي : المحققون متفقون على ان عبيد الله المهدي ليس بعلوي، وما احسن ما قاله حفيده المعز صاحب القاهرة، وقد سأله الشريف ابن طباطبا[3] العلوي عن نسبهم، فسل نصف سيفه من الغمد فقال : هذا نسبي، ونثر على الحاضرين والامراء الذهب وقال : هذا حسبي انتهى، ومنها ان اكثرهم زنادقة خارجون عن الاسلام، منهم من أظهر سب الانبياء، ومنهم من أباح الخمر والزنى، ومنهم من امر بالسجود له، والخير منهم رافضي خبيث يسب الصحابة، ومثل هؤلاء لا تنعقد لهم

---

(1) ابو الحسن عبد الجبار بن احمد الهمداني، شيخ المعتزلة في وقته مؤلف كبير، قيل ان له أربعمائة الف ورقة مما صنف في كل فن، ورغم اعتزاله فانه كان شافعيا، توفي سنة 415 هـ - 1024 م.

(2) قال الشيال في تعليق له على اتعاظ الحنفاء عند ذكر ميمون القداح، اختلفت الآراء اختلافا كثيرا عند بيان حقيقة ميمون القداح، فكتاب السنة، من مؤرخين وفقهاء ينكرون انتساب الدولة الفاطمية الى علي وفاطمة ويؤكدون نسبتها الى ميمون القداح ويقررون انه كان فارسيا مجوسيا من الاهواز، وانه تظاهر بالاسلام والتشيع والدعوة لآل البيت، فقبض عليه وأودع سجن الكوفة في اواخر عهد المنصور، وبعد خروجه من السجن ادعى انه من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق الى ان نجحت دعوته في عهد اولاده الخلفاء الفاطميين، في ترجمته خلط كبير يعلم من كتب الملل والنحل وكتب المستشرقين الذين يدافعون عنه توفي سنة 100 هـ -718م

(3) ابو محمد عبد الله بن احمد بن علي بن الحسن بن ابراهيم طباطبا وقضيته التي أشار لها المؤلف قدس الله روحه بانها وقعت له مع المعز العبيدي فهي مناقضة لتاريخ وفاته، لان المعز دخل مصر سنة 362 هـ-972 م. وابن طباطبا توفي سنة 348 هـ-959 م قال ابن خلكان، ولعل صاحب الوقعة كان ولده.

بيعة، ولا تصح لهم امامة، قال الذهبي : كان القائم بن المهدي شرا من ابيه زنديقا ملعونا أظهر سب الانبياء وقال : وكان العبيديون شرا من التتر على ملة الاسلام، وقال أبو الحسن القابسي[4] ان الذين قتلهم عبيد الله وبنوه من العلماء والعباد اربعة آلاف ليردهم على[5] الترضي عن[6] الصحابة فاختاروا الموت، ويا حبذا لو كان رافضيا فقط، ولكنه زنديق، قال القاضي عياض : سئل أبو محمد القيرواني الكتراني[7] من علماء المالكية عمن أكرهه بنو عبيد أمراء مصر على الدخول في دعوتهم او يقتل ؟ فقال يختار القتل، ولا يعذر احد بهذا الأمر، قال : كان اول دخولهم قبل ان يعرف امرهم، واما بعد فقد وجب الفرار، فلا يعذر احد بالخوف لان المقام في موضع يطلب من اهله تعطيل الشرائع حرام لا يجوز، وانما أقام من أقام من الفقهاء على المباينة لهم لئلا يخلو المسلمون ممن يهديهم فيفتنونهم[8] عن دينهم، قال يوسف الرعيني[9] أجمع العلماء بالقيروان على أن حال بني عبيد حال المرتدين والزنادقة لما أظهروا من خلاف الشريعة انتهى كلام الجلال السيوطي باختصار.

فإذا تقرر هذا فقد كان مقتضاه أن لايذكروا مع خلفاء المسلمين، ولكن ذكرناهم جمعا للنظائر، ولأن[10] العلامة <القاضي>[11] ابن خلدون صحح نسبهم وشدد على من نفاهم من الفاطمية وبالغ في ذلك، وقال ان كونهم فساقا لا يوجب نفيهم عن نسبهم الثابت بزعمه، ولا يمكن نفي إمامتهم التي استقرت بالتغلب، هذا حاصل كلامه، وإن كان للبحث معه في ذلك مجال، فلهذا ذكرناهم مقتصرين على مجرد سرد وفياتهم فنقول :

---

(4) ابو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي كان اماما في علم الحديث وما يتعلق به، ومن اهم مؤلفاته، كتاب الملخص في الحديث جمع فيه ما اتصل اسناده من حديث الامام مالك في كتاب الموطأ رواية ابن القاسم، كما انه اول من أدخل رواية البخاري لافريقية، اذ لم يصل سند البخاري لها الا من طريقه، وطريق ابي ذر الهروي، توفي بالقيروان سنة 403 هـ - 1012 م.

(5) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) عن بدله وهو الاوفق

(6) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) على بدله

(7) لم نقف له على ترجمة.

(8) كذا بالأصل ومثله (في) أما (م) ففيها (يفتنوهم)

(9) لم نهتد الى ترجمة هذا الرعيني بين من ينسبون الى رعين.

(10) كذا بالاصل ومثله في (م) أما (ف) ففيها : فإن بدل : ولأن.

(11) سقط من (ف).

معلوم خبر داعيتهم أبي عبيد(12) الله حسين الصنعاني ودخوله للمغرب سنة 280 فأقام مذاهب الشيعة وبثها في قبيل كتامة فنهض بهم فاقتلع(13) دولة بني الأغلب من أصلها، وتوجه الى سجلماسة بالجنود المجندة وأخرج عبيد(14) الله المهدي وولده من السجن، وأسند إليه الملك سنة 296، فهو أول هذه الدولة، ‹والذي عند القاضي شمس الدين بن خلقان في الوفيات أن ابتداء دولتهم سنة 299، وهذا هو الصحيح لأن بعضهم ضبطه بمدلول عدد ضرط› (15) وله الراية السوأى(16) الحمراء ذات الأعلام الزرق، فاستمر الى أن مات سنة 322 ثم ولي ولده محمد المدعو القائم، ورايته موروثة من أبيه، مات سنة 333 (17) ثم قام ولده اسماعيل المدعو المنصور، فأخذ تلك الراية فاستمر الى أن مات سنة 341 ثم ولي ولده بعد المدعو المعز فأخذ تلك الراية المشئومة ‹ومات›(18) سنة 365 وهو الذي دخل مصر، وانتقل ملكهم من افريقية اليها سنة 362، ثم ولي بعد موته ولده نزار المدعو العزيز، والراية بعينها يتوارثونها بلا نزاع، فمات عام 386، ثم ولي [بعده] (19) ولده المنصور الحاكم فقتل ‹سنة 411› ثم ولده علي المدعو الظاهر، مات› (20) سنة 428 ثم ولي ابنه معد المستنصر، ومات سنة 487 فمدة ملكه ستون سنة، قال الذهبي : ما علمنا أحدا أقام في الملك هذه المدة لا من الخلفاء ولا من السلاطين(21) ثم ولي ولده احمد المستعلي، ومات سنة 495 ثم {ولي} (22) ولده الآمر اسمه منصور فقتل سنة 524 ثم ولي ابن عمه عبد المجيد الحافظ بن المستنصر، ومات سنة

---

(12) كذا بالاصل والصواب أبو عبد الله بالتكبير، وهو الحسين بن أحمد المعروف بالشيعي، ويلقب بالمعلم، مهد الدولة للعبيديين وناشر دعوتهم بالمغرب كان من الدعاة الشجعان ومن أعلام الباطنية وأعيانهم توفي سنة 298 هـ -910م.

(13) كذا بالاصل ومثله (م) أما (ف) ففيها اختلع بالخاء بدل القاف.

(14) في (ف) عبد بدل عبيد، وهو خطأ

(15) ساقط (م) و (ف).

(16) في (م) و (ف) السوداء بدل السوأى.

(17) كذا بالأصل ومثله في (م) وفي (ف) أربع.

(18) ساقط من (ف)

(19) ساقط من الأصل

(20) ساقط من (م)

(21) كتب المؤلف بإزاء هذا على الطرة مانصه، قال مقيده عفا الله عنه، مولانا اسماعيل بن الشريف رضي الله عنه أقام خليفة لأخيه مولانا الرشيد سبعة أعوام وملك هو سبعة وخمسين سنة فمجموع ملكه 64 سنة كما يأتي في محله إن شاء الله تعالى.

(22) ساقط من الأصل.

544 ثم ولي ولده(23) الظافر، واسمه إسماعيل، وقتل سنة 549، ثم ولي ولده الفائز، واسمه عيسى، ومات سنة 555 ثم ولي العاضد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، وخلع 567.

ثم بعد ذلك قامت(24) الدولة العثمانية بمصر أعزها الله وأيدها آمين.

---

(23) في (م) و (ب) بعده بدل ولده.
(24) في (ب) : أقامت وهو خطأ.

اللواء الخامس المبارك في دولة العثامنة(1)
وهو لواء احمر طويل الذيول

والكلام على هذه الدولة وضخامتها وعزة ملة الاسلام بها لا تسعه الدفاتر، ولاتفي الاقلام الا بالاقل منه، وليس المراد هنا الا ذكر ما بلغنا من اسماء ملوكهم ووفياتهم تتميما للفائدة المطلوبة، فنقول :

أول هذه الدولة السامية الذكر : السلطان عثمان الأكبر بن أرغل، ولي الخلافة ببلاد الروم عام(2) 696 : فعثمان(3) بن أرغل هذا ‹هو›(4) أصل نسب هؤلاء الملوك، وليس كما تزعم العامة من أنهم منسوبون لسيدنا عثمان ابن عفان رضي الله عنه، وقد حكى الأخباريون عن هذا السلطان عثمان بن أرغل أنه كان رجلا صالحا حافظا لكتاب الله تعالى ملازما لتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وكان قبل الخلافة يعاني حرفة الزراعة يأكل من عمل يده بما يعانيه من تلك الحرفة، فاختاره الله تعالى للخلافة الشريفة، والمثابة المنيفة، ومن شاء الله تعالى من أولاده ونسله، وكانت ولايته 10 (5) سنين، ثم تولى(6) بعده ولده اورخان، ورايات هذا اللواء كلها محمرة إلا ما يعرض لبعضها من الاتساخ والدخن، وكانت ولاية السلطان أورخان 40، ثم ولي ولده مراد بن أروخان، وكانت ولايته 30 سنة، ثم ولي {بعده} (7) ولده أبو جرير(8) بن مراد 20 (9) ثم ولي السلطان محمود(10) بن يزيد بن مراد 8، ثم ولي ‹ولده›(11) السلطان مراد بن محمود(12) 31، ثم ولي ولده محمد جحا(13) بن مراد 31، ثم ولي

(1) في (ف) العثمانية بدل العثامنة
(2) في (م) و (ف) سنة بدل عام
(3) في (م) و (ف) وعثمان مع الواو
(4) ساقط من (ف)
(5) كذا بالأصل ومثله في (م) أما (ف) ففيها (عشرين سنة)
(6) في (ف) ولي
(7) ساقط من الأصل
(8) كذا في النسخ المعتمدة، وصوابه أبو زيد.
(9) الذي في المراجع أن ولايته كانت 14 سنة.
(10) كذا في الأصل والصواب (محمد)
(11) ساقط من (ف)
(12) كذا بالأصل والصواب محمد كما نبهنا عليه سابقا.
(13) كذا في النسخ.

السلطان أبو يزيد بن محمد ابن(14) جحا 32، ثم ولي السلطان سليم أبو الفتح بن أبي(15) يزيد، وهو الذي ملك مصر من يد الغورى، وحكايته في الاقدام على محاربة الغورى(16) مع الخليفة العباسي(17) مشهورة، وحاصلها أنه استفتى علماء حضرته هل يجوز له ذلك فأفتوه بعدم الجواز كما هو ظاهر الحال. الا الكمال بن أبي شريف(18) فإنه كان حاضرا ساكتا، فقال له سليم : ما لك لم تتكلم؟ فقال : إن تكلمت خالفت هؤلاء، فقال <له> (19) إنه يجوز لك ذلك، وإنك مالك لهذه البلدة في هذه السنة، وإن ذلك في كتاب الله تعالى، فضحك منه العلماء لما سمعوا هذا الكلام، فقال <له سليم(20)> ما الدليل على هذا ؟ وفي أيى آية من القرآن ؟ فقال <له> (21) سلهم فإن عجزوا أجبتك وبينته لك، فسألهم فقالو نحن عاجزون، فقال لهم الكمال لابد من تأجيلكم، فإذا مضى الاجل بينته لكم، فقالوا ما قلناه لك الآن هو الذي نقوله {لك} (22) بعد الآجل، فقال : لابد من ذلك، فأجلهم السلطان اجلا. فلما حضروا بعد الأجل قال له الكمال : يا مولانا، الآية في قوله تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) فلما سمع العلماء ذلك ضحكوا أكثر من الأول، وقالوا له : ياهذا أين هذه الآية مما نحن فيه ؟ فقال لهم أحضروا بالكم، قوله تعالى (ولقد ...) في قوة سليم، فإن عدد (ولقد) 140 كعدد سليم 140 فهو في قوة النداء، كأنه قيل ياسليم، وقوله تعالى (كتبنا في الزبور) جواب النداء، أي كتبنا في القرآن أو <في> (23) اللوح المحفوظ، وقوله (من بعد الذكر) أي من بعد هذه المدة التي هي مدلول الذكر أي عدده <بإسقاط التعريف، وذلك 920 وإن كان الذي أرخوا به دخول سليم مصر هو 923 فليتأمل، وربما يقال إن البعدية من قوله (من بعد الذكر) تصدق بما

---

(14) كذا في النسخ

(15) في (م) و (ف) (ابن يزيد)

(16) هو قانصوه الغوري آخر ملوكا الجراكسة، كان ذا رأي ودهاء، توفي قتيلا سنة 922 هـ - 1516م.

(17) هو محمد المتوكل بن يعقوب المستمسك، آخر خلفاء بني العباس بمصر توفي سنة 950 هـ - 1543م.

(18) ابو المعالي كمال الدين محمد بن الامير ناصر الدين محمد المعروف بابن ابي شريف المقدسي الشافعي توفي سنة 905 هـ - 1499م.

(19) ساقط من (م) و (ف)

(20) ساقط من (ف).

(21) ساقط من (م) و (ف)

(22) إضافة من (ف).

(23) ساقط من (ف)

قرب كالواحد والعشرين والاثنين والعشرين والثلاثة والعشرين>(24) وقوله (أن الأرض) المراد بها(25) عند الأكثرين(26) مصر، وقوله (يرثها عبادي الصالحون) لاشك أنه ليس في الارض اليوم جند أصلح من جند مولانا السلطان من إقامة الجهاد ونصر الدين وحماية المسلمين، فلما سمع العلماء <ذلك> (27) أذعنوا فقالوا له : سلمنا هذا، فأين دليل جواز قتالهم ؟ فقال له : يامولانا، انو أنك تريد الحج والجواز من مصر واكتب الى الغورى واستأذنه في الجواز فإنه مانعك بلا شك، فيباح لك قتاله. فكان الامر كما قال بإذن الله سبحانه. <ومثل> (28) هذا الاخذ الذي أخذه الكمال من الآية المذكورة تقدم مثله في لواء العباسيين في ترجمة الناصر عن بن برجان في تفسيره في صورة الروم، فراجعه. فلما ملك سليم مصر واستأصل دولة الغورى أقام بمصر سنتين ونصفا وتوفي بها، ثم ولي ولده السلطان سليمان، ثم ولده السلطان احمد، ثم ولده السلطان مصطفى مدة يسيرة جدا، ثم السلطان عثمان المقتول ظلما، ثم ولي السلطان مصطفى ولاية ثانية، ثم ولي بعده السلطان امرض(29) بن احمد، ثم السلطان ابراهيم، ثم السلطان مصطفى، ثم السلطان احمد، ثم السلطان محمود ولد أخيه، ثم أخوه السلطان عثمان، ثم السلطان مصطفى بن احمد المذكور، ثم أخوه السلطان احمد، هذا كان هو السلطان في عام 1178، هكذا وجدناه مصححا عليه من غير رواية عن ثقة، وفيه مخالفة ماعند الزياني، فإنه سرد ملوكهم هكذا : عثمان، ورخان، مراد، محمد، مراد، <محمد>(30) يزيد، سليم، سليمان، سليم، مراد، محمد، أحمد، مصطفى، عثمان، مصطفى، مراد، ابراهيم، محمد، سليمان، احمد، مصطفى،عثمان، محمود، عثمان، مصطفى، حميد، سليم، مصطفى، محمود، انتهى، وهكذا كان في تاريخ 1231، وفيما ذكره أيضا مخالفة لقاعدة ذكرها، وهي أنه زعم أنه ضبط بها عمود هذا النسب فقال : ان المتكرر منه ثلاثة أسماء : محمد

---

(24) ساقط من (م) و (ف)
(25) في (م) و (ف) بالأرض
(26) في (م) و (ف) الأكثر
(27) ساقط من (ف)
(28) ساقط من (م)
(29) كذا بالأصل، وصوابه (مراد)
(30) ساقط من (م).

ومصطفى، ومراد، كل من هذه الثلاثة أربع مرات، وعثمان وسليم واحمد تتكرر كل من هذه الثلاثة ثلاث مرات، ومحمود وسليمان ويزيد تكرر كل من هذه الثلاثة مرتين، والباقي هو ورخان وابراهيم وحميد كل من هذه الثلاثة مفرد، فوجدنا مصطفى تكرر في العمود ست مرات، وهو عنده في الضابط المذكور أربع مرات، والخطب في ذلك قريب.

هذا آخر ما أردنا ذكره من هذا الجناح الأيمن من الجيش العرمرم.

والله المستعان على المراد.

الجناح الأيسر من الجيش العرمرم
في دول المغرب من الخلفاء أولي المنصب المعظم

قد ذكرنا أن المقصود بالذات في هذا الجيش إنما هو القلب، وأما أطرافه الأربعة فبالتبع والاستطراد على غاية الاختصار ليقع التفرغ لما هو المراد بالذات فنقول :

أما دول افريقيا ومن تداولها من الامراء في صدرالاسلام الى زمن هارون الرشيد فهو براح متسع تكفل به الكتب المبسوطة وأما مابعد ذلك من ملوك صنهاجة الأغالبة وأمثالهم من زناتة فإنهم ليسو بخلائف، وإنما هم أمراء تحت ولاية غيرهم، وإن كانت هذه الدول المذكورة ربما تزاحم الأئمة الكبار، بمناكبها في القوة والافتخار، ولكن نحن لا نذكر الا الأئمة الخلائف، لا مطلق الامراء من سائر الطرائف وألوية هذا الجناح سبعة : لواء الأدارسة، ولواء الامويين المعاصرين لهم بالأندلس ولواء المرابطين، ولواء الموحدين، ولواء الحفصيين، ولواء بني مرين، ولواء السعديين.

اللواء الأول من الجناح الأيسر الرفاف
في دولة الأدارسة الأشراف

هذا اللواء عال أحمر رفاف، له أذيال قصار، مرفوع بيمين العز في جميع البسائط المغربية والقرى والأمصار، ورايات هذا اللواء كلها حمر غير ناصعة الا الأولين فإنهما مشرقتان غاية الاشراق، وإلا راية يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس فرايته عالية حمراء إلا أن اسفلها أدخن، أما خبر دخول المولى ادريس بن عبد الله الكامل لبلاد المغرب في زمن الهادي العباسي فإنه معلوم مشهور في جميع الدفاتر والدواوين مذكور، وكان بلوغه الى مدينة وليلي سنة 172.

فائدة : ذكر العلامة القاضي أبو القاسم العميري[1] في فهرسته عن

---

(1) ابو القاسم بن سعيد بن أبي القاسم العميري بفتح العين نسبة الى بني عمير فرقة من تادلا الجابري التادلي آخر ادباء وقضاة العدل بمكناس توفي سنة 1178 هـ - 1764م.

تكميل التقييد لابن غازي(2)، أن مدينة وليلي هي المسماة بقصر فرعون الذي بقي أثر بناءه قرب زاوية زرهون وذلك البناء هو طابخة التي كانت في زمن مالك وابن القاسم(3) انتهى.

ونزل مولانا ادريس على رئيس البرابر حينئذ عبد المجيد الوربي(4) الاباضي المعتزلي، ففرح بذلك وبالغ في إكرام مأواه، وجمع القبائل البربرية وحشدها من أقطار المغرب، فبايعوه والتزموا طاعته ‹وقتال من خالفه› (5)، فلما مات موسى الهادي وبويع أخوه الرشيد وبلغه(6) شأن مولانا ادريس لم يقر قراره، فأشار عليه يحيى البرمكي بأنه لا طاقة له على مقاتلة البربر، ولاينفع في ذلك الا الحيل، فوجه الشماخ فكاده حتى سمه بنشوق(7)، وذلك سنة 175، وترك المولى ادريس الأصغر حملا، فلما وضع كفله مولاه راشدً، فلما بلغ عمره 11 سنة بايعه الناس كلهم ولم يتخلف عن بيعته أحد من قبائل البربر الذين كانوا بايعوا أباه ودخلوا في طاعته، وكانت بيعته عام 186، ثم لما توفي عام 213 بويع ولده محمد بن ادريس أكبر أولاده، وتوفي عام 220، ثم بويع ولده علي المدعو حيدرة، ومات عام 233، ولما بويع علي(8) خرج أخوه المزوار لعبادة ربه بالجبل، وهو أبو الشرفاء أهل العلم، ثم بويع أخوه يحيى بن محمد بن ادريس، وفي ولايته بني جامع القرويين، بنته امرأة من القيروان ذات مال كثير، ونقلت اليه الخطبة، وكانت بجامع الشرفاء الذي بجرواوة بعدوة الأندلس، ولما توفي يحيى عام 239 صوابه 249 كما في سلوة الانفاس وهو الصحيح بويع ولده يحيى بن يحيى، ولم تحسن سيرته، قيل إنه وقعت منه سقطة(9) مات ندما عليها بعدما أخرج من عدوة القرويين الى عدوة الاندلس فمات من ليلته، وهو آخر

---

(2) محمد بن احمد العثماني المكناسي المالكي الشهير بابن غازي خاتمة علماء المغرب ومحققهم، توفي سنة 919هـ - 1513م.

(3) عبد الرحمان بن القاسم بن خالد العتقي المصري ابو عبد الله الشهير بابن القاسم تفقه بالامام مالك ونظرائه، صاحب المدونة، وهي من أجل كتب المالكية، رواها عن الامام مالك، قال الحافظ في التقريب : خرج له البخاري وأبو داود في المراسل والنسائي، وهو من كبار الطبقة العاشرة انتهى، وفي الديباج، وذكر ابن القاسم لمالك فقال، عافاه الله مثله كمثل جراب مملوء مسكا.

(4) كذا بالأصل، والمعروف فيه الاوربي.

(5) ساقط من (م) ومن (ف)

(6) في (ف) بلغ غير موصول بالضمير

(7) كذا بالأصل، ومنشرق في (م) أما (ف) ففيها، بنشرق

(8) في (ف)، ثم بويع علي أخوه

(9) هي دخوله الحمام على يهودية نهارا، واسم اليهودية حنة، فقام عليه عبد الرحمان بن أبي سهل مع العامة وكادوا يفتكون به، ففر ومات ندما منها، ولقد أنكر في كتاب «الازهار العاطرة» الشيخ جعفر الكتابي هذه السقطة وجعلها فرية لا تناسب حال خليفة وشريف كما انكرها ولده محمد بن جعفر في السلوة.

ملوك أولاد محمد بن ادريس، فلما مات بعثوا الى علي بن عمر بن الامام ادريس، صاحب بلاد الريف، فبايعوه، واستولى على المغرب الى أن قام عليه عبد الرزاق الأندلسي الخارجي الصفري بجبل مديونة فدارت بينهما حروب كان آخرها أن هزم الخارجي علي بن عمر، فدخل الخارجي عدوة الاندلس وتمنعت عدوة القرويين، فولوا عليهم يحيى بن القاسم بن ادريس المعروف بالمقدام، فآل الأمر الى أن أخرج يحيى الخارجي من فاس وتملك العدوتين الى أن قتله الربيع ابن سليمان عام 292 غيلة، فتولى بعده يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس ‹ابن ادريس› (10) فملك جميع أعمال الأدارسة وخطب له في جميع منابر المغرب، وهو أعلى بني ادريس راية وأعظمهم ملكا وسلطانا، وكان فقيها عارفا بالحديث وسائر الفنون، ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه، فبقى أميرا الى أن جاء مصالة بن حبوس الكتامي عامل المهدي العبيدي فتحصن يحيى بفاس مدة حتى صالحه مصالة على أن يبايع للمهدي ويتركه على فاس خاصة، وعقد مصالة لموسى بن أبي العافية على جميع المغرب، عدا فاس ‹وذلك› (11) سنة 308 ثم لما عاد مصالة الى المغرب في سنة 309 أغراه ابن أبي العافية على يحيى فقبض عليه ونهب أمواله ووجهه لأصيلا وسرحه، ثم خرج منها وذهب الى المهدي بإفريقية فاعترضه موسى ابن أبي العافية فسجنه مدة مديدة، ثم ذهب الى إفريقية بعد ذلك فوصل الى المهدية وصادف في وجهه فتنة فبقى بها الى أن مات جوعا، قيل إن والده ادريس دعا عليه أن يموت جوعا في بلد غريب، والعياذ بالله تعالى، ثم قدم مصالة على فاس ريحان المكناسي، وتملك بنو عبيد جميع المغرب حتى قام عليهم الحسن بن محمد بن القاسم ابن ادريس بن ادريس المعروف بالحجام فزحف الى ريحان وأخرجه من فاس، ثم زحف الى موسى ابي العافية فأوقع به وقيعة شنعاء لم ير بالمغرب مثلها في أيام الأدارسة، مات فيها أزيد من 2000 قتيل من أتباع موسى، فلما رجع الحجام الى فاس تركه حامد ابن حمدان الى أن دخل فأغلق الباب دون جيوشه فقبض عليه، ودعا ابن أبي العافية فملك فاسا، فأراد موسى أن

(10) ساقط من (م) ومن (ل)

(11) ساقط من (ل).

يقتل الحسن فوجه حامد من أدلاه من السور فأفلت، ولما قتل موسى بنواحي ملوية بعد ملكه للمغرب 28 سنة تولى القاسم بن محمد الملقب كنون(12) ‹أخو الحجام فلما مات كنون تولى ولده أبو العيش احمد بن كنون›(13) وكان عالما فاضلا، فصالح عبد الرحمان الناصر فاستأذنه في دخول الأندلس للجهاد فأذن له، وقام بملك المغرب أخوه الحسن ابن كنون، فتغلب عليه المروانيون بعد ست عشرة سنة من ملكه، وأجازوه الى الأندلس، ثم صرفوه الى المشرق فلحق بالعبيديين، فجهزه العزيز بجيش ومال فجاء الى المغرب وملك ثانية، واستولى على المغرب كله 8 سنين (14) ثم وجه اليه المنصور بن أبي عامر جيشا فغلبوه على المغرب وقتلوه رحمه الله تعالى، وهو آخر ملوك الادارسة بالمغرب، والملك لله وحده، وأما ملك الحموديين(15) بعد ذلك في [جزيرة الاندلس](16) فإنهم من جملة الشوار، كذا قال بعضهم.

---

(12) في (م) وفي (ف) بكنون مجرورا بالباء
(13) ساقط من (ف)
(14) كذا في الاصول، وصوابه : ثماني عشرة سنة. وفي القرطاس : ومدة إقامته بدولته الثانية سنة واحدة وتسعة اشهر، فلعل ما هنا من تحريف الناسخ، هـ هامش.
(15) في (ف) المحمديون وهو خطأ
(16) ساقط من الاصل، انظر «العبر» لابن خلدون ج 4 ص 152-153.

اللواء الثاني من الجناح الايسر من الجيش العرمرم في دولة المروانيين بجزيرة الاندلس

هذا اللواء احمر، وراياته كذلك، وهي عشر رايات : أولها راية السلطان عبد الرحمان الداخل، وهو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وكيفية خلوصه ودخوله للمغرب معلومة لا غرض لنا فيها، فانه وصل الى الاندلس عام 136 فبويع فأقام في الملك 33‹سنة›(1) وتوفي عام 172 ثم بويع ولده هشام الرضى وتوفي عام 180 ثم بويع ولده الحكم بن هشام، وتوفي عام 206 ثم بويع ولده عبد الرحمان بن الحكم، وتوفي عام 238 ثم بويع محمد بن عبد الرحمان ابن الحكم، وتوفي عام 273 ثم بويع ولده المنذر بن محمد بن عبد الرحمان، وتوفي عام 275 ثم بويع اخوه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان، وتوفي عام 301 ثم بويع عبد الرحمان الناصر بن محمد بن عبد الله، رايته طويلة الرمح، خفاقة الاذيال، وتوفي عام 350 فمدة ملكه 50 سنة، وادرك من المآثر ما يبهر العقول، قال ولم يصف له في دنياه وعظم ملكه في هذه المدة المديدة الا اياما قلائل كان يعدها عدا، وقدرها اربعة عشر يوما، فلينظر العاقل الى عجائب الدنيا وعدم صفائها، وبخلها بكمال السرور(2) لأوليائها، وليحذر من الاغترار بما يظهر ببادئ الرأي من زينتها، فان ذلك امر خيالي لا حقيقة له.

‹فلا يغرركم مني ابتسام
فقولي مضحك والفعل مبك›(3)

والله يلهمنا لما فيه سعادتنا في الدارين بمنه.

‹لما ذكر الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي رضي الله عنه عبد الرحمان الناصر المذكور قال ما نصه :

---

(1) ساقط من (ب)

(2) في (ب) الشروط

(3) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ب) وقبله هي الدنيا تقول بملء فيها : حذار، حذار، من بطشي وفتكي

ودخل على هذه الخليفة ارسال الافرنج، وقد اظهر لهم من عظم الملك وضخامة الشأن ما يرهبهم، بسط لهم الحصر البديعة من باب قرطبة الى باب الزهراء قدر فرسخ، وصف الرجال عن يمين الطريق وشماله بأيديهم السيوف الطوال العراض مسلولة مجردة، مقرونا رأس السيف الايمن مع رأس السيف الايسر حتى صارت كعقد الحنايا قوسا على رؤوس المارة، وأمر بالارسال ان تمشي بين الصفين في ظلال تلك السيوف كانها ساباط فد خلهم من الرعب ما لا يعلمه الا الله تعالى، فما وصلوا الى باب الزهراء وجدوا الطريق مفروشا بالديباج الرفيع الملون من باب المدينة الى مقعده على تلك الحالة من الصفين والسيوف المسلولة، واقام في مواضع مخصوصة حجابا على كراسي مزخرفة عليهم الديباج المذهب والحرير، فما ابصروا حاجبا الا ظنوا انه الخليفة فيسجدون، ويقال لهم ارفعوا رؤوسكم انما هذا عبد من عبيده، وهكذا عند كل مسافة وحاجب حتى وصلوا الى ساحة مفروشة بالرمل النقي، والخليفة في وسطها قاعد على الارض مطرق، وعليه ثياب خلق قصار لا يساوي كل ما عليه اربعة دراهم، وبين يديه مصحف وسيف ونار، فقيل لهم : هذا هو السلطان، فسجدوا فرفع رأسه اليهم قبل ان يتكلموا وقال لهم : يا هؤلاء ان الله تعالى امرنا ان ندعوكم الى هذا كتاب الله، وأشار الى المصحف، فان أبيتم فبهذا، وأشار الى السيف ومصيركم إن قتلناكم الى هذا، وأشار الى النار، فملئوا منه رعبا، وامر باخراجهم ولم يزدهم على ذلك، فصالحوه على ما أراد انتهى. قال الشيخ محيي الدين رضي الله عنه هكذا هكذا يعز دين الله والا فلا انتهى>(4)،
ثم بويع ولده المستنصر(5) الحكم بن عبد الرحمان الناصر، وتوفي عام 366 ثم بويع ولده هشام المؤيد بن الحكم وهو محجور وزيره محمد ابن أبي عامر المدعو المنصور داهية العالم، وتوفي بن ابي عامر عام 392، فلما توفي وقع الهرج واختلت الامور، وخلع هشام المحجور عام 399 ثم رد واقام بعد

---

(4) ساقط من (ف) و (م)، والخبر وارد في محاضرة الابرار لابن عربي (ج 2 ص 195) ونجد نظير هذه الحكاية عن المقتدر العباسي في تاريخ بغداد ج 1 ص 100 لدى كلامه على القصر الحسيني، قـ ولقد ورد رسول صاحب الروم في أيام المقتدر بالله العباسي، ففرشت الدار بالفرش الجميلة، ووصف ذلك الاستقبال بوصف يبلغ ...بة القصري في الروعة والعظمة، الا أن مجلس المقتدر مباين في هيئته لمجلس الناصر حيث ظهر للرسول بمظهر يعجز اللسان عن وصفه، وكان ذلك سنة 305 هـ.

(5) في (م) المنتصر، والصواب ما كتبنا.

ذلك سنتين، ثم لم يظهر له اثر، فقيل انه اغتيل، وقيل انه وقع العثور عليه في قبره، وأخرج وصلي عليه على يد علي بن حمود الادريسي، ومن العجائب المنقولة انه بعد هذا بمدة ظهر رجل وادعى انه هو هشام بن الحكم، فصدقه القاضي بن عباد، وأقام له دولة نحو عشرين سنة وهو في خدمته بمنزلة الوزير، ولم يستقر(6) ‹الملك›(7) بعد ذلك لبني مروان، وتوزع الطوائف ملك الاندلس حتى دخل المرابطون فكانت الخلافة لهم، واطردت لهم الامامة لشدة عصبيتهم(8)، ولله ‹الخلق›(9) والامر.

---

(6) كذا بالاصل وفي (م) و (ن) يستقم.
(7) ساقط من ف
(8) في ف عصبتهم
(9) ساقط من ف.

اللواء الثالث من الجناح الأيسر من الجيش العرمرم في دولة المرابطين

هذا اللواء أحمر قيصر الاذيال، واهي الاطراف تحته رايات خمس أولها راية أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أما أبو بكر ومن قبله فلم تتم لهم الامامة.

وكان من حديث بداية ملكهم أن المرابطين وهم اللمتون والملثمة(1) من قبائل صنهاجة، وكان رئيسهم يحيى ابراهيم الأكدالي، توجه لفريضة الحج فمر في رجوعه بالفقيه أبي عمران الفاسي بالقيروان فطلب منه أن يوجه <معه> (2) أحد تلامذته يعلمهم الدين، فعرض الفقيه ذلك على التلامذة فلم يقبل أحد ذلك، وشق عليهم الذهاب للصحراء لضيق المعيشة وبعد الشقة(3)فكتب أبو عمران لتلميذ له بسجلماسة يقال له محمد وگاگ اللمطي، فوجه معهم عبد الله بن ياسين الجزولي، فكان يعلمهم ويأمرهم بكثرة الصلاة والصيام والعبادة، فشق عليهم ذلك فهربوا عنه، فترهب هو ويحيى ابن ابراهيم في جماعة قليلة من أولاده وأقاربه، فاعتزلوا في جزيرة في وسط الماء اذا هرب البحر خرجوا وأتوا بالزاد وما يحتاجون إليه، فلما رآهم الناس كذلك سموهم المرابطين وصار الناس يأتونهم ويدخلون في الدين افواجا، فلما كملوا الفا قال لهم ابن ياسين هذا عدد لايغلب <من قلة> (4) فيجب(5) علينا قتال من يلينا من الكفار، فكانوا يقاتلون وينصرهم الله تعالى حتى كانوا نحو ثلاثين ألفا فكتب اليهم وگاگ اللمطي يشكو ما أصاب المسلمين من جور أمراء مغراوة بسجلماسة ودرعة، فدخلوا لسجلماسة وفتحوها وفتحوا درعة والفايجة وسوس، ولما مات يحيى ابن ابراهيم قدم عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر فمات في جهاد قوم الكفار من السودان عام 430 وقدم ابن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر وعلى يديه

---

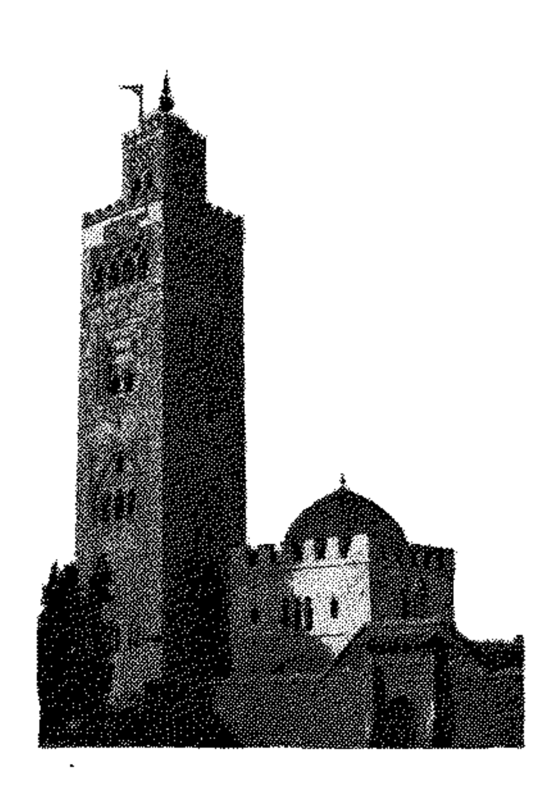
(1) في م وفي ل : الملثمة، وهو تصحيف
(2) مابين العلامتين ساقط من ل
(3) في م وفي ل : المشقة
(4) ساقط من م ومن ل
(5) في ل فوجب بصيغة الماضي

فتحت البلاد المذكورة، ثم فتحوا مدينة اغمات ورجع أبو بكر للصحراء، وقدم ابن عمه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فعظم أمره وجعل يقاتل الخوارج برغواطة، وفي جهادهم مات عبد الله بن ياسين، فلما رجع أبو بكر وجد يوسف قد اشتد أمره وعظم سلطانه، فرجع(6) للصحراء وسلم له الامر، ثم لما استأصل يوسف برغواطة وقلع أصلهم، وأخلى حضرتهم، وهي أنفا وهي المسماة اليوم الدار البيضاء، أسس مراكش عام 454 ثم فتح سلا وفاس وتلمسان، ولم يخالفه أحد الا دمره الله حتى دانت له بلاد المغرب ودخل الاندلس ودوخها واستأصل طوائف الثوار بها، ومات عام 500 ثم بويع ولده علي بن يوسف، وفي أيامه ظهر المهدي بن تومرت وخبره معه طويل، ولما مات علي بن يوسف عام 537 بويع ولده تاشفين بن علي ومات بناحية وهران في محاربة عبد المؤمن الموحدي عام 541، ثم بويع ولده ابراهيم بن تاشفين بن علي ولد صغير ثم خلع وبويع عمه اسحاق بن علي بن يوسف فقتل عام 542 وانقرضت دولة اللمتون، والملك الدائم الذي لا يبيد لله وحده لا شريك له سبحانه.(*)

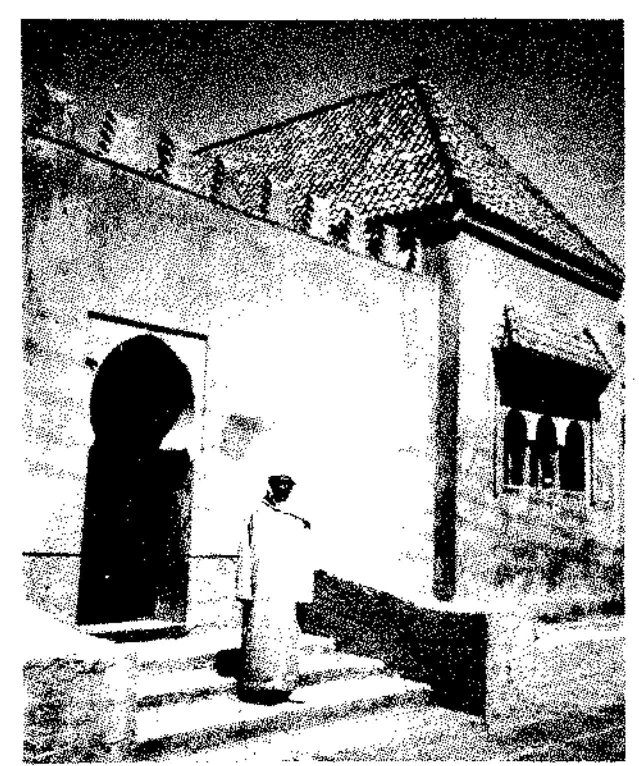
(*) قلت : ان الضريح الذي ظهر بحومة الكتبية وبإزائه صورة يوسف بن تاشفين الحيالية بذاكرة المدن ربما يفهم منه انه ضريح يوسف المذكور وهو غلط فاحش ارتكبه الأستاذ محمد بن عبود في كتابه تاريخ المغرب ج 1 ص 63 وتبعه آخذ الصورة المذكورة في حين ان ضريح يوسف بحومة سيدي ميمون أو بساحة الكتبية كما يشاهد من الصورتين أسفله.

وللذلك يجبر بالذكر ترجمة زهراء بنت الكوش في هذا المكان، وهي بنت عبد الله أبي محمد المعروف الكوش من أهل مراكش المتوفى سنة 960هـ 1552م، اما بنته زهراء، ذكرها الحضيكي في مناقبه ج 2 ص 222 وحلاها بالسيدة الفاضلة الناسكة الصالحة رانها كانت من أولياء الله المتقين والنساك الصديقين العارفين لها قدم راسخ في ذلك، أخذت عن أبيها ولم تتزوج قط، ذكر جمالها للسلطان زيدان بن المنصور السعدي فاهتم بها، ثم رأى من كراماتها ما يصرفه عنها، وكراماتها كثيرة مشهورة، توفيت اثر 1020هـ 1611م وقبرها شهير بحومة الكتبية بمراكش وترجمها الافراني في الصفوة ص 162.

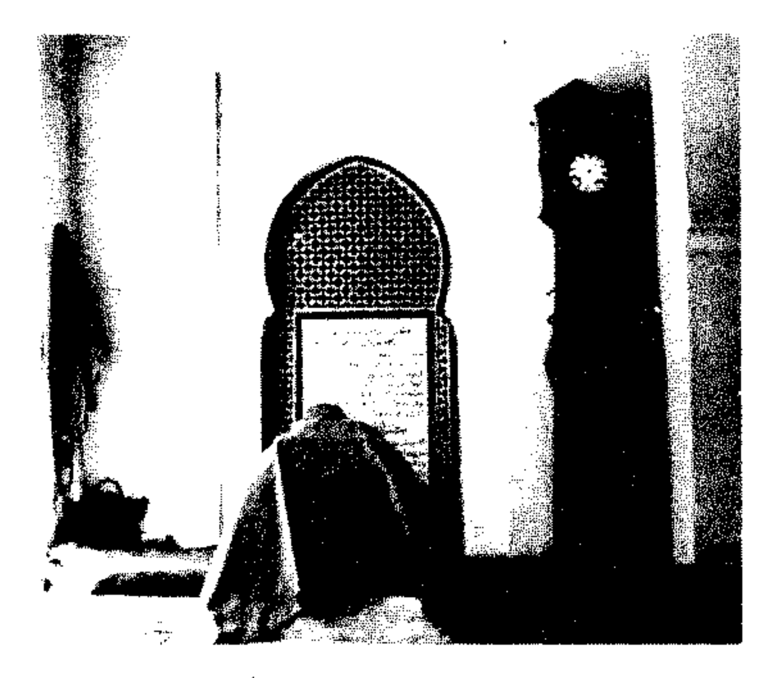
(6) في ل : ورجع.



ضريح زهرة بنت أبي محمد الله الكوش
(صاحب الشيخ عبد الكريم الفلاح ووكيله على إطعام الطعام)
أما زهرة المذكورة فقد عرف بها الإفراني في صفوة من انتشر فهي من أهل القرن 11 هـ،
وأبوها توفي عام 960 هـ ترجمه في الدوحة.



مدخل الضريح ليوسف



ضريح يوسف بن تاشفين

اللواء الرابع من الجناح الأيسر من الجيش العرمرم في دولة الموحدين

هذا اللواء أحمر مذيل، وهو عريض ليس بطويل، راياته[1] على لونه، أما خبر المهدي الذي هو مركز دوائرهم فإن جلبه يطول، ولا غرض لنا فيه هنا، وبالجملة فهو من عجائب قدرة الله تبارك وتعالى الذي إذا أراد شيئا كان ولو بأدنى سبب، فإن هذا الرجل مفرد عار من جميع الأمور التي توجب الملك والتغلب على الأمم، عمد الى دولة صحيحة تامة القوة والعصبية في عنفوان شبابها فقوض بناءها، وأفرغ اناءها.

آثاره تنبيك عن أخباره   حتى كأنك بالعيان تراه

ولما مات المهدي عام 524 قام بأمره تلميذه عبد المؤمن بن علي الكومي، ومات عام 558 ثم بويع ولده يوسف بعد خلع أخيه محمد بن عبد المؤمن، ومات يوسف عام 580 ثم بويع ولده يعقوب المنصور ومات عام 595 ثم بويع ولده الناصر محمد، قال في نفح الطيب إنه كان يقال له المشؤوم، لأنه على يده وقعت غزوة العقاب التي هلك فيها من المسلمين ستمائة ألف، ومن ذلك العهد انكسر جناح الإسلام، ولما مات الناصر مسموما عام 616 بويع ولده المنتصر يوسف ابن محمد، وكان جميل الصورة يبهر الناظرين بجماله، وكان مولعا بالبقر يحضر حلا بها وانتاجها فنطحته بقرة شرود فمات ولم يعقب عام 620 ثم بويع ابن عمه عبد الواحد الرشيد بن يوسف بن عبد المؤمن فمات مخلوعا مخنوقا عام 621 ثم بويع عبد الله العادل بن يعقوب المنصور، ثم خلع العادل ولم يخلع نفسه وقتل على ذلك، وبويع أخوه ادريس المأمون ومات حتف أنفه عام 630 بعدما قتل من أشياخ الموحدين والخلط والمصامدة في وقت واحد هذا 460 نقضوا عليه العهد، ثم بويع ولده عبد الواحد بن المأمون ومات غريقا في الصهريج عام 640 ثم بويع أخوه علي السعيد، وفي أيامه اشتد أمر بني مرين واستولوا على مكناسة، ثم قتل السعيد بوجدة عام 643 ثم بويع أخوه عمر المرتضى، فبقي في لهوه وبنائه وغرسه، وبنو مرين كل يوم يزداد أمرهم حتى ملكوا فاسا

---

(1) في (م) وفي (ف) رايته بالافراد.

وأميرهم أبو يحيى بن عبد الحق، فقام ادريس الواثق ابو دبوس فقدم على ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني فأعطاه المال والجنود، فدخل مراكش، وهرب المرتضى لصهره ابن عطوش بأزمور فقبضه ووجهه لابي دبوس فقتلوه مع ولده في الطريق عام 665 فكان ذلك آخر دولة الموحدين بالمغرب، والملك والبقاء لله سبحانه وتعالى.

اللواء الخامس من الجيش العرمرم في الدولة الحفصية الموحدية بافريقية وقاعدتها تونس

هذا اللواء أزرق طويل مخرق بزعازع الرياح، لا يفارقه العويل والصياح، وراياته الكثيرة على لونه وصفته، وكان من حقه ان لا يذكر مع الوية الخلائف لان حاله الى الثوار اقرب، فانه شعبة من الموحدين استقلوا بانفسهم على بني عبد المومن، لما ظهر الضعف في دولتهم، فأولهم أبو حفص(2) ولي عام 603 ثم ولي بعده ولده محمد المستنصر(3) ثم ولده يحيى الواثق، ثم ابراهيم بن زكرياء، ثم قام الدعي عمارة الخياط، وقتل ابراهيم، وملك حضرة تونس، ثم قام عمر <بن>(4) المستنصر فقتل الدعي وتملك، ثم قام أبو عصيدة بن الواثق، ثم أبو بكر بن الشهيد، ثم خالد بن أبي زكرياء، ثم <أبو يحيى بن أبي العباس. ثم أبو يحيى بن أبي>(5) بكر، ثم ولده عمر، فقتله أبو الحسن المريني، وتملك تونس من جملة بلاد افريقية، ثم لما نكب ابو الحسن تفرقت مملكة افريقية شذر مذر، فآل الامر الى ولاية محمد بن المنصور بتونس، فلما مات عام 959 بويع اخوه عثمان بن المنصور، ثم محمد بن الحسن، ثم حسن بن محمد، وكان له من الاخوة 45 فقتلهم جميعا في وقت واحد بالسم الا اثنين لم يكونا حاضرين، الرشيد وعبد المؤمن فأفلتا، وحسن هذا كان يدعى الفاسق لكثرة فسقه، قيل كان عنده من الغلمان الذين قهر آباءهم 300 ثم ولي ولده من بعده حميدة، وكان على سبيل أبيه الا انه على عكسه في الفسوق، وقيل كان عنده من النساء المغصوبات 400 فبقي على ذلك حتى سمع السلطان سليم العثماني بسوء أفعاله فوجه من قبض عليه، وذهب مسجونا للاسطمبول، وانقرضت دولة الحفصيين وانتهى أمرهم، والملك الدائم الذي لا يزول لله وحده.

---

(2) الذي في كتب التاريخ ان اولهم هو ابو محمد عبد الواحد بن الشيخ ابي حفص عمر

(3) في (م) المنتصر

(4) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(5) ما بين العلامتين سقط من (م) ومن (ف)

اللواء السادس من الجيش العرمرم
في دولة بني مرين

هذا اللواء أحمر الا انه لما تحته من كثرة الفتن[1] مائل الى الدكنة، وراياته كذلك، واولهم في الحقيقة عبد الحق بن محيو بن ابي بكر بن حمامة، قال القرطاس في كتابه : كان عبد الحق بن محيو من الصالحين، وكانوا يزدحمون على فضلة وضوئه للتبرك بها، والقرطاس لقب لمؤلف الكتاب المعلوم، نبهنا عليه لانه يظن انه اسم او وصف للكتاب <وليس كذلك>[2].

كان عبد الحق رئيسا على قومه ولا بيعة له، ثم مات[3] وولي (بعده)[4] ولده عثمان بن عبد الحق مكانه ومات عام 614 ثم ولي ولده الآخر[5] محمد بن عبد الحق، ومات عام 637 ثم ولي ولده الثالث أبو يحيى، ويكنى أبا بكر بن عبد الحق، وهو الذي دخل فاسا ولم تكمل له الخلافة، مات سنة 642 ثم ولي أخوه وهو يعقوب بن عبد الحق أمير المؤمنين، وهو رابع اولاد عبد الحق، وهو الذي بنى المدينة البيضاء فاسا الجديد، مات عام 656 ثم بويع ولده يوسف بن يعقوب، ومات عام 685 ثم ولي عامر بن ابي عامر بن يوسف، ومات عام 706 ثم ولي سليمان بن يوسف، ومات عام 708 ثم ولي أبو سعيد عثمان بن يعقوب، ومات عام 710 ثم ولي أبو الحسن علي بن عثمان، ومات عام 731 ثم ولي ابو عنان بن ابي الحسن، ومات عام 749 ثم ولي السعيد بن أبي عنان وهو صبي خماسي فأقام 43 يوما ومات عام 749 ثم ولي أبو سالم بن أبي الحسن، ومات عام 760 ثم ولي تاشفين[6] الموسوس بن ابي الحسن، نصبه الوزير عمر بن عبد الله صورة لا غير، ثم خلعه عام 762 ثم ولي أبو زيان محمد

---

(1) في الفاسية الفتنة بالافراد

(2) ما بين العلامتين ليس في غير الاصل

(3) في روضة النسرين لابن الاحمر انه توفي سنة 614 نقل ذلك عن الذخيرة السنية، وكانت وفاته في المعركة التي كانت بين بني مرين وعرب رياح المشهورة.

(4) ما بين المعقوفين ساقط من الاصل فاضفناه رواية عن (م) و (ف)

(5) في (م) و (ف) (الثاني) بدل (الآخر)

(6) في الفاسية (يوسف) بدل (تاشفين) وهو خطأ

حفيد أبي الحسن، مات عام 763 ثم ولي أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن، وفي أيامه فر <ابن>(7) الخطيب السلماني من الاندلس الى أن قتل في أيام <أبي>(8) العباس احمد بن أبي سالم(9) ومات أبو فارس عام 769 ثم ولي ولده السعيد صبيا سباعيا، ومات عام 774 ثم ولي ابو العباس احمد بن ابي سالم، وعزل عام 775 ثم ولي موسى بن <أبي>(10) عنان ومات عام 786 ثم ولي المنتصر بن أبي العباس، ومات عام 789 ثم ولي الواثق بن أبي الفضل بن أبي الحسن غير معتد به، ومات عام 789 ثم ولي أبو العباس ولاية ثانية، ومات عام 790 ثم ولي أبو فارس بن أبي العباس، ومات عام 796 الى هنا انتهى ابن خلدون في تاريخ هذه الدولة لان ذلك <هو>(11) زمانه.

وقال غيره <ثم>(12) لما مات السلطان احمد أبو العباس بويع ولده عبد العزيز ابن أحمد، ومات عام 800 ثم بويع اخوه المستنصر(13) عام 820 <ثم بويع اخوه أبو سعيد ومات عام 823>(14) ثم بويع ولده عبد الحق الآخر، ومات عام 869 ثم بويع محمد فتحا الشيخ الوطاسي أول الوطاسيين ومات عام 904 <ثم بويع ولده محمد بن محمد الشيخ ومات عام 932>(15) ثم بويع أبو حسون وخلعه أحمد بن محمد ءاخر <بني وطاس>(16) وبه انقرضت دولة بني مرين والملك الباقي لله سبحانه.

---

(7) ما بين العلامتين سقط من الفاسية
(8) ما بين العلامتين سقط من (م)
(9) في الفاسية (سليم) وهو خطأ
(10) ما بين العلامتين سقط من (م)
(11) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)
(12) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)
(13) في (م) (المنتصر)
(14) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)
(15) ما بين العلامتين سقط من (ف)
(16) ما بين العلامتين سقط من (م)

اللواء السابع من الجناح الأيسر من الجيش العرمرم في دولة السعديين

وهو لواء أحمر الأوائل والأعالي حميدها، أدكن الأواخر(1) والأسافل نكيدها، ولما(2) ضعفت دولة بني مرين وتلاشت أسبابهم وفشلت رياحهم كلب العدو الكافر على السواحل ‹من بلاد المغرب›(3) وأريافها، وكان ذلك سبب قيام الدولة السعدية بأقصى المغرب في بلاد السوس، وسبب ذلك ما رواه ‹الشيخ أبو زيد سيدي عبد الرحمان بن›(4) الشيخ سيدي عبد القادر الفاسي عن الشيخ أبي العباس سيدي أحمد ‹بن علي السوسي›(5) الهشتوكي البوسعيدي أن ابتداء دولة الشرفاء بسوس ‹سببها›(6) أن بعض السادات الصلحاء وهو سيدي بركات بن محمد بن أبي بكر التدسي(7) توسط في فداء بعض الاسارى فاراد ان يكون الاتفاق مع النصارى على أن لا يقبضوا أسيرا، فكلمهم في ذلك فقالوا له : حتى يكون لكم أمير. فان ملككم قد اضمحل، ثم ان قوما ذهبوا يكتالون من قبيلة هذا الشيخ وهي كسيمة فنهبتهم كسيمة واخذوا جميع متاعهم، فذهبوا الى الشيخ المذكور وكان مسموعا مطاعا، فوقف معهم حتى أخذوا جميع ما نهب(8) منهم، فلما رجعوا الى قومهم قالوا ان هذا الشيخ هو الذي يليق أن تبايعه فذهبوا اليه وطلبوا منه ان يرأس عليهم، فامتنع واحتاط لدينه(9) ودلهم على رجل شريف كان مؤذنا بدرعة، فقال لهم ان كنتم عزمتم على هذا فاذهبوا اليه،

---

(1) في (م) (الاوائل والاواخر)

(2) في (ف) لما بدون واو

(3) وما بين الملامتين سقط من (م) و (ف)

(4) ما بين الملامتين يوجد في الاصل وحده، وابو زيد هو عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، كان مشاركا في الفنون، قوي الادراك، جم التحصيل منفردا بتحقيق التعاليم من هيئة وطب وتوابعهما، تزيد مؤلفاته على مائة وسبعين مؤلفا وكان أبوه يقول عنه انه سيوطي وقته، توفي سنة 1096 هـ-1684 م.

(5) ما بين الملامتين لا يوجد في غير الاصل، والهشتوكي هو ابو العباس احمد بن علي السوسي البوسعيدي الهشتوكي الصنهاجي، عالم عصره وسيد مصره، مؤلف بذل المناصحة، في فضل المصافحة، وصلة الزلفى في التعريف بآل المصطفى، أفاد في الدليل بأنه بالخزانة الفاسية ت (سنة 1046 هـ-1636 م).

(6) ما بين القوسين يوجد في الاصل وحده.

(7) بركة بالإفراد، قال الحضيكي، بركة محمد بن محمد بن أبي بكر التدسي، كان رضي الله عنه أستاذا قارئا لكتاب الله تعالى، تاليا بروايات، عابدا ناسكا وليا صالحا، توفي رحمه الله عام 935 هـ-1528 م.

(8) في (م) (الهم) بدل (منهم)

(9) في (ف) (على دينه)

فانه يذكر ان ولديه يملكان المغرب، فقصدوه واتوا به الى بلدهم، وفرضوا لهم مئونة كفايته وأولاده فجعل الناس يجتمعون اليه شيئا فشيئا لجهاد الكفار حتى كان من أمره(10) ما كان، وكان هذا الخبر في حدود التسعة <عشر>(11) وتسعمائة، <وقد>(12) كان الشيخ أبو الحسن علي بن هارون(13) فيما حكى عنه يأخذ ابتداء دولة شرفاء درعة من قوله تعالى {ولقد كتبنا في الزبور} الآية، ولعله وقف على ما أسلفناه في لواء العشامنة، واتفق قرب تاريخ السعدية من ذلك التاريخ الذي بيناه وبينا كيفية أخذه من الآية والله أعلم.

ولما توفي محمد القائم عام 923 وبويع ولده أحمد الاعرج بعهده، ثم قام عليه أخوه محمد فتحا الشيخ فقبض عليه مع جميع أولاده(14) وسجنهم بمراكش عام 946 ثم قام بالامر محمد الشيخ المذكور المدعو المهدي حتى قتله الاتراك عام 964 ثم قام ولده الغالب عبد الله ومات عام 981 ثم عهد لولده محمد الشيخ المعروف بالمسلوخ وقتل مع النصارى في غزوة المخازن عام 986 وكان تغلب عليه أخوه عبد الملك الغازي عام 983 ثم بويع احمد الذهبي المنصور ومات عام 1012 ثم بويع ولده زيدان بفاس وبايع أهل مراكش أخاه أبا(15) فارس فقتل أبو فارس عام 1018 ثم توفي زيدان عام 1037 ثم بويع ولده أحمد بن زيدان ولم يتم له أمر، ثم قام أخوه عبد الملك بن زيدان فقتله الاعلاج عام 1040 ثم قام أخوه الوليد بن زيدان <فقتل عام 1045 ثم قام أخوه محمد الشيخ بن زيدان>(16) وتوفي عام 1064 ثم بويع ولده احمد <أبو>(17) العباس بن الشيخ <بن>(18) زيدان فقتله أخواله

---

(10) في غير الاصل (منه) بدله

(11) ما بين العلامتين سقط من غير الاصل

(12) ما بين العلامتين يوجد في الاصل وحده

(13) علي بن موسى المضغري أبو الحسن من مضغرة سجلماسة عرف بابن هارون، فقيه فرضي عددي مفتي، من تلامذة ابن غازي توفي سنة 951 هـ-1544 م.

(14) كذا بالاصل اما عبارة (ف) و (م) فهي كما يلي : (وبويع ولده احمد الاعرج بعهده، وقبض عليه اخوه، محمد الشيخ مع جميع اولاده) وهي تختلف عن الاصل.

(15) في (م) (فارس) بدون أبا وهو سهو من الناسخ

(16) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(17) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)

(18) ما بين العلامتين سقط من (ف)

الشبانات وبموت أحمد <أبي>(19) العباس هذا، انقرضت دولتهم، فمدة دولتهم مائة وخمسون سنة.

وأما محمد <بن>(20) الشيخ بن المنصور(21)، وكذلك ولده عبد الله، وكذلك عبد الملك بن الشيخ بن المنصور، وكذلك محمد بن الشيخ المعروف بزغودة فهؤلاء كلهم ثوار لا بيعة لهم، وكذلك كل من نازع زيدان الذي صحت بيعته كاحمد بن عبد الله أبي محلى(22) ويحيى بن عبد الله بن الشيخ أبي عثمان سيدي سعيد بن عبد المنعم(23) وعلي بن محمد حفيد الشيخ الكامل سيدي أحمد بن موسى السملالي وهو المعروف بأبي حسون(24)، وأما سيدي محمد بن احمد العياشي(25) المجاهد فإن رضى العلماء بفعله، وثناءهم عليه، ووصفهم له بأنه مجاهد كالشيخ عبد الواحد بن عاشر(26) وغيره الظاهر من ذلك انه لا يحسب من الثوار النازعين لليد من طاعة من ثبتت إمامته بدليل ما ذكره الشيخ العلامة سيدي الصغير الافراني في كتابه «صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر» قال في ترجمة هذا السيد العياشي ما نصه : كان رحمه الله لما طلب منه السلطان يعني زيدان القيام بالذب عن الاسلام امتنع من ذلك الا أن يجتمع على ذلك أشياخ القبائل <وأعيان الناس>(27) وأهل الحل والعقد ويكتبوا

---

(19) ما بين العلامتين لا يوجد في غير الاصل

(20) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(21) جاء في طرة الاصل بقلم غير قلم الناسخ ما نصه (لعل اصل العبارة، واما الشيخ بن المنصور وكذلك الى آخره، فحرف الناسخ لان محمد بن الشيخ هو زغودة المذكور بعد).

(22) هو الفقيه المؤلف الثائر مدعي المهدوية أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بابي محلي، وقد تتبع الدكتور محمد حجي مواطن مواقفه في حركته الفكرية توفي عام 1022 هـ-1613 م بعد قيامه عام 1019 هـ-1610 م ورمز لذلك الفقيه أبو العباس احمد المريدي المراكشي فقال (قام طيشا ومات كبشا).

(23) الفقيه المحدث المشارك، قال الحضيكي له تآليف مفيدة وأشعار وأسجاع، توفي سنة 1035 هـ-1625 م.

(24) وصفه صاحب الاستقصا، بأنه كان لين الجانب، محمود السيرة، دعا لنفسه في القطر السوسي لما ضعف أمر السلطان زيدان، واستولى على القطر، وبعد وفاة زيدان مد يده الى درعة فاستولى عليها، ثم على سجلماسة ونواحيها الى أن أخرجه منها المولى محمد بن الشريف العلوي بعد معارك، واستمرت ولايته بسوس الى أن توفي عام 1070 هـ-1659 م.

(25) هو محمد بن أحمد العياشي الزياني الفقيه المالكي الولي الصالح المعروف بالمجاهد، فيحتضن له التاريخ في الجهاد مواقف مشرفة تعرف بوقوف الباحث عليها، كان مسلوب الارادة من قبل شيخه وموجهه للجهاد الشيخ عبد الله بن أحمد بن حسون المشهور المتوفى سنة 1013 هـ-1604م ، وتأخر عنه العياشي مجاهدا كما امره الى أن توفي سنة 1051 هـ-1641م.

(26) هو الامام ابو محمد عبد الواحد بن احمد الانصاري المعروف بابن عاشر، كان مشاركا متبحرا مثابرا على التعليم ونفع العباد مع الزهد والورع ، توفي سنة 1040 هـ-1630م.

(27) ما بين القوسين في الاصل وحده

ذلك ‹وأنهم قدموه›(28) على أنفسهم والتزموا طاعته، وكل قبيلة خالفته ‹وحادت عن طاعته›(29) كانوا معه يدا واحدة ‹على مقاتلتها›(30) حتى ترجع الى الحق، فوافقوه على ذلك ووافقه علماء الوقت وقضاته من بلاد تامسنا الى تازا، وكان الحامل له على ذلك أن بعض طلبة الوقت قال إنه لا يحل الجهاد الا مع الامير، ففعل ذلك خروجا من تلك الدعوة الواهية، والا فقد كتب له علماء الوقت كسيدي عبد الواحد بن عاشر وسيدي العربي الفاسي(31) وسيدي إبراهيم الجيلالي(32) وغيرهم أن مقاتلة العدو الكافر لا تتوقف على وجود السلطان، وجماعة المسلمين تقوم مقامه، ولم يزل رحمه الله مشمرا على ساق الجد في سد الثغور وحماية البيضة(33) الى أن غدره قوم من الخلط بموضع سمي عين القصب فاحتزوا رأسه في تاسع وعشرين(34) من المحرم سنة إحدى وخمسين وألف، وقد رمزوا لتاريخ وفاته(35) بقولهم مات زرب الاسلام باسقاط ألف الوصل، ‹وفي الرحلة العياشية قال : أخبرني الشيخ محمد الفزاري(36) بمكة قال : كان بالمدينة المشرفة رجل مغربي من أهل القصر، قال فجاءني ذات يوم وقال لي : إني رأيت في النوم أجنة كثيرة وقصورا لا يوصف حسنها، ورأيت رجلا جالسا مقطوع اليد تسيل دما، فقلت له : من أنت ؟ فقال أنا زرب الاسلام، قطعت يدي بسلا، فلما أخبرني قلت له : الذي يظهر من رؤياك أن الرجل الصالح المجاهد العياشي الذي كان بسلا قد قتل، قال فقدم الحاج آخر السنة وأخبرونا بموته›(37) انتهى، المراد منه ‹قلت : وقول من قال من

---

(28) ما بين العلامتين يوجد في الاصل وحده
(29) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)
(30) ما بين العلامتين في الاصل وحده
(31) هو أبو عبد الله محمد العربي بن الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي الفهري، قال عنه صاحب السلوة، بحر العلم الزاخر، نادرة الزمان حفظا رفهما وإتقانا وذكر له مؤلفات عديدة توفي سنة 1052 هـ-1642 م.
(32) هو إبراهيم بن عبد الرحمان بن عيسى الجلالي أصلا الرياجلي دارا ومنشأ، من صلحاء الفقهاء، له مؤلفات وكلام في الاقضية والنوازل توفي سنة 1047 هـ-1642 م.
(33) في (م) و (ف) (حماية المسلمين).
(34) في الصفرة 19 محرم
(35) في (م) و (ف) (ومرته)
(36) قال عنه العياشي في الرحلة ج 2 ص 46 ما نصه : كان من ألزم المجاورين بالمدينة المشرفة، وأكثرهم للأماكن التي هناك تزار معرفة، قدم من بلاده فزارة التي بين أعالي النيل وأرض السودان فاستوطن المدينة قريبا من اربعين سنة، وله مشاركة في فقه مالك.
(37) ما بين القوسين سقط من (م) و (ف).

العلماء المذكورين إن قتال العدو الكافر لا يحتاج الى وجود السلطان معناه والله أعلم اذا لم يكن السلطان موجودا بدليل قولهم، وجماعة المسلمين تقوم مقامه، وأما مسألتنا هذه فان السلطان موجود كما هو ظاهر فليتأمل›[38] ولينظر أيضا في أهل الدلاء، فانهم علماء ربما كان اعتمادهم على تأويل، وإن كان بعيدا عن مذاهب الجمهور، وعلى ما ذهبوا اليه من الحجة تكون حجة مولانا محمد بن الشريف وإن كان ذكر هؤلاء الثوار لو ذكرناهم لا يخلو عن ذكر فوائد، ولكن ذلك يفضي بنا الى الطول والخروج عما نحن بسبيله من الاختصار، والله أعلم وأحكم.

---

(38) ما بين العلامتين في الاصل وحده.

قلب الجيش العرمرم الخماسي
في دولة اولاد مولانا علي الشريف السجلماسي

قال مقيده محمد بن احمد اكنسوس عفى الله عنه ولطف به آمين : إنه لابد لكل مجيب وسائل، في مايحاوله من مقاصد ووسائل وبالضرورة تتقدم الوسائل على المقاصد، إذ لولا الازدراع ما حصد الحاصد، وقد كنا قدمنا أن المقصود عندنا في هذا الجيش إنما هو قلبه وأما ما عداه فإنما سوقه بالتبعية وجلبه، وأن ألويته المرفوعة إنما هي تابعة لهذا اللواء الشريف لا متبوعة.

قلب الخميس مثابة الكبراء ... ومصادر الأحكام والآراء
والقلب تخدمه الجوارح كلها ... وبه الصلاح لسائر الأعضاء

وإذ قد رتبنا المقدمة والجناحين كما وجب فقد آن لنا أن نبرز من جمال القلب ما كان احتجب، فنقول، مستمدين للعون من واهب العقول : هذا اللواء عظيم القدر، راسخ الجدر، عالي الصعدة ساميها، لا يوازي لواء رتبته ولا يساميها، شريف المنتمى، عزيز الاحتمى، أوصافه تبهر العقول وتفوت المقول وإنما تنشر حبره ويروى خبره، للتبرك بذكره، لا لاستيفاء مجده وفخره، وهو لواء مشرق(1) أزهر، أبيض مشوب بحمرة تروق وتبهر.

لواء العز مرفوع بفتح ... ونصر تستضيء به الدياجي
يفيء على البرية كل خير ... وإغناء لشاك باحتياجي

وراياته لها أذيال مخضرة، وبعضها في النادر مغبرة، ثم إنه قبل الخوض في بحار سرد الأخبار، لابد من ذكر مسائل لها في الفائدة اعتبار، من ذلك ذكر ماورد في التبشير بهذه الدولة الشريفة قبل ظهورها، على ألسنة الأولياء شموس الملة وبدورها، ومنها ذكر فضل(2) هذه الدولة على غيرها من الدول بما هو صريح لا يتأول، ومنها ذكر نسبهم الشريف الطالع في بروج القبول والإقبال، الشامخ الثابت في وشيج العز ثبوت الجبال.

أما البشائر الواردة عن الصالحين بظهور هذه الدولة (قبل

---

(1) في (م) (شريف) بدل (مشرق)
(2) في (م) فضائل بدله

ظهورها›(3) فكثيرة جدا من ذلك أن الشيخ الحافظ الأكبر، عالم الشرفاء وشريف العلماء مولانا عبد الله بن علي بن طاهر(4) مر عليه أبو الأملاك مولانا الشريف بن علي(5) وهو صبي صغير فسأل عنه، فقيل له : هو ولد مولانا علي، فقال الله أكبر، ففرح به ومسح على ظهره، وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين ! فتيقن الناس صدقه لما يعلمون من موافقات مكاشفاته العديدة ومعلوم مكان الشيخ في الزهد والورع والتضلع بجميع العلوم والتفنن في سائر الفنون رضي الله عنه، ومن ذلك ماذكر من أن السلطان احمد الذهبي لما أكمل قصره البديع ودعا الناس لوليمة اكماله وكان يطوف في الناس من غير حجاب فرأى رجلا صالحا من المجاذيب فجاءه وباسطه، فقال له : كيف رأيت دارنا ياسيدي فلان ؟ فقال له : إذا تهدمت صارت كدية كبيرة من التراب، فقال له الذهبي : ومن يهدمها ؟ فقال له : سلطان عظيم من شرفاء تفلالت انتهى، ومن الناس من ينسب هذه الواقعة والمقالة لولي الله تعالى سيدي رضوان الجنوى(6) وهو من أشياخ الذهبي، فكان مصداق ذلك على يد مولانا اسماعيل، فإنه هدم قصر البديع في عام 1119 فغيرت مصانعه، وأجدبت مرابعه، واندكت أعاليه وأسافله،

---

(3) ما بين العلامتين سقط من (ل).

(4) عبد الله بن علي بن طاهر هو كما يعبر عنه في التاريخ، شريف العلماء وعالم الشرفاء حافظ لا يشق له غبار له اعتناء بتفسير القرآن، دخل مراكش عام 1004 هـ -1595 م وشرع في قراءته بمسجد الحرة بمسجد عردة بباب دكالة، وقد اعطانا العلامة احمد بن علي السوسي صورة عن اسلوب تدريسه في التفسير، قال حضرته عام 4 من هذا القرن الحادي، فوجدت لكلامه فيه طلاوة تنصت له الاسماع لما فيه من الحلاوة يمزجها باحوال النبوة وأسرار النزول، ويحديها بما قل من النحو، وبما لابد منه من التنزل في بسط المناسبات فيما بين الآية والسور بأوائلها وله في ذلك صناعة بديعة واليد الطولى، وكان يكره أهل البدع ويشنع عليهم في دروسه توفي عام 1044 هـ -1634 م كما في النشر، أو 1045 هـ-1635 م.

(5) الشريف بن علي هو ابو الملوك الأولين من الدولة العلوية الحالية، كان رضي الله عنه اماما عادلا عالما صالحا ورعا، له مواقف مع أبي حسون المعروف بدميعة الى أن أدخله الى السجن، وقال له : الشريف المذكور لا تفرح بسجني والله ليهد من ولدي الرشيد دياركم وليحرقن زرائبكم وما أظنك ان تلحق ملك ولدي اسماعيل فكان كما قال توفي سنة 1069 هـ-1658 م.

(6) رضوان بن عبد الله الجنوي المكنى بأبي نعيم، المكثر الرواية رحالة زمانه زار مراكش بقصد زيارة شيخه عبد الله الغزواني سنة 935 هـ، وبقي معه في تلك الزيارة أربعة أشهر ثم توفي الغزواني رضي الله عنه، وبقي بعد موته بمراكش نحو العام يقرأ ويطلب العلم ثم رجع الى مسقط رأسه فاس وبها توفي سنة 991 هـ-1583 م ترجمته بالممتع ومرآة المحاسن والدوحة والسلوة والاعلام المراكشي، وافرده بالترجمة في تأليف تلميذه ابو العباس احمد بن موسى المرابي.

وضاعت(7) فروضه ونوافله، وانتشر نظام سلكه، وانكدرت نجوم سمكه، وفرق الدهر الناصر ما كان المنصور جمعه، وكان(8) وعد الله ألا يرفع شيئا من أمر الدنيا إلا وضعه، ومن ذلك أيضا ما ذكر ابن الحاج(9) والبوني(10) من ارتقاب هذه الدولة الشريفة في أواخر الزمان، بدليل ماكتبه عثمان التركي لغا الجزائري(11) لمولاي محمد بن الشريف في رسالته المعروفة وربما نذكرها في مايأتي إن شاء الله تعالى، قال فيها : إياك والاغترار بما عثرت عليه في كتابي البوني وابن الحاج ورسالة أهل سبتة لعبد الحق المريني من أن أوتاد الترك والروم تتقوض من أرض الغرب الى أن قال : فإن جزمت بهذا فإنك لا محالة حانث، فإن كان منكم يقينا فرابع أو ثالث، انتهى، ولا شك أن الروم قد قلع أوتادهم مولانا اسماعيل وهو لامحالة رابع هذه الدولة أو ثالثها، ويقي أمر التركي حتى يأتي أجله إن شاء الله تعالى، ومن ذلك أيضا أن الولي الصالح الشهير أبا حفص سيدي عمر الخطاب(12) دفين زرهون ذكر في كلام له ملحون أن العرايش يفتحها مولاي الشريف بن علي ففتحها ولده مولانا اسماعيل، وإشارات الاولياء يقع فيها مثل هذا التقريب، ومن ذلك أيضا أن سيدي صالح بن الطنجي(13) بن الشيخ سيدي

---

(7) وعلى هامش ذكر ما وقع لقصر البديع من تحطيمه وتسب للشيخ رضوان انه أشار على المنصور بذلك «أقول» الحق علماء التاريخ المغربي الأولون والأخرون الذين لا يسع اي حد كيفما كانت ثقافته أن يأتي بما يخالف اجماعهم وينقمص جلباب الجمود والذل والهوان وهذا رب الدار العالم بما لها وما عليها جدير به ان يفيدنا عن حقيقة الامر الواقع، وذلك هو مؤرخ الدولة العلوية العالية بالله المولى عبد الرحمان بن زيدان واذ يقول في إتحافه الذي يفتخر به التاريخ المغربي، قال وهو يصف مباني مولانا اسماعيل جده قال : ولما وقفت على تلك الرسوم الدارسة المستوحشة، بعد ان كانت مؤنسة وضرب لها مثلا بزاهرة ابن ابي عامر نقلا عن مسامرة الحاقي في تخريب الزهراء الناصرية وغلط في تسميتها بزاهرة ابن ابي عامر، وقال بعد وليس ببعيد من طريق الاعتبار ان تكون الحكمة في سرعة تخريب تلك القصور وغيرها مما يأتي من البناءات الاسماعيلية على عظمتها وفخامة بنائها القاضية بالنظر للعادة بتأبيدها في الجملة بجعل ذلك في مقابلة هدم قصر البديع الذي اسسه بمراكش السلطان ابو العباس احمد المنصور السعدي الملقب الذهبي ثم ذكره مؤرخ مراكش العلامة الافراني في النزهة حيث قال : تأملت لفظ البديع فوجدت عدد نقط حروفه بحساب الجمل مائة وسبعة عشر، وهذا القدر هو الذي بقي فيه البديع قائما عامرا، فانه فرغ منه عام اثنين والف وشرع في هدمه عام 1119هـ-1707 م، فمدة بقائه بعد تمام بنائه مائة وسبعة عشر على عدد اسمه وذلك غريب الاتفاق هـ الحاف ج 1 ص 147، وعن البديع ومآله ما في النزهة ص 102-103 وبستان الزياني في دولة المولى اسماعيل، ونقلنا هذه الفذلكة عن البديع ردا على من أراد ان يحمل الناس على عدم الثقة بتاريخ المغرب ومؤرخيه-اعتمادا منه على وسوسة الاجانب.

(8) في (م) و (ف) وصدق

(9) ابن الحاج، ابو عبد الله محمد بن محمد العبدري التلمساني المالكي المعروف بابن الحاج توفي سنة 737 هـ-1336 م.

(10) البوني في كشف الظنون ج 1 ص 503، لدى كتاب شرح المعارف قال هو للشيخ احمد بن علي البوني المتوفى سنة 622 هـ-1225 م.

(11) عثمان التركي : لم نعثر عليه

(12) ابو حفص عمر الخطاب نزيل زرهون ودفينه : قال في ممتع الاسماع توفي في العشرة الرابعة من القرن العاشر.

(13) ابو عبد الله محمد الصالح بن محمد المعطى الشرقي توفي كما في الاعلام سنة 1139 هـ-1726 م وهو الذي أشار على العلامة أبي عبد الله بوضع تأليفه النزهة كما ذكر ذلك في خاتمتها ص 246.

محمد الشرقي ذكر أنه وقف عليه جده المذكور في المنام وقال له : اذهب الى مولاي اسماعيل وقل له إن الملك لك ولذريتك، ومولاي رشيد إنما هو ممهد لك، وذلك في أيام مولاي رشيد. فلما جاء المرابط المذكور وأخبر مولاي اسماعيل قال له : لولا أنك مأمور لفعلت بك كيت وكيت، أي سلطنة أعظم من هذه التي أنا فيها، إذ أتاح الله للمسلمين من يقوم بأمورهم وأراحني من تعلق حقوق العباد بي، والحمد لله انتهى، وهذا دليل علي رجحان عقل مولانا اسماعيل رحمه الله، ومن ذلك أيضا أن الشيخ أبا زكرياء يحيا بن علال(14) كان يحض أولاده على التقرب الى كنف أولاد مولانا الشريف بن علي والتعلق بأذيالهم ويقول : إنه سيكون لأولاده شأن عظيم انتهى، ويكفي هذا القدر في هذا المحل، والله أعلم وأحكم.

وأما فضل هذه الدولة على غيرها من الدول فإنه في الحقيقة لايحتاج الى دليل، قال العلامة سيدي الصغير الأفراني في أواخر نزهته مانصه : لايخفى على من نظر بعين الانصاف وتحلى بقول الحق الذي هو أحمد الاوصاف، أن هذه الدولة السعيدة لم ير مثلها الراءون ولا سمع بمثلها السامعون لما اشتملت عليه من المفاخر التي يكل في عددها الأول والآخر، ولقد ظهر فيها من الخيرات ما لا يحصى، ورأى الناس فيها من الأمن والرخاء والهناء(15) ما لا يخطر لأحد ببال، وكل ذلك مما شاع وداع، وامتلأت منه الأسماع انتهى.

ومن محاسن هذه الدولة أعز الله برهانها تنقية أرض المغرب من نجاسة الكفر، فقد كانت الثغور المغربية كلها تعبد فيها الأصنام، ولا يذكر فيها دين(16) الاسلام، ومن محاسن هذه الدولة السعيدة وهو أمر قد اختصت به لايشاركها فيه غيرها من جميع الدول، وهو خلو دولتهم من أمرين : الأول فساد الاعتقاد كالتشيع والاعتزال، والأمر الثاني الانهماك في المعاصي والتجاهر بمخالفة الشريعة، فجميع الدول لابد أن تجد فيها فردا أو أفرادا قد خلعوا جلباب الحياء عن وجوههم في استباحة محارم الشريعة بخلاف هذه الدولة، فغاية ما وجد من النادر من الملوك فيها

(14) ابو زكرياء يحيى بن علال البوخصيبي العمري المالكي من جلة اصحاب الشيخ عبد العزيز التباع المراكشي قال : في الدوحة توفي اواسط العشرة الخامسة "عهد ابي العباس احمد المريني الذي حضر جنازته".

(15) في (ب) النبأ وهو تصحيف.

(16) في (م) و (ل) شعائر بدله.

المعصية تحت ليل الاستتار والاستحياء والاعتراف، سمعت السلطان العادل البركة مولانا سليمان رحمه الله تعالى يقول : دخلت على أخي اليزيد بهذه القبة وهي قبة اللوح التي على شط النهر بأبي الجلود بحضرة فاس، قال ووجدته على ماهو بسبيله من الشرب والغناء والمغنيات قائمات متجردات بين يده، وقد دعاني لغرض له، فلما قضيت ذلك وأردت الخروج ناولني كأسا مملوءة خمرا ،و قال لي : أفرغه في النهر واغسله، فأخذته وفرغته وغسلته وناولته إياه، فقال : أراك نجست الماء على أهل فاس، فقلت ما تنجس، فقال : أليس الخمر نجسا ؟ فقلت بلى، فقال وهذا الماء يجري الى المساجد والسقايات ؟ فقلت بلى، فقلت له إن النجاسة القليلة التي لا تغير الماء لا حكم لها، فقال : يا أخي سليمان، هذا مثل ذنوب اليزيد مع سعة رحمة الله تعالى، قال فرأيت عينيه قد اغرورقتا بالدموع، فخرجت وعلمت أنه راج لمغفرة الله تعالى انتهى، وهذا المولى اليزيد رحمه الله تعالى هو فيما ظهر أسوء جميع الرايات المذكورة في هذا اللواء الكريم، وأما سوء الاعتقاد فإنه قد انقطع من بلاد المغرب بظهور هذه الدولة الطاهرة، فقد كان فيها الاباظية والصفرية والروافض والمعتزلة والمجسمة، فقطع دابرهم والحمد لله رب العالمين.

ومن محاسن هذه الدولة الشريفة نصوع نسبهم وخلوصه من طعن الطاعنين، فإن الناس قد جبلوا على ماهو كثير معروف من أنهم لابد أن يسروا غمزا ومقالا في أنساب من عالاهم وتفوق عليهم بمزية ولو كان ما عسى أن يكون الا هذا النسب الطاهر فإنه ما قط وسم بشيء يشينه لا قبل ولا يتهم ولا بعدها، أما قبل الولاية فإن جميع الناس يتبركون بذكرهم والتعلق بأطنابهم التماس المدد النبوي منهم، فأحرى بعد الولاية، فقد انضاف بهم خير الدنيا الى خير[17] الآخرة، ومن محاسن هذه الدولة الكريمة أيضا أنها مرغوبة مطلوبة للتقدم والامامة، وغيرها من الدول طالب راغب

(17) في (م) (والاخرة) بالواو العاطفة بدل (الى) وهو تصحيف.

حتى مولانا ادريس رضي الله عنه انما دخل المغرب طالبا(18)، وأما هؤلاء السادات إنما دخلوا باستجلاب الناس لهم من مقر عزهم كما يأتي قريبا إن شاء الله بيان ذلك، ومن محاسن هذه الدولة السعيدة حفظ نسبهم فلا يمكن فيه اختلاط ولا اشتباه بحال، فإنه(19) إذا خرج منهم بيت ونزل في قبيل

---

(18) لما اكمل صاحب الجيش كتابة التاريخ، وارسل منه نسخة لامير المؤمنين المولى محمد الرابع قدس سره كلف جماعة برئاسة الوزير الطيب بن اليماني باعمان النظر فيها وتصفحها، وظهر لهم حسب افكارهم ما عساه ان يكون غلطا لذلك ارسل الوزير تقييدا للمؤلف مع كتاب بخطه هذا نصه :

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

محبنا وسيدنا الفقيه النزيه العلامة الدراكة النفاعة البركة سيدي محمد بن احمد كنسوس رعاك الله وحفظك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله، وبعد فيرد عليك صحبة التاليف المبارك الذي قدمنا لك الاعلام بأننا على نية توجيهه لتدارك ما فيه وبطيه تقييد ما ينبغي التنبيه عليه فيه، والمقصود إنما هو بيان ما عثر عليه وان كان النبيه لا ينبه والعارف مثلك لا يعرف وانت حفظك الله اعرف بمباشرة ذلك وتداركه، وليس في ذلك غض من سيادتك ولا خدش في مرتبتك المنيفة فان الغلط والنسيان مركوزان في طباع الانسان، وبطيه قطعة من التقييد مكتوب عليها بخط يد مولانا المنصور بالله وجهناها لك بقصد التبرك والاستدلال على اعتنائه نصره الله بجانبك والا فانك أعزك الله القدر على نظم دوره والاسفار عن غرره والله يجازيك من كرمه احسن المجازاة ويمتع المسلمين ببركتك آمين والسلام.

في 19 قعدة 83 الطيب بن اليماني امنه الله

قال في طالعة التقييد المذكور

الحمد لله، تقييد ما عثر عليه من الغلط في كتاب الجيش العرمرم الذي ينبغي التنبيه عليه ليتدارك اولها ما ذكره في محاسن هذه الدولة الشريفة، وانها مرغوبة مطلوبة للتقدم والامامة.

وغيرها من الدول طالب راغب حتى مولانا ادريس رضي الله عنه انما دخل للمغرب طالبا، « فان ذكر المولى ادريس قدس الله سره في هذا المساق مالا يخفى والمحافظة على حسن الادب في هذا المحل متعين سيما وهو رضي الله عنه انما دخل المغرب فارا بنفسه ودينه من الفتن ثم قام داعيا الى دين الله ورسوله متوصلا الى اتمام ذلك بكل ما أمكنه من أسبابه، ومن اعظم وسائل ذلك جمع الكلمة وجمع العصبية، فأكمل الله قصده بفتح المغرب على يده الكريمة وخلد فيه الاسلام ببركته.

وقد كتب المؤلف رحمه الله على هذا التعليق قوله، وهذا لا ينكره الا جاهل ومعاند وليس فيه مايزرى بمنصب مولانا ادريس رضي الله عنه.

قلت ويطيب لي ان اوضح ما أشار اليه بتعليق يبرهن عن جهل الجاهلين فأقول لو تأمل هؤلاء الذين دعتهم العنصرية الخبيثة على ان يعكسوا فيردوا المدح ذما "قوله تعالى في كتابه العزيز في حق سيدنا سليمان (وهب لي ملكا لاينبغي لأحد من بعدي) وقوله تعالى في حق سيدنا يوسف (قال اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم) لو تأملوا الآيتين إذا كانوا على علم بهما لادركوا ان مولانا ادريس رضي الله عنه، فانه وان كان طالبا فان طلبه كان عن نية حسنة وهي رد الناس الى الطريق المستقيم، واخراجهم من الظلمات الى النور، وعليه فعبارة الجيش لا تخل بمنصب المولى ادريس رضي الله عنه، بل هي برهان على ان مقامه مقام نبوي من أعظم المقامات وقد برهن قدس الله روحه على ذلك بعد ولايته بما هو معروف في تاريخه الحافل بالامجاد والفضائل من تطهير المغرب من الدنس، قلت : ولايرد هنا ماورد من الاحاديث الشريفة من التنفير من طلب الامارة والولاية، كحديث البخاري المروي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياعبد الرحمن لاتسأل الامارة فانك ان اعطيتها عن مسألة وكلت اليها، وان أعطيتها عن غير مسألة أعنت (عليها) اذ النهي وارد فيما اذا كان الطلب صادرا عن سوء نية اما اذا كان المقصود منه اصلاح الامة والسير بها الى طريق الاستقامة وتوحيد الصف وازالة البدع على اختلاف انواعها، فهو واجب مطلوب شرعا لان عمله حينئذ مشفوع باعانة الله تعالى، وقد تحقق ذلك في العهد الادريسي.

ونظرية اخرى وهي أن في كلام المنتقد من تناقض بين لمن فتح الله بصيرته وهو ان قول السيد الوزير في تقييده، وهو رضي الله عنه انما دخل فارا بنفسه ودينه من الفتنة ثم قام داعيا الى دين الله ورسوله متوصلا الى اتمام ذلك بكل ما امكنه من اسبابه حتى فتح الله المغرب على يده الكريمة وخلد فيه الاسلام ببركته . فلا معنى لهذا الكلام الا انه طلب تاسيس مملكة وهذا ماقاله صاحب الجيش من كونه طالبا غير مطلوب وعجبا ممن يكتب ويصول، ولا يعرف مايقول وختاما.

عبارتنا شتى وحسنك واحد ... تدبر بما تهوى ونهجك فاسد

(19) في (م) فانهم بضمير الجمع.

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

محبنا الفقيه النبيه العلامة الدراكة النفاعة البركة سيدي محمد بن احمد كنسوس رزقنا الله
وحفظك وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته عن خير مولانا نصره الله وبعد فمن عليك
صحبته التاليف المبارك الذي فرضنا لك الاعلام بانا على نية تصحيحه بتكرار مطالعته وبطيه
تنبيه ما ينبغي التنبيه عليه منه والمقصود انما هو بيان ما عثر عليه واما كلام الشيخ لا ينبه
والعلوم فيك لا يبرح وانت حفظك الله اعرف بما شرع ذلك وتكراره وتيسير ذلك عن
من سيادتك وما حررته من بيان المسيعة جاه الغلط والنسيان مذكوران في طباع الانسان
وبطيه قطعة من التقييد مكتوب عليها بخط يد مولانا المنصور بالله وجهنا به لك تنظر
التبرك والاستشراف على الخط الذي نظره الله بجانبكما والا فانه أعزه الله اقدر على نظم ذلك
والاستقبار عن غيره والله يجازيكم بما يرجى اخير الجزاء وينفع المسلمين ببركتكم والدعاء
والسلام في 9 قعدة 83 الطيب بن اليماني أمنه الله

آخر لا يخفى ولا ينسى ولا يغفل عنه وإن طال الزمان فيقولون بيت <من>(20) بني مولاي فلان بجبال الزبيب مثلا في القبيلة الفلانية أو توات أو في درعة، ولا يقدر أحد أن يتزوج من بناتهم ولو كان التاج على رأسه إذا لم يكن من نسبهم، وهذه عناية عظيمة، سبحان من خصهم بمزيتها(21) ومن محاسن هذه الدولة العزيزة المباركة ظهور عناية الله بها بفيضان البركات في إيالتها بالامن والرخاء ونمو الأموال وأسباب المعاش في غالب أحوال الناس، وكان غالب الأحوال في أيام الدول التي قبلهم حصول الشدائد وارتفاع الاسعار وعدم الامن على الأعراض من أرباب الدولة، وقد ذكروا عن بعض أمراء الحفصيين <بإفريقية>(22) أنه كان عنده من بنات المسلمين الذين قهرهم أربع مائة وبعضهم من الولدان كذلك نحو ذلك، وأما الأسعار والغلاء المتكرر فهو الغالب الكثير حتى قيل إنه في اليوم الذي بويع فيه مولانا الرشيد بفاس كان الزرع بخمس أواق للمد في أول النهار وفي آخره بعد البيعة بموزونتين، فتيمن الناس بولايته، وتيقنوا بركة هذا الملك الشريف وسعادة هذا اللواء الميمون، ويحكى أن سبب الغلاء الذي كان أصاب أهل فاس في ذلك الوقت هو خذلانهم لمولانا محمد بن الشريف وميلهم لأهل الدلاء مع أنهم هم الذين طلبوا من مولاي محمد أن يقدم عليهم فلما أتى إليهم وبايعوه غدروه وخرج عنهم كما يأتي في خبره إن شاء الله، والله أعلم وأحكم.

فالحمد لله إذ ابقى خلافتهم ... كهفا لنا من اقام فيه لم يضم

حرزا حصينا وعزا دائما(23) وندى ... غمرا دراكا بلا من ولا سام

دامت ودام لها سعد يساعدها ... في كل مبتدأ منهم ومختتم

وأما ذكر نسبهم الطاهر، المنزه في جميع المظاهر، فنقول : إن عمود هذا النسب، المسمى بسلسلة الذهب، ذكره جماعة من العلماء الأثبات الثقات مثل العلامة الشريف أبي محمد سيدي عبد السلام القادري

---

20) ما بين الملامتين ساقط من (ف)

21) في (م) وحدها (بها)

22) مابين الملامتين ساقط من (ف)

23) (قائما كذا بالاصل وفي (ف) وذكر في (ف) في الرقم المذكور 23، قبل قوله :

دامت ودام لها سعد ... زيادة بيتين قبل هذا البيت

الفاسي(24) والشيخ العلامة البركة سيدي احمد بن ابي القاسم الصومعي(25) والشيخ العلامة سيدي العربي بن يوسف الفاسي.

قد تقدم أن أبا الملوك الكرام هو مولانا الشريف بن علي وأولاده الثلاثة كلهم تملك في الجملة، أكبرهم هو مولانا محمد ثم مولانا رشيد، ثم مولانا اسماعيل أبناء مولانا الشريف بن مولانا علي المراكشي بن مولانا محمد بن مولانا علي بن مولانا يوسف بن مولانا علي الشريف السجلماسي بن مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا الحسن الينبوعي الحجازي الداخل الى المغرب بن مولانا قاسم بن مولانا محمد بن مولانا أبي القاسم [بن مولانا محمد](26) بن مولانا الحسن بن مولانا عبد الله بن مولانا أبي محمد بن مولانا محمد بن مولانا عرفة بن مولانا الحسن بن مولانا أبي بكر بن مولانا علي بن مولانا الحسن بن مولانا احمد بن مولانا اسماعيل بن مولانا قاسم بن مولانا محمد النفس الزكية بن مولانا عبد الله الكامل بن مولانا الحسن المثنى بن مولانا الحسن السبط بن مولانا علي بن أبي طالب ومولاتنا فاطمة الزهراء بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع آله الطيبين الطاهرين.

قال العلامة النسابة الأزورقاني(27) : ومن بيت السيد محمد النفس الزكية بينبوع النخل السيد الحسن والسيد محمد ابنا عبد الله ابن [أبي](28) محمد بن عرفة الخ، وكان أصل سلفه بالينبوع، وهو نجار أجداده، لأن جدهم مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم أقطعه إياه، فلذلك بقيت فيه سلالته رضي الله عنهم أجمعين. وأول من دخل الى أرض المغرب منهم هو مولانا الحسن بن القاسم، قال العلامة الأفراني : قرأت بخط بعض فضلاء بلادنا حرسها الله

---

24) نسابة الشرفاء القادري المتوفى سنة 1110هـ 1698م ترجمته في النشر ج 3 ص 86.

25) الصومعي التشمي الهروي الزمراني دفين الصومعة من تادلا وقبره بها مشهور، وذكر المقري في روضة الآس حيث التقى به بالحضرة المراكشية نقلا عن الفوائد الجمة ان المنصور نقله من تادلا لمراكش بسبب بغضة بينه وبين أمير تادلا ابنه زيدان قال : ولم يزل بها حتى مات، مما يدل على وفاته بمراكش وقيل ذلك ودفن بضريح علي بن مسعود بحرمة القصور جوار ضريح الغزواني، والله أعلم وتوفي سنة 1013، 1604م.

26) ما بين المعقوفين زيادة من (ف)

27) الازورقاني : قال اليفرني في النزهة ص 57، وقد وقفت على كتاب الشيخ النسابة الشريف ابي عبد الله الازورقاني فوجدته ذكرهم، (أي الاشراف العلويين نسبتهم الى السيد محمد النفس الزكية).

28) مابين المعقوفين : زيادة من (ف) ومن (م).

ماصورته : أخبرنا شيخنا العلامة أبو عبد الله سيدي محمد بن سعيد المرغيتي(29) قال أخبرنا سيدي ومولاي واسطة عقد محياي أبو محمد مولانا عبد الله بن علي بن طاهر الحسني أن جده الداخل للمغرب أواخر المائة السابعة، وكان حينئذ من أبناء الستين أو نحو ذلك، وتوفي رحمه الله قبل انقضاء المائة المذكورة انتهى، وذكر بعضهم ان دخوله كان سنة أربع وستين وست مائة، قال الشيخ الامام أبو اسحاق ابراهيم بن هلال(30) : إن دخوله كان في الدولة المرينية، ذكره في منسكه، وعلى هذا فيكون دخوله في دولة السلطان ‹أبي بكر بن عبد الحق المريني ووفاته حسب ما ياتي في دولة السلطان›(31) يعقوب بن عبد الحق أخي أبي بكر المذكور ونقل صاحب الارجوزة(32) عن ابن هلال أن ذلك كان في السادسة قال العلامة أبو سالم(33) في رحلته : إن مولانا الحسن دخل المغرب في المائة السابعة، واليه أشار صاحب الأرجوزة بقوله :

ثم ابو سالم عبد الله   اكرم به من عالم أواه
ذكر في رحلته الفاضلة   دخول ذا الأمجد في السابعة

وكان سكناه بينبوع النخل بمدشر يعرف بمدشر بني ابراهيم، وذكر

---

29) نسبة الى مرغيتة مداشر في عد الاخصاص بسوس بناحية تزنيت كما في الصفوة ولد بمراكش سنة 1007 هـ-1598 م وتوفي سنة 1089 هـ-1678 م ودفن قريبا من ضريح شيخه ابي بكر السجستاني المراكشي المتوفى سنة 1063 هـ-1652 م ودفن خارج باب الدباغ وقبره هناك شهير، وهو الذي سمته العامة بسيدي أبي المال بنيت عليه قبة صغيرة بقرب وادي يسيل.

30) عالم سجلماسة ومفتيها ابو اسحاق ابراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي نسبا السجلماسي بلدا ومدفنا المتوفى سنة 903 هـ-1497م، فهرس الفهارس ج 2 ص.326 الا انه قال الصنهاجي نسبا لينفي عنه انتسابه لسيدنا عمر، وأتى بحجة لا تسمن ولا تغني من جوع، قال : حيث وقف على نسبته العمرية في فهرست الشيخ الكوهن عن ذكر شيخه العلامة بن شقرون يروي عن أبي العباس بن عبد العزيز العمري، انظر الفهرس المذكور ج 2 صص.326، والحقيقة ان نسبتهم لعمر مذكورة في التاريخ وكتب الانساب، كما في أنساب محمد الزكي والدرر البهية للفضيلي، وانظر ايضا ركب الحاج المغربي للعلامة الجليل البحاثة الكبير السيد محمد المنوني ص.34، لما تكلم على شيوخ الركب، قال : اولهم السيد ابو ابراهيم العمري كان حيا اول العصر المريني وغاب عن صاحب الفهرس ان الناس مصدقون في أنسابهم، ومن طالع كتابي الانساب للمولى محمد الزكي والمولى ادريس الفضيلي زال عنه الاشكال.

31) ما بين العلامتين سقط من (ف)

32) صاحب الارجوزة لم نقف على الارجوزة

33) العياشي ابو سالم عبد الله بن محمد بن ابي بكر العياشي، نسبة لأيت عياش قبيلة من البربر تتاخم بلادهم الصحراء من أحواز سجلماسة صاحب الرحلة المسمرة وله رحلة اخرى صغيرة، ذكر ابن سودة في الدليل انها عند العلامة عبد الحفيظ الفاسي، الفها لتلميذه احمد بن سعيد المجلدي سماها تعداد المنازل لا تتعدى 18 ورقة، وتسميتها تعداد المنازل لم تكن هذه التسمية مذكورة في نسختنا، توفي رحمه الله سنة 1090هـ 1679 م لم نر ان احدا من المؤرخين ذكر له هذه الرحلة (تعداد المنازل) والله اعلم، ولتراجع ترجمة المجلدي.

صاحب الانوار السنية في نسبة من بسجلماسة من الأشراف الحسنية(34) أن سبب قدوم مولانا الحسن أن أركاب الحجاج المغربية كانت تتوارد على الأشراف هنالك، وكان أمير الركب المغربي أظنه، والله أعلم، السيد أبا ابراهيم(35) فلما حج في بعض السنين اجتمع هنالك بالسيد الحسن المذكور، وكانت سجلماسة يومئذ خالية من سكنى الاشراف بها فلم يزل السيد أبو ابراهيم يحسن ويزين موطنها <والاقامة بها>(36) لمولانا الحسن حتى استماله فأجمع السير معهم(37) وقدموا به مع ركبهم الي المغرب فرغب في سكناه ببلادهم سجلماسة، وقال حفيده الامام أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر في ما قيد عنه : كان الذين أتوا به من أهل سجلماسة أولاد البشير وأولاد المغراوي انتهى، وذكر صاحب الأرجوزة أن الشيخ أبا ابراهيم أحد الذين جاءوا به من ذرية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال بعضهم إن أهل سجلماسة لم تكن تصلح لهم الثمار ببلدهم، فذهبوا الى الحجاز بصدد أن يأتوا برجل من أهل البيت، فأتوا بمولانا الحسن المذكور، فحقق الله رجاءهم وأصلح لهم ثمارهم، حتى عادت بلادهم هي هجر المغرب ونقل بعضهم على ما وجد بخط بعض الثقات أن سبب مجيئهم به أن الشرفاء الأدارسة تفرقوا ببلاد المغرب وانتثر نظامهم، واستولى عليهم القتل والصغار من أمراء زناتة، فقل الشرف بالمغرب، واختفى، وأنكر كثير من الأشراف أنه منهم حقنا لدمائهم، فلما طلع نجم الدولة المرينية أكبروا الأشراف وعظموهم ورفعوا أقدارهم واحترموهم، فلم يكن ببلد سجلماسة أحد من الأشراف، فأجمع رأى أعيانهم وكبرائهم على أن يأتوا بمن يتبركون به من النسب الشريف، فقيل إن الذهب انما يجلب من معدنه، والياقوت إنما يطلب من مواضعه، وان بلاد الحجاز هي مقر الأشراف، وهو صدفة جوهر ذلك النسب، فذهبوا إليه، وأتوا بمولانا الحسن

---

34) الانوار السنية او الحسنية، كتاب للعلامة ابي العباس احمد بن محمد بن احمد بن عبد العزيز بن الحسن بن يوسف بن ابي الحسن علي الشريف، وقال : وسميته الانوار الحسنية، في نسبة من بسجلماسة من الاشراف المحمدية "نشرته وزارة الانباء" والذي اشار على صاحب الكتاب بتأليفه، احد ابناء عمه السيد عبد الواحد بن عثمان من اعيان العائلة، قال ابن سودة في الدليل لم اقف على وفاته، وقال : محققه الفلالي توفي سنة 1101 هـ-1689 م وبالجملة فهو المصدر الوحيد لمن الف بعده في موضوع النسب الشريف العلوي.

35) امير الركب ابو ابراهيم السجلماسي القرشي العمري انظر (ركب الحاج المغربي) للسيد محمد المنوني، اذ يقول اول امير عرفه التاريخ بهذا الركب هو الشيخ ابو ابراهيم وانه كان حيا اول العصر المريني.

36) ما بين العلامتين ساقط من (م)

37) في (ب) (معه)

على ما ذكرنا، فأشرقت شمس النبوءة على سجلماسة،وأضاءت أرجاءها. حتى قيل إن مقبرة أهل سجلماسة هي البقيع بالمغرب، وليس لأهل سجلماسة مزية ولا منقبة أعظم من هذه المزية، ولولا هي مارفعت لهم راية، ولا شاع لهم ذكر في موقف الافتخار، وفي ذلك قال الشيخ أبو علي اليوسي(38) رحمه الله :

لولا الكرام من آل المصطفى نزلوا   بأرضهم آخر الأزمان ما ذكروا

وهذا البيت من قطعة له يهجو بها بعض(39) فقهاء سجلماسة وهي هـذه :

حي الأحبة عني أينما ذكروا	وخص من جيرتي قوما هم الغرر
ولاتحي لنا ما قد عهدتهم	سجية فيهم الايذاء والضرر
وقل لذاك السجلماسي إن لنا	عرضا مصونا فلا تهتكه ياغدر
إن المنافق للعوراة ملتمس	والمؤمنون إذاماستبصروا عذروا
وليس من عجب أن كنت منتهساً	لحم الورى فعل كلب ليس ينزجر
فإن أسلافك الأردال قد أكلوا	لحم الكلاب فذاك الفعل مدخر
أهل سجلماسة الأبدون إن نطقوا	وألام الناس أحلا ما إذا قدروا
لولا الأكارم آل المصطفى نزلوا	بدارهم آخر الأزمان ماذكروا

وذكر بعضهم أن أهل سجلماسة لما طلبوا من مولانا قاسم أن يوجه معهم أحد أولاده الى المغرب لأنه أكبر الشرفاء في الحجاز في وقته شهرة وديانة اختبر من أولاده من يليق منهم لذلك فيقال : انه كان له أولاد ثمانية فكان كل(40) واحد منهم بعد الواحد يقول له : ومن فعل معك الخير ما تفعل معه ؟ فيقول : افعل معه الخير ثم يقول ومن فعل معك

38) اليوسي، العلامة الجليل الذي طبقت شهرته العالم، نسبة الى بني يوسي قبيلة في عداد برابر ملوية، واصله اليوسفي نسبة الى يوسف جدهم، الا انهم يسقطون الفاء من يوسف كما هي لغة اهل تلك النواحي كما في الصفوة وجدهم هذا هو الاب الثاني عشر للامام اليوسي، وفي السلسلة يوسف آخر جعله صاحب فهرس الفهارس الجد الذي تنسب اليه القبيلة، واستغرب ذلك وهو غلط منه، ومن التحليلات العقيمة ما نقله الدكتور الاخضر في الحياة الادبية عن بيرك بان اليوسي يحقد على المولى اسماعيل بسبب الرسالة المذكورة في التاريخ، وذلك لان الرسالة لا تعني الحضرة الاسماعيلية بوجه من الوجوه وانما تعني ما كان شائعا في الاوساط الشعبية وكان منه ذلك مجرد تنبيه لمقامه العالي توفي سنة 1102 هـ-1690 م.

39) المراد ببعض الفقهاء السيد عبد الملك التجمعتي وذلك لما كان بينهما من المناقشة وما ذكره المؤلف هنا منقول من النزهة ص. 259.

40) كذا بالاصل ومثله في (م) اما (ف) فان العبارة فيها جاءت هكذا. فكان يدعو الواحد منهم بعد الواحد، وهي اوضح.

الشر ما تفعل معه ؟ فيقول أفعل معه الشر الى أن بلغ لمولانا الحسن الداخل فقال له : ومن فعل معك الشر ما تفعل معه ؟ فقال له : أفعل معه الخير حتى يغلب خيري على شره، فاستنار وجه المولى قاسم وتهلل ودخلته أريحية هاشمية ودعا له بالبركة فيه وفي عقبه، فاستجاب الله سبحانه دعاءه، واماما اشتهر بأنهم وزنوه لأبيه بالمال فحكاية واهية لا رأس لها ولا ذنب، والله أعلم بحقيقة الحال.

فائـدة : بين مولانا الحسن الداخل وبين جده محمد النفس الزكية خمسة عشر أبا كما تقدم، قال صاحب كتاب الأنوار السنية : وعمود هذا النسب لم يزل محفوظا عند بنيه موصولا فيما بينهم ونقل كذلك أيضا عن كثير من الأئمة الأعلام كالسيد احمد بن يحيى العلمي[41] جد الشرفاء الشفشاونيين حسبما قيده بخطه صاحب مرآة المحاسن انتهى كلام كتاب الأنوار باختصار، وقد تقدم ما يؤيد ذلك، وبالجملة فإن شرف موالينا السادات السجلماسيين مما لا نزاع في صراحته عند أهل المغرب قاطبة، وقال الشيخ أبو علي اليوسي إن شرفهم مقطوع بصحته <كالشمس الضاحية>[42] قال العلامة الأفراني : وحدثني صاحبنا الفقيه المؤرخ أبو العباس أحمد الوزير الغساني[43] قال سمعت شيخنا أبا العباس الشيخ الكامل سيدي احمد بن عبد الله بن معن الأندلسي يقول : ما ولي الملك بعد الأدارسة أصح نسبا من شرفاء تافلالت، وسمعت بعض أشياخنا يذكر عن شيخه الامام أبي محمد عبد القادر الفاسي رضي الله عنه أنه قسم شرفاء أهل المغرب بحسب القوة والضعف الى خمسة أقسام، ومثل القسم الأول وهو المتفق علي صحته بأفراد من الأعيان، ومنهم هؤلاء السادات السجلماسيون انتهى.

وكان مولانا الحسن الداخل رضي الله عنه رجلا صالحا ناسكا له مشاركة في العلوم وخصوصا علم البيان، فإنه كانت له فيه اليد الطولى،

(41) العلمي ترجمته في النشر ج 1 ص. 33 توفي 1001 هـ-1592 م.

(42) ما بين الملامتين ساقط من (م).

(43) الغساني المذكور هنا هو احمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني، لا أخوه صاحب الرحلة قال الافراني في النزهة، والظل الظليل، وحدثني صاحبنا الفقيه المؤرخ ابو العباس احمد الوزير الغساني، وكذلك وصفه في السلوة ج 2 ص. 299 قال : كانت له مشاركة ومعرفة بعلوم الحديث والسير والتاريخ والانساب والتبس محمد صاحب الرحلة على محقق التقاط الدرر بأخيه فقال : في تعليق رقم 6 ويلاحظ ان صاحب سلوة الانفاس سماه احمد بدل محمد، واظن ان صاحب السلوة لم يترجم لصاحب الرحلة محمد، انظر التقاط الدرر ص. 297 توفي المترجم سنة 1146 هـ-1733 م.

ولما استقر بسجلماسة واطمأنت به الدار زوجه أبو ابراهيم ابنته وسكن على مايقال في موضع يقال له المصلح، ولما توفي تنازع في دفنه أهل تافلالت، حتى كادت نار الفتنة أن تنشب بينهم فأجمع رأيهم أن يمسحوا(44) الأرض بالحبال فقسموها أرباعا ودفنوه في موضع يتوسط جميع النواحي الأربعة بحيث لا يكون أقرب الى جهة دون جهة، وكانت وفاته رضي الله عنه حسبما يستفاد مما تقدم سنة ست أو سبع وسبع مائة، قال الأفراني رحمه الله تعالى : في دخول مولانا الحسن وإيواء أهل سجلماسة {إليه} (45) وإكبابهم عليه تصديق للحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال في الجمان(46) روى أن مولاتنا فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطت جارية لها صدقة بعد وفاة رسول الله، وقالت لها امض(47) الى السوق فمن قبلها منك ائتني به، فمضت الجارية الي السوق وقالت من يقبل ‹مني›(48) صدقة بنت رسول الله صلى عليه وسلم، فقال رجل أنا، فأعطته الصدقة وقالت له أجب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال نعم فلما بلغ ‹الباب›(49) سألته من أنت؟ فقال : أنا رجل مغربي فقالت له من أي المغرب ؟ فقال : من البربر، فبكت مولاتنا فاطمة رضي الله عنها وقالت : قال والذي رسول الله صلى عليه وسلم : لكل نبي حواري وحواري ذريتي البربر يافاطمة، سيقتل الحسن والحسين ويفر أولادهما الى المغرب فلا يأويهما الا البربر، فيا شؤم من فعل بهم ذلك ! ويا طوبى لمن أكرمهم وأعزهم ! (50) انتهى بلفظه، ولم يخلف مولانا الحسن من الأولاد الا ولدا واحدا وهو مولانا محمد فتحا وترك مولانا محمد هذا ولدا واحدا ‹وهو مولانا الحسن›(51) سمي باسم جده، وهو

---

(44) في (ف) يقسموا بدل يمسحوا

(45) ما بين المعقوفين اضافة من (م) و (ف)

(46) النشطيبي، أبو عبد الله محمد بن علي الاندلسي البرجي صاحب التأليف وفي درة الحجال ج1 ص. 247 رقم 632 الا انه لم يكن في الطلب بذلك وانما كان جماعة للمسائل من التصوف والتاريخ وغير ذلك وله رحلة حج فيها ولقي فيها أعلاما مات سنة 960 هـ-1552 م.

(47) كذا في الاصول المعتمدة والصواب امضي مع ياء المخاطبة

(48) ما بين العلامتين سقط من (ف).

(49) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(50) ذكره النشطيبي في تاريخه

(51) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

مدفون حول المدينة العظمى بإزاء سيدنا محمد الخراز(52) بسجلماسة، وخلف مولانا الحسن هذا ولدين أحدهما مولانا عبد الرحمان المكنى بأبي البركات وهو أكبرهما، ومن بنيه أولاد السيد أبي حميد(53) بالتصغير القاطنين بواد الرتب بالقصر الجديد علي مرحلة من سجلماسة، ومنهم الشرفاء النازلون ببني(54) زروال، وثانيهما مولانا علي المعروف بالشريف، ومنه تفرعت وتكاثرت فروع المحمديين، وكان رجلا صالحا مجاب الدعوات كثير الأوقاف مجاهدا حاجا ذا همة سامية وأحوال مرضية، رحل في بعض الأوقات الى فاس وسكنها مدة طويلة وكان سكناه منها بالحومة المعروفة بجزا ابن عامر من عدوة القرويين، وترك هناك دارا وأقام مدة بقرية صفروا وخلف بها عقارا وآثارا هي بها الى الآن، وأقام مدة ببلد جرس على مرحلتين ونصف من سجلماسة وترك بها مثل ذلك ودخل عدوة جزيرة الأندلس برسم الجهاد مرارا وأقام بها مدة طويلة، ثم رجع الى سجلماسة فكاتبه أهل الأندلس يطلبون منه الرجوع اليهم ويحضونه على الاعتناء بأمور الجهاد ويشكون اليه بضعف الجزيرة وأنها محتاجة الى من تجتمع عليه القلوب، وقد كانوا راودوه لما كان مقيما عندهم على أن يملكوه عليهم ويبايعوه والتزموا له الطاعة والنصر فرغب عن ذلك زهدا وورعا وغض طرفه عن زهرة الحياة الدنيا رضي الله عنه، وقد كتبوا له رسائل عديدة بعث بها اليه علماء غرناطة أعادها الله دار اسلام يحرضونه على الجواز اليهم واستنفار المجاهدين الى حماية بيضة الاسلام ويذكرون له ان اهل غرناطة من علمائها وصلحائها ورؤسائها وظفوا على أنفسهم من خالص أموالهم دون توظيف سلطان عليهم أموالا كثيرة برسم الغزاة الواردين معه من المغرب وحلوه في بعض تلك الرسائل بما نصه :

الى الضرغام الهمام، وقطب دائرة فرسان الاسلام، الشجاع المقدام، الهصور الفاتك، الوقور الناسك، طليعة جيش الجهاد، وعين أعيان الأنجاد، المؤيد بالفتح في هذه البلاد، المسارع الى مرضاة رب العباد، ابي الحسن

---

(52) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) الخراز في السلوة، الشيخ الامام العالم العلامة الاستاذ المقرئ الفهامة ابو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن ابراهيم الاموي الشريشي الشهير بالخراز، وذكر له تأليف قال : وكان يعلم الصبيان بمدينة فاس وبها كان سكناه الى أن توفي بها عام 718 هـ-1318م وهذا مخالف لما هنا من أن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل دفن بإزاء محمد الخراز بسجلماسة.

(53) في (م) المسهدي مصرفا

(54) في (م) بابي زروال

مولانا علي الشريف انتهى نص التحلية.

وكتبوا لعلماء فاس يأمرونهم أن يحضوا مولانا علي على العبور الى العدوة فكتب له أهل فاس بمثل ذلك وحثوه على المسارعة الى إغاثتهم وذكروا له فضائل الجهاد وانه من ‹أفضل›(55) أعمال البر، وكان من موجبات تخلفه عن إغاثة أهل غرناطة أنه عزم على الذهاب الى الحج، فقالوا له في بعض الرسائل عوض هذه الوجهة الحجية التي أجمع رأيكم عليها بالعبور الى الجهاد، فان الجهاد أصلحكم الله، عند أهل المغرب أفضل من الحج كما أفتى أبو الوليد بن رشد(56) حين سئل عن ذلك، وقد بسط الكلام عليه في أجوبته ووجه ما ذهب اليه من ذلك انتهى، وكان ممن كتب اليه من علماء غرناطة جماعة منهم شيخ المواق الامام أبو عبد الله بن سراج(57) قاضي الجماعة، ومن شيوخ فاس الذين كتبوا له أبو عبد الله العكرومي(58) شيخ ابن غازي(59)، وأبو العباس المواسي(60) شارح الروضة، وأبو زيد عبد الرحمان(61) صاحب الرجز المشهور وغير هؤلاء تركنا ذكرهم اختصارا، ومما ضمنوه في بعض تلك الرسائل قصيدة طنانة في مدح مولانا علي وصاحبه الفاضل أبي عبد الله سيدي محمد بن ابراهيم العمري(62) وحثوهما على إجابتهم، وهي من انشاء العلامة أبي فارس بن الربيع الغرناطي(63) وهي :

---

(55) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(56) ابو عبد الله محمد بن احمد بن احمد قاضي الجماعة بقرطبة مؤلف البيان والتحصيل وغيره دخل مدينة فاس واخذ عنه جماعة ت 520 هـ-1126م.

(57) وفي الديباج وغيره ابو القاسم الاندلسي الغرناطي مفتيها وقاضي الجماعة بها له شرح على مختصر خليل وفتاوى كثيرة في المعيار 848 هـ-1440م.

(58) ابو عبد الله محمد بن عمر العكرومي القرشي توفي سنة 842 هـ-1438 م جذوة ص 149.

(59) ابو عبد الله محمد بن احمد بن غازي العثماني نسبة الى ابي عثمان من قبيلة كتامة مكناسي النشأة والدار، فاسي الرحلة والاقبار ترجمه مؤرخ الدولة في الاتحاف انظر ج 4 ص2 .919 هـ-1513 م.

(60) احمد بن محمد بن ماواس، البطوي المتوفى بفاس سنة 842 هـ-1438 م وليس هو احمد بن عيسى المواسي الموقت المعدل بمنار القرويين المتوفى سنة 807 هكذا أرخ تاريخ وفاته في الجذوة وفي النيل بهامش الديباج ص.78 قال كان حيا سنة 843 هـ.

(61) الرقعي ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن الشيخ بن الحسن بن عبد الله من زاوية الرقعة.

(62) محمد بن ابراهيم العمري تقدم ذكره وانه من جملة الذين كتبوا للمولى علي الشريف ينتدبونه للجهاد بتاريخ 841 هـ-1427 م.

أيا راحلا يطوى المفاوز والقفرا رشدت ولقيت السلامة والخيرا
ترحل وجد السير يوما وليلة وسافر تجدها في مطالعها زهرا
تحمل رعاك الله مني الى الحمى تحية مشتاق تهيجه الذكرى
وأم ديار الحي من سجلماسة فتلك ديار تجمع العز والفخرا
وسلم على تلك الخيام واهلها سلام محب لم يطق عنهم صبرا
فعندي لهم حب جرى في جوانح ومازج مني العظم والدم والشعرا
(64)هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم فكم من تقي في سماها سما بدرا
وقل يا أهيل القبلة السادة الألى اذا ما دعوا في حادث أسرعوا النفرا
وخص سليل الهاشمي ابن صهره علي الذي يعلوا على زحل قدرا
أبي(65)الحسن المولى الشريف الذي به على الغرب شمس النصر أشرق بالصحرا
ولاحت بآفاق القلوب عجائب بها سلب الألباب تحسبه سحرا
هو الصقر مهما اهتز كل مجلجل هزبرا اذا ما أنشب الناب والظفرا
هو الغوث إن دارت رحى الحرب للقا وغيث اذا ما المزن ما أمطرت قطرا
أغار على الأعلاج فأجتاح جمعهم وجللهم قتلا وشد لهم أسرا
بطنحة قد طاب الممات لزمرة بنصرتها ترجو من الملك الاجرا
دعاها بأقصى السوس قدما فأسرجوا من الصافنات الجرد لم يأخذوا الحذرا
فهبت ركاب القوم والشمس أشرقت وأرهص(66)جيش الله أعداءه خسرا

---

(63) الغرناطي لم نقف على ترجمته ووفاته الا ان القصيدة الرائية المرفوعة للشريف نفس موضوع انتدابه للجهاد وانقاذ غرناطة من العدو وكان ذلك سنة 841 هـ 1437م.

(64) هذا البيت ملفق من بيتين اثنين نصهما :

فتلك بقاع الدين والخير والهدى فكم من تقي في سماها سما بدرا
هم القوم لا يشقى بهم جلساؤهم يضوع عبير الزهر من بينهم نشرا

رواية عن روضة التعريف ونزهة الحادي، والدرر البهية ج 1 ص.98.

(65) كذا بالاصل و (م) اما في (ف) (أبا) وهو الصواب.

(66) كذا بالاصل وأما (م) و (ف) ففيهما (أرهص) بالواو

وفي روضة التعريف والاستقصاء (أرهق) بدل ارهص و أرهص ومعنى الكلمات واحد اذ كلها يدل على الاخذ الشديد.

ولا عجب ان الألى هو منهم ... ليوت الشرى (.........)(67)

أجر جارك اللهفان من غمراته ... أبا حسن وانصر جزيرتك الخضرا

وناد أبا عبد الاله خليلكم ... به تجلب السراء في حادث الضرا

سليل أبي إسحاق أكرم به أبا ... لقد خلف الفرع الزكي الرضا البرا

أليس الذي لبى ندا أهل طنجة ... وجمع أهل الغرب من حينه طرا

وأوقع بالكفار أي وقيعة ... فمن لم يمت بالسيف مات لها ذعرا

وأصبح ثغر الدين أشنب باسما ... وأرهق وجه الكفر من حزن قترا

ونال من الله السعادة والرضى ... وجنات عدن في المعاد له ذخرا

وقل أيها العدل الذي اتخذ التقى ... شعارا وسامى في منازلها الشعرى

أرى كل من في الغرب أصبح قانطا ... وأندلس يرجو بطلعتكم نصرا

وغرناطة الغراء نادتك(68)اقبلن ... وبالراية البيضاء تنتصر الحمرا

فساكنها وقف عليكم رجاؤه ... كبيرهم والطفل والكاعب العذرا

فجئنا بمن في أرضكم حاميا لهم ... رجالا وفرسانا غطارفة غرا

حماة أباة الضيم من كل ما جد ... كريم يباري الغيث والسيل والبحرا

فدونكما الكفار تفنى طغاتهم ... وتشبع من قتلاهم الوحش والطيرا

منازلنا من كل حصن وقرية ... تناديكما غوثا لخطب أتى مرا

فكم من ضعيف لا حراك لجسمه ... وشيخ بها أربى على مائة عشرا

وبيض وسمر من أوانس كالدمى ... وصبية مهد لا تعي النفع والضرا

ومنبر جمع للخطابة والدعا ... ومسجد دين للصلاة وللاقرا

وكرسي علم مقعد لمهذب ... تصدر يملي ما يضئ لنا الصدرا

---

67) بياض بالاصول المعتمدة، والعجز جاءت روايته في روضة التعريف هكذا

(ليوث الشرى ان عاد مرعيها شهرا)

ومثله في الدرر البهية، والانوار الحسنية. أما نزهة الحادي فجاء فيها ما يلي :

(ليوث الشرى ان عاد من جهها عترا) وذلك غير ظاهر المعنى

وفي الاستقصاء (ليوث الشرى قد اوسعوا مرعيا شرا) في الطبعتين القديمة والجديدة.

68) في روضة التعريف، (وغرناطة الغراء نادتكما اقبلا) ومثله في الانوار الحسنية والدرر البهية والاستقصاء.

وأجداث أبناء الصحابة فوقها ... وكل ولي أشعث لابس طمرا

تناديكما غوثا من الله سرعة ... فقد كاد أن يستأصل الكفر ذا البرا

فحثا لنا بالسير بعدا وقربة ... أجيرانا من كفران من أضمر الجورا (كذا)

وعزما بأخرى مثل تلك التي مضت ... ليبصر هذا الفنش مثلكم كبرا

وأنتم بحمد الله تدرون ما ألتي ... عن المصطفى في الغزو من خبر خبرا

فلله ما أسنى وددت لو أنني ... قتلت فأحيا ثم أقتل قد مرا(69)

وما في كتاب الله من آية أتت ... كشمس الضحى في الصحو سافرة غرا

خذاها بحمد الله عذراء جيبها ... يضوع شذى تهدى لحضرتكم عطرا

وتبلغ عني للكرام تحية ... بأندلس للغرب قد عبروا بحرا

فغوثا رجال الله عونا لعدوة ... أحاطت بها البأساء والشدة الضرا(70)

فأنتم لنا الجند القوي ونحوكم ... تشوفنا فاستعجلوا نحونا السيرا

ونثني على خير البرية ذي الهدى ... محمد المبعوث بالملة ـ اليسرى

وآل وصحب ثم تال لنهجه ... ومن لذوي الاسلام قد نصر النصرا

وبهذه الرسائل العذبة الألفاظ المستوقفة للألحاظ يعلم أن مولانا علي الشريف كان مشهورا في عصره، متقدما على كافة أهل مصره، وانه كان ملحوضا بعين الاجلال عندهم وأن هذه الدار العالية البناء والاسوار(71) معظمة من قديم مشهود لها بالتقديم، ولم يزل رحمه الله تعالى د ءوبا على فعل الخير حريصا على أسباب الطاعة، وقسم عمره بين حج وجهاد، ويحكى أنه في بعض السنين رجع من حجة حجها فسنح له ان يذهب الى ناحية أكدج بكاف معقودة قبل الدال وهي بلدة في السودان فحارب مدينة

---

69) كذا بالاصل ومثله في روضة التعريف والانوار الحسنية، اما (م) و (ف) ففيهما معا (كم مرا) وجاء في الدرر البهية (قتلت فأحيا ثم اقتل في أخرا).

قلت ورمز بالبيت للحديث الشريف الوارد في كتاب التمني من صحيح البخاري المروي من طريقين عن ابي هريرة رضي الله عنه : (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «والذي نفسي بيده وددت اني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل».

70) في روضة التعريف (واشتدت الضراء) وهو الذي في الدرر البهية والانوار الحسنية والاستقصا.

71) في (ف) (الاسرار) بالراء.

من الكفار وليس لها الا طريق واحدة وهي قنطرة من حديد، فلما ضيق بهم رفعوا تلك القنطرة فحمل على فرسه نحوهم فلم يجد(72) لهم مدخلا فارتمى نحو الباب بفرسه، فلما رأوه داخلا عليهم ألقوا عليه قطعة من الحديد قطعت الفرس نصفين وسلمه الله فتساقط عليه أصحابه المسلمون في الحفير فطلعوا اليه فأخذوا المدينة قهرا، وأتاه الكفار بجاريتين فائقتين في الحسن والجمال، وقالوا له اختر واحدة منهما فاختار واحدة فأخذها الكفار وذبحوها وضيفوه بها، فلما جاءوه بالطعام عليه اللحم فاستنكره مكاشفة رضي الله عنه فسألهم عن اللحم فقالوا له هو لحم الجارية ‹المختارة›(73) فقتلهم عن آخرهم الا من أسلم منهم.

وذكر صاحب كتاب الأنوار أن مولانا عليا مكث أربع عشرة سنة لا يولد له شئ ثم ولد بعد ذلك ولدين وهما مولانا محمد بفتح الميم ومولانا ابو الجمال يوسف وهو أصغرهما، اما مولانا محمد فترك أربعة أولاد : السيد الحسن، والسيد عبد الله، والسيد علي، والسيد قاسم، وهم على هذا الترتيب في السن(74) ويقال لسائرهم أولاد محمد نسبة الى هذا الجد، وفرعهم كثير جدا يطول بنا تتبعهم. وأما مولانا يوسف فانه ولي زاوية والده وأجمع الناس على أنه المتأهل لها دون غيره لرزانته ووفور عقله، فتولاها بعد نزاع كثير ورسم توليته ما زال موجودا عند ‹بعض›(75) أحفاده، وذلك كله في دولة بني مرين، وقال في كتاب الأنوار وقيل إنه لم تكن له أولاد حتى بلغ ثمانين سنة فولد تسعة أولاد، خمسة منهم أشقاء، أمهم السيدة خليفة من ذرية بعض المرابطين بسجلماسة. وهم سيدي علي وهو جد مولانا نصره الله، والسيد أحمد، ‹والسيد عبد الواحد›(76) والسيد الطيب [والسيد عبد الله](77) والسيد عبد الواحد المكني بأبي الغيث لكثرة ما نزل من الغيث عند ولادته، وكان الناس قبله في جدب شديد، وهم على هذا الترتيب في السن، وأربعة أشقاء أمهم السيدة الطاهرة من ذرية بعض المرابطين هنالك أيضا وهم السيد الحسن بالتكبير،

---

72) في (ف) (يجدوا) بوار الجماعة
73) ما بين العلامتين ساقط من (ف)
74) في (ف) (السن) بدله
75) مابين العلامتين ساقط من (ف)
76) ما بين العلامتين ساقط من (ف)
77) ما بين المعقوفتين زيادة من (ف)

والسيد محمد، والسيد الحسين بالتصغير، والسيد عبد الرحمان، ومن منازل ‹هؤلاء› (78) الأشقاء أخنوس وتفصيل ‹أنساب› (79) هؤلاء السادات الثمانية يطول بنا، ولنقتصر على مولانا علي ‹المثنى› (80) لأنه الغرض المقصود، فنقول، ولد مولانا علي بن يوسف ثلاثة أولاد هم مولانا محمد، ومولانا محرز، ومولانا هاشم، وهو جد أهل زاوية الامراني، وكلهم قد عقبوا. فأما مولانا محمد فولد له مولانا على مع عدة من الأولاد ومولانا علي ‹المثلث› (81) هو جد موالينا الملوك الأكرمين وتوفي بمراكش وبنى عليه حفيده أمير المؤمنين مولانا الرشيد قبة تلقاء ضريح القاضي عياض رضى الله عنه، وولد لمولانا على تسعة من الأولاد مولانا الشريف، ومولانا الحفيد، ومولانا حجاج، ومولانا محرز، ومولانا حرون، ومولانا فضيل، ومولانا أبو زكرياء، ومولانا مبارك، ومولانا السعيد، فهؤلاء أولاد مولانا على المثلث وكان مولانا الشريف أفضلهم وأشرفهم، وله رضي الله عنه عدة أولاد كلهم نجوم زاهرة، ذوو همم باهرة، منهم مولانا إسماعيل السلطان أمير المومنين رحمه الله، وهو واسطة ذلك العقد الثمين، ومنهم مولانا محمد، وهو أكبرهم ومولانا الرشيد، وكلهم سياتي خبره في رايته إن شاء الله تعلى، ومنهم مولانا الحران، ومنهم مولانا محرز، ومولانا يوسف، ومولانا أحمد، ومولانا الكبير، ومولانا العباس ‹ومولانا السعيد، ومولانا حمادي، ومولانا هاشم، ومولانا علي، ومولانا المهدي› (82) وهو شقيق السلطان مولانا إسماعيل، هذا ماتيسر لنا الآن ذكره في هذا النسب الشريف، ذكرناه تبركا، وفيه الكفاية إن شاء الله تعالى، ثم نذكر رايات هذا اللواء الشريف على الترتيب بحسب ما في الخارج بحول الله وقوته.

---

(78) ما بين العلامتين ساقط من (م) ومن (ف)

(79) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(80) ما بين العلامتين ساقط من (م).

(81) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(82) ما بين العلامتين ساقط من (م).

الراية الاولى من هذا اللواء الأعظم
راية مولانا محمد بن الشريف
وهي راية حمراء عالية الرمح قصيرة الأذيال

كان مولانا الشريف أبو الخلائف رحمه الله وجيها في زمانه عند أهل سجلماسة وعند كافة أهل المغرب، يقصدونه في المعضلات، ويستشفعون به في النوائب والخطوب الشداد، وتقدم لنا أن مولانا عبد الله بن علي بن طاهر ضرب على ظهره وقال : ماذا يخرج من هذا الظهر من الملوك والسلاطين وهو صبي صغير فعلقت تلك المقالة بضمائر الناس، وكانوا يرقبون ظهور مصداقها لما يعلمون من ولاية مولانا عبد الله، فألقى الله نور تلك المقالة على وجه مولانا الشريف، فكل من رآه هابه وخضع له ظاهرا وباطنا› وكان مولانا الشريف يعد أن كبر وولد الاولاد يشيع أن هذا الأمر لابد أن يصير(1) الى بنيه وأنه يسكون لهم الشأن العظيم اعتمادا على تلك المقالة، وكان ‹بين›(2) مولانا الشريف وبين أهل تبو عصامت وهي حصن منيع من حصون سجلماسة عداوة تامة، فاستصرخ عليهم بأبي الحسن علي بن محمد صاحب السوس وهو أبو حسون لمحبة كانت بينهما، واستصرخ أهل تبوعصامت بأهل الدلاء فجاء عسكر ابي الحسن وعسكر أهل الدلاء لاغاثة كل لمن استغاث به، فانفصلا بغير قتال، وكان ذلك عام ثلاث وأربعين وألف، ولما رأي أهل تبوعصامت ما بين مولانا الشريف وأبي الحسن من الصداقة والمحبة مالوا بكليتهم لأبي الحسن وأظهروا له الخدمة والنصيحة والطاعة التامة طمعا أن يفسدوا ما بينه وبين مولانا الشريف إذ(3) كان ظاهرا عليهم به فلم يزالوا يفسدون ما بينهما الى أن أظلم الجو بينهما واستحكمت القطيعة، ثم لما رأى ولده مولانا محمد ذلك انتهز الفرصة في أهل تبوعصامت وخرج ليلا في مائتين من الفرسان مظهرا

(1) في الملكية : (يصل).
(2) ما بين الملامتين ساقط من (ف)
(3) في الفاسية اذا وهو ظاهر الخطأ

أنه قاصد لبعض النواحي، فما راع أهل تبوعصامت الا مولاي محمد انقض عليهم من الجو وحكم فيهم السيوف، ومكنه الله من رقابهم وأموالهم، واستولى على ذخائرهم، فقرت بذلك عين مولانا الشريف وبلغه الله في أعدائه ما كان يأمل، فلما سمع أبو الحسن ذلك غضب غضبا شديدا وكتب لعامله على سجلماسة ان يقبض على مولانا الشريف فقبضه ووجهه لسوس، فاعتقله في قلعة هنالك مدة الى أن افتكه ولده مولانا محمد بمال عظيم، فرجع الى سجلماسة في حكاية، وكان ذلك <كله>(4) في حدود سبعة وأربعين وألف(*)، وفي مدة اعتقال مولانا الشريف كان ولده مولاي محمد مجمعا على إهلاك بقية تبوعصامت واستئصال شافتهم، وقوي عضده بما أخذ من أموالهم، واتخذ جيشا لا بأس به، وانضاف اليه جمع من أهل سجلماسة ونواحيها لان أصحاب السوسي أساءوا السيرة في الناس وبالغوا في الجور والطغيان، ونصبوا حبائل الطمع حتى بذروا بذر البغضة في قلوب أهل سجلماسة وقد كان أصحابه ضربوا الخراج على كل شئ حتى على من يجدونه في الشمس زمن الشتاء، وفي الظل زمن الصيف، فازدرتهم العيون، وكرهتهم القلوب(5) فلما ثارمولانا محمد وجد فيهم الداعية للخلاف، فاعصوصبوا ووجهوا وجه العناية اليه وحاولوا محو ولاية السوسي عليهم وقلع آثاره من بلادهم واخراج عماله عنهم، فوافقهم القدر، وكان أمر الله قدرا مقدورا، وهذا كان سبب مبايعة مولانا محمد بتافيلالت بعد جلاء أهل السوس عنها، وذلك سنة خمسين وألف، ووافق على بيعته أهل الحل والعقد يومئذ بسجلماسة، ولما تمت له البيعة المباركة شمر لمضايقة السوسي بدرعة إذ كانت تحت ولايته، فوقع بينهما بسببها

---

(4) ما بين العلامتين لا يوجد في (م) و (ف)

(5) في الفاسية : (النفوس)

(*) قال في الاستقصا، طبعة دار الكتاب ج٧ ص ١٤ : قال في البستان : وأعطى ابو حسون للمولى الشريف وهو معتقل عنده، جارية مولدة من سبي المغافرة كانت تخدمه، قال : وهي ام المولى اسماعيل وأخيه المولى المهدي انتهى قال صاحب الاستقصاء : ولست أدري ما مراده بهذا. فان كانت الجارية سبية في المغافرة فهي حرة فيكون مولاي الشريف قد وطئها بعقد النكاح، وهذا الذي يغلب على الظن، بدليل ان السلطان الاعظم المولى اسماعيل رحمه الله لما عزم على جمع جيش الوداية قال لهم : انتم اخوالي، اشارة الى هذا الصهر كما سيأتي، وان كانت مملوكة لهم ثم صارت الى أبي حسون، فالوطء حينئذ كان بملك اليمين، والله تعالى أعلم.
قال : وصاحب البستان كثيرا ما يجازف في النقل، ويتساهل فيه، فلا ينبغي أن يعتمد على ما ينفرد به من ذلك، وبالله التوفيق.

حرب هائل كانت النصرة فيه لمولاي محمد، والكرة الشنعاء على أهل سوس، فاستولى الشريف بن الشريف على درعة وما انضاف اليها.
ولما عظمت إيالة مولانا محمد واشتدت شوكته، ورفرفت رايته برياح النصر، وانفتحت له أبواب السعادة من كل ناحية، وانتشر له في جميع البلدان خبر الظفر بعث إليه أهل فاس وأعراب الغرب يطلبون منه المجيء الى أرضهم، ويواعدونه بالنصرة له وتقويته بالعدد والعدة، فأقبل اليهم على عجل، فوصل اليهم، وحل بفاس الجديد حلول الشمس بدائرة الحمل، وتسنم كرسي الملك بلا كثير عمل، وذلك في مفتتح رجب عام تسع وخمسين وألف، فبايعه أهل البلدين فاس القديمة والجديدة، فبقي هنالك مدة مديدة حتى جلاه عنها أهل الدلاء في السنة المذكورة، فرجع الى سجلماسة، ولم يزل مقتصرا على ما صفا له من درعة ‹وسجلماسة ونواحيها›(6) الى أن ثار عليه أخوه مولانا الرشيد بعرب أنجاد بعد أن كان تحت أمره وطاعته، رفي زمام خدمته، فوقع بينهما ما أوجب أن فر مولانا الرشيد خوفا من شدة بأس مولانا محمد.
قال في البستان : وفر مولاي رشيد من أخيه فبلغ الى تدغة فأقام بها مدة، وتوجه الى دمنات وأقام بها مدة، وذهب الى زاوية الدلاء وأقام مدة، وتوجه لأزرو وأقام بها مدة، وتوجه لفاس وأقام بها مدة، ومنها توجه لتازا ثم خرج الى أعراب المعقل من الأحلاف فأقام عندهم، ولم يزل يجول في البلاد طمعا في اصطياد الملك والاقدار تدرجه الى ادراك أمله، واستنتاج مقدمات عمله.

‹ لايؤيسنك من مجد تباعده   فإن للمجد تدريجا وترتيبا
إن القناة التي علمت رفعتها   تنمو وتنبت أنبوبا فأنبوبا›(7)

إلى أن أدته خاتمة المطاف الى قصبة اليهودي ابن مشعل التاجر صاحب الأموال الطائلة والدخائر النفيسة، وكان ذلك بعد أن دعا لنفسه وصرح بالخروج على أخيه في سنة 1075هـ وقد اجتمعت عليه قبائل الشرگ

---

(6) ما بين القوسين ساقط من (م)
(7) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

بحذافيرها ودخل وجدة وظهر أمره كل الظهور انتهى.

وكان لليهودي على المسلمين صولة واستهزاء بالدين وأهله فلم يزل المولى الرشيد ينظر في كيفية اغتياله الى أن أمكنه الله منه في قصبته فقتله واستخلص ‹جميع›(8) تلك الأموال العديدة والذخائر المفيدة والنفائس العجيبة وفرقها في اتباعه وأنصاره، فملك بذلك قلوبهم، واشتد عضده غاية الاشتداد، فانثالت عليه الفتوحات والأمداد، فتناقلت عظم شأنه الركبان، وسارت أحاديث مجده الى جميع الأقطار والبلدان، فلما بلغ خبره لأخيه مولانا محمد تخوف منه لما يعلم من صرامته، فتوجه لمقاتلته والقبض عليه فلما التقى الجمعان كانت أول رصاصة في نحر مولاي محمد فوافقته(9) منيته وقضى نحبه يوم الجمعة التاسع من المحرم عام سبعة وخمسين(10) وألف فأسف مولانا الرشيد لموته، وأظهر الحزن الكثير عليه ولما قتل رحمه الله انحشرت ‹جموعه›(11) برمتها الى أخيه مولانا الرشيد ودخلوا تحت طاعته أجمعين.

قال صاحب البستان أبو القاسم الزياني : ولما فرغ مولانا الرشيد من مأتم أخيه واجتمع عليه من كان مع أخيه من عرب الأحلاف وبني يزناسن وغيرهم وبايعوه البيعة العامة، وقدمت عليه الوفود بالهدايا، وكتب من كان مع أخيه في ديوان جيشه وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وكتب عسكرا من إشراقة بني ‹سنوس›(12) ومديونة وبني عامر والشجع وهوارة، فاحتاج الى المال وقد نفذ ما كان أخذ من قصبة ابن مشعل، وكان أخذ ولد ابن مشعل وقيده في السجن فقدمت عليه أمه تطلبه أن يسرحه فقال لها لا أطلقه حتى تدليني على مال أبيه وإلا قتلته، فدلته على محل في القصبة ففتحه فوجد فيه خوابي مملوءة ذهبا وفضة فاتسع حاله غاية انتهى، وكان

---

(8) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(9) في الناسخة له فوافته)

(10) كتب المؤلف على طرة الأصل بخطه مانصه : "هكذا هذا التاريخ عند الزياني، وكأنه مقلوب، والصواب 1075" وفي الملكية : (عام سبعة وسبعين)

(11) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(12) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

ذلك طالعة الفتح الظاهر، انتهى باختصار.

وكان مولاي محمد رحمه الله شجاعا مقداما لا يبالي بنفسه ولا يجول في خاطره الخوف من الرجال، ولا مقاومة الأبطال، ولقد أنصفه أهل الدلاء لما وصفوه فقالوا : اجدل لا يؤذيه سموم الليالي ولا حرارة القيظ في المصيف، عقاب أشهب على قنة كل عقبة، لا يقنعه المال دون حسم الرقبة وكان قويا في ذاته ‹أيّدا›(13) لا يقاوم في الصراع، ولا يطاق له دفاع، حكى أنه في بعض حصاره لأهل تبوعصامت غرز يده في ثقب جدار وصعد عليه ما لا يحصى من الناس كأنها خشبة منصوبة، أو لبنة مضروبة، وكان رحمه الله سخيا جدا حتى أعطى الأديب الشهير الذي له الامامة في الأشعار الملحونة السيد سعيد التلمساني(14) نحوا من خمسة وعشرين رطلا من خالص الذهب مرة واحدة جائزة له على بعض أمداحه، وحكاياته في هذا المعنى شهيرة، قاله الأفراني، ولما قتل مولانا محمد قام ولده مقامه لكنه لم يتم له الأمر في قضية يطول ذكرها، هكذا قال بعضهم، والله سبحانه أعلم وأحكم.

---

(13) ما بين القوسين ساقط من (م)

(14) لم نقف على ترجمته لا في «البستان» ولا في غيره.

الراية الثانية من اللواء الأعظم
راية مولانا الرشيد بن مولانا الشريف
وهي راية حمراء مشرقة فيها أعلام خضر

لما قتل مولانا محمد عام {1075} (1) كما سلف واستولى مولانا الرشيد على جيوشه، ووردت عليه القبائل، وعظم له الشأن، توجه لتازا ففتحها بعد المحاربة الطويلة والممانعة الشديدة، فدخلها عنوة بالقهر ففتك بأبطالها وعتاتها، وأمن ضعفائها، وكانت فاس قبيل ذلك تقاسمها الثوار والخوارج، ونبغ فيها من كل جهة قائم، فكان ابن صالح حامي ‹بيضة› (2) عدوة الأندلس ومن انضاف إليها، وابن الصغير كبير اللمطيين ومن انضاف اليهم، ووقع بين الفريقين حروب كثيرة، وأما فاس الجديد فإنه كان أمرها بيد قائم يقال(3) له الدريدي، قال صاحب البستان : لما بلغ خبر بيعة الناس لمولانا الرشيد لأهل فاس اجتمعوا مع الحياينة وأهل الحوز ‹يعني حوز فاس› (4) واتفقوا على مخالفته وعدم بيعته وتعاقدوا على ذلك وتحالفوا، وأمر رؤساء فاس عامتهم بشراء الخيل والإكثار من ذلك، ففعلوا ووظفوا على كل دار مكحلة، ومن لم توجد عنده يعاقب، فاشتروا منها فوق الكفاية، وخرجوا لباب الفتوح لعرض الخيل والسلاح، واجتمعوا مع الحياينة وأحلافهم وحلفوا أن لا يدخل مولانا الرشيد بلادهم بسبب ما فعل أخوه مولانا محمد بالحياينة من الانتهاب والاجتياح ظنا منهم أنه مثله، فعرضوا خيلهم وسلاحهم على رؤسائهم، ولما بلغ مولانا الرشيد هذا الخبر أعرض عنهم، وكان عاقلا داهية، وتوجه لسجلماسة فأقام محاصرا لها تسعة أشهر الى أن خرج عنها ‹مولاي محمد ولد أخيه السلطان مولاي محمد بن الشريف، فلما اشتد الحصار فر›(5) مولاي محمد الصغير المذكور ليلا ودخلها مولاي الرشيد فسد الفرج ومهد الأطراف، وأصلح كل خلل، ورتب حاميتها، ورجع لتازا فأقام بها، ولما سمع أهل فاس برجوعه اتفقوا مع

---

(1) ما بين المعقوفين زيادة من (م)

(2) مابين العلامتين ساقط من (م) و (ل)

(3) في (ل) : (سمي) بدله.

(4) مابين العلامتين ساقط من (ل)

(5) ما بين العلامتين لا يوجد في (ل)

أحلافهم علي أن يصدموه بموضعه ويغيروا عليه بتازا فتأهبوا للحركة وخرجوا من فاس في شوال عام ستة وسبعين وألف، فلما قابلوا محلته المنصورة انهزموا دون قتال فتبعهم الى وادي سبو ورجع فبعثوا له في الصلح فلم يكمل بينهم وبينه صلح الى أن ملك نواحي المغرب كلها، وذلك من حسن تدبيره وكمال دهائه، وفي صفر عام سبعة وسبعين وألف نزل على فاس وحاصرها وقاتلهم ثلاثة أيام فأصابته رصاصة من طرف أذنه ورجع سالما، ثم أعاد حصارها مرة أخرى في ربيع من السنة فأوقع بهم من القتل والجراحات ما أحزنهم، ثم رجع ولم يكن جاءهم بقصد المقام عليهم فتوجه للريف بقصد اعراض ‹القائم› (6) فحاصره وقاتله، وكانت بينهما وقائع الى أن أخذه في رمضان، وفي القعدة نزل على فاس وقاتلها الى ثالث ذي الحجة، فدخل فاسا الجديدة من السور من ناحية ملاح المسلمين وفر أميرها الدريدي وهذا الدريدي كان في جملة من إخوانه دريد من جوشم، وكانوا في ديوان السعديين، ولما بايع أهل فاس السيد محمد الحاج كان في عسكره، فلما فشلت ريح أهل الدلاء خالفهم وقام، وكان يشن الغارات على البرابر الى أن نزل مولانا الرشيد ففر الدريدي كما تقدم، وفي الغد نزل السلطان مولانا الرشيد على فاس القديمة فحاربها ففر رئيس اللمطيين ابن الصغير وولده الى بستيون باب الجيسة بالليل، ولما أصبح فر رئيس الأندلس ابن صالح فخرج أهل فاس وبايعوا مولانا الرشيد، وقبض على ابن صالح بحوز المدينة فسجنه السلطان بباب دار ابن شقرة، وقتل عدة من أصحابه، ثم قبض علي ابن الصغير وولده، وبعد سبعة أيام قتلهم (7) وولى على قضاء فاس السيد حمدون المزوار(8) ثم خرج من فاس للغرب بقصد الخضر غيلان القائم، وكان بقصر كتامة فانهزم وذهب لأصيلة، فرجع السلطان لفاس، وفي عام ثمانية وسبعين وألف(9) حرك لمكناسة وقصد آيت ولال من البربر حمية(10) السيد محمد الحاج فأخذهم(11) ورجع، وبعد

(6) مابين المعلامتين ساقط من (م)
(7) في الفاسية : (قتله) بإفراد الضمير
(8) والفقيه العلامة الخطيب القاضي حمدون بن محمد المزوار الزجني نسبة لمدينة قرب وزان يقال لها أزجنات سنة 1084هـ 1673م، نشر ج 2 ص 205.
(9) في الفاسية : (تسعين)
(10) في (م) : (وكانوا أعوان ...) بدل حامية.
(11) في (ف) : فأسرهم.

رجوعه نزل السيد محمد الحاج بجنوده بمزورة قرب فاس، فقاتله السلطان مولانا الرشيد ثلاثة أيام ورجع السيد محمد الحاج، ثم خرج السلطان لتازا ونواحيها ورجع وعزل العشير قائد مكناس، ثم خرج لحركة بني زروال في ثاني النحر فأخذهم وبعث رئيسهم الشريف لفاس، ثم توجه لتطوان فقبض على رئيسها أحمد النقسيس في جماعة من حزبه وتوجه بهم لفاس فسجنه ثم خرج لحركة بني يزناسن فحاربهم ورجع، وفي هذا العام مات كروم الحاج الشباني الثائر بمراكش ونواحيها وتولى ولده أبو بكر ابن الحاج، وفيه خرج السلطان مولانا الرشيد لحركة زاوية الدلاء، وولى على فاس الفقيه السيد محمد بن احمد الفاسي في محرم واحد وثمانين وألف[12] فلقى محلة الدلاء عليها ولد السيد محمد الحاج ولم يحضرها هو لكبر سنه، وذلك في موضع يقال له بطن الرمان من فازاز، ووقع القتال فانهزم ولد الحاج والبربر، ورجعوا للزاوية، وتبع السلطان آثارهم الى أن نزل علي الزاوية، قال الشيخ أبو علي اليوسي رحمه الله تعلى في كتابه المحاضرات : كان الرئيس السيد محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي ملك المغرب[13] كله سنين عديدة، واتسع هو وأولاده وإخوانه في الدنيا، فلما قام عليهم السلطان مولانا الرشيد ولقي جيوشهم ببطن الرمان وهزمهم ودخلوا على السيد محمد الحاج وأظهر أولاده وإخوانه غاية الجزع فلما رأى منهم ذلك قال لهم : ما هذا الجزع الذي أرى منكم ؟ إن قال حسبكم فحسبكم، يريد الله تبارك وتعلى، وهذا كلام عجيب، ولما خرج إليه أهل الزاوية عفى عنهم ولم يرق دماءهم ولا كشف لهم عورة[14] لحلمه وكرمه، ولما فرغ من الزاوية نقلهم لفاس وأخلى الزاوية، وكانت هذه الزاوية قد اشتهرت بالزاوية البكرية نسبة الى جدهم أبي بكر الصالح، وليست هذه النسبة الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما يتوهم كثير من لا علم له بهذا، فلما ارتحل مولانا الرشيد عن الزاوية توجه لمراكش فاستولى عليها في صفر وقتل رئيسها أبا بكر ولد كروم الحاج مع جماعة من أنصاره وقرابته، وأقام بها شهرا ورجع،

---

(12) كذا في نسخة المؤلف، وفي الملكية : (واحد وسبعين) وفي الفاسية : (واحد وتسعين) وفي سلوة الانفاس ج 2 ص 320 سنة 1077هـ.

(13) كذا في نسخة المؤلف ومثله في الفاسية : وفي الملكية : (الغرب) وهو المناسب.

(14) في (ف) : (حرمة).

وفي ذلك العام خرج ابن أخيه مولانا محمد الصغير بن مولانا محمد <بن> (15) الشريف من تافيلالت وكذلك الخضر غيلان ركب البحر وتوجه للجزائر، وفي العام المذكور عزل السيد محمد بن احمد الفاسي عن ولاية فاس وعزل المزوار عن القضاء وولي القضاء السيد محمد المجاصي وخطابة القرويين للسيد محمد البوعناني(16) وفي رجب خرج السلطان لحركة الشاوية ورجع في رمضان، وفيه أمر بإخراج أهل الزاوية من فاس ثم عفا عن البعض منهم وبقي الآخرون منهم مستحرمين بضريح سيدي علي ابن حرازم الي تمام العام فردهم جميعا، وبعث السيد محمد الحاج الى تلمسان مع جميع أولاده الى أن مات بها ودفن في ضريح الشيخ السنونسي رضي الله عنه، وحدث من يوثق به من قرابة السيد محمد الحاج أنه لما أشرف على مدينة تلمسان التفت الى من حوله من أولاده وقال : سبحان الله : كنت أرى أني أدخل هذه المدينة مؤيدا منصورا، ثم إني دخلتها أسيرا مقهورا، فبقي أولاده هنالك الى أيام مولانا إسماعيل فوقعت الشفاعة فيهم فأمر برجوعهم لفاس وفي ذي الحجة خرج السلطان مولانا رشيد لحركة آيت عياش وفيه أمر بضرب السكة الرشيدية وأقرض تجار أهل فاس اثنين وخمسين ألف مثقال، وفيه بنيت قنطرة وادي سبو الأقواس الأربعة من ناحية فاس وكان تأسيسها عام ثمانين وألف وفيه خرج لحركة الأبيض <وقبض أولاد أخ الأبيض>(17) ولما بلغ تازا قتلهم، ثم مرض مرضا شديدا حتى أيس من الحياة فأمر بتسريح المساجين وأكثر من الصدقات فعفاه الله سبحانه، وفي شوال عمل العرس لأخيه مولانا اسماعيل بدار ابن شقرة، قال العلامة الأفراني إنه احتفل في ذلك العرس بما لم يعهد الناس مثله، وفي شوال عام احدى(18) وثمانين وألف تحرك لسوس، وفيه دخل تارودانت، وفيه استولى على هشتوكة وقتل منهم أزيد من ألف وخمسمائة، واستولى على أهل الساحل بعد أن قتل منهم أزيد من أربعة الاف، وفيه استولى على قلعة الغ دار

---

(15) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(16) البوعناني الحافظ الخطيب الفصيح ابو عبد الله محمد بن محمد بن سليمان البوعناني ت 1098هـ 1686م.

(16) المجاصي : العلامة الجليل المحقق المحرر الحافظ ابو عبد الله محمد بن الحسن المعروف بالمجاصي وفي النشر، وفي بعض التقاييد المغراوي من مغراوة الجزائر ت 1103هـ 1691م نشر ج 3 ص 55.

(17) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(18) في الفاسية ما بين العلامتين (82).

ملك أبي الحسن بوحسون المعروف أيضا بأبي دميعة بعد أن قتل منهم بسفح الجبل أزيد من ألفين، وفيه قتل أخوه خليفته مولانا اسماعيل بفاس ستين من أولاد جامع على قطع الطريق وعلقهم بالأبراج الجديدة، وفيه أمر بضرب فلوس النحاس ‹المستديرة› (19) وكانت قبل ذلك مربعة، وجعلها أربعا وعشرين في المزونة، وكانت قبل ثمانيا وأربعين، ورجع لفاس في رجب من العام المذكور، وفي شعبان ابتدأ بناء مدرسة الشراطين بدار الباشا عزوز وأمر ببناء القصبة الجديدة بفاس بديار اللمتونة وعرصة ابن صالح أعطى ألف مثقال لبناء سورها وأمر أصحابه ببناء الدور فيها، وأعطى لشراگة ألف دينار لبناء قصبة(20) الخميس لأن هؤلاء الشراگة قدموا معه من الشرق واستخدمهم في جنده منهم من العرب الشجع وبنو عامر ومنهم البرابر وهم مديونة وبن سنوس وجعلهم قبيلة واحدة حيث أنفوا من ولاية الأتراك ففروا إليه، وخرج السلطان مولانا الرشيد لزيارة الشيخ أبي يعزى، ومنه ذهب لسلا ورجع لفاس، وفي عام اثنين وثمانين وألف وجه خيلا ‹للجهاد بطنجة ووجه خيلا›(21) لسوس قائدهم عبد الله أعراض وخرج للصيد بتفراطا، وبلغه قيام ابن أخيه مولاي أحمد ابن محرز بمراكش فرجع لفاس وخرج منها في عصر يومه فلقيه بفنزارة مقبوضا بيد أصحابه فوجهه لتافيلالت وسار لمراكش وبعث قائده زيدان لفاس ليأتي بالجيش، فأتاه أهل سوس طائعين، ولم يبق للحركة محل بعد أن خرجت الأخبية لوادي فاس، فأقام بمراكش إلى أن عيد عيد الأضحى، وفي ثاني العيد جمح به فرسه في بستان المسرة فأصابه غصن شجرة نارنج فكان فيه سبب موته رحمه الله تعالى، وفي ذلك أنشد بعض الأدباء :

وما شج ذاك الغصن رأس إمامنا ... لسوء له خدن المحبة جاحد
ولكنه قد غار من لين قده ... وأن من الأشجار ما هو حاسد

ودفن بمراكش الى أن نقله المولى اسماعيل لفاس ودفن بروضة الشيخ سيدي علي بن حرازم قيل بوصية منه بذلك.

قال الشيخ الأفراني : لطيفة : ذكر صاحب الذخيرة السنية في الدولة

---

(19) ما بين العلامتين سقط من (ب)

(20) في ب : (عرصة)

(21) ما بين العلامتين سقط من (ب)

المرينية ومنها نقلت : من بركات فاس الجديدة أنها ما مات فيها سلطان، وما خرج منها لواء الا نصر انتهى.

ومصداق ذلك أن مولانا الرشيد مع كونه مغرما بفاس أشد الغرام لما قرب أجله خرج منها وذهب لمراكش انتهى كلام الأفراني.

والخبر عن فاس الجديد بهذا شائع متواتر كاد أن يكون مطردا ودليله المشاهدة وذلك أنه قيل أن السلطان يعقوب ابن عبد الحق باني فاس الجديدة رصد له علماء دولته لتأسيسها طالع الأسد الذي هو بيت الشمس الدالة بإذن الله تعالى على الملك، ولذلك سمي باب المدينة المذكور باب السبع والله أعلم.

وكان السلطان مولانا الرشيد رحمه الله تعالى محبا في جانب العلماء، مؤثرا لأغراضهم معظما لحرماتهم، رافعا لأقدارهم، حتى إنه وجه لبعض الفقهاء يقرأ عليه فامتنع ذلك الفقيه وقال كما قال الامام مالك رضي الله عنه : العلم يؤتى ولا يأتي، وكما قال الامام محمد بن اسماعيل البخاري رضي الله عنه. فلما رجع الرسول الى مولانا الرشيد وأخبره بقول الفقيه وامتناعه قال صدق، فكان السلطان مولانا الرشيد يذهب اليه لداره فيقرأ عليه.

قال الأفراني في **الظل الظليل** كان مولانا الرشيد رحمه الله جوادا سخيا مفرطا في الجود، قصده الناس من المشارق والمغارب، ورحلوا إليه من أقطار بعيدة، والأرضين الشاسعة، وقصده بعض طلبة الجزائر مادحا ببيتين فوصله بمال جزيل وهما هذان :

فاض بحر الفرات في كل قطر   من ندى راحتيك عذبا فراتا
غرق الناس فيه والتمس الفقـــ   ـر خلاصا فلم يجده فماتــا

وكان مجلسه غاصا بأهل العلم يتجاذبون فيه أطراف الأحاديث ويتناشدون غرائب الأشعار، قال الافراني في صفوة من انتشر في صلحاء القرن الحادي عشر ما محصله : إن علماء فاس كانوا في مجلس السلطان مولانا الرشيد في بعض الأعياد : وكان من جملتهم المرابط المسناوي(22) فنظر اليه السلطان وعلم أنه يذكر ملك أسلافه وجلوسهم في ذلك المحل، وذلك من فراسته، وأراد مباسطته علي عادتهم(23) فأنشد قول المتنبي

---

(22) ابو عبد الله محمد الشهير بالمرابط محمد بن الشيخ ابي بكر الدلائي حائز قصب السبق في العلوم اللسانية ت سنة 1089 هـ 1678م نشر ج 2 ص 236.

ونظر الى جهة المرابط المذكور :

ومن نكد الدنيا علي الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

فقال المرابط : ياسيدنا رحم الله من قال : من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلا انتهى.

قال مقيده عفا الله عنه : كان من الأدب المناسب لحضرة الملك أن يقول المرابط : من سعادة العبد أن يكون سيده عاقلا ولا يواجه السلطان بكونه خصما ويقر على نفسه بمخاصمته مع أنه سيده لا محالة لكونه أحسن في التجاوز عن دنوب قومه وحقن دمائهم ولم يفضح شيئا من عوراتهم، وقرب هذا المخاطب ولم يبعده ‹من عز› (24) حضرته وانسه، بين أبناء جنسه، رحمه الله تعالى وجدد عليه سحائب الرضا والكرامة.

ذي المعالي فليعلون من تعالى هكذا هكذا والافلالا.

(23) كذا في الاصل وفي غيره : (عادته) بإفراد الضمير

(24) ما بين العلامتين سقط من (ف).

الراية الثالثة من اللواء الأعظم من الجيش العرمرم
راية السلطان الناصر لدين الله تعالى مولانا إسماعيل
راية حمراء ذات الأذيال السابغة والأنوار البازغة

لما مات مولانا الرشيد رحمه الله وبلغ خبره لمكناسة بويع مولانا إسماعيل وقدم عليه أعيان أهل فاس وعلماؤهم واشرافهم ببيعتهم، وقدم عليه وفود أهل المغرب من الحواضر والبوادي بهداياهم وبيعاتهم، فجلس للوفود الى أن فرغ من شأنهم ورتب أشغاله من مكناسة، إذ كان لا يبغي بها بدلا حيث أعجبه ماؤها وهواؤها، وشرع في بناء قصوره بها بجوار قصبة الموحدين، ووجه العساكر للنواحي وتوجه لمراكش إذ لم يأته أحد من أهلها، وبلغه أن ابن أخيه مولاي أحمد بن محرز توجه لتلك الناحية انتهى، هكذا قال في البستان، وهو مخالف لما عند العلامة المحقق الافراني في الظل الظليل وفي آخر النزهة، ونصه : لما توفي مولانا الرشيد رحمه الله تعالى على ما سلف ذكره في خبر وفاته بلغ ذلك لمولانا إسماعيل بفاس الجديد ليلة الأربعاء السادس عشر من ذي الحجة، وكان مولانا إسماعيل في كفالته وتحت ولاية نظره، واستخلفه على مكناسة، ولما ظهرت له نجابته واختبر حسن سيرته، ورأى من فطانته ما زاد به ولوعا بشأنه استخلفه بفاس الجديد وأسكنه بها وزوجه إحدى الحظايا من بنات الملوك السعديين، فكان عرسه من الأمثال السائرة لم ير الناس وليمة مثلها ‹ولا حضروا عرسا أعظم منه ولا أبصروا من صنع مثله›(1) ولا سمعوا في الأعصار المتأخرة من قاربه، ولما تحقق الناس موت مولانا الرشيد لحقهم من الأسف ما لا يعبر عنه، وأقبلوا على مولانا إسماعيل وراودوه على المبايعة له والانتصاب للإمامة، فأظهر الامتناع واعتذر بالضعف وقلة الأنصار، فلم يزالوا معه حتى قبل، فانعقدت له البيعة، وحضرها أكابر أهل المغرب، ووافق عليها أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف كالشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي والشيخ أبي علي اليوسي وأبي عبد الله محمد بن علي

(1) ما بين العلامتين سقط من (ف)

الفلالي(2) وأبي العباس احمد بن سعيد المجلدي(3) وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وأخيه أبي زيد، والقاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن المجاصي، والقاضي أبي مديان(4) وغيرهم من بقية الأعيان، وكانت مبايعته في الساعة الثانية من يوم الأربعاء سادس عشر ذي الحجة متم اثنين وثمانين وألف، ووافق ذلك اليوم الثالث(5) من أبريل، وكان سنه إذ ذاك ستا وعشرين سنة لأن ولادته كانت عام وقعة القاعة، وهي مؤرخة بخط من يوثق به سنة ست وخمسين وألف انتهى.

فلما بلغ مراكش تلقاه أهلها بالحرب، فهزمهم ودخل مراكش عنوة فطلبوا منه الأمان فأمنهم وعفا عنهم، ثم نقل أخاه مولاي الرشيد في تابوت ووجهه [لفاس](6) فدفن في روضة الشيخ ابن حرازم كما تقدم، ورجع من مراكش وفرق الراتب على الجنود بقصد الحركة للصحراء، ثم إن أهل فاس قتلوا قائد المحلة زيدان بن عبيد العامري فاستمر الحرب بينه وبينهم، فوجهوا لابن أخيه مولاي أحمد بن محرز يأتيهم. فقدم لدبدو وبعث لهم رسوله فأعلنوا بنصره في المدينة، وبالليل وجهوا عشرة من الخيل لملاقاته بتازا، ثم أصبح عليهم رسول الخضر غيلان بأنه قدم لتطوان من الجزائر ومعه النقسيس فتوجه السلطان مولانا إسماعيل بعساكره نحو ابن أخيه لتازا، فلما بلغها رجع مولاي أحمد ‹لتافلالت›(7) ورجع مولانا إسماعيل للغرب بقصد غيلان الى ان ظفر به فقتله، ورجع لفاس الجديد فوقع الصلح بينه وبين أهل فاس بعد حصار أربعة عشر شهرا(8) وثمانية عشر يوما وخلف بفاس الجديد عبد الرحمان المتراري وقيد على فاس أحمد التلمساني، فعاث في المدينة بالضرب والسجن والنهب ورجع السلطان لمكناس واشتغل ببناء قصوره بعد أن هدم ما يلي القصبة من الدور، وأمر

---

(2) الفلالي وبه عرف الفقيه الاستاذ قاضي فاس العليا، توفي سنة 1089هـ-1678م.

(3) المجلدي احمد بن سعيد قاض فاس العليا، اجاز له أبو سالم العياشي، وله كتب فهرسته، قلت : كان العياشي يعتبره كثيرا الى حد أنه لما سمع به انه أراد التوجه الى أداء فريضة الحج كتب له رحلة اصغر من رحلته الكبيرة، سماها تعداد المنازل اقتصر فيها على ذكر المراحل. قال في الدليل اخبره محمد الفاسي ان نسخة منها عند العلامة عبد الحفيظ الفاسي، وفي نسختنا عدم ذكر تسميتها تعداد المنازل والخطب سهل، توفي المترجم 1084هـ-1682م.

(4) لم نهتد لترجمته

(5) في (ف) (الثاني)

(6) ما بين المعقوفين زيادة من (ف)

(7) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(8) في (م) أربعة أشهر

أربابها بحمل أنقاضها، وبنى لهم سورا على الجانب الغربي وأمرهم ببناء دورهم به وهدم الجانب الشرقي كله من المدينة وزاده في القصبة <القديمة>(9) ولم يبق أمامه إلا الفضاء، فجعله كله قصبة، وبنى سور مدينة مكناس وأفردها عن القصبة، وأطلق أيدي الصناع في البناء وجلبهم من حواضر المغرب فلم يبلغ بذلك غرضه، ففرض الفعلة على قبائل المغرب مناوبة كل قبيلة توجه عددا معلوما من الرجال والبهائم في كل شهر ورتب على أهل الحواضر الصناع في كل شهر من البنائين وغيرهم من جميع الصنائع، وأسس المسجد الأعظم بداخل القصبة بجوار قصر النصر الذي كان أسسه أيام أخيه مولانا الرشيد، ثم أسس الدار الكبرى العظيمة التي بجوار <ضريح>(10) الشيخ المجذوب(11) وفي محرم أربع وثمانين وألف بلغهُ دخول ولد أخيه مولاي أحمد بن محرز مراكش وكان متوجها لانجاد حيث عاث الأعراب في تلك الطرقات، فتوجه لهم وأخذ سقونة ونهب أموالهم وقتل منهم عددا كثيرا ورجع واستعد لحرب ابن محرز، فتوجه له في العساكر العديدة على تادلة فكان اللقاء بينهما على وادي العبيد ببو عقبة، فانهزم مولاي أحمد ومات قائد محلته حيدة الطويري ورجع لمراكش فتبعه السلطان ونزل على مراكش عام ستة وثمانين وألف، فقتل بالمحلة الشيخ عمر البطيوي وولده عبد الله أعراض وإخوته كانوا أمراء عساكره فبلغه عنهم إرادة المكر فخنقهم، ووجه لمن بقي منهم بفاس فقبضوا وقتلوا وحيزت ديارهم وأموالهم، وأقام السلطان على حرب مراكش الى ربيع الثاني عام سبعة وثمانين وألف، فوقع قتال عظيم قتل فيه من الفريقين ما لا يحصى، فانحصر مولاي أحمد بمراكش وبقي يقاتل من الأسوار، واستمر عليه الحصار الى ربيع الثاني من عام ثمانية وثمانين وألف، ففر مولاي أحمد ودخل السلطان مراكش <عنوة>(12) فاستباحها وقتل سبعة من أعيانها وكحل منهم ثلاثين، وفي أثناء مقامه بمراكش خرج يوما للصيد بالبحيرة فوجد رجلا بيده شفرة يقطع بها السدر لغنمه تأكل ورقه فقال

---

(9) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(10) ما بين العلامتين سقط من (م) و (ف)

(11) عبد الرحمن المجذوب دفين مكناس، كان جامعا بين السلوك والجذب ترجمه ابن زيدان في الاتحاف سنة 976هـ-1568م وضريحه بالمشهد الاسماعيلي بمكناس.

(12) ما بين العلامتين سقط من (ف).

للوزعة نادوا أبا الشفرة فأتوا به وأوقفوه أمامه فسأله فانتسب له الى الوداية وأخبره أنهم دخلوا من القبلة بسبب الجدب(13) ودخلوا السوس بنجعهم وافترقوا، كل قصد قبيلة نزل بها، ونحن مع الشبانات، فقال له : أنتم أخوالي، وقد سمعتم خبري ولم تأتوني، والآن أنت صاحبي، فإذا روحت غنمك فاقدم إلي لمراكش وكلف به من يوصله إليه، ولما قدم عليه كساه وأركبه وأعطاه خيلا وكلفه بجمع إخوانه من قبائل الحوز، فجمع من وجد منهم ونقلهم بحلتهم الى مكناسة، ثم دخل نجع آخر بعدهم فكتبهم السلطان في الديوان، وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وعين لهم بجوار قصبته [بمكناس](14) المحل المعروف بالرياض، وأمرهم ببناء الدور، وأعطى لأعيانهم النوائب، وهي الزوايا التي لا تغرم مع القبائل، ثم قدم عليه نجع آخر فكتبهم مع إخوانهم، ولما نقل زرارة والشبانات قوم(15) كروم الحاج من الحوز الى وجدة أخرج الشبانات الذين كانوا بفاس الجديد مع الدريدي ووجههم لوجدة مع إخوانهم، وأعطى فاسا الجديد لأخواله الوداية وجه نصفهم لها وبقي نصفهم بالرياض، وقائدهم علي بوشفرة، والذين بفاس قائدهم محمد بن عطة <وكانا يتداولان، مرة هذا ومرة هذا، ثم استقر الأمر على كون بوشفرة بفاس ومحمد بن عطة>(16) بالرياض، وأما خبر زرارة والشبانات وأولاد جرار وأولاد مطاع فإنهم كانوا جندية مع الدولة السعدية وهم عساكرهم، وكانوا يحركونهم بحللهم فأنزلوهم بأزغار على رغم أنوف <عرب>(17) جشم من الخلط وأهل الغرب الذين كانوا شيعة لنبي مرين، وكانوا كلما رأوا فشلا في دولة السعديين ثاروا وغدروا، فعين لهم محمد الشيخ هؤلاء المذكورين وأنزلهم بأزغار قمعا وزجرا لهم، فإذا وقع فتور في الدولة قاموا لهم وأوقعوا بهم، هذا دأبهم دائما الى أن نقل المنصور منهم أولاد مطاع <لزبيدة>(18) وأوقع بجشم وأسقطه من الجندية ونزع منهم الخيل والسلاح، وقبض منهم الأموال، وتركهم عراة حفاة بين القبائل

---

(13) في (ل) الحرب

(14) ما بين المعقوفين زيادة من (م) و (ف)

(15) في (ل) قدم

(16) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(17) ما بين العلامتين سقط من (ل)

(18) ما بين العلامتين سقط من (ل)

يسرحون ويحرسون بالخمس، ولما هرمت الدولة السعدية اجتمعوا ورجعوا لأزغار وتحولوا وأكثروا من الخيل والسلاح الى أن ملك السلطان هذا مولانا إسماعيل فانتزع منهم الخيل والسلاح، وضرب عليهم المغارم، واستمروا على ذلك الى أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فظهروا في دولته وكانوا يعسكرون معه في الحروب ويغرمون ما وجب عليهم في الزكوات، وكذلك مع ولده السلطان مولانا سليمان، وحسنت طاعتهم وخدمتهم ليمنه وبركته، وكذلك قبائل المعقل أهل الحوز ما زالوا على الخدمة والطاعة على هذا المنوال في جميع الأوامر السلطانية حفظهم الله تعالى.

وفي مدة إقامة السلطان مولانا إسماعيل بمراكش بعد فرار مولاي أحمد بلغه اجتماع البربر على أحمد بن عبد الله الدلائي وعيثهم فيمن جاورهم من قبائل العرب من تادلة الى سائس فوجه عسكرا لأهل تادلة إعانة لهم فهزمهم البربر واستولوا على تادلة، ووجه عسكرا آخر مع القائد يخلف فيه ثلاثة آلاف من الخيل فقتل يخلف ونهب(19) عسكره، ثم أعقبه بعسكر آخر فوقع له مثل الأول {والثاني}(20) هذا والسلطان بمراكش في ارتقاب مولاي أحمد بن محرز الذي بالسوس الأقصى، ثم بلغه أيضا قيام أخيه مولاي حمادى بالصحراء ومحاربته مع أخيهما مولاي محرز الثائر هناك أيضا. فقام لحرب البربر بتادلة فلقيه أخوه مولاي الحران جاء يستنصره على مولاي حمادى، فلما وقع الحرب مع البرابر بتادلة وهزمهم السلطان وقطع منهم سبعمائة(21) رأس ووجهها مع عبد الله الروسي لفاس، فلما بلغ الروسي لفاس زينت المدينة وخرجت المدافع، وبعد الظفر فر مولاي الحران من المحلة للصحراء، وذهب السلطان لمكناس عام ثمانية وثمانين وألف، وولى علي فاس عبد الله الروسي وولى أباه حمدانا على الإراثة، وولى القضاء السيد العربي بردلة، وأمر بقتل مساجين أهل تطوان الذين بسجن فاس وعددهم عشرون، قطعت رؤوسهم، ثم جئ بمولاي الحران مقبوضا من الصحراء، فلما قابله أمر بتسريحه وأعطاه خيلا ومداشر

---

(19) في (ل) وذهب

(20) ما بين المعقوفين زيادة من (ب)

(21) في (ل) تسعمائة

بالصحراء يعيش بها ووجهه وأقام بمكناسة يقف على البناء، وكلما أكمل قصرا أسس غيره، ولما ضاق مسجد القصبة بالناس أسس الجامع الأخضر أعظم منه وجعل له بابين بابا للمدينة وبابا للقصبة، وجعل لهذه القصبة عشرين بابا عادية في غاية السعة والعلو والارتفاع، وفوق كل باب منها زج(22) للمدافع النحاسية العظيمة الأجرام(23) والمهاريز الحربية الهائلة الأشكال مما يقضى منه العجب، وجعل بهذه القلعة بركة عظيمة تسير فيها الزوارق والفلائك للتفرج، وجعل فيها ‹هريا›(24) لاختزان الزرع مقبو القنانيط يسع زرع أهل المغرب كله، وجعل بجواره سواني للماء في غاية العمق مقبوا عليها، وفي أعلاها سقالة مستديرة لوضع المدافع موجهة لكل ناحية، وجعل بها إسطبلا لمربط خيله وبغاله طوله فرسخ مسقف الدائرة بالبرشلة على سواري وأقواس هائلة كل فرس مربوط في قوس، وبين الفرس والفرس عشرون شبرا، يقال إنه كان مربوطا فيه اثنا عشر ألف فرس مع كل فرس سائس ونصراني من الأسارى لخدمته، وفي هذا الاسطبل ساقية الماء مقبو عليها، وأمام كل فرس ثقب مفتوح يرد منه كالمعدة، وفي وسط هذا الاسطبل قباب معدة لوضع السروج على أشكال مختلفة، وفيه هري عظيم مربع مقبو على أساطين عظيمة وأقواس عالية يقال إنه كان يوضع بها سلاح الخيل، وضوؤه من شبابيك في جوانبه الأربع، كل شباك يزيد وزنه على قنطار من الحديد، وفوق هذا الهري قصر يقال له المنصور، لا يقصر ارتفاعه على مائة ذراع، خمسون في الأسفل وخمسون في الأعلى، فيه عشرون قبة كل قبة فيها شرجب له شباك من حديد يشرف منه أهل القبة على بسائط مكناس من الجبل الى الجبل، وكل قبة بالبرشلة والقرمود منها أربع قباب متقابلات سعة ‹كل واحدة سبعون شبرا تربيعة وباقي العشرين كل واحدة أربعون شبرا تربيعة›(25) ويجاوز هذا الاسطبل بستان على قدر طوله فيه من شجر الزيتون وأنواع الفواكه كل غريب عجيب، طوله فرسخ وعرضه ميلان، ويتخلل هذه القصور التي في القلعة مماشي متسعة مستطيلة وأبواب عظيمة فاصلة بين كل ناحية والأخرى،

(22) كذا بالأصل ومثله في (ف) اما (م) ففيها برج

(23) في (ف) الابراج

(24) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(25) ما بين العلامتين ساقط من (ف) ومن (م)

ورحاب عظيمة مربعة عارية معدة لعمارة المشور في كل جانب لا يحيط به وصف الواصفين، وذلك شئ لم ير في دولة من دول العرب والعجم ‹والمشارق والمغرب›[26] قال الزياني وقد شاهدنا آثار الأقدمين بالمشرق والمغرب والترك والروم فما رأينا مثل ذلك في دولهم ولا آثارهم بل لو اجتمع آثار دول ملوك الإسلام لرجح به ما بناه مولانا إسماعيل في قلعة مكناسة دار ملكه، وما زال ذلك البناء مع طول الدهر قائما كالجبال الرواسي لم تلحقه عواصف الرياح ولا زعازع الزلازل ولا كثرة الأمطار والثلوج التي تخرب المباني، ومن يوم مات المولى إسماعيل والملوك من أولاده وحفدته يخربون تلك القصور على قدر جهدهم ويبتنون بأنقاضها القصور من الرخام والزليج والخشب، وبنيت بأنقاضها مساجد ومدارس ورباطات بكل بلد من بلدان المغرب، وما أكملوا نصفها هذه مدة نحو مائة سنة، وأما الجدارات فما زالت ماثلة كالجبال الشوامخ، وكل من شاهد تلك الآثار من سفراء الترك والروم يتعجب منه ويقول : هذا ليس من عمل بني آدم، ولا يقوم به مال، رحمه الله تعالى انتهى.

قال مقيدة محمد بن أحمد أكنسوس عفا الله عنه : لو شاهد المنصور الذهبي سورا واحدا من أسوار السلطان مولانا إسماعيل لعلم أن ما أفنى فيه عمره من ذلك المنزل المسمى بالبديع إنما هو في التمثيل كدار إبليس التي تباع في عاشوراء يلعب بها البنات، ولا تحتاج المشاهدة لإقامة البينات، فسبحان من اقدر العبد العاجز على أمثال هذا.

وكان السلطان مولانا إسماعيل لما بلغ مراكش أول أمره وكان يكتب عسكره من القبائل حسبما تقدم حتى أتاه عمر عليلش[27] وكان أبوه كاتبا مع الذهبي السعدي ومع أولاده من بعده بدفتر فيه أسماء العبيد الذين كانوا في عسكر الذهبي، فسأله السلطان هل بقي منهم أحد ؟ فقال نعم كثير منهم بأعيانهم ومن أولادهم، وهم متفرقون بمراكش وحوزها وفي قبائل الدير، ولو كلفني سيدي بجمعهم لجمعتهم، فولاه أمرهم وكتب له الى قواد

---

(26) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

(27) عليلش عمر (صاحب جمع عبيد البخاري بوكالة محمد بن العياشي الذي أشار على المولى اسماعيل بجمع عبيد البخاري، راجع قصة ذلك الجمع وسبب ذلك في الاتحاف لمؤرخ الدولة ابن زيدان ج 5 ص 100 بترجمة محمد بن العياشي سنة 1139هـ-1726م.

القبائل بإعانته على جمعهم، واشتغل يبحث عنهم بمراكش حتى جمع من وجد منهم به، هذا سبب جمع عبيد البخاري كما وجد ذلك في كناش الوزير الأعظم الكاتب الأجل الأفخم اليحمدي(28) فلما جمع عليلش عبيد مراكش خرج للدير فجمع من وجد به، ثم توجه لقبائل الحوز فجمع من وجد فيها، فلم يترك بتلك القبائل ‹كلها›(29) أسود سواء كان مملوكا أو حر طانيا، فجمع في سنة واحدة ثلاثة آلاف نفس منهم المتزوج وغيره، فكتبهم في دفتر ووجهه للسلطان، فلما قرأه سر بذلك وأمر أن يشتري الإماء للأعزاب ويخلص المالك (كذا) منهم بدفع الثمن لملاكهم ويكسوهم من أعشار أهل مراكش ويأتيه بهم لمكناس، فقام عليلش بذلك واشتغل بشراء الإماء، وجمع الحرطانيات الى أن استوفى الغرض وكساهم وحملتهم القبائل من قبيلة الى أخرى الى أن بلغوا مكناسة، فكساهم السلطان، وأعطاهم السلاح، وعين القواد عليهم، ووجههم للمحلة بَشرع الرمل، ثم كلف كاتبه محمد بن العياشي(30) المكناسي يخرج لقبائل الغرب وبني حسن ويجمع من العبيد من كان لا ملك لأحد عليه يأخذه مجانا، ومن كان مملوكا ‹يعطي لصاحبه ثمنه، فخرج لذلك وطاف على القبائل فجمع كل أسود وجده من كان مملوكا›(31) أعطى لصاحبه عشرة مثاقيل، ومن كان غير مملوك أخذه بلا شيء، وأمر عماله كلهم أن يشتروا له العبيد من فاس ومكناس وغيرهما من المدن عشرة مثاقيل للعبد وعشرة للأمة الى أن لم يبق عند أحد عبد، فاجتمع من ذلك ثلاثة آلاف فكساهم وسلحهم ووجههم للمحلة بعد أن عين عليهم القواد، ثم قدم محمد بن العياشي بدفتر فيه ألفان من العبيد فيهم المتزوج والأعزب فكتب للقائد بن عبد الله الريفي أن يشتري للعزاب منهم الإماء ويكسوهم ويعطيهم السلاح من تطوان ويعين لهم قوادهم ويوجههم لمشرع الرمل، ففعل ذلك، هذا عدد من نزل بالمحلة في ابتداء جمعهم، ثم كلف أهل دكالة والشاوية أن ياتوا بعبيد المخزن الذين عندهم، فلم يمكنهم إلا جمعهم، فجمعوا كل عبد في قبائلهم وكملوا من عندهم بالشراء

---

(28) اليحمدي أبو عبد الله محمد بن أحمد نسبة الى بني يحمد القبيلة المعروفة قرب جبال اغمارة "تأتي ترجمته في ساقة الجيش وترجمه في الاتحاف ج 4 ص 106.

(29) ما بين العلامتين ساقط من (ا).

(30) ابن العياشي السابق تحت رقم 27.

(31) ما بين العلامتين ساقط من (م).

واشتروا لهم الخيل والسلاح وكسوتهم وأتوابهم، من الشاوية ألفان، ومن دكالة ألفان. فأنزلوهم بوجه عروس الى أن بنى قصبة ادخسان فأنزل أهل دكالة بها وأنزل الشاوية بزاوية الدلاء، ثم في عام تسعة وثمانين وألف توجه لتدويخ السوس وتمهيده، فبلغ الى طاطا وتيشت(*) وأقا وشنقيط، وقدمت عليه وفود العرب أهل الساحل والقبلة مغافرة وديلم وبربوش ومطاع وجرار وودى، وأدوا طاعتهم، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار والد السيدة خناثة أم السلاطين، فتزوجها السلطان وبنى بها وجلب في تلك الحركة ألفين من الحراطين بأولادهم من الأقاليم المذكورة فكساهم بمراكش وسلحهم ووجههم للمحلة، ورجع لتمام العام، وأقام بمكناس ثم توجه لحركة الشرق فترك تلمسان عن يساره وأصحر عنها فقدمت عليه وفود العرب من ذوي منيع ودخيسة وحميان والمهاية والعمور واولاد جرير وسقونة وبني عامر والجشم، فتوجه بهم الى أن نزل القويعة على رأس واد شلف، والذين قادوه وكانوا معه في محلته هم بنو عامر فخرجت محلة الترك من الجزائر بقضهم وقضيضهم ومدافعهم ونزلوا على وادي شلف في مقابلته، ولما كان في وقت العشاء أرعدت مدافعهم ليدهشوا العرب، فكان الأمر كذلك، فلما انتصف الليل فر بنو عامر من محلة السلطان، فلما أصبح وسمع الأعراب بفرارهم انهزموا دون قتال ولم يبق مع السلطان إلا عسكره، فكان ذلك سبب تأخره عنهم ورجوعه دون قتال، وكاتبه الترك أن يتخلي عن بلادهم ويقف عند حد أسلافه ومن كان قبله من الملوك السعدية فإنهم ما زاحموهم قط في بلاده، وبعثوا له كتاب أخيه مولاي محمد بن الشريف الذي وجه لهم مع رسولهم وكتاب مولاي الرشيد الذي فيه الحد بينهم وبينه، فوقع الصلح على أن الحد <وادي>(32) تافنى، ورجع السلطان لوجدة فأمر ببنائها ثم رجع منها لفاس ثم لدار الملك، وذلك كله عام تسعة وثمانين وألف وفيه بلغه خروج إخوته الثلاثة مولاي الحران ومولاي هاشم ومولاي أحمد وثلاثة من بني عمهم ودخلوا لقبائل عطة من البرابر، فتوجه لهم بالعساكر على سجلماسة ووقع بينهم الحرب بجبل ساغرو ومات فيه قائد العسكر موسى بن يوسف ومن أهل فاس أربعمائة دون غيرهم، وكان في تلك السنة وباء

(*) في الأصل : «تيسنت»

(32) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

عظيم في كل بلد فانهزم إخوته وفروا للصحراء ورجع السلطان <على>(33) طريق الفايجة فأصابهم الثلج في ثنية الجلاوي وأهلك <الناس>(34) وأتلف أثقالهم وأبنيتهم ولم يخلصوا منه إلا بمشقة عظيمة، ولما نزلوا بزاوية سيدي رحال(35) مدوا الأيدي في أموال الناس بالنهب لما لحقهم من ضرر الجوع، فاشتكى الناس من ذلك على السلطان فأمر بقتل كل من وجدوه خارج المحلة، ثم أمر بالوزير أن يجر الى مكناس وفاس ففعل به ذلك ورمى باقيه، وقتل السلطان في تلك الوقعة نحو الثلاثمائة، والوزير المذكور هو عبد الرحمان المتراري(36) وقتل السلطان جميع أصحابه بالرصاص، ورجع السلطان بمكناس فأقام بها، وفي محرم عام تسعين وألف وقع الوباء بالمغرب فكان العبيد يتعرضون بسبو على الطرقات يردون(37) الناس عن مكناسة، وكذلك كانوا يتعرضون بسايس وكل من يأتي من فاس يقتلونه فانقطعت السبل، وفيه نقل السلطان الشبانات وزرارة قوم كروم الحاج الى وجدة لما كانوا عليه من الظلم والفساد والجور في الحوز، وكتبهم في الديوان وقيد عليهم العياشي بن الزويعر الزراري وأمرهم بالتضييق على بني يزناسن إذ كانوا شيعة الترك فكانوا يغيرون عليهم ويمنعونهم من الحرث في بسائط أنجاد، وأمر أن تبنى عليهم قلعة بطرف بلدهم من ناحية الساحل ضد وجدة برقادة، وأمر العياشي أن ينزل بها خمسمائة من الخيل من أصحابه تمنعهم النزول والحرث ببسيط التريعة، وأمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم بالعيون وينزل فيها ابن الزويعر خمسمائة من الخيل من إخوانه، وأمر أن تبنى قلعة رابعة بطرف بلادهم على ملوية ويجعل فيها خمسمائة فارس من إخوانهم، وجعل لابن الزويعر النظر في القلاع الثلاث وهو بوجدة في ألف فارس، وكانوا في الدفتر ألفين <وخمسمائة>(38) وفي إحدى وتسعين وألف خرج السلطان في العسكر لبني يزناسن لتماديهم على

---

(33) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

(34) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

(35) الشيخ المشهور الشريف السلالي أبو العزائم رحال الكوش بن احمد. المترجم في الاعلام ج 3 ص 223 وفيه مصادر ترجمته توفي رضي الله عنه سنة 950هـ-1543م.

(36) وقد ذكر في "النشر" ج 2 ص 268 ضمن حوادث 1090 هـ بها قتل، كما نص الزياني في "البستان" مخطوط خاص" ص 37 وكذا "الروضة السليمانية" (مخطوط خاص) ص 101 وفي (الاستقصاء) ج 4 ص 28 ط مصرية زاد فيه قتله لأمر نقمه عليه.

(37) في (ف) يرمون

(38) ما بين العلامتين سقط من (ف)

الطغيان فدخل عليهم جبلهم وهتك حرمتهم ونسف نعمتهم وخرب قراهم وحرقها وقتل رجالهم وسبى أولادهم. فطلبوا الأمان فأمن بقيتهم على أن يدفعوا الخيل والسلاح التي عندهم فدفعوها عن يد وهم صاغرون، وقاموا بدعوته على رغم أنوفهم، ثم نزل ببسيط أنجاد، ومعه قبائل الأحلاف وسقونة فأرجلهم وأخذ خيلهم وسلاحهم وكلف أشياخهم أن يجمعوا ما بقى منها ففعلوا، ثم بالمهاية وحميان كذلك، ثم رجع، ولما نزل أمر ببناء قلعة تاوريرت التي بناها بنو مرين فجددها وأنزل فيها مائة من العبيد بأولادهم، ولما نزل بوادي مسون أمر أن تبنى بها قلعة بجوار القديمة وأنزل بتازة ألفين من الخيل وخمسمائة من عبيده وقيد عليهم منصور بن الرامي وجعل نظر القصابى التي بين تازة الى المنصور بن الرامي وعين لكل قبيلة قلعتها التي تدفع بها زكاتها وأعشارها لعولة العبيد وعلف الخيل، وهم حراس الطرقات، فمن وقع شئ في أرضه يعاقب ‹عليه›(39) قائد تلك القلعة، ولما بلغ الكور أمر أن تبنى بها القلعة وأنزل بها مائة من الخيل من عبيده بأولادهم، ولما بلغ لفاس أنزل بقصبة الخميس التي بنى سورها أخوه السلطان مولانا الرشيد خمسمائة من الخيل ‹بأولادهم›(40) من الشراقة الذين أتى بهم مولانا الرشيد من العرب والبربر، فمن العرب بنو عامر والشجع، ومن البربر بنو سنوس ومديونة، وجعلهم قبيلة واحدة، ثم أمر ببناء قلعة بالمهدوية وأخرى بالجديدة، وأنزل بكل واحدة مائة من الخيل من وصفانه بأولادهم لحراسة الطريق، وبكل قلعة فندق لمبيت القفل، وفي عام اثنين وتسعين وألف ورد الخبر أن مولاي أحمد بن محرز الذي بالسوس استولى على بلاد آيت زينب وقويت شوكته، فأمر بتفريق الراتب وتقويم الحركة من فاس، ثم بلغه إشراف العساكر التي بالمهدية على الفتح وتوقفوا على حضوره، فتوجه إليهم حتى حضر الفتح وأخرج رئيس النصارى فأمنه وأخرج أصحابه وكانوا ثلاثمائة وستة، والغنيمة أحرزها المجاهدون أهل الريف والفحص الذين كانوا رابطين عليها مع القائد عمر أحد والبطيوي، ورجع السلطان لمكناسة وتوجه المجاهدون مع أميرهم عمر بن حدو فأصابه الوباء فمات في طريقه فتولى رئاسة المجاهدين أخوه أحمد بن حدو وفي

(39) ما بين العلامتين ساقط من (ف).
(40) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

ثلاث وتسعين وألف خرج السلطان لحركة الشرق فنهب بني عامر ورجع لمكناسة وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة وبنى لهم خارجها ببريمة ثم بلغه أن الترك جاءوا بمحلتهم واستولوا على بني يزناسن وعلى دار ابن مشعل وان كلامهم مع ولد أخيه مولاي أحمد بن محرز راسلهم وراسلوه، وبلغه ذلك أيضا من خليفته بمراكش فكتب له ان يبقى في حراسة مولاى أحمد بن محرز الى أن يرجع من حركة تلمسان فخرج(41) بالعساكر للقاء الترك فوجدهم رجعوا، ولما بلغهم خروج النصارى بشرشال وأعانهم أهل الجزائر وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخرجوهم ومات من المسلمين نحو السبعمائة ورجع السلطان قاصدا مراكش ومنها للسوس فتلاقى مع ولد أخيه مولاي أحمد بن محرز ووقع القتال خمسة وعشرين يوما مات فيها من الفريقين ما لا يحصى، ودخل مولاي أحمد لتردانت فانحصر بها ثم وقع بينهما حرب أخرى مات فيها خلق كثير وجرح السلطان وجرح مولاي أحمد بن محرز واستمر الحال الى رمضان من العام المذكور.

قال مقيده محمد بن أحمد أكنسوس لطف الله به وعفا عنه : حدثني بعض الثقات أن السلطان مولانا إسماعيل لما ضاق عليه الأمر في هذه الوقعة وأعياه أمر ولد أخيه هذا أصبح يوما مكتئبا دهشا وقال لصاحبه <ووزيره>(42) الفقيه أبي العباس السيد أحمد اليحمدي إنني رأيت رؤيا في هذه الليلة أحزنتني غاية، فقال : وما هي ؟ لعلها تكون خيرا إن شاء الله تعالى، قال : رأيت كأن هذه الجنود التي معنا ما بقي منهم أحد ولم يبق إلا أنا وأنت منفردين في غار مظلم، فسجد اليحمدي شكرا وأطال السجود فرفع رأسه وقال : أبشر يا مولانا فقد نصرنا على هذا الرجل، فقال له السلطان من أين ظهر لك هذا ؟ فقال له من قوله تعالى : {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا} قال عليه الصلاة والسلام : «فما ظنك باثنين الله ثالثهما» ففرح السلطان بذلك غاية الفرح وزال ما حصل له من الحزن والاكتئاب، وعلم أن رؤياه بشارة من الله تعالى ببركة هذا الجليس الصالح والرفيق المبارك، فوقع الصلح بينهما ورجع السلطان لمكناسة فدخلها في القعدة الحرام.

---

(41) في (ل) فرجع

(42) ما بين العلامتين لا يوجد (ل).

وفي هذه السنة أمر السلطان بقبض جميع القضاة فامتحنوا ووصفوا بالجهل وسجنوا بمشور فاس الجديد على أن يتعلموا ثم أخرجوا أيام المولد لمكناس فهددوا أيضا حتى أمر بحبس بعضهم أو بالقتل وأطلقوا معزولين، انتهى من الأزهار الندية، قلت : لعل المراد بذلك قضاة البوادي أو [يراد](43) العموم لأن من ولى الجاهل وقبل خطابه هو الجاهل الأكبر، ثم إذا وقع النظر ‹ووقع›(44) الاحتجاج وأفضى الحال الى الضرورة ‹في البوادي›(45) ظهر حكم آخر.

وفي عام أربعة وتسعين وألف خرج السلطان في العساكر لجبل فازاز لحرب البرابر من صنهاجة الذين به، فلما سمعوا بخروجه انهزموا وخرجوا لملوية فاختط السلطان قلعة بعين اللوح بسفح جبلهم ثم نزل بعين أزرو فأمر ببناء قلعة هناك أيضا بسفح الجبل، ثم تبع اثارهم الى أن دخلوا جبل العياشي وتربص بملوية الى أن دخل فصل الشتاء وقصده بذلك التربص إتمام بناء سور القلعتين، ولما رجع أنزل بقلعة أزرو ألف فارس ‹وبقلعة عين اللوح خمسمائة فارس›(46) فاستراح من ضررهم بطريق سايس، ولما قلت عليهم الأقوات لمنعهم من البسائط قدم على السلطان وفودهم لمكناسة تائبين فأمنهم على ‹شرط›(47) دفع الخيل والسلاح والاشتغال بالحرث والنتاج فدفعوها عن يد وهم صغرون، وهم آيت ادراسن ودفع لهم عشرين ألفا من الغنم كلفهم برعايتها وحفظها ‹وأسقط عنهم الوظائف›(48) فصلحت أحوالهم، وفي كل عام يزيدهم الغنم الى أن بلغ عددها ستين ألفا يدفعون كل عام صوفها وسمنها.

وفي عام خمسة وتسعين وألف ورد على السلطان خبر فتح طنجة دخلها المسلمون لما ضاق بالكفار الأمر وطال عليهم الحصار هدموها وتركوها ‹وخرجوا›(49) واشتغل قائد المجاهدين علي بن عبد الله ببناء ما تهدم من أسوارها ومساجدها وحرث بقرب منها مركب قرصاني فيه مال

---

(43) ما بين المعقوفين زيادة من (ف).
(44) ما بين العلامتين سقط من (ف).
(45) ما بين العلامتين سقط من (ف)
(46) ما بين العلامتين سقط من (ف)
(47) ما بين العلامتين سقط من (ف)
(48) ما بين العلامتين سقط من (ف)
(49) ما بين العلامتين سقط من (ف)

وبضائع جاء مددا لأهل سبتة فحارب المسلمون أهله ودفعوهم عنه واحتووا على ما فيه، وكلف السلطان غمارة بجر مدافعه النحاسية لمكناسة، ووجه الرماة من فاس فأتوا بها لأربعين يوما.

وفي عام ستة وتسعين وألف خرج السلطان حاركا لملوية وجعل طريقه علي صفرو ففرت قبائل البرابر لرؤوس الجبال، وهم آيت يوسى وسغروشن ‹وأيوب›(50) وعلاهم وقادم حيون ومديون فأمر السلطان ببناء قلعة بأعليل وأخرى على واد كيك بأسفله، وأخرى على واد سكورة، وأخرى على واد تشكت(51) فخرج لملوية وفرت القبائل المذكورة لجبل العياشي وتفرقوا بشعابه فأمر ببناء قلعة بدار الطمع وقلعة بتاميوست وقلعة بقصر بني مطير وقلعة بوطواط وقلعة بالقصابي وأقام على نهر ملوية يبث السرايا للبرابر سنة كاملة والخدمة في القلع الى أن أكمل أسوارها وأنزل بكل قلعة أربعمائة من الخيل من الوصفان بأولادهم وجاءه وفود قبائل البربر تائبين فأمنهم على شرط دفع الخيل والسلاح فدفعوها وصفا له هذا الربع الشرقي من جبل درن.

وفي هذه السنة بلغه دخول أخيه مولاي الحران مع مولاي أحمد ابن محرز لتارودانت فتوجه بالحركة إليهما فلما بلغها حاصرهما بتارودانت فخرج يوما مولاي احمد بن محرز مع بعض عبيده فلقيه جماعة من زرارة أصحاب السلطان ولم يعرفوه فتحاربوا معهم وقتلوه وظنوا أنه بعض قواده فاذا هو هو، ولما بلغ خبره للسلطان توجه حتى وقف عليه فعرفه وأمر بتجهيزه ودفنه مع الغرناطي وكان مات يومئذ، وبعد أيام خرج أهل تارودانت ليلا الى قبره فأخرجوه حتى عرفوه وكان اختلف عليهم قبره بقبر الغرناطي فأخرجوهما وحملوا مولاي أحمد في تابوته وتركوا الغرناطي على شفير قبره، وبقي مولاي الحران محصورا بتارودانت والحرب مستمرة مات فيها القائد الزيتوني والباشا حمدان ونحو الستمائة، ثم وقع بعد ذلك حرب اخر مات فيه القائد عبد الرحمان الروسي وتولى مكانه ‹ولد›(52) الغرناطي، وفي جمادى الأولى عام ثمانية وتسعين وألف دخل السلطان

---

(50) ما بين العلامتين سقط من (ف).

(51) في الناسية (تشركت)

(52) ما بين العلامتين سقط من (ف)

تارودانت عنوة بالسيف واستباحها وهرب مولاي الحران، ولما بلغ خبر فتحها لفاس توجه مولاي محمد بن إسماعيل السلطان للتهنئة مع أعيان أهل فاس وعلمائهم وأشرافهم لتهنئة السلطان بالفتح، وخرج أولاد النقسيس من سبتة فتوجهوا للسلطان للمحلة فأمر بردهم لتطوان وقتلهم بها، وأمر بقتل من في سجن فاس منهم فقتلوا أجمعين.

وفي عام تسعة وتسعين وألف رجع السلطان من سوس ودخل مكناسة وبعث لفاس أن يخرجوا أهل الريف الذين بها لسكنى تارودانت، ثم تهيأ لحركة فازاز فخرج وطلع له من الناحية الغربية، فأول من قدم عليه بالطاعة من قبائله زمور وبنو حكم ولم يحاربوه فولى عليهم رئيسهم بايشي القبلي، فاستصفى منهم الخيل والسلاح وزاد الأموال ولحق بالسلطان وهو ببسيط ادخسان فدفع الخيل والسلاح والأموال فأنكر عليه السلطان ذلك وقال له : ما حملك على هذا ولم آمرك به فقال له يامولانا السلطان إن كان مرادك إصلاحهم وفلاحهم فهو الذي فعلت لك، وهو أصلح، وإن سرت معهم بغير هذا أتعبوك وأتعبوا نفوسهم، إنما طهرتهم من الحرام ليشتغلوا بتكسب الحلال فينموا ويزكو، فاستحسن السلطان قوله وأقام(53) بادخسان يحارب آيت امالو سنة حتى بني قصبة ادخسان الجديدة بمحل القديمة التي كان بناها يوسف بن تاشفين وخربت، فلما دخل فصل الشتاء ترك بالقصبة ألف فارس وخمسمائة من عبيد دكالة الذين كانوا بوجه عروس نقلهم بأولادهم وأنزل بزاوية الدلاء ألف فارس وخمسمائة من عبيد الشاوية، وكانوا بوجه عروس أيضا وأمرهم بحصار البربر ومنعهم من النزول للمرعى والحرث ورجع لمكناسة.

وفي عام مائة وألف أمر الوصفان أهل المحلة بمشرع الرمل أن يأتوا بأولادهم الصغار وبناتهم من عشرة أعوام فأعلى، فلما جاءوا بهم فرق البنات على عياله بداره، كل طائفة في قصر للتربية والتعلم، <وفرق الأولاد للخدمة على البنائين والنجارين وسوق الحمير يتدربون، فإذا أكملوا سنة نقلهم لسوق البغال الحاملة للآجر والزليج والقرمود والخشب، فإذا أكملوا سنة نقلهم لضرب المركز وخدمة اللوح الطابية، فإذا أكملوا سنة

(53) في (ف) (وأمر) بدل (أقام)
(54) ما بين العلامتين سقط من (م)

نقلهم للجندية وكساهم ودفع لهم السلاح <فخدموا به الجندية وطرقها فإذا أكملوا سنة>(54) دفع لهم الخيل عريا يركبونها بلا سروج، فإذا أمسكوا رؤوسها وأحسنوا الإغارة عليها كذلك وأكملوا سنة دفع لهم السروج فيركبون ويتعلمون الكر والفر والرمي على ظهورها، فإذا أكملوا سنة صاروا من حساب العسكر الحربي فيخرج لهم السلطان البنات اللاتي قدمن معهم ويزوج كل واحد من الأولاد واحدة ويدفع للزوج عشرة مثاقيل مهرها وللبنت خمسة مثاقيل ويقيد عليهم واحدا من آبائهم الكبار ويعطيه ما يبني به داره والنوائل لأصحابه ويوجههم للمحلة بمشرع الرمل فيكتبون في الديوان، وفي العام القابل كذلك وهكذا في كل عام يأتي من المحلة عدد صغير ويتوجه من عند السلطان عدد كبير من عام مائة وألف الى أن مات السلطان.

فبلغ هذا العسكر البخاري مائة ألف وخمسين ألفا <ثمانون ألفا>(55) مفرقة في قلع المغرب لعمارتها وسبعون ألفا بالمحلة، وعدد القلع التي بناها السلطان مولانا إسماعيل ست وسبعون قلعة ما زالت قائمة بآفاق المغرب ظاهرة للعيان يعرفها الخاص والعام.

قال الزياني : هكذا وجد في كناش كاتب الدولتين الرشيدية والإسماعيلية السيد سليمان بن عبد القادر الزرهوني(56) مات بتارودانت عام ثمانية وثلاثين ومائة وألف، وكان بيده دفتر العساكر كلها السواد الأعظم والمتفرقون في قلع المملكة انتهى.

وفي شوال عام مائة وألف توجه القائد أحمد بن حدو رئيس المجاهدين لحصار ثغر العرائش فنزلوا عليها واشتغلوا بقتال الكفار وحفروا مينة تحت خندق سورها من ناحية المرسى وملئوها بارودا فكووها فسقط جانب من السور فدخل منه المجاهدون للمدينة وملكوها وتحصن النصارى بحصن القبيبات الذي بناه السلطان المنصور السعدي فحاصرهم المسلمون فيه سنة الى أن طلبوا الأمان فأمنوهم على حكم السلطان، ونزلوا منه، وتم فتحها

---

(55) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(56) أبو الربيع صاحب القلم الاعلى كاتب الدولتين الرشيدية والاسماعيلية المتوفى سنة 1098هـ-1686م. نشر ج 2 ص 337 وهو مخالف للمؤلف.

(57) قاضي مكناس العميري بفتح العين نسبة لبني عمير فرقة من تادلة الجابري التادلي آخر أدباء وقضاة العدل بمكناس، ترجمة مؤرخ الدولة بالاتحاف ج 5 ص 541 توفي 1178هـ-1764م.

والحمد لله، وذلك في عام واحد ومائة وألف انتهى، وقال القاضي أبو القاسم العميري(57) في فهرسته ما معناه ومحصله أن النصارى قد ادعوا أن الفتح المذكور إنما كان صلحا وتأمينا لا عنوة، ثم لما طال النزاع في ذلك أمر السلطان قاضي حضرته المكناسية أبا عبد الله محمد المعروف بأبي مدين(58) فأجاب جوابا طويلا حرر فيه حكم الشريعة المحمدية بما لا غاية فوقه وحكم على أولئك النصارى بالأسر، وقد ذكر ذلك في الفهرسة بتمامه فلينظره من أراده، فأمر السلطان أن تبعث النصارى الأسرى لحضرته، فبعثوهم وكانوا ألفا وثمانمائة فكان يستخدمهم في بناء قصوره بالنهار، ويبيتون ليلا في الدهليز، وعمر العرائش بأهل الريف وأمر قائدهم أن يبني بها مسجدين وحماما ومدرسة ويبني داره بقلعتها، قال في البستان : وفي هذا العام 1101 حج أبو علي اليوسي مع المعتصم ابن السلطان انتهى، ثم توجه المجاهدون لحصار أصيلة فنزلوا عليها وحاربوها سنة إلى أن لحق النصارى الجهد فطلبوا الأمان فأمنوا على حكم السلطان، وبالليل ركبوا سفنهم وهربوا ودخل المسلمون المدينة، وذلك عام اثنين ومائة وألف، وانتقل المجاهدون لسبتة فنزلوا عليها وحاصروها، ووجه لهم السلطان عسكر ابن عبيدة(59)، وأمر قبائل الجبال أن يعينوا حصة لكل قبيلة للرباط عليها، وأمر أهل فاس أن يوجهوا حصتهم فكان عدد المرابطين عليها خمسة وعشرين ألفا ولا ينقطع القتال عليها صباحا ومساء حتى اتهم القواد الذين على حصارها بعدم النصح في فتحها <لئلا يتوجهوا لحصار البريجة ويبعدوا عن بلادهم>(60) لما سئموا أكثر الأسفار ومشقة الحركات الى أن مات القائد علي بن عبد الله وولي ولده القائد أحمد بن علي والقتال لا ينقطع عنها كل يوم، وفي كل يوم يتبدل الغزاة والسلطان مشتغل في تمهيد المغرب الى أن فرغ من إصلاح الأقاليم كلها وبناء قلعها وترتيب حاميتها ولم يبق له في الغرب كله إلا قبة فازاز الذي فيه آيت أمالوا وآيت يف المان وآيت يسرى، ولما أراد الخروج اليهم خلف على فاس الجديد كبير أولاده مولاي محرز(61) ووجه لمراكش مولاي المأمون، وترك

---

(58) تقدمت ترجمته تحت رقم 4.

(59) كذا بالأصل ومثله في (ف) أما (م) ففيها عسكرا من عبيدة

(60) ما بين العلامتين سقط من (م)

(61) في (م) محمد فتحا.

بمكناسة مولاي زيدان، واسمه محمد، وكان فارس أولاده الموجودين، ولما ولي مولاي المامون مراكش أمر رئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه الكبير أبا العباس السيد أحمد اليحمدي أن يدفع له التقليد ويوصيه، وكان مولاي المأمون يكره اليحمدي أشد الكره، فتوجه له على كره وأخذ منه المكاتب وسمع وصيته جبرا عليه وعاد الى والده وقال : يا مولاي إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه هو الذي علمك دينك وأنك جاهل لا تفرق بين الفرض والسنة، فقال له السلطان والله إنه لصادق إن كان قال ذلك، فإنه هو الذي علمني ديني وعرفني بربي، قال مملي هذا التقييد عفا الله عنه حدثنا بهذه الحكاية السلطان العادل العلامة الحجة مولانا سليمان رحمه الله تعالى في ضمن كلام يمدح به مولانا إسماعيل، وقال صاحب البستان إنه سمع ذلك منه أيضا.

وفي عام ثلاثة ومائة وألف وجه السلطان العدة والرتبة(*) لأهل فاس وأمرهم بالحركة للترك مع <ولده>(62) مولاي زيدان، وبعد العيد بدأ السلطان في حركة فازاز وتبعهم للترك فوقع الصلح بينه وبينهم ورجع، وفيه مات بايشي وولى السلطان ولده علي ويشي على زمور وبني حكم وأمر بالحركة للبربر عام أربعة ومائة وألف بالمدافع والمهاريز والمجانيق وآلة الحصار، ورتب عليهم العساكر من كل وجه وتقدمت لهم الرجال من كل جانب، وكان هو في عسكر العبيد بأدخسان ووجه علي وبركات مع آيت إمور وآيت دراسن فنزلوا بتفالين ووجه الباشا مساهل(63) في خمسة وعشرين ألفا من أصحابه كلهم رماة طلع من تادلة على وادي العباد ونزل خلف آيت يوسرى، ووجه علي ويشي مع زمور وبني حكم، وأمره أن ينزل بعين شوعا، وبعث لأهل تادغة وغريس والصباح أن يقدموا على علي ويشي بمحلته، ووجه له السلطان المدافع والمهاريز والكور والبسومب والطبجية، ووجه نصارى العرائش يجرون المدافع والمهاريز على طريق اعلين على قصر بني مطير على أضزر الى أن بلغوا علي ويشي بعين شوعا وضرب لهم السلطان موعدا إذا صلوا العشاء من الليلة الفلانية يشتغل

(*) في الأصل «الراتب» بدل «الرتبة»

(62) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(63) في (ف) مساعد.

الطبجية بإخراج المدافع والمهاريز طول ليلتهم ليحصل الروع والدهش للبربر، فإذا أصبح تقدم لهم العساكر من كل ناحية، ويكون ذلك في يوم واحد، فلما سمع البربر بالليل رعود المدافع والمهاريز ورأوا صواعق النيران في الجو دهشوا وحملوا حللهم للفرار، ولما أصبح السلطان قصدهم من ناحيته وتقدمت لهم المقاتلة من كل وجه، ووقع القتال فانهزموا وتشتتوا في الشعاب والأودية، وكل من قصد منهم ثنية وجد العساكر مقبلة منها وحل بهم البلاء، وتمكن منهم الوبال، وانتهبوا دون قتال، وقتلت رجالهم وسبيت أولادهم ونساؤهم، وحيزت مواشيهم وأنعامهم وأسلحتهم، واستمر عليهم القتل ثلاثة أيام والعساكر تلتقطهم من كل الشعاب والأودية وتخرجهم من الغيران، وأمر السلطان قواده مساهل وعلي ويشي وعلي وبركات يجمعون رؤوس قتلاهم ويجمعون خيلهم وسلاحهم ويأتون بذلك لأدخسان، فجمعوا ما وقعوا عليه من الرؤوس وكذلك الخيل والسلاح ‹وقدموا على السلطان لأدخسان›(64) وكان عدد الرؤوس اثني عشر ألفا وكذا وعدد الخيل الذكور عشرة آلاف وكذا، وعدد المكاحل ثلاثين ألفا وكذا، وبالاستيلاء على هؤلاء البرابر كمل له فتح المغرب بتمامه ولم يبق به من ينبض له عرق، وكتب من آيت يمور ألف فارس، وأنزلهم مع علي وبركات بتغالين بقلعتها، وأنزل حلتهم على رأس آيت أمالو ولم يترك الخيل والسلاح الا عند العبيد وآيت يمور وأهل الريف والوداية.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به : وكأن السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى ارتكب أخف الضررين وأدنى المفسدتين في إضعاف قبائل المسلمين بسلب الخيل والسلاح مع أن المطلوب هو تقويتهم بذلك لمقابلة العدو الكافر، قال تعالى : {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم} ورأى مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى أنه لما أعد ذلك العسكر القوي الشديد قام عن المسلمين بالواجب وكفاهم كل مؤونة وأراحهم من كلف القيام بالخيل والسلاح مع أن الفساد الذي يظهر منهم عند ملك الخيل والسلاح أعظم، وذلك بقطع الطرقات ونهب الأموال والأنفس وخلع اليد من الطاعة، وهذا القدر الذي اعتذرنا به عن

(64) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

السلطان ظاهر غاية الظهور(*)، ولعله خفي عن الشيخ أبي علي اليوسي حتى كتب للسلطان مولانا إسماعيل رسالته المشهورة ونصها :

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، قطب المجد ومركزه، ومجاز الفخر ومأرزه، وأساس الشرف الباذخ ومنبعه، ومناط الفضل الشامخ ومجمعه، السلطان الأعظم، الأجل الأفخم، مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف، لازالت أعلامه منصورة، وأيامه على العز واليمن مقصورة، سلام على سيدنا ورحمة الله وبركاته، هذا ولا زائد عندنا سوى المحبة لسيدنا، وغاية التعظيم والإجلال، والدعاء لسيدنا بصلاح الأحوال، وذلك بعض ماأوجبته يده علينا المنبسطة بالبر والاحسان، والتفضل والامتنان، والتوقير والاحترام، والإنعام والإكرام، مع ماله علينا وعلى غيرنا من الحقوق التي أوجبتها منزلته السلطانية، ومثابته العلوية الفاطمية، فكتبنا هذه البطاقة، وهي في الوقت منتهى الطاقة، وكنا كثيرا ما نرى من سيدنا التشوق إلى الموعظة والنصح، والرغبة في استفتاح أبواب الربح والنجح، فأردنا أن نرسل إلى سيدنا ما إن وفق إلى النهوض إليه رجونا له ربح الدنيا والآخرة، والارتقاء إلى الدرجات الفاخرة، ورجونا وإن لم نكن أهلا لان نعظ، أن يكون سيدنا أهلا لأن يتعظ وأن يحتمي من جميع المذام ويحتفظ.

فليعلم سيدنا أن الأرض وما فيها ملك لله تعالى لا شريك له، والناس عبيد لله سبحانه وإماء له، وسيدنا واحد من العبيد، وقد ملكه الله عبيده ابتلاء وامتحانا، فإن قام عليهم بالعدل والرحمة والإنصاف والإصلاح فهو خليفة الله في أرضه، وظل الله على عبيده، وله الدرجة العالية عند الله تعالى، وإن قام بالجور والعنف والكبرياء والطغيان والإفساد فهو متجاسر على مولاه في مملكته، ومتسلط ومتكبر في الأرض بغير الحق، ومتعرض لعقوبة مولاه الشديدة وسخطه، ولا يخفى على سيدنا حال من تسلط على رعيته يروم تملكهم بغير إذنه كيف يفعل به حين يستمكن منه، ثم نقول : إن على السلطان حقوقا كثيرة لا تفي بها البطاقة، ولنقتصر منها

(*) وقال أبو العباس الناصري في (الاستقصاء) ج 4 ص 39 حول اعتذار صاحب الجيش عن السلطان، فالحق مع صاحب الجيش، فإنه اعتذار فيه مغزى عظيم لمن له مسكة في مدارك تاريخ التشريع الاسلامي، ط. مصرية.
وما قاله فيما ظهر له من أب اليوسي لم يتعرض للشيء الذي اعتذر عنه صاحب الجيش، قلت : سبحان الله فمن أول الرسالة الى النقط الثلاثة يعلم كل ذي مسكة من العقل أنها تتضمن الإشارة الى ما نفاه العلامة الناصري.

على ثلاثة هي أمهاتها.

الأول جمع المال من حق وتفريقه في حق، الثاني إقامة الجهاد لإعلاء كلمة الله، وفي معناه تعمير الثغور بما يحتاج إليه من عدد وعدة، الثالث الانتصاف من الظالم للمظلوم، وفي معناه كف يد عاتية(*) عليهم منهم ومن غيرهم، هذه الثلاثة كلها قد اختلت في دولة سيدنا، فوجب علينا تنبيهه لئلا يعتذر بعدم الاطلاع أو بالغفلة فإن تنبه وفعل فقد فاز، وفي ذلك صلاح الوقت وصلاح أهله، وسبوغ النعمة وشمول الرحمة، والا فقد أدينا الذي علينا.

أما الأمر الأول فليعلم سيدنا أن المال الذي يجبى من الرعية قد أعده الله للمصالح التي ينتظم بها الدين، وتصلح بها الدنيا من أهل البيت والعلماء، والقضاة والأئمة والمجاهدين والأجناد والمساجد والقناطر وغير ذلك من المصالح، ومثال هؤلاء كأيتام لهم ديون قد عجزوا عن قبضها وإلا بوكيل، ومثال الرعية مثال مديان، والسلطان هو الوكيل فإن استوفى الوكيل الدين بلا زيادة ولا نقصان وأداه إلى اليتامى بحسب ما يجب لكل فقد برئ من اللوم ولم تبق عليه تباعة للمديان ولا لليتيم، وحصل له أجران أجر القبض وأجر الدفع، وإن هو زاد على الدين الواجب بغير رضى المديان فهو ظالم <للمديان وإن نقص من غير موجب فهو ظالم>(65) لليتيم، وكذا إن استوفى الديون وأمسكها ولم يدفعها لأربابها فهو ظالم لهم فلينظر سيدنا فإن جباة مملكته قد جروا ذيول الظلم على الرعية فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ ولم يتركوا للناس دنيا ولا دينا، أما الدنيا فقد أخذوها وأما الدين فقد فتنوهم عنه، وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه، ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل من يزين له الوقت فإن كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا لا يتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب، وفي أفضل منهم يقول جد أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب كرم له وجهه : المغرور من غررتموه انتهى، وأن يتفقد المصالح ويبسط يد الفضل على خواص الناس من أهل

(*) في نسخة : عادية بدل عاتية.

(65) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

الفضل والدين والخير ليكتسب محبتهم وثناءهم ونصرهم كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها، ولا تهملهم فيتمنوا غيره ويطلبوا دولة أخرى غير دولة سيدنا كما قيل :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ   نصيب ولاحظ تمن زوالها
وما ذاك من بغض لها غير أنه   يريد سواها فهو يهوى انتقالها(66)

وليعلم سيدنا أن السلطان إذا أخذ أموال الرعية العامة ونشرها في الخاصة وشيد بها المصالح، فالعامة يذعنون ويعلمون أنه سلطان، وتطيب قلوبهم بما يرون من إنفاق أموالهم في مصالحهم، وإلا فالعكس، وأيضا السلطان متعرض للسهام الراشقة من دعوات المظلومين من الرعية، فإذا أحسن إلى الخاصة دعوا له بالخير والسلامة والبقاء، فيقابل دعاء بدعاء، والله الموفق.

وأما الأمر الثاني فقد ضاع أيضا، وذلك أنه لم يتأت في الوقت إلا عمارة الثغور، وسيدنا قد غفل عنها، فقد ضعفت اليوم غاية، وقد حضرت بمدينة تطوان أيام مولانا الرشيد رحمه الله تعالى إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة، وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم فخرجوا يسعون على أرجلهم بأيديهم العصي والمقالع، وهذا وهن في الدين، وغرر على المسلمين، وإنما جاءهم الضعف من المغارم الثقيلة وتكليفهم الحركات وإعطاء العدة كسائر الناس، فعلى سيدنا أن يتفقد السواحل كلها من القليعة إلى ماسة ويحرضهم على الجهاد والحراسة بعد أن يحسن إليهم ويعفيهم مما يكلف به غيرهم ويترك لهم خيلهم وعدتهم ويزيدهم ما يحتاجون إليه، فهم حماة بيضة الإسلام، ويتحرى فيمن يوليه تلك النواحي أن يكون أشد الناس رغبة في الجهاد ونجدة في المضايق وغيرة على الإسلام وأهله، ولا يولى فيها من همته ملء بطنه والاتكاء على أريكته، والله الموفق.

وأما الأمر الثالث فقد اختل أيضا لأن المنتصبين للانتصاف بين الناس وهم العمال في البلدان وخدامهم هم المشتغلون بظلم الناس فكيف يزيل الظلم من يفعله، فمن ذهب يشتكي سبقوه إلي الباب، فزادوا عليه، ولايقدر

---

(66) في (ف) زوالها بدل انتقالها

أحد أن يشتكي، فليتق الله سيدنا وليتق دعوة المظلوم فليس بينها بين الله حجاب وليجهد في العدل فإنه قوام الملك وصلاح الدين والدنيا، قال مولانا تبارك وتعالى (إنّ اللّهَ يأمُر بالعَدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي) وقال تعالى : (ولينْصُرَنّ اللّه من ينصُرُه إن اللّه لقَويّ عَزيز) ثم ذكر تعالى المنصورين وشروط النصر فقال (الذين إن مكّناهُم في الأرضِ أقامُوا الصّلاةَ وآتوا الزكاةَ وأمروا بالمعروف ونهواْ عن المنكرِ) فضمن تعالى للملوك النصر وشرط عليهم هذه الأمور الأربعة، فمتى اختل عليهم أمر الرعية أو تسلط عليهم من يفسد عليهم الدولة فليعلموا أن ذلك من إخلالهم بهذه الأمور، فكان عليهم الرجوع الى الله تعالى وتفقد ما أمرهم به، ورعاية ما استرعاهم، وقد اتفقت حكماء العرب والعجم على أن الجور لايثبت معه الملك ولا يستقيم، وأن العدل يستقيم معه الملك ولو مع الكفر، وقد عاش الملوك من الكفرة المئين من السنين في الملك المنتظم والكلمة المسموعة والراحة من كل منغص لما كانوا ‹يتحفظون› (67) عليه من العدل في الرعية استصلاحا لدنياهم، فكيف بمن يرجو إصلاح الدنيا والدين. قال ‹بعض الحكماء›(68) الملك بناء، والجند أساسه، وإذا ضعف الأساس سقط البناء، فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية الا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل، فالعدل أساس الجميع، وصنع أرسطاليس الحكيم للإسكندر ‹الشكل›(69) المستند عنه وكتب عليه : العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يعضده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف وبه صلاح العالم، العالم بستان انتهى وقال صلى الله عليه وسلم (كلُكُم راعٍ وكلكُمْ مسؤول عن رعيّته)(70) وقال صلى الله عليه وسلم (إنّ رجالا يخوضُونَ في مالِ اللّه بغَيْرِ حقّ لهُم النار يومَ القيامَة)(71) أوكما قالَ : قال صلي الله عليه وسلم (مَا من والٍ يلي ولِاية إلا جَاء يَوْمُ

(67) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(68) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(69) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(70) خرجه البخاري ومسلم واحمد وأبو داوود والترمذي.

(71) في البخاري "عن خولة الانصارية زوجة حمزة بن عبد المطلب وليس لها فيه غيره".

القيامَ ويداهُ مغلولتان، فإما عَدْلٌ يَفكّه، وإمّا جوْر يوبقُهُ)(72) وعن مولانا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (رأيت عمر على قتب يعدو به بعيره بالأبطح، فقلت ياأمير المؤمنين أين تسير قال : بعير من إبل الصدقة شرد أطلبه،فقلت : أدللت الخلفاء من بعدك، فقال : لا تلمني فوالذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن عناقا ضَلت بشاطئ الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة لأنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين، ولا لفاسق روع المؤمنين، وقد رأى رضي الله عنه شيخا يهوديا يسأل على الأبواب وقال : ما أنصفناك أخذنا منك الجزية مادمت شابا ثم ضيعناك اليوم، فأمر أن يجرى عليه قوته من بيت المال، وليعلم سيدنا أن أول العدل أن يعدل في نفسه فلا يأخذ لنفسه من المال إلا بحق، ويسأل العلماء عما يأخذ وما يعطي وما يأتي ومايذر، وقد كان في بني إسرائيل يكون الأمير على يد نبي، فالنبي يأمر والأمير ينفذ لا غير، ولما كانت هذه الأمة المرحومة انقطعت النبوة بنبيها خاتم النبيئين صلى الله عليه وسلم فلم يبق إلا العلماء يقتدي بهم، قال صلى الله عليه وسلم (عُلَماءُ أمّتي كأنبياءِ بني إسْرائيلَ)(73) فكان حقا على خلفاء هذه الأمة أن يتبعوا العلماء ويتصرفوا على أيديهم أخذا وعطاء، وقد توفي صلي الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، وكان قبل ذلك يبيع ويشتري في السوق لعياله، فلما بويع أخذ ماله الذي للتجارة وذهب إلى السوق على عادته حتى رده علماء الصحابة وقالوا إنك في شغل بأمر الخلافة عن السوق، وفرضوا له ما يكفيه مع عياله، وجعلوا المال على يد أمين فكان هو وغيره فيه سواء يأخذ منه بما اقتضته الشريعة لنفسه ولغيره، وهكذا سيرة الخلفاء الراشدين من بعده، فعلى سيدنا أن يقتدي بهؤلاء الفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء، ويسأل من معه من الفقهاء الثّقات كسيدي محمد بن الحسن(74) وسيدي أحمد بن سعيد(75) وغيرهما من العلماء العاملين الذين يتقون الله ولا يخافون في الله لومة لائم، فما أمروه به ممّا ذكرناه ومما لم نذكره فعله، وما نهوه عنه انتهى، هذه طريق النجاة إن شاء الله تعالي، نسأل الله تعالى أن

---

(72) عند الامام احمد المسند والطبراني في الكبير.

(73) قال السيوطي في الدرر المنتثرة لا أصل له والعجلوني في كشف الخفاء تقريته بحديث قال السخاوي رواه الرافعي عن ابن عمر "اكرموا حملة القرآن" الحديث ج 2 ص 179.

(74) الجاصي ترجمه في النشر ج 3 ص 55 توفي سنة 1103هـ-1691م.

(75) تقدمت ترجمته تحت رقم (3)

يرزق لسيدنا توفيقا وتسديدا، وارشادا وتأييدا، وأن يصلح بوجوده البلاد والعباد، وأن يحسم بسيفه أهل الزيغ والعناد آمين، والحمد لله رب العالمين :

ولما فرغ السلطان مولانا إسماعيل من حركة فازاز آيت أمالو وجه مع علي ويشي عشرة الاف من الخيل وقال له لا أرى وجهك إلا إذا أغرت على جروان وأتيتني بعدد هذه الرؤوس التي هنا من جروان لأنهم كانوا بواد زيز يعيشون في طريق سجلماسة، فذهب علي ويشي فصبحهم وهم غارون، فنهب حللهم ومواشيهم وقتل منهم العدد الكثير ونادى في تلك القبائل كلها من أتى برأس جرواني فله عشرة مثاقيل فصار كل من انحاز إليه أحد منهم قطع رأسه وأتى به إليه، واستمر البحث عليهم إلى أن اكتفى من رؤوسهم، ولما اجتمعت الرؤوس دفع لكل من أتى برأس مثقالا وأتى السلطان باثني عشر ألفا من رؤوسهم عدد ما اجتمع بأدخسان، فشكر له السلطان فعله، وقيده على قبائل العرب والبربر،

وفي ربيع من عام ستة ومائة وألف خرج مولاي زيدان من فاس بمحلته للترك بعد أن قتل الخليفة أحمد السلاوي بفاس وحاربهم ونهب ما وجد ورجع، وفي عام سبعة ومائة وألف ورد كتاب السلطان العثماني علي مولانا اسماعيل يأمره بالصلح مع أهل الجزائر، قال في البستان، وفي عام ثمانية ومائة وألف ورد كتاب من مولانا إسماعيل للقاضي والعلماء بفاس يعاتبهم ويوبخهم على عدم موافقتهم على تمليك العبيد الذين في الديوان، ثم كتاب السلطان بمدح العامة وذم العلماء وعزل القاضي والشهود انتهى، قال مقيده عفا الله عنه : هذا الكلام الذي قاله الزياني هنا عن السلطان مولانا إسماعيل فيه نظر، فإنه كلام مجمل لأن قضية جمع العبيد مذكورة مفصلة في الكناش الكبير الإسماعيلي، وفيه تمييز المماليك الأرقاء الذين اشتروا بالثمن على الوجه الشرعي بخطوط العدول، وهؤلاء لا كلام فيهم، وأما غيرهم من أهل الديوان من القبائل العديدة فإن السلطان لم يدع فيهم الملكية، وإنما الكلام في جبرهم على الجندية، ووجه السلطان لعلماء المغرب والمشرق السؤالات عن ذلك فكتب له الجوابات بالجواز بخطوطو العلماء، وكل ذلك في الكناش المذكور مبسوطا، وهو شيء كثير وحاشا مقام السلطان مولانا إسماعيل رحمه الله أن يدعى تمليك الأحرار < وقد تقدم كلام الشيخ اليوسي وبيان ما أنكره على السلطان، ولو كان ما ذكره

الزياني متصفا به السلطان لكان ذلك أول ما ينكره اليوسي ولا يسعه السكوت عنه، مع أنه أنكر ما هو أقل من ذلك وأخف بمراتب> نعم في الكناش طوائف معروفة متميزة ثبت عنده أنهم أرقاء للمنصور الذهبي السعدي، فلما انطفأت الدولة السعدية تفرقوا [في ظلام الفترة] (76) في الأقطار وهم الذين تقدم الكلام عليهم في دفتر عليلش، وقد وقع البحث عن رقيتهم وسئل أهل الأسنان من كل قبيلة فعينوا الرقيق من غيره، فثبت ذلك كله عند السلطان، ومع ذلك لم يدخلهم في الأرقاء الخلص الذين اشتروا بالثمن بل ميزهم، فكان ذلك الجند عنده على ثلاثة مراتب، المرتبة الأولى خالص الرقية، والمرتبة الثانية خالص الحرية، والمرتبة الثالثة واسطة، وأما تسمية الجميع بالعبيد فإن السلطان لما جمعهم وظفر بمراده من إدراك العصبية التامة بهم واستغنى عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض حمد الله تعالى وقال للعسكر وقد أحضر أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح الإمام البخاري وقال لهم أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المجموعة في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله، وكل ما نهى عنه نتركه، فعاهدوه على ذلك وأمرهم بالاحتفاظ بتلك النسخة وأن يقدموها بين أيديهم وأمام كتائبهم، وفي حروبهم وركوبهم، وما زال الأمر كذلك، فلهذا قيل لهم عبيد البخاري، فما ذكره صاحب البستان ساقط لا يحل لأحد أن ينسبه للسلطان ولا أن يصف به أحدا من المسلمين (فضلا عن أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الله)(*) وهذا شأن الزياني في عدم التثبت وأخذ الكلام جزافا وأدائه جزافا، غفر الله لنا أجمعين بمنه.

وفي عام 1111 خلف السلطان ولده مولاي أحمد الذهبي بتادلة وأنزله بقصبتها وأنزل فيها ثلاثة آلاف من الوصفان وأمره أن يزيد في تلك القصبة فبنى قصبة جديدة وبنى قصره فيها، وبنى فيها مسجداً أعظم من مسجد والده في القصبة الأولى واستقر بها، وفي هذا العام ولى ولده مولاي عبد المالك على درعة ونواحيها ونزل قصبتها مع ألف من الخيل، وولى ولده مولاي مَحمد المدعو العالم على إقليم سوس وأنزل معه ثلاثة آلاف من الخيل، وولى ولده مولاي المأمون الكبير على سجلماسة ونواحيها

(*) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل ومن نسخة وكلية الأدب الرباطية.

(76) ما بين القوسين ساقط من الاصل ومن نسخة كلية الرباطيه

نقله من مراكش وأنزل معه خمسمائة من الخيل بقلعته التي كان بناها بتزمي وبعد عامين مات مولاي المأمون فولى بدله مولاي يوسف، وولى على الشرق ولده زيدان، وكان يغير على رعايا الترك إلى أن شردهم عن نواحي تلمسان، وبلغ مرة إلى أم عسكر ودخلها ونهب دار باي عثمان وأخذ ما فيها من الفرش والنحاس والسمن وغير ذلك لمغيبه عنها في حركة، فانتهز فيها الفرصة، وذلك سبب عزله عن الشرق وتولية أخيه مولاي حفيد لأن السلطان لم يقبل غدره لمن صالحه كما طلب منه ذلك السلطان العثماني كما تقدم.

وفي عام اثني عشر ومائة وألف حرك السلطان للشرق وحارب مع الترك ورجع فمات من عسكره عدد كثير بالعطش، مات من أهل فاس أربعون دون غيرهم، وهذا كان قبل الصلح الذي أمر به السلطان سليمان، وفي هذا العام قتل عبد الخالق الروسي واحدا من عبيد الدار دخل عليه من غير إذن فوجه السلطان ولده مولاي حفيد ليأتيه به فاستشفع له العلماء والأشراف فلم يسجنه وذهب به مسرحا، فلما بلغ مكناس عفا عنه ورجع لفاس.

وفي عام ثلاثة عشر ومائة وألف وجه السلطان لعبد الخالق الروسي فلما بلغه قتله، ووجه مولاي زيدان لفاس ومعه حمدون الروسي حاكما بها، وفي عام أربعة عشر ومائة وألف وصل مولاي عبد المالك لضريح مولانا إدريس بزرهون مهزوما لاستيلاء أخيه مولاي بنصر على درعة وتغلبه على تلك النواحي فوجه السلطان ولده مولاي الشريف لدرعة، وفي هذه السنة قام مولاي محمد العالم بل الأحمق الجاهل بالسوس ودعا لنفسه وقدم لمراكش فحاصرها في رمضان من العام المذكور، وفي عشرين من شوال دخلها عنوة وقتل ونهب، فلما بلغ خبره للسلطان وجه له ولده زيدان في العساكر فوجد مولاي محمد الجاهل خرج عنها ورجع لردانة فدخل مولاي

زيدان مراكش وأساء السيرة في أهلها أقبح من أخيه فنهب الأموال، وأظهرت العساكر الفساد في الأرض، ثم تبع مولاي محمد للسوس فنزل على ردانة واستمر الحرب بينهما على الدوام(*).

وفي عام خمسة عشر ومائة وألف أتى مولاي حفيد لفاس الجديد ووظف على أهل فاس مغرما عظيما، وجاء الزعيم حاكما بها ثم عزل ورجع أبو علي الروسيي فقتل أناسا وعلقهم، وفي متم شوال من العام مات مولاي حفيد بفاس الجديد، وفي ثالث صفر عام ستة عشر ومائة وألف جاء أمر السلطان أن تعطى كل عتبة عظم سرج ولا يتحرر أحد كائنا ما كان، وفي إحدى وعشرين من صفر، ورد الخبر بدخول مولاي زيدان تارودانت وقبضه على أخيه مولاي محمد بعد حروب ثلاثة أعوام مات فيها أمم وأعيان وقواد، ولما دخلها عنوة قتل جميع من فيها رجالا ونساء وصبيانا، هكذا نقل الزياني، وفي رابع ربيع الأول وصل مولاي محمد لوادي بهت فوجه السلطان من قطع يده ورجله من خلاف بعقبة بهت فمات لما بلغ مكناسة في خامس عشر ربيع، ولما توفي صلى عليه القاضي أبو عبد الله

(*) (كتاب محمد (فتحا) بن عبد القادر الفاسي لمولاي محمد (فتحا) العالم بن السلطان اسماعيل رحم الله الجميع)
الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم. ومما كتبه الشيخ الامام سيدي محمد (فتحا) بن الشيخ الأكبر سيدي عبد القادر الفاسي لمولاي محمد (فتحا) ولد مولاي اسماعيل ونصه : سلام كريم بر عميم يوم سيادة من رامت في افق المجد والشرف انارته وابنع غرس محاسنه ففاق الرياض النضرة نضارته وسامى الشهب الزواهر بشراه وحكى الغر المواطر بجدواه وتهللت بوجوده عزة السيادة وأصبحت بسديد آرائه القلوب منجذبة واليه منقادة مولاي محمد (فتحا) بن مولانا اسماعيل لازال طودا شامخا تتحاماه الأيام وعلما راسخا تخضع له الاعلام. هذا وقد ورد كتابكم الاشرف الاثير على هذا العبد البائس الحقير معربا عن ادامة الود الاكيد والاقامة على العهد العتيد ولا غرابة في بدو خصال المجد من بيت الشرف والعلياء وظهور الاوصاف المرضية التي يصلح بها الدين وتتضوع برياها الدنيا وماذا عسى أن أقول في مقابلة ما أبديتم من الثناء التي انتجته الطوية السليمة والمودة المؤصلة المستقيمة فلنكل مكافأة ذلك الى الله عز وجل اذ نرجو ان ذلك ابتغاء وجهه الكريم ومراعاة لجانبه العظيم اذ هو من الثلاثة التي من وجدها وجد حلاوة الايمان ان يحب المرء لا يحبه الا الله كما في الحديث الصحيح وروى الترمذي وغيره حسن العهد من الايمان وأنت أيها الماجد الفاضل والسيد الخلاحل احق بالاتصاف بمثل هذه الفضائل والجري على منهاج السلف الأوائل ورجاؤنا فيك ان تحذو على مثالهم وتنسج على منوالهم وتحتذي الذين اتبعوا الرسول عليه السلام في شبه وحافظوا على عهده وطريقته وهذا زمان يتعذر فيه ذلك السير لقلة المسعد والمعين ولكن قليل من التشبث بالسنة كثير واحياء بعض ما اندرس من المعالم موجب للاجر الكبير فعليك بعزيمة الصبر على هذه الشؤون ولا يستخفنك الذين لا يوقنون والله سبحانه يخص من ينصره ويعين من استعان به ويزيد من توجه اليه ويقبل برحمته على من اقبل عليه وقد قال تعالى واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين وكان صلى الله عليه وسلم إذا احزنه امر فزع الى الصلاة ومن اهل لرعاية غيره وتحمل حاجات القاصدين ودفع اذايات الحاسدين حقيق ان يستعين بالصبر والصلاة وفي الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم بركة ونجاة لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر الاية وقال عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الحديث فوجب الاستعداد لجواب السؤال وسلوك ما فيه النجاة بين يدي الكبير المتعال وهذا كله غير خاف على مثلك ممن علم وفهم وميز بعقله ما يهم وما لا يهم ولكن التذكرة سنة جارية ولسماع الانسان من غيره وقع في النفس ومنفعة سارية جرب ذلك فصح وله شواهد من ان تشرح وامرها اجلى وواضح فلنا عذر حينئذ فيما ذكرناه ولا سيما وقد قصدنا امتثال الامر فيما ابديناه والله سبحانه وتعالى يجعلنا من أهل توفيقه ويعيننا على اتباع الحق وسلوك طريقه ويحشرنا في زمرة النبي الكريم وحزبه وفريقه آمين والسلام.

من خط بعض السادات الفاسيين.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا محمد وآله وصحبه وسلم وبعد فقد كتب به الشيخ الإمام سيدي محمد الشيخ ابو محمد سيدي عبد القادر الفاسي لمولانا محمد ولد مولانا إسماعيل ونصه سلام كريم طيب برعميم
يدوم بدوام قراءته وادعى المجد والشرف إيراده وأينع غرس محاسنه فجاءت الرياض النضرة نضارته
وسما سماء الشهب الزواهر بمرآه وحكى الغرر المواهر بغرته وتعلت بوجوده غرة السيادة
واصبحت بشريف آرائه الحلوة مبتهجة واليه منقادة مولاي محمد بن مولانا إسماعيل لا زال الصدق لها
سامعا يتلقى ما به الأيام وتحلى بها مخضع الأيام وبعد وهذه تحية تلم بالأشواق
إذ تبين عن حضرة العبد الداعي الحفي فيها لعزة أهمل الوجد الأكيد رائحة فائحة على العنبر
العبير وذا تراحه بروجانها تحوي من بث الشوق والعليا وكثير الأوطان المرضية التي
يطلع به الدين وتتضوع بريحها الدنيا وهذا الشرع الأول في مقابلة ما أتى من الثناء التي
أنعمتم الكريم السليمة والمودة الموطدة المستفيدة فلكل مكاناه ذلك إلى الله عز وجل
أن يجازي ذلك ابتغاء وجهه الكريم ومراعاة لجنابه العظيم إذ هو من الشمائل التي مدح صلى الله عليه وسلم
وجعلها من الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله كما في الحديث الصحيح وذلك من جملة وجملة حسن العهد
من الإيمان وإنك أيها الماجد الفاضل والسيد الملاحظ لأمور بالإنصاف بكل محاسن الفضائل والجري
على منهاج السلف الأوائل وقد بلغنا أن تعزم على سلوك منهاجهم ونهج سبيل الذي
اتبعوا الرسول عليه السلام في سنته وما حظوا من هديه وطريقته ومن أراد نيل ذلك الفضل
فليلزم السهر والسعي ولكن قليل من التثبت بالسنة كثير واحياء بعض ما اندرس من المعالم موجب
للأجر الكبير ويقتضيه نظر همة الهمم على ترك الشؤون ولا يستعجله الزيات يوفيون والله سبحانه ينصر
من نصره ويعين من استعان به ويؤيد من توجه إليه ويقبل برحمته على من أقبل عليه وقد قال تعالى واستعينوا
بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين وكان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة
ومن أهم الرعاية غيره وتحمل حاجات القاصدين مع إذا ابليت أنحاسه حقوق أن يستعين
بالصبر والصلاة وتعالى لا يتسلى بقول الله صلى الله عليه وسلم بركة وتعالى لقد كان لكم في
رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر الآية وقال عليه الصلاة والسلام
كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الحديث يوجب الاستعداد لجواب السؤال ويلزم ما يصلح الحال
بين يدي الكبير المتعال ومما كله غير خاف على سيدي من علم ونهم وتبين بعقله
ما يهم وما لا يهم ولكن التذكرة مشتدة جارية والسماع للإنسان من غيره وقع في النفس
وينفعه من أشد جمع به لمن يصح ولمن سيأتي من أسمى من أن تشرح وأمرها الجلي وأرخى فيما عزز
حسن جمانه كرامة وكرسيه وقد قصرنا المثال الأعم فيما أتيناه والله سبحانه وتعالى يجعلنا من
أهل توحيده ويعيننا على اتباع الحق وسلوك طريقه ويحشرنا في زمرة النبي الكريم ومن به وفي بيته
والسلام ❊ ومن خط بعض العدول الفاسيين

بردلة فنقم عليه بعضهم وأوغر عليه قلب السلطان، وقال له إنه يبغضك، ولولا شدة بغضه ما سرع الى الصلاة على عدوك الذي قام عليك وأراد نزع الملك منك، فكتب السلطان الى القاضي يوبخه ويهدده، فأجابه بأن صلاته نظير صلاة الحسن البصري على الحجاج بن يوسف، فلما ليم على ذلك قال : استحييت من الله عز وجل أن أستعظم ذنب الحجاج في جانب <عفو>(77) مولانا الغفور الرحيم انتهى، على أنني ما صليت عليه بغير إذن بل خرج الإذن من الدار المولاوية، وبلغ ذلك مبلغ الشهرة التي لم يبق معها شك، وذلك بمترجم ينسب الأمر الى الجانب العالي، فلا افتيات بعد ذلك بل الواجب حينئذ هو القيام بذلك اجلالا وتعظيما لجناب مولانا نصره الله.

ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قضية الحديبية (امحُ رسول الله) فقال مولانا علي رضي الله عنه والله ولاأمحوه أبدا، فتعارض وجوب امتثال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحو ووجوب الإجلال لمقامه فرجح رضي الله عنه جانب الإجلال، والصحيح أن الحدود كفارات، ففي الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه (ومَن أصابَ من ذلك شيئا فَعوقِبَ في الدّنيا فهو كفّارة لهُ)(78) انتهى، باختصار للحديث من أوله وآخره، وهذه القضية فتنة عظيمة لأهل القطر السوسي، وقد أصابت غيرهم من العلماء الذين كانوا يخالطون مولاي محمد لولا لطف الله تعالى فإن الشيخ أبا عبد الله المسناوي(79) كان من أخصِّ خاصته، فوشي به الى السلطان وقيل له أنه مع شدة اتصاله به لا يغيب عنه عزمه على القيام على أبيه، فهو موافق على ذلك فبادر بعض أصحاب السلطان للاعتذار على الشيخ بأنه كان ينهاه عن إرادة القيام وأنشد للمسناوي

مهلا فإن لكل شيء غايـــة والدهر يعكس حيلة المحتـــال
فالبدر ليس يلوح ساطع نوره والشمس باهرة السنا في الحال
فاذا توارت بالحجاب فعند ذا يبدو بدو تعزز وجمـــال

فقبل السلطان ذلك وتحقق براءته، وقولنا إنها فتنة أصابت كثيرا أهل

---

(77) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(78) اختصره المؤلف وهو مذكور عند البخاري في كتاب الايمان بباب علامة الايمان حب الانصار.

(79) المسناوي الدلائي ترجمه في النشر ترجمة واسعة ج 3 ص265 توفي سنة 1136هـ-1723م.

سوس وذلك لأن ظهوره التام إنما كان هناك، ولأن جل من ينتسب إلى العلم والصلاح منهم كانوا معه موافقين له ومؤيدين، وذلك دأبهم في تنقيص الأمراء عند العامة ووصفهم بكثرة الجور(*). (وتشنيع قبح أفعالهم، يستجلبون بذلك خواطر العامة لاستخدامهم) وذلك موجب ما روي عن الشيخ زروق(80) أنه كان لا يصلي خلف إمام القرويين العلامة السيد عبد العزيز الورياغلي(81) مع زهده وورعه وعلمه لقيام أهل فاس على السلطان عبد الحق المريني الأخير بمشاورته في قتل اليهودي الذي ولاه عليهم، وكان الشيخ زروق يقول في شأن الورياغلي إنه غندور، والصلاة لا تجوز خلف الغندور، وهذا شأن أهل الورع والدين (وفي العام المذكور)(82) قتل مولاي زيدان الكاتب الوزير، وفي رجب عام تسعة عشر ومائة وألف ورد الخبر بموت مولاي زيدان بردانة وأتوابه في تابوت إلى مكناسة ودفنوه ليلا بجانب أخيه مولاي محمد، وفي عام عشرين ومائة وألف كلف عبد الله الروسي الفقهاء أن يكتبوا غلى ديوان العبيد المملوكين فمن كتب نجا ومن أبى قبض عليه، وقبض على أولاد جسوس وأخذ أموالهم وأجلس فقيههم السيد : عبد السلام(83) بالسوق مقيدا يتطلب الفداء، وفي هذه السنة عفا السلطان عن السيد : عبد السلام جسوس، وكان آخر أمر السيد عبد السلام جسوس أنه قتله أبو علي الروسي، فمن الناس من يقول بأمر السلطان، ومنهم من يقول بغير أمره قال مقيده غفر الله له، وقد جرى ذكر السيد عبد السلام بمجلس مولانا سليمان ذات يوم فقال : ما قتله مولاي إسماعيل، وإنما قتله أهل فاس، قال مقيده عفا الله عنه ولم يمكنا أن نسأله عن كيفية ذلك وحقيقته، ونعوذ بالله مولانا من التعرض لأوليائه والمبارزة

(*) بعد العلامة يوجد في الأصل وفي (ف) وفي نسخة الكلية "مع غفلتهم عن أحوال العامة وقبح افعالهم لولا الأمراء" اماما زيد بين القوسي فهو من الملكية.

(80) الشيخ الشهير والعلامة الكبير العارف بالله أبو العباس احمد بن احمد بن محمد المعروف بزروق، له رضي الله عنه تآليف كثيرة يميل فيها الى الاختصار في الفقه والتصوف وغيرهما، منها في التصوف ما يزيد على عشرين شرحا على الحكم ترجمة في الصفوة والحضيكي في الطبقات. وفي الدوحة توفي سنة 899هـ-1493م.

(81) الورياغلي العلامة امام القرويين عبد العزيز بن موسى الخطيب والامام بجامع القرويين وكان الشيخ زروق لا يصلي خلفه من أجل ان أهل فاس قاموا على المريني عبد الحق بمشورته قال فيه زروق انه غندور والصلاة لا تجوز خلف الغندور، ومعنى الغندور محرك الشر توفي سنة 880هـ-1470م ترجمته في درة الحجال ج2 ص376

(82) ما بين المعقوفين زيادة من (م)

(83) الشيخ عبد السلام المدعو حمدون جسوس "العلامة الجليل المقتول في سجن فاس سنة 1121هـ-1709م قال في النشر في قضية طويلة، وبعد الترجمة ذكرها في حوادث السنة" النشر ج3 ص207،208 وذكرها المؤلف قدس سره بتحقيق وتدقيق.

له بالمحاربة، فإن السيد عبد السلام رحمه الله كان بالغ في إيذاء الشيخ سيدي قاسم الخصاصي(84) في قضايا متعددة، ثم زاد على ذلك وتعدى الي السب والانكار علي الشيخ الكامل سيدي محمد بن عبد الله معن(85) صاحب المخفية وهو شيخ سيدي قاسم، والف في ذلك أوراقا سماها الرصاصة المطفية، في أهل المخفية. فلما بلغ ذلك الشيخ سيدي أحمد بن عبد الله ذهب إلي سيدي قاسم وبكى عليه وقال له ياسيدي هذا الإنسان قد ماذاك في نفسك فصبرت والآن قد بلغ أمره إلي سب الأموات من أشياخك وأخبره بالتأليف المذكور، قال مقيده عفا الله عنه وهذا الكتاب المذكور ما رأيناه وإنما أخبرنا بذلك الفقيه الشريف العدل سيدي عبد الوهاب القادري القاسي(86) وكان له اطلاع واسع على الأخبار خصوصا أخبار السادات أهل المخفية رضي الله عنهم. قيل إنه قال له هون علي نفسك فإن إسماعيل يفصل بينا وبينه، وذلك قبل ظهور مولانا إسماعيل، فكان من قدر الله سبحانه ما كان، وفي شعبان عزل أبو علي وولي حمدون ثم رُدَّ أبو علي، وفي ذلك العام جاء عبد الله الروسي يبيع أصول المجاورين بالمشرق، قال في الأزهار الندية ومن حوادث هذه السنة إحداث قراءة الحديث المتضمن لأمر الناس بالإنصات بالمسمع عند خروج الإمام يوم الجمعة من المقصورة {وجلوسه على المنبر}(87) وفتح الترك وهروان وورود الخبر بأن بنت ملك الروم أوصت بدفنها في الحرم النبوي {بالمدينة المشرفة}(88) فاحتال الروم في التوصل لذلك بأن أحرقوها وخلطوا رمادها بالعنبر والطيب وحلى بالذهب ورصع باليواقيت والجواهر وبعثوا به الى الحرم الشريف ليعلق به كأنه منارة انتهى، وفي العام الثالث والعشرين ومائة وألف <قام أبو النصر ابن السلطان بالسوس، وفي عام أربعة وعشرين ومائة وألف>(89) سرح السلطان الكاتب الخياط <ابن منصور من السجن وولاه درعة، وفي

---

(84) الشيخ الامام قاسم بن ج قاسم "فصل ترجمته في النشر مع تحقيق نسبته للخصاصين توفي سنة 1083هـ-1692م.

(85) محمد بن عبد الله معن من العارفين بالله وشيوخ التصوف الكبار، له ترجمة كلها الجهاد وعرفان، تهر القلوب وتفتح الأذهان توفي رضي الله عنه سنة 1062هـ 1651م ترجمته بالنشر والتقاط الدرر ومحقق الالتقاط ذكر مراجع ترجمته ص 130 رقم 3.

(86) اما عبد الوهاب القادري الفاسي، لم اهتد لتاريخ وفاته وترجمته وهل هو عبد الوهاب الفاسي المذكور في السلوى "بل هو بعينه توفي سنة 1078" النشر ج 2 ص 192 "سلو" ج 2 ص 324.

(87) ما بين المعقوفين زيادة من (ف)

(88) مابين المعقوفين زيادة من (م).

(89) ما بين العلامتين ساقط من (م)

عام خمسة وعشرين قتل السلطان›(90) الخياط(91) المذكور وأخاه عبد الرحمان، وفيه ورد الخبر على السلطان أن أولاد دليم بالسوس قتلوا ولده مولاي بنصر، وفي عام ستة وعشرين قتل السلطان القائد أبا الرشيش وثلاثة من القواد وسبعة عشر من العبيد بمشرع الرمل، وفي عام سبعة وعشرين ومائة وألف مات الشيخ القطب مولاي التهامي(92) بن محمد بن عبد الله الشريف بوزان، وفي جمادى من العام ماتت الحرة عائشة مباركة زوجة السلطان، وفي عام تسعة وعشرين توجه للحج ولد السلطان أبو مروان، وفي رمضان منه بعث عامل وجدة مائة رأس من رؤوس بني يزناسن، وفي عام ثلاثين ورد كتاب السلطان بتحرير أهل فاس من الكلف، ثم ورد كتاب آخر يخيرهم بين أن يكونوا جيشا أو نائبه فقال ولد الصحراوي إنما يكون الكلام بين يدي السلطان فقتل وأصبح معلقا، فبلغ ذلك السلطان فقبض على أبي علي وأصحابه وولى على فاس حمدون الروسي، ثم بعده قتل حمدون الروسي عبد الخالق بن يوسف فقبضه السلطان هو وأخوه مسعود وولى على فاس حمو قصارة ثم بعد أيام جاء أبو علي واليا، وفي العام ورد الخبر بموت أبي مروان بالمشرق، وفي العام المذكور عزل السلطان أولاده عن الأعمال كلها ولم يبق إلا ولي العهد(93) بتادلة، ووجه ولده مولاي عبد المالك لمراكش وولاه أمر سوس، واشتغل السلطان ببناء قصوره وغرس بساتينه ورياضاته، وصارت بلاده كلها في أمن وعافية، تخرج المرأة والذمي من وجدة الى واد نون ولا يسألهما أحد من أين وإلى أين مع الرخاء المفرط، فلا قيمة للزرع والمواشي، والعمال تجبي الأموال والرعية تدفع بلا كلفة ولا مئونة ولا حساب، وصار أهل المغرب كفلا حي مصر يخدمون ويدفعون في كل جمعة ومن نتج فرسا يربيه فإذا بلغ أول(94) الركوب دفعه للعامل، ويدفع قيمة السرج، من عنده عشرة مثاقيل، هذا إذا كان النتاج ذكرا، وإذا كان أنثى بقي له ويدفع للعامل

---

(90) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(91) الخياط بن منصور لم اقف عليه

(92) م التهامي بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم اليملحي الحسني دفين وزان وكان رضي الله عنه اشد الناس ذكر الله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولخاصة المومنين وعامتهم، وخصوصا أمير المومنين، كان يعيش عهد المولى اسماعيل توفي 1127هـ 1715م.

(93) في (م) ولم يبق إلا مولاي احمد الذهبي).

(94) في (م) أوان بدل أول.

مثقالا، ولم يبق بأرض المغرب سارق ولا قاطع، ومن ظهر عليه شيء وهرب يؤخذ من كل قبيلة يمر بها وفي كل قرية، وكلما بات مجهول الحال بحلة أوقرية يشقف بها إلى أن تتبين براءته، وإن تركوه فإنهم يؤاخذون به، ويؤيدون ما سرقه أو اقترفه من الجرائم كالقتل وغيره، وكانت أيامه رحمه الله غزيرة الأمطار كثيرة البركة في الحراثة والفلاحة والتجارة والأمن والرخاء والخصب، لم يقع غلاء طول أيامه إلا مرة واحدة بلغ القمح فيها ستة أواقي للمد والشعير ثلاثة أواقي ورأس الضأن ثلاثة أواقي ورأس البقر مثقالين في سائر أيام الرخاء والسمن والعسل رطلين بموزونة والزيت أربعة أرطال بموزونة هكذا نقله الزياني، وهو مخالف لما ذكره العلامة الشريف سيدي محمد بن الطيب القادري في الأزهار الندية وهو أنه بلغ الزرع في بعض السنين في المدة الإسماعيلية إلي ستين للمد، وكان المد في ذلك الوقت صاعا ونصفا وهذا غلاء مفرط ما سمع مثله، ونصه وفي هذه السنة كان غلاء كبير بسبب تأخر المطر، فبلغ ثمن القمح أربعين أوقية للمد والمد صاع ونصف، وصلى الناس صلاة الاستسقاء، فأول خاطب فيها القاضي بردلة كرر الصلاة ثلاث مرات فنزل مطر قليل لم يكف، ثم أعيدت الصلاة، وكان الخطيب فيها سيدي محمد البوعناني ثم أعيدت والخطيب بردلة أيضا، ثم أعيدت والخطيب المرابط الدلائي والقمح ستون أوقية ونحوها، ثم أعيدت والخطيب البوعناني المذكور، ثم أعيدت والخطيب الشيخ الولي الزاهد سيدي العربي الفشتالي(95) وفي عشية غده نزل المطر مع الرعد والبرق ففرح المسلمون وكثر حمد الله تعالى، ثم أعيدت صلاة الاستسقاء أيضا والخطيب القاضي بردلة أيضا وخرج مع الناس شيخ الاسلام وبركة الأمة سيدي عبد القادر الفاسي راكبا على حمار وجعل الأشراف أهل البيت الطاهر أمامه مستشفعا بهم ، فنزل عند الرجوع مطر قليل، وفي الغد نزل المطر الغزير الكثير الكافي النافع، فانحطت الأسعار ونزل القمح إلي خمسة وثلاثين بعد الصلاة تسع مرات كما تقدم انتهى.

قال مؤلفه : انظر كيف كرر الناس الصلاة ولم يملوا ولم يقنطوا من رحمة الله تعالى وإن تأخرت باقتضاء الحكمة الإلهية وذلك لأن المراد من

---

(95) أبو محمد العربي بن احمد الفشتالي الموسوم بالزهد والورع راودوه على القضاء فامتنع "ترجمته بالصفوة" ص 190 والنشر ج 2 ص 297 والحضيكي ج 2 ص 58 توفي 1092هـ 1681م.

الصلاة والدعاء إنما هو إظهار الفقر والفاقة وشدة التضرع لإله العالمين الموجب لرضا الله وعفوه ولطفه بنزول المطر وغيره، وهذا خلاف ماظهر في هذا الزمان من عدم مسارعة الناس للصلاة عند مجيء البأس وحبس الأمطار، بل ألقى الشيطان في اعتقاد العامة أن صلاة الاستسقاء سبب لأمور عظيمة تكون بعدها فجعل الناس يحذرونها، وتلك مكيدة من الشيطان اللعين في تعطيل هذه السنة المباركة وكثير يزعم أنه إذا لم ينزل المطر بعد الصلاة يدل على عدم الرضا من الله تعالى، وينسبون ذلك إلى الإمام الخطيب، ولذلك يمتنع الأئمة من التقدم لها، وذلك كله من مكايد الشيطان الرجيم ومنهم من يقول إن التكرار للصلاة هو الموجب لما ذكر أولا، ويقول الجهال إنها لا تعاد، وهذا باطل، فقد ذكر أنها صليت في زمان واحد بمصر أربع عشر مرة، وحضرها العلماء والصالحون، وذكرا ابن جبير(96) في رحلته أنه حضرها في الحرم المكي الأمين وقد أعيدت ثلاث مرات متوالية، ونصه : وفي ضحوة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من شوال عام تسعة وسبعين وخمسمائة وهو السادس من فبراير اجتمع الناس كافة للإستسقاء تجاه الكعبة المعظمة بعد أن ندبهم القاضي الى ذلك وحرضهم على صيام ثلاثة أيام قبله، فاجتمعوا في هذا اليوم الرابع المذكور وقد أخلصوا النيات لله عز وجل، وبكر الشيبيون ففتحوا الباب المكرم من البيت العتيق، ثم أقبل القاضي بين رايتين سوداوين لابسا السواد، وأخرج مقام ابراهيم الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، ووضع على عتبة باب البيت المكرم، وأخرج مصحف عثمان رضي الله عنه من خزانته ونشر بإزاء المقام المطهر، فكان دفة منه عليه والثانية على الباب المكرم، ثم نودي في الناس بالصلاة جامعة، فصلى القاضي بهم خلف موضع المقام المتخذ، فصلى ركعتين الأولى بسبح والثانية بالغاشية، ثم صعد المنبر وقد ألصق الى موضعه المعهود من جوار الكعبة المقدسة وخطب خطبة بليغة، والى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم وحضهم على التوبة والإنابة حتى نزفت دموعها العيون، واستنفدت ماء الشئون وعلا الضجيج وارتفع الشهيق وحول رداءه. وحول الناس ارديتهم اتباعا للسنة، ثم انفض

---

(96) ابو الحسن محمد بن احمد بن جبير الكناني الرحالة اشتهر برحلته توجد مصادر ترجمته بمعجم المطبوعات واعلام الزركلي ودائرة المعارف الاسلامية توفي سنة 614هـ 1217م بالاسكندرية.

الجمع راجين رحمة الله تعالى غير قانطين منها، والله تعالى يتلافى عباده بلطفه وكرمه، وتمادى الاستسقاء بالناس على الصفة المذكورة ‹ثلاثة أيام متوالية›(97) وقد نال الجهد من أهل الحجاز وأضربهم القحط، وأهلك مواشيهم الجدب، لم يمطروا في الربيع ولا في الخريف ولا في الشتاء إلا مطرا طلا غير كاف ولا شاف، والله سبحانه لطيف بعباده غير مواخذهم بجرائمهم إنه حنان منان لارب سواه انتهى (98).

تنبيـــه :

اعلم أن الله سبحانه أمرنا بالدعاء ووعدنا بالإجابة وعد الصدق ومولانا سبحانه لايخلف الميعاد، فمن دعا ولم ير الإجابة فلا يشككه ذلك في صدق وعد الله، وليجوز كون وقوع الوعد الإلهي معلقا على أسباب ومشروطا بشروط استأثر الله بها ان لم تقع تلك الشروط لم تقع الإجابة لأنه إذا فقد الشرط فقد المشروط ‹فعلى العبد أن يعرف قدره ويتأدب ولايتزلزل اعتقاده›(99)، قال تاج الدين ابن عطاء الله(100) في الحكم : لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح في الدعاد موجبا ليأسك، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك، وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد انتهى.

وفي عام اثنين وثلاثين ومائة وألف أمر السلطان بهدم قبة مولانا ادريس والزيادة فيها من كل ناحية واشتراء الأصول المجاورة له، وشرعوا في حفر أساسه واستمر البناء والخدمة فيه إلى ‹أن كمل›(101) عام أربعة وثلاثين ومائة وألف، وفي عام ثلاثة وثلاثين ومائة وألف مات عبد الله

---

(97) مابين العلامتين ساقط من (ف).

(98) رحلة ابن جبير ص 138 ط بيروت سنة 1379هـ 1959م.

(99) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(100) ابو الفضل وابو العباس احمد بن محمد الاسكندري صاحب الحكم المشهورة ومن فضائله أنه استطاع ان يقف لابن تيمية حجر عثرة، كلما ناظره غلبه وقد كتب بعض الدكاترة مناظرة ابن تيمية مع فقهاء عصره، وهذا مثال من مناظراته مع مترجمنا، قال الشيخ ابن عطاء الله بعد كلام ولكي لاتضل او تنسى، اعد قراءة ابن العربي بفهم جديد لرموزه وايحاءاته تجده مثل القشيري، قد اتخذ طريقه الى التصرف في ظل ظليل من الكتاب والسنة، انه مثل حجة الاسلام الشيخ الغزالي، يحمل على الخلافات المذهبية في العقائد والعبادات ويعتبرها انشغالا بما لا جدوى منه ويدعو الى أن محبة الله هي طريقة العابد في الايمان، فماذا تنكر من هذا بالفقيه، ام انك تحب الجدل الذي يزق أهل الفقه، لقد كان الامام مالك رضي الله عنه يحذر من الجدل في العقائد ويقول كلما جاء رجل اجدل من رجل نقص الدين الى آخر البحث، قال ابن تيمية في الآخر : أحسنت والله ان كان صاحبك كما تقول فهو أبعد الناس عن الكفر، ولكن كلامه لايحمل على هذه المعاني فيما أرى قال : ابن عطاء الله، ان له لغة خاصة وهي مليئة بالرموز والاشارات والايحات والاسرار والشطحات 709 هـ 1309 م.

(101) ما بين العلامتين سقط من (ف)

الروسي بمكناس، وفيه غضب السلطان على أهل فاس ووجه لهم حمدون الروسي وأخاه أبا علي وأمرهما بقبض المال <من أهل فاس> (102) فبعثوا العلماء والشرفاء للشفاعة فلم يقبل فاشتغلوا بدفع المال فلم يسلم منهم أحد ولم يعرف له عدد، وخلت المدينة من ذوي اليسار، وفيه خرجت محلة الصبليون من سبتة على غرة بمحلة المسلمين واستولوا عليها وعلى محلة القائد علي ابن عبد الله ونهبوها وقتلوا <وسبوا> (103) وحازوا شبارات المسلمين وعساتهم وحازوا قصبة افرگ ورجعوا لسبتة وتوجهوا لبلادهم ولم يبق بسبتة إلا من كان بها، وكان هذا الخطب عام أربعة وثلاثين ومائة وألف، وفيه مات الباشا غازي صاحب مراكش بوجدة في المحرم وفي صفر مات باعزيز وصدوق صاحب ردانة، وفيه انتقل مولاي عبد الملك بتارودانت.

وكان لمولاي اسماعيل من الأولاد على ماقيل وتواتر به الخبر خمسمائة ولد ذكر، ومثل ذلك من البنات أو مايقرب منه، قال في البستان، والذي خلف من الأولاد وعقب ماهو في دفتر السلطان سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله لأنه كان يصلهم كل سنة وكنت أتوجه لتفريق الصلة عليهم بتافلالت مائة دار وخمس دور من أولاده لصلبه وأما الذين لم يعقبوا وانقطع عقبهم فليسوا في الدفتر، وأما الحفدة والأسباط فكان عددهم في أيام سيدي محمد ألفا وخمسمائة وستين، وزادوا اليوم في أيام السلطان مولانا سليمان، ومازال يصلهم على ما في دفتر والده، ومن زاد يزاد واجبه (قال الزياني) (104) وأما من لحقناه من أولاد مولانا إسماعيل لصلبه في دولة سيدي محمد فثمانية وعشرون ومن بنات صلبه ثمانية أنزلهن السلطان بقصر حم ويك ورتب لهن العولة والكسوة والصلة في كل سنة، ومعهن الحفدات اللواتي لا أزواج لهن وكل واحد من هذه المائة والخمس الدور أولاد الصلب الذين في الدفتر كان بني له والده بسجلماسة قصرا يخصه ودارا وأعطاه نخلا وأرضا للحراثة والفلاحة ومماليك يقومون بها وبخدمته، وكل واحد أصله الذي أعطاه على قدر مرتبته عنده ومزية أمه، فتناسل أولادهم ونمت فروعهم، وفر الله جموعهم، وحفظ نظامهم، وكان رحمه الله

(102) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(103) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(104) ما بين العلامتين سقط من (ف).

سديد النظر في نقل أولاده بأمهاتهم من مكناس لسكنى تفلالت مع بني عمهم من الاشراف ليتدربوا على معيشتها التي تدوم، فكان ذلك صونا لهم من نكبات الأيام والليالي ومن فضيحة الخصاصة بعد موته وزوال النعمة وانزواء رداء المملكة الساتر لهم. فلذلك نجحوا وأفلحوا بخلاف إخوانهم الذين تربوا بمكناسة <إلى أن مات والدهم وتتبعوا شهواتهم التي ألفوها>(105) فإنهم لم يتم لهم نسل كإخوانهم الذين بالصحراء.

وأما مبانيه بقلعة مكناسة وقصوره ومساجده، ومدارسه وبساتينه فشيء من وراء العقول مما تعجز عن بعضه الدول المتقدمة من الفرس واليونان والروم والترك والعرب فلا يلحق ضخامة مبانيه ما بناه الأكاسرة بالمدائن ولا الفراعنة بمصر ولا ملوك الروم برومه والقسطنطينية ولا اليونان بأنطاكية والإسكندرية، ولا العماليق بالشام، ولا ملوك الإسلام كبني أمية وبني العباس والعبيديين والمرابطين والموحدين وبني مرين والسعديين، وأي قدر لبديع المنصور بالنسبة لقصر واحد من قصوره، وأي قدر لبستان المسرة مع أحد بساتينه، فقد كان عنده بجنان الحمرية مائة ألف شجرة من الزيتون وحبسه على الحرمين الشريفين، ومرت عليه العصور المتطاولة والفتن والفترات والناس يحطبون منه فلم يزل على حاله، ولما بويع السلطان سيدي محمد بن عبد الله أحياه وأجرى له الماء وأمر بإحصاء ما بقي من عدده فوجدوا ستين ألفا، وكان رحمه الله تعالى يوجه ثمن غلته كل سنة للحرمين الشريفين وكذلك مولانا سليمان.

وكان في سجون مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى من أسارى الكفار خمسة وعشرون ألف أسير يخدمون في البناء، منهم الرخاميون ومنهم النقاشون والحجارون والحدادون والأطباء والمنجمون والمهندسون، وكان يستعمل كل واحد في حرفته، ولم تسمح نفسه قط بفداء أسير بحال، وكذلك كان في سجونه من أهل الجرائم كقتلة الأرواح وأهل الدعارة والمفسدين في الأرض نحو الثلاثين ألفا. وكان يستخدمهم مع أسارى الكفار ويبيتون في السجون والدهاليز تحت الأرض، ومن مات منهم يدفن تحت البناء إن كان يستوجب القتل. ولم يبق لأهل الدعارة والفساد محل يأوون إليه ويتمنعون فيه في أيامه وفي جميع إيالته على طولها، فإنه كان

---

(105) ما بين العلامتين سقط من (م).

خليفة أخيه مولانا الرشيد مدة ملكه سبعة أعوام وسلطاناً سبعة وخمسين عاما، وطالت حياته حتى كان الجهال يظنون أنه لا يموت، وقيل كان أولاده يستبطئون موته، وكانوا يقولون له الحي الدائم، وهذه المدة التي تقدمت وهي أربعة وستون سنة ما أقام أحد من الخلائف ولا من السلاطين مثلها في الملك غيره وغير المستنصر من العبيديين كما قدمناه في رايته من لواء العبيديين.

ولما مرض مرض موته وجه علي ولده مولانا أحمد الذهبي من تادلة وهو الذي يسميه صاحب البستان ولي العهد، وليس كذلك فإنه ماعهد لأحد كما أخبرنا بذلك السلطان العادل العلامة الحافظ أبو الربيع مولانا سليمان مرارا، ويحكى في ذلك حكاية وهي أن مولانا إسماعيل لما أيقن بالموت دعا رفيقه وعالم حضرته أبا العباس اليحمدي وأكد عليه في أن يشير عليه بمن يصلح للولاية على المسلمين من بعده، وكان آخر الأمر بعد الممانعة التامة قوله : يا مولانا اعلم أنه ليس لك ولد أولا ولد لك، فقال له السلطان صدقت والله وودعه وخرج، ولم يعهد لأحد، وإنما العبيد كانوا يقدمون من أرادوا ويؤخرون من أرادوا، وكان مولانا سليمان رحمه الله يحكى ذلك في شأن بعض أولاده، وأما قول الزياني إن مولاي أحمد ولي العهد فليس كذلك، ومن العجب أنه قال إنه سمع هذه الحكاية من مولانا سليمان رحمه الله كما سمعناه منه، ولا بعد فيه ثم يقول إنه ولي العهد مع أن مولاي أحمد الذهبي رحمه الله قيل إنه كان لا ينفع <حتى>(106) نفسه لعدم صحوه فهو طافح دائما، وقد حضرنا مرة في مجلس القائد الأجل الرئيس الأفضل البركة أبي مروان السيد عبد الملك أبه الحاجي رحمه الله وذكر بعض طلبته هذه القضية فقال السيد عبد الملك سبحان الله، هذا غير صحيح يعني العهد لمولاي أحمد، قال إن مولاي أحمد من يوم مات والده وقدمه العبيد ما أفاق من سكرته الى سكرات الموت، غفر الله لنا أجمعين

---

(106) ما بين العلامتين سقط من (ب).

الراية الرابعة من اللواء الأعظم
راية مولانا احمد الذهبي بن مولانا اسماعيل
وهي راية أصلها الحمرة وغلبت عليها الدكنة والاتساخ

لما مات مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى يوم السبت السابع والعشرين من رجب عام تسعة وثلاثين ومائة وألف اجتمع قواد العسكر البخاري وقواد الوداية وأعيان العمال والعلماء والقضاة والكتاب وبايعوا مولانا أحمد الذهبي بأمر العبيد الشبيه بالجبر، ولم يكن ذلك عهدا من أبيه، وكتبوا بذلك للآفاق، ولما بلغ خبر موت السلطان لفاس وتحققوا ذلك كان أول ما بدأوا به قتل قائدهم أبي علي الروسي وبايعوا مولاي أحمد وكتبوا بيعتهم وتوجه بها أعيانهم لمكناس واجتمعوا به فلم يظهر لهم سوء ما فعلوا ولم يعاتبهم، وولى عليهم القائد المحجوب العلج، وأعطى العلماء والأشراف جائزة الولاية والبيعة ‹ووجههم›(1) وجلس للوفود فورد عليه قواد القبائل(2) وعمالها ورؤساء الحواضر والبوادي فأجاز كلا على مرتبته ووجههم، وتفرغ لشأنه فافتتح بقتل عمال أبيه وأركان دولته فابتدأ بعلي ويشي وبعده أحمد بن علي الأشقر ومرجان الكبير قائد عبيد الدار وصاحب بيوت الأموال،وكان تحت نظره ألفان ومائتان من المفاتي كلها مفرقة بأبواب القصور، وكان لكل واحد من هذه(*) المفاتي عبدان وثلاثة فأكثر لخدمته، وحاصل أمر مولاي أحمد الذهبي أن العبيد إنما أقاموه صورة لأنهم علموا أنه لا يدبر معهم شيئا ولا يقدم ولا يؤخر إلا من قدموه أو أخروه، وكل من ثقل عليهم مكانه من أركان الدولة قتلوه ونسبوا ذلك لمولاي أحمد، ولذلك تركوا من أولاد السلطان من علموا قوته وبطشه وتدبيره، وقتل جماعة من الكتاب والقواد ثم أمر بإخراج الأموال ‹لما قتل من كان بيده حفظها وهو القائد مرجان فأخرجت الأموال›(3) والسلاح والذخائر، وفرقت على العبيد والعمال، وأعطى الأشراف والعلماء وخص أفرادا من العساكر بألوف، وفي أثناء ذلك ورد الخبر أن الباشا أحمد بن علي الريفي حرك لتطوان ودخلها،

---

(1) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(2) في (ف) : العبيد

(*) في الأصل و (م) هؤلاء.

(3) مابين العلامتين سقط من (ف) ومن الأصل.

فقام أهلها مع قائدهم السيد عمر الوقاش فحاربوه وأخرجوه من المدينة بعد مقتلة عظيمة، ولم يحصل منهم على طائل، فأعرض السلطان مولاي أحمد عن ذلك ولم يجب عنه لا بما قل ولا بما جل، فدخل داره واعتكف على لهوه وترك الناس يموج بعضهم في بعض ويفعل كل أحد ما أراده، ولم يول ولم يعزل، ولم يسمع شكوى أحد ولم يلتفت لشئ من أمور الدولة فانحل نظام الملك بقتل أولئك الأجناد(4) الذين كانوا أنياب الدولة وأظفارها، وسرادقاتها وأسوارها، وذلك هو مراد أعداء الله العبيد، والدنيا أضداد لابد أن يعقب كل شيء خلافه، فقد كان علي ويشي عامل العمال ورئيس البربر وغيرهم كما تقدم بيانه في أيام مولانا اسماعيل وأحمد بن علي عامل جبال مرموشة وبني وراين وغياثة والحياينة والجبال نظير علي ويشي يضاهيه في نصح المملكة وجلب الأموال وابن الأشقر أمير الزراهنة وعلى يده اعشار القبائل كلها من أهل الغرب وبني حسن نظير الأولين والقائد مرجان صاحب بيوت الأموال بيده دفتر الداخل والخارج والعارف بما يدفعه العمال في كل سنة، فلما ماتوا استخفت الرعية بمنصب الملك واستراحوا ممن يحول بينهم وبين الفساد ويزجرهم عن القبائح خصوصا البربر فقد كانوا في أقيام النحاس وخرجوا منها بموت علي ويشي ورجعوا إلى شراء الخيل والسلاح، فامتدت أيدي النهب في الطرقات وكثرت الشكايات بباب السلطان.

لقد اسمعت لوناديت حيا ولكن لا حيـاة لمن تنادي

هذا في مكناس، وأما في فاس فقد قام الوداية بأمره ونابوا عن البرابر في العيث والفساد في الأرض ولم يحتاجوا فيه إلى غيرهم، وفي المحرم عام أربعين ومائة وألف أغار الوداية على سوق الخميس ونهبوا وسلبوا وقتلوا وقبضوا على طائفة من أهل فاس فسجنوهم عندهم فوجه أهل فاس جماعة من أعيانهم وأشرافهم وطلبتهم بقصد الشكاية على السلطان فلم يجتمعوا به وقبضهم محمد بن علي الويشي فسجنهم، فلما بلغ خبر قبضهم لفاس قام أهل فاس لحرب الوداية وأغلقوا أبوابهم وعلموا أن ذلك من السلطان، وبلغهم أن الوداية كتبوا للسلطان بأن أهل فاس شقوا العصا، فترادفت عليهم العساكر وركبت عليهم المدافع والمهاريز

(4) في (م) : الأجياد.

والمجانيق، واستمر القتال الى أن وجه السلطان أخاه مولاي المستضيء مع الشرفاء الذين قبضهم محمد بن علي ويشي وشرفاء مكناس ليوقعوا الصلح بين الوداية وأهل فاس فوقع ورجعت المحلة، ومن الغد أصبحت عليهم الوداية بالحرب ورمى الكور والبمب، واستمر الحال إلى أن ورد موسى الجراري من عند السلطان في شأن الصلح فوجهوا معه جماعة من الأعيان والعلماء والأشراف وترك لهم رهنا من أصحابه فلم يجتمعوا مع السلطان ولم يحصلوا على طائل، ورجعوا لفاس وبقي الأمر على حاله إلى أن وجه لهم عبيد الديوان أنهم عزلوا مولاي أحمد وولوا أخاه مولاي عبد الملك وطلبوا موافقتهم فأجابوهم إلى ذلك وحالفوهم على الوفاء وأكرموا وفدهم ورجعوا لمكناسة شاكرين.

الراية الخامسة في دولة مولاي عبد المالك

وهي راية بتراء مخرقة الجوانب والأطراف. (مانالها بعد الإنكار اعتراف)(1) لما رأى قواد العسكر وأمناء الأطراف ورؤساء الدولة وأعيان الناس ما أفضى إليه أمرهم من شيوع الفساد في الأرض وانقطاع السبل وتعذر الأمور والأسباب وظهر لهم سوء التدبير فيما فعلوه من مبايعة مولاي أحمد أرادوا استدراك الأمر ورقع الخرق، فوجهوا من يأتي بمولاي عبد الملك من السوس ظنا منهم أنه أحسن من أخيه مولاي أحمد مع أنهم إنما غسلوا دما بدم، وفعلوا ما يئول الى الندم. فلما بلغته مكاتبهم أسرع السير، فلما سمع العبيد وصوله لبهت دخلوا على مولاي أحمد وقبضوه وخلعوه وأخرجوه من دار الملك وثقفوه بداره التي كان يسكن بها قبل البيعة خارج القصبة، وكان ذلك في شعبان عام أربعين ومائة وألف، وفي الغد ركب الجيش كله لملاقاة مولاي عبد الملك، واجتمعوا به على العادة الملوكية والابهة السلطانية وأدخلوه دار الملك، ثم حضر الأعيان من الأشراف والقضاة والعلماء والأمراء والعمال فبايعوه وكتبت بيعته لحواضر المغرب وبواديه فقدمت وفودهم للتهنئة وجلس لملاقاة الناس إلى أن فرغ من شأنهم ودفعوا له أخاه مولاي أحمد فوجهه يسجن بفاس، ثم بداله فوجهه لتفلالت، قال الشريف القادري في الازهار الندية ولما وجهه لتفلالت كتب لخليفته أن يسمل عينيه معا بنفس وصوله فأخبر بذلك مولاي أحمد فهرب ليلا وذهب إلى زاوية الشيخ سيدي سعيد أحنصال(3) وكان مقدم الزاوية المذكورة إذ ذاك السيد يوسف بن الشيخ(4) المذكور وكان يتكلم في الحوادث فقال له إنك سترجع إلي السلطنة، فبقى هناك حتى وجه عليه العبيد فردوه بعد خلع

---

(1) مابين العلامتين سقط من (ف).

(2) هي الكتاب المطبوع أخيرا كما سماه مؤلفه كما في نسختنا المنقولة من خط مؤلفه ومن الأمانة التاريخية أن يبقى ذلك الاسم للكتاب كما أراد مؤلفه.

(3) سعيد أحنصال في الصفوة ص : 215 وأبو عثمان سعيد بن يوسف الحنصال الاخذ في آخر أمره عن شيخه أبي الحسن بن عبد الرحمان الدرعي، وفي النشر ج 3 ص 144 ينسب في الطريقه في الاخذ للشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحمان الدراوي دفين تادلا وفي مخطوط خاص منقول من خط مؤلفه وهكذا، ينسب للطريقة عن أبي علي الحسين بن عبد الرحمان الدراوي دفين تادلا ووفي السعادة الابدية انه دفن بزاويتهم بمراكش مما جعل صاحب الاعلام يرميه بالقصور اعتمادا منه على ما رواه في السلوة ج 2 ص 181 قلت ولا يبعد أن يكون هناك أحد من ذريته دفن بزاويته بحومة أمصفح جوار جامعة ابن يوسف.

(4) أما ولده يوسف بن سعيد فله قصة مع أحمد الذهبي، وقتله المولى عبد الله شر قتلة سنة 1144هـ 1731م لأنه كان سببا في القيام على أخيه انظر الأزهار الندية ج 3 ص 355.

أخيه مولاي عبد الملك انتهى بمعناه، ورجا الناس أن مولاي عبد الملك يسير بسيرة أبيه فأخفق السعي وتخلف الظن، وأمسك الله يده عن العطاء للعساكر والوفود والمستحقين ولم يخطر له ذلك ببال، وكان ذلك من الأسباب التي جرت عليه الوبال، فلما طلب منه العسكر البخاري راتب البيعة وجه لهم أربعة الاف مثقال، وكان راتبهم في عقد مولانا إسماعيل مائة ألف مثقال لا ينقص لهم منها شيئا إن لم يزد، ولما بويع مولاي أحمد زادهم خمسين ألفا في الراتب، فلما رأوا هذه المسخرة الواقعة من مولاي عبد الملك اجتمعوا على خلعه وتكلموا بذلك سرا وعزموا على ذلك حتى يهيئوا وقته، فبلغه ذلك فصار يكتب لقبائل العرب ويجمع كلمتهم وظن أنهم يقاومون العبيد، وكتب للبربر يغريهم بالعبيد، وأغرى العبيد بالبربر، وقال لهم لا يستقيم لنا أمر إلا بعد الإيقاع بهؤلاء البربر ‹وحينئذ يكون الكلام، فنشغل العبيد بحركة البربر›(5) ودهاهم بذلك وأمر أهل فاس أن يوجهوا حركتهم لحضرته فقدموا واشتغل بهذا التضريب والمكايد بين العسكر والبربر، فاطلع العبيد على ذلك فقوي عزمهم على خلعه ورد مولاي أحمد لسخانه وتفويض الأمر لهم يفعلون ما أرادوا كما تقدم، فلما تحقق مولاي عبد الملك ذلك منهم وجه لهم الشيخ القطب الرباني مولاي الطيب بن محمد الوزاني(6) فتوجه إليهم ووعظهم ‹ووعدهم›(7) بالخير إن فعلوا ماأمرهم به من عدم الخروج على السلطان وخوفهم من غضب الله تعالى وقدرته عليهم فلم يزدادوا إلا قساوة وشدة، فوجهوا الخيل لتأتي بمولاي أحمد من سجلماسة وركب العبيد من الديوان وأغاروا على مكناسة وأخذوا سرحهم ودخلوا المدينة فنهبوها وهتكوا الحرمات وقتلوا من أرادوا من أعيانها ودخلوا دار الملك للقبض على مولاي عبد الملك فلم يجدوه لأنه لما سمع ما فعلوه من العيث ركب في أصحابه وفر لفاس ودخل لحرم مولانا إدريس وبعث لأعيان فاس فاستحرم بهم فوعدوه بالدفاع عنه والقيام بأمره، فلما بلغ ذلك للعبيد منعوا رماة أهل فاس الذين توجهوا للحركة وثقفوهم حتى يدفعوا لهم مولاي عبد الملك إذا قدم مولاي أحمد، فلما قدم مولاي

---

(5) ما بين الملامتين سقط من (ف).

(6) الطيب الوزاني ترجمه في الازهار الندية ج 4 ص 178 والمطبوع أخيرا وفي المخطوط بعض النقص والزيادة، خصوصا عند توقف القادري في قطبانيته، توفي رضى الله عنه سنة 1181هـ 1767م.

(7) ما بين الملامتين سقط من (ف).

أحمد أمر بسجنهم وجاء القواد والأعيان وجددوا بيعة مولاي أحمد، وكتبوا بذلك للآفاق، وكان ذلك في ذي الحجة عام أربعين ومائة وألف، ولما بويع مولاي أحمد دخل دار الملك وفرق الأموال والكسى والذخائر تفريق سرف رتبذير لما خوفه العبيد من مثل البخل الذي أوجب عزل مولاي عبد الملك، وكان فعل مولاي عبد الملك أحسن وأقرب للصواب لو رتبه ودرجه تدريج العقلاء شيئا فشيئا ولكن

يغمى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ولم يقدم أحد من أهل فاس لبيعة مولاي أحمد عند رجوعه خوفا مما ارتكبوه من قتل الروسي ونهب، داره وأمواله وأموال المخزن التي كانت تحت يده، وكان مولاي أحمد أعرض عنهم في البيعة الأولى لأن العبيد لم يأمروه بشيء من ذلك فرحا منهم بما ظفروا به من التلاعب بالمملكة، ولما دخل مولاي عبد الملك لفاس بايعوه وجهروا بالمخالفة والعصيان خوفا مما صدر منهم، فكتب لهم مولاي أحمد أن يدفعوا إليه أخاه أو يأذنوا بحرب فامتنعوا ولجوا وأغلقوا الأبواب وعولوا على الحصار، ثم وجه مولاي أحمد للقائد صالح الليريني قائد الرماة المسجونين ‹أن يسرح ويذهب لإخوانه ينذرهم ويأتي ببيعتهم ليسرح لهم إخوانهم المسجونين›(8) فلما بلغهم وفرغ من قراءة كتاب السلطان مولاي أحمد عمدوا إليه وقتلوه وجروه وصلبوه على التوتة التي بالصفارين وقتلوا الخياط عديل بباب داره، وخرج عبد الله ابن إدريس الإدريسي في جماعة من الخيل والرماة إلى زواغة وأغار على ماشية الوداية غنما وبقرا وكان ذلك شيئا كثيرا فأتوا بها وأدخلوها لفاس فباعوها بأبخس ثمن حتى بيعت البقرة بستة أوجه والشاة بموزونة على ما قيل فخرج السلطان من مكناسة في أول يوم من المحرم عام واحد وأربعين ومائة وألف، فنزل علي فاس ونصب، عليها آلة الحصار، وأحاطت الجنود بها من كل ناحية وأمر بالعيث في بساتينها وبحايرها ونسف ثمارها وإفساد غلاتها، وأمر الطبجية بإرسال الكور والبمب والحجارة عليهم فأرسلوها ليلا ونهارا إلى أن عمها الخراب وتهدم كثير من دورها بالصواعق المدبرة(9)، المهلكة، واستمر عليهم الحرب أياما كثيرة متوالية

---

(8) مابين العلامتين سقط من (م)

(9) كذا بالاصول ولعلها (المدمرة)

ومات أكثر رجالها بعضهم بالحرب ‹وبعضهم بالردم›(10) وبعضهم بالكور والبصب، فضاق بهم الحال وضعفوا عن مقاومة الجنود، وقلت الأقوات وارتفعت الأسعار فبايعوا السلطان وصالحوه على دفع أخيه، وكتب السلطان لأخيه يخبره في التوجه لتفلالت أو المقام بالحرم، فاختار المقام بالحرم، ثم أمر السلطان أهل فاس ألا يجتمع معه أحد ولا يكلمه ولا يشتري أحد شيئا من أصحابه ولا يبيع لهم شيئا ومن فعل ذلك يعاقب، فلما رأى مولاي عبد الملك ذلك وجه للعبيد ولده يطلبهم أن يؤمنوه فيخرج معهم، فقدم عليه الباشا سالم الدكالي في خمسين من قوادهم وعاهدوه بضريح مولاي إدريس وخرج معهم بالأمان فدفعوه لأخيه فلما وقف بين يديه أمر بسجنه ووجهه لمكناسة مسجونا بدار الباشا مساهل، ولما رجع السلطان لمكناسة مرض فلما أحس من نفسه بالفوت أمر بخنق مولاي عبد الملك‹بل إنما فعل ذلك العبيد ونسبوه له›(11) فخنق ليلة الثلاثاء أول يوم من شعبان عام واحد وأربعين ومائة وألف، وفي رابع شعبان مات مولاي أحمد فبينهما ثلاثة أيام، والبقاء والدوام لله وحده، وكان مولاي أحمد أشبه الناس بالأمين بن الرشيد العباسي في زيه ولهوه وارتكاب شهواته وتضييع الحزم والجد والعكوف على المزاح حتى انتشر النظام وفسدت الأحوال، وكان ما كان والأمر لله سبحانه.

(10) بين العلامتين سقط من (ف) ومن الأصل.
(11) بين العلامتين سقط من (ف).

الراية السادسة من اللواء الأعظم من الجيش العرمرم في دولة مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل رحمه الله

وهي راية عالية طويلة الأذيال مختلفة الالوان راكدة الرياح ‹عليها من كل ناحية صياح›(1)

لما مات السلطان مولاي أحمد الذهبي اجتمع أعيان الجيش البخاري والوداية وقوادهم ورؤساؤهم، واتفقوا على بيعة السلطان مولانا عبد الله وهو بسجلماسة، كان مع أخيه مولاي عبد الملك بسوس، وجاء معه للغرب لما وجه عليه العبيد وبايعوه، فلما ردوا مولانا أحمد الذهبي وفر مولاي عبد الملك لفاس ذهب مولاي عبد الله لداره بتافيلالت فبايعوا مولاي عبد الله بالمحلة ومكناسة ونادوا بنصره، ووجهوا الخيل لتأتي به، وكتبوا لأهل فاس يعزونهم فيمن مات من إخوانهم في الحرب، والحصار ويؤكدون عليهم في الموافقة وعدم المخالفة في بيعة السلطان مولانا عبد الله، ولما بلغ الكتاب قرئ على منبر القرويين فأجابوهم بعدم المخالفة ‹إن حضر›(2) فلما بلغتـه الخيل قدم ونزل بظاهر فاس بالمهراس فخرج لملاقاته الأعيان والأشراف والفقهاء ففرح بهم وباشرهم بالإحسان وواعدهم للدخول لزيارة مولانا إدريس في غدهم، ورجعوا لفاس، وفي الغد تهيأوا بلباس الزينة والركوب وحمل السلاح على العادة ونشر ألوية الفرح والسرور، وخرجوا إليه فركب معهم ودخلوا به مع موكبه وخدامه ودائرته على باب الفتوح وكان في جملته حمدون الروسي عدو أهل فاس، فلما رآه بعض مساعر الفتن ومشاهب البلاء من أولاد ابن يوسف وكان قتل أباهم فقصدوه فلما رآهم تنحى فتبعوه ففهم مرادهم وأنهم أرادوا قتله. فأركض فرسه لناحية السلطان فأخبره خبرهم وهو على قنطرة الرصيف، فرجع على طريق جامع الحوت على جزاء ابن عامر وخرج على باب الحديد ولم يزر مولانا إدريس، ودخل لفاس الجديد ولم يعلم أحد سبب رجوعه عن الزيارة الى أن شاع ذلك وطلع أعيان فاس وعلماؤهم وأشرافهم ببيعتهم فدفعوها له واعتذر بعض

---

(1) مابين العلامتين سقط من (ف)

(2) مابين العلامتين سقط من (ف).

الفقهاء بأن ذلك الواقع من السفهاء في شأن حمدون الروسي فأعرض عن ذلك وسكت وأمر أهل فاس بتقويم الحركة معه على العادة فعين خمسمائة من الرماة توجهت معه لمكناسة، ولما بلغ مكناسة قدم عليه أهل الديوان وقواد القبائل والوفود وفرق الراتب ولم يحرم أحدا غير أهل فاس لم يعطهم شيئا الى أن حضر العبيد وقدم العيادون من فاس بهديتهم لحضور العيد، وخرج السلطان للمصلى، وركبت القبائل والعساكر وحضروا صلاة العيد، ولما رجع فرق المال على كل من حضر عدا أهل فاس، وفي الغد أمر بحضور أهل فاس للمشور، فلما خرج وقفوا بين يديه فقال لهم : يا أهل فاس كاتبوا إخوانكم يسلمون لنا البساتين والقصابي فإنها للمخزن ومن وظائفه، فإن أبوا فإني أهدم عليهم تلك القرية، فأجابوه بالسمع والطاعة ورجعوا لرحالهم، ولما جن الليل ركبوا وهربوا وباتوا سائرين وأصبحوا على باب فاس فأبلغوا الخبر الى إخوانهم فاجتمع الأعيان والأشراف والعلماء للنظر فيما يقع به الائتلاف وأخرجوا نسخة بيعته وشروط ولايته، وقالوا ما على هذا الفعل بايعناه، ولا لهذا الجور قلدناه، فاشهدوا أننا خلعناه، وكانت هذه البيعة من إنشاء الفقيه النبيه العلامة الوجيه الذي ولاه السلطان مولانا اسماعيل القضاء، ووجهه مع مولاي أحمد الذهبي لتادلة لما خلفه بها، وهو القاضي السيد إدريس بن المهدي المشاط المنافي المرفوع نسبه الى عبد مناف، بيت كبير وشرف قرشي شهير، ونصها :

الحمد لله الذي جعل العدل صلاحا للملك والرعية والعباد، كما جعل الجور هلاكا للحرث ‹والماشية›(3) والبلاد، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائر ما هو معلوم له يوم المعاد، وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين الجائرين في العذاب والحسرات والأنكاد، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد، وأصلح ما أظهره الجائر في الأرض من الفساد، نحمده أن تفضل علينا بإمام عادل، ونشكره أن حكم فينا من لا يصغي ‹في الحق›(4) لقول عادل، فولى علينا الخليفة من نسل الشفيع يوم التناد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي لا يسأل عما يفعل يؤتى الملك(5) من يشاء وينزع الملك ممن

(3) مابين العلامتين سقط من (ف)

(4) مابين العلامتين سقط من (ف)

(5) في (ف) (الحكمة)

يشاء في أي وقت شاء وأراد، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله <الشفيع في أمته يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يقبل من القاسطين فداء بطريف ولا تلاد>(6) صلى الله عليه وعلى آله الذين أظهروا الشريعة ومحوا الظلم محو المداد، أما بعد حمد الله الذي أمر بطاعة أولي الأمر، ووعد من نصر دينه بالظفر والنصر، فقال عليه الصلاة والسلام : {من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية}(7) وفي "صحيح مسلم" عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : {من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاضربوا عنقه بالسيف كائنا من كان} وفي "صحيح مسلم" أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : {من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، وأراد أن يفرق جماعتكم فاقتلوه} وفي "صحيح البخاري" عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {من كره من أميره شيئا فليصبر فإن من خرج عن السلطان شبرا مات ميتة جاهلية} وفيه أيضا عن أبي هريرة أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : {من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني} قال الإمام مولانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابن عقبة : لعلك لا تلقاني بعد اليوم، فعليك بالطاعة لله تعالى، والسمع والطاعة للأمير وإن عبدا حبشيا، واتفق أئمة الدين على أن نصب الإمام واجب على المسلمين وإن كان من فروض الكفاية كما أن القيام بذلك من الواجبات، كما دلت عليه نصوص الأئمة والآيات، وقيل :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ولما كان من <أمر>(8) الله سبحانه ما أراده وقدره، وقبض خليفته وأقبره، دهش المسلمون وخافوا من توالي الشرور والفتن فتوجهوا له سبحانه أن يغمد عنهم السيوف، وطلبوا من فضله المعهود أن يصرف عنهم صروف المحن والخسوف، فأجاب الكريم الدعوات، ونفس الهموم والكربات، ونشر رحمته، وأزاح نقمته، فصارت القلوب ناعمة بعد بؤسها، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها، والشرور والفتن قد أدبرت، وأعلام الأمن

---

(6) ما بين علامتين سقط من (ف)

(7) الحديث في صحيح مسلم «عن ابن عمر رفعه من خلع يدا من طاعة لقي الله ولا حجة له» الحديث.

(8) ما بين العلامتين سقط من (ف)

والأمان والعافية قد أقبلت، فوفق الله جيوش المسلمين للأعمال المرضية، وألهمهم لما فيه صلاح الدنيا والدين والراعي والرعية، فاقتضى نظرهم السديد، ورأيهم المبارك الرشيد، على بيعة من في أفق السعادة قد طلع، وظهر في سماء المعالي بدره وارتفع، الإمام الهمام، العلوي الهاشمي العدل في الأحكام ‹الموصوف بالكرم والشجاعة والحزم والزعامة المتواضع لله›(9) المتوكل في جميع أموره على الله، أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن الشريف الجليل، الماجد الأصيل، أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف ‹فبايعوه›(10) أعزه الله على كتاب الله وسنة الرسول، وإقامة العدل الذي هو غاية المأمول، بيعة التزمتها القلوب والألسنة، وسعت إليها الأقدام والرؤوس خاضعة مذعنة، لا يخرجون له عن طاعة، ولا ينحرفون عن مهيع الجماعة أشهدوا على أنفسهم عالم الطويات، المطلع على جميع الخفيات اننا بايعناك وقلدناك لتسير فينا بالعدل والرفق، والوفاء والصدق، وتحكم بيننا بالحق، كما قال الله تعالى لنبيه داوود في محكم وحيه {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق} وقال تعالى وقوله الحق : {ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما} وقال تعالى {ولا تكن للخائنين خصيما} وهذه الرعاية تطلب لربها أن يعين مالكها ويساعده، ويقذف الرعب في قلب من يعانده، وأن يفتح له ما عسر على غيره، ويمده بعزيز نصره، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وبيده القوة والحول نعم المولى ونعم النصير، شهد على نفسه ومن معه العبد الفقير، المذنب الحقير، مُمليها وكاتبها إدريس بن المهدي المشاط(11) بمحضر فلان وفلان، وجمهور الفقهاء والأعيان، في يوم الاثنين سابع صفر عام ‹واحد›(12) وأربعين ومائة وألف انتهى.

هذه البيعة نقلها صاحب البستان نقلناها تتميما للأخبار، وإلا فهي كما يرى باردة المزاج مهلهلة الانتساج(13).

---

(9) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(10) ما بين العلامتين سقط من (ف)

(11) المشاط من بني المشاط من بيوتات فاس المشهورين بالحضارة والعلم «كان من العلماء المومنين ولاه المولى اسماعيل القضاء» ووجهه مع ولده احمد الذهبي خلفه بتادلة «وهو عربي قرشي منافي من بني عبد مناف» لم اقف على وفاته عند احد ذكره في تاريخه.

(12) ما بين العلامتين سقط من (ف) وقوله : سابع صفر، تبع فيه الزياني صاحب والترجمان «وفيه نظر. والصحيح ما عند صاحب» الاستقصا « من كونه سابع رمضان، لأنه قدم وأن موت أحمد الذهبي كان رابع شعبان والبيعة لم تكتب الا بعد موته، وقد نص ابن زيدان في «الاتحاف» على تصحيح هذا الغلط.

(13) في (ف) (الانتاج)

ولما وقع ما تقدم من أهل فاس من الاتفاق على عدم التمكين من القصبات والبساتين، وأعلنوا بالخلاف ونادوا في المدينة : من أراد الخروج إلى بلاده فليتهيأ إلى أجل ثلاثة أيام أغلقوا الأبواب، فلما سمع السلطان بذلك تهيأ لحربهم، وجهز العساكر، وخرج في خامس عشري شوال من العام، ونزل على فاس بعساكره من كل ناحية، وسرحها للعيث وقطع الأشجار، وتخريب المباني، وإفساد الزروع والبحائر، وقطع عنهم الوادي، واستمرت العساكر تحاربهم من كل ناحية على كل باب، وفي الليل يأمر الطبجية بإرسال الكور والبمب والحجارة والصواعق المدبرة، فلا ينامون ليلا ولا يستريحون نهارا الى أن ضاق عليهم المتسع وأيسوا من الفرج، ونفدت الأقوات، وارتفعت الأسعار، وكثر الهرج، فبعثوا للسلطان في الصلح، فقال : على تسليم القصابي والبساتين، فامتنعوا وتجلدوا وعادوا الى الحرب الى أن فشلوا بالكلية، وعجزوا عن المدافعة، وعضهم اتصال الحروب، فأذعنوا بدفع القصابي والبساتين، فوقع الصلح على يد القائد محمد السلاوي بضريح مولانا إدريس، فتوجه معه الأعيان والعلماء لفاس الجديد، فأكرمهم وأعطى الشرفاء والعلماء ألف دينار، وكسا الأعيان، وقيد عليهم الحاج علي السلاوي، وفي ثاني المولد النبوي دخل القصبة وعمر أصحابه القصابي والبساتين، وافتتح علي السلاوي ‹عمله›(14) بقتل الشيخ دحمان المنجاد، فلما بلغ خبره السلطان عزله وولى على فاس البادسي ولد حمدون الروسي، ثم بعد حين قليل عزله وولى عبد النبي بن عبد الله الروسي.

وفي العام وجه السلطان ولده سيدي محمد مع أمه ‹وجدته›(15) للحج وهو دون بلوغ، ولما أراد السلطان الخروج من فاس ولى عليها حمدون الروسي، وارتحل في العشرين من ربيع الأول عام اثنين وأربعين ومائة وألف، فلما بلغ مكناسة وجد القبائل عادت الى حالها من ركوب الخيل واقتناء السلاح والعيث في الطرقات، فأمر العبيد بتجهيز الحركات لتمهيد البلاد وقصد تادلة بقصد ايت يمور الذين نزلوا بها وأضروا بأهلها لما طردهم آيت أمالوا من رأس ملوية وغلبوا عليهم نزلوا على تادلة وأوقدوها نارا

---

(14) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(15) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

وفتنة، فكثر شاكيهم على السلطان، فلما أحسوا بقدومه فروا ودخلوا لبلاد آيت اسرى فتبعهم الى أن أوقع بهم في وادي العُبَّاد وقتل منهم آلافا ونهب أموالهم، ولما رجع لتادلة قتل من أعيان‹رماة›(16) فاس عشرين، وكتب لأهل فاس يعتذر عن قتل من قتل وأمرهم بتوجيه حركة أخرى فعينوها ووجهها حمدون الروسي، ومن الغد قتل حمدون عبد الواحد بتير ومحمد بن الأشهب بباب السجن وجرهما، ومن الغد أصبح حمدون يهدم أبواب المدينة، فهدم باب المحروق وباب الفتوح وباب الجيسة وباب بني مسافر وباب الحديد وحمل دفوفها لفاس الجديد، وفي أول يوم من المحرم عام ثلاثة وأربعين ومائة وألف شرع في هدم سور المدينة، ثم ورد كتاب السلطان بالعفو عن أهل فاس فهرب حمدون لزرهون ورجع السلطان من تادلة.

وفي هذا العام حرك السلطان لسوس فمهده ورجع، وفيه بنى باب منصور العلج وأكمل سور القصبة وأمر النصارى والشعابينة (*)أن يهدموا مدينة الرياض التي فيها أخواله الوداية، وفيها دور العمال والقواد والكتاب وأعيان دولة والده مولانا إسماعيل ركب عند الفجر وأشرف على كدية وأمر بالهدم من كل ناحية والناس نيام لا علم لهم، فمن بادر وحمل رزقه نجا، ومن لا معين له أو تراخى بقي متاعه تحت الردم، وارتحل الوداية لفاس الجديد مع إخوانهم، وتفرق غيرهم بالمدينة، وكانت مدينة الرياض زينة مكناسة وبهجتها، وفيها آثار أهل الدولة الاسماعلية كل من كان له وظيف بخدمتها بنى بها، وتنافس العمال في بناء القصور والدور، فقد كان بدار على ويشي أربعة وعشرون حلقة يجمعها باب واحد، وكذا دار عبد الله الروسي وأولاده، بل هي أعظم حضارة وضخامة كأنها حومة ‹وأمثالهما من القواد وبنى كل عامل مسجدا في حومته›(17) وبوسطها المسجد الأعظم السلطاني ومدرسته وحمامه وفندقه وأسواقه المحبسة عليه، وكل ذلك أتى عليه الهدم والإتلاف والفساد والافساد، وكانت تباع بها البضائع وتساق إليها التجارات أكثر من غيرها لأنها محل النفاد والإنفاق، فما مضت عليها نحو عشرة أيام إلا وقد صارت كدية تراب، ولم يبق بها إلا

(16) ما بين العلامتين ساقط من (ف)

(*) في الأصل «الشعابنية» وفي (ف) «الشعبانية».

(17) ما بين العلامتين ساقط من (م)

الأسوار والجدرات قائمة.

وفي هذا العام قتل السلطان موسى الجراري وثلاثمائة من أصحابه ‹قدموا عليه من الحركة ثم قتل بعدهم ثلاثمائة من المجاهدين أهل الريف› (18) قدموا عليه بهدية الباشا أحمد بن علي، فكان قتله لهم سبب نفور أحمد بن علي عنه وإيقاده نار الفتن وفساد دولته كما يأتي، وفيه قتل مائتين من حجاوة على دعوى قطع الطريق ببلادهم، حتى إنه لما قتل هؤلاء القوم خرج لمحل قتلهم فوجد البطالين والنظارين مجتمعين للنظر للمقتولين بباب البطيوي فاتفق خروجه على ذلك ‹الباب›(19).

فلما رآهم مجتمعين قصد نحوهم، فلما رأوه فروا إلى كهف هناك قريب من ذلك المحل ودخلوه وهو يراهم، فوقف على باب الكهف وكان بقربه ردان من الأحجار للبناء فأمر المسخرين بوضع السلاح وسد باب الكهف بذلك الحجر والتراب، ومات ذلك الجمع الكثير غما ولم يوقف لهم على خبر ولا عرف لهم عدد، ولما صدر منه هذا الفعل الشنيع كتب له أهل الديوان من مشرع الرمل ينكرون عليه قتله للمسلمين دون سبب ولا موجب، فوجه لهم الراتب وأمرهم بالحركة لفازاز، وعلى هذه الحالة السيئة كان القاهر العباسي، قيل إنه كانت له حربة إذا حملها لا يضعها حتى يقتل بها إنسانا فأخذه الجند وخلعوه وسملوا عينيه بالنار ونهبوا متاعه، وكان يقف بالمسجد يوم الجمعة يتكفف الناس ويقول أنا من عرفتم فتصدقوا علي، والعياذ بالله من سلب نعمته وفجأة نقمته، وفي هذا العام وجه السلطان محمد وعلي عاملا على فاس وأمره بقبض المال ورميه بوادي أبي الخراريب ولايتركه لهم، وقال له إنه ما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا بالمملكة، ثم جاء لفاس ونزل بدار أبي علي بالمعادي وعين نقيبا من كل حومة عارفا بأهل اليسار فجمعوهم له إلى أن كانوا بين يديه فأمر بسجنهم ووظف عليه أولا خمس مائة ألف مثقال ووزعها على التجار وأهل اليسار ‹درن غيرهم من العشرة آلاف على الواحد الى الألف واشتغل بالقبض ومن تراخى بالدفع يضرب ومن تغيب من أهل اليسار›(20) قبض ولده أو أخوه أو زوجته، فلما استوفى ذلك العدد رجع إلى أهل الحرف والأصول والبطالين

---

(18) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(19) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(20) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

من الألف الى المائة حتى لم يبق من المدينة أحد بلا غرم، ففر الناس للبوادي والقرى والجبال ومنهم من قصد تونس ومصر والشام والسودان ولم يبق بفاس إلا النساء والذرية الذين لا ولي لهم، والعميان وأهل العاهات، ثم إن الذين كانوا بالسجن لما خرجوا منه فروا وتركوا الأولاد، وأقام بفاس سنة وشهرا، وكلما قبض مالا وجهه لمكناسة، وفي ستة وأربعين ومائة وألف وجه محلة من العبيد وفيها خمسة عشر ألفا من الخيل قائدهم قاسم بن ريسون وثلاثة آلاف من الوداية عليها القائد عبد الملك بوشفرة بجبل آيت أومالوا، فلما قطعت المحلة وادي أم الربيع على قنطرة البروج ونزلت ادخسان فرت البرابرة امامهم للجبال مكيدة فتبعوهم إلى أن توغلوا في الجبال وبعث البربر ‹بالليل›(21) من سد الثنايا التي دخلوا منها بأشجار الأرز والأحجار فلما أصبحوا ‹هجموا›(22) عليهم بالحرب من كل ناحية إلى أن هزموهم ورجعوا على طريقهم فوجدوا الثنايا مسدودة وازدحموا عليها فترجلوا وتركوا الخيل والمتاع والأبنية والأثقال فنهب ‹البربر›(23) جميع ذلك وجردوا العساكر ولم يقتلوا أحدا ورجعوا لمكناسة ملبين، فكان هذا سبب بغض العبيد للسلطان ‹مع إسرافه في قتل رؤسائهم فأعطاهم مالا لكسوتهم ووعدهم باخلاف ما ضاع ورجعوا لمشرع الرمل، وفي سبعة وأربعين ومائة وألف فسد مابينه وبين العبيد›(24) لإسرافه في القتل حتى كاد أن يأتي على عظمائهم وذلك لسبب قتلهم لأخيه مولاي عبد الملك، فكل من حضر منهم قتله أو وافق على قتله، وبلغ عدد من قتل أزيد من عشرة الاف، فاتفقوا على قبضه وقتله، فأنذره بعضهم فهرب ليلا وأصبح في حلة آيت دراسن ففرحوا به وأكرموه وتوجهوا معه إلى أن بلغوا تادلة ومنها إلى مراكش، ومنها إلى سوس، ومنها لوادي نول فنزل على أخواله المغافرة، وكان معه ولده سيدي محمد السلطان صغيرا دون بلوغ، وولده مولاي أحمد بالغا وأقام عندهم ثلاثة أيام(25) وأما محمد وعلي فإنه لما بلغه فرار السلطان خرج من فاس ليلا وأصبح بزرهون ونجا لسبيله.

---

(21) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(22) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(23) ما بين العلامتين ساقط من (ل)

(24) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(25) في (م) (أعوام) بدل (أيام)

الراية السابعة من اللواء الأعظم، من الجيش العرمرم في دولة مولاي علي الأعرج بن مولانا إسماعيل وهي راية قصيرة متلاشية شاحبة اللون ‹ليس لها من الله تاييد ولا عون›(1)

لما هرب السلطان مولانا عبد الله اجتمع عبيد الديوان واتفقوا على بيعة مولاي علي بن مولانا إسماعيل، فبايعوه وكتبوا له ووجهوا الخيل لتأتي به من سجلماسة، فلما بلغ صفرو تلقاه أعيان أهل فاس وعلماؤهم وأشرافهم فبايعوه وفرح بهم وأكرمهم وقدم معهم لفاس الجديد فولى عليهم مسعودا الروسي في ربيع عام سبعة وأربعين ومائة وألف، وكان هذا السلطان مولاي علي رجلا حليما عاقلا متوقفا عن سفك الدماء، فستره الله ولم يفتضح في موقف، ولما ولى عليهم مسعودا المذكور أمره ألا يقبض إلا الهدية والزكاة والأعشار الشرعية، ولما بلغ مكناسة بايعه الجيش البيعة العامة وقدمت عليه الوفود من جميع البلدان ببيعاتهم وهداياهم، وفرق المال على الجيش، ثم لما نفد ماعنده قبض على السيدة خناثة أم مولانا عبد الله وسجنها إلى أن يأخذ ماعندها وامتحنها لتقر بالمال فلم يحصل على طائل منها، وهذه السيدة هي أم السلاطين أعزهم الله، وكانت صالحة عابدة ‹عالمة›(2) حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار، وقد رأيت خطها على هامش الإصابة لابن حجر وعرف به من عرفه وقال هذا خط السيدة خناثة أم السلطان مولانا عبد الله بلا شك انتهى ثم إن مسعود الروسي قتل الحاج ‹أحمد›(3) بودي رئيس اللمطيين وأمرهم بجره لباب الفتوح إذ كان هو الذي سعى في قتل أخيه أبي علي لما مات مولانا اسماعيل، فاجتمع أهل فاس وحملوا السلاح وتوجهوا لقتل مسعود فهرب فكسروا السجن وأخرجوا المساجين وقتلوا الحراس، فلما بلغ الخبر الى السلطان أعرض عنهم ووجه لهم القائد غانم الحاجي مع أخيه مولاي المهتدي وقال لهم في كتابه إني عزلت عنكم مسعودا الروسي ووليت عليكم غانم الحاجي

---

(1) مابين العلامتين ساقط من (ف)

(2) مابين العلامتين ساقط من (ف)

(3) مابين العلامتين ساقط من (ف).

فلم يقبلوه ورجع من الغد ووجهوا مع مولاي المهتدي جماعة من العلماء والأعيان بهدية كبيرة، فلما اجتمعوا به قبض هديتهم وعدد عليهم أفعالهم وما ارتكبوه وأمر بسجنهم، فلما بلغ الخبر لفاس أغلقوا أبواب المدينة وأعلنوا بالخلاف وقتلوا أصحاب مسعود الروسي ومن كان له اتصال به، ووقع الشر ‹مع الوداية›(4) من كل ناحية، وفي رمضان قدم القائد عبد الله الحمري من قواد العبيد واجتمع بأهل فاس واعتذر عن السلطان وأمرهم بتوجيه الهدية والشرفاء والعلماء، وكتب للسلطان يعتذر عنهم فتلقاهم بالتهديد والتشديد، ثم سامحهم وسرح لهم إخوانهم وولى عليهم عبد الله الحمري، وفي عام ثمانية وأربعين ومائة وألف ولى عليهم عبد الله بن الاشقر واشتغل بتجهيز العساكر لآيت أومالو في خاطر العبيد ليأخذوا بثأرهم وخرج بهم في محرم تسعة وأربعين ومائة وألف، فلما أحسوا بإقباله إليهم أظهروا الفرار أمامه وهو ينزل في منازلهم ويتبع آثارهم إلى أن قطعوا وادي أم الربيع وتوغلوا في الجبال فكروا عليهم وانقضوا من كل ناحية من الثنايا والشعاب وأحاطوا بهم فولوا منهزمين وازدحموا في الأوعار وتركوا الخيل والأثقال فأنزلوهم وجردوهم ولم يتعرضوا لمولانا علي في موكبه وخاصته الى أن قطع أم الربيع ورجعوا عنه ودخل مكناسة فطالبه العبيد بالكسوة والسلاح والرواتب، فلم يكن عنده ما يعطيهم، وفي ذي الحجة من العام وصل الخبر بوصول مولانا عبد الله لتادلة قدم من وادي نول فتحدث العبيد برده للملك وخالفهم سالم الدكالي الذي تسبب في عزله مع شيعته وقالوا لانعزل مولاي علي، ثم إن شيعة مولاي عبد الله تقوت علي الأخرى واتفقوا علي بيعته، فهرب سالم الدكالي ومن معه من القواد لزاوية زرهون، ولما سمع بذلك مولاي علي هرب لفاس وأراد الدخول لفاس الجديد فمنعه الوداية، فنزل بوادي سبو حتى قضى ما يحتاج إليه وتوجه لتازا ومنها للأحلاف ففرحوا به وأكرموه وصاهروه وأقام عندهم عدة أعوام معرضا عن الولاية وأسبابها إلى أن رجع لمكناسة بأمر أخيه السلطان مولانا عبد الله لما قدم عليه بدار دبيبغ وأعطاه مالا ووجهه لداره بمكناسة وأعطاه المكس وأجنة المخزن وأرض المخزن، ثم إن العبيد قبضوا عليه ووجهوه له وقالوا هذا أفسد علينا بلادنا فسرحه ووجهه لتافلالت إلى أن مات بها رحمه الله تعالى.

---

(4) مابين العلامتين ساقط من (م).

الدولة الثانية لمولانا عبد الله

لما فر مولاي علي من مكناسة بايع العبيد مولانا عبد الله وبايعه الوداية وأهل فاس وجميع القبائل، ثم بعد ذلك كتب سالم الدكالي من زرهون لأهل فاس يقول لهم إن الديوان اتفق على عزل مولاي عبد الله، وبيعة سيدي محمد بن اسماعيل والمشورة لعلمائكم فأجابوه وقالوا نحن تبع لكم، فلما سمع أهل الديوان ذلك خرجوا من المحلة وتوجهوا لزرهون وقبضوا علي سالم الدكالي ومن معه من القواد ووجهوهم لمولاي عبد الله بتادلة فاستفتى فيهم القاضي أبا عنان(5) كان معه فأفتى بقتلهم فقتلوا، وبلغ الخبر سيدي محمد بن عربية وهو <بتافلالت>(6) وظن بأن ذلك صحيح فقدم للغرب فلما بلغ صفرو وجد الناس بايعوا مولاي عبد الله فسقط في يده فقدم لفاس خفية واختفى عند الشيخ البركة سيدي عبد الرحمان الشامي(7) بداره كان صاحبه ويعتقده ويعده بالملك، ولما بويع مولانا عبد الله هذه البيعة الثانية توجه إليه أعيان أهل فاس وأشرافهم وعلماؤهم فوجدوه بقصبة أبي فكران ولما وقفوا بين يديه وبخهم وهددهم وقبض على من كان هناك من أعيانهم فقتلهم وفعل مثل ذلك من أعيان أهل مكناسة واستباح حرماتهم وعزل قاضيهم أبا القاسم العميري، ورجع الأشراف والعلماء لفاس وولي عليهم محمد وعلي ويشي وبقي بالقصبة ولم يدخل لفاس خوفا على نفسه، واشتغل الوداية بنهب الطرقات فأغاروا على سرح فاس كله ولم يتركوا بقرا ولا غنما ولا بهائم، ونهبوا كل مادخل لسوق الخميس، ولما وقع ذلك اتفق أهل فاس وتحالفوا على بيعة سيدي محمد ابن اسماعيل ومخالفة مولاي عبد الله وذلك عام خمسين ومائة وألف.

---

(5) أبوعنان اثنان كلاهما كان قاضيا على عهدي عبد الله1 عبد الواحد الصغير بن علي ت سنة 1151هـ 1738م و2، يوسف بن الطالب بن عبد الواحد البوعناني "ت سنة 1153هـ 1740م. ولا ادري من هو صاحب النشرى المذكورة" ويغلب على الظن انه القاضي يوسف لملازمته للمولى عبد الله ملازمة الظل للشمس "انظر السلوة العلوي" ج 1 ص 201" وفي انساب الشريف أبي عبد الله محمد الزكي بن هاشم توفي سنة 1270هـ 1853م مخطوط خاص.

(6) مابين العلامتين ساقط من (م).

(7) "ابو زيد عبد الرحمان الشامي الخزرجي من بني الشاميين الخزرجيين الفاسيين" وفي الدرر البهية أنهم يرفعون نسبهم الى سعد بن عبادة الخزرجي "وفي السلوة قال انه لم يعثر على تحقيق وفاته الا أنه كان حيا عام 1150هـ 1737م" قال والغالب أن وفاته في أواخر هذا القرن سلوة" ج 3 ص 20 من آخر ترجمته.

الراية الثامنة من اللواء الأعظم من الجيش العرمرم في دولة سيدي محمد بن اسماعيل وهي راية قصيرة مخرقة اسمال مهجورة الاستعمال

لما خالف أهل فاس على السلطان مولانا عبد الله أخرجوا سيدي محمد بن عربية من دار الشيخ ولي الله تعالى سيدي عبد الرحمان الشامي وتعاهدوا معه وقوموا كلما يحتاج إليه من خيل وسلاح حرب وبايعوه في عاشر جمادى الأولى عام خمسين ومائة وألف، وكتبت بيعته في خامس عشر من الشهر المذكور وكتب عليها الفقهاء وامتنع بعضهم وقالوا بيعة مولانا عبد الله لازالت في الأعناق فعزلوا عن الخطط وامتحنوا، وكتب أهل فاس للعبيد بالديوان يعرفونهم بما فعلوا ويطلبون موافقتهم، فأجابوهم بالموافقة وبايعوا ابن عربية، وفر السلطان مولاي عبد الله لجبل البربر وأقام عندهم وفتحت أبواب فاس ودخل السلطان سيدي محمد فاس الجديد، ومن الغد توجه لمكناسة وبايعه العبيد بيعة عامة وقدم عليه الوفود بهداياهم، وفرق على العبيد ماعنده من المال، فلم يقنعهم ذلك وأطلق أيدي النهب في المسلمين، واشتغل هو بنهب الزروع من دور أهل مكناس والبحث عنه في الأهرية والمطامير ومن ذكر له أنه عنده زرع يقبضه إلى أن يظهر ماعنده وكل من أتى بزرع من أهل البادية يؤخذ منه فكثر الهرج والفتنة وفر الناس من المدينة وعم الانتهاب من خارجها، وانقطعت السبل، ثم إن السلطان مولاي عبد الله الذي فر للبرابر جاء ليلة ودخل الإسطبل مع أصحابه وقتل من وجد من العبيد، وحرق نوائلهم ‹ولما بلغ الخبر سيدي محمد› أمر الخيل أن تركب وخرج وقصد السلطان مولانا عبد الله للحاجب›(1) فلما رأى العساكر مقبلة هرب وترك أبنيته ومحلته فنهبها العبيد وتبعوه إلى أن توغل في الجبل ولم يقفوا له على أثر، ولما بلغوا ملوية رجعوا فاعترضهم البربر فحاربوهم وهزموهم وأخذوا أثقالهم ولما بلغوا صفرو وجه ابن عربية لأهل مزادغ وأهل تلك القرى المستضعفين وأمر بقطع رؤوسهم وتوجيهها لفاس يوهم أنها رؤوس البرابر، ووجه أخاه مولاي الوليد لفاس وأمره بقبض

(1) مابين العلامتين سقط من (ف).

الأموال من أشراف فاس فمن أعطى يجلس ومن أبى يخرجونه للحركة فتحير الناس، ولما قدم لفاس قبض على الحاج بوجيدة برادة وكان مثريا وقتله وأخذ أمواله ‹وباع أصوله، ثم قبض على عبد الخالق عديل فأخذ أمواله›(2) ثم تسلط على أهل الزوايا وكل من ذكر أنه من أهل اليسار إلى أن أكمل غرضه، وتوجه لمكناسة ففعل بأهلها كذلك حتى لم يسلم منه أحدٌ. والناس في محنة عظيمة من المجاعة والفتنة ونهب الديار ليلا لا ينام أحد من أهل اليسار، ورجع كل الناس لصوصا والوداية يعيثون في أطراف المدينة والأجنة ويغيرون على القصارين(3) بوادي فاس وبعد أن صاروا يقصرون الكتان بمصمودة أخذوه لهم وأخذوا القفل من الفنادق والسلطان معرض عن جميع ذلك لايلتفت إليه، وقد مات من الجوع عدد لايحصى وأخبر صاحب المارستان أنه كفن في رجب وشعبان ورمضان ثمانين ألفا وكذا دون من يكفنه أهله، وبالجملة فأيام سيدي محمد بن عربية أيام نحس ووبال على المسلمين، وكذلك أيام المستضيئ الذي يساق إليه الحديث، وفي رابع عشري صفر عام واحد وخمسين ومائة وألف قبض العبيد على سيدي محمد بن عربية وقائده على فاس الشريف عبد المجيد المشاوي وسمروا عليهما أكبالا ووجهوا الخيل لتأتي بمولاي المستضيء بتافلالت وأخوجوا بن عربية وعياله من دار الملك وأنزلوه بداره التي على وادي وسلان بجنان حمرية ورتب له العبيد من يحرسه إلى أن يأتي مولاي المستضيء.

(2) مابين العلامتين سقط من (م).

(3) في (ف) : (القاصرين) وهو تحريف صوابه ما في الأصل وفي مصباح الفيومي ما نصه : "وقصرت الثوب قصرا بيضته والقصارة بالكسر الصناعة والفاعل قصار".

الراية التاسعة من اللواء الأعظم من الجيش العرمرم في دولة مولاي المستضيء ابن مولاي اسماعيل وهي راية غبراء، واهية سيئة الماهية

لما قبض العبيد على سيدي محمد بن عربية بايعوا مولاي المستضيئ وكتبوا بيعته للآفاق، ولما بلغ صفروا لقيه أعيان فاس وشرفاؤهم وعلماؤهم ببيعتهم، وقدموا معه لفاس الجديد فولى عليهم القائد أحمد القعيدي والحال ماحال، والظلم ما استحال، وولى عليهم القعيدي خليفته شعشوع اليازغي، وتوجه السلطان لمكناسة، ولما بلغها بايعه العبيد البيعة العامة، ووردت عليه القبائل بهداياهم، ثم وجه أمره لفاس الجديد أن يحضر أعيان فاس لقراءة كتابه ففروا ولم يحضر منهم إلا نحو العشرين فقبضوا وسجنوا بفاس الجديد، ووظف عليهم مالا كثيرا لايقومون به، ثم وجه لفاس سيدي محمد بن عربية مكبلا يتوجه لسجلماسة يسجن بها، ووجه قائده الشريف عبد المجيد المشامري والشيخ عبد الرحمان الشامي يسجنان بفاس الجديد، ونهبت دار المشامري وعذب إلي أن مات تحت العذاب ومثل به، واحتاج السلطان الى المال للعبيد فاشتغل بالبحث عما في المخازن الإسماعيلية التي لم يلتفت إليها أحد من الملوك قبله، فوقع علي خزين من الحديد وباعه، ووجد الخزين الكبير فيه آلاف من قناطير الكبريت فباعها، ووجد ملح البارود والشب والبَقَّم(1) كان يأتي ذلك من الغنائم، فباع ذلك كله، وقطع سراجب الشطرنجية وهي من نحاس مذهب والدرابيز التي عن يمينها وشمالها من الحديد من باب الرخام الى قصر مولاي يوسف، فألزم أهل الذمة بثمنها، فغرقوا، ثم أنزل المدافع النحاسية التي بالأبراج فكسرها وضربها فلوسا فما أغنى ذلك شيئا، ثم شرع هذا السلطان في القتل وسفك الدماء فقتل كذا وثمانين من بني حسن، وسلط العذاب على مساجين أهل فاس ليدفعوا المال له، فدفعوا ما قدروا عليه، ثم أمر بقبض أشراف فاس ليشتروا أصل المساجين وعذبوا إلى أن دفعوا بعض المال، ثم قبض علي الشريف العراقي الذي بجرنيز على مال أودعته عنده خناثة بنت بكار

(1) مابين العلامتين مشكل بالاصل بفتح البا، والقاف مع شده.

فضربوه فامتحنوه، ثم ولى مولاي عمر المدني على فاس ووجه خليفته ابن زيان الأعور وكلفه بقبض مال الأشراف وامتحانهم، فقدم واشتغل بالظلم الفاحش وضيق علي الشرفاء وعذبهم، وكان مولاي عمر يأمره بذلك ‹حيث نهبت داره أيام ابن عريبة ولم يتكلم عليها أهل فاس فصار ينتقم منهم بذلك›(2) ثم أمر مولاي المستضيئ بقبض ابن زيان ويطاف به علي حمار وهو يقول هذا جزاء من يضر بالشرفاء، ففعل به ذلك وقطع رأسه وعلق بباب المحروق، وبقي الأشراف في العذاب ثم أمر بمساجين أهل فاس فتوجهوا له في السلاسل والأغلال فقتلوا بباب القصبة كلهم، وأمر بإخراج ولد مامي من ضريح مولانا إدريس فلما بلغه قتله، وأسرف في القتل والظلم وأراد أن يتشبه بأخيه مولاي عبد الله الذي جرد السيف وبسط الكف وغطى سخاؤه كل عيب، هذا كان وصف مولانا عبد الله، وأما مولاي المستضي، فإنه كان ظلوما بخيلا سفاكا للدماء، فهو شر كله، وأما مولانا عبد الله فإنه خير وشر، والحسنات يذهبن السيئات، وكان مولاي المستضيء مهزوم الراية حيثما توجه، غير مبارك الغرة، ثم خرج لحركة فازاز معه العبيد والوداية ‹وأهل فاس›(3) فرجع مهزوما يحمد الله على سلامة مهجته وصحة دماغه، فكتب لأهل فاس أن يزينوا المدينة كأنه غلب فتزينت، ثم بعد أيام زينت لصحته، ثم قتل القائد غانم الحاجي والقائد سعدون قائد مكناسة وستة من أولاد الراتمي أصحاب السجن، ثم إن السلطان مولاي عبد الله الذي عند البرابر أمرهم بنهب الوداية والطرقات فمدوا أيديهم في ذلك وانقطعت السبل، وكان مولاي زين العابدين مسجونا عند مولاي المستضئ، فأمر بإخراجه وضربه بين يديه وامتحنه الى أن أشرف على الموت وبعث به مقيدا لتافلالت مع شرفائها، فبعث العبيد من رده وسرحوه ووجهوه لبني يازغة للقائد أحمد القعيدي وأمروه أن يتركه عنده مسرحا، وفي أثناء ذلك ورد الخبر بأن أحمد بن علي الريفي(4) دخل تطوان ونهبها وقتل من أعيانها نحو الثمانية وهدم أسوارها ووظف على أهلها مالا عظيما بأمر مولاي المستضئ وحيث لم يقبلوا ولايته عليهم، وكان حرك لهم في أيام مولاي أحمد الذهبي وهزموه. فوشى بهم لمولاي

---

(2) ما بين العلامتين سقط من (م)

(3) ما بين القوسين سقط من (ف)

(4) في (ف) (مولاي علي) بدل (احمد بن علي)

المستضيء وقال إنهم شقوا العصا وخالفوا فأمره بالفتك بهم، والسبب الحقيقي الذي حمل أحمد بن علي على ذلك منازعته مع أمير تطوان الفقيه عمر الوقاش(5) الذي ولاه السلطان مولانا إسماعيل حكومة تطوان وكان كاتبا معه، ولما كبر سنه ولاه على إخوانه، وكان الوقاش على أدبه طائش العقل مختل المزاج، ولما حرك لهم أحمد بن علي أيام مولاي أحمد ودخل تطوان على غرة من أهلها وتداركوا أمرهم وحاربوه مع الوقاش أميرهم الى أن أخرجوه وقتلوا من إخوانه عددا كثيرا فكان أحمد بن علي يتربص بهم الدوائر مع ما وصفه به الوقاش ووصف به إخوانه أهل الريف حيث هجاهم هجوا مهلهل البناء مكسوف السنا، وذلك مما يدل على سخافة عقله، من ذلك قولـــــه :

بلغت من العلياء ما كنت أرتجي	وأيامنا طابت وغنى بها الطير
ونادي البشير مفصحا ومصرحا	هلم أبا حفص فأنت لها البدر
نهضت مجيبا للندا راقصا بها	وما راعني إذ ذاك زيد ولا عمرو
شرعت بحمده الله للملك طالبا	وقلت وللمولى المحامد والشكر
أنا عمر المذكور إن كنت جاهلي	فسل تجد التقديم لي ولا فخر
ظهرت لأحمي الدين بعد اندراسه	<فطوبى لمن أمسى يحادي له الأمر>
<ولم يبق ملك مستقر بغر بنا>(6)	وعندي انتهى العلم المبرح والسـر
أنا عمر المذكور في كل غمرة	أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت البلاد وانتهيت لغيرها	وعما قريب يعظم الجاه والقدر
فغر طوط والرحمون والقوط عصبتي	<وراغون كنزي والصغير به الظفر>
<أولئك أنصاري وأرباب دولتي>(7)	وأهلي وأنصاري هم الأنجم الزهر

إلى أ ن قال غير مستحي بسخيف المقال :

وجئت بعدل للعمرين تابعـا	أنا الثالث المذكور بعدهما وتر
فـمن ذا يضـاهيني ومـالي(8) وافـر	وذكري معمور به البر والبحر

(5) الوقاش الحاج عمر بن الحاج عبد السلام الوقاش به اشتهر، ويعرف بلوقش بفتح القاف وأصله لوكس اسم لعائلة أندلسية من بقية ملوك بني أمية سموا باسم حصن من حصونها قال في الاتحاف ج 5 ص 489، كذا في عمدة الراوي لأبي العباس احمد بن محمد الرهوني التطواني وقال توفي سنة 1156، ورده صديقنا الأستاذ محمد داود مؤرخ تطوان بأن وفاته سنة 1149هـ-1736م. وبالجملة فقصة الوقاش تعرف من التاريخ، النشر ج4، ص24. 2 ، الزياني في بستانه وروضته.3، الجيش العرمرم.4، الدور المنتخب لابن الحاج .5، الاستقصا.، 6، الاتحاف لمؤرخ الدولة ابن زيدان .7، تاريخ تطوان للفقيه الاستاذ مؤرخ تطوان مجلد 2 .3 فصل ترجمته حسب بغية الباحث.

(6) مابين العلامتين سقط من (م).

(7) مابين العلامتين سقط من (م).

(8) في (ف) (وليس) بدله (مالي).

ويعد هذا من الهذيان الدال على الحماقة، والسكر الذي لم تعقبه الإفاقة، ما لا يمكن ذكره، ولا يجحد نكره، وقد أجابه السيد محمد بن بجة الريفي[9] العرائشي بكلام على رويه وصفته حذو النعل بالنعل، فلا تسود بها الصحيفة[10] ولا تدنس بمثله الحضرة الشريفة، وإنما ذكرنا ما تقدم لأنه من التعجب بمكان، وفي رابع عشر ذي القعدة عام اثنين وخمسين ومائة وألف بلغ مولاي المستضئ أن العبيد أرادوا عزله وبيعة مولانا عبد الله فخرج من مكناسة بقصد زيارة مولانا عبد السلام رضي الله عنه، فتبعه السلطان مولانا عبد الله والعبيد فتحاربوا معه فهزمهم ورجعوا عنه، وتوجه لنواحي طنجة فأقام بها نحو شهرين، وتوجه لمراكش لأنهم كانوا بايعوه، وكان أخوه مولاي الناصر خليفة بها، ولما دخلها وجه لقبائل الحوز يستصرخهم على أخيه مولانا عبد الله ويتوجهون معه فلم يجيبوه الى ما طلبه لأن عبدة والرحامنة وأهل سوس شيعة السلطان مولاي عبد الله، ولم يبق معه إلا دكالة أخواله، وبنو حسن من عرب اليمن، فأقام بمراكش الى عام خمسة وخمسين ومائة وألف، فاتفق العبيد على بيعة مولاي عبد الله.

(9) محمد بن محمد بن بجه الريفي العرايشي "الذي أجاب الرقاشر علي كلامه السخيف الذي يصدر من جاهل فضلا من فاضل "وكان الجواب بدوره مثل المجاب في سخافته حسب انتقاد المؤرخين.

(10) أورد الزياني جواب بجة الريفي على شعر الرقاش في نظيم من 44 بيتاً في كتابه البستان والروضة "وأورد صاحب الاستقصاء بيتين من النظم قال بعدهما إن القصيدة طويلة الا أن قائلها لم يحكم صناعة الشعر فلذا تركناها الاستقصاء ج 4 ص 56 طبعة مصر دار الكتاب بالدار البيضاء ج 7 ص 117.

دولة مولانا عبد الله الثالثة

لما توجه مولاي المستضئ لمراكش خلعه العبيد وبايعوا مولانا عبد الله وكتبوا للوداية وأهل فاس فبايعوه وخطبوا به، وزينت المدينة، وفي الغد قدم لفاس مولاي زين العابدين الذي كان عند القعيدي ببني يازغة، وفرح ببيعة أخيه وزوال مولاي المستضئ وفراره، فتوجه لمكناسة، وفر وزير مولاي المستضئ وهو السيد علي العميري(1) أخو القاضي أبي القاسم ودخل القاضي أبو القاسم العميري للحرم ووجه أهل فاس أشرافهم وعلمائهم وأعيانهم للسلطان ببيعتهم، وتوجه معهم الحجاج والتجار والسلطان مقيم بالمزم، ووجه العبيد لفاس عبد الله الحمري قائدا بها عن أمر الديوان، وقد كثر القطاع في الطرقات واللصوص بالمدينة، وفي خامس عشر رجب عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف قدم السلطان من المزم لمكناسة وقبض على القاضي أبي القاسم العميري والسيد أحمد الشدادي(2) والعباس ابن رحال(3) والفقيه المليتي(4) وأزال عمائمهم وفضحهم، وقال لهم كيف تزوجون نسائي من أخي وأناحي، ونكلهم النكال الكبير وأمر بسجنهم، وولى على فاس شيخ الركب الحاج عبد الخالق عديل، وعلى قضائها السيد يوسف أبا عنان(5) وأمره أن يعزل القضاة والخطباء الذين خطبوا بمولاي المستضيء في البلدان كلها، وأعطى دار القاضي العميري لواحد من العبيد، وقال لهم من أراد منكم دارا يأخذها فامتدت أيدي العبيد لأهل مكناسة حتى صاروا يقفون لهم بالأبواب ويقولون سيدي أعطاني دارك وبنتك، فيفتدون منهم بالمال، وكانوا معهم في محنة ومشقة

---

(1) العميري بفتح العين نسبة لبني عمير فرقة من تادلا التادلي علامة مشارك أحد صدور علماء الدولة الإسماعيلية" ولاه السلطان وزارة الأرقاف بسائر ايالته يحاسب النظار ويسجل عليهم." واستوزره المستضيء بن المولى اسماعيل في دولته فصار سيرة حسنة توفي سنة 1150هـ 1737م الاتحاف ج 5 ص 475

(2) "الشدادي نسبة لبني شداد من القبيلة الزجلية بأعلى شفشاون، كان مع الجماعة المنكرية من قبل المولى عبد الله بن المولى إسماعيل، وفي الأتحاف ج 5 ص 544. قال وفي يوم الخميس 11 رجب عام 1153هـ 1740م. قبض السلطان عبد الله على المترجم (أي أبي القاسم العميري) بدعوى أنه مع غيره من العلماء (سيدي أحمد الشدادي) وابن العباس أحمد بن الحسن بن رحال المعدني ، وأبي العباس أحمد بن عبد الله المليتي وفضحهم على رؤوس الاشهاد وقال لهم كيف تزوجون أخي المستضيء بنسائي وهن لم يخرجن من عصمتي بوجه من الوجوه الشرعية وعفا عنهم بعد سجنهم ونكلهم النكال الكبير. النشر ج 4 ص 24، وص 77 توفي سنة 1163هـ 1749م

(3) ابن الحسن ابن رحال المعدني لم أقف على ترجمته.

(4) المليتي كذلك.

(5) ترجمه في السلوة ج 1 ص 201. قال في حقه ولي القضاء بفاس وهو ابن عشرين سنة، ولاه إياه السلطان مولاي عبد الله العلوي سنة 1153هـ وفوض له في الولاية والعزل في القضاء والأئمة والخطباء والنظار والمحتسبين ولم يذكر سنة وفاته.

لم تلحق غيرهم ومن شكا منهم يعاقب ويسجن، والسلطان مقيم بباب الريح لم يدخل القصبة التي كان بها مولاي المستضيء، وأما الوداية فلم يقدم على السلطان أحد منهم، وكذا الباشا أحمد ابن علي وأهل الريف والفحص وقبائل الجبال، فاغتم السلطان لذلك غاية، وتشفعت في الوداية أم السلطان السيدة خناثة بنت بكار، ووجهت له جماعة منهم فعفا عنهم، وفي أثر ذلك بلغ السلطان أن أحمد بن علي توجه للقصر ونواحيه، ونهب أموالا كثيرة لأهل الغرب وشيعتهم ممن ليس من حزبه، فوجه السلطان جيشا من عبيد الرمل ينزل بالقصر لحراسة الرعية، فلما سمع به أحمد بن علي فرق الراتب وتهيأ للخروج إليهم فورد عليه شرذمة من الوداية وأخرى من العبيد، فأخبروه أن المحلة رجعت لأن ذلك الوقت لم تجتمع فيه كلمة لأحد من الرعية ولا من الجيش، وكان السلطان مولانا عبد الله وجه عامله القائد أحمد القعيدي عاملاعلى جبالة والحياينة يجبي الأموال والزكوات، وكان في وسط بلاد الحياينة فعمدوا إليه وقتلوه، فلما بلغ الخبر للسلطان اغتم غما شديدا واغتاظ لأنه كان عماد دولته وركنا شديدا منها، فانحل بموته نظام الملك، وفسدت الطرقات، وكثر النهب في كل موضع، ثم إن السلطان أمر المسخرين الذين كانوا معه أن ينهبوا زروع مكناسة، فوقع من الفتن مالا يدخل تحت الحصر، وذلك عام أربعة وخمسين ومائة وألف، ووظف عليهم وظائف كثيرة من دفع المئونة له ولأصحابه وإعطاء الخدامين لباب الريح للبناء، وتشفعوا له مرارا فلم يقبل شفاعتهم، وفي ربيع الأول من العام هربت أم السلطان السيدة خناثة وخرجت من مكناسة لفاس الجديد لما سمعت أن العبيد أرادوا عزل ولدها، ومن الغد تبعها ولدها ونزل برأس الماء(6) فخرج إليه الوداية وأهل فاس وفرحوا به واستعطفهم وقال لهم أنتم جيشي وعدتي ويميني وشمالي، وأريد منكم أن تكونوا على كلمة واحدة، وعاهدهم ورجعوا، وفي أثناء ذلك بلغه أن الباشا أحمد بن عبد الله(7) وجه لعبيد الرمل واتفق معهم على خلعه وبيعة مولاي زين العابدين، وكان عنده بطنجة فأذنوا له في بيعته، فبايعوه بطنجة وتطوان وتلك الجبال وخطبوا به، ووجه معه الخيل لمكناسة فبايعوه بها في ربيع عام أربعة وخمسين ومائة وألف.

---

(6) في (ل) راس الراد.

(7) في (م) أحمد بن علي وهو الصواب.

الراية العاشرة من اللواء الأعظم من الجيش العرمرم
راية مولانا زين العابدين بن مولانا إسماعيل
وهي راية غبراء مكسورة غير مرفوعة ولا منشورة

لما قدم مولانا زين العابدين لمكناسة وبويع بها البيعة العامة، وقدمت عليه الوفود ماعدا الوداية وأهّل فاس فر السلطان مولانا عبد الله من ‹رأس الماء›(1) لبلاد البرابر، وفي نصف جمادى الأولى نزلت محلة العبيد مع سلطانهم بسيدي عميرة بقصد الحصار على فاسين وحرقوا الزرع بالأنذرو وفي غده افترقت كلمتهم وانتشر عقد رأيهم، فرحلوا بسلطانهم وكفى أهل فاس شرهم ورجعوا خائبين، فلما بلغت محلة العبيد مكناسة نهبوا خريف الأجنة، وأفسدوا ما قدروا عليه، وذهبوا للرمل، وفي سادس عشر ‹جمادي الأخير›(2) دخل السلطان مولانا عبد الله فاسا الجديدة وتلقاه الوداية وأهل فاس وخرج من يومه لدار دبيبغ، وفي النصف من رمضان وردت عليه كثيبة من الخيل وجماعة من قواد العبيد وأخبروه أن إخوانهم عزلوا مولاي زين العابدين وبايعوه، ففرح بذلك وخرج الوداية مع العبيد ولعبوا البارود على الخيل وزينت المدينة وجاء الخبر أن مولانا زين العابدين هرب من مكناسة.

الدولة الرابعة لمولانا عبد الله

لما بايعه العبيد ‹بالرمل›(3) جددت بيعته الوداية وأهل فاس والقبائل والبربر والعرب واستمر الحال على ذلك إلى آخر القعدة، فورد الخبر أن غوغة العبيد رجعوا عن بيعته وبعثوا لمولاي المستضيء لمراكش فاشتغل السلطان مولاي عبد الله بتأليف القبائل من العرب والبربر مع الوداية وأهل فاس، فتحالفوا على أنهم بدافعون عنه ويحاربون من قصده، وأنهم يموتون دونه فتم له ما أراد من ذلك، وفي تلك الأيام ورد الحاج أحمد السوسي من مراكش فتحدث أنه دعا أهل فاس سرا لمبايعة

---

(1) مابين المعلامتين سقط من (م).

(2) مابين المعلامتين سقط من (ل).

(3) مابين المعلامتين سقط من (ل).

مولاي المستضيء، فأعلموا السلطان بذلك فأمر بقتله فقتل وفي المحرم عام خمسة وخمسين ومائة وألف دخل مولاي المستضيء مكناسة ومعه السيد علي العميري وأخوه القاضي أبو القاسم وفي آخر المحرم ورد كتاب الباشا أحمد بن علي لأهل فاس يطلب منهم أن يبايعوا مخدومه مولاي المستضيء ويدخلون في زمرته، فامتنعوا من ذلك، وفي ربيع الأول من العام نزلت محلة العبيد مع مولاي المستضيء بظهر الزاوية من فاس، فهرب السلطان مولانا عبد الله من دار دبيبغ إلى آيت ادراسن، وفي الغد وقع الحرب بين الوداية وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع مات فيه من الفريقين <عدد كثير>(4) وفي ربيع الثاني ورد السلطان مولانا عبد الله بجموع البربر من آيت أمالوا وزمور وبني حكم وآيت ادراسن وجروان بعدد لا يحصيهم إلا خالقهم، وشارة من اللباس والسلاح تحزن الأعداء، وتفرح الأوداء، فلما رأى مولاي المستضيء ومن معه من العبيد جموع البربر وتحققوا أنه لا طاقة لهم بحربهم ارتحلوا ليلا ولم يصبح الا أثرهم، ففرح الناس بذلك لانفصال تلك الجنود بلا قتال، وفي سادس جمادى الأولى ماتت السيدة خناثة أم السلطان رحمها الله ودفنت بقبور الأشراف من فاس الجديد.

وفي جمادى الثانية وقعت فتنة بين الحاج عبد الخالق عديل وسيدي محمد الغالي الإدريسي، فاشتكى به عديل للسلطان فأمر بقبضه فهرب لضريح جده، فأمر أهل فاس بإخراجه فضيقوا عليه الى أن طلب الأمان وخرج ووبخه السلطان وضربه وسجنه، وأمر أهل فاس بقتل أصحابه فقتلوهم، ولما سافر الركب النبوي وجه معه السلطان ثلاثة وعشرين مصحفا كلها محلاة بالذهب منبتة بالدر والياقوت ومن جملتها المصحف الكبير العقباني الذي كان يتوارثه الملوك بعد المصحف العثماني الذي كان عند بني أمية بالأندلس، وانتقل الى هذه العدوة على يد عبد المؤمن بن علي ثم إلى بني مرين كذلك إلى أن غرق في البحر في أسطول أبي الحسن، وهذا مصحف عقبة ابن نافع الفهري نسخه بالقيروان من المصحف العثماني إحدى النسخ التي كتبها سيدنا عثمان رضي الله عنه وجهها للآفاق، فكان هذا المصحف العقباني وقع بيد الأشراف الزيدانيين فتداولوه بينهم

(4) مابين العلامتين سقط من (ف).

إلى أن بلغ السلطان مولانا عبد الله فغربه من المغرب ورجع دره إلى صدفه وابريزه إلى معدنه، قال الشيخ المسناوي : وقد وقفت عليه حين وجهه السلطان للحجرة النبوية، وظهر لي أن تاريخ كتبه بالقيروان فيه نظر لبعد ما بينهما، وبعث معه ألفين وسبعمائة حصاة من الياقوت المختلف الألوان للحجرة النبوية على الحالّ بها أفضل الصلات وأزكى السلام، وفي ثاني عشري المحرم عام ستة وخمسين ومائة وألف نزل الباشا أحمد بن علي الريفي بجموعه بالعسال، ونزل مولاي المستضيء بجواره مع عبيد البخاري قائدهم فاتح بن التويي(5) ولما بلغ الخبر للحياينة وأولاد جامع وشراقة انحازوا كلهم لفاس ونزلت حللهم داخلها وخارجها وأجنتها ووقعت فتنة عظيمة، ودهش الناس من هول هذا الريفي، وانتهبت مواشي فاس، وماتت جوعا وارتفعت الأسعار، وفي كل صباح ومساء تخرج المدافع وتقرع الطبول في محلة الريفي ومحلة مولاي المستضيء، فاستعد الناس للحرب وركب السلطان مولانا عبد الله في نحو عشرة من الخيل وقصد آيت ادراسن بسهب عشار، ودخل حلة عبد الله ويشي، وقلب سرجه وسطها، فاجتمع عليه من حضر من البربر، وقال جئتكم لتنصروني على هذا الجبلي الذي هو عبدنا وخديمنا وأطغاه المال الذي اكتسبه في خدمتنا، وسرقه من أمانتنا، وأراد أن يفضحنا وجره إلينا أخونا المستضيء وهو أراد الاستيلاء على بلادنا، وهي في الحقيقة بلادكم، وما قصد إلا إهانتكم وأنتم أحق وأولى من ينصر أهل البيت ويحمل العار وعليكم السلام وركب فرسه ولم يبت إلى دار دبيبغ وفي الغد ارتحل الريفي إلى بلاد الحياينة وهو يظن أنهم مازالوا بها ولما لم يجد بها أحدا رجع إلى محله الذي كان به، وفي الغد وقع حرب خفيف بين الوداية والحياينة والشراقة، وفي غده ركب الباشا ووقف برجاله على كدية تامزيزت فوق القنطرة، وقطعت جموعه لأرورات وتبعها مولاي المستضيء بعساكر العبيد ووقفت الوداية والحياينة وإشراقة وأولاد جامع < وأهل فاس>(6) بالعين المقبي(*) إلى دار ابن عمرو، فلما شاهدوا جموع الريفي ومولاي المستضيء بتلك البسائط صاحوا بهم صيحة واحدة، فلما خالطوهم انهزموا ووقع بهم ما وقع وأحاط بهم القتل والسبي وازدحموا

---

(5) في (م) : التوني.

(6) مابين العلامتين سقط من (ل).

(*) بالأصل وف «المقبي».

على القنطرة وتراكموا فيها وتساقطوا في الوادي والبربر في أثرهم يقتلون ويسلبون وأما الريفي فإنه لما رأى الهزيمة متوجهة إليه ركب واستقبل الفضاء فارا بدماغه، ولم يلتفت أحد من المنهزمين من نحو المحلة، فلما بلغها البربر تركوا أتباع الهزيمة واشتغلوا بالنهب في المحلة للمباني والكراع والأثقال والأمتعة الفاخرة ولم يتركوا إلا المدافع والكور والمومب والبارود، ووقف القائد بوعزة صاحب الشربيل على آلات الحرب من المدافع وغيرها، فحازها ورجع الناس بالغنائم الكثيرة ولقيهم ‹البرابر›(7) الذين لم يحضروا فانتزعوا منهم ذلك وكان السلطان سيدي محمد بن عبد الله حاضرا في تلك الوقعة مع أبيه، قال وجهني والدي مع إخواننا الوداية فلما هبت رياح النصر وانهزم العدو في ساعة واحدة وكنت في خمسين خيلابين أصحابي والوداية فقصدنا المحلة فوقفنا على قبة الباشا وأحرزتها وقبضنا الحمارة فحملوا لنا على عشرين بغلة من الريال في ربائعه، وحملنا على ثلاثين جملا من الملف والكتان حمله لنا البداوة أصحاب الإبل، وحملوا لنا قبتين قبة أحمد بن علي وقبة أخرى أظنها قبة مولاي المستضيء ‹والبرابر والحياينة وشراقة والوداية وأهل فاس كل واحد يحمل من ناحية›(8) ولما خرجنا من المحلة وقف علينا طوائف وكتائب من البربر الذين لم يحضروا المعركة فلما اختلطوا بنا ماعرفنا ‹أين›(9) البغال ولا الإبل وسار مع كل بغلة ‹أو جمل›(10) خمسون من الخيل فأكثر، فلم يجتمع منا اثنان ورجعنا كما خرجنا من ديارنا بالسلامة، وهكذا وقع لكل من نهب شيئا من حزبنا إلا من دخل مع البربر في الحصة ولما فرغ الناس من النهب اشتغل العبيد بجمع الرؤوس فكان عددها مابين البيض والسود ثمان مائة ونيفا فيهم رأس الباشا فاتح ابن النوبي(11) ووجه السلطان مولاي عبد الله بغاله ورجاله لجر المدافع والمهاريز وحمل البارود وعدده ثلاثمائة برميل في كل برميل قنطار، فأدخلوه لخزين فاس الجديد، وحملوا الكورة والبومب والمدافع

---

(7) مابين العلامتين سقط من (ف).
(8) مابين العلامتين سقط من (ف).
(9) مابين العلامتين سقط من (ف).
(10) مابين العلامتين سقط من (ف).
(11) سجلت هذه النسبة وكانت في الأصل وفي الفاسية : (الثريى) بمثناة فوقية وياء أما في (م) فكانت : (النوني) بنونين بلفظ حرف الهجاء، أما هنا فكانت (النوبي) كالمنسوب الى النوبة في الأصل وفي الفاسية أما (م) ففيها : (الترمي) بالتاء المثناة من فوق والميم وليحقق ماقيه.

والمهاريز لدار دبيبغ، وكانت هذه الوقعة فتحا عظيما، قال السلطان سيدي محمد : وهذه أول وقعة وجهني والدي فيها وأول حرب باشرته وأنا إذ ذاك في سن البلوغ وكان لي ولوع بالطعن والرمي بالرمح والحرب، إلى أن أحكمت ذلك إحكاما تاما، انتهى كلامه، ‹ولما بلغ المنهزمون جبل الحبيب اعترضهم أهله وقاتلوهم وقتلوا سيدي محمد ابن المستضيء حسبوه من أهل الريف›(12).

ولما بلغ الباشا طنجة اشتغل بتخليف ماضاع له من الخيل والسلاح والخزائن والأبنية لأهل الريف والعبيد، وصمم على إعادة الحركة لفاس وحلف أن لا يأكل لحما ولا يشرب لبنا حتى يدخل فاسا وينهبها، ولم يقل إن شاء الله تعالى، ووجه لسلطانه مولاي المستضيء مائتين من الخيل ومائتين من الخباوات وألف مكحلة وخمسين ألف مثقال يدفع ذلك للعبيد، فلما فرغ من قضاء أمور سفره وذلك في جمادى عام ستة وخمسين ومائتين وألف، خرج من طنجة ولما بلغ خبر خروجه للسلطان مولانا عبد الله لم يسعه التخلف عن ملاقاته، وكتب لأهل الغرب والحياينة وشراقة وأولاد جامع وجميع شيعته وفرق الراتب علي العبيد والوداية وزرارة، وعين أهل فاس حركتهم وبعث لآيت اضراسن وگروان، وقال لهم إن أردتم الأموال فتأهبوا للحركة لطنجة فأسرعو للقدوم عليه بألفين من الخيل وأكثر من الرماة، وخرج السلطان من فاس آخر جمادى، ونزل على وادي سبو وأقام به إلى أن عرض العساكر وعبى الجيوش ورتبها، فجعل رماة عبيده ورماة أهل فاس في رحى قائدهم بوعزة صاحب الشربيل، وجعل الوداية وزرارة وأهل سوس في رحى خيلهم ورماتهم لنظر حاجبه القائد عبد الوهاب اليموري وسار علي هذه التعبئة فلقيه شراقة وأولاد جامع وأولاد عيسى فجعلهم في رحى قائدهم الشيخ أحمد بن موسي الشرقي، ولما قطع وادي ورغة وجد أهل الغرب ‹بمحلتهم›(13) في انتظاره فبات معهم بعين قرواش، وفي الغد جعل بني مالك في رحى قائدهم القائد بوسلهام الحمادي وسفيان في رحى قائدهم عبد الله السفياني وتوجه في ظلال النصر والسعادة.

وأما مولاي المستضيء مع العبيد وبني حسن فإنه لما بلغه خروج

---

(12) مابين العلامتين سقط من (م).

(13) مابين العلامتين سقط من (ب).

السلطان من فاس خالف هو لدار الملك لمكناسة فدخلها علي غرة من أهلها فمات وأفسد، ونهب ما وجد وفعل بنو حسن فيها الأفاعيل من سبي النساء والذرية، ثم تدارك أهلها أمرهم وقاموا لحربهم في وسط المدينة وقتلوا منهم ما لا يحصى ورجعوا منهزمين. وأما أحمد ابن علي الريفي فإنه أقام بالقصر في جموعه من أهل الريف والفحص وجبالة وبداوة والخلط والطليق وأهل العرايش والقصر ينتظرون سلطانهم مولاي المستضيء في العبيد وبني حسن، ولما أبطأ عليهم وسمع بقدوم السلطان مولانا عبد الله ارتحل من القصر، وفي ذلك اليوم اجتمع مع السلطان مولانا عبدالله بدار العباس على وادي لكس، فلما تراءى الجمعان وأرادا النزول قال لهم السلطان لا نزول إلا بالغنيمة أو الهزيمة فأعجل أعداؤه على النزول فتقدم في أخواله وعبيده فحمل على مقدمتهم فصدمها وهزمها في حين، وكان فيهم الخلط والطليق وأهل الفحص والبداوة فظهرت راية أهل الريف التي فيها الباشا أحمد فحمل عليها السلطان حملة ثانية فانهزمت مدبرة فتبعها العساكر يقتلون ويسبون الي أن أظلم الليل وبقيت جميع الأثقال والكراع والمتاع بأيدي عسكر السلطان، فنزل هو بمحلته بدار العباس ورجعت العساكر بالغنائم وأتو برأس الباشا عرفه بعضهم في وسط القتلي فقطعه وأتى به إلي السلطان فبعثه إلي فاس يعلق بباب المحروق، وفي الغد توجه السلطان لطنجة فقدم عليه وفود جميع القبائل بها للتهنئة بالظفر، فأمن من كان في حزب أحمد بن علي وعفا عنهم إلا من كان من خاصته، وله اتصال بخدمته، ودخل السلطان لطنجة وكلف الخواجا عديل وجماعة من أهل فاس بإحصاء ما في دار الباشا أحمد فأخرجوا المال من الخزائن والكساوي والملف والكتان والسلاح وغير ذلك من السروج والفرش والنحاس والإماء والعبيد والخيل والبغال وأمر بجمع المواشي من البقر والغنم والإبل فجيء بذلك فأعطى الماشية كلها للبرابر وأطلق أيدي المحلة على الزرع ونقله من الأمراس إلى أن استوفى غرضه واستخلص ماعند عمال الباشا وكتابه وخاصته من الأموال وأقام بطنجة أربعين يوما.

وأما مولاي المستضيء فإنه لما انهزم من مكناسة بعد دخوله وبلغه موت أحمد بن علي ونهب محلته وداره سقط في يده، فلما بلغه أن السلطان رجع من طنجة حرض العبيد وبني حسن على تجديد الحركة

واعتراض السلطان في الطريق عند رجوعه، فتوجه قاسم بن عريف لبني حسن يأتي بهم، وتوجه مولاي المستضيء ‹مع العبيد يجددون الحركة فقوم العبيد عشرة الاف من الخيل وقوم بنو حسن عشرة الاف كذلك ولما قدم القائد قاسم بمحلته للرمل خرج مولاي المستضيء›(14) بعشرة الاف من العبيد وتوجه لاعتراض السلطان وفجاءته على بغتة وغرة، وما علم أن الحازم لايغتر فجاءتهم عيونهم أن السلطان بات بدار العباس فصبحوه بها، فركب السلطان في الخيل علي عجل وترك الرماة بالمحلة فلقي العبيد وبني حسن ووقع القتال ساعة فانهزم بنو حسن في الميمنة وبقي مولاي المستضيء في الميسرة مع العبيد فقصده السلطان فيمن معه فهبت رياح النصر فانهزم العبيد مع سلطانهم فوجه السلطان بوعزة صاحب الشربيل في راية وأمره ألا يقتل العبيد، وإنما يجردهم لا غير، ويوصي أهل الغرب والبربر بمثل ذلك، فكفوا عن قتلهم ولم يقع القتل إلا في بني حسن، وكانت هزيمة عظيمة قتل فيها من بني حسن أكثر من ألف قتيل، ونهبت لهم أزيد من خمسة آلاف(15) من الخيل والسلاح، وتوجه مولاي المستضيء معهم يرجو الكرة حيث كانوا شيعته هم ودكالة وأهل مراكش، وكان أخوه مولاي بناصر خليفته على مراكش، ولما بلغ السلطان لفاس الجديد فرق المال على أخواله وعبيده وأسهم أهل فاس وأقام بدار دبيبغ عام خمسة وسبعين ومائة وألف فقدم عليه جماعة من قواد العبيد تائبين متنصلين(*)، فعاتبهم وعفا عنهم، وقال لهم لا كلام بيني وبينكم إلا إن انقطع دابر بني حسن ومن معهم من شيعة المستضيء، وأعطاهم الراتب وأمرهم بالقدوم عليه لمكناسة بمحلتهم، فتوجهوا وتجهزوا للحركة ومعه العبيد والوداية وأهل فاس والحياينة وشراقة وأولاد جامع وأهل الغرب، ولما بلغ مكناسة قدم عليه العبيد بمحلتهم فحضر أعيانهم وأهل الحل والعقد والعلماء والقضاة وبايعوه بأجمعهم بيعة جديدة مباركة سعيدة في العام المذكور.

---

(14) مابين العلامتين سقط من (ف).

(15) في (م) : خمسمائة.

(*) بالأصل «متنصلين».

الدولة الخامسة لمولانا عبد الله بن إسماعيل

لما بويع مولانا عبد الله هذه البيعة الخامسة وخرج يريد الحوز واقتفاء آثار مولاي المستضئ فمر على طريق الفج وأراد أن يحول بين بني حسن والشعاب (التي)[1] تعودوا الهروب إليها والتمتع بها فوجدهم غارين على بسيط زبيدة ومعهم مولاي المستضئ، فشن عليهم السلطان الغارة فلم يشعروا به حتى لعبت الخيل في حللهم، ووقع النهب في أموالهم وتشتتوا ولم يفلت مولاي المستضئ إلا على سوابق الفرار، على خطر واغترار، وافترقت العساكر على السبي وجاء وفد بني حسن للسلطان يطلبون عفوه، والإبقاء على بقيتهم، فأمر بالكف عنهم ورد عليهم سبيهم وترك لهم خيلهم، وتوجد لدكالة فنزل قصبة أبي العوان، ونزلت عساكره أمامه في بسائط دكالة، وفر أهلها مع مولاي المسضئ لناحية الحوز، واشتغلت العساكر تنهب الزروع من الأمراس، وتستخرج الدفائن والهمائل، وتخرب القرى، وتقطع الأشجار، وتتقلب في تلك البسائط المتسعة كلما فرغت من ناحية انتقلت لأخرى والسلطان لم يزل مقيما بالقصبة المذكورة سنة كاملة، فلما فرغ من شأن دكالة بحيث لم يبق ما تلتقطه الطير انتقل الى بلاد السراغنة، فقدم عليه أهلها وقدم عليه قبائل تلك الجبال بهداياهم ومئوناتهم، ثم انتقل الى ناحية دمنات ففر دكالة مع مولاي المستضئ وتحصنوا ببلاد مسفيوة، وكان مسفيوة بايعوا مولاي المستضئ ومن حزبه، فنزل السلطان مولاي عبد الله على وادي الزات، وقدم عليه الرحامنة وزمران وأهل الحوز، وكانوا مستمسكين بطاعته، ونزلوا مع محلته، وامتدت أيدي الانتهاب الى بلاد مسفيوة إفسادا وتخريبا، والحرب قائمة معهم كل يوم حتى أتى التخريب على وادي الزات كله، ولم يبق منه محل ينتفع به، ثم انتقلت المحلة الى وادي كجي وفعلوا به كما فعلوا بالزات وعجز أهله عن الحرب، وحرقت قراهم، وهدمت حصونهم، وقطعت أشجارهم، فطلبوا الأمان ونادوا[2] بالطاعة وأتوا تائبين، وجاءوا مستشفعين بصبيانهم، فقال على شرط أن تأتوا بالمستضئ، فقالوا له إنه

---

(1) ما بين العلامتين سقط من (ل)
(2) في (ل) : وناتوا.

هرب بالأمس ولو بقي لأتيناك به فعفا عنهم وسامحهم، ثم أتاه دكالة بنسائهم وأولادهم وقالوا هؤلاء أولادنا، ونساؤنا وأما الأموال فقد ذهبت وما عندنا ما نقتات به، فافعل بنا ما تريد، فعفا عنهم وأمرهم بالرجوع الى بلادهم.

وأما مولاي المستضئ فإنه لما هرب قصد الدخول لمراكش فمنعه أهلها من ذلك، ووجد أخاه مولاي بناصر الذي كان خليفة فيها قد مات، فدفعوا له قشه ومتاعه ليكفوه عن الدخول إليهم، فانصرف على عقبيه ووجهوا وفدهم للسلطان وأعلموه بما وقع مع مولاي المستضئ وأنهم منعوه من الدخول فسامحهم وعفا عنهم بعد العتاب والتقريع، وطلبوا منه أن يتوجه الى بلدهم، وكذلك أهل الحوز، فوعدهم بذلك وأقام إلى أن وفدت عليه قبائل الدير كله، فلما تفقد المحلة التي معه وجد أكثرهم هرب لطول الغيبة والمشقة وكثرة الحروب وقلة الزاد والخوف، لأنهم كانوا لا يقتاتون إلا بالنهب، فلم تمكنه الزيادة والدخول لمراكش، فدافع أهل الحوز باستخلاف ولده البار سيدي محمد، فوجهه معهم لمراكش ووجه أخاه مولاي أحمد بن عبد الله خليفة لرباط الفتح على قبائل الشاوية وبني حسن، وأقام في هذه الحركة سنتين، وفي ربيع الثاني عام تسعة وخمسين ومائة وألف بلغ مكناسة، ولم يدخل القصبة ونزل في أبو فكران، وهناك قدم عليه جماعة من المجاهدين أهل الريف من طنجة فوق المائة ومعهم زوجة الباشا أحمد بن علي الريفي وولداها منه بهدية عظيمة، فقبض الهدية وقتل الولدين ومن معهما من أهل الريف، ثم قتل معهم من بني حسن ثلاثمائة قدموا عليه للتهنئة فكان ذلك سبب نفور الناس عنه، وكثرت المقالات الرديئة في الناس والجيش والأسواق والرعية كلها والحواضر والبوادي، وقبض الناس أرجلهم، ولم يأته أحد من البربر، وكانوا حرثوا بحوز مكناسة، فلما أدرك الزرع أمر العبيد بنهبه ودرسه، ففسدت نية البرابر كل فساد، ثم إنه كتب لمحمد وعزيز، وكانت له معه خلة ومصافاة تامة، وهو الذي جمع له البرابر في تلك الوقائع المتقدمة حتى انتقم من عدوه الأكبر أحمد ابن علي الباشا، وكان يقول له أنت أبي، فلما كتب له يلومه على التخلف والانقباض عنه، وتخلف قبائله عن الحضور لبابه لأنهم شيعته وأنصاره فورد عليه الكتاب فلم يمكنه التخلف عن مقابلته، فاستشار إخوانه في القدوم عليه فلم

يوافقوه، فحتم عليهم أن يعينوا الوفد الذي يذهب به لحضرة السلطان، وجمع الهدية لذلك، فقالوا له أما ترى ما وقع لمن قدم عليه، فقال لهم لا ترون إلا الخير وأزال خوفهم، فتوجه بهم مع هديتهم بعد ما ردوه عن ذلك بكل ما قدروا عليه فلم يساعدهم، وأبى إلا القدوم عليه، فساعدوه على كره لما لم يسعهم إلا موافقته، فلما وردوا عليه لقصبة بوفكران ورآهم الحاجب عبد الوهاب اليموري، بهت، ولكنه لم يمكنه ردهم بعدما بلغوا لذلك المحل، وكانوا نحو المائة من الأعيان، فنزلوا وتركوا خيلهم وسلاحهم ودخل بهم فوجدوا السلطان على كرسيه بوسط القلعة فأدوا واجب التحية، وأشار لهم بالجلوس فجلسوا، ودخل الحرس والزبانية من المشاورية، ووقفوا على رؤوسهم، فعاتبهم على ما يركبون من العيث في الطرقات والغارات على المستضعفين من العرب، وقوافل التجار وما وقع منهم في عساكر الملوك من النهب، ووبخهم على أفعالهم الذميمة ومذاهبهم السقيمة، الغير المستقيمة، وأمر بقبضهم، فانقض عليهم الحرس انقضاض العقبان فاختطفوهم وأوثقوهم في الحبال، ولم يقبض محمد وعزيز، فقال له يا مولانا ما هذا الغدر بعد العهد ولست من أهله ؟ فقال له السلطان : هؤلاء القوم حادوا عن الشرائع، واستوجبوا الزجر والنكال، وأحل الله دماءهم وأموالهم لخروجهم عن الطاعة، وبعدهم عن الاستقامة، وقد أعياني أمرهم، وما دخلت في هذا الأمر بعد خروجي منه إلا بسببهم، وأردت أن أقابل هذا التيس الأسود بهذا الكبش الأبيض، وأستريح من عضة من تلف منهما، وأتمسك بالباقي منهما، ولولا أنك بمنزلة والدي ما أطلعتك على ما في ضميري، فقم في حفظ الله، وانصرف في ذمة الله، فقال له : والله لا أقوم ولا أتوجه إلا مع إخواني، إن ماتوا مت معهم ويبقى لك غدرك، ولا يتحدث أني أمنتهم وغررتهم ودفعتهم للذبح ورجعت سالما، هذا لا يكون أبدا، وإلا فبأي وجه ألقى أولادهم وإخوانهم ؟ وإلى وأين أقصد ؟ وأي أرض تمنعني من عشائرهم ؟ فلابد لي من القتل، فقتلك <لي من جملتهم أوفق لي>(3) واجمل فاقض بي ما أنت قاض بهم، ولا إثم عليك في ذلك لأني أنا الذي ظلمت نفسي وظلمتهم، فقدتهم لك وخدعتهم حتى دخلوا عليك متجردين من السلاح، كما تدخل العرائس على الأزواج، وقد عرضوا

(3) ما بين العلامتين سقط من (ل)

على هذا كله فآمنت بالله تعالى وبعهدك المكرر، فلما فرغ من هذا الكلام البليغ الذي تنهد له الجبال الرواسي جعل السلطان يتدبره وهو مطرق رأسه، والتفت إلى الحاجب وقال : يا عبد الوهاب لا خير في رجل يقول لرجل أبتي ولا يشفعه في قبيله، خلوا عنهم فسرحوهم وركبوا وخرجوا وتوجهوا لحللهم وتحدثوا(4) مع وعزيز وعاتبوه على ما حملهم عليه من الوفود عليه، وقالوا له : نحن متنا وبعثنا فلابد لنا من أخذ ثأرنا، فاتفق رأيهم على الحركة له لثلاثة أيام ومن تخلف عنها تحرق خيمته فتفرقوا لمحالهم وقوموا الحركة فلم يرع السلطان بعد ثلاثة أيام إلا الجنود المجندة، والكتائب المكتبة، وقد أطلت عليه من الحاجب، فلم يمكنه إلا حمل أثقاله وركوب عياله وجواريه وجعلهم أمامه مع رحى من رماة المسخرين وأردفهم برحى من الخيل وركب هو في موكبه خلفهم وأردفته رحى من الخيل من العبيد، وانحدروا من بطن الوادي، وبقيت خزائن العبيد بيد العدو، فاشتغل بها جلهم، وتفرق البربر عليه يمينا وشمالا وكلما دفعت طائفة منهم على المسخرين أخرجوا فيهم ساروتا من الرصاص، وإذا دفعت على الخيل كذلك فيسقط منهم الأربعون والخمسون، وهكذا دأبه معهم على هذه التعبئة، وهم يحملون عليه فيردهم الى أن دخل باب القزدير، فمات من العبيد نحو الثلاثمائة، ومات من البربر على ما قيل نحو الخمسمائة، ورجعوا عنه خائبين، وجمعوا موتاهم وكفنوهم في الخباوات، وكانت هذه الوقعة عام تسعة وخمسين ومائة وألف.

ولما دخل العبيد لمكناسة واجتمعوا مع إخوانهم تكلموا بما في نفوسهم وأظهروا ما في قلوبهم وبواطنهم، وقالوا : إنه قال لمحمد وعزيز إنما أردت أن أقابل هذا الكبش الأبيض بهذا التيس الأسود، ودارت بينهم هذه الكلمة وحملوا منها أمرا عظيما، وقالوا انه لم يبق لنا شك أن هذا الرجل ما له غرض إلا في إهلاكنا، فانظروا لأنفسكم، وكتبوا للديوان يخبرونهم بالواقع، ويستشيرونهم في أمره، فأخبر السلطان بذلك بعض عيونه من العبيد وبما دار بينهم وبكتابتهم للديوان، فكتب السلطان لأخواله الوداية يقول لهم : إن كانت لكم حاجة في ولد أختكم عبد الله فاقدموا عليه الساعة الساعة، واشتغل بشد متاعه وحمل ماله وأسرج خيله وهيأ

---

(4) في (م) : وترجهوا.

مراكبه وأموره وقال لأصحابه غدا إن شاء الله نرجع لأبي فكران، وبعد العشاء بلغته خيل الوداية في أربعمائة فركب وخرج على باب القزدير وحمل عياله وماله، وسرى طول ليلته فأصبح في فاس، ودخل داره وأمن على نفسه، ولما بلغ كتاب العبيد إلى إخوانهم بالديوان قالوا لا ينفعنا المقام هنا في وسط بني حسن، لا تنفع إخواننا ولا ينفعوننا وتواعدوا بالرحيل لمكناسة بعد ثلاثة أيام، فرحلوا ودخلوا للقصبة ونزل بعضهم بالمدينة وبعضهم بالاروى وبريمة وهدراش، وفي العيد توجه جماعة من قوادهم مع القاضي والأشراف والعلماء لفاس لحضور العيد مع السلطان على العادة ويطلبونه في الرجوع واعتذروا عما بلغه عنهم، فأعطاهم مالا ووعدهم بالرجوع، ولما رجعوا من عنده اعترضهم البربر بالجديدة وجردوهم وأخذوا ما معهم ولم يتركوا أحدا كاسيا إلا القاضي السيد أبا القاسم العميري تركوه على بغلته، وأصبح العبيد بباب مكناسة مجردين، وأما البربر فإنهم لما رجعوا من وقعة أبو فكران كتب محمد وعزيز لأهل فاس وأعلمهم بما وقع منهم، فدخلوا في حزبهم، وكتب أيضا للحياينة وأهل الغرب، فقالوا له نحن تبع لكم ومن حزبكم وخالفوا على السلطان، واستمر الحرب بين الوداية وأهل فاس، فلما بلغ ركب الحجاج لتازة استغاث أهل فاس بالبربر ليأتوهم بالحجاج، فتوجهوا في خمسمائة من الخيل واجتمعوا بالحياينة فدخلوا في حزبهم وتوجهوا معهم لتازة ورجعوا معهم الى أن دخل الحجاج على باب الفتوح، ونزل الحياينة والبربر بالزيتون، ودخل من دخل منهم لقضاء غرضهم بفاس، فأغار عليهم الوداية وقتلوا منهم كثيرا، فأمرهم السلطان أن يعلقوا رؤوسهم بقصبة شراقة، وبعد هذا اتفق رأي أهل فاس على مبايعة السلطان مولانا عبد الله ووجهوا له، فأمرهم بالوصول إليه فخرج أعيانهم وأشرافهم وعلماؤهم، فلما وقفوا بين يديه وبخهم وعنفهم وهددهم وعدد عليهم أفعالهم وشرط عليهم شروطا من جملتها أن يعطوه زرع أهل الغرب المخزون عندهم، ويهدموا دورهم، ويبنوا دار دبيبغ بأنقاضها، ويختاروا إحدى مسألتين : إما أن يكونوا جيشا أو نائبة، فقالوا : نجتمع مع إخواننا ويكون الجواب، ولما رجعوا من عنده أغلقوا أبواب المدينة وقالوا لا نفعل شيئا من هذا كله، ورجع الحرب كحاله الأول فضاق الخناق وارتفعت الأسعار، وفي تاسع الحجة نهبوا القفاطين التي كانت بفندق النجارين على

يدي عديل وهي ثلاثة آلاف، ففرقوها على رماتهم عيدوا بها، وقبضوا على الحاج الخياط عديل ليدفع لهم مال المخزن الذي عنده فافتدى منهم بثلاثة آلاف مثقال من ماله.

وفي أول جمادى الأولى عام ستين ومائة وألف جاء قبائل البربر وقبائل الغرب لإعانة أهل فاس على حرب السلطان فنزل القائد الحبيب بأهل الغرب والخلط والطليق بدار الأضياف، ونزل محمد وعزيز مع البربر باتغات(*) والجحر الوداية بفاس الجديد، والعبيد بقصبة شراقة، والسلطان بدار دبيبغ، وفي الغد ركب الحبيب وجموعه وقصدوا دار دبيبغ ‹على آثارهم›(5) فلما بلغوا حريم دار دبيبغ بلغهم أن البربر نهبوا محلتهم فرجعوا منهزمين وقطعوا الوادي وتوجهوا لغربهم والبربر لما نهبوا المحلة توجهوا لسايسهم، قيل إن السلطان هو الذي وجه المال لمحمد وعزيز فرقه في البربر على أن يشتتوا تلك الجموع، فدبروه بنهب المحلة، ولم يبق غير أهل فاس في محنتهم، فبعثوا رسولهم لمولاي المستضيء يأتيهم ليبايعوه وهو بأحواز طنجة، فرد جوابهم بالوعد، وفي أثناء هذا قدم بنو حسن على السلطان شاكين بأهل الغرب أنهم لما رجعوا بمحلتهم نهبوا أموالهم وأغاروا عليهم ببلادهم، فوجه معهم المحلة من العبيد والوداية يأكلون أهل الغرب فهربوا من بلادهم هم والخلط والطليق وتوجهوا للعرائش وتحصنوا بها، فلما بلغتهم المحلة انحصروا وضاعت مواشيهم جوعا وطال عليهم الحصار ثلاثة أشهر، ثم أتى الأمر من عند السلطان بالأمان، وجه المصحف والسبحة وعاهدهم فارتحلت عنهم المحلة وتوجهوا للسلطان بهديتهم فسامحهم وولى عليهم القائد الحبيب وعلى قبائل الجبل كلها، وأما المحلة فإنهم لما ارتحلوا من العرائش باتوا بالقصر وضيفوهم بما قدروا عليه من العلف والمئونة والطعام، وفي الغد دخلوا ‹القصر›(6) فاستباحوا ونهبوا وقتلوا من دافع عن نفسه وسبوا وفعلوا الأفاعيل، واستمر عليهم ذلك ستة أيام فتأسف جميع المسلمين على ذلك، وكان ذلك في محرم عام واحد وستين ومائة وألف.

وفي جمادى الثانية خرج السلطان للحركة ونزل بوفكران بقصد البربر

(*) بالأصل و «م» (بتغات).

(5) ما بين العلامتين سقط من (ل)

(6) ما بين العلامتين سقط من (ل)

وهو يظن أن المحلة تقدم عليه على عادتها، فلم يأته أحد، فبعث إلى العبيد يأتونه بالمحلة بقصد البربر فقالوا له : حتى يأتي الوداية والقبائل ونتوجه جميعا وحيث لم يأتوه رجع لمكناسة، فلما سمع البربر بأنه قصد الحركة إليهم اتفقوا على الحركة إليه وقال لهم محمد وعزيز الرأي هو أن تنزلوا بسايس وتحولوا بينه وبين العبيد فلا يصلهم ولا يصلونه، فنزلوا به، ثم نزلت جموع البربر الى فاس ونهبوا مواشي الوداية وزروعهم وضيقوا عليهم الفضاء المتسع وتسوقوا فاسا وباعوا واشتروا عشرة أيام وانصرفوا.

وفي رجب من العام ورد الخبر أن أهل الريف قبضوا على مولاي المستضئ ونهبوا ماله وخيله وكل ما معه وسجنوه حتى يدفعوه للسلطان لأنه اشتغل بظلم الناس وبكل فساد وقبيح بطنجة والفحص وتلك النواحي، وأما أهل تطوان فإنهم لم يبايعوه ولا وصلوه، وكان قبض على القائد عبد الكريم أخ الباشا أحمد فأخذ أمواله وسمل عينيه، وفي العام المذكور أحرق الوداية باب محروق لئلا يفطن بهم العساسة ودفعوهم عنها، وفي الغد ركب لها أهل فاس بابا جديدا.

وفي القعدة وقع الصلح بين السلطان وأهل فاس على يد شريف من أهل تافلالت وجهوا له معه كتابا بالتوبة والعذر، فأجابهم وحلف لهم أنه لم يأمر بحربهم ولا ضررهم، وانه ما فعل ذلك إلا الوداية، وبعد هذا الكتاب توجه أعيانهم والأشراف والفقهاء والحجاج الى حضرته بمكناسة ففرح بهم وسامحهم ورجعوا، ووقع الصلح بينهم وبين الوداية بضريح مولانا إدريس. وفتحت المدينة بعد حصار سنتين وثلاثة أشهر، وفي العيد توجهوا له بالزطاط(7) ورجعوا به، ولما سمع البربر بصلح أهل فاس وسمعوا أن العبيد عزموا على الحركة إليهم، شنوا الغارات على العبيد يخطفون أولادهم من الأجنة وأموالهم، وقطعوا عنهم الداخل والخارج، فلما وجه العبيد الى البربر بالصلح قالوا لهم إن السلطان هو الذي أمرنا بذلك، فلما سمع العبيد ذلك لم يشكوا فيه اعتمادا على ما كان تقدم من قول السلطان لمحمد وعزيز التيس الأسود الكبش الأبيض، فلما أمرهم بالحركة إلى البربر امتنعوا واتفق رأيهم على قبضه وقتله، وفي المحرم عام اثنين وستين ومائة وألف هرب السلطان لفاس ونزل دار دبيبغ لما سمع ما اتفق عليه العبيد،

---

(7) في (ب) : بالرباط

وفي صفر من العام قدمت الهدية للسلطان من ولده سيدي محمد من مراكش، وبلغ الخبر أن العبيد اصطلحوا مع البربر على أن يبايعوا لسيدي محمد بن عبد الله فبايعوه بمكناس ووجهوا البيعة مع أعيانهم لمراكش، وخطبوا به في مكناس وزرهون، وهذا هو الخلع السادس لمولانا عبد الله.

وفي شعبان من العام أمر السلطان أن ينادى في أسواق فاس على العبيد الذين فيها من لم يحضر الى دار دبيبغ فلا يلوم إلا نفسه، فتوجهوا إليها فأعطى كل واحد منهم خمسة دنانير وقال لهم : اكتبوا الى إخوانكم بمكناسة من أتى منهم يقبض مثل ما قبضتم، فلما بلغهم ذلك لم يزدادوا إلا بغضا وبعثوا للبربر الذين بسايس وقالوا لهم : كل من قبضتموه من العبيد متوجها لفاس فاقتلوه، وصرحوا بخلع السلطان، وفي رمضان قدم محمد وعزيز مع إخوانه لحضرة السلطان فأعطاهم عشرة آلاف مثقال(8) ‹وفي العيد قدموا عليه فأعطاهم عشرة آلاف دينار أخرى وللوداية عشرة آلاف ولأهل فاس عشرة آلاف›(9) وفي عام ثلاثة وستين ومائة وألف لم ينزل المطر ووقع الوباء فيه، وفيه قدم سيدي محمد من مراكش وخاصم العبيد ووبخهم حيث وجدهم يخطبون به وتبرأ منهم وقال لهم إنما أنا عبد لأبي، فتركوا الخطبة له وجددوا البيعة للسلطان، وهي البيعة السادسة، وفي هذا العام مات مولاي أحمد بن عبد الله ولد السلطان، ودفن بفاس الجديد بمقابر الشرفاء.

---

(8) كذا بالأصل وفي غيره : دينار

(9) ما بين العلامتين سقط من (ف).

الدولة السادسة لمولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل

لما ثاب العبيد على يد سيدي محمد وبايعوا للسطان بمكناسة توجه سيدي محمد منهم بأربعة الف مع محلته الذين قدموا من الحوز لحضرة السلطان، وخرج الوداية وأهل فاس لملاقاته، فلما اجتمع مع والده شفع فيهم فشفعه وعفا عنهم، وقال له : لا تبت هنا، فلم يبت إلا برأس الماء، ثم قدم لحضرة السلطان جماعة من گروان وبني مطير للعيد، فأعطاهم عشرين ألف مثقال وقدم عليه قواد العبيد من مكناسة فلم يعطهم شيئا، وفي عام أربعة وستين ومائة ألف وجه سيدي محمد من مراكش مع أصحابه هدية لوالده فأثنى عليه ودعا له بكل خير، وفي القعدة أعطى السلطان للوداية عشرة الاف ريال ‹وللعبيد›(1) الذين معه ثلاثة آلاف ريال وذلك لما سمع أن العبيد توجهوا لولده سيدي محمد وقالوا له : إما أن تكون سلطانا أو نبايع عمك مولاي المستضيء وشكوا له إهمال والده لهم لما توجهوا له في العيد، وأعطى البربر أعدائهم ولم يعطهم، فأعطاهم سيدي محمد مالا من عنده طيب به خواطرهم، وكتب لوالده فسامحهم وأعطاهم عشرين ألف ريال، وتم الصلح بينه وبينهم بسعادة سيدي محمد ورجعوا لمكناسة ‹واستكانوا›(2) وفيه ورد الخبر أن أهل تطوان قتلوا قائدهم محمد تميم وجاؤا للسلطان وقال لهم أنتم قيدتموه وأنتم قتلتموه، فاختاروا لأنفسكم من ترضونه، فاتفقوا على محمد بن الحاج عمر الوقاش، فولاه عليهم وانصرفوا.

وفي ربيع الأول من عام خمسة وستين ومائة وألف قدم باشا دور الأسبنيول بمائة ألف ريال دورو وما يناسبها من الحرير والملف والكتان والتحف بقصد فكاك أسارى جنسه وقدم معه أهل تطوان بهدية فيها ثلاثون ألف دينار، فقبض المال وقال للباشا دور حتى يأتي أسارى المسلمين، وأعطى العبيد من ذلك المال ريالين لكل واحد، ولنسائهم كذلك، وكانوا ألفين ومائتين.

---

(1) ما بين العلامتين سقط من (م).

(2) ما بين العلامتين سقط من (ف).

وفي ستة وستين ومائة وألف قام أهل فاس لشراء الخيل وأكثروا منها، وقدم العبيد للعيد مع السلطان فأعطاهم عشرة الاف ريال.

وفي عام سبعة وستين ومائة وألف(3) كانت الزلزلة العظيمة التي هدمت أكثر مباني فاس ومكناسة وزرهون، ومات فيها خلق كثير.

وفي عام ثمانية وستين ومائة وألف مات محمد وعزيز وقام آيت اضراسن للحركة لجروان فـفروا منهم واستحرموا بدار دبيبغ والوداية واشتغلوا ببيع مواشيهم فبلغت الشاة أوقية والبقرة خمس أواقي بسوق فاس، فأمر السلطان الوداية بإعانتهم وآخى بينهم فقاموا بنصرتهم وإعانتهم ووقع القتال فكانت الهزيمة على آيت اضراسن وانتهبت حلتهم وفرت خيلهم [وفر] (4) من سلم منهم لبلاد شراقة، فنزلوا بها وكان عدد من قتل منهم على ما قيل نحو الخمسمائة، وهذا سبب أخوة الوداية مع جروان.

وفي عام تسعة وستين ومائة وألف قدم عبيد مكناسة علي السلطان بقصد أن يتوجه معهم لدار ملك أبيه، فقال لهم : كيف أذهب معكم وفي وسطكم فلان وفلان وفلان لجماعة من فسادهم سماهم لهم، فلما رجعوا للمحلة وجن الليل قاموا فقتلوا من سمى لهم فيهم القائد محمد السلاوي والقائد زعبول والقائد سليمان بن العسري في آخرين تطييبا لخاطره، فلما بلغه ذلك وجه لهم أربعين ألف مثقال راتبا، وقال لهم إذا فرغت من عملي أقدم عليكم إن شاء الله تعالى ووجههم لمكناسة.

وفي العام قدم عليه القائد محمد بن عمر الوقاش من تطوان بهدية فيها مائة ألف ريال دورو وسلع ونصارى غنمهم غلاتطة(5) فأكرمه وأعطاه جاريتين ورجع، وفي العام المذكور قدم عليه أخوه مولاي علي الأعرج

---

(3) في النشر أن هذه الزلزلة كانت سنة 1169 في 26 من المحرم يوم السبت ولاشك ان القادري كان يعيش في ذلك الوقت فالصواب ماعنده والله أعلم.

(4) مابين المعقوفين اضافة من (م).

(5) كذا بالأصل وفي (م) غلاتطة بغين معجمة وفي (ف) : بلاتطة.

المخلوع فأعطاه مالا وحوائج قومت بعشرة الاف {ريال} (6) وخيره بين تافيلالت ومكناسة فاختار مكناسة فأعطاه مكوسها وأجنة المخزن التي بها وأرض الحراثة وتوجه لها، ولما بلغ وقت الحرث حرث بها فقبضه العبيد ووجهوه للسلطان وقالوا له هذا أفسد علينا بلادنا فسرحه ووجهه لتافلالت وفي العام نهب البرابر ماشية الوداية وأفسدوا زروعهم وبحائرهم، والله تعالى أعلم وأحكم.

---

(6) مابين المعقوفين اضافة من (م).

ذكر ما كان في خلافة سيدي محمد بن عبد الله في حياة والده بمراكش

أول ذلك أن السلطان لما هزم مولاي المستضيء وشرده ورجع من بلاد مسفيوة وقدم عليه الرحامنة وأهل الحوز وطلبوا منه أن يذهب معهم إلى مراكش خلف ولده سيدي محمد ووجهه معهم، وقد مر هذا كله مفصلا، فلما بلغ الخليفة سيدي محمد نزل بالقصبة وهي إذ ذاك لا عمارة بها إلا البوم على الجدرات الخربة من آثار السعدية والموحدين فضرب بها مضاربة واشتغل بحفر أساس داره، فلما رأى الرحامنة ذلك اتفقوا على منعه لأنهم اعتادوا الفساد في الأرض، وخافوا أن استقر وتحصن أن يمنعهم من ذلك، فواجهوه بالمنع من البناء، فخرج بعدما شرع في العمل فتوجه لناحية آسفي فلقيه عبدة وأحمر وفرحوا بقدومه وأكرموه، وأهدوا له هدية معتبرة، ولعبوا بين يديه سرورا بقدومه، وساروا معه لثغر آسفي فنزل بالقصبة، وأهدى له أهل آسفي وتجاره المسلمون والنصارى واليهود، وعمر عليه عبدة برجالهم وأعيانهم، ودفعوا له أولادهم لخدمته وواصلوا بكل ما قدروا عليه، وسرح الوسق للتجار بالمرصى، وأقبلت إليها المراكب من كل ناحية، وترادفت عليه الخيرات ووجوه القبائل، فلم يزل أمره في الزيادة كل يوم وكثر المال وعظم الأمر الى الغاية العليا، فأعطى وأركب وكسى وشاع صيت عزه ونصره، ودخل الشياظمة وحاحة في حكمه وطاعته وخدمته، فلم يمض إلا مدة قريبة حتى كان يركب في نحو الألف من مراكبه وأصحابه، فلما سمع بذلك الرحامنة وأهل الحوز ورأوا ما أدرك عبدة وأحمر من العز والإقبال وهم أعداؤهم راجعوا بصائرهم، فاجتمع أعيانهم وأقبلوا إليه لآسفي بهداياهم والتزموا الطاعة له، وأظهروا الندامة من الواقع منهم، ونسبوه للسفهاء وتبرأوا منهم وحلفوا له أنهم ما عملوه ولا أمروا به وتضرعوا له وسألوه بحرمة أسلافه أن يتوجه معهم ويرجع لمحله، وحلفوا أنهم لا يبرحون ببابه ولا يرجعون لخيامهم إلا وهو معهم ولو أقاموا سنين متطاولة، فلم يمكنه الا مساعدتهم لأنه ظهر له صدقهم وخلوص محبتهم، فتوجه معهم وركب معه عبدة بألف فارس من أعيانهم، زيادة على أصحابه وعبيده في الخيل العتاق والسلاح الفاخر والزي الملوكي، فلما بلغ مراكش نزل بمحله من

القصبة وجاءه أهل مراكش وحوزها بهداياهم وكذلك قبائل الدير كلهم، ثم فعل الرحامنة مثل مافعل عبدة فأتوا بأولادهم لخدمته وكذلك قبائل الحوز، ثم جاء عبيد دكالة الذين كانوا بسلا فنزلوا عليه وأنزلهم بالقصبة، ولما سمع بذلك عبيد مكناسة تسارعوا إليه أفواجا فاستعملهم في خدمة البناء ورتب لهم منونتهم وبنوا بيوتهم واجتهد في بناء داره الى أن أكملها وسكنها، واشتغل بترميم ماوهى من أسوار المدينة وخصوصا القصبة ‹فلما حصن القصبة›(1) عزلها عن المدينة، وركب لها الأبواب الوثيقة، واشتغل بغرس البساتين حول داره، والزيادة من القصور والمشاور، واستركاب الرجال واستلحاق الأبطال وتشييد أركان الدولة والعصبية ‹والعز›(2) حتى أدرك من ذلك في المدة اليسيرة ما بهر العقول، فكان عنده من العبيد ألف وخمسمائة ‹ومن عبدة وأحمر ألف وخمسمائة›(3) ،من الرحامنة ألف فارس، ولما ظفر بتأليف الفشتالي المترجم بمناهل الصفا أعجب به وبأخباره وخصوصا أخبار الذهبي فإنه يستحسن أحواله وضخامة ملكه وهيأته في سلطانه وقوة أمره، فجعل ذلك نصب عينيه، فلا تفارقه غالبا ترجمته، فيقتفي آثاره في ترتيب أحواله في الركوب والأكل واللباس والأطعمة وطبقة الكتاب وأهل الأشغال المخزنية وكل شيء جعل له وقتا مخصوصا وحدا محدودا لا يتعدى شيء مركزه ‹فعلى هذا بنى أمور دولته، وكان المنصور الذهبي في ذلك شيخه ومعلمه›(4).

وأما بقية خبر مولاي المستضيء فإنه لما فر من مسفيوة وذهب يدخل مراكش فمنعه أهلها ووجد أخاه مولاي بناصر قد مات فأخرجوا له تركة أخيه المذكور ولم يتركوه يدخل إليهم، فسار الى دكالة فوجدها خاوية على عروسها من بركته فجاز الى الشاوية فلم يلتفت إليه أحد ومر الى بني حسن فلم يجد من يكلمه، فذهب الى الفحص فأقام هناك في أحواز طنجة فاشتغل بظلم المساكين وتكليفهم مالا يطيقون ونهب أموال الناس الي أن قبض على القائد عبد الكريم بن علي أخي الباشا أحمد بن علي فسجنه وأخذ أمواله وسمل عينه، فخرج له أهل الريف فقبضوا عليه ، ونهبوا

---

(1) ما بين العلامتين سقط من (م).
(2) ما بين العلامتين سقط من (ف).
(3) ما بين العلامتين سقط من (ف).
(4) ما بين العلامتين سقط من (ف).

مضاربه وخيله ومتاعه، وسلبوا أصحابه وسجنوه وامتحنوه وأرادوا أن يوجهوه للسلطان مولانا عبد الله أخيه، ثم بعد ذلك رحموه وسرحوه، فكتب لأخيه مولانا عبد الله يستعطفه ويسأله بالرحم ويعتذر عما سلف ويطلبه محلا يستقر به، فأجابه السلطان وقال له : إنه لاذنب عليك إنما كنت تطلب ملك أبيك كما أطلبه أنا، والملك بيد الله يوتيه من يشاء، والآن إن أردت الخمول مثلي فاسكن لأصيلة واستقر بها فإنها أحسن من دار دبيبغ التي أنا بها، وأرح نفسك كما أرحت نفسي، وإن كنت مازالت نفسك متشوفة للملك فشأنك به، أما أنا فلا أنازعك والسلام فلما وصله الكتاب انتقل الى أصيلة ونزل بها وأصلح دار الخضر غيلان التي بقصبتها فسكن بها عام ستين ومائة وألف، فاجتمع عليه بعض سماسرة الفتن ممن كان معه، فأشاروا عليه بوسق الزرع للكفار وتوسطوا له في الكلام مع بعض التجار النصارى من طنجة وتعاقدوا معه على وسقه وجاؤوه لأصيلة، ولما جاءه الركب وسق الزرع وأعطى الواجب على ذلك وهو الصاكة، فظهر له الربح، وحمد تلك المنزلة، ورغب في شراءه هو وبيعه لمن يأتي من التجار، وبلغ خبره بر النصارى فقصده التجار بمراكبهم، وكان يشتري الزرع ويبيعه، وعمرت المرسى وجاء الأعراب بالزرع وهو يشتري ويخزنه حتى تجيء المراكب فيبيع بالربح الكبير فكثر المال وكثرت أتباعه وجعل يشتري العدة بكثرة لأصحابه، واشتعلت ناره بعد خمودها، فبلغ خبره للسلطان فندم على إذنه له في سكنى ذلك المحل فكتب للقائد عبد الله السفياني يأمره أن ينزل عليه بأصيلة، وكتب لولده سيدي محمد بأمره أن يبعث من يخرجه منها ويتوجه معه عبد الله السفياني، ووجه له سيدي محمد من مراكش ابن عمه مولاي ادريس بن المنتصر في مائة من الخيل ‹وأمره أن يصحب معه عبد الله السفياني في خمس مائة من الخيل›(5) الى أن يخرجوه منها فتوجهوا إليه ونزلوا عليه، ولما اجتمع مع ابن أخيه مولاي ادريس رغب منه أن يخلي سبيله، واعتذر له بأن السلطان أخاه أعطاه هذا المرسى وأمره بالنزول فيها، فلم يقبل له عذرا وأخرجه وحاز كلما وجد عنده من المال والسلاح والبارود والقش، وتوجه بذلك كله للسلطان مع مولاي ادريس بن المنتصر، فلما وصل لفاس نزل بضريح الامام أبي بكر بن العربي ووجه ولده

(5) ما بين العلامتين سقط من (م).

للسلطان يشكو ما فعله به سيدي محمد، فقال له السلطان : قل لأبيك لا سبيل لي عليه فهو أعظم مني ومنك، فسر لبلد أبيك وأسلافك واسترح من التعب›(6) فإن الموت قريب مني ومنك، فما وسعه الا التوجه لصفرو وترك عياله بدار مولاي التهامي بالجوطية، ودخل هو دار الامارة بصفرو، ثم توجه لأعيان آيت يوسى فقدموا عليه فطلب منهم نصرتهم والقيام بدعوته، فتخاذلوا عنه وقالوا له : نحن وحدنا لا نقدر على هذا، فاذهب الى آيت ادراسن وگروان، فإن أجابوك فنحن معك، ولما بلغ متاع مولاي المستضيء للسلطان لم يأخذ منه شيئا إلا البارود، وقال لقائد فاس، يكتب لمولاي المستضيء يوجه وكيله يحوز له متاعه كله، فوجه من قبض له ذلك ودفعه لعياله لدار مولاي التهامي، ولما خاب سعيه الذي كان يسعى فيه مع البرابر ولم ينجح له عمل، وجه من أتاه بعياله من فاس وراح لسبيله بتافيلالت، وكان عاقبة أمره ‹خسرا›(7) وكان ذلك عام ستة وستين ومائة وألف ‹فاستوطن تافيلالت الى أن مات رحمة الله عليه عام ثلاث وسبعين ومائة وألف›(8).

قال الزياني : وكان المستضيء ظلوما جهولا سفاكا للدماء، نقلت عنه في الظلم حكايات منها ما حدثني به التاجر الحاج ‹علي›(9) الجنيح الطرابلسي بتطوان قال : لما جئت من طرابلس نزلت بجبل طارق بقصد التجارة، فبلغنا أن الزرع يوسق من أصيلا علي يد المستضيء فشرهت نفسي لذلك، وكانت بين يدي عشرون ألف ريال دورو، فأكريت مركبا وحملت بضاعتي وأخذت معي هدية للمستضيء، وتوجهت لأصيلة ولما أرسينا بها جاءتنا الفلوكة، فسألونا، فقلنا أتينا بقصد الوسق، فأمرني صاحب الفلوكة بالنزول، فأخذت الهدية ونزلت معه، فلما بلغنا القصبة دخل وتركني ثم رجع وأخذني معه، ولما واجهني المستضيء سألني عن بلادي فقلت من طرابلس، ولي اتصال من بجنابكم فإني أعرف سيدي محمد بن عبد الله لما كان عندنا بطرابلس ‹بدار الباشا›(10) مع جدته السيدة خناثة

---

(6) ما بين العلامتين سقط من (م).
(7) ما بين العلامتين سقط من (ف).
(8) ما بين العلامتين سقط من (م).
(9) ما بين العلامتين سقط من (ف).
(10) ما بين العلامتين سقط من (م).

بنت بكار، ودخل دارنا، وكان حينئذ من أقراني، وتصاحبت معه، فهش لسماع كلامي، وقال لي : مرحبا بك وآنسني حتى طمعت في إحسانه، وقال لبعض خدامه سر معه حتى يري الزرع الذي عندك، فسار معي الى مخزن ففتحه وأراني الزرع، وتكلمت معه في الثمن والجمرك الى أن وقع الاتفاق ورجعت للمركب، ولما أصبحت حملت الخناشي في الفلوكة ونزلت، فقدم علينا الرجل وذهبنا للمخزن وعبرنا الزرع وحمله الحمالون الى الفلوكة وأفرغوه في المركب ورجعوا واستمر حالنا في الوسق الي أن أكملنا وسق المركب ووقع الحساب، فكان مبلغ الثمن والصاكة أربعة عشر ألف ريال وكذا، وفي الغد أنزلت العدد الواجب من المركب وتقدمت به الى الرجل فتوجه معي الي الباب ودخل، فلما رجع حمل المال ودخل به ورجعت أنا الى المركب فبت، ولما أصبح جاءني الرجل للمركب ومعه أعوان وخدام فأنزلوني من المركب بمالي وحوائجي وأمر البحرية أن ينزلوا الزرع من المركب في الفلائك، ورده للمحل الذي خرج منه، وأدخلني للسجن، وأخذ جميع الحوائج والمال، وأقمت بالسجن يأتيني كل يوم قرصان قرص بالغداة وقرص بالعشي سبعة أشهر الى أن أخرجه مولاي ادريس بن المنتصر فسرحني أهل أصيلة واكتراني أحدهم بهيمة لتطوان، فلما دخلتها بعت ساعة ذهبية سلمها الله من النهب لأنها كانت معي في جيبي، فخلصت الرجل في كراء بهيمته، وركبت لجبل طارق ودخلت منزلي الذي كنت فيه وأنا لا أملك غير ثمن الساعة، وحمدت الله على سلامة نفسي، فبينما أنا جالس ذات يوم في قهوة علي البحر إذ بان لي مركب من بعيد على الأفق فناديت رئيس فلوكة فركبت عنده وقال لي أين تريد ؟ قلت أريد المركب الذي في الأفق، وأريته إياه فقال : بعيد، فقلت له ركب القلع وسر ولا عليك، فلما بلغته طلعت للمركب فوجدت رئيسها من جنس الأنجليز قدم من انجلترا، وكنت أحسن لسانهم، فسألته عن سلعته، فنزل بي الى القاهرة وأخرج لي الفاتورة وسردها علي وذكر مبلغ ثمن السلعة فجاريته في السوم الى أن وقع الاتفاق على ذلك، فدفع لي الفاتورة وأعطيته خط يدي بالشراء ومبلغ الثمن، وأطعمنا حلاوي وسقانا، ولما بلغنا المرسى نزلت فلقيت جماعة من تجار اليهود والنصارى، فقالوا من أين قلت من المركب وهو لي، وهذه فاتورته فمن أراد الشراء فليأت، ودخلنا القهوة وتكلموا بينهم وعملوا

الثمن بعدما قرأوا الفاتورة الى أن وقع الاتفاق على الثمن على خمسين ألف ريال دورو فدفعت لهم الفاتورة وقبضت لهم خطوط أيديهم، وفي الغد أنزلوا سلعتهم وخلصوا ثمنها، فدفعت لربها ثلاثين ألفا، فأخذت العشرين ربحا، وهي التي أخذها المستضيء حراما ظلما أخلفها الله علي في الحين، ولم أذكر ذلك الذي كان أصابني منه لأحد، ولكنني صبرت وشكوت لله سبحانه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، انتهى كلام الزياني، فلينظر الناظر الى هذا الظلم التي تكاد السماء أن تنفطر منه، هذا آخر أمر مولاي المستضيء.

وأما بقية خبر خلافة سيدي محمد بن عبد الله فإنه لما طرده أهل مراكش من الرحامنة وأهل الحوز كما قدمنا، وسمع ذلك أهل الرباط وسلا وكان أخوه مولاي أحمد بن عبد الله خليفة كما تقدم طمعوا أن يطردوه كذلك <فطردوه>(11) بعد محاربته وحصاره بالقصبة هو وعبيده فلان(12) الذين كانوا إدالة فيها من زمان مولانا اسماعيل، وقطعوا عنهم الماء والميرة حتى لحقهم الجهد، فطلبوا الأمانة فأمنوهم وخرجوا، وتوجه مولاي أحمد لأخيه سيدي محمد وهو بآسفي وفرق أهل الرباط العبيد بالمدينة بحيث لم تبق لهم شوكة، فلما رجع سيدي محمد من آسفي لمراكش وبنى داره وأكملها وسكنها غرس بستانا متصلا بها سماه النيل، وأسس قصرا آخر متصلا بالبستان المذكور من الجهة الأخري سماه القصر الأخضر، وجعل لهذا البستان أربعة أبواب في كل ركن باب، وباب القصر الشرقي وهو الدار الكبرى وباب القصر الاخضر وهو غربي، وجعل في وسط النيل قبة في مركزه لها أربعة أبواب كل باب أمامه ممشى يتوجه لقبة أمامه، فكان ذلك من منازه الدنيا وزينتها، وطول النيل بالتقدير نحو من مائتي غلوة(13) وهو بين القصرين المذكورين، وله باب الى ناحية الشمال متصل بمسجد الإمارة المسمى ببريمة، وهو الذي أسسه سيدي محمد على هيئة عجيبة بديعة الشكل متقنة الوضع تحير من تأملها وتروق من أبصرها، والحاصل أنه مسجد جامع حافل أقامه بباب داره لصلاته وجمعاته لا يرى أحد مثل

---

(11) ما بين المعلامتين سقط من (ف).

(12) عبيد فلان : إدالة قصبتا الرباط أيام مولاي إسماعيل

(13) في مصباح الفيومي : الغلوة : الغاية وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ويقال هي ثلاثمائة ذراع الى أربعمائة.

شكله في جميع المساجد ثم أصلح ما وهى من جامع المنصور وكان قد تداعى للاضمحلال، وبنى مدرستين للطلبة بالقصبة، وبني حماما وعمر مساجد أخرى بالقصبة للعبيد والأحرار، وفرق المال على من معه لبناء دورهم بعد أن كانت من القصب والطين، وجند الأجناد وكتب الكتائب، وأول حركاته للسوس الي أن تخلل أرجاء ه ‹ومهد أحياءه›(14) بسائطه وجباله وجبى أمواله وقرر الحامية بتارودانت، ثم توجه لمرسى أگادير فقبض على الطالب صالح الثائر فيه المستبد بخارج مرساه ‹فسجنه›(15) واستصفى جميع أمواله التي حصلها ورتب الحامية في أگادير، ثم إن صالحا المذكور الذي في السجن ذبح نفسه، ثم رجع سيدي محمد لمراكش،

وذلك عام تسعة وستين ومائة وألف، وفي هذا العام حرك للشاوية لما أظهروا الفساد في الأرض يقطع الطرقات والنهب للسبل، فقتل منهم العدد الكثير، وقبض منهم عددا كثيرا، واستباح أموالهم وجهزهم في الأغلال والسلاسل لمراكش، وتوجه للرباط فنزل برباط الفتح، وخرج له أهل الرباط بالهدية والضيافة والمئونة، وأما عبد الحق فنيش رئيس سلا فانه أغلق أبواب مدينته فلم يخرج منهم أحد فأعرض عنهم سيدي محمد وقطع على المجاز وتوجه للقصر، فقدم عليه العبيد مع كبيرهم الباشا الزياني من مكناسة، وفي الغد رحل، وفي ذلك اليوم قتل العبيد الباشا الزياني المذكور لأنه كان يمنعهم من القدوم على سيدي محمد، وقتلوا أيضا القائد يوسف لأجل ذلك، وقيد سيدي محمد على العبيد القائد السعيد بن العياشي وتوجه لتطوان وتلقاه أهلها مع قائدهم الوقاش فقبضه وهدده ثم سرحه، وتوجه على طريق سبتة وعبر منها الى طنجة ثم الى العرائش ورجع لسلا ثم الى مراكش، في عام سبعين ومائة وألف وقع حرب كبير بين آيت آدراسن وگروان أعان فيها الوداية گروان فوقعت الهزيمة على آيت ادراسن كما تقدم.

---

(14) ما بين العلامتين سقط من (ف).

(15) ما بين المعقوفين إضافة من (ف).

الخبر عن مآل العبيد من موت مولانا إسماعيل الى ايام سيدي محمد بن مولاي عبد الله

وقد تقدم جل ذلك في رايات ملوك اولاد مولانا إسماعيل، وذكرنا أن عددهم بلغ في أيام مولانا إسماعيل مائة ألف وخمسين ألفا، كان منهم بالرمل سبعون ألفا بين الخيل والرماة، وكان بتانوت ووجه عروس خمسة آلاف كلها رماة، ورؤساؤهم وقوادهم بالخيل وأصحاب الباشا مساهل وهم الأنجشارية خمسة وعشرون ألفا كلها رماة غير قوادهم، وباقي العدد وهو خمسة وأربعون ألفا متفرقة في قلع المغرب من وجدة الى شنقيط بأقصى القبلة، ومن توات الى آخر المعمور بالصحراء، فرقهم هناك لعمارة السبل وتأمين البلاد وحماية الثغور، وكانوا في غاية من الكفاية كل قبيلة تدفع أعشارها في هري قلعتها لعولة جيشها وعلف خيلهم طول أيامه، ولما مات انقطع عن عسكر القلع المدد الذي كان به قوامهم، ولم يلتفت إليهم أحد من أولاده الملوك من بعده، ولا وصلهم بإعانة وخرجوا للتمعش علي أولادهم وأنفسهم بالقبائل التي هم فيها، وامتدت أيدي النهب للقلع التي تركوها، فأخذوا أبوابها وسقوفها ولم يبق الا الجدران، وهكذا وقع للمحلة بالرمل لما ارتحلوا عنها ودخلوا لمكناسة أغار عليهم بنو حسن وكل من وجدوه بها متأخرا نهبوه، وأخذوا كل ما تركوا مما ثقل عليهم حتى يرجعوا إليه، بل لم يقنعهم إلا تخريب الدور وحمل أبوابها وخشب سقفها لسلا، وكان في المحلة دور أكابرهم وقصورهم أحسن مما في الحواضر، إذ كان كل قائد يباهي غيره ويفتخر على الآخر ببناءه وتشييد مساكنه، فخرب بنو حسن ذلك كله في أيام قلائل، وتفرق العبيد في القبائل لما افترق عشهم ورجع كل واحد الى القبيلة التي كان فيها قبل جمعهم وبعدما بلغ مكناسة من وصلها لم يقر قرارهم لقلة المدد وغلاء الأسعار وتوالي الفتن، وكانت تلك الأيام أيام مجاعة فلم يبق في مكناسة إلا القواد أهل اليسار ومن له حرفة، وضاق عليهم الحال لغلبة البربر المحيطين بهم كانوا يغيرون عليهم ويختطفون أولادهم من الأجنة والبحائر المرة بعد المرة، فلذلك انتشر نظامهم وتفرق ذلك الجمع، والدنيا أضداد، والبقاء لله سبحانه، ولما وقعت الزلزلة المتقدم ذكرها مات من العبيد في الزلزلة نحو الخمسة آلاف ولم يدرك منهم

سيدي محمد بعد سلطنته إلا القليل، وهو الذي جمعهم من القبائل بعد الانتشار، وتدارك شأنهم قبل الاندثار، وجمع شملهم وأمن روعتهم ورفع لهم البنود وسيرهم أعز الجنود، فأدركوا به من العز ما قارب(16) العز الأول، وبذلك كانت دولته تفتخر على الدول.

هذا آخر الكلام على السادات الشرفاء أولاد السلطان مولانا إسماعيل رحم الله الجميع، وقد نقلنا ما عثرنا عليه من أخبارهم ‹مفصلا›(17) بحسب الامكان، وإن كان الحق الذي لا شك فيه أن كل من قام منهم بعد بيعة السلطان مولانا عبد الله إنما هو ثائر لا إمامة له، وإنما يكون ذكره مسوقا من جملة أخبار دولة مولانا عبد الله فهو السلطان المعتبر بعد وفاة والده مولانا إسماعيل، فاعلم ذلك واعتمده ولا تلتفت الى غيره، والله أعلم وأحكم، ولذلك اقتصر مولانا عبد السلام بن محمد في تأليفه، المسمى بدرة السلوك بعد ذكر مولانا إسماعيل على ذكر مولانا عبد الله، ولم يزد عليه ذكر أحد من إخوانه، نعم ذكر نزرا يسيرا من خبر مولاي أحمد الذهبي وأخيه مولاي عبد الملك ‹ومولاي المستضئ›(18) وذلك ذكر كلا ذكر لأنه أجحف كل الإجحاف، وأجمل كل الإجمال، الشبيه بالإهمال فقال مشيرا الى ما ذكرناه ما نصه، وقد كان عمنا مولاي المستضئ نزل بأصيلة وأراد أن يظهر بعض الاستبداد، وسمت نفسه الى تملك بعض البلاد، فوجه إليه والدنا المنصور بالله صاحبه ابن عمه مولاي إدريس ابن المنتصر في جملة من الفرسان، فطرده عنها وسار يريد فاسا، ومنها توجه لسجلماسة، فبقي بها الى أن مات في أول خلافة والدنا رحمه الله تعالى، ولم يزل والدنا نصره الله يصلح ما وهى من أمر الخلافة والعساكر، والقبائل، والعشائر، حتى رد الخلافة الى عنصر شبابها، وقد كانت بيوت الأموال قبله قد ضعفت، وجنود الحضرة قد اضمحلت وتلاشت، لما توالى من الفتن بمقاساة حروب الثوار، فتدارك الله أمر المسلمين، بولاية مولانا والدنا أمير المؤمنين، وكانت خلافته بمراكش ونواحيها سنة ثمان وخمسين ومائة وألف، ومات والده رحمة الله عليه سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، انتهى، فانظر الى هذا الاجحاف المفرط، فمن اطلع على ما قدمناه

---

(16) في (ف) : (أدرك) بدل : (قارب)

(17) ساقط من (ف).

(18) ساقط من (ف).

من الأخبار الهائلة الواقعة خصوصا مع مولاي المستضئ في تلك الأزمان الممتدة، والحروب المشتدة، ومكابدة السلطان مولانا عبد الله لمدافعته عن كل ناحية حتى ركدت رياحه وسمع كلام مولانا عبد السلام تيقن أنه لو ترك الخبر عنه بالكلية لكان أولى، فإن كلامه يوهم أن مولاي المستضئ إنما ظهر بأصيلا، ثم طرد عنها، وذهب لتافلالت وهيهات هيهات، فإن في خلال ذلك أهوالا كما تقرر في رايته، والله أعلم وأحكم، وصلى الله على النور ‹المطلسم›[19] وعلى آله وسلم.

(19) ساقط من (م).

الراية المباركة الجليلة، ذات الافياء الظليلة في دولة سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله بن إسماعيل

لما توفي السلطان مولانا عبد الله رحمة الله عليه عام واحد وسبعين ومائة وألف في ربيع الأول، وبلغ الخبر لولده سيدي محمد بمراكش، أقام عزاءه على الوجه المعتاد، فلما فرغ من ذلك حضر أعيان مراكش من الأشراف والعلماء وأهل الحل والعقد، فبايعوه، ثم وردت وفود قبائل الحوز والدير وسوس وحاحة والشياظمة وعبدة بهداياهم، وتلقوا بيعته بالقبول والفرح، والتزام الطاعة. ثم قدم الوداية والعبيد وأهل فاس أعيانهم وأشرافهم وعلماؤهم بهداياهم، ولم يتخلف أحد عن بيعته من أهل المغرب، قال مولانا عبد السلام <بن محمد في كتابه جواهر السلوك>(1) ويويع لمولانا الوالد السلطان الأعظم البيعة التامة، الصحيحة العامة، حضرها جماعة من أعيان العلماء، مثل قاضي الجماعة بمكناسة السيد سعيد العميري(2) وقاضي الجماعة بفاس السيد عبد القادر بوخريص(3) وشيخ الجماعة السيد محمد جسوس(4)، والامام المحقق رافع لواء المنقول والمعقول أبو حفص شيخنا سيدي عمر الفاسي(5) وابن عمه السيد أبو مدين الفاسي(6) وهو الذي تولى كتابة البيعة بيده، وإمام جامع الشرفاء الأستاذ مولاي عبد الرحمان المنجرة(7) وشيخنا العلامة السيد التاودي ابن سودة

---

(1) مابين العلامتين ساقط من (م) ومن (ف) والكتاب تقدمت تسميته "بدرة السلوك".

(2) هو سعيد بن أبي القاسم العميري التادلي الأصل المكناسي القرار والوفاة ت 1131هـ 1718م. «التقاط الدرر» ص 314 «النشر» ص 238. وماذكره مولاي عبد السلام في حضور البيعة غير صحيح لأنه توفي قبلها بما يقرب من 40 سنة والمراد انما هو ولده أبو القاسم كما يأتي.

(3) هو أبو محمد عبد القادر بوخريص الكاملي الجعفري الفلالي الفاسي، القاضي العادل ت 1188هـ 1774م «الشجرة» ص 356 «السلوة» ص 12 ج 2.

(4) أبو عبد الله محمد بن قاسم جسوس علامة جليل. شيخ علماء وقته. ت 1182 هـ 1768م «النشر» ج 4 ص 188 «الشجرة» ص 355.

(5) أبو حفص عمر بن عبد الله بن يوسف، خاتمة المحققين الأعلام، من أكبر شيوخ الأسرة الفاسية اللامعة ت 1188هـ 1774م "الحياة الادبية" ص 306 "الشجرة" ص 356.

(6) ابن محمد فتحا بن شيخ الاسلام عبد القادر الفاسي ت 1182هـ 1768م هكذا في «النشر» ج4 ص181 وفي «عناية أولي المجد» للامام العادل مولانا سليمان ت1181هـ 1767م ص59.

(7) أبو زيد عبد الرحمن بن ادريس الحسني الادريسي ينتمي الى أسرة ادريسية من تلمسان ت 1179هـ 1766م «الحياة الأدبية» ص286 «الشجرة» ص354.

المري[8] وإمام المسجد الكبير بفاس الجديد السيد عبد الله السوسي[9] والإمام الحافظ المحدث سيدي إدريس العراقي[10] وغيرهم ممن لا يحصى كثرة، انتهى.

قال مقيده : وهذا الكلام أيضا فيه إجمال وإرسال ونظر، أما الإجمال فإن هذه البيعة لاشك أنها وقعت في فاس، وهو لم يبين هل كانت قبل قدوم سيدي محمد من مراكش بأن بايعوه في غيبته بنفس موت أبيه، ووجهوا البيعة له مع وفد التهنئة والتعزية لمراكش، وهذا هو الظاهر، فإنه إنما بويع بمراكش كما تقدم، أو هذه البيعة إنما وقعت بعد قدومه من مراكش، هذا محل الإجمال، وأما النظر فإنه ذكر أن القاضي سيدي سعيد العميري حضر هذه البيعة مع أن القاضي بمكناسة قبل ذلك بكثير أيام مولانا عبد الله ومولاي المستضيء، إنما هو ولده السيد أبو القاسم، والظاهر أن السيد سعيد توفي في أواخر أيام مولانا إسماعيل.

ولما وردت الوفود على السلطان سيدي محمد لمراكش للتهنئة كما تقدم جلس لهم لمباشرة ملاقاتهم وإجازاتهم، فلما فرغ من ذلك أعطى للعبيد خيلا كثيرة وسلاحا عتيدا وتجهز للحركة للغرب بعد أن استقدم عساكر أهل الحوز. واستنهض أعيانهم لصحبته، فلما بلغ مكناسة دخل دار الملك وفرق الأموال والخيل والسلاح على العبيد، يريد بذلك جبر كسرهم، وكانوا على غاية ما يكون من سوء الحال، لأن البربر قد نالوا <كل>[11] المنال الفظيع، كانوا يأخذون أموالهم وأولادهم وبناتهم من الأجنة والبحائر، فضلا عن البقر والبهائم والمواشي، فجبر الله صدعهم بولاية سيدي محمد، ثم ارتحل لفاس ونزلت عساكره بالصفصافة، وهو من جملتها نازل بالمحلة، وخرج لملاقاة أهل فاس والوداية واختلط مع العامة بغير حجاب، والناس يتبركون

(8) أبو عبد الله محمد التاودي بن سودة المري القرشي الأندلسي أصلا الفاسي دارا ومنشأ ت1209هـ 1794م «الفكر السامي» ج 4 ص 127 «الدرر البهية» ج 2 ص 294 «السلوة» ج 1 ص 112.
(9) أبو محمد عبد الله السوسي من أهل سوس المستوطنين فاسا الجديد ت1177هـ 1763م «النشر» ج 4 ص 155 «السلوة» ج 1 ص 141 وحقق تاريخ وفاته من النشر.
(10) أبو العلاء ادريس بن محمد بن ادريس العراقي ت1183هـ 1769م «النشر» ج 4 ص 193 «الشجرة» ص 356.
(11) ما بين المعقوفين إضافة من (م)

به ويقبلون أطرافه[12] ولا يدفعهم أحد، وفرق المال والكسوة والسلاح في الوداية وعبيد السلوقية، وأعطى الشرفاء والعلماء وطلبة العلم والمدارس والأئمة والمؤذنين والفقراء والمساكين، ولم يحرم أحدا من المستحقين، فلما كان يوم الجمعة جاء لفاس الجديد وخرج من المحلة في هيأة عجيبة، وأبهة سلطانية، تروق الناظرين، وتسوء الحاسدين، وخرج أهل المدينتين كلهم لرؤيته، وكان ذلك موقفا مشهودا، فصلى الجمعة بفاس الجديد، فلما فرغ جلس مع الفقهاء، وسأل عنهم واحدا بعد واحد إلى أن عرف أعيانهم بأسمائهم وصفاتهم، قال مولانا عبد السلام : رحمه الله : وكان له ولوع بمجالسة الفقهاء، واعتناء عظيم بهم وبمذاكرتهم وإلقاء المسائل الغريبة عليهم وتعجيزهم بها، يريد بذلك مباسطتهم واستخراج ما عندهم من ذلك، وله أخبار في ذلك يطول ذكرها، ولأدباء المغرب أمداح في أموره المتجددة من الأعياد والحركات شئ كثير، ثم خرج الى ضريح والده فزاره ورتب عليه القراء، وعين لهم مستفاد الصدقات، ودخل لدار الملك على أخواته وعيال والده، فعزى كل واحدة منهم، وواصلهن بما يناسب ذلك المقام، وخرج للمبيت بالمحلة، وفي الغد ركب لدار دبيبغ فدخل إليها، ووقف على متخلف والده من الأموال والخيل والسلاح والأثاث وأحصى ذلك، وكلف كل واحد من أصحاب أبيه بما كان تحت يديه، والجميع الى نظر الحاجب عبد الوهاب اليموري، وباشر أصحاب والده بالاحسان، ووعدهم بالجميل، وأعطاهم مالا اقتسموه، ثم بعد ذلك حاز مال والده وجد أكثره ذهبا، وذلك ألف سماط من الجلد الفيلالي تكون على السرج بأقفالها، في كل واحد ألفا دينار[13]، وهي من سكة ضربه، أعدها تكون محمولة على خيله خفيفة في السفر، فإذا نزل في المحلة يدفعونها في القبة كل يوم، كل واحد فلان باسمه، ويوم الرحيل تدفع لهم كذلك بالزمام، ووجد مائة رحى من الذهب الإبريز، كقرص الشمع الخم[14] كل رحى فيها وزن أربعة آلاف دينار تكون محمولة على البغال، أربعة في الشواري مغطاة بالحنابل، مضروب عليها بالحبال، على خمسة وعشرين بغلة، تسير أمامه، فإذا وصل المنزل تدفع بالقبة مع الصماطات، وهذا من الحزم، والحازم لا يفارقه من ماله ما فيه كفاية

(12) كذا بالأصل وفي (ر) (يتبركون به وبأطرافه) وفي (ف) ويقبلون يده.
(13) في (م) و (ف) ألف. بالأفراد
(14) سقط من (م)

الضرورات والنوائب، وربما يفجأ العدو، وتدعو الضرورة للفرار ويبقى ماله لعدوه، ووجد أيضا ثلاثمائة ألف ريال إلا خمسة عشر ألف ريال، ونحو العشرين ألف مثقال من المزونات الرقيقة من سكة ضربه، هذا ما تركه السلطان مولانا عبد الله من المال، وكان على يد القائد علال بن سعود من وصفانه، وهذا ما تركت النوائب مع ما هو معلوم به من أنه كان يعطي بلا حساب العطاء الخارق للعوائد، وهذا القدر من المال قليل بالنسبة للمملكة العظمى، فإن جميع ما ذكر ما بلغ مليونين، ولكن في ذلك الزمان كان هذا القدر في غاية العظمة فيما يقال.

تنبيه : وجود هذا المال ذهبا على هذه الصفة، مع ما علم من أن كثرة عطايا مولايا عبد الله إنما تكون ذهبا وأكثر سكته إنما هي ذهب وديناره في غاية ما يكون من الصفاء والخلوص والكبر والجودة، مع كونه ما علم أنه كان له اتصال بأرض الذهب الذي هو السودان، هذا كله مما يكاد يصحح ما استفاض أنه يعرف صنعة الاكسير(15)، وإن اختلف العقلاء في إمكان وجودها واستحالته، على فرض الامكان هل برزت من القوة الى الفعل أم لا ؟ وهذه الأقوال التي أشرنا إليها كلها مبرهن عليها في كتب الحكماء، وإن كان القاضي العلامة عبد الرحمان بن خلدون بالغ في إنكارها إمكانا فضلا عن الوجود، ولكن القرائن حاسة سادسة كما قيل، وقد حدثني بعض الثقات من شرفاء تافلالت أن مولانا عبد الله ظفر بها على يد رجل لا يعرفه، قدم عليه وهو بدار دبيبغ، وقال له أعرف الصنعة الالهية وأريد أن أعلمها لك تكون لك عونا على ما أنت بصدده، فأدخله لمحل خلوة، وجعل يباشر له ذلك ويوقفه على أسراره، حتى أكملها وعملها السلطان بيده بحضرة الرجل فأتقنها، فلما تيقن كيفية العمل واختبر ذلك المعمول فوجده في غاية الجودة وقبول الامتحان، قال له السلطان، إني أخبرك في إحدى خصلتين : وإما أن تبقى في محلك هذا ولا تخرج أبدا ما دمت أنا في الحياة، وإما أن أقتلك إن أردت الخروج، فاختار عدم الخروج، وبقي كذلك مدة، وكل ما يحتاجه يأتيه، ثم إنه ذات يوم خرج السلطان لصيده على العادة، وكان ذلك وقت شدة الحر، واستلذاذ الظل البارد فخرج ذلك الرجل

---

(15) في (ل) (صحة) بدل (صنعة).

‹يتروح فوجد البوابين غلبهم النوم فخرج الرجل›[16] عن الباب، فلما انفصل عن دار دبيبغ لقيه السلطان راجعا، فلما قرب اختبأ في محل يمر فرآه، فقال لهم : انظروا ذلك المختبئ من هو ؟ فأتوه به، فقال لهم شدوا وثاقه ورماه للقناجر فافترسوه، وكان ذلك جزاء من أفشى سر الله تعالى، ‹وأما مولانا عبد الله فإنه سلب الملك من يومئذ ولم تنفعه تلك الصنعة الشريفة، فكان الناس يلعبون بالذهب في أصحابه وأتباعه ولم يغن عنه شيئا›[17] ‹قال ذلك المحدث›[18] ويقال إن مولانا عبد الله علمها لولده سيدي محمد، والله أعلم انتهى، وحدثني الزياني أبو القاسم في بعض أخباره عن السلطان سيدي محمد أنه لما وجهه لأسطنبول مع من كان توجه معه بعث أحمالا من بارات الذهب كبارات الحديد مشدودة بالحبال على ظهور الدواب كما يحمل الحديد، قال : وكان سيدي محمد ‹أحمق›[19] يجمع صرر الذهب ويسبكها على تلك الحالة كالبارات ويبعثها للمشرق لأسطنبول وللحرمين ليقول ‹الناس›[20] إنه يعرف الإكسير انتهى، أقول إن هذا أيضا مما يصدق ما ذكره ذلك الشريف من أن سيدي محمد علمه أبوه والله أعلم وأحكم.

ثم نقل سيدي محمد السلطان متروك أبيه لمحلته، ووكل به أهل خدمته، وأوصى أصحابه بأصحاب أبيه بالتوقير والاحترام، ونظمهم في سلك خدمته، ومن ظهرت نجابته قربه وأدناه، ومن لا عبرة به ولا فائدة فيه أهمله وأقصاه، وورد عليه بفاس عامة قبائل المغرب بالهدايا فأكرم كلا بما يليق به، وكان في ابتداء أمره، وأوائل دولته سهل الحجاب، ولم يعزل أحدا من عمال القبائل وقواد المدائن، بل ترك ما كان على ما كان إلا بعد الاختبار والامتحان، غير أن أهل تطوان فر قائدهم الوقاش لضريح مولانا عبد السلام، بجميع ماله وأولاده خوفا على نفسه لسوء ما تقدم له مع السلطان في أيام أبيه وهو خليفة، كان إذا كتب له على شئ لا يفعله ويقول

(16) ما بين العلامتين سقط من (م)
(17) ما بين العلامتين ساقط من (ف)
(18) ما بين العلامتين سقط من (م)
(19) سقط من (ف)
(20) سقط من (ف)

لمن يأتيه أنا متزوج برجل لا يملك بضعي غيره، فلما فر قدم أهل تطوان فأخبروا السلطان بفراره فولى عليهم عبد الكريم ابن زكور(21) أحد كتابه كان وجهه لمراكش واليا على العرائش، فلما وفد عليه أهل تطوان ولاه عليهم لكونه حضريا يناسبهم، وأقام السلطان بفاس شهرين ورجع لمكناسة، ومنها توجه لناحية غمارة، بسبب المرابط أبي الصخور الخمسي، كان له صيت عظيم بتلك القبائل، وكان يقول لهم إن هذا السلطان لا يطول ملكه، فقبضه وقتله ووجه رأسه لفاس، وولى على قبائل غمارة والأخماس وتلك النواحي كلها الباشا العياشي، وأنزله بشفشاون.

وفي أول المحرم عام اثنين وسبعين ومائة وألف رجع من حركته لمكناسة مريضا، ثم عافاه الله بفضله ‹ففرح الناس›(22) لما تخلف قول المرجفين لما مرض إنه أصابه ما أصابه من قتل أبي الصخور، وصدق في قوله إنه لا يطول ملكه، وفي صفر توجه لمراكش بعد أن أمر بنقل عبيد السلوقية لمكناسة مع إخوانهم، وأخذ معه لمراكش ألفا من رجلية العبيد بقصد أن يعطيهم الخيل والسلاح ويكسوهم، فلما دفع لهم ذلك ردهم ووجهوا ألفا آخر ‹كذلك واستمر هكذا كلما أركب ألفا وجهوا ألفا آخر›(23) حتى أكمل لهم العدد، واستوفوا خيلهم وسلاحهم، ولم يسأل عما كان عندهم في أيام والده، وفي عام ثلاثة وسبعين ومائة وألف تجهز للحركة وقدم لمكناسة وفرق الراتب على العبيد، ووجه للوداية راتبهم، وأمر بالحركة للمراسي، وخرج من مكناسة فنزل بتطوان، وأمر ببناء برج مرتيل، وفرق المال على العبيد الذين بمرتيل وهم بقية عبيد سبتة لأنه لما انتثر نظام الملك بموت مولانا إسماعيل وفر العبيد من سبتة وبقي هذا الألف الذي لا قبيل له يرجع اليه فنقلهم الوقاش لمرتيل، وكان يحسن إليهم ويستظهر بهم على مراده وحقه، وكان يدافع بهم عن بلاده، ثم نهض السلطان من تطوان وجعل طريقه على سبتة فلما سامتها وقف هناك وتأملها حق التأمل، وكان لم يعرف حقيقة وضعها فتحقق مناعتها وحصانتها، وأنه لا مطمع لعاقل في أخذها عنوة، وأمر العساكر بإخراج حاضرونًا من البارود، فرد عليه الكفار

---

(21) عبد الكريم بن عبد السلام بن زاكور، أحد كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله ت1200هـ 1785م وفيات ابن سودة، ص 66.

(22) سقط من (م)

(23) ساقط من (م)

حاضرونًا بالمدافع والكور، فكادت الجبال أن تنهد بذلك، فتعجب السلطان من ذلك، وما كان قصده بتلك الحركة إلا الوقوف على سبتة وأن يطلع على كنه أمرها، فيطمع فيها أو ييأس منها، فيئس منها وقطع أمَلَه من منازلتها، وعلم أنما أعجز مولانا إسماعيل لا ينبغي لغيره الطمع فيه، ثم أوصى أهل أنجرة بتعيين طائفة من رماتهم للحراسة والوقوف على الحدود، وأعطاهم الإعانة على ذلك وتوجه لطنجة فنزل قريبا منها ولقيه أهل الريف بأعدادهم وعددهم وأبهتهم التي أدركوها في أيام أحمد ابن علي الريفي، وكان قائدا عليهم عبد الصادق ابن أحمد ابن علي، وكان عبد الصادق قدم عليه لمراكش قبل وفاة والده مولانا عبد الله فأكرمهم وفرق عليهم المال والكسى وأمر عبد الصادق أن يوجه أخاه عبد الهادي يقف على إنشاء الغلائط بتطوان، ثم توجه السلطان للعرائش فوجدها خالية ليس فيها إلا نحو المائتين(24) من أهل الريف تحت ولاية أهل الغرب فقيديها عبد السلام ولد علي وعدي وأمر أن تأتيها مائة من عبيد مكناسة، وتوجه لرباط الفتح فأقام بها وأمر عليا مرسيل أن يبني صقالة على البحر ‹بالرباط›(25) وقائد سلا عبد الحق فنيش أن يبني أخرى بسلا ‹تقابلها على البحر، وأمر بإنشاء سفينتين، واحدة بالرباط وأخرى بسلا›(26) ولم يكن عندهم قبل إلا سفينة واحدة مشتركة بين العدوتين أنشأوها أيام الفترة وتوجهوا بها لأكادير ومنه وجهوا رسلهم لسيدي محمد وهو خليفة بمراكش، فأكرم الرسل وأعطاهم مالا كثيرا للمجاهدين، ووجه السلطان من الرباط محلة العبيد والوداية فرجعوا لبلادهم وتوجه هو لمراكش وكتب لتجار النصارى بآسفي أن يأتوه بإقامة المراكب القرصانية صواري وأنطانات، وكَمن ومخاطيف وحبال وقلوع، فتنافسوا في ذلك وفرحوا بأمره لهم.

وفي هذا العام أيضا أمر رحمه الله بقدوم حراطين الصحراء الذين بالرتب وتافلالت وهم الجبابرة والمعاركة وأولاد بو احمد بلغه أنهم يعينون عمه مولاي الحسن بن إسماعيل على الشرفاء ومحاربتهم فنقلهم لمكناس وأعطاهم الكسوة والسلاح وكتبهم في ديوان الجيش، وفي عام ثلاثة وسبعين ومائة وألف بلغ خبر موت عمه مولاي المستضئ بتفلالت، وبلغه عن

---

(24) في (م) مائة بالافراد.

(25) سقط من (ل).

(26) ما بين العلامتين سقط من (م).

الوداية أنهم ما زالوا على ضلالهم وفسادهم القديم، وأنهم يدخلون بين البربر بالإغواء والنميمة لأنه لما مات محمد وعزيز افترقت كلمة آيت ادراسن وجروان، ووقع الحرب بينهم مرتين وأعان الوداية جروان كما تقدم ذلك في محله، ولما بويع سيدي محمد انحاز له، آيت ادراسن، إذ هم شيعة أبيه مع محمد وعزيز، وقيد عليهم سيدي محمد ولد محمد وعزيز، وأنزلهم بحوز مكناس إذ سمع ما وقع لهم مع جروان وحماية الوداية واشتغالهم بفساد الطرقات، وقبض الزطاطة هم والوداية وكان رئيسهم في تلك الوقت جبور فآخي السلطان بين آيت ادراسن، وايت يمور وعاهدهم وأوصى عاملهم على مكناس بالاحسان معهم والاعتناء بهم، وأمر جروان بالكف عنهم فلم يرجعوا عن ذلك ولم يمتثلوا أمره وتمادوا على حرب آيت ادراسن. فأمر السلطان قائد العبيد وقائد آيت يمور أن يشدا(27) عضد آيت ادراسن ويركبا لنصرتهم على جروان، حيث انتصر لهم الوداية، وخرج الوداية بمحلتهم لواذ فاس في أول يوم من رمضان وأقاموا به مفطرين منتهكين لحرمة الاسلام قبل سفرهم الحرام، وقصدوا مكناس مع جروان وزحفوا لآيت ادراسن، فكان اللقاء على واد وسلان فنصر الله، آيت ادراسن ووقعت الهزيمة علي جروان والوداية، ونهبوا محلة الوداية وحلة جروان، وقتلوا منهم نحو الخمسمائة، وقطعوا رؤوس أعيان الوداية، وعلقت بباب الجديد بمكناس، فلما بلغ الخبر للسلطان غضب على الوداية وأظهر إرادة المكر بهم.

وفي عام أربعة وسبعين ومائة وألف قدم السلطان من مراكش بقصد الوداية، فلما بلغ مكناس وجه الوداية عجائزهم وصبيانهم للشفاعة والاستعطاف، فتعرضن له في الطريق واستشفعن له، وسألنه بالرحم، فلقيهن باللطف وطيب قلوبهن، ووعدهن بالاحسان والعفو، وأعطاهن كسوة ودراهم وجئن صحبته لفاس، فنزل بالصفصافة وخيمت العساكر هناك وخرج أهل فاس والوداية لملاقاته ففرح بهم وأظهر البشر لهم، وفي الغد أمر بعمارة المشور بدار دبيبغ، وأخرج أهل فاس طعام الضيافة على العادة، فأمر بالطعام أن يدخل لدار دبيبغ، ولما صلى العصر خرج لعمارة المشور

---

(27) في (ل) «يشد» بدون أن

(28) ساقط من (ل).

فوقف <في موقف>[28] العرض، ودفع القبائل هداياهم، ولما فرغ أمر العبيد والوداية بالدخول لأكل الطعام بدار دبيبغ، وكان قد رتب فيها ألفا من المسخرين لقبض الوداية في ناحية أفردها لهم، فلما دخلوا وغلقت الأبواب أمر بالقبض عليهم، وجردوهم من السلاح، وكتفوا أيديهم خلف ظهورهم، وأضجعوهم علي الأقفية، ولما أكل الناس الطعام أمرهم بالركوب والإغارة على حلة الوداية والمغافرة باللمطة فركبت تلك العساكر وأغارت وتوجه السلطان من خلفهم فلما واجه فاسا الجديد رموه بالكور من الأبراج، ولم يغن ذلك عنهم شيئا، فوقف السلطان ببنود على دار[29] الرخا فلم يكن إلا ساعة حتى أقبلت العساكر بالغنائم والسبي والخيام، وفي الليل هرب من بقي منهم بفاس الجديد بعضهم لضرائح الأولياء بفاس، وبعضهم لزاوية الشيخ اليوسي، وبعضهم لسيدي أبي صرغين بصفرو وبعضهم لسيدي بوعلي، والضعفاء منهم على الأسوار يطلبون الأمان فأمنهم وخرجوا لفاس البالي، وأمر السلطان العبيد أن يأتوا بألف كانون ينزلون بفاس الجديد وأخلاه من الوداية، وأمر بتسريح أربعة من الوداية أحدهم قدور بن الخضر وأمرهم بالوقوف علي مساجينهم وأن يعينوا له المشهورين منهم بالعتو والطغيان، فأتوه بزمامهم وهم خمسون، كلهم من أهل الزيغ والفساد، فأمر أن يقيدوا بالأكبال، ويجعل كل اثنين في سلسلة ويوجهوا علي الإبل لمراكش كذلك اثنان على جمل، وأمر قدور بن الخضر بتسريح الباقين، ويكمل عليهم ألفا من الوداية والمغافرة، ويطرد الباقين لقبائلهم، ويحملون أولادهم لمكناسة يسكنون بها مع العبيد، وعين لسكناهم الأروى ينزلون به كأنه قصبة مستقلة، وأمر قدورا بتأديبهم وتجرية الأحكام عليهم حتى يتربوا بتربية المملكة، وكانوا قبل ذلك جفاة الطباع، في غاية الغلظة والقوة، فقيد عليهم السلطان قدور بن الخضر وهو أصغرهم سنا وأكبرهم عقلا ونجدة، واشتغل السلطان يدفع لهم الخيل والسلاح والكسوة إلى أن أكمل لهم ألفا، فصلحت أحوالهم، وبعد هذا التفت السلطان إلي الأمراء الذين كانوا أيام والده يكثرة الثروة تنازعهم نفوسهم، ويظهر لهم أن لهم على الدولة المزية والمنة، وأنه لولاهم ما قامت الدولة على ساقها،

---

(29) في (م) (باب) بدل (دار).

فاستمروا علي ذلك الضلال ولم يقلعوا، وأقاموا على عتوهم وما رجعوا، وكان السلطان في صدر ولايته أعرض عن شأنهم حتى يتفرغ لهم، وهم يظنون أنه جاهل بحالهم، فازدادوا ضلالا، فلما تفرغ لهم قبض على قائد الغرب الباشا الحبيب المالكي وأودعه المطبق وأمر بنهب أمواله ومواشيه وهدم قصره وأمر بحمل أنقاضه للعرائش، فلما دخل المطبق منع نفسه من الأكل والشرب غيظا إلى أن مات والطعام والشراب بين يديه، وصار إلي غضب الله سبحانه نعوذ بالله ورحمته من درك الشقاء وسوء القضاء، ثم قبض على صاحب سلا عبد الحق فنيش الذي كان السلطان أعرض عن سوء فعله معه أيام والده لما مر به وسد الأبواب دونه ولم يبالي بأمره ذهابا وإيابا كما تقدم ذلك، في أيام خلافته، فلما ولاه الله صفح عنه وأمهله وما أهمله، فاستمر علي ذلك ثم قتل رجلا من أعيان سلا ظلما وجورا، فلما رفع ذلك للسلطان وقام بين يديه أولياء المقتول يشكون به قبض عليه ودفعه لهم يقتلونه قصاصا، فتهيبوا من قتله، وطلبوا أن يقتل لهم وهم ينظرون، فأمر السلطان بقتله بحضرتهم، ووجه من حاز أمواله وباع أصوله ورباعه وأصول إخوانه وقرابته لبني حسن، ونقلهم من سلا للعرائش، فسجنوا بها، ثم بعد مدة عطف عليهم وسرحهم وفرقهم في ثغور السواحل، وولاهم رياسة الطبجية وآلات الحرب من مدافع مهاريز، بعضهم بالعرائش، وبعضهم بطنجة، وبعضهم بالرباط وبعضهم بمراكش، وبعضهم بالسويرة، وأعطاهم الديار المعتبرة والرباع المستغلة، ورتب لهم الرواتب اللازمة الكثيرة، وبلغوا في أيامه من الثروة والعز مالم يبلغه أسلافهم، ثم عزل قائد بني حسن بوعريف وولى عليهم خادم والده محمد القسطالي، وعزل قائد تامسنا ولد المجاطية وقائد تادلا الراضي الورديغي، وولى على تادلا وتامسنا جميعا زيادة علي دكالة وزيره السيد محمد بن حدو، وكان ولاه على دكالة لما قبض على عاملها ابن العروصي قائد مولاي المستضيء وأودعه المطبق مدة أعوام، ولما سرحه ولاه مدينة شفشاون وأعمالها، ولما فرغ من هذه الأشغال واستقرت الأمور في مراكزها وولى المراتب من يستحقها من أهل الكفاية والنجدة رجع السلطان لمحله.

وفي هذا العام باع السلطان مكوس فاس فاشتراها الصفار باثني عشر ألف مثقال في السنة، وذلك أنه لما بويع رحمه الله وقدم لفاس دفع له

أهل فاس ما كانوا يدفعونه لمولانا عبد الله من ثمن الموازين، وهو ثلاثمائة مثقال في كل شهر. فلما حضر فقهاء الوقت سألهم عن حكم ذلك في الشرع ليعرف مستند ذلك فقالوا له إذا لم يكن للسلطان مال يجوز له أن يقبض من الرعايا ما يقوم به جنود الاسلام ومصالح الدين، فأمرهم أن يكتبوا ذلك فكتبوا تأليفا اعتمده السلطان فوظف على الأبواب والسلع والغلل، وممن كتب له في ذلك الفقيه السيد التاودي بن سودة والسيد محمد جسوس والسيد عمر الفاسي والشريف سيدي عبد الرحمان المنجرة والسيد محمد بن عبد الصادق والسيد أويس(30) والقاضي السيد عبد القادر بوخريص، وعلى فتوى هؤلاء اعتمد، قال الزياني : وأما أهل القوانين من الأتراك والروم فإنهم يسوون بين العدل النبوي والعدل السياسي، ويقيمون العدل الاصطلاحي مقام العدل الشرعي الإلهي، وعندهم الجور المرتب أي المنضبط أحسن من العدل المهمل، ولا شيء أصلح للسلطان من ترتيب الأمور، ولاشيء أفسد له من إهمالها، ودرهم يؤخذ من الرعية على وجه الإهمال وإن كان عدلا أفسد لقلوبها من عشرة دراهم تؤخذ منها على جهة السياسة المرتبة أي على زمان معلوم أو شيء معلوم مألوف، وإن كان جورا كالمكس المرتب انتهى كلام الزياني، قال مقيده عفا الله عنه : وهذا الكلام خارج عن الشريعة المحمدية، قال مولانا جل وعلا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من لم تصلحه الشريعة لا أصلحه الله انتهى.

وأما قضية المكس وهي الملقبة بالمعونة فإن الكلام فيها معلوم قديما وحديثا، وقول ابن البراء(31) لأمير المؤمنين يوسف بن تاشفين معلوم مقرر وفتاوى ‹العلماء›(32) غير ابن البراء بخلاف قوله، وجرى عمل الدول السالفة من دولة المرابطين الى الآن على فتاوي غير ابن البراء حتى في هذه الدولة الشريفة الحسنية، ما عدا مولانا سليمان رحمه الله، قيل أن أهل فاس شرطوا عليه في بيعته ترك المكس، وقيل إنما ترك ذلك باختياره ورعا

---

(30) أويس فقيه، علامة، مفتي، ورد على فاس بعد العشرة السادسة ت1170هـ 1756م «النشر» ج4 ص249 «الاتحاف» ج 2 ص 76.
(31) لم أقف على ترجمته.
(32) سقط من (ف).

وتعففا والله أعلم(*).

وفي عام خمسة وسبعين ومائة وألف حرك السلطان للشاوية فنهب الأموال وقتل عددا كثيرا منهم، وقبض آخرين ووجههم في السلاسل لمراكش، وفي طريقه أغار علي اشقيرن من آيت أمالوا بنواحي تادلة فنهب أموالهم وقتل من ظفر به وتوجه للغرب قاصدا الحياينة لفسادهم، فابتدأ بآيت سكاتوا وثنى ببني سادن وثلث بالحياينة، ففروا لجبل غياثة، وتحصنوا بها، فترك العساكر ببلادهم تأكل الزروع وتوجه هو لتازا فدخل عليهم لبلد غياثة فأبادهم بها قتلا وقبضا والعساكر في بلادهم تستخرج الزروع والدفائن وتحرق العمائر وتخرب الي أن دمر بلادهم ولم يترك بها ما ينتفع به وفي مقامه بمكناس أمر بقبض الشيخ محمود الشنكيطي المتصوف، كان قدم من بلاده ونزل بمستودع القرويين، وكان يجتمع عليه أعيان التجار يتبركون به ويعتقدونه، قال صاحب البستان : فلم يقتصر على ماهو بشأنه بل صار يتكلم في أمر المملكة ويكاتب البربر ويزعم أن سلطان الوقت جائر متعد ولم يوافق عليه أحد من الأولياء، فبلغ قوله هذا للسلطان، فأمر بقبضه فوجهه لمراكش فسجن به وامتحن ‹إلى أن مات›(33) ولم تبكه أرض ولا سماء، انتهي ما في البستان قال مقيده : الذي حدثنا به الثقات الأثبات أن السيد محمود هذا من أصحاب القطب الكامل المكمل سيدي أحمد الحبيب اللماطي(34) رضي الله عنه وأنه ارتقبه حتى حصل له حال في بعض مواجده، فسأله بالله تعالي ألا يموت حتى يفتح له، فقال له الشيخ : نعم على بلوي تصيبك، فلما قدم لفاس نزل بالمستودع الذي حول باب القرويين الذي يدخل منه الى مصلى الجنائز، ولما أراد الله ابتلاءه البسه ملبس الاشتهار فأقبل عليه الناس وخصوصا التجار وأرباب الأموال وكان يذهب الي المارستان ويجلس الى بيت امرأة من الأولياء في المارستان ويسمع منها بعض الكشوفات فيخبر بها بعض أولئك المتهافتين عليه

(*) وقبل رقم 31 الذي يشير الى ترجمة ابن الهراء : تهميش يؤكد الاعتراض على الزياني في كونه قدم القوانين التركية والرومانية على الشريعة الإسلامية ونص الهامش، ولاشك أن هذا كلام من لا إيمان في قلبه والعياذ بالله تعالى من المكر والخذلان.

(33) ساقط من (ل).

(34) أحمد الحبيب اللماطي بن محمد السجلماسي نسبة للماط بالتحريك، رحط من سجلماسة، فريد العصر والمآثر التي لا يدركها الحصر، دفن بداره بسجلماسة، وبني عليه ضريح. (النشر) ج 4 ص 94 والحياة الأدبية، وبها مصادر ترجمته ص 257 ت 1165هـ 1751م.

فيصدق ذلك في الواقع كما أخبر، وهذا كان سبب اشتهاره وافتتان الناس به، وفي بعض الأيام سمع من تلك المرأة المجدوبة أن السلطان يموت بعد شهر أو نحو ذلك من مدة قريبة، فقال ذلك لبعض التجار من خاصته، وأوصاه أن لا يحدث أحدا بذلك فكأنه أوصاه أن لايترك أحدا إلا حدثه به، فشاعت المقالة، وأهل فاس شواهة، فقام كل من سمع ذلك لشراء الأقوات وادخار الحطب والفحم والسمن وغير ذلك، وحصلت فتنة في المدينة وكان السلطان بمراكش لا بمكناس كما تقدم للزياني، وكان للسلطان عيون في كل مدينة رتب لهم الخراج والرواتب الكثيرة يخبرونه ويكتبون بكل ما سمعوه من خير وشر وصدق وكذب من كل ما يدور في الناس، فأنهي إليه هذا الخبر على وجهه فكتب للعامل وأمره بقبضه وتوجيهه له بمراكش، فلما قبض عليه وجعل في السجن ليسافر به وجه صاحبا له وقال له اذهب إلى البيت الفلاني من المارستان واسمع ما تقوله لك المرأة التي فيه، فذهب، فلما رأته قالت له : والله ما قلت إلا ما سمعت من الديوان، ولكن الله تعالى يفعل ما يشاء أو كما قالت فلما وصل الى السلطان بمراكش أمر أن تجعل بمبة في عنقه مربوطة ويطرح في الصهريج، وقيل إنه ما فتح عليه حتى شرعوا في تهيئة البمبة ليجعلوها في عنقه، نسأل الله الكريم البر الرحيم ألا يبتلينا، فصدق قول الشيخ على بلوى تصيبه، انتهى.

وفي ذلك التاريخ خلف السلطان ولد عمه مولاي ادريس بن المنتصر بفاس وولاه قبائل الجبل كلها، وفيه قبض على الحاج الخياط عديل واخوانه وسجنهم على مال كان لوالده عليهم فأدوه وسرحهم. وفي تمام العام وجه الحاج الخياط عديل والسيد الطاهر بناني سفيرين لاصطنبول، وفي عام خمسة وسبعين ومائة وألف تولى الحاج محمد الصفار أمكاس فاس باثنين وعشرين ألف مثقال في السنة، وفيه أمر السلطان بتحبيس الكتب الإسماعيلية التي بدويرة الكتب من مكناسة، وعددها اثنا عشر ألف مجلد وزيادة، على مساجد المغرب كله، وتوجه لمراكش، ولما بلغها قدم عليه أعيان مسفيوة بمائة وخمسين رجلا فقتلهم كلهم إلا القاضي، وأمر المحلة بالركوب لنهب بلادهم، فتوجهوا لها، وكان مسفيوة من الضلال والطغيان والفساد في الأرض والاستخفاف بالمملكة على غاية ما يقال، ومن حين نزل السلطان بمراكش في أيام خلافته في أيام أبيه وفي أيام دولته بعد بيعته

وهو يعالج داءهم بكل ما أمكنه، فما نفع فيهم دواء إلى أن اجتمع له منهم هذا العدد، فلما قتلوا ونهبت أموالهم وخربت ديارهم وقطعت أشجارهم في هذه الوقعة رجعوا للطريق مع المسلمين وصلحت أحوالهم.

وفي عام ستة وسبعين ومائة وألف حرك السلطان للغرب ونهب في طريقه آيت سبر من زمور ومزقهم كل ممزق، ولما بلغ مكناسة أمر القبائل بدفع الزكاة والأعشار الحيانية وشراقة وأحواز فاس يدفعون بهرى فاس، وأهل العرب وبنو حسن والبربر يدفعون بمكناس، ثم خرج السلطان لحركة مرموشة فهزمهم ونهب أموالهم واستولى على معاقلهم وقتل منهم العدد الكثير بعد أن ظهروا على العساكر فتقدم لهم هو بنفسه وعبيده المسخرين فهزمهم، وتوجه لتازا فأصلح نواحيها ورجع، وفيه مات قائد القواد السيد محمد بن حدو الدكالي، وكان ركنا من أركان الدولة رحمه الله تعالى، فولى السلطان ابن عمه محمد بن أحمد.

وفي عام سبعة وسبعين ومائة وألف أمر السلطان ببناء قبة الشيخ سيدي علي بن حرازم،، وفيه قام أحمد الخضر في الصحراء من نواحي فجيج، وكان يزعم أنه مولاي عبد الملك، ثم صار يقول إنه داعيته، وفتن الناس بكثرة الحروب، فوجه السلطان لأعراب تلك الناحية فقتلوه ووجهوا رأسه للسلطان بمكناس وكان مريضا، فلما شفاه الله توجه لمراكش، ولما بلغ الرباط وجه الحاج التهامي مدون باشا دور لبلاد دينمرك ليأتيه بإقامة المراكب، ووجه الحاج عبد الوهاب باشا دور لبلاد السويد ليأتيه بإقامة المراكب والبارود، ووجه العربي المستاري في مركبه باشا دور لبلاد النجليز يصلح مركبه ويجعل له إقامة جديدة ومدافع النحاس، فتوجه لها وجدد مركبه وجعل له إقامتين ومدافع النحاس ورجع لتمام العام.

وفي عام ثمانية وسبعين ومائة وألف كان عرس ابن السلطان مولاي علي بمراكش على ابنة عمه ‹مولاي أحمد وعرس ابن أخيه›(35) سيدي محمد بن أحمد على ابنة السلطان، وكان ذلك عرسا عظيما حضره عامة أهل المغرب حواضره وبواديه بهداياهم وخيلهم ورجلهم وأبهاتهم وزينتهم إلى غاية ما يذكر.

---

(35) ساقط من (ل).

ولما فرغ منه توجه للصويرة بقصد عمارتها فأسسها وترك الخدمة فيها وأمر العمال والقواد أن يبني كل واحد منهم بها داره ورجع، وفي هذا العام في ذي القعدة أرسى الفرنصيص مراكب على مدينة سلا ورموها بالكور والبمب ثلاثة أيام إلى أن خرج أهلها للأجنة، ثم أقلع النصارى وانصرفوا.

وفي المحرم من عام تسعة وسبعين ومائة وألف أرست مراكب الفرنصيص على العرائش ورموا مرساها بالكور والبمب إلى أن هزموهم عنها، ودخل الوادي، فلما رجعوا وجدوا أهل الغرب مع القائد الحبيب قد اعترضوهم بباب المرسى ومنعوهم من الخروج، وأعانهم الله سبحانه بريح شديدة بحرية عظيمة الأمواج، فإذا توسطوا للخروج في وسط الوادي ردهم الريح، وإذا انحازوا للشطين رماهم المسلمون بالرصاص إلى أن استأصلوهم وخالطوهم في الفلاتك عموما، وكانت خمسة عشرة فلوكة، فيها ألف من العسكر أخذوا بين جريح وأسير وقتيل، وكل من قبض أسيرا توجه به للسلطان فأعطاهم وكساهم وبقي النصارى في الأسر الى أن توسط الاصبنيول في فدائهم بأموال كثيرة بعد صلحه، وفي هذا العام توجه السلطان للعرائش بقصد ترميمها واستصلاحها فبنى الصقائل والأبراج بها، وأقام بها شهرا، ووجه خاليه عمارة بن موسى ومحمد بن ناصر باشا دورين للاصبنيول مع كاتبه أحمد الغزال كاتبا لهما، فلما بلغوا جبل طارق كتب الغزال كتابا لأحد كتاب السلطان يقول له : أريد منك أن تعرف أمير المؤمنين بأن هذين الرجلين لا معرفة لهما بقوانين <الروم>(36) وأنا خفت عاقبة الأمر، فلا يواخذني سيدي بما عسى أن يقع من الفالطة فإني بريء له منهما، فأخبر السلطان بذلك فقال : صدق والله ما قال إلا الحق، فقد ندمت على تقديمهما لذلك، وكانت مني بادرة قبل التأمل، وما رعيت إلا صورة اللحم والدم، فاكتب لطاغية الاصبنيول وقل له : إني وجهت لكم كاتبي الغزال باشا دورا ووجه له الكتاب فإذا بلغه يقبض الكتاب الذي عندهما، فلما بلغه الكتاب قبض الذي عندهما وتولى الأمر حتى قضى الغرض المطلوب، وفي هذا العام كلف السلطان أهل فاس بتقديم الإدالة للسويرة

(36) ساقط من (ل).

خمسين راميا بقائدها وفقيها مدرسا وموقتا ومؤذنا وشاهدين عدلين وأسقط عنهم الحركة التي كانوا يعطون فيما سلف، وهي خمسمائة رام فقدموها بمشقة وكراهة، وتوجهوا لحضرته بمراكش فوجههم للسويرة ورتب لهم المئونة، وكانوا يحرسون المرسى وينزل المال بدارهم عند قائدهم، فانتفعوا غاية إلى أن صاروا يتزاحمون على طلب التوجه لها ويوشون عليه لما يحصل لهم من الفوائد، واستمر الحال على ذلك، وفي العام وجه السلطان عليا مرسيلا لبلاد الفرنصيص لتقرير الصلح وقبض مال الأسارى وشراء الإقامة منه، فأعطوا الإقامة والمال، وفيه وجه السلطان الفقيهين السيد الطاهر السلاوي(37) وسيدي الطاهر الرباطي(38) باشا دورين لاصطنبول للسلطان مصطفى العثماني بهدية فيها خيل بسروج مذهبة منبتة باليواقيت النفيسة والجواهر الثمينة والزمرد الرفيع، وفيها أسياف موصلة محلاة بالذهب منبتة بأحجار الياقوت الملونة من عمل المغرب، ولما رجعا أصحبهما مركبا موسقا بآلة الحرب من المدافع والمهاريز وإقامتها والبارود وإقامة المراكب القرصانية من كل ما يحتاج إليه، وفي هذا العام حرك السلطان للريف وجاز على تطوان وجبال غمارة والأخماس فمهد تلك النواحي كلها ورجع على تازا، وفيه قدم ولد السلطان مولاي علي خليفة لفاس الجديد وولاه قبائل الجبل والريف وجميع تلك البلاد الغربية، وفيه قدمت ربة الدار العالية مولاتنا فاطمة بنت سليمان لفاس لزيارة مولانا إدريس وسيدي حرازم وسيدي عبد الله التاودي فزارت ليلا وذبحت أكثر من مائة ثور، وفرقت من الأموال صدقة شيئا كثيرا، وتوجهت لصفرو لزيارة سيدي أبي سرغين وسيدي أبي علي، فزارت وذبحت وتصدقت ورجعت لفاس، ومنه توجهت لزيارة مولانا عبد السلام بن مشيش، فتوجه معها أعيان أهل فاس وأشرافهم وعلماؤهم واعترضها أهل الغرب بهداياهم، وقدم عليها قواد المراسي لضريح الشيخ مولانا عبد السلام، فلما زارت فرقت مالا عريضا على أشراف العلم

---

(37) في (م) محمد السلوي بدل : الطاهر السلوي، وهو ابن عبد السلام. كان له اتصال بأمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله، ومن الفقهاء الذين يحضرون مجلسه، وأحد سفرائه للعثمانيين. في «الإتحاف الوجيز» لمحمد بن علي الدكالي ص 121 أنه توفي في حدود 1180هـ 1766م. وتعرض له «الإعلام» ج 6 ص 75.

(38) الطاهر بناني الرباطي. قاضي الجماعة بمراكش، وأديب الوقت. ذكر المولى عبد السلام في «درة السلوك» أن والده سيدي محمد بن عبد الله. بعث المذكور سنة 1175 مع الأمين الحاج عديل في مهمة للخليفة العثماني إذ ذاك، ثم بعثه مرة أخرى مع الفقيه أعلاه السلوي ابن عبد السلام في نفس المهمة ت في العشرة الثانية من القرن الثالث عشر الهجري. «الاعلام» للمراكشي ج 3 ص 263.

ورجعت للقصر، وتوجهت منه للعرائش، وأقامت بها ثلاثة أيام، ومنها تفرق القواد وذهب كل واحد لعمله، وتوجهت لمراكش في ألف من الخيل التي قدمت معها من العبيد مع القائد مصباح.

وفي هذا العام قدم لفاس ولد السلطان مولاي اليزيد ومعه رؤساء البحرية والطبجية ليجروا المدافع والمهاريز النحاسية التي بفاس الجديد والتي بمكناس ويذهبوا بها للعرائش، وكل قبيلة تبلغ للأخرى إلى أن أبلغوها لمشرع مسيعدة فجاء أمر السلطان للقبائل التي بحوز العرائش بالنهوض لجرها من سبو، فجرها أهل الغرب الى واد الدر دار، ثم جرها أهل العرائش ‹وأحوازها الى العرائش›(39) وكان يوم وصولها موسما عظيما أخرجت المدافع والمهاريز، ولعبت الخيل الى العشي، ورجعت الرؤساء والبحرية والطبجية مع مولاي اليزيد لحضرة السلطان بمكناس، ومنها خرج لحركة آيت يمور بتادلا، فلما بلغها أمر آيت يمور أن يقدموا عليه بخيلهم ورجلهم ليتوجهوا معه لسرية آيت أمالو، فلما قدموا عليه أمر بعرض العساكر فركبت كلها، ووقفت بقرب القصبة، فكلما قدمت عليه قبيلة أمرها بالوقوف في ناحية يعينها لها إلى أن لم يبق إلا آيت يمور، فلما وقفوا بين يديه أمر رحاه أن يخرجوا فيهم حاضرونا من الرصاص وقد كان عهد إلى العساكر أن كل من قرب منه آيت يمور يضربهم ويقتلهم ويسبيهم، فكلما توجهوا لناحية رموهم ففروا من جهة دكالة فكان عدد من قتل منهم ثمانمائة(40) فأزيد، فحزت رؤوسهم ووجهت لفاس وعلقت بأسوارها، وأمر السلطان العساكر بقصد حللهم فنهبت وسيقت مواشيهم وخيامهم وفر من أفلت منهم إلى جبل آيت اسرى، وتوجه السلطان لمراكش فقدموا عليه تائبين، فعفا عنهم ونقلهم من تادلا إلى حوز مكناسة.

وفي هذا العام مات قائد فاس الحاج محمد الصفار فولى السلطان ولده العربي، وفيه أمر السلطان العبيد والوداية وجروان أن ينهضوا لحرب آيت ادراسن لما زاغوا، فتوجهوا لهم فوقع بينهم حرب عظيمة إلى أن هزموهم ونهبوا حللهم وقتلوا العدد الكثير، وقبضوا كذلك فوجههم السلطان في السلاسل لمراكش، وفيه أمر السلطان بجمع الأنجشارية من

---

(39) سقط من (ل).

(40) في (ل) ثلاثمائة.

قبائل الحوز كلف القائد عبد النبي المنبهي فكتبهم في ديوان العسكر، كل من هو عزب وأراد الجندية يكتبه، فاجتمع منهم أربعة آلاف وخمسمائة، فأعطاهم الكسوة والسلاح.

وفي عام ثمانين ومائة وألف قبض السلطان لما قدم لمكناس القائد عبد الصادق بن أحمد الباشا الريفي ومائة من أهل الريف من قرابته ومن هو على مذهبه فسجنهم، وتوجه لطنجة فنهب داره نقل إخوانه بأولادهم للمهدية، وقيد عليهم محمد بن عبد الملك، ولم يترك بطنجة من أهل الريف إلا أهل الصلاح والسداد، وأنزل معهم بطنجة ألفا وخمسمائة من العبيد بعددهم بحيث لا يطمعون بعد ذلك في قيام ولا ثورة.

وفي عام إحدى وثمانين ومائة وألف وقعت وقعة كلخ بمراكش، وهو صعلوك ينسب لسيدي رحال، كان يظهر للعامة الصعاليك مثله الكرامات الكاذبة، وتبعه الجهال من البادية البطالين بعدد لا يحصى، فدخلوا مراكش في تلك العوالم من الأوباش يقولون كلخ سلخ، هذا شعارهم، وهم كالسيل الذي لا يطاق رده، فافتتن الناس ولايدرون بماذا، ووقع الهرج في المدينة، وسدت الأسواق، فبلغ ذلك السلطان، فأمر الأعوان والعبيد فاعترضوهم قبل بلوغ القصبة، وكان وعدهم أن يفتح لهم بيت المال يحوصونه جزافا، ولذلك دخلوا مراكش، ولأجله تبعوه، فقبضه الوزعة، وفرت أتباعه، وأبلغوه إلى السلطان فأمر بقتله، وسكن الناس في الحين، وفي هذا العام وردت هدية السلطان مصطفى العثماني مع الحاج عبد الكريم راغون التطواني، كان توجه بالهدية عام ثمانين ومائة وألف، وهدية العثماني مركب موسوق بالمدفع والمهاريز النحاسية وإقامتها وإقامة المراكب القرنصانية من صواري ومخاطيف وگمن وحبال وقلاع وبراميل، وفيها ثلاثون من المعلمين الذين يفرغون المدافع والمهاريز والكور والبمب، ويصنعون المراكب، والذين يرمون البمب ونزلوا بالعرائش، فأمر السلطان بتوجيه المعلمين لفاس يقيمون بها إلى أن يأتي السلطان لمكناس ويقدمون عليه، ولما قدموا عليه لمكناس وتكلم معهم في شأن الخدمة، قالوا نحتاج إلى بناء دار الصنعة، ووصفوها له ورسموا مثالها وبينوا كيفيتها، فرأى أن ذلك لا يتم إلا في عشرة أعوام، ولا يكفي في بنائه مال، فأعرض عن ذلك ووجه معلمي المراكب للرباط فأنشأوا فيها ثلاثة شكطريات، ووجه

معلمي البمب لتطوان، فكانوا يفرغون فيها البمبة من قنطارين، ووجه معلمي الرمي للرباط فكانوا يعلمون الطبجية من أهل الرباط وسلا، ورد أصحاب المدافع والمهاريز لفاس، فأقاموا بها إلى أن ماتوا رحمهم الله تعالى، وفي هذا العام مات الشيخ مولانا الطيب[41] مولى وزان رضي الله عنه.

وفي عام اثنين وثمانين ومائة وألف وجه السلطان ولده الكبير الخليفة مولاي علي مع شقيقه مولاي عبد السلام صغيرا دون بلوغ لإقامة فريضة الحج، وأصحبه هدية عظيمة لأهل الحرمين الشريفين، ولأمير مصر والشام وطرابلس ومالا كثيرا يفرق على أشراف الحجاز واليمن، وجوائز للعلماء والنقباء، وأهل الوظائف بمكة والمدينة، ووجه معه من وجوه أهل المغرب وأولاد أمراء القبائل وأشياخهم وجملة من خدامه وأصحاب أشغاله بالخيول العتاق والأبهة الفاخرة ما تحدث به أهل المشرق دهورا، ومعهم كان زفاف ابنته مع أخيها لسلطان مكة الشريف سرور مع ذلك الركب النبوي، وكان في زفافها ما يربي على مائة ألف دينار من الذهب والياقوت والدر واللؤلؤ النفيس، وكان دخولها لمكة المشرفة يوما مشهودا ومهرجانا[42] عظيما حضره عامة أهل الموسم الأكبر من العوالم، وفي هذا العام وجه السلطان ابن عمه مولاي علي ابن الفضيل وكاتبه السيد سعيد الشليح الجزولي لسوس يقصد جمع عبيد المخزن الذين هناك، ووجه وصيفه القائد المحجوب ولد قائد رأسه لاقليم طاطا <وأقا>[43] وتسينت بالقبلة فأتو بألفين من عبيد السوس بأولادهم <وألفين من طاطا وأق وتسينت>[44] فأنزلهم بظاهر مراكش إلى أن دفع لهم السلاح والكسوة وقيد عليهم المحجوب المذكور، ولما توجه السلطان للرباط أمر بقطع الأجنة التي بأكدال، وأنزل العبيد به وبنى لهم الدور والمساجد والحمام[45] والمدارس والسوق، وزاد عليهم ألفين وخمسمائة مجتمعه من القبائل، كتبهم في الديوان، وسماهم الوداية مقابلة لعبيد مكناس، ووداية الذين بها، وأفاض عليهم العطاء والإحسان الكثير

---

(41) تقدمت ترجمته بالرابة الخامسة لمولاي عبد الملك بن مولاي اسماعيل.
(42) كذا في الأصول المعتمدة بتقديم الراء على الهاء.
(43) سقط من (ل).
(44) ما بين المعقوفين إضافة من (ل).
(45) في (م). الحمامات بالجمع.

لسكناهم بثغور الجهاد، وفي هذا العام نزل السلطان على مدينة البريجة بالعساكر والجنود وحاربها، ونصب عليها المدافع والمهاريز، وحضر حربها الحاج سليمان التركي المعلم في الرمي وأبدأ فيها وأعاد، وظهرت ثمرة علمه حتى شاهدها كل أحد إلي أن فتحها الله على المسلمين وعمرها السلطان بأهل دكالة إذ هي في وسط بلادهم، وأضاف لهم طائفة من عسكره، وغنم فيها المسلمون من الأمتعة ما سرهم وأغناهم، وفي هذا العام كتب الأصبنيول للسلطان انه لم يبق من أسارى المسلمين أحد من أهل المغرب، ولم يبق الا أسارى أهل الجزائر، فطلب من السلطان أن يتوسط لهم في فداء أسراهم من أهل الجزائر، ويدفعون لأهل الجزائر أسراهم، وتكون هذه المفاداة علي يد السلطان، حتى لا يقع فيها خلف ولاغدر، وتكون علي هذه الصورة، الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط واليكانجي بالكانجي، والجندي بالجندي، والبحري بالبحري، ومن فضل عنه فضل من البحرية بخمسمائة ريال، والرئيس ألف ريال، فأجابهم السلطان لذلك كما طلبوا، وبادر الى إنقاذ المسلمين، وفرح بذلك ابتغاء مرضاة الله وثوابه، وكان السلطان قبل ذلك كتب لهم فيمن تحت أيديهم من أسرى المسلمين، فوجهوا له أهل المغرب، واعتذروا بأن أسرى أهل الجزائر أرادوا أن يفكوا بهم أسراهم التي عند أهل الجزائر فامتنع أهل الجزائر من الفداء ولم يبالوا بمن عند الكفار من أسراهم وإخوانهم، فكتب السلطان للغى الجزائر، فامتنع من الفداء، ثم أعاد لهم الكتب وحضهم على فكاك المسلمين وخوفهم من مكر الله وعذابه، وذكرهم وأنذرهم من سطوة الله إن لم يفعلوا، فما أمكنهم إلا اجابته ‹وامتثال أمره›(46) وجبر خاطره، وكتبوا له أن يوجه احدا من أعيان دولته ليحضر للفداء ويباشر حتى يدفعوا الأسارى بيده، ويدفعهم هو للأصبنيول ويقبض لهم عددهم من عندهم، ولما ورد الجواب كتب للأصبنيول وأمره أن يوجه المسلمين في مركب للجزائر، وينتظرون الباشا دور الذي يوجهه السلطان من عنده حتى يدفعوا له المسلمين ويدفع لهم إخوانهم الكفار، فوجه لهذا الغرض كاتبه الغزال ورفيقه عمارة بن موسى ومحمد ابن ناصر، وبوصولهم للجزائر، أرسى مركب الأصبنيول بمرساها، وأنزل من

---

(46) سقط من (ل).

المركب ألف مسلم وستمائة وكذا، ودفع أهل الجزائر ألف كافر وستمائة وكذا، ودفع الأصبنيول ما فضل عنده مالا، وانفصلوا، ورجع الباشا دور ومن معه لحضرة السلطان، وكتب الله له أجر ذلك وجعله في صحيفته.

وفي عام ثلاثة وثمانين ومائة وألف حرك السلطان لتادلا لأن أهلها قد فسدوا وتعدوا الحدود، واشتغلوا بالحروب ‹بينهم›(47) فأوجف عليهم الجنود والعساكر فنهب أموالهم وبدد شملهم، وولى عليهم صالحا ولد الراضي فاستصفى أموالهم وتركهم عيالا لا يقدرون على الانتقال من محل لآخر لقلة الظهر والكراع.

وفي عام أربعة وثمانين ومائة وألف حرك السلطان لجروان فأوقع بهم بوادي كريكرة ونهب أموالهم وقتل منهم نحو الخمسمائة وتركهم يتكففون في القبائل وأسواق فاس، ونقلهم لأزغار في وسط الغرب، وفي هذا العام نزل السلطان على مليلية بالعساكر وآلالات الحرب ونصب عليها المدافع والمهاريز وابتدأ الرمي عليها في أول المحرم عام خمسة وثمانين ومائة وألف ‹فحاربها أياما›(48) فكتب له طاغية الأصبنيول يعاتبه على حصارها، ويذكره الصلح المنبرم بينهما، وقال له : هذا ‹خط›(49) كاتبك الغزال الذي كان واسطة في المهادنة، فقال له السلطان : إنما جعلت معك المهادنة في البحر وأما المدن التي في بلادنا فلا مهادنة فيها، ولو كانت فيها المهادنة لخرجتم لنا ودخلنا لكم، فكيف هذه المهادنة، فوجه له الطاغية عقد الصلح بعينه عاما في البر والبحر، فكف عنها ورجع عنها وترك آلات الحرب من مدافع ومهاريز وكور وبمب وبارود وكراريط وشرط عليهم أن يحملوها في البحر لما في جرها من المشقة، فأنعم بذلك وحمل بعضها لتطوان وبعضها للسويرة لمحلها الذي جاءت منه، وكان هذا السبب في تأخير الغزال عن كتابته، فبقي عاطلا إلى أن كف بصره ومات رحمه الله.

وفي عام ستة وثمانين ومائة وألف حرك السلطان لجبل آيت أمالو برأي بلقاسم الزموري، وكان ولاه عليهم فلم يقبلوه فطلب من السلطان المحلة فأعطاه ثلاثة آلف من الخيل مع إخوانه زمور وبني حكم وتوجه لهم،

---

(47) سقط من (ل).
(48) سقط من (ل).
(49) سقط من (ل).

ولما نزل على وادي أم الربيع حاربوه فهزموه ورجع عنهم، فلما بلغ خبر هزيمته للسلطان غضب غضبا شديدا وأمر بخروج العساكر وبعث لأمراء القبائل من العرب والبربر، فلما اجتمعوا عنده خرج من مكناس، قال الزياني، وكنت معه في تلك الحركة وأنا عنده، في حيز الإهمال أتوقع الموت كل يوم بسبب ماكتب له عليّ بلقاسم الزموري، وإني أنا الذي أفسدت عليه قبائل البربر، ولما بلغ السلطان إلي محلة بلقاسم واجتمع معه ونزلت تلك العساكر كلها في بسيط مريرة أشار على السلطان أن يقسم تلك العساكر على ثلاثة ثلث ينزل بتسماكت، وثلث ينزل بزاوية الدلاء بطرف بلادهم، وثلث يتوجه معه علي طريق تكط، وينزل السلطان في عساكره بقصبة ادخسان، وتقصدهم العساكر من كل ناحية، فتوجه كل لناحيته المعينة له، ونحن توجهنا مع السلطان لأدخسان، ولما قطعنا واد أم الربيع وجه السلطان جروان للإغارة أمامه ونحن على أثارهم إلى أن بلغوا قصبة ادخسان، فلم يجدوا أحدا، ووقفوا إلى أن بلغهم السلطان، فقالوا ما رأينا أحدا ولا وجدنا أثرا، وهذا قصبة ادخسان، فأمر السلطان بالنزول فنزلت المحلة وبقي متحيرا وقال نادوا فلانا بلقاسم الزياني فأتيته وهو مازال راكبا، فقال لي : أتعرف هذه البلاد ؟ فقلت نعم، قال فأين أهلها ؟ قلت في جبلهم، فقال : أليس هذا هو جبلهم ؟ قلت : لا هذه قصبة المخزن، والجبل من تلك الثنايا السود إلى أمام، وأريته الثنايا فقال : وأين الزاوية التي توجهت اليها العساكر مع قدور بن الخضر ومسرور ؟ فقلت هي عن اليمين من تلك الثنايا في البسيط قال : وأين تسمّاكت التي توجهت إليهما أمم البربر مع محمد وعزيز ؟ قلت : بيننا وبينها مرحلتان من وراء تلك الثنايا، قال : ومن أين يأت بلقاسم ؟ فأريته الثنية التي يأتي منها، وقلت : لا يصلنا الا في غد ‹إن سلم›(50) فقال : وما عملنا الآن ؟ قلت : ضرب في حديد بارد، الذي بالزاوية لا ينفع، والذي بتسمّاكت لا ينفع، وآيت أمالوا محصنون في الجبل، وبلقاسم رجل مشئوم غشوم عصمنا الله من شؤمه، فلما حدثته بحقيقة الحال ظهر له خلاف ما سمع من بلقاسم وتحقق فساد رأيه، وعلم أنه أخطأ فيما ارتكبه من الغرر بالمسلمين، وبينت له السبب الذي هرب به آيت أمالو من بلقاسم حتى عرفه، فقال لي : أكتب

(50) ما بين العلامتين ساقط من (ل).

لزيان يأتون، فإني سامحتهم، فكتبت ووجهت لهم بعض الأشراف من ادخسان مع اثنين من أصحاب السلطان، وساروا لهم ليلا، وفي الغد أصبح علينا أربعة منهم فدخلت بهم للسلطان، ففرح بهم وقال لهم : إني سامحتكم على وجه كاتبي هذا فلان، ووجههم بالبشارة، وباتت تلك الليلة العساكر كلها بلا علف ولا تبن، وفي الغد ظهرت محلة بلقاسم، والعبيد باتوا في الحرب طول ليلتهم، ولما بلغوا أمرني بالتوجه إليهم وأنزل العبيد بجوار السلطان، وبلقاسم ينزل مع إخوانه زمور وبني حكم وأعرض عنه السلطان وعن الكلام معه، وأمره أن يوجه إخوانه لبلادهم، ووجه القبائل كلها، وفرق ذلك الجمع وارتحل لتادلا راجعا، وأما الذين نزلوا بتسمَّاكت مع محمد وعزيز فبيتهم آيت أمالو وشتتوهم ونهبوا المحلة وقتلوا عددا كثيرا، ورجعوا إلى مكناس مفلولين، ولما بات السلطان بالزرهونية ورد عليهم أصحاب قدور ابن الخضر بكتاب يذكر فيه أن البرابر اجتمعوا علينا من كل ناحية، فإن لم تدركنا هلكنا، فأمرني بالتوجه إليهم وإعمال الحيلة في تخليصهم بما أمكن، فرجعت للزاوية فوجدت القبائل محيطة بهم، فاجتمعت مع آيت يسري ووعدتهم بالمال من السلطان والعطاء الذي يرضيهم على أن تجوز المحلة في بلادهم، فانعموا بذلك، وحملت المحلة مع الفجر، وتركنا بلاد آيت أمالو وقطعنا الوادي لبلاد آيت يسري، وتوجه معنا نحو المائة من أعيانهم إلى أن خرجنا لتادلا لوادي تقبالت، ورجعوا عنا، وقدمت للسلطان فأخبرته بقدوم المحلة وبلوغها لتقبلات فسره ذلك وقال لي : لابد أن ترجع إليها الساعة ‹وأعطاني مالا أفرقه عليها›(51) واكتب لهم المنازل لمكناسة وينتظرون السلطان بها، فرجعت في الحين ولما أصبح الصباح فرقت عليهم المال وتوجهوا، فرجعت إلى السلطان فوجدته قد أصابته الحمى فمرض هنالك بقصبة تادلا، وكان يعالجه طبيبه الأديب الفقيه أحمد أدراق(52) ولا يدخل عليه غيره وصاحب طعامه الحاج عبد الله إلى أن عافاه الله، فأعطى الطبيب ألف دينار مرة واحدة، رحمه الله ورضي عنه انتهى، وأما خبر مثال الجشائرية الذين استخدمهم السلطان من القبائل فإنه حصل منهم الضرر الكثير والفساد العظيم في الأموال والحريم في كل

---

(51) ساقط من (م).

(52) أحمد بن محمد أدراق الطبيب الماهر في دولة مولانا إسماعيل ت1116هـ 1704م «التقاط الدرر» ص 293.

ما يمرون به وقت سفرهم، وصار ذلك الفساد عادة لهم، وكل منزل يبيتون به يكلفون أهله ما لا طاقة لهم به، فإذا كلمهم أحد من المسلمين وأعيان الرعية يقولون هذه عادة للجيوش المخزنية لا يمكن تركها، وهي من قوانين المملكة، فلما بلغ السلطان سوء حالهم ومايرتكبون من الظلم للرعية، لم يسعه إلا إسقاطهم من الجندية، فانتزع منهم السلاح وردهم للمغرم مع إخوانهم رحمه الله ورضي عنه.

وفي عام ثمانية وثمانين ومائة وألف عزل السلطان ابن أحمد الدكالي عن القبائل ولم يترك له إلا إخوانه دكالة، فقيد على الصراغنة محمد الصغير، وعلى أهل تادلا ولد الراضي، وعلى أولاد بورزق مولى الطابع، وعلى أولاد بوعطية عمر ابن بوسلهام، وأمر ابن أحمد أن يقبض من إخوانه الذين كانوا خلفاء على القبائل ما أكلوا من الأموال، فقبض منهم مائة وخمسين ألفا.

وفي عام تسعة وثمانين ومائة وألف كانت الطامة الكبرى والفتنة العظمى، وهي خروج العبيد على السلطان وبيعتهم لمولاي اليزيد ولده، وكان السبب في ذلك أمره لهم بتعيين ألف منهم يرحلون لطنجة بأولادهم، ووجه لهم القائد الشاهد رأس الفتنة وقيده على ذلك <الألف>(53) فلما بلغ الشاهد مكناس قال لهم : لا يتوجه معي إلا الأعيان ومن له دار وجنان وأرض حرث، ولا يتوجه معي إلا أمثالي، فانحرفوا من كلامه هذا وشرطه، وركبوا الخلاف وامتنعوا كل الامتناع، ولما بلغ السلطان ذلك وجه لهم ولده مولاي اليزيد بقصد الإصلاح، فكان هو عين الإفساد، قال الزياني : وكنت أنا بالرباط، ولما رجعت لمراكش لقيت مولاي اليزيد بالسانية فسألني عن العبيد، فقصصت عليه ما بلغنا عنهم، فسره ذلك وجد في السير، وفهمت مراده، فلما دخلت على السلطان سألني عن خبر العبيد فاخبرته بما سمعت من أمرهم، فقال لي : أين لقيت اليزيد ؟. فقلت بالسانية، وحملني ما أجد على التجاسر عليه، فقلت ياسيدي كيف توجه المولى اليزيد لمثل هذه الفتنة وأنت لا تجهل حاله ؟ فإنه والله لا يسعى في صلاحهم. ولا تجده إلا موافقا لهم، فقال هذه مني إحدى السقطات في الرأي، ولو أمكن إدراكه لوجهت من يرده، ولكن ما شاء الله كان، فاسترح يومك وغدا

(53) ساقط من (م).

تتوجه، ولما بلغ مولاي اليزيد مكناس بايعوه، وفتح بيت المال وفرق عليهم تفريق اسراف وإتلاف، وفتح خزائن السلاح والبارود، وفرق، وبايعه كل من كان قريبا من العبيد جبرا منهم من قبائل الأعراب والبربر غير الوداية وآيت ادراسن وجروان، وهم شيعة السلطان، وبعد ثلاث وجهني لهم بمكاتب، فأقمت عند الوداية والبربر الى أن جاءهم مولاي اليزيد للاروى لاغاثة آيت ادراسن وجروان للوداية، ووقع الحرب بالمشتهى من القصبة، فانهزم العبيد وسلطانهم، ومات منهم نحو الأربعمائة والمجاريح بلا عدد ورجعوا خائبين، فكتبنا للسلطان بذلك فخرج من مراكش فاعترضته بسلا وأخبرته بحقيقة الحال، فلما قرب من مكناس فر مولاي اليزيد لضريح الشيخ ابن حمدوش(54) ووجهني السلطان للعبيد فأتيت بمائة من ذوي أسنانهم ومعهم الأشراف والمرابطون والنساء، ولما رجع من زيارة مولاي إدريس أتاه الأشراف بولده مولاي اليزيد <تائبا>(55) فعفا عنه وأصحبه ولقيته بالعبيد فعفا عنهم وسامحهم على الخروج من مكناس لسكني الثغور، وأقام السلطان بمكناس يدبر أمرهم الى أن أخرجهم وفرقهم في المراسي، فوجه طائفة منهم لرباط الفتح <وطائفة للعرائش>(56) وطائفة لطنجة، وقصد بتفريقهم دفع غوائلهم وتوهين عصبيتهم، ثم فرق الذين كانوا بالرباط، فوجه لسوس ألفين ولمراكش ألفا، وأبقى ألفين بالرباط مع عبيد مكناسة، واستراح من مكرهم وشرورهم مرة واحدة، ثم إن العبيد الذين بطنجة قاموا على قائدهم القائد الشيخ وعلى قائد أهل الريف القائد محمد بن عبد الملك، وأرادوا قتلهما ففرا لأصيلة والسلطان بمكناس، فلما بلغه الخبر وجه لهم فقبضوا أصحاب الفعلة ووجهوهم وتبرأوا منهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف فاستكانوا، ورجع القواد لمحلهم بطنجة، وتوجه السلطان لمراكش، فأخذ معه عبيد مكناسة لمراكش فأنزل أهل القصبة بالمنصورية لأنهم رءوس العصاة وأنزل الباقين بمراكش وعزل قوادهم وأنزل قوادهم الذين حضروا الفعلة وأبقاهم فرادى عاطلين من الرياسة، وقيد غيرهم مكانهم، ثم إن العبيد الذين بالمراسي أضروا بأهلها في أموالهم وأعراضهم وجناتهم، فلما

---

(54) علي أبو البركات بن محمد الدعو حمدوش بن عمران الشريف العلمي، العروسي دفين جبل زرهون بزاويته ت 1135هـ 1722م «النشر» ج 3 ص 163 «لتقاط الدرر» ص 325. «الإتحاف» ج 4595.

(55) ساقط من (م).

(56) ساقط من (م).

بلغه ذلك خرج من مراكش يسببهم، فلما بلغ السلطان الرباط كتب للعبيد يقول لهم : إني عفوت عنكم وبررت قسمي برحيلكم من مكناس، والآن إذا وصلكم البغال والإبل يحمل أهل طنجة أولادهم الى دار عَرْبى وينزلون بها ويوجهون البغال والإبل لأهل العرائش يحملون أولادهم الى دار عربى وينزلون بها، ومنها أوجه لكم بغالي تحملون أولادكم كلكم لمكناسة ‹فلما بلغهم الكتاب فرحوا بالرجوع لمكناس›(57) ولما بلغهم الإبل والبغال حملوا أولادهم وأمتعتهم وارتحلوا من طنجة، ثم وجه السلطان لهم قائدهم سعيد ابن العياشي الذي عزلوه أيام الفتنة، وقال له : انزل بدار عربى وأقم بها حتى يرد عليك العبيد، ولما بلغ أهل طنجة نزلوا عليه بحلتهم وردوا البغال والإبل لأهل العرائش، فحملوا أولادهم ونزلوا مع إخوانهم بحلتهم بدار عربى، وقدم السلطان بعساكره من الرباط ونزل بمسيعدة، ثم انتقل الى سوق الأربعاء قريبا منهم، وأمر بني حسن وأهل الغرب أن ينزلوا على العبيد ويجعلوهم في وسطهم دائرة بهم محلتهم من كل جهة، وقال لهم إني أعطيتكم العبيد بخيلهم وسلاحهم وأولادهم ومالهم وكل ما عندهم فاقتسموهم وكل واحد منكم يأخذ عبدا وأمة وأولادهما، المرأة تطحن وتسقي والعبد يحرث ويحصد ويحطب، والولد يسرح، فاحملوا سلاحهم واركبوا خيلهم والبسوا كسوتهم بارك الله [لكم فيهم](58) فأنتم عسكري، ورجع للرباط فوجه العبيد الذين بقرابه لمراكش وأنزلهم بها، وعزل قوادهم وتركهم فرادى وقيد غيرهم وأدبهم بهذا الأدب اللطيف العجيب، فحسنت حالهم بعد ذلك، وبعد أربعة أعوام عفا عنهم وردهم من عند أهل الغرب وكساهم وأعطاهم الخيل والسلاح وردهم للديوان، وعزل قبائل الخلط والطليق أنزلهم بالقصر، وسفيان وبنو مالك بمسيعدة، وبنو حسن بسيدي قاسم، واللحياينة وجبالة بتامدرت بفاس، وأقاموا كذلك مدة أعوام يوجهون فرضهم في الحركات، ثم نقلهم لمراكش وأقبل عليهم بالعطاء الكثير الى أن رجعوا أحسن مما كانوا، ثم بدا له رأي فيهم، فوجه عبيد سوس لتارودانت، وعبيد حاحة والشبانات للصويرة، وعبيد السراغنة وتادلة لدمنات، وعبيد دكالة بأزمور، وعبيد الشاوية لأنفا(59) وعبيد زعير والدغمة للمنصورية،

---

(57) ساقط من (ق).

(58) ما بين المعقوفين إضافة من (م).

(59) في (م) لآسفي.

وعبيد بني حسن للمهدية، ويقي معه بمراكش عبيد سفيان ويني مالك والخلط والطليق والمسخرين أصحاب العباس، ويسبب قيام العبيد انحل نطاق المملكة وسرى الفساد في القبائل كلها عربا وعجما، ولولا سعادة السلطان وسداد رأيه وقوة جأشه لانتثر عقد الدولة، ولكن الله سلم، والحمد لله رب العالمين.

وفي عام تسعين ومائة وألف ارتفع المطر ووقع القحط، واشتدت المجاعة في المغرب الى عام ستة وتسعين ومائة وألف، فالستة أعوام كلها مجاعة الى أن أكل الناس الميتة والخنازير والآدمي، وفني أكثر الخلق لما تجلى الله سبحانه بأوصف القهر والجلال والكبرياء، والسلطان يكابد المشاق العظام في ذلك، ويصرف على جيوشه الأموال الثقال الراتبة المتوالية الى أن خلصوا من المجاعة، ورتب الخبز في كل مدينة يفرق على الضعفاء والمساكين في كل حومة، وأسلف للقبائل الأموال الطائلة فاقتسموها على الضعفاء الى أن يردوها في زمان الخصب، ولما حصل الخصب وأرادوا ردها قال : ما أعطيتها بنية الرد وإنما ذكرت الرد لئلا يستبد بها الأشياخ إذا سمعوا عدم الرد، فلله دره ما ألطفه وأرحمه بإيالته، وأسقط عن جميع القبائل الوظائف والمغارم في هذه السنين الست حتى برئ الناس وتمولوا، وكان رحمه الله في سني المجاعة يعطي الأموال للتجار لجلب الأقوات من الأقطار لبلاد المغرب ويأمرهم ببيعه بثمنه الذي اشتري به رفقا بالمسلمين.

وفي عام سبعة وتسعين ومائة وألف مطر المغرب، وحرث الناس، وبلغ الزرع وحصد، ورخصت الأسعار، واشتغل السلطان بتمهيد الدولة ومباشرة الرعية مرة ثانية، فوجه العساكر لأولاد أبي السبع لعيثهم في البلاد وظلمهم لأهل الحوز، فحاربوهم ونهبوهم وأخرجوهم من الحوز الى سوس، وقتلوا منهم عددا كثيرا وقبض السلطان على كثير من رؤسائهم وأعيانهم، فسجنوا بمكناس الى أن ماتوا بسجنها، وأمر قبائل السوس أن يطردوهم من بلادهم، ويخرجوهم الى القبلة وصحرائهم ففعلوا، ثم نقل قبيلة زمران بعد نهبهم من الحوز الى بلاد أولاد بو السبع فعمروها ثم نقل تكنة ومجاطا ودويلال من شوشاوة للغرب فنزلوا بفاس الجديد، ثم آيت يمور من الغرب الى تادلا ثم نقل قطاية وسمكت ومجاط من تادلا الى الغرب ثم نقل جروال من أزغار الى الجبل. وفي هذا العام كانت فتنة الشيطان محمد

والحاج اليموري كان يزعم أنه من الأولياء ويتكلم في المغيبات ويزعم أنه يمهد لصاحب الوقت، وسرى فساده في البربر، وقصده الجهال والبطالون والرعاع من كل وجه، وكان يأمر آيت يمور بالعيث في جوارهم من قبائل العرب، فقام اليه أمير سفيان وجمع قبائل الغرب وقصد آيت يمور وشيطانهم وهم بجبل سلفات، ونزل على سبو ووقع القتال فهزمت الأعراب وقتل قائدهم الهاشمي السفياني وعدد كثير من أعيانهم وتركوا محلتهم بما فيها، وعظم أمر هذا الشيطان وشمخت أنوف آيت يمور، ولما قدم السلطان لمكناس وجه من قبضه، فلما بلغه قتله، وفي هذا العام وجه السلطان ولده مولاي عبد السلام لأداء فريضة الحج لأنه لم يدرك لما حج مع شقيقه مولاي علي.

وفي عام ثمانية وتسعين ومائة وألف توجه السلطان لحركة زمور فدخلوا شعاب تغدايت وتحصنوا بها، فرجع عنهم وأمر آيت ادراسن وجروان إذا خرجوا من الشعاب ينهبهم، فلما سمعوا أن السلطان توجه للحوز خرجوا من الشعاب فأحاطوا بهم ونهبوهم الى أن تركوهم يتكففون في القبائل، وفي هذا العام وجه السلطان ولده مولاي اليزيد للحج بغير ركب مفردا مع من أمره يصرف عليه دفعا له وإبعادا عنه حذرا من مكره، وكان السلطان غرضه أن يتوجه لسجلماسة فلم يرد أن يتركه خلفه بالغرب، وتوجه السلطان لتافلالت بقصد زيارة جده مولاي علي الشريف وقطع عادية البربر من آيت عطة وآيت يفلمان، وكان آيت عطة شيعة عمه مولاي الحسن ابن إسماعيل، وكان يحارب بهم الأشراف فيقتلهم، فصعب عليه أمر عمه الى أن تردد عليه الأشراف بالشكايات فلم يسعه تركه على ذلك، وأرد كفه عن الظلم وجزره عن الفساد والطغيان وقطع عادية البربر عن إذاية الشرفاء فتوجه لها، قال الزياني : وكان وجهني قبله لاخراج البربر من قصورهم التي بتافلالت، وإن كان عندهم ما يثقل عليهم من زرع أو تمر أعطاهم ثمنه لينقطع بذلك عذرهم، وإن أقاموا بها حتى يقدم عليهم السلطان فإثمهم على أنفسهم، ففعلت ما أمرني به، فلم يقدم حتى وجدهم خرجوا، وفي يوم وصوله وجهني لعمه مولاي الحسن يأمره بالرحيل من تافلالت الى مكناس، وعين له ما يكفيه من البهائم لشقله، وحمل أولاده وعياله ومتعلقاته، فتوجهت له وباشرته بالأدب الواجب والملاطفة التامة الى أن أجاب، وفي

الغد توجهت به لمكناس، وأمرني أن أعطيه دارا تناسبه لسكناه وأرتب له ثلاثمائة مثقال في الشهر مئونة، ووعده بكل خير، وقال لي : إذا فرغت من أمره اصحب معك أولادي الثلاثة مولاي سليمان ومولاي الحسن ومولاي الحسين ومالا ومدافع ومهاريز وكورى وبومبى وكمانية وألفا من عسكر المراسي رجلية لجر المدافع والمهاريز، فقضيت الغرض ورجعت بما أمرني به لتافلالت، فلما بلغناها ورد الخبر بموت الخليفة مولانا علي رحمه، فقد كان من سادات العلويين وأمجادهم ونجبائهم ومن أهل المروءة التامة والأوصاف العالية المحمودة علما وعقلا وأدبا وكرما وهمة عالية، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، بل لا يمسك شيئا ولا يدخره، ولما أشرفنا على تافلالت خرج السلطان بنفسه لملاقاة أولاده، وأمر الشرفاء وأهل البلد أن يخرجوا للسلام عليهم ويشاهدوا آلة الحرب التي لم تكن معهودة عندهم ببلادهم، فخرجوا وركبت العساكر مع السلطان وكان ذلك اليوم من الأيام المذكورة كأنه عيد، فلما قضى غرضه من سجلماسة ومهد أمورها كلها من الأعراب والبربر وآيت عطة وآيت يفالمال <وتفقد>(60) أطرافها ولى عليها القائد علال ابن حميدة الزراري من أكبر قواده وأعيان دولته، وتوجه لمراكش على طريق الفائجة، ولما بلغوا ثنية الكلاوي نزل عليهم الثلوج المتراكمة فأتلفت المباني والروام والأثقال، وبات السلطان منفردا عن قبته ومضاربه، وأصبح عيد الأضحى، فخطب السلطان بنفسه ودعا للعثماني، ولما بلغ مراكش واستراح بها ودخل فصل الربيع عزم علي الحركة الى الصويرة بقصد زيارة رجراجة بالساحل على عادته، إذ كان له ولوع بهذه الصويرة التي أنشأها سنة ثمانية وسبعين ومائة وألف، ولما توجه لها أشخص معه جماعة من العلماء أهل دولته يملي عليهم الحديث النبوي ويؤلفونه على مقتضى إشارته، منهم الفقيه العلامة الحجة السيد عبد الله الغربي الرباطي(61) والفقيه العلامة السيد محمد ابن الأمير السلاوي (62) والفقيه الدراكة السيد محمد الكامل الرشيدي (63)، والفقيه سيدي عبد الرحمان

---

(60) ساقط من (م).

(61) القاضي ابو عبد الله محمد بن العلامة الامام احمد بن عبد الله الغربي الدكالي ثم الرباطي، من جملة جلساء السلطان سيدي محمد بن عبد الله. ت 1218هـ 1803م (الاغتباط) لأبي جندار ص 134.

(62) من علماء الحضرة السلطانية الذين كانوا يؤلفون الحديث على مقتضى إشارة أمير المومنين. ت 1214هـ 1799م أو 1220هـ 1805م. (الاعلام) ج 6 ص 161.

(63) الفقيه الدراكة. كذلك من علماء سيدي محمد بن عبد الله، لم يذكر وفاته في (الاعلام) ج6 ص 162.

بوخريص(64)، هؤلاء أهل مجلسه الذين يؤلفون له ويسردون ويخوضون فيما يجمعه ويستخرجه من كتب الحديث التي جلبها من المشرق كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة النعمان، والصحيحين والشفاء، وغير ذلك من كتب الحديث متونا وشروحا، وكان مستغرق الأوقات في مطالعة الحديث لا شغل له بغير ذلك في أوقات فراغه من الأحكام وتدبير ملكه، وكان بعد صلاة الجمعة يجلس في مقصورة الجامع مع فقهاء مراكش ومن يحضر عنده من علماء المغرب الوافدين عليه يجالسهم إكراما لهم وتنويها بأقدارهم، ويذاكرهم في الأحاديث والآداب وأيام العرب وأخبار الدول، وكانت له اليد الطولى في جميع ذلك، وكان يحصل له النشاط التام بالمذاكرة في العلوم، وكثيرا ما يقول لهم على سبيل التأسف : والله لقد ضيعنا أعمارنا في البطالة واللهو في حالة الشبيبة.

وقد كنا قدمنا أنه كان يتخلق كثيرا بأخلاق المنصور الذهبي السعدي ويعجبه حاله وأخباره، يتحلى بسيرته ويستحسنها، ولما فاته الاشتغال بالعلوم في حال صغره اعتكف على سرد كتب التاريخ وأخبار العرب وأيامهم ووقائعهم إلى أن بلغ الغاية القصوى من ذلك وتضلع منه، وكان حافظا مستحضرا لكل ما يطالعه حتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني لا يعزب منه شئ إلا النادر، وكان منه هذا الولوع في أيام خلافته أيام والده، وأما في حال مملكته فأكثر اشتغاله إنما هو بكتب الحديث وسرد المسانيد والصحاح ومجالسة العلماء ومذاكرتهم فيه، ورتب لذلك أوقاتا مخصوصة مضبوطة لا تنخرم على عادة المنصور الذهبي حسبما هي مرسومة في مناهل الصفا عند الفشتالي، حتى إنه لما كان يخرج للنزهة أو للزيارة في فصل الربيع أو للصيد ويقيم عليه الستة الأيام {ونحوها}(65) ولا يدخل إلا لصلاة الجمعة فلاينزل إلا في منازل الذهبي التي كان ينزل فيها عند خروجه للصيد أو للزيارة بأغمات، ويقول هذا منزل المنصور لما خرج في الوقعة الفلانية أو للغرض الفلاني، وهو أستاذنا ومقتدانا، ولذلك لما خرج في هذه الحركة المذكورة عام ثمانية وتسعين ومائة

---

(64) أحد العلماء الذين يجالسون الملك. وذكر في (الاعلام) ج 8 ص 122 انهم كانوا في جلسة بالحضرة المراكشية سنة 1198 هـ 1783م.

(65) ما بين المعقوفين إضافة من (م).

وألف في فصل الربيع وأبرز قبابه، وضرب عليها سياجه المسمى بأفراگ، وفي وسط القباب القبة العظمى البديعة الشكل العديمة المثال التي أهداها له سلطان الفرنج المبطنة بالديباج محاريبها بالموبر المختلف الألوان وسفائفها من الگالون الإبريز وأطنابها وحبالها كلها من الحرير الساذج، قيل إن مبلغ ما صرف عليها خمسة وعشرون ألف دينار، ومصداق ذلك أن جامورها الذي يوضع على رأس العمود من الذهب الخالص، زنته أربعة آلاف مثقال أخرجها هذه المرة وخرج معها الخاصة والكتاب والقواد بمضاربهم، وكان معه جملة وافرة من الكتاب المعتبرين في الإنشاء والترسيل، كالمهدي الكحاك[66] المراكشي، وعبد الرحمان ابن الكامل المراكشي[67] وأحمد ابن عثمان المكناسي[68] وأحمد الغزال الفاسي[69] ومحمد سكيرج الفاسي[70] والطاهر بناني الرباطي والطاهر ابن عبد السلام السلاوي وسعيد الشليح الجزولي[71] وإبراهيم اكبيل السوسي[72] وغيرهم، وتوجه لهذه النزهة واصطاد وبلغ إلى السويرة، ثم رجع على طريق رباط شاكر فأمر بتجديد مسجده وحفر أساسه، في رجوعه طلع مع وادي نفيس إلى أن بلغ أغمات وزار ضريح أبي عبد الله الهزميري[73] وغيره من صلحائها ونزل بمحلته تحتها، وعند نزوله أتى جماعة من أهل القرية مع قاضيها بأواني فيها شهد عسل وكبش سمين معلوف، ولما استؤذن على القاضي ووقف أمامه انسه بالكلام وسأله عن أشياخه، فأجابه بما لا محصل تحته، وقال للحاجب توجه بالقاضي إلى خزانة القاضي عبد الرحمان ابن الكامل، وهو الذي

---

(66) من الكتاب المشهورين. كما ذكره الزياني في «الروضة السليمانية» خدم السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل ثم أخاه المستضئ. ثم اتصل بخليفة العصر سيدي محمد بن عبد الله. هذا وكلمة «الكحاك» تعني صانع الكعك لغة في الكعك. ت بمكناس في العشرة الثامنة بعد مائة وألف. (النشر) ج 4 ص 233 (الإعلام) ج 7 ص 271.

(67) قاضي المحلة. نص عليه الزياني في (الروضة السليمانية) لم يذكر وفاته مؤلف (الاعلام) ج 8 ص 121.

(68) من علماء الحديث الذين نقلهم السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وفرقهم على مساجد مراكش يدرسون بها، وبالتالي يحضرون مجلس السلطان. لم ينص على وفاته صاحب (الاعلام) ج 2 ص 394.

(69) الغزال الفاسي آخر أدباء الوقت، بعثه سيدي محمد بن عبد الله سفير الجزيرة الأندلس سنة 1179 مثل أبيه، فألف في سفره رحلة أفاض القول فيها في عجائب تلك الأرض. ت 1191هـ 1777م. (الاعلام) ج 2 ص 393.

(70) كان من كتاب السلطان سيدي محمد بن عبد الله المعتبرين في الانشاء والترسيل ت 1194هـ 1780م (الاعلام) ج 6 ص 86.

(71) ممن امتازوا في الانشاء والتراسل في عصر السلطان سيدي محمد. لم ينص على وفاته (الاعلام) ج 10 ص 150.

(72) من الكتاب المعتبرين لدى السلطان المذكور، لم يذكر وفاته (الاعلام) ج 1 ص 190.

(73) الشيخ الصالح، العالم الزاهد، العارف بالله، الأغماتي. له كرامات ت 678 هـ 1279 م ترجمه (الاعلام) ترجمة واسعة ج 4 ص 253.

يتوجه قاضيا مع المحلة، فأنزله عنده وادفع له هذا الكبش والعسل، فتوجه به وبالكبش والعسل إلى خيمة قاضي العسكر، وأمر أن يبيت القاضي عنده ويكرمه، وارتحل السلطان من الغد راجعا، ولما بلغ وادي نفيس وضرب(74) سوان الراضة على النهر وجه للقاضي عبد الرحمان ولطلبة الكتاب، ولما جلسوا بين يديه سأل القاضي عبد الرحمان ابن الكامل على وجه المداعبة والمباسطة وقال له : بماذا أجزت به ضيفك على كبشه وعسله ؟ فتلعثم في الجواب وعلم أنه وقع في محذور، ولما رأى رضي الله عنه خجله قال : لعلك لم تجزه بشيء، فلو مدحته بأبيات على عسله وكبشه لكنت أصبت الصواب وخرجت من العهدة، وقال للحاضرين : ما وجهت لكم إلا بسبب هذا الكبش والعسل، فإني سهرت ليلتي ولم أنم إلا قليلا حيث تذكرت ما وقع من المنصور رحمه الله ومن كتابه في مثل هذه القضية ومثل هذه الزيارة، وهو من غريب الاتفاق، فأردت أن أنظر هل بقي في الحي حي فوجهت العسل والكبش للقاضي، ثم ظهر أنه لم يبق اليوم في وقتنا هذا كتاب ولا قضاة ولا ملوك، فإني هجوتكم وهجوت نفسي، وسأسمعكم ما وقع في زيارة المنصور لهذه القرية الأغماتية، ثم أمر كاتبه ابن المبارك(75) وقال له : اسرد عليهم، فسرد هذه الترجمة من كتاب مناهل الصفا في أخبار دولة الشرفا للفشتالي(76) وزير المنصور ‹ومؤرخ دولتهم وأمر بكتبها›(77) ونصها : وأما حركة أمير المؤمنين أحمد المنصور لزيارة صلحاء أغمات فإنه خرج يوم الاثنين عاشر شعبان من عام اثنين وتسعين وتسعمائة وكانت زيارة وراحة واحتفل لذلك بأفخم زي وأكمل بهجة وأرغد عيش، وكنت تأخرت بعده هنيهة فخرجت أقتفي أثره فبينما أنا في أثناء الطريق وقد اصفر الأصيل، ومد على الارض طرازه المذهب، وتراءت لي قباب الخلافة العالية تلوح من بين شرافات السياج المضروب عليها، وهو

---

(74) في (م) بلغ بدل ضرب.

(75) السجلماسي اللمطي، علامة الزمن له مؤلفات كثيرة، مات بالطاعون سنة 1156هـ 1743م، ودفن مع شيخه مولاي عبد العزيز الدباغ خارج باب الفتوح بفاس. (النشر) ج 4 ص 40.

(76) عبد العزيز الفشتالي، مؤلف «مناهل الصفاء في أخبار دولة الشرفاء» من أهل فاس. وأصل سلفه من فشتالة قبيلة جبلية بشمالها. أشهر وزراء الدولة السعدية، وأكبر كتاب المغرب وشعرائه في عهدها وعلى هامش ذكر (مناهل الصفاء) قال المقري في (نفح الطيب) ج 9 ص 289 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد : وعهدي به انه أكمل منه ثماني مجلدات اهـ. (النشر) ج 1 ص 241 ت 1031. وفي (مشاهير رجال المغرب) انه ت 1032هـ 1622م. وذكر عبد الوهاب بن منصور في تعليقه على (روضة الآس) انه ت 1031هـ 1621م فوافق النشر.

(77) ساقط من (م).

قصر اتخذه أمير المؤمنين من الخشب المؤلف من اللوح بعمل عجيب مموه، فيرتحل به في الأسفار القريبة، إذ أدركني شيخنا العلامة الفاضل السري مفتي الحضرة الشيخ أبو مالك سيدي عبد الواحد بن أحمد الشريف الحسني(78) فارتجل نصف بيت عندما وقف علي في معنى التشوق وشكوى البين ومفارقة الأحباب وهو هذا :

وهو هذا : أبا فارس بان(79) الخليط وودعوا

وقـــال : أجز فقلت : وولوا وحسن الصبر مني شيعوا

ثم قال : وغرد حادي البين وانشقت العصا

ثم قلت : وكاد فؤادي للنوى يتقطع

ثم قلت أيضا :

إلى الله أشكو فرقة منهم وقد   تجرعت من كأس النوى ما تجرعوا

ثم زدت وتخلصت :

لإن شرد السلوان عني بعدهم   ففي صحبة المتصور أنسي أجمع

ثم قال :

تدور عليه هالة من قبابـــه   ومركزها قصـر الخلافة يلمع

فقلت :

سياج به بحر الندى متموج   ومن أفقه شمس الإمامة تطلع

فانتهينا إلى المحلة السعيدة عن سبعة أبيات أو ثمانية، وتهيأ لنا الدخول إلى مقامه الشريف، فعرفته خبر الأبيات وسردتها عليه، فارتاح عند سماعها واستحسنها، وبتنا ومن الغد ارتحلنا، ولما نزلنا بساحة أغمات صدرت من جلاله العالي أبيات من نظمه البارع الذي يسلب الوقار، ويفعل فعل العقار، في الاعتذار عن ترك الوداع وهي هذه :

تبدى وزند الشوق يقدحه النوى   فتوقد أنفاسي لظاه وتضـرم

---

(78) أبو مالك الفلالي نزيل مراكش ومفتيها، وهو آخر المحدثين بها. كان في أول أمره كاتبا لدى الوزير أبي عبد الله محمد بن عبد القادر بن محمد الشيخ. ثم تخلى عن ذلك ولزم التدريس. وتقلد خطابة جامع الأشراف وبه معظم تدريسه ت 1003هـ 1594م ودفن تجاه القاضي عياض في قبة الاشراف هناك. (الصفوة) ص 41 (النشر) ج 1 ص 30. (الاعلام) ج 8 ص 522.

(79) في (م) أبا حسن. بدل أبا فارس.

وهش لتوديعي فأعرضت مشفقا   علي كبد حرى وقلب يقسم
ولولا ثواه بالحشا لأهنتها   ولكنها تعزا إليه فتكرم
(80) فأعجب لآساد الشرى كيف تحجم   على أنه ظبي الكناس ويقدم

فانثال عليه من بالمحلة من كتاب حضرته وشعراء دولته انثيال الهيم على الورد، والنحل على الشهد(81) وتباروا في تذييلها، ونظم حصياتهم في إكليلها، ونصوا إلى ذلك وأعنقوا، وأراهم غبارا ثم قال الحقوا(82) وكان أول الحلبة في ذلك الميدان، وأحرزهم لرايات السبق يوم الرهان، شيخنا العلامة مفتي الإسلام، وعلم الأعلام، أبو مالك عبد الواحد ابن أحمد الشريف الحسني أبقاه الله فقال :

وأعجب من ذا طور صبري عندما   تجلى يدك والجنان متيم
تحمل مني القلب في شرك الهوى   وحل اصطباري حبله وهو مبرم
وغادرني مضنى حليف صبابة   وقدما بتعذيبي خليق ومغرم
فلله عينا من رآنا وبيننا   رسائل شوق لا تبين وتكتم

ثم تلاه شاعر الدولة أبو عبد الله محمد ابن علي الهوزالي فقال :(83)

أخوض عباب الموت في حومة الوغى   وسمر القنابين الضلوع تحطم
وأصدع قلب الفيلق المجْر(84) عنوة   ويصدع قلبي أحور العين أفحم
وأحمي ذمار الملك شرقا ومغربا   ويحمي فؤادي وهو فيه محكم
وأكتم ما أنويه حتى عن الحشا   وأودع من بلواه ماليس يكتم

---

(80) كذا هو في الأصول المعتمدة، وكتبْ عليه المؤلف بطرة المخطوطة ما نصه :«قوله فاعجب بهمزة لقطع فيه ما فيه، فلو قال :

عجبت لضرغام الشرى كيف يحجم

لكان أصاب، ولكن مثل هذا من الملوك مقبول، ولو قرئ : اعجب فعلا مضارعا وقال :

... من أسد الشرى... الخ لكان احسن.

(81) كتب المؤلف بخطه على طرة المخطوطة فيما يتعلق بهذه القرينة ما لفظه :

لو قال هكذا لأبدع :«والنحل على ارتشاف ثغور أزاهر الورد».

(82) فيه اقتباس من قول المتنبي :

اذا شاء ان يلهو بلحية احمق   اراه غباري ثم قال له الحق

(83) الهوزالي الاديب الناظم الناثر الملقب بالنابغة، وهو من الأدباء الذين حضروا مع المنصور زيارة اغمات. (درة الحجال) ج 1 ص 263 (نزهة الحادي) ص 75 (روضة الآس) ص 180. (الاعلام) ج 5 ص 182.

(84) المجر بفتح الميم وسكون الجيم الجيش العظيم الكثير.

ثم تلاه صاحبنا الكاتب أبو علي الحسن ابن احمد المسفيوي فقال :(85)

ثوى بيْ ما بي من أسى وصبابة هواها فبات الدمع عنها يترجم
فها حزني أودى بحسن تصبري وذا جلدي نهب لديه ومغنم
ليهنهمِ مثوى الضلوع فإنه سليم على حكم الصبابة مسلم
فإن يَكُ تعذيب المتيم في الهوى فإن فؤادي في هواهم منعم

ثم تلاه مؤلفه عبد العزيز الفشتالي فقال :

ألم يك هذا الخشف يألف وجرة فما باله بالمنحنى يتلوم
صحبت أخاه البدر في الليل ساهرا يمثله لي الهوى والتوهم
وقالوا نظير الخيزران قوامه فقلت غلطتم إنه منه أقوم
لقد وسع الأرضين صدري فسحة فضاق احتمالا بالذي منه يكلم

قلت أردت بالمنحنى الضلوع، فوريت بالمكان المعروف، ثم رشحت ذلك بذكر وجرة، وتلاني بلدينا محمد ابن علي الفشتالي فقال : (86)

خضوعي حكام الغرام قضوا به وشأن القضاة بالشهادة تحكم
فلو لم ير العدلان دمعي وزفرتي لما كان رسم للقضية يعلم
غزال كخوط البان لِيْنا وأنني لأنجد دأبا في هواه وأتهم
فهبني أروم كتم نار صبابتي فإن لسان الحال عنها يترجم(87)

ثم تلاه الفقيه الفاضل نادرة العصر، ونخبة الدهر، القائد أبو الحسن علي منصور الشياظمي(88) وقد تخلص من الغزل إلى المدح وتخطى القطعة الى القصيدة على عادته في الاكثار مع الإجادة أبقاه الله بمنه آمين.

فيطلع قرص الشمس من تحت دجنة يمر بها أملود بان مقوم
غزال على الأقوام جرأهُ النوى بقلب جريء للهوى فيه معلم
يصول فيردي الضد وهو مصمم وتثني المها عنه العنان وتحجم

---

(85) الكاتب الناثر الناظم البليغ المجيد البالغة، الذي لم يدرك ابن نباتة في النظم مراتبه. له قدم راسخ في علم الطب، وهو المتولي لقراءة كتاب «الشفاء» بين يدي المنصور السعدي، ولد 968هـ 1560م. (روضة الآس) ص 163، (درة الحجال) ج 1 ص 128. (الإعلام) ج 3 ص 150 وبه سنة وفاته 1032هـ 1622م.

(86) الفقيه الكاتب المجيد والأديب الذي يهذي في المحاسن ويجيد ت 1021هـ 1612م (روضة الآس) ص 180 (النشر) ج1 ص 174. (الاعلام) ج 5 ص 221.

(87) كتب المؤلف بخط يده على طرة المخطوطة بإزاء هذا البيت ما نصه : لو قال هكذا : «فهبني كتمت النار نار صبابتي» لسلم من ثقل الكسر.

(88) الفقيه الأديب القائد الرئيس من أهل مراكش. قال المقري في الروضة ص 173 : لقيته بمراكش المحمية، وشاهدت جملة من أحواله السنية. وقد رأيته في مجلس البخاري يورد كثيرا من الأسئلة الدالة على رسوخ قدمه في الفنون ويجيب عن الأسئلة. ولد سنة 951هـ 1544م. (درة الحجال) ج 2 ص 449 (الاعلام) ج 9 ص 191. أما تاريخ وفاته لم نعثر عليه.

إمام على كل الكمال قد احتوى ... فلا فضل إلا وهو فيه متمم[89]
لئن شغف الألباب حبا فقد سبى ... فؤاد المعالي وهو في الغيب مكتم
وساق كذا بكر الخلافة فارتمت ... عليه جهارا والمعاطس رغم
فعلقتها بين الصوارم والقنا ... وكانت شهودا والصداق التقدم
وحلى لها جيدا وساقا ومعصما ... بنصر عزيز يزد هيها ويعصم
تخطت إليه الخاطبين ولم تكن ... لتعدل بالمنصور والله يعلم
ولو لم ينلها لاستمرت مشيحة ... عن الغير أو تفنى الدنا وهي ايم
فلم لا تجر الذيل فخرا وقد سمت ... به حيث لا تسمو الشموس والانجم
أليس هو المنصور من وطد العلا ... وذب عن الاسلام والخطب مظلم
ومهده بالهند واني والقنا ... وما أسس الرأي السديد المحكم
أليس الذي حاط البرية واغتدى ... به الدين مرصوص المباني يفخم
وثلل عرش الكفر عند اعتدائه ... وغادره بالبيض وهو مصرم
فدانت له صيد الملوك فأصبحت ... ممالك تمضي كل ماهو يلزم
وطاع له الدهر الكنود وأجمعت ... عليه السعود تنتحيه وتخدم
فشيد ما شاء العلاء ولم يدع ... من المجد طرَّاما يفوت ويبهم
وأحيا رسوما للقلوب قد احتوى ... عليها العفا فهى به اليوم تنعم
فقام به يجلي دجاها مطبقا ... مفاصلها والفهم في ذلك صيلم
يبيت عليها ساهر العين كالئا ... لسلطانه في الرأي يسدي ويلحم
خبير بما تحوي الدفاتر مخبر ... ولكنه مغرى بذلك مغرم
عليم بأحكام الديانة عامل ... وقوف علي حد الشريعة قَيِّم
إمام له ارث النبوءة والهدى ... دوين الملوك إن ذاك مسلم
سليل وسول الله والمحتد الذي ... تقر له بالفضل عرب وأعجم
فمذ ظفر الإسلام منه بصارم ... تيقن أن الشرك لا شك مفصم
كما أنني منذ اتصلت به سمت ... بي الحال وانثال الغنى حيث تعلم
وأصبحت أكنى ثم لولاه لاغتدى ... سُمايَ كما عند النحاة يرخم
ولو لم أفز بالسبق منه لما اعترت ... عيون المعاني فكرتي حين أنظم
ولا ساغ لي صوغ القوافي أرومها ... فتأتي سريعا وفق ما أتحكم
ولا طاع لي حر الكلام يزينه ... مديح الإمام حيث ما أتكلم

---

(89) كتب المؤلف بطرة المخطوطة بإزاء هذا البيت ما نصه : «هذا الاقتضاب من التغزل الى المدح غير ظاهر ولا قريب من القبول».

ولا جيش منقاد لهام أقوده … فيتبعني من خلف وهو عرمرم
ولكنه صنع له الشكر فيه لا … إليّ فإني عن نهاه معلم
وما الشعر إلا جوهر لا تناله … من ابحره ذات الأعاريض عوم
ولكن بغوص الفكر بعد ارتياضه … زمانا بآداب تعين وتفهم
لقد رضته الى أن انقاد واغتدى … يسلم لي فيه حبيب ومسلم
وها أنا ذا قد جئت منه بمدحة … فإن قصرت فالأمر من ذاك أعظم
وإن صادفت قصد الإمام فإنه … مرامي والأمُّ الذي كنت أرأم
فخذها أمير المؤمنين عقيلة … تروم رضاكم فهو للفوز سلم
محبرة تروي أحاديث مدحكم … فتطرب منها النفس إذ تترنم
مجللة بالمدح مدحك قد ضفا … عليها يمان من ثنائك معلم
فزفت لنا من بعد أن زنت صدرها … بأربعة تعلو على من تيمم
فجاءت بوجه المدح غرة أدهم … وتلك تجر الذيل زهوا وتفخم
تهنئك الزور الذي نلت أجره … ويعقبه بالله فتح يعمم
ويمن وإقبال وسعد مجدد … ونصر وتمكين مبين ومغنم
بقيتم بقاء النيرين وملككم … مدى الدهر بالنصر العزيز معظم
ولا عدمت منك الخلافة ناصرا … فأنت لها دون الأنام مقدم(90)

ثم ذيل القطعة الامامية بأربعة أبيات أخر إظهارا للاقتدار والتصرف على سنن الجماعة فقال :

ويعجبه منه الجمال فيغتدي … عليه ويمضي حكمه ويسلم
ويشرع رمحا من قوام وينتضي … ظُبى من جفون في النهى تتحكم
ويقدم تيها وهو بالحسن صائل … فيبهر من ذاك الأسود فتحجم
وتشفق مع ذا أن ترى ومكانه … من القول مستول عليه التألم

ثم أقمنا مع المنصور الى أن قضى وطر الزيارة وتصدق بمال على ذوي الحاجات والطلبة على يد قاضي الجماعة أبي علي القاسم بن الشاطبي(91)

---

(90) ذكرت حكاية هذه القصيدة على وجه أخر في روضة الآس ص 51-53.

(91) الشاطبي من قضاة المنصور بمراكش، ولي القضاء مدة طويلة، وله يقول الفقيه الفاضل الأديب أبو فارس عبد العزيز بن محمد التغلبي :

تولى القضاء بمراكش … فقيه له همة عاليه
يواسي القريب ويقصي البعيد … ويسره احكامه الماضيه الخ

«نزهة الحادي» ص 153 كما ترجمه في «الاعلام» ج 9 ص 193. لم ينص على وفاته.

والفقيه أبي الحسن علي بن سليمان(92) وقفل الى المحلة مملوء الحقائب بالبركة والثواب، وكان ممن صحبه في هذه الزيارة شيخنا العلامة قاضي القضاة بفاس الشيخ أبو مالك عبد الواحد الحميدي(93) كان السلطان استقدمه للقراءة معه، وكان لوذعيا حسن الشمائل، فاتفق أن أهدى إليه الكاتب الفاضل أبو زيد عبد الرحمان ابن عبد الله العُنابي(94) من أصحابنا كبشا وعسلا(95) أتحف به، فكتب إليه القاضي يداعبه ويشكره بأبيات من إنشائه، ورفعها الكاتب أبو زيد إلى شيخنا العلامة أبي مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف، وسأله أن يجيب عنه القاضي ويهز عليه من لسانه الصارم الماضي، فاستجاب أبقاه الله وانتدب، وقدم لذلك مقدمة رفعت لأهل الأدب، ومن اشتملت عليه المحلة المنصورة السعدية، من الشعراء والأدباء والكتاب راية خافقة، وأقامت للبسط والمداعبة سوقا النافقة، وسأل جميعهم أن ينسجوا على منواله، ويحذو حذو نعاله، وصاغ الكل من أسجاعه الرائقة، ودرره المتناسقة، قلادة حلى بها جيده، وجلا من فكره أبكار القول وغيده، فتباروا(96) في ذلك الميدان تباري الجياد يوم الرهان، وها أنا أصف الحال وأذكر منظوماتهم على نسقها لما اشتملت عليه من غرر الآداب وحسن المفاكهة التي تصقل النفوس والأرواح، وتهدي إليها البسط والارتياح، ونصها.

قال شيخنا العلامة أبو محمد عبد الواحد الشريف أبقاه الله : الحمد لله، فائدة، لما تقرر في الفطر السليمة، والسنة القديمة، ما يجب للعلماء من التعظيم، وعرف اطراد ذلك في الحديث والقديم، أهدى الفقيه الأجل سلالة الصالحين، ونجل العلماء العاملين، أحد كتاب ديوان الخلافة، ومن له في الوقار المزية والأنافة، أبو زيد عبد الرحمان بن الإمام علم الأعلام أبي محمد عبد الله العنابي، ونحن بمحلة مولانا المنصور أيده الله لزيارة أغمات

---

92) الجزولي التاملي الفقيه البركة المحسن عمدة المساكين، وصاحب المظالم لدى السلطان احمد المنصور السعدي. كان حيا سنة 999هـ 1590م «الاعلام» ج 9 ص 187.

(93) الحميديون بيت فقه بفاس، ظل قاضي الجماعة أزيد من ثلاثين سنة، والحميدي من بني حميد الذين هم من صنهاجة بلاد ورغة 1003هـ 1594م «طبقة الحضيكي» ج 2 ص 275 «النشر» ج 1 ص 44 «الاعلام» ج 8 ص 525.

(94) العنابي الفقيه الفاضل. كاتب المنصور الذهبي، وهو الذي بنيت عليه قضية الكبش والعسل المذكورة في التاريخ بترجمة سيدي محمد بن عبد الله. تاريخ وفاته غير معروف «الاعلام» ج 8 ص 118.

(95) كذا بالأصل. وفي غيره : كبشا وعسلا منصوبين.

(96) في (م) : تبارزوا.

عسلا وكبشا لسيدنا قاضي القضاة بحضرة فاس العالم العلامة أبي محمد عبد الواحد الحميدي استجلابا لمودته، وصالح أدعيته، فكتب سيدنا القاضي المذكور أبياتا فتح بها المباسطة والمداعبة بابا على عادة أمثاله لآفاضل الادباء، فقال :

أيا كاتب السريا من غدت ... محاسنه في الورى باهرة
هديت، إلي الشفا وصلت ... فأكرم بها نعمة ظاهرة[97]
وكبش سمين له كلوة ... تفوق الكلى منحة زاهرة
فلا زلت تثبت كتب الإمام ... سيوفا لأعدائه قاهرة

ولما دارت هذه الأبيات بين من في المحلة المنصورة من الكتاب، وتلقوها بالمبرة والترحاب، ولهج بها الشادي والبادي، وغرد بها في أثر الركائب الحادي، فوقوا الى مداعبة الإمام سهام القوافي، وطاروا لمباسطته بالقوادم والخوافي، ‹فأوجفوا على أبياته بخيل البديهة والارتجال، وقاموا إلى ذلك على قدم الاستعجال›[98] فقال أقصرهم في ذلك باعا، وأقلهم بهذا الفن أضطلاعا، عبد الواحد الحسني.

أشيخ الجماعة يا قطبها ... ومن في العلى مركز الدائرة
شننت بأبياتك غارة ... فأحييت لي همة غائرة
وذكرتني مربعا لم تزل ... قديما به مقلتي ساهرة
وحركت فكري بعلم غدت ... بصدري مراسمه داثرة
فهذا جوابي لأبياتكم ... إلى ابن البدور العلى السائرة
سليل الأفاضل حقا ومن ... محاسنه في الورى ظاهرة

ثم قال : وقال صاحب القريحة الوقادة، والمحاسن المألوفة المعتادة، صاحب القلم الذي تزرى شباته بشَبا السنان، وتوقظ فقَرُه من السِّنَة الوسنان، المثقف بثقاف الآداب المنصَورية أبو فارس عبد العَزيز بن محمد بن إبراهيم الفشتالي يعني مؤلف الكتاب :

---

(97) كذا. أما روايته في البستان فجاءت هكذا : هديت الى الشفا وصله...
وأورده اليفرني في نزهة الحادي كما يأتي :
منحت الشفاء لنا صلة ... فاكرم بها منحة طاهره
(98) ساقط من (م).

أبحر علوم طمت زاخرة   وشمسا مشارقها باهرة
لك الفضل عفوا فقد أصبحت   كتائب نظمكم ثائرة
وهزت صوارم إبداعها   فصالت بها صولة قاهرة
بقيت تشن بها غارة   لتنشر أمثالك السائرة

وأردفتها بفقرات من النثر فقلت : فخذها أعزك الله على عجل، تسعى لجلالك العلي على حياء وخجل، وتقف في مجال الإجادة دون طرف بلاغتك الأغر المحجل، والسلام، ثم قال : وقال الفقيه الكاتب المجيد الأديب الذي يبدئ في المحاسن ويعيد، صاحب القلم الذي يصيب من الأغراض كلاها ومفاصلها، ويعمم في الإجادة فقرها وفواصلها، ذو المنازع التي رفعت للبلاغة لواء، وارتدت من المحاسن رداء، وضرب بها المثل في العذوبة، وكونها لقلوب الأدباء خلوبة، أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرحمان الفشتالي :

نسجت أبا مالك حلة   بصنعاء أفكارك الحاضرة
واجريت ماء البديع الى   رياض فكاهتك الساحرة
وأخفقت فيه المعاني علي   مواكب أغراضك الظافرة
عيون البيان ولكنها   لغير العلى لم تكن ناظرة
فخذها بديهة من قد غدت   وجوه فكاهته سافرة(99)

ووصلها بنثر يقول فيه : فدونكم أعزكم الله هذه القطعة وقد ظاهرت بين ثوبي عي وقصور، وسترت وجوه عوارها ببرقع العجلة التي هي محل إغطاء فحول المنظوم والمنثور، ولا غرو، وأنتم أرباب النظام، وأمراء الكلام، إن استنتجتم عقيما، واستقرضتم في هذا الفن ‹مزجى البضاعة›(100) عديما، بقيتم تقيمون للعلم رسوما، وتثبتون للمعاني حدودا ورسوما، والسلام.

ثم قال شيخنا : وقال الفقيه المتفنن ذو الفهم القويم، والإدراك المستقيم، قائد العويصات بنواصيها، ومستنزل عصم القوافي من صياصيها، شعلة الذكاء، والنيِّر الذي يزري سناه بنور ذكاء، أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي حفظ الله مكانته :

---

(99) جاءت رواية عجز البيت في نزهة الحادي هكذا : «وجوه بها حالة سافرة».
(100) ساقط من (م).

أيا غرة الدهر، يا ناظره   وطرفة أيامه النادرة
وبدر العلوم التي قد نضت   دجى الجهل أنواره الباهرة
ومن كرعت في حياض المعا   ني بديهة فكر له ساحرة(101)
أنظمك أمْ قَرْقَفٌ بابلي   ولفظك ام نفثة الساحرة
تعلل أرواحنا مذ عشت   بأنواء روضتك الزاهرة
أمن بارق قد سرى موهنا   أم ارتاح أخلاقك العطرة(102)
فككتم به عن أسارى القوا   في قيود بأرجلها دائرة
فلا زلت ياشيخنا يُهتدى   بنورك في الليلة الساهرة

وروصلها من نثره بقوله : لا غرو أعزك الله ان جاءت لحضرة جلالك تمشي على استحياء، فقد راعها ما راقها بمحلك السامي من سنا وسناء، لازلت في أفق الجلالة بدراً يلوح للهداية التياحا، وبحرا للفضل ترده الآمال فتتمايل ارتياحا، والسلام.

وقال شيخنا : وقال الفقيه المشارك الأديب متلقي راية الأدب باليمين <والمتالي أن لا يشارك في نيلها باليمين>(103) من قصرت عن مجاراته من أرباب البيان الخطى، وتسنم غارب الإجادة دونهم وامتطى، قيد اللواحظ ببيانه وبنانه، واستوقف الطرف بلسانه وسنانه، مُجرى أنفاس المحابر على صفحات المهارق، ومجيح الكماة بصفحات الصوارم في المآزق، أبو الحسن علي بن منصور بن سليمان الشياظمي أبقاه الله طول المدى، محفوظا من كل ما يتقى كلما راح واغتدى :

أيا علم العلم يا ناشره   وحامل رايته الظافرة
وقاضي القضاة الذي فاخرت   به الشرق مغربنا الظاهرة(104)
وناظم عقد المعاني التي   جرت دونها المثل السائرة

---

(101) روى هذا المجز في روضة الآس، هكذا : «له صسم بالذكا ساخره».

(102) كذا جاء هذا البيت فيما اعتمدناه من الاصول وكذا جاء في «الروضة السليمانية». أما المقري في «روضة الآس» فأورده كما يأتي :

ام جارت قد سرى موهنا   ام ارتاد اخلاقك العاطره

أما رواية «نزهة الحادي» فجاءتكما يلي :

بدارين مسك سرى موهنا   حكى عرف اخلاقك العاطره

ودارين موضع بالبحرين ينسب اليه المسك الداري.

(103) ساقط من (م).

(104) رواية «نزهة الحادي» لهذا البيت جاءت هكذا

وقاضي البلاد التي أصبحت   على الشرق في غربنا ظاهره

وأزرت بفعل الطلا بالنهى كذا بشذا الروضة الزاهرة
وظلت تردد حسن الثنـــا ء ترويه عن نفسك الطاهرة
وأخلاقك الغر إذ قصرت عن النذر بالدرر الفاخرة(105)
وأيقظت عمدا عيون البيـا ن من كل فتانـة ساحـرة
تشير بمعنى لطيـف إلي محاسـن أخلاقـك الباهـرة
وتنبت زهـر البلاغـة في مهارق ظلـت لكـم شاكـرة
رويدك نبهـت سـرب المعـا ني بعيـد الكرى فأتت حاضـره
ونبهت كم من بليـغ بهـا حـديـد الذكا نافذ الباصرة(106)
تَصَرَّفُ أقلامـه بالكـلام كالريـح بالمزنـة الماطـرة
ولولا المضاء بلا نبوة لشبهتهـا بالظبـي الباتـرة
فللـه درك من ماجـد محاسنـه جمـة وافـرة
ومن سيـد جامـع للعـلا ء حلـو الشمائـل والنـادره

ووصلها أيضا من نثره بقوله : إليك أيها السيد الذي أهتدي بمصباحه، وأعشو إلى غرره وأوضاحه، بنية أفكار تمد الى كفالتكم يد الافتقار، ملتمسة منكم نيل القبول والاغضا، والنظر إليها بعين التجاوز والرضى، فمثلكم من كفل، وصفح عن العيي والخلل، واستقرض فأرضى، وسامح عند الاقتضاء، أبقاك الله للأدب تحوك حلله، وتجمع تفاصيله وجمله، وللقريض تقطف زهره، وتجتلي غرره، ما در شارق، ولمح سنا بارق، والسلام.

قال شيخنا : وقال الفقيه الأديب الكاتب الذي ارتفع صيته في مقامات الأخلاق وسما، وغدا بين النظراء في عذوبة الشمائل علما، وحصل من الأدب اليانع على حظ وافر ونصيب، ورمى إلى غرض الإجادة في منازعه بالسهم المصيب، وتدرع من حسن الخلق جبة لا تلقيها رياح الانزعاج والغضب، فنسلت القلوب إلي محبته من كل حدب، أبو عبد الله محمد بن بن عمر بن أبي القاسم الشاوي(107) أبقاه الله تضرب به في لين العركة الأمثال، وتتهاداه لفضائله وفواضله أندية الملوك والأقيال وأدركه من

---

(105) كذا بالاصل مثله في (م) أما (ف) ففيها : (النور) بدل : النذر. وجاء البيت في «الروضة» هكذا :

واخلاقك الغر إما قصد ت عن النور بالدرر الفاخره

والبيت غير ظاهر المعنى

(106) في «روضة الآس» : وأغريت كم من بليغ بها ....

(107) الشاوي : انظر ترجمته في «روضة الآس» و «نزهة الحدي» أما «الإعلام» ففي ج 5 ص 180 دون أن تعرف وفاته.

الخيرات الجليل كل منال :

أمحيي رسوم القضا الداثرة   وإنسان مقلته الساهرة
ومطلع شمس المعارف من   مغاربها حكمة ظاهرة
وبحر العلوم التي أوجبت   له الفخر والعز في الآخرة
وقاضي عساكر ملك غدت   لأخمصه السبع كالساهرة(108)
ودانت له الأرض طولا وعر   ضا، فأرسال أملاكها سائره
إلى بابه تبتغي وطأهُ   وأمنا لسطوته القاهره
كفاك افتخارا أبا ملك   حضورك أيامه الزاهرة

ووصلها بقوله : أتتك أيها السيد الذي يقتدى بعلومه، ويهتدي إلي معرفة الصناعة الأدبية بمنشوره ومنظومه، باسطة إليك أكف الاحتقار، ومسفرة لجلالك عن وجه القصور والاعتذار، وأنتم أعزكم الله محل التجاوز والاغضا، والنظر إليها بعين القبول والرضى، أصلح الله بطول بقائكم عامة المسلمين، ونفع بعلومكم مولانا أمير المؤمنين أيد الله سلطانه، ومهد أوطانه.

ثم قال شيخنا : وقال الفقيه الجليل المقدار، والكاتب الذي طار صيته في حسن التوقيع وسلامة الصدر كل مطار، مقيد الأوابد الأدبية بعقال، والمعمل في إدراكها الوخذ والإرقال، حتى لاح بدراً في سمائها وائتلق، وحاز عمن سابقه في مضمارها خصل السبق، ذو المناقب الفاضلة والمزايا، ومحط رحال الشكايا، أبو محمد الحسن بن عبد الكريم ابن عبد العزيز(109) بن علي ابقاه الله وأزمات الملهوفين لا تنكشف إلا من يراع بنانه، ولا يهتدى في كشف كربهم إلا ببيانه وأديم له العز والنصر عند من هو لازم ببابه.

أشيخ العلوم التي قد سرت   بدائع أبياتها السائرة
طلعت وكنت كنجم الصبا   ح وسرت بأخلاقك العاطرة
إذا ما نويتم طلاب العلا   فكل المعالي لكم سائرة
أتتني بالأمس أبياتكم   رياض المعاني بها زاهرة

---

(108) الساهرة : الأرض يريد أنه يطأ السيارات بأخمصه كأنها أرض له.

(109) من أهل مراكش، الكاتب الأسنى، أديب نحري، من كتاب الانشاء، تولى كتابة المظالم بمراكش. «الروضة» ص 191 «درة الحجال» ج 1 ص 133. لم نقف على وفاته.

محا شعركم ذكر عبد الحميـ ـد وأضحت فصاحته داثرة
فلو مد في عمر البحتري لأعجب من فطنة باهرة
علوت وفقت قضاة الورى فدم هكذا مركز الدائرة

ووصلها بقوله : أطال الله بقاء سيدي، وأجل ذخائري وعددي، إني علقت هذه الأبيات والأشغال تكنفني، وكل الخاطر بأسباب تقتسمني، ووراء كلال الذهن وجمود الطباع، ونقصان الخواطر عند الإبداع، واستمرار البلادة التي هي من لوازمنا عادة، من لي بمساجلة من لا يدرك مضماره، ولا يشق غباره،

ولا عار ان قصرت دون مبرز سعى الناس قبلي سعيه فتقدما

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به قد بسط الفشتالي هذه القضية كل البسط كما ترى، لا سيما ترجمة(110) الكبش والعسل، وأما الأفراني في نزهة الحادي فاختصرها كما يجب، فإنها وإن أظهرت فضيلة كتاب المنصور على كتاب السلطان الأعظم سيدي محمد، ووسمت جباههم بوسم العي الفاضح، والعجز الواضح، وذلك هو مراد السلطان في سردها عليهم وأمرهم بكتابتها، وإلا فليس فيها ما يتوجه إليه الاعتناء، ويحسن له الاقتناء، فجل ألفاظها مهلهلة، ومعانيها مبتذلة ‹وإنما هو كلام معرب موزون مقفى، خال عن لطائف الشعر الغريبة والمعاني العجيبة›(111)، والفشتالي إنما ساقها تكثيرا للسواد، وليس بصدد تميز الهجين من الجواد، نعم لما كانت الحالة في صورة شبه الارتجال، من أولئك الرجال، كان فيها موقف للإعجاب، ومظهر للاستحسان من وراء الحجاب.

فلما قضى السلطان غرضه من تلك الزيارة المباركة، رجع لحضرته العالية بمراكش بالبركة، وجميع الخيرات، وهكذا كانت عادة السلطان سيدي محمد رحمه الله مع كتابه وجلسائه يمتحنهم بغرائب العلوم كما حدثنا بذلك شيخنا العلامة الحافظ أبو عبد الله سيدي محمد بن عامر التادلي(112) وكان من جلسائه.

ومثل هذا ما حكى عن السلطان أبي الملوك مولانا إسماعيل أنه سأل كتابه يوما فقال لهم : إنه روي عن عبد الملك بن مروان أنه كتب للحجاج بن يوسف كتابا، وقال له فيه : إنك عندي كقدح ابن مقبل، قال لهم مولانا

---

(110) كذا بالأصل وفي (م) : قضية
(111) ما بين العلامتين سقط من (م) ومن (ل).
(112) الفقيه النحوي البياني الأديب المحدث المؤرخ، أعجوبة زمانه ت 1234هـ 1818م وسلوة الانفاس، ج 3 ص 16.

إسماعيل ما مراد عبد الملك بذلك ؟ هل هو مدح للحجاج أو ذم له ؟ وما هو قدح ابن مقبل ؟ وما خبره الذي اشتهر هذا الاشتهار ؟ فعجز الكتاب عن ذلك، ولم تكن عندهم رائحة ما هنالك، وكان الوزير الأعظم رئيس الكتاب السيد أحمد بن الحسن اليحمدي غائبا لمرض نزل به في تلك المدة، ولو حضر لكشف عنهم تلك الشدة، وخبر ابن مقبل وقدحه مشهور في كتب الأدب لا يكاد يخفى على أحد من أربابه، وحاصله أنه لما هاجى النجاشي {الشاعر}(113) بني العجلان بهذا الشعر وهو :

إذا الله أخزى أهل لؤم ودقة   فأخزى بني العجلان رهط ابن مقبل
قبيلة لا يغدون بذمة   ولا يظلمون الناس حبة خردل
تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
ولا يردون الماء إلا عشية   إذا أصدر الوراد عن كل منهل
وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فشكوه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فقال عمر رضي الله عنه : ما أرى هذا هجوا : فقالوا يا أمير المؤمنين سل حسان بن ثابت فسأله : فقال له : إنه ما هجاهم، ولكن سلح عليهم في خبر طويل، وأما القدح المضروب به المثل، وهو المسؤول عنه، فإنه يضرب به المثل في الفوز وحسن الأثر، قال الجرجاني في كتاب الكنايات ما نصه : حكى ابن دريد عن أبي حاتم عن الأصمعي أن الحجاج لما كتب له عبد الملك بن مروان بذلك اغتم غما شديدا وخاف أن يكون أراد ذمه، فسأل قتيبة بن مسلم، فقال لا بأس عليك، أما سمعت مدح ابن مقبل لقدحه بقوله :

غدا وهو مجدول فراح كأنه   من المس والتقليب بالكف أفطح
خروج من الغمى إذا صك صكة   بدا والعيون المستكفة تلمح
إذا امتحنته من معد قبيلة   غدا ربه قبل المفيضين يقدح

أي وثق بفوزه، فهو يقدح النار ليطبخ اللحم التي يفوز بها، قال مسلم بن قتيبة إن هذا القدح فاز <أكثر من سبعين>(114) مرة ولم يخب مرة بينها انتهى، وكان عبد الملك كثيرا ما يمتحن الحجاج بأمثال هذا.

وفي عام تسعة وتسعين ومائة وألف ورد ولده مولاي عبد السلام من

---

(113) إضافة (م) ومن (ف)

(114) في (م) و (ف) : فاز أربعين مرة متوالية

الحج المبرور، وفيه وجهه خليفة بتارودانت، وولاه القطر السوسي بسهوله وجباله وما وراءه، وفي هذا العام وجه ابن عمه صهره مولاي عبد الملك بن إدريس بن المنتصر مع كاتبيه ابن عثمان(115) وعمر الأزيرق في صحبة شيخ الركب عبد الكريم بن يحيى الفاسي(116) للحج، ووجه معهم مالا كثيرا لأشراف المدينة ومكة والحجاز واليمن، وقدره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال، وصلة ذهب في أحقاق لمعينين، كل واحد مكتوب عليه اسم صاحبه، وأمرهم بالتوجه أولا إلى اصطنبول حتى يتوجهوا مع أمين(117) الصرة التي تتوجه هدية من السلطان العثماني للحرمين الشريفين، وهذا كله حذرا من ولده مولاي اليزيد لئلا يلقاهم في البر وينهب منهم المال، فوجههم في البحر في مركب من قراصين الاصطنبول، وكتب للسلطان عبد الحميد ان يوجههم مع أمين الصرة، فلما بلغوا للاصطنبول وجدوا الصرة والحجاج قد سافروا، فأقاموا باصطنبول الى العام القابل فتوجهوا ولما بلغوا المدينة المشرفة فرقوا بها، وفرقوا بالحجاز ولما بلغوا مكة وجدوا بها مولاي اليزيد في انتظارهم، ففرقوا على أهل مكة، وبقي عليهم واجب أهل اليمن والأحقاق التي فيها الذهب للمعنيين، فرصدهم في وقت القيلولة ودخل في أصحابه دار بن يحيى الذي عنده المال، فنهب ما قدر عليه وأخذ الأحقاق وخرج، فتوجه مولاي عبد الملك وشيخ الركب والكاتبان إلى امير مكة الشريف سرور وخبروه بالخبر، فوجه أعوانه فأتوا بمولاي اليزيد فهدده وألزمه رد ما نهبه، فأتى بالبعض وأنكر البعض، وغاب عليه، فهذا سبب غضب والده وسخطه عليه وتبرأ منه، وكتب بذلك كتبا بالبراءة منه والدعاء عليه والعياذ بالله تعالى، والكتاب الأول وجهه الى بيت الله الحرام، والثاني للحجرة النبوية، والثالث لبيت المقدس، والرابع للحسنين، والخامس لضريح مولانا علي الشريف بسجلماسة، والسادس لضريح مولانا إدريس بفاس، والسابع لضريح مولانا إدريس الأكبر. وكتب للسلطان عبد الحميد يخبره بسخطه وسوء فعله، وأوصاه ألا يقبله إذا أقدم، فأقام مولاي اليزيد بالمشرق ولم يقدر على مواجهة أبيه لسوء صنعه، ففي هذا العام أسر أهل الجزائر نصرانية من قرابة السلطان أصبنيول كانت متوجهة في مركب من اسبانية لنابول، فلما عرفوا محلها من قومها

---

(115) المكناسي تقدمت ترجمته تحت رقم 68.

(116) عند الأستاذ الرحالة الكبير محمد المنوني في كتابه «ركب الحاج المغربي» ص 32 أن الحاج عبد الكريم بن يحيى كان أمير الركب سنة 1199 في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله. توفي عبد الكريم هذا 5 رجب 1213هـ 1798م.

(117) كذا بالاصل وفي (م) و (ف) : «أمير» بالراء.

امتنعوا من قبول الفداء فيها بكل وجه، وكتب سلطان الاصبنيول للسلطان سيدي محمد يشفع له في فداها بكل ما يطلبون، فما وسعه إلا مساعدتهم وكتب لدولانني[118] الجزائر في شأنها فاعتذر له بأن النصرانية وقعت في سهم العسكر ولانقدر على إكراههم على فدائها، فلما رد شفاعته كتب للسلطان عبد الحميد، فكتب لهم السلطان يلومهم على عدم فداءها، وقال لهم : إن الواجب عليكم توجيهها دون مال وما عسى يبلغ ثمن هذه النصرانية ولو طلب مني سلطان المغرب ألف نصرانية مثلها لوجهتها له وحتى الآن فنأمركم أن تبعثوا له هذه النصرانية مجانا ولو كانت هي الملكة ولا تقبضوا فيها فداء، ألم تروا ما فكه سلطان المغرب من أسارى الترك من كل جنس حتى لم يبق بأيدي الكفار مسلم واحد، وأنتم تردون شفاعته في نصرانية لا بال لها فلا تعودوا لمثل هذا فيكون سببا لتكدير خاطرنا عليكم والسلام، ولما ورد عليهم الفرمان وجهوها لحضرة السلطان في الحين ووجهوا له الفرمان ليرى قول الإمام عبد الحميد ويرى مكانته عنده وكتبوا له يعتذرون وقالوا إنما كان منعنا من الفداء أنه بلغ خبرها للسلطان وتخوفنا من مثل هذه القضية من الملامة، ثم وقعنا فيما فررنا منه وما فعلناه هو الواجب علينا من طريق الطاعة وأنتم أحق من عذرنا، فنحب من فضلكم أن تقبلوا معذرتنا ولا تظنوا بنا الا الخير وشدة المحبة وغاية التعظيم لجنابكم الطاهر والسلام.

وفي عام تسعة وتسعين ومائة وألف لما عاد السلطان من رباط الفتح جعل طريقه على تادلا ونزل على زاوية أبي الجعد وأمر بهدمها وإخراج السيد العربي بن الشيخ البركة الصالح[119] سيدي المعطى بن صالح هو وأولاده وبنو عمه من شرقاوة، وقال لهم أنتم معتكفون في هذه القرية على الفساد وإيواء أهله من كل ظالم وذاعر من جميع القبائل، وكان السلطان قد أعذر لهم المرة بعد المرة، فنقلهم لمراكش فسكنوا بها إلى أن مات السلطان رحمه.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به هكذا قال صاحب البستان : وقد تركنا من كلامه مالا يليق، فإنه أطلق لسان الفحش والايذاء والسب والقدح في سيدي العربي بن المعطى على عادته في أولياء الله تعالى، فإنه لا أعدى

---

(118) كذا. أي كلمة غير مفهومة. وهي موجودة في (ف) و (م) و (ل).

(119) غاية في الحفظ واستحضار الحديث والتفسير، وسرد الصيام، وأحياء الليل، دائم في القيام وإطعام الطعام ت 1234هـ 1818م. «الإعلام» الطبعة الفاسية ج 5 ص 180 والطبعة الملكية ج 6 ص 182. «فهرس الفهارس» ج 2 ص 167 «الزاوية الشرقاوية» للأستاذ احمد بوكاري ج 1 ص 110-113.

له ممن انتسب إلي باب الله، أو دعا إلى حضرة الله تعالى غفر الله لنا وله بمنه آمين. ولما بويع مولانا هشام لما مات السلطان ردهم لمحلهم، قال الزياني : فعادوا لما كانوا عليه ثم أطلق لسانه المتفحش الى أن قال : إن السلطان العادل مولانا سليمان نقل سيدي العربي لفاس فسكنها مدة ثم رده لمحله.

وفي عام ألف ومائتين وجه السلطان الزياني للاصطنبول فأقام هنالك ثلاثة أشهر وعشرة أيام، وذلك مائة يوم، فرجع ووجه معه السلطان عبد الحميد أحد كبراء دولته بهدية عظيمة للسلطان، وقد ذكر الزياني في البستان : أخبار الاصطنبول واستوعب ما قدر عليه من أحوال مملكتها، وما شاهده منها في وجهته تلك إن كان صحيحا، ولولا أن مولانا نصره الله أمرنا بالاقتصار على أخبار هذه الدولة الشريفة وأن لا ندخل فيها أخبار غيرها إلا ماله تعلق بها لولا ذلك لذكرت ما ذكره من ضخامة تلك الدولة وقوانينها، فإنه شيء عجيب، ومن أراد ذلك فليراجع البستان إلا أنه أكثر من ذلك وخلطه بلا ترتيب على عادته.

وفي عام مائتين وألف وجه السلطان سيدي محمد للمراسي كلها راتب الجيوش التي بها عن خمس عشرة سنة بحسب مثقال للواحد في الشهر، إعانة لهم، وجعل بكل مرسى بيت مالها، وعند تمام ثلاثة أشهر يفتح بيت المال ويدفع لعسكرها ثلاثون أوقية لكل واحد مشاهرته حضروا أو غابوا، وأما راتب الحركة وعاشوراء والصدقات فإنه يوجهه لهم من عنده، وهذه المشاهرة المذكورة جعلها إعانة لأولادهم، وكان عدد جيش السويرة والطبجية والبحرية ألفين وخمسمائة، وبآسفي مائتين طبجية ومائتين بحرية، وبيطيط عبيد خمسمائة، وبأزمور عبيد خمسمائة، وبأنفا خمس وعشرون مائة، وبالرباط بحرية وطبجية ألفان، وبالمهدية عبيد خمس وعشرون مائة، وبالعرائش جيش وبحرية وطبجية ‹ خمس عشرة مائة، وبأصيلا والساحل بحرية وطبجية ›(120) مائتان، وبطنجة أهل الريف ستة وثلاثون مائة، وبتطوان عسكر وبحرية وطبجية ثمان مائة، فكان جملة العسكر المراسي ستة عشر ألفا وخمسمائة يقبضون ثلاثين أوقية للواحد في كل ثلاثة أشهر، واستمر ذلك الى موت السلطان رحمه الله عام أربعة ومائتين وألف، فقسم العبيد المال الذي ببيوت الأموال في المراسي بأمر مولاي اليزيد وتوجهوا لمكناس وذلك أول فساد أظهره مولاي اليزيد، وبذلك انحل نظام المملكة.

---

(120) ساقط من (م).

وفي عام احدى ومائتين وألف حرك السلطان لشراقة فنهبهم واستحرموا بضريح الشيخ أبي الشتاء بفشتالة، فعفا عنهم وتوجه للحياينة فنزل على زروعهم أطلق أيدي المحلة على حصده ودرسه إلى أن استصفاه، وأمر العساكر بقصدهم فتبعوهم الى أن استأصلوا حللهم وأموالهم.

وفي عام اثنين ومائتين وألف أمر السلطان آيت عطة أن يوجهوا له ستمائة رجل مع أربعمائة من العبيد ‹عبيد سجلماسة›(121) الجميع ألف، ليدفع لهم السلاح والكسوة فقدموا عليه لمكناس فوجههم لتطوان حتى قبضوا السلاح والكسوة، ومنها لطنجة يتدربون على ركوب البحر في الغلايط، وكانت عنده عشرون من الغلايط، فكانوا يركبون فيها كل يوم ويخرجون للبغاز وسواحل اسبانية ويتطاردون مع بعضهم بعضا بقصد التعليم إلى ان تدربوا على ركوب البحر وألفوه وزالت عنهم دوخته وأقبل فصل الشتاء، وأمر بقدومهم عليه، فلما بلغوه واستراحوا ثلاثة أيام أقام المشور لخصوصهم(122) فلما حضروا تقدم حتى وقف في وسطهم إيناسا لهم ومباشرة، وتكلم مع البربر بلسانهم وسألهم عن حالهم وسفرهم فأثنوا عليه الثناء الجميل وفرحوا فأمرهم بالرجوع لتافيلالت، وقيد على الصحراء الزياني وأمره بالذهاب معهم، وعزل القائد الذي كان بتافيلالت وقبض عليه.

وفي عام ثلاثة ومائتين وألف قدم مولاي اليزيد من المشرق مع الركب الفلالي، وكان ورد قبله أخوه مولاي سلامة وتركه بالمشرق، فلما بلغ مولاي اليزيد قرية بوصمغون اجتمع برفقة من أهل تافيلالت وسألهم عن القائد فيها، فقالوا له الزياني، فقال لشيخ الركب والشرفاء الذين معه إني كنت متوجها لبلادكم، فلما وجدت الزياني قائدها علمت أنه لايدل السلطان إلا على السوء ولا يسعى بيني وبين والدي إلا بالشر، ولا يأمره في إلا بما لا يرضى، ولا يخيط بخيط أبيض، وهذا عيالي يتوجه به أصحابي معكم، ينزل بدار أخي مولاي سليمان، وأنا أتوجه من هنا لضريح الشيخ مولانا عبد السلام، فتوجه أصحابه مع عياله صحبة شيخ الركب، وكتب لأخيه مولانا سليمان يستوصيه بعياله، وكتب لشقيقته للا حبيبة بالرتب ولبني عمه، ولما بلغ الركب للقنادسة تقدم صاحبه بالمكاتب ودفعها لمولاي سليمان، فلما قرأها تحير وخاف من سخط والده إذا آوى ذلك العيال وأدخله لداره،

---

(121) ساقط من (م) ومن (ب).

(122) كذا بالأصل ومثله في (ب) أما (م) ففيها : لحضورهم.

فركب وتوجه للقائد وأراه المكاتب، وقال : أشر علي بوجه التخلص من هذا الأمر، ورلا ركبت وتوجهت للغرب فرارا من هذه المصيبة فقال له الزياني هوّن عليك فإنه لا يكون إلا ما يرضيك ولا يصل عياله لهذه البلدة، وإن دخلوا لحقني أنا مثل ما تخوفت أنت منه فكتب كتابا لشيخ الركب الشريف مولاي عبد الله بن علي يقول له : كيف بك وأين غاب عقلك حتى صحبت عيال مولاي اليزيد وقد علمت سخط السلطان عليه وعلى من يأويه أو يطعمه أو يسقيه، ولمن أردت أن تدفعه ؟ ومن يقبله منك ؟ ‹فهل عولت أن تدخله لدارك ؟ فوالله ما هنا من يقبله منك›(123) وأنا أعلمك يقينا أنك إن قدمت هذه البلدة به لا تدخلها إلا مكبلا، وعلى هذا كن معولا فادفع عنك عياله وأصحابه الى طريق الرتب يتوجهون لأخته، وقد أعذر إليك من أنذرك والسلام، فلما كتب الكتاب وجهه لمولانا سليمان ليراه، فلما رآه زال عنه كدره وفرح ثم وجه القائد ذلك الكتاب مع الخيل لشيخ الركب، فلما قرأه دهش، وعلم أنه وقع في أمر عظيم، وكان شريفا خيرا مغفلا، فوقف بالركب حتى لحقه العيال مع أصحابه فوجه معهم من يدلهم على الطريق للرتب على ‹قير›(124) فكتب القائد المذكور للسلطان يعلمه الخبر، فأجابه واستحسن رأيه وقال له : لا تتركهم بالرتب، وقال له : وجه معهم ثلاثين من العبيد والبهائم، وزودهم ووجههم لأمه بدار دبيبغ، وكان السلطان أخرجها من داره وأنزلها بدار دبيبغ وبمثل هذه المسألة كان مولاي اليزيد يعتد على الزياني حتى ضربه حتى انقطع منه النفس، على أنه مات ‹وذلك لما بويع له بعد موت أبيه›(125) وهو ظالم له فيما ظهر، والله يغفر للجميع، ولما بلغ مولاي اليزيد حرم مولانا عبد السلام وجه الشرفاء أولاد الشيخ للشفاعة فيه، فأمرهم السلطان أن يأتوا به على الأمان فامتنع، فوجه له ثانيا فأبى، فكتب له مرارا بالعفو فلم يقبل وتصدى لعصيانه ومخالفته، وصار يكتب للسلطان بمقالات لا تصدر عن العقلاء إلى أن أعياه أمره فوجه له أخاه شقيقه مولاي سلامة في عسكر ينزلون بقربه ويمنعونه النزول من الحرم، ثم وجه له عسكراً ثانيا مع القائد العباس فنزلوا بقرب الحرم من الناحية الأخرى يمنعونه النزول والتصرف وضيق عليه من كل وجه.

---

(123) ساقط من (م).

(124) ساقط من (م).

(125) ساقط من (م).

وخرج السلطان من مراكش بقصده، وهو مريض بغصته، وتحمل ألم السفر والمرض فتزايد به المرض في الطريق ستة أيام، ومات رحمه الله يوم دخوله للرباط بقربه وهو في المحفة، فأسرعوا به الى داره وجهزوه ودفنوه بقبة من قباب الدار، وكان ذلك في رجب عام أربعة ومائتين وألف، وكان له رحمه الله عدة أولاد أكبرهم ابو الحسن مولاي علي، ومولاي المامون ومولاي عبد السلام، ومولاي هشام هؤلاء أولادمولاة الدار لالة فاطمة بنت سليمان ابن اسماعيل، ومولاي عبد الرحمان أمه حرة هوارية هوارة سوس، ومولاي اليزيد، ومولاي مسلمة أمهما رومية، ومولاي الحسين ومولاي عمر أمهما حرة من الأحلاف، ومولاي عبد الواحد وأخوه لحرة من الرباط، ومولاي سليمان ومولاي الطيب ومولاي موسى لحرة من الأحلاف {أيضا}(126)، ومولاي الحسن ومولاي قدور لحرة من الأحلاف، ومولاي عبد الله لحرة من بني حسن، ومولاي إبراهيم لمملوكة رومية، وكان مولاي سليمان أعلق بقلبه من جميع إخوته لسعيه فيما يرضي الله تعالى ويرضي والده، واشتغاله بالعلم الشريف والعكوف عليه وملازمة أهل الخير ومجالستهم ومخالطتهم ومجانبة أهل الشر والفساق، ولم يلتفت قط الى شئ مما يتعاطاه إخوته الأصاغر والأكابر من اللهو والصيد والسماع ومعاقرة الندمان ومعاطاة ما يستر العقل ويشين بالمروءة، وما يترتب على ذلك من الظلم والجور، ولم تظهر عليه ناقصة من صغره الى كبره، وكان السلطان والده يرى له ذلك ويثيبه عليه بالعطايا الجسام، والذخائر الثمينة والأصول المعتبرة التي تغل الآلاف، وينوه بذكره في مقاماته ومواقفه على رؤوس الخواص والعوام، ويقول ان ولدي سليمان رضي الله عنه ما بلغني عنه قط ما يكدر خاطري عليه، فأشهدكم أني عنه راض، ونشأ نشأة حسنة والفضل بيد الله تعالى.

(126) إضافة من (م) ومن (ف).

ذكر جملة من فضائل السلطان سيدي محمد ومآثره

وما وفق له من أعمال البر والجهاد، وما شيد من المساجد والمدارس، والقناطر وغير ذلك.

فمن ذلك في مراكش ضريح الشيخ أبي العباس السبتي ومسجده ومدرسته، وضريح الشيخ التباع ومسجده، وضريح الشيخ الجزولي ومسجده، وضريح الشيخ الغزواني ومسجده، وضريح الشيخ ابن صالح ومسجده، وضريح مولانا علي الشريف ومسجده الأعظم، وضريح سيدي ميمون الصحراوي، ثم المسجد الأعظم الذي هو جامع السلطنة ببريمة ومدرسته، وإصلاح المسجد الأعظم المنصوري، والمسجد الأعظم بباب دكالة، والمسجد الأعظم بالرحبة، ومساجد القصبة، ومسجد زاوية الشرادي، ومسجد رباط الشاكر، ومدينة السويرة ومدارسها ومساجدها وسقائلها، وأبراجها البحرية والبرية وجميع ما فيها وما حولها، ومسجد آسفي ومدرسته، ومدينة تيط ومسجدها، ومدينة أنفا ومساجدها ومدارسها وحمامها(1) وسقائلها وأبراجها، ومدينة فضالة ومسجدها ومدرستها، والمنصورية ومسجدها، ومسجد السنة الأعظم بالرباط، ومساجد أكدال فيه، والسقائل والأبراج، ومسجد العرائش ومدرسته وسقائلها وأبراجها وأسواقها، وسقائل طنجة وأبراجها ومسجدها، ومسجد الأزهر <بأروى>(2) مكناس، ومسجد البرادعيين، وضريح الشيخ ابن عيسى، وضريح سيدي سعيد ومسجده، ومدرسة الشاوية بالقصبة، ومدرسة الدار البيضاء، ومدرسة الصهريج، ومسجد بريمة ومدرسته، ومسجد هدراش، ومسجد باب مراح وثلاثة أقواس بقنطرة واد سبو بفاس، وضريح الشيخ سيدي علي ابن حرازم، وضريح الشيخ الدراس ابن إسماعيل، وضريح أبي عبد الله التاودي، ومدرسة باب الجيسة، ومسجد تازا ومدرسته، وضريح مولاي علي الشريف بتافيلالت، وقصبة الدارالبيضاء ومسجدها، ومسجد الرصاني ومدرسته، والمسجد الأعظم ومدرسته، وميضاته وأوقافه على المارستان بفاس ومراكش، ورتب لأشراف تافيلالت في كل سنة مائة ألف مثقال من غير ما يعطيهم في أيام السنة مفرقا، ولأهل الحرمين الشريفين، وشرفاء الحجاز واليمن مائة ألف مثقال في السنة، ولشرفاء الغرب مائة ألف مثقال

(1) في (م): «حماماتها» بلفظ الجمع.

(2) ساقط من (م).

في كل سنة، وللطلبة والمؤذنين والقراء في المكاتب وأئمة المساجد تأتيهم صلة في كل عيد وما ينفقه في الجهاد على الرؤساء والبحرية والطبجية وما ينفق على المراكب الجهادية والآلات الجهادية التي ملأ بها بلاد المغرب بعد فقدها منه فشئ لا يحصيه قلم كاتب، وأما ما أنفقه من الأموال في فكاك الأسارى من بلاد الكفار حتى لم يبق بها أسيرا من المسلمين لا من أهل المغرب ولا من أهل المشرق ولا من الترك، ولقد بلغ عددهم في عام مائتين وألف ثمانية وأربعين ألف أسيرا، وأما اعتناؤه بالمراكب القرصانية فقد بلغ عددها عنده عشرين كبارا من المربع، وثلاثين من البرقنطي والفراقط والغلايط، وبلغ رؤساء مراكبه ستين رئيسا كلها بمراكبها، وبلغ عسكر البحرية ألفا من المشارقة، وثلاثة آلاف من المغاربة ومن الطبجية ألفين، وبلغ عسكره من العبيد خمسة عشرة ألفا، ومن الأحرار سبعة آلاف، وأما عسكر القبائل الذي كان يحرك مع الجيش فمن الحوزية ثمانية آلاف ومن الغرب سبعة آلاف، وكانت له هيئة عظيمة في مشوره وموكبه، في مهادنته ومسالمته في البحر لا عن كثرة القوة التي ليست عندهم، ولكن بالسعادة الربانية وحسن التدبير ولطافة السياسة التي يتعجب منها المتعجبون، وعلو الهمة حتى عمت مسالمته أجناس النصارى كلهم ما عدا جنس الموسكو، فإنه لم يسالمه لمحاربته مع السلطان العثماني، ولقد وجه الموسكو رسوله بهديته لطنجة فرد هديته وطرده، ولم يرد مسالمته، ووظف علي الأجناس كلها الوظائف يؤدونها كل سنة، ويستجلبون خاطره بالهدايا والالطافات، وكلما وجه لجنس في أمر أسرع إليه ولو كان محرما في دينه يلتمس له المخرج، ويحتال لقضاء أغراضه منهم بكل وجه أحبوا أم كرهوا وكان أقبح طواغيتهم طاغية الأنجليز، وطاغية الفرنصيص لا يؤدون ضريبة مثل غيرهم من الأجناس، ويأنفون من أدائها ظاهرة، وكان يستخرجها منهما خفية، وأكثر منها باستعمال الحيلة، وكان رحمه الله عالي الهمة، يحب الفخر ولا يرضى الا بأعلى ما يمكن من الأمور، يخاطب ملوك الأتراك وهم ما هم مخاطبة الأكفاء، ويخاطبونه مخاطبة السيادة، ويمدهم بالأموال الثقال والهدايا حتى ملك أزمتهم، وعلا صيته عندهم، وظنوه أعظم منهم مالا ورجالا، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ويضع الأشياء في محالها، ويعرف مناصب الرجال ويؤدي حقوقهم بأوفى ما يكون ويتجاوز عن هفواتهم، ويراعي لأهل السوابق سوابقهم، ويتفقد أحوال خدامه في الصحة والمرض، ويختص بمزيد العناية والاحسان من كان يعرفه قبيل الملك، [قال

مقيده : جرى يوما ذكر السلطان سيدي محمد بن عبد الله في مجلس الرئيس الأجل القائد الصالح أبي مروان السيد عبد الملك أبه، فقال لنا : لا تظنوا أن سيدي محمد مثل هؤلاء الملوك الذين عرفتم ورأيتم، فإنه والله من نظراء الرشيد والمأمون وعبد الملك بن مروان ويعقوب المنصور والمنصور بن أبي عامر وأمثالهم انتهى}(3). وكان من الشجعان المذكورين في وقته، يباشر الحروب بنفسه ويهزم الجيوش بصولته، وكان يقتني الرجال ويعدهم ليوم ما، وينادي كل واحد باسمه وقت اللقاء في حومة الوغى ويوجه كل بطل منهم مع قبيلة، ومع كتيبة من كتائب العسكر، ويعمل بقواعد أهل السياسة في الحروب، وكان رحمه الله يقول إذا وجه أحدا ممن يعرف نجدته وشجاعته، وينشد قول ابن دريد :

والناس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنى

بل جرب ذلك فوجد الواحد خيرا من عشرة آلاف، فان الشجعان وان قلوافهم في العساكر مثل الخمير في العجين، وقد كان رجال من العرب يعدون بالألف قبل الاسلام وبعد الاسلام من المهاجرين والأنصار منهم خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة وعبد الله بن الزبير والمقداد بن الأسود، ومن الأنصار عباد بن بشر، وعبادة بن الصامت والنعمان بن بشير وغيرهم وهم كثير، وقد أرخ الفقيه سيدي سليمان الحوات الفاسي(4) موت السلطان سيدي محمد بقوله :

مات أمير عصرنا محمد   وقد كفى الله اليزيد شره
وإن ترد تاريخه فإنه   قد قدس الله العزيز سره

وهو حسن إلى الغاية، ولما كان الزياني أجنبيا من مقاصد علماء البديع والبيان اعترض على القائل المذكور، فقال : وما كان من حقه أن يصف السلطان الجليل بهذا الوصف السقيم العليل، ولو أجمل وقال :

مات أمير عصرنا محمد   وحرم الله اليزيد أجره
وإن ترد تاريخه فرشد   وقدس الله العزيز سره

---

(3) مابين العلامتين ساقط من الأصل ومن (ف) فأضفناه رواية عن (م).

(4) المولى سليمان بن أبي عبد الله محمد عبد الله الشفشاوني الحسني العلمي المرسري الشهير بالحوات، العلامة الحافظ، الراوية النسابة، اللافظ، نقيب الأشراف ت 1231هـ 1815م. وقد غلط الاستاذ حجي في كتابه «الزاوية الدلائية» إذا قال : توفي بعد عام 1233هـ 1817م في فهرس الكتاب. «السلوة» ج 3 ص 116 «السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر» ، وهو من مؤلفات المترجم «سليمان».

لكان أولى وأحسن من وصفه بالشر، وأقرب من تلك الجملة وأخصر انتهى كلامه الذي اعترض به، وهذا كلام من لم يذق شيئا من أسرار الكلام، ومن لم يكن له قط بغير الظواهر إلمام، وإنما مرتعه مرتع جهلة العوام، كما ترتع سائمة الأنعام، فإنه عمد الى ما شيده الفقيه العلامة الفصيح البليغ من الجناس بين شره وسره فهدمه، وسن عليه أكداس الإهمال فردمه، وظن أن الشر المذكور مناط بجانب السلطان وليس كذلك، فإنما هو متعلق بجناب مولاي اليزيد الذي يقع به، وينزل عليه، والشر هو كل ما يخالف مراد الإنسان كما ان الخير هو ما يوافق مراده، نعوذ بالله من الغباوة المركبة.

الراية الزرقاء الكسيفة المنظر الكريهة المخبر
راية مولانا اليزيد بن مولانا محمد
بن عبد الله بن إسماعيل

لما مات السلطان سيدي محمد بن عبد الله في التاريخ المذكور وبلغ خبره مولاي اليزيد وهو بضريح الشيخ مولانا عبد السلام، بايعه الأشراف أهل العَلَم وجميع أهل تلك الجبال، وقدم عليه السابقون من الجند الذين كانوا محاصرين له، فتوجه لتطوان وهو أقرب الثغور إليه، فبايعه أهلها وقبائلها، وقدم عليه أهل طنجة والعرائش وأصيلة وقبائل الفحص، فأول ما بدأ به إطلاق الجند على أهل الذمة فاستباح أموالهم ونساءهم، وأزال نعمتهم، ثم توجه لطنجة فلقيه عسكرها ففرح بهم وأحسن إليهم، وهناك قدم عليه وفد أهل فاس ببيعتهم بأشرافهم وعلمائهم وأعيانهم، فأكرمهم وولى عليهم العربي الذويب، ثم انتقل للعرائش فوافاه بها من كان مع السلطان والده المرحوم من المحلة بمتخلفه من القباب والخيل والبغال وجميع آلات الملك فأحسن إليهم وتوجهوا معه، ولما بلغ لزاوية زرهون لقيه بها أخوه مولانا سليمان قادما من تفلالت بقبائل الصحراء، عربها وبرابرها وبيعة أهلها، واستحرم به محمد وعزيز لما مر عليه وكان فارا خائفا على نفسه، فجاء في صحبته بقبائله، فلما ورد عليه سامحه وأبقاه على ولايته، ولما بلغ مكناس قدم عليه أهل الغرب عرب وبرابر حتى عصاة آيت امالو ودجالهم امهاوش وقدم عليه قبائل الحوز كلها الأعراب والبرابر ولم يتخلف منهم أحد فلما فرغ من تجهيز الوفود[1] أمر العبيد الذين في الثغور في مقابلة العدو بالرجورع لمكناس، وأن يقتسموا الأموال التي في المراسي بلا عدد، وأمر الوداية بالانتقال الى فاس الجديد، وقد كانت فاس استراحت من فسادهم بارتحالهم لمكناس مدة من ثلاثين سنة، فانتقلوا وأعطاهم خمسين ريالا لكل واحد، ولقد بدد من الأموال التي اقتسمها العبيد من أموال المسلمين وما أعطى للوداية وغيرهم من الوفود بالتبذير الخارج عن طبيعة العمارة والصلاح ما لا يحصى فقد كان سيدي محمد رحمه الله

---

[1] في (م) الجيوش بدل الوفود.

جعل في كل مرسى بيت مال معدى للجهاد، فأتلف هو ذلك في ساعة واحدة.

ولقد كان المولى اليزيد في أوان صغره تلوح عليه أمارات الخير والنجابة، وكان الناس يلهجون بذكره ويهتفون باسمه لما كان عليه من الكرم والشجاعة ومحبة الشرفاء أهل البيت وهذه خصال فيه لا تنكر، ثم ابتلاه الله بمخالطة أهل الشر والفساد، فانعكست أحواله، وكان السلطان والده المرحوم في تلك الحالة الأولى يفرح به غاية ويقدمه على كبار إخوته في الأمور العظام لما يظهر له من نجدته وشجاعته ورغبته في الجهاد وولوعه بعلوم الحرب من الرمي والمدافع والمهاريز، وكان يرشحه للخلافة لما أشرقت عليه تلك البارقة قبل انعكاس حاله، ولما رآه ولوعا بذلك أقبل عليه بالعطاء والإحسان وولاه الكلام مع قنصوات الأجناس الذين بالمراسي، وقصده بذلك انتفاعه، وكان السلطان المرحوم لما ارتحل لمراكش عام اثنين وثمانين ومائة وألف ولاه على قبيلة جروان وهم في ذلك العهد أعظم قبائل البربر خيلا ورجالا، وأسند إليه نظرهم وأمره أن يكفهم عن محاربة آيت ادراسن أولياء الدولة وشيعتها فقدموا عليه وفرح بهم وصار أحداثهم وأولاد رؤسائهم يركبون معه ويخرجون معه للصيد فأقبل عليهم بإعطاء السلاح والخيل والكسوة الفاخرة، ولا يخلو مجلسه منهم فأخذوا بزمامه فصاروا يزينون له الانتزاء على الملك، ويهونون ذلك عليه ويسهلون عليه الاتصال به ويضمنون له الاستيلاء على جميع من في طاعة السلطان من العساكر والرعايا ويقولون له : إن جيراننا قبائل آيت أمالوا يوافقوننا ولا يخالفوننا، ولا يقوم لنا قائم لا من الجندي ولا من غيره، وهذا بيت المال الذي بقبة الخياطين هو بيدك في ليلة واحدة تحوزه، ولا مانع دونه وبه يقوم لك الملك وتخضع لك الرقاب، ولم يزالوا يفتلون في ذروته وغاربه، فشرهت نفسه لذلك وصار لا حديث له إلا ذلك إلى أن شاع أمره بمكناس، فكتب قائد الوداية للسلطان وهو قدور بن الخضر، وعرفه بما عليه ولده مولاي اليزيد مع أحداث جروان، وأنهم يأتونه بالمائة والمائتين [من الخيل][2] يبيتون عنده بالقصبة وقد خفنا أن يقع منه أمر فتعاقبنا فأخبرناك بالواقع، فلما بلغ كتابه للسلطان وجه في الحين قائده العباس في مائة من الخيل

---

(2) إضافة من (م).

لقبض مولاي اليزيد، فلما بلغ العباس لسلا قدم أحد أصحابه يعلم مولاي اليزيد بأنه قادم لقبضه، وقال له : اخرج من مكناس وانج بنفسك للحرم، ولما بلغه الخبر خرج ليلا في أصحابه من جروان وخدامه وقصدوا به آيت أمالو فلما بلغ العباس مكناس وجده خرج، فأقام بمكناس وكتب للسلطان يخبره أنه توجه لآيت أمالو فوجه له السلطان الكاتب السيد سعيد الشليح من مراكش لزاوية آيت إسحاق لأنه {يعني مولاي اليزيد}(3) لم يجد من آيت أمالو إلا امهاوش واشقيرن فبدا له خلاف ما كان يظن، ولما وصله الكاتب الشليح بأمان السلطان توجه معه لحضرة مراكش، فلما وصلها دخل لضريح الشيخ أبي العباس السبتي فعفا عنه وسامحه (ولما اجتمع بأبيه تنصل مما رمي به ونسب ذلك الي سفهاء جروان، وانه لم يوافقهم على ذلك)(4) فأضمر السلطان المكر بهم والانتقام منهم فلما قدم من مراكش عام أربعة وثمانين ومائة وألف قصدهم لقريفرة وانتقم منهم، وقتل منهم نحو الخمسمائة، ونهب أموالهم وحللهم وتركهم يتكففون لفاس ومكناس، وأنزلهم بأزغار في وسط العرب وألزمهم بالمغارم الثقيلة، ونقل مولاي اليزيد الى فاس وأنزله مع أخويه مولاي علي ومولاي عبد الرحمان، واستمر حالهم كذلك إلى أن وقع الحرب بين مولاي اليزيد ومولاي عبد الرحمان بوسط فاس الجديد، ومات عدد كثير من أصحابهما، وبلغ خبر ذلك للسلطان فوجه من يقبض عليهما، فقبض على مولاي عبد الرحمان وهرب مولاي اليزيد لضريح مولاي ادريس بزرهون، فأتى به الأشراف لوالده فسامحه وسرح مولاي عبد الرحمان، وقبض على أصحابهما وأودعهم السجن إلى أن تفرغ لهم فسرحهم وقطع أيديهم وأرجلهم {من خلاف}(5) وكان عدد من قطع ثلاثين، وسرح الباقين، ونقل مولاي عبد الرحمان لمكناس وبقي مولاي اليزيد بفاس، ثم إن مولاي عبد الرحمان كان يوما في ملعب البارود فقتل رجلا من بني مطير فجاء إخوانهم إلى قائدهم محمد وعزيز فأعطاهم ديته من عنده وسامحوا وكتب عليهم سجلا بذلك، فاتفق أن وجه السلطان قائده العباس لمكناس لقتل أناس كانوا بسجن مكناس، فلما سمع به مولاي عبد الرحمان ظن أنه أتى بسبب المطيري

---

(3) زيادة من (م)
(4) ساقط من (م)
(5) اضافة من (ل).

الذي قتله، وظن أن خبره بلغ والده، فهرب ليلا لوجدة ثم لتلمسان فبلغ السلطان خبره، ولما سأل عن سبب هروبه أخبره العباس بالواقع فبعث له من أمنه فلم يثق فتوجه من تلمسان لتافلالت وأقام بها، فوجهه له السلطان بالأمان فلم يثق ثم فر لسوس فوجه له السلطان لسوس من أمنه ففر للقبلة، وأقام يتردد في تلك القبائل الى أن مات السلطان فجاء لردانة وأقام بها وطلب الأمر لنفسه، فلم يتم له مراده الى أن مات.

وأما مولاي اليزيد فإنه أقام بفاس إلى أن وجه عليه السلطان بالقدوم عليه بمراكش، فلما وصله اتفق قيام العبيد على السلطان، لما أمرهم أن يعينوا ألفا منهم يسكن بطنجة، فلم يقبلوا وصرحوا بخلعه على عادتهم القديمة فلم يبال بأمرهم ووجه لهم مولاي اليزيد لإصلاحهم وردهم عن فعلهم، فلما بلغهم وسمع كلامهم حركوا منه ما كان ساكنا فدعوه للبيعة له، فأجابهم لذلك وبايعوه وخطبوا به ووجهوا للقبائل، فمن أجابهم بايع ومن خالفهم اعتزل، وكان محمد وعزيز صادفه الحال بمكناسة فهرب ونزل بإخوانه خارجها، واستند عليه الوداية إذ لم يبايعوا فوجه إليهم المال لما فتح بيت المال وأعطاهم مثل ما أعطى للعبيد فردوه عليه ووجه لهم محمد وعزيز ألفين من الخيل والرجال دخلوا معهم للأروى، ولما قصدهم مولاي اليزيد بالعبيد ووقع الحرب بالمشتهى هزمهم الوداية ومات من العبيد ما يزيد عن الخمسمائة، ولما بلغ خبر الحرب للسلطان خرج من مراكش في العساكر والقبائل، ففر مولاي اليزيد لحرم مولانا ادريس بزرهون، ولما بلغ السلطان مكناس وتوجه للزيارة على عادته أتاه الشرفاء بولده وهو في ضريح الشيخ، فعفا عنه (وسامحه، وأتى معه لمكناسة، فلقيه العبيد بالمصاحف والألواح، والأشراف وأهل الزوايا مستشفعين تائبين)(6) فعفا عنهم وسامحهم بشرط الخروج من مكناس وقد تقدم هذا كله مبسوطا في محله.

ولما فرغ مولاي اليزيد من الوفود أمر الناس بالجهاد والغزو الى سبتة وتوجه لها ، ووجه المدافع والمهاريز وآلات الحرب، وتوجهت القبائل والجنود والعساكر، فأقام عليها مدة فلم يغن شيئا ولم يقدر على فتحها، ثم ارتحل عنها قاصدا مراكش، فلما بلغ أنفا بدا له في الرجوع وأنف من أن يقول الناس إنه عجز عن فتحها فرجع إليها ونزل عليها وجدد الحرب ووجه لقواد

---

(6) ما بين القوسين اضافة من (ف).

الحوز يأمرهم بالقدوم عليه للجهاد معه في سبتة فامتنعوا وعصوا أمره، وسبب انحرافهم عنه أنه لما وردوا عليه بعد موت أبيه للتهنئة لم يبال بهم، فتحققوا أنه مصر على المكر بهم، وخافوا سطوته، فحملهم الخوف على الخروج عليه، وذلك موجب بيعتهم لمولانا هشام، فلما بلغه الخبر أقلع عن سبتة وقصد مراكش فصدوه عنها ونازلها بالجيوش للحصار حتى دخلها عنوة فقتل ونهب وسمل الأعين بالنار {واستل ألسن وأخرج الموتى من القبور وحرقهم وذبح وسلخ وقتل النساء والصبيان والضعفاء، وفعل ما لم يفعله حجاج العراق ولا سَمِيُّه في تلكم الآفاق وعند الله تجتمع الخصوم وتلتقي الرفاق}(7) وأظهر الفساد في الأرض، فجاءه مولانا هشام بالجموع التي لا تطاق من قبائل الحوز ودكالة وعبدة وغيرهم، فلما قرب من مراكش خاف مولاي اليزيد من الحصار عليه فخرج لملاقاتهم فوقع الحرب بتازقرت فتفانت الرجال قتالا، ورجع مولاي اليزيد جريحا موهنا، وكان في ذلك حتفه ورحمة للمؤمنين غفر الله لنا وله، وتجاوز عنا وعنه بمنه، وذلك عام ستة ومائتين وألف.

(7) ساقط من (م) ومن (ل) ونقل من هامش الأصلي.

الراية الخضراء العالية ذات الأذيال البيض
راية الإمام العادل مولانا سليمان بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل

إمام به قد كان للدين جانب   منيع وللدنيا أمان وتأييد

لما مات السلطان مولاي اليزيد بمراكش عام ستة ومائتين والف، وبلغ الخبر للغرب، اتفق العبيد والوداية والبربر وأهل فاس على بيعة أخيه مولانا سليمان(*)، واجتمع الكل بضريح مولانا إدريس <وبايعوه>(1) وذلك في أول رجب من العام المذكور، ولما بويع أعزه الله طلع لدار الملك بفاس الجديد ووردت الوفود من أقطار المغرب من جميع القبائل والأمصار، ثم ورد أهل الجبال والمراسي الذين كانوا بايعوا مولاي سلمة، إلا عامل القصر الصريدي والخلط وبعض جبالة ووزان وآيت يمور والحياينة وهؤلاء كلهم وقعت منهم بيعة مولاي سلمة غفلة قبل الاطلاع على البيعة {الشرعية}(2) المعتبرة التي بايعها أهل الحل والعقد، وأول ما ابتدأ به مولاي سلمة بعد تلك البيعة المغفلة هو توجيه الخيل مع القائد محمد الزعري برأي العباس مرين، والمكي فرج من أهل الرباط المتمسكين ببيعة مولاي سلمة، وكان أهل الرباط مختلفين، فلما سمع السلطان مولانا سليمان بذلك وجه أخاه مولاي الطيب مع بني حسن لاعتراض الزعري فتوافوا بالرباط، ووقع الحرب فانهزم الزعري وقتل العباس مرين، ونهبت داره وفر المكي فرج للزاوية فاستحرم بها، وقبض الزعري ومن معه من الخيل إلى أن سرحه مولاي الطيب بعد ذلك بأمر السلطان مولانا سليمان، وقام جميع أهل العدوتين ببيعة السلطان مولانا سليمان، فشرع السلطان يمهد أمر الدولة ويرتبها ويتفقد مواضع الخلل بفاس ونواحيها، فوجه مولاي سلمة ولده لآيت يمور

(*) وقد عثرنا في تاريخ "الشيخ عبد الرحمن الجبرتي" في ترجمة "الشيخ أبي عبد الله محمد بن الطالب بن سودة التاودي" قال : ولما توفي مولاي محمد سلطان المغرب ووقع الاختلاف والاضطراب بين أولاده اجتمع الخاصة والعامة على رأي "بن سودة" فاختار المولى سليمان وبايعه على الأمر بشرط السير على الخلافة الشرعية والسنن المحمدية، وبايعه الكافة بعده على ذلك وعلى نصرة الدين، وترك البدع والمظالم والمكوس والمحارم، وكان كذلك. من "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ج 2 ص 259.

(1) ساقط من (م).

(2) اضافة من (م).

فشنوا الغارة على الزراهنة {ونواحيها}(3) لأنهم بايعوا مع أهل مكناس لمولاي سليمان وكثر فسادهم في الطرقات، فلم يكن بد للسلطان من أن يخرج لآيت يمور فخرج لهم من مكناس بعساكر العبيد والبربر ولحق به الوداية وأهل فاس وشراقة، فوجدوهم على سبو بالحجر الواقف، فزحفت إليهم الجنود ورايات السلطان فانهزموا في أول حملة، وفر ولد مولاي سلمة ولحق بأبيه، وفر آيت يمور بأولادهم لجبل سلفات، وبقيت حللهم كلها بمواشيها وخيامها وجميع ما فيها بيد السلطان ‹فصارت نهباً للجيوش وبات السلطان›(4) في ظلال السعادة والظفر، ولما أصبح آيت يمور وجهوا نساءهم وذراريهم لطلب العفو والصفح والشفاعة فسامحهم وعفا عنهم فتابوا وبايعوا، ثم ورد الخبر بأن مولاي سلمة قد عسكر بالحياينة في وسط بلادهم، فتوجه إليهم السلطان بتلك التعبئة وذلك الجيش المنصور، فوقع الحرب وانهزم مولاي سلمة ومن معه، ونهبت العساكر حلة الحياينة وجاؤا تائبين فعفا عنهم وأضافهم إلى جانبه العالي في سلك الجماعة، وتفرق عن مولاي سلمة من كان معه من الخلط وأهل الجبال، وتركوه في أصحابه وولديه وولد أخيه مولاي الحسن بن اليزيد، ففروا لجبال الزبيب فلم يقبلوهم، ثم زادوا للريف فأهملوهم، ثم طلعوا لجبل بني يزناسن فطردوهم، ثم توجهوا لنضرومة فمنعهم شيخها من التوجه للباي، فذهبوا لتلمسان وأقاموا بها وكتب مولاي سلمة للباي يطلبه الجواز إلى« المشرق، فورد عليه جواب الباي محمد بالمنع من المرور إلا بأمر السلطان أخيه، فوجه الباي من أزعجه عن تلمسان لسجلماسة مكرها، فلما بلغها وجه له السلطان مولانا سليمان مالا وكسوة وعين له قصبة ينزل بها، ورتب له ما يكفيه في كل شهر كإخوته، فلم يرض بذلك وهرب للمشرق، فصار يترامى على حجاج أهل المغرب وتجارهم فيأخذ أموالهم بعضها غصبا وبعضها سلفا لا مرد له، فكثرت الشكايات به إلى ولاة مصر فكفوه وهجروه ثم طردوه، هكذا قال الزياني، فتوجه لمكة ونزل على سلطانها صهرهم سرور فأكرمه وأنزله ورتب له فعاد إلى فعله بالحجاج والتجار فطرده الشريف سرور من مكة فرجع الى

---

(3) زيادة من (م)

(4) ساقط من (م)

مصر ثم الى تونس(5) فنزل على أميرها حمود باشا فأكرمه ورتب له وطلب منه أن يشفع له عند أخيه مولانا سليمان فكتب له ووجه كتابه مع كتاب حمود باشا فقبل فيه الشفاعة وكتب لهما أن يتوجه لتفلالت ينزل بدار والده ويرتب له ما يكفيه من مئونة وكسوة ويقاسمه نعمته، فيسلم من مخالطة الأرذال ومشاهب البلاء وسماسرة الفتن، فلما بلغه الكتاب قال : لا أذهب لتفلالت ثم رجع للمشرق يتطفل به، قال الزياني وكان مشئوما ظلوما سفاكا للدماء، منكوس الراية فعامله الله بما في ضميره للمسلمين، فلا يقف في موقف إلا ويهزم، ولا يدخل أرضا إلا وتجدب، ولا يحل موطنا إلا ويخرب، ولو أراد الله به خيرا لأقام تحت ظل أخيه عزيزا.

وفي العام المذكور وهو عام ستة ومائتين وألف وجه السلطان المحلة للشاوية مع أخيه مولاي الطيب ومعه جماعة من القواد كل واحد منهم يزعم أنه صاحب الأمر، وأعظمهم حمقا القائد الغنيمي، وأراد أن يبقى على تلك الشدة والغلظة الخارجة عن القياس <التي كان عليها مع مولاي اليزيد>(6) فتنافسوا في الرياسة واستبد عليهم الغنيمي في الرأي إذ كان رديف الخليفة مولاي الطيب، وهو إمام رأيه(7) فلما كان وقت اللقاء تخاذلوا عنه وانهزموا وتركوا المحلة والأثقال بيد العدو أنفة من استبداد الغنيمي عليهم، وكانوا عشرة آلاف من الخيل، فرجعوا مفلولين، وقدموا على السلطان بالرباط فما أمكنه إلا الرجوع بهم لفاس لتجديد إقامة الحركة ثانيا، وتخليف ما ضاع من الأخبية والسلاح والآلة.

وفي عام ثمانية ومائتين وألف، قام بقبيلة الأخماس طالب يقال له زيطان، فاجتمعت عليه أحزاب الشيطان ودعاة الفتن، وسرى فساده، في قبائل الجبال، وكثر تابعوه، وكان العامل على تلك القبائل قاسم الصريدي في أيام مولاي اليزيد، فلما ولي السلطان ولى ذلك المشئوم الظالم الغشوم الغنيمي فقبض على الصريدي.واستصفى أمواله ، وكان يعذبه ويمتحنه على المال، إلى أن مات تحت العذاب، ولما كثر فساد زيطان، وجه له السلطان

---

(5) جاء في كتاب "تعطير النواحي" بترجمة سيدي ابراهيم الرياحي، حيث أشار الكتاب الى قصة المولى سلمة مانصه : في سنة 1226 قدم للحضرة التونسية سلطان الدولة المغربية مولانا سلمة. وقد بويع بالسلطنة بعد وفاة أخيه مولانا اليزيد، الى آخر القضية المذكورة في الهامش. تعطير النواحي ج 1 ص 76.

(6) ساقط من (م).

(7) في (م) : رأيته، بدل : رأيه.

المحلة مع الغنيمي فقصده لبلاد غزاوة قرب وزان. فنهاه من معه من القواد أن يدخل الجبل بالمحلة فخالفهم ودخل بخيله وأثقاله، فلما توسط الجبل خرج له الرماة من شعاب الجبال فوقع الحرب وضاقت عليه المسالك على الخيل وأحاط بهم العدو من كل ناحية، وقتلوا وسلبوا وردوهم على الأعقاب منهزمين، فلما بلغ السلطان خبرهم قبض على الغنيمي ودفعه لأولاد الصريدي الذين قتل أباهم فباشروا قتله بأيديهم، وولى على قبائل الجبل أخاه مولاي الطيب، وفوض له أمر الثغور وأنزله طنجة واستراحت الدولة من خبث الغنيمي، وبقي مولاي الطيب يدبر أمر قبائل الجبل والثغور يتردد من تطوان لطنجة للعرائش كلما ظهرت ثلمة سدها، وكلما رأى فرصة انتهزها، والأيام مقبلة، والسعود تتزاحم على أبوابه، وحارب قبائل الفحص إلى أن استكانوا، وحارب أهل حوز تطوان وبني يدر والأخماس اتباع زيطان الثائر تارة بتارة.

وفي عام تسعة ومائتين وألف وجه له السلطان المحلة وخرج من طنجة(8) ومعه عسكرها وعسكر العرائش، ونزل في المحلة، وقصد بني قرفط عش طيور الفساد، فهجم عليهم ببلادهم، وقاتلهم في عقر ديارهم، ونهب أموالهم، وبدد جموعهم، فجاؤه تائبين، فسامحهم وعفا عنهم، وزاد لبني يدر كذلك، وفر الثائر زيطان لقبيلته، وتنصل القبائل من زمرته، فاحتال الخليفة مولاي الطيب عليه إلى أن ظفر به جاءه بالأمان فأمنه، ووجهه للسلطان تائبا فعفا عنه وولاه على قبيلته، وصار من جملة خدام الدولة مدة إلى أن ملكت زمامها، وتعين غيره لولاية محله، فأخر، ونقله السلطان لتطوان فسكنها، ورتب له، وكان موجودا في أيام قيام مولاي ابراهيم اليزيد وأخيه مولاي السعيد على السلطان مولانا سليمان، فتمسك زيطان بعهد السلطان وأغنى غناء تاما في تلك القبائل، وورد على السلطان بطنجة عام ستة وثلاثين ومائتين وألف، وقد طعن في السن غاية، وأحسن إليه السلطان الإحسان التام.

وأما خبر مولانا هشام ومولانا الحسين وما كان من أمرهما فقد تقدم لنا أن أهل الحوز لما وجه مولاي اليزيد إليهم ليقدموا عليه للجهاد والحصار على سبتة، خالفوا أمره لما تحققوا أنه مصر على المكر بهم، وبايعوا مولانا

---

(8) في (م) : تطوان.

هشاما فأقلع مولاي اليزيد عن سبتة وتوجه لمراكش فصدوه عن الدخول وحاصرهم حتى دخلها عنوة وجاءه مولانا هشام بجنوده، وخرج مولاي اليزيد من مراكش ووقع الحرب بينهما بتازقرت وأصيب مولاي اليزيد ومات عام ستة ومائتين وألف، وبويع مولانا سليمان بالغرب وبقي أمر قبائل الحوز مشتبكا من الرباط إلى سوس، وأعرض السلطان مولانا سليمان عنه، وصرف همته إلى استصلاح أمر الغرب، حتى صفا ماؤه من كل كدر، ثم شرع في إصلاح الطريق الى مراكش، وهو الشاوية وتادلا وسيدنا مولاي هشام في هذه المدة سلطان بمراكش وآسفي، إلا أن الأمر لم يخلص له كل الخلوص، لأن الهاشمي بن العروصي متفرعن بعصبية قومه دكالة، وكثرة عدده، وعبد الرحمان بناصر متغلب بكثرة الأموال التي يستفيدها من مرسى آسفي، وكانت يده مبسوطة كل البسط، فدانت لعطائه عبدة ودكالة وأحمر والشياظمة وحاحة إلى ما وراء ذلك، والناس عبيد لمن طمعوا في نواله، فبقي الأمر {كذلك}(9) ومولانا هشام على حاله الى أن أظلم الجو ما بينه وبين الرحامنة، فافترقت كلمتهم، طائفة مع عبد الله الرحماني، وطائفة بخلافه معادية له، فكانت الطائفة المخالفة لعبد الله الرحماني تميل الى مولانا هشام وتغريه به إلى أن قتله هكذا شاع هذا الخبر، وهو أن مولانا هشام هو الذي أمر بقتله وقتل ابن الداودي، والذي تحدث به السلطان مولانا سليمان مع البعض وأنا أسمع هو أن الطائفة المبغضة لعبد الله قتلوه وأظهروا أن مولانا هشاما هو الذي أمرهم بذلك...مع أنه هو لا علم عنده بذلك حتى وقع وكذلك في ابن الداودي والله أعلم، والحاصل أنه لما قتل عبد الله اغتاظت شيعته وتغلبت على من خالفهم، وكانت العصبية لشيعة عبد الله، فوجهوا لمولاي الحسين وبايعوه، ولم يشعر مولانا هشام حتى جاء مولاي الحسين {ودخل مراكش وطلع لدار الملك}(10) فخرج مولانا هشام وتوجه لآسفي مع عبد الرحمان بناصر، فكان مولانا هشام سلطانا على ما تحت ولاية عبد الرحمان بناصر، ومولاي الحسين سلطانا بمراكش وأحوازها إلى أن قدم السلطان مولانا سليمان عام إحدى عشرة ومائتين وألف، وللزياني هنا كلام قبيح حمله عليه السفه الذي هو عادته، فإنه بسط لسانه

---

(9) إضافة من (م).
(10) زيادة من (م).

في ساداته ومواليه بمجرد الكذب والفحش قبحه الله، وإلا فالشرفاء أشبال الملوك لا ينقصهم شيء مما أصابهم في طلب ملك آبائهم كما تقدم لنا قول مولانا عبد الله لأخيه مولاي المستضيء لما جاءه بعد انطفاء سراجه رحمهم الله تعالى ولما مل أهل الحوز من الفتن والحروب وتفانت رجالهم ووجوههم في الحروب إلى أن بلغ عدد القتلى بينهم عشرين ألفا على ما قيل، فكانت كل قبيلة توجه للسلطان مولانا سليمان خفية وتبايعه، فوردت عليه طائفة من الرحامنة وطلبت منه القدوم عليهم ودكالة كذلك، وكان يعدهم بذلك ويقول لهم حتى أفرغ من الشاوية، وكانت الشاوية لما كسروا المحلة التي مع المولى الطيب والغنيمي داخلها الدهش والخوف من سطوة السلطان، فوفدوا عليه مرارا تائبين، وطلبوا منه أن يوجه عاملا عليهم يكون ذلك دليلا على صفاء خاطره، فوجه معهم ابن عمه صهره على أخته للا صفية، وهو مولاي عبد الملك بن ادريس، فتوجه معهم ونزل بمرسى أنفا، فوقف على مستفادها، ودخلت الأموال بيده، فكان يعطي لأعيان الشاوية ورؤسائها يستجلب بذلك محبتهم ومساعدتهم على ما أضمره من الانتزاء على الملك فلما رأوا منه ذلك طلبوا الزيادة حتى صار يقاسمهم المستفاد من المرسى، فلما بلغ السلطان الخبر كتب له يعاتبه، فأنف من ذلك العتاب وخاف أن يعاقبه على فعله، فلما سمع بقدوم السلطان استشار بطانته الذين يستألفهم، وقال لهم هذا الرجل قادم وليس له قصد إلا أنا وأنتم، فما الرأي وما العمل ؟ فاتفقوا على بيعته ومحاربة السلطان إذا قدم، فلما بلغ السلطان رباط الفتح وخرج منه وجه في مقدمته أخاه مولاي الطيب في العساكر والسلطان في أثره، ولما بات بالقنطرة ورد عليه الخبر بأن الشاوية بايعوا مولاي عبد الملك، ولما سمع مولاي عبد الملك أن السلطان بالقنطرة هرب من أنفا مع الشاوية الذين بايعوه، وأخرج أهل أنفا المدافع ليلا لإعلام السلطان بهروب مولاي عبد الملك، ووجهوا رسلهم بخبر فراره، فوجه لهم الخيل لأنفا وقصد قصبة علي بن الحسن، وأغارت العساكر على حلل مديونة وزناتة فنهبوها وجاءوا بمواشيهم وأنعامهم بمالا عدد له، ورجع السلطان بالغنائم الكثيرة إلى رباط الفتح، ومنه لمكناس، ونقل السلطان التجار الذين بأنفا إلى الرباط وأبطل مرساها.

وفي عام عشرة ومائتين وألف قدم على السلطان جماعة من الرحامنة مبايعين له وطلبوا منه التوجه الى الحوز، فواعدهم بذلك إذا فرغ من أمر

الشاوية وتامسنا ومهد طريقها، ثم خرج في العساكر قاصدا بلاد تامسنا، فقدم عليه أولاد بورزق وفر أولاد بوعطية، وهم أولاد حريز الذين عندهم مولاي عبد الملك لواد أم الربيع، فقصدهم السلطان هناك وحاربهم فهزمهم، ونهبت أموالهم وفر مولاي عبد الملك لأخواله بالسوس الأقصى فأقام فيهم إلى أن شفع فيه مولاي عبد السلام أخو السلطان وزوجته السيدة صفية فسامحه وصفح عنه فرجع، ولما فرغ السلطان من أمر الشاوية وقدموا عليه تائبين خاضعين عفا عنهم وقيد عليهم الأستاذ الغازي بن المدني ورجع لفاس.

وفي هذا العام قدم الحاج محمد بن عبد الصادق المسجيني من الحج، وهو من عبيد السويرة، فوجهه السلطان قائدا على السويرة وأمره بكتم مكاتب الولاية وخبرها حتى يظهر له حال أهل السويرة، لأنها كانت من جملة النواحي التي في نظر عبد الرحمان بناصر وشيعته وتحت عصبية حاحة، وكان الحاكم فيها حينئذ الرجل الصالح البركة الذي جبله الله على الخير والإحسان، والنسك والعبادة في جميع أحواله، أبو مروان السيد عبد الملك أبه، فقدم إليها ابن عبد الصادق على أنه حاج لا غير، فذهب الى السيد عبد الملك يخدم في بابه من جملة المخازنية لأن ذلك وظيفته، وأظهر له النصيحة وشدة المحبة وكثرة الخدمة، والملازمة ليلا ونهارا، فلا يخرج من داره إلا ويجده قائما متجردا، فقدمه على الأعوان وعلى جميع أهل حضرته، واتخذه صاحب سره ورأيه، وابن عبد الصادق يدبر أموره مع إخوانه مسجينة وأهل إكدر في السر حتى أحكم ذلك جدا وجعل يرتقب سماع أخبار السلطان وقربه، فلما سمع وصوله لدكالة واستيلاءه عليهم وعلى أزمور وطيط، أفضى بسره وولايته وأعيان شيعته، فتواعدوا لليلة معلومة، والسيد عبد الملك لا خبر عنده بشيء من ذلك كله، وكان ابن عبد الصادق قد اتفق مع السيد عبد الملك أنه إذا حدث أمر في الليل واستأذن عليه يخرج له ويخبره ويأمره بما يكون أو لا يكون، فجاءه في تلك الليلة وقد تحزم العبيد أهل السويرة الذين أخبرهم بذلك، وتركهم بالقرب منه، وقال لهم : إذا سمعتموني أتكلم معه وأغلظ له في الكلام فدونكم فاقبضوا عليه، فلما قرع عليه الباب خرج وجلس وجعل يكلمه فأحاط به العبيد وقبضوه وأعطوه فرسه وأصحابه من حاحة الذين كانوا يخدمون معه، وأخرجوهم وسدوا الباب وراءهم، وفي الغد جمع ابن عبد الصادق أهل

السويرة وقرأ عليهم أمر السلطان وولاية ابن عبد الصادق، ثم ورد خبر دخول السلطان لمراكش، وذلك أن دكالة لما جاء السلطان بايعوه وانتظموا في سلكه، وخرجوا من شأن عبدة وعبد الرحمان بناصر، وركبوا مع السلطان، وجاء الرحامنة ببيعتهم وتوجهوا جميعا لمراكش، وهرب منها مولاي الحسين لزاوية مولاي إبراهيم بالجبل، فدخل السلطان لمراكش وبايع أهلها، وكان ذلك عام أحد عشر ومائتين وألف، وقدم على السلطان عامة قبائل الحوز والدير وقبائل حاحة وسوس بالهدايا وإظهار الطاعة والدخول مع الجماعة، ففرح بهم وأكرمهم وباشر قبائل الحوز حتى أصلح ما وقع بينهم في ظلمات تلك الفتن، وهدر الدماء، وألغى جميع ما سلف، وتألفت القلوب على الخير، وفرح المسلمون بظهور الرحمة والفرج ببركة هذا السلطان، ثم أنزل بقصبة مراكش سكان أهل الحوز الذين كانوا بها أيام والده، ورتب لهم وأمر بألف من عبيد السوس يأتون للسكنى بالقصبة، فلما استقر بالنوى، وألقى عصا التسيار وجه كاتبه السيد محمد بن عثمان لعبد الرحمان بناصر يأتي به أو يأذن بالحرب، فلما بلغه وجده مريضا وأدى طاعته وكتب بيعته وخلع سلطانه مولانا هشاما، وتعلل عن القدوم بالمرض، وتوجه مولانا هشام لزاوية الشرادي، وبعث له السلطان من أتى به في كنف الأمان والبر والتعظيم وتلقاه بالمبرة والتكريم، ووجه إليه المراكب والكسى الفاخرة الملوكية، وهو بزاوية الشرادي، ولما ورد عليه جدد له ذلك أيضا وأنزله بدار أخيه مولاي المأمون حتى استراح وزالت عنه وعثاء السفر، فجاءه السلطان بعد ثلاثة أيام إلى محله راجلا لقرب الدار، فلقيه وتعانقا وتراحما، فذهبا كذلك ودخلا للنيل من باب الرايس، وأجلسه السلطان على شليته وجلس أمامه، وكان يأتيه صباحا ومساء ويتحدثان فما يفطر ولا يتغدى ولا يتعشى إلا معه، وكان كلما دخل عليه قام له وأجلسه على الشلية وجلس هو بالأرض إكراما له، وكان يعظمه لأنه أكبر منه، وكان كلما ذكره لا يذكره إلا بقوله أخي مولاي هشام وغيره من إخوته اذا ذكره يقول : مولاي فلان، فأقام كذلك مدة ثم طلب مولانا هشام أن يتوجه لرباط الفتح ينزل بها، فوجهه السلطان باختياره، وقضى له كل ما طلب وزاد رحمهما الله وبارك في الخلف الصالح، هكذا ذكر بعضهم خبر ورود مولانا سليمان للحوز، وكان حاضرا معه وهو من أصحابه وبطانته الداخلة، وذكر بعضهم هذه القضية على رواية فيها بعض المخالفة لهذه، واقتصرنا علي

الأولى لأنه ليس من رأى كمن سمع، والله أعلم وأحكم.

وفي السنة المذكورة خلف السلطان أخاه مولاي الطيب بمراكش ورجع لفاس على طريق تادلا وأمر عاملها عبد الملك أن يغير على بني زمور وينهب أموالهم ويقبض من ظفر به من رجالهم ويلقاه بهم في الصخرة، فيركب هو في المحلة التي معه، فلما بلغ الصخرة وقدم عليه بنو زمور بخيلهم أمر بالقبض عليهم ووجههم لسجن مكناس، وأخذ خيلهم وعدتهم وكانوا مائتين، وأغار على حلتهم فنهبها عاملهم، وجمع أموالهم وقدم بها للسلطان.

وفي هذا العام وجه السلطان الملحة من العبيد والوداية مع عياد، ووجه معهم شراقة مع ابن خدة والأحلاف مع عبد الله بن الخضر لوجدة وأمرهم بمحاربة الأتراك إن منعوا دونها، وكتب للباي محمد يتخلى عنها وعن قبائلها التي كان يتصرف فيهم أيام الفترة أو يأذن بالحرب، فلم يمانع عن ذلك وأجاب بالسمع والطاعة، ونزلت المحلة بوجدة، وجبى العامل زكاتهم وأعشارهم وترك الخليفة بوجدة ورجعت المحلة لفاس.

وفي عام اثني عشر ومائتين وألف خرج السلطان من مكناس في العساكر بقصد عبد الرحمان بناصر وحزبه إلى أن يؤدي الطاعة مباشرة هو وقبيلته طائعا أركارها، فلما بلغ وادي أم الربيع قدم له عياد في محلة الوداية وقال له : إذا وصلته فأزعجه بالقدوم علينا، فإن قدم فأقم أنت بآسفي، وإن امتنع من القدوم فكاتبنا وأقم هنالك حتى نصل إليك، فلما بلغه عياد لم يسعه إلا التوجه لملاقاة السلطان في قبائله على مرضه، وركب في محفته واجتمع مع السلطان في مائة بير وبير بين بلاد عبدة وبين بلاد دكالة، فبايعه وأدى ما وجب من الطاعة مباشرة، فلما رآه السلطان تحقق صدقه وأنه ما تخلف إلا للمرض، فوفى له السلطان في عهده، وزاد في كرامته، وجازاه بالخير على إيوائه لأخيه مولانا هشام وقال له : والله ما فعلت إلا الخير حيث دفعت شر مولاي اليزيد عن المسلمين [لمبايعتك لأخي مولاي هشام](11) ولأجل ما تحقق من صدقه دخل معه لداره بآسفي بدون سلاح وأكل طعامه من غير اتقاء ما يتقى من أمثاله بعد ما نهاه جميع أهل الدولة الذين معه في المحلة عن الدخول معه على تلك الحالة، حتى

(11) زيادة من (م).

إنهم ما اعتدوا بحياته حتى خرج، ‹وهذا الفعل لا محالة أنه من الغرر الذي لا تحتمله قواعد السياسة، ولكن الله سلم، إنه عليم بذات الصدور، ثم عقد السلطان لعبد الرحمان على قبائله ولم يغير شيئا من حاله وأمره بقبض الواجب منهم وودعه›(12).

وفي هذا العام دخل الطاعون للمغرب وعم الحواضر والبوادي، ولما كثر بمراكش رجع السلطان لمكناس وبقي مولاي الطيب خليفة، فبلغه في أثناء الطريق موت الكاتب ابن عثمان، وبعد ذلك بلغه موت إخوته الأربعة بالوباء مولاي الطيب ومولانا هشام ومولانا الحسين ومولاي عبد الرحمان، الثلاثة الأول بمراكش والرابع بسوس، وانقطع الوباء في الغرب آخر السنة الثانية عشرة بفاس ومكناس ونواحيهما، وظهر في الدنيا سرور وفاضت الخيرات بمتخلف الأموات وذلك مصداق البركة في بقية الجوائح، وكذلك لا تكرهوا الفتن فإنها حصاد المنافقين، ولما مات العتاة والظلمة ومشاهيب البلاء وشياطين القبائل، تمهدت المملكة لمولانا سليمان فلم يبق له معارض ولا منازع.

وفي عام ثلاثة عشر ومائتين وألف، وجه السلطان كاتبه السيد محمد الرهوني(13) للسوس لجمع أموال المنقطعين فجمع ما قدر عليه ورجع.

وفي عام أربعة عشر ومائتين وألف وجه السلطان ذلك الكاتب عاملا لسوس بالمحلة فجبى أمواله ورجع وأحبه أهل سوس غاية لكونه خيرا دينا حسن السيرة لين الجانب.

وفي عام خمسة عشر ومائتين وألف وجه السلطان المحلة لآيت أمالو مع الكاتب الحكماوي(14) ووجه معه جماعة من قواد الجيش وأمراء القبائل فلم يرضوا بإمارته عليهم، وكلهم أعظم منه وفيهم من هو أعرف بالحرب والسياسة ومكايد الأعداء فأهملهم واستبد برأيه دونهم، فخذلوه عند اللقاء، وإنما خذلوا أنفسهم في الحقيقة وخانوا المسلمين وإمامهم، ولكن الجهل يقود صاحبه قود البهائم، والعياذ بالله، فانهزمت المحلة واستولى العدو على الأثقال والأخبية والكراع والمدافع، وآلة الحرب، وجردوا الكثير

(12) ساقط من (ف).

(13) الرهوني نسبة الى رهونة بضم الراء قبيلة بجبال غمارة بالمغرب الوزاني قرارا أخذ العلم بفاس. وكان حافظا متقنا. صاحب الكتاب الفقهي في مذهب الامام مالك ت 1230 هـ 1814م. "الفكر السامي" ج 4 ص 129.

(14) الحكماوي-لم نعثر على ترجمته.

من المحلة، وقبضوا الحكماوي وأجاره بعض البرابر وأبقوا عليه الى أن وجهوه للسلطان.

وفي عام ستة عشر ومائتين وألف وجه السلطان المحلة لدرعة مع السيد أحمد بن علي التنغراسي فدخلها واستولى على قصورها المغصوبة، وأخرج منها الغاصبين من العرب والبربر، وجبى مالها ومهد نواحيها وصار ما بين سوس ودرعة والفائجة مجالا للتجار يسيرون فيها آمنين ليلا ونهارا.

وفي عام سبعة عشر ومائتين وألف وجه السلطان المحلة للريف مع أخيه مولاي قدور والعامل ابن خدة الشرقي وقائد العسكر أحمد بن العربي البخاري، فجمع جباية ثلاثة أعوام سلفت، ولما رجعت المحلة أغاروا على المطالسة وبني بويحيى وأتوا بمواشيهم وسبيهم إلى أن سرحهم السلطان.

وفي عام ثمانية عشر ومائتين وألف أغار آيت ادراسن علي قوافل تفلالت بطريق ملوية ونهبوا بسبب سجن السلطان لمحمد وعزيز بالجزيرة وقيد عليهم أخاه بوعزة فلم يقبلوه، وجمعوا كلمتهم مع ابن عمه بوعزة بن ناصر وهو منحرف عن السلطان فارا منه، فولوه عليهم فسرح السلطان محمد وعزيز وولاه على إخوانه وأمره بالقبض على بوعزة بن ناصر فأعرض عنه ولم يقبضه فغضب السلطان عنه ثانيا، ففر محمد وعزيز وعصى، فتوجه له السلطان في العساكر، ووجه لقبائل آيت أمالوا يأتونهم من خلفهم، ولما نزل السلطان بقرب اعليل ووقع الحرب انهزموا ونهبت مواشيهم واحتوى البربر على- حللهم، وفر أولاد وعزيز الثلاثة برؤسهم لآيت أمالو، واشتغلت العساكر بإخراج زروعهم الى أن استؤصلوا، وأمر السلطان بهدم قصورهم {واحتوى البربر على حللهم}[15] وأعطى بلادهم لجروان ورجع لفاس، ولم يقم بها، وتوجه لتازا وترك قائد فاس أحمد اليموري لقبض خراج الحياينة، ووجه السلطان من تازا المحلة لوجدة مع الشيخ عبد الله بن الخضر لقبض واجب قبائلها، ووجه محلة أخرى مع عامل تافلالت محمد الصريدي، فنزل ملوية وقبض واجب قبائلها وطلع للصحراء مع أوديتها يجبي أموال تلك النواحي، فلما وصل تافلالت فرق المحلة على أقاليم الصحراء : درعة والفائجة وتدغة وفركلة وغريس وزيز والخنق ومدغرة

(15) اضافة من (م).

والرتب، فجبى أموال جميع تلك القبائل وقرر عماله وخلائفه ورجعت العساكر.

وفي عام تسعة عشر ومائتين وألف عزل السلطان أحمد اليموري عن ولاية فاس وقيد صهره الشريف سيدي الحبيب بن عبد الهادي فقام فيها أحسن قيام، وكان عاقلا داهية ذا مروءة وحسن سَمْت، وفيه توجه السلطان في العساكر لمراكش، فلما بلغها وجه المحلة للسوس، ووجه محلة أخرى لعامل حاحة مع أحمد اليموري، وتوجه هو لمشاهدة السويرة ليقف على آثار والده بها فوصلها وفرق المال على عسكرها أحرارا وعبيدا، ورتب أمور مرساها، وأمر بإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح ورجع للغرب.

وفي عام عشرين ومائتين وألف، وقعت الفتنة بين الترك والأعراب أهل الواسطة بسبب قتل الباي لبعض فقراء درقاوة، وأمر بقبض مقدمهم السيد عبد القادر بن الشريف، خليفة شيخه مولاي العربي الدرقاوي، ففر المقدم المذكور ولم يتمكن منه الباي، فاجتمع عليه طوائف درقاوة بمحلة الأحرار وأنفوا من قتل المقتول منهم، ومن خروج المقدم المذكور من محله، واستغاثوا بعشائرهم فانتصروا لهم وقاموا لحرب الأتراك فقتلوا كل من وجدوا منهم في قبائلهم، وفي فصل الربيع خرجت محلة الترك من الجزائر الى الباي بوهران، فقصدوهم ووقع الحرب فانهزم الترك، ونهب الأعراب محلتهم، ففروا لوهران، فحصروهم فيها، فكتب الباي للسلطان مولانا سليمان يعرفه بخبر درقاوة وطلب منه أن يوجه شيخهم مولاي العربي لإطفاء هذه النار، فوجهه السلطان وأمره أن يكف من سعى في ذلك

ويردهم، ووجه معه الأمين الأجل الحاج الطاهر بادو المكناسي(16).

ثم إن الأعراب وأهل تلمسان ما عدا الكراغلة دبروا أمرا آخر فاتفقوا على أن يبايعوا السلطان العادل مولانا سليمان ليتخلصوا من ولاية الأتراك بالكلية فلا يكون للباي سبيل عليهم، فكتبوا البيعة لمولانا سليمان ووجهوها مع أعيانهم وهديتهم، وظنوا أن السلطان يعجبه ذلك ويفرح به، فلما وردوا لحضرته العزيزة رد عليهم بيعتهم وهديتهم وقد كان بلغه أن الباي ظن أن ما وقع به كان بوفق مولانا العادل لأن الأعراب كانوا يشيعون أنهم إنهما فعلوا ذلك بالاتفاق مع سلطان المغرب، فلما رد عليهم مولانا سليمان بيعتهم وطردهم وقبح فعلهم وخروجهم عن طاعة أميرهم، قال لهم : ارجعوا الى بلادكم، ولا حاجة لي بولايتكم وتوبوا الى الله من فعلكم، وعلى قدر بلوغكم لأبوابي أكاتب الباي أن يصفح عنكم ويسامحكم ويتجاوز عن خطيئتكم، وهذا ما تسمعون مني، وقال للأعراب مثل ذلك وتلافى ذلك بتوجيه القائد عياد لتلمسان يحول بين الحضر والكرغلية والترك، ويمنعهم من الحرب الى أن يقدم الباي لتلمسان، وأوصاه أن يحتال على ابن الشريف حتى يدخل في يده ويقبض عليه، وكتب السلطان للباي بما أزال شكه ونفى توهمه، ووجه له هدية، فتوجه القائد

---

(16) هاهنا كلام مقداره 27 سطرا شطب عليه المؤلف وهو مثبت في (ف) ص 191 ج 1. وفي نسخة كلية الآداب الرباطية ومن أجل ذلك يجدر بنا أن نثبت نصها :

قال عليه عفا الله عنه ولطف به : هذه القضية لولا ما اشتملت عليه من الأوصاف الجميلة المتعلقة براية السلطان ما ذكرتها وها أنا أذكرها بلسان الزياني ناقلها مخبرا بما اشتملت عليه من ثلم أعراض المومنين والصالحين قال الناقل المذكور : ولما بلغوا لمحة ابن الشريف وهو محاصر على وهران واجتمع مولاي العربي بطائفته استأسد المرابط وظهر منه العجب وصار يقول للعرب ان الترك أدبرت أيامهم وان الله ملككم أرضهم وديارهم وأموالهم ولا تقوم لهم قائمة ويتصلح على الأعراب. فلما سمعوا منه ذلك لم يشكوا ان الظفر لهم فازدادت عزائمهم وهممهم على حرب الترك وتظافروا عليهم فلما بلغ الخبر الى أهل وهران أخبروا الباي بذلك فاتهم السلطان لأنه كان ينتظر الفرج على يده ويترجاه ويتشوق الى رفع هذا الحرق فاخفق سعيه في الدرقاوي وفي السلطان. فركب مدافعه لناحيتهم ورماهم بالكور والبور في الصويلي فابعدوا عنه وانهزموا وظهر للعرب خلاف ما ظنوا وظهر للقوم كذب الدرقاوي وبطلان زعمه فتلافى أمره ورجع عن وهران الى تلمسان فنزلوا عليها وضيقوا بأهلها وخدعهم الدرقاوي بأن قال لهم ما فعلنا هذا إلا بأمر السلطان مولاي سليمان فدخلوا في حزبه واختلفوا مع الترك والكرغلية وأدخلوا عبد القادر بن الشريف ودرقاوة وخطبوا بالسلطان مولاي سليمان وكتبوا ببيعتهم له وكتب عبد القادر بن الشريف ببيعته ووجه وفده وهديته للسلطان مع الدرقاوي وتقدم ابن الشريف وأهل تلمسان الحضرة لحرب الكرغلية والترك فحصروهم بالمشور ونواحيه فلم يبق لهم شك ولا ريب بأن ذلك بأمر سلطان المغرب. فكتبوا بذلك للباي والدولاتي واشتعل الحرب بينهم في وسط المدينة فلما قدم الدرقاوي بوفد تلمسان وهديتهم وبيعتهم ووفود الأعراب وهدية ابن الشريف وبيعته ظنا منه ان السلطان يقبل ذلك ويفرح به ويتيهه عليه. ولما اجتمع بالسلطان لبس عليه الأمر وزين له الترك وقال له : ان العالم مقبل عليك وكل الناس متشوقون لدولتك وابن الشريف إنما هو خديمك وخليفتك وهذه بيعته وهديته ــ ولما خرج من عند السلطان بعث للأمين الذي وجهه معه وسأله عن حقيقة الحال فأخبره بأقواله وأفعاله وما نسب إليه وان الترك ما بقي عندهم شك في أن ذلك كله بأمرائك ومنسوب إليك أفرد السلطان على أهل تلمسان هديتهم وبيعتهم وطردهم عن بابه وقال لهم : ارجعوا الى بلادكم ولا حاجة لي بولايتكم وتوبوا الى الله من فعلكم.

عياد، فلما سمع ابن الشريف بقدومه فر عنها ولم يجتمع بعياد ولا قرب منه، وأقام عياد حائلا بين الحضر والكرغلية وأصلح بينهم الى أن قدم الباي لتلمسان ومكنه من بلاده ورعيته ورجع.

وفي عام واحد وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان عامله لبلاد فجيج ونواحيها لجباية ماله واسترجع قصر المخزن الذي غصبوه وأخرجوا منه عبيد المخزن الذين كانوا به من أيام مولانا إسماعيل رحمه الله، وفيه وجه السلطان المحلة للشرق مع قائد فاس باعقيل السوسي ومعه جماعة من قواد القبائل، وكانوا أمثاله، جمعهم الشبه في قلة العقل، وشبه الشيء منجذب إليه(17) فنزلوا وجدة، ولما جبى مال قبائلها توجه بالمحلة لأعراب الأعشاش، وكانت لهم صولة ومنعة في تلك الصحاري، فأغاروا على المحلة ونهبوها ورجعوا منهزمين، وتركوا أثقالهم وأمتعتهم بدون قتال ولم يجتمعوا الى ملوية، ومنها توجه الأحلاف لبلادهم ورجع باعقيل بالمحلة، ولما بلغ الخبر للسلطان وجه من قبض عليه ونكبه وعزله عن فاس، وولى وصيفه ابن عبد الصادق ثم عزله عن فاس وقيد عليها محمد وعزيز.

وفي عام اثنين وعشرين ومائتين وألف، توجه السلطان لتادلا بالعساكر بقصد بني موسى وآيت عتاب ورفالة وبني عياط، الذين آووا بني موسى، فوجه إليهم العساكر فنهبوا حلل بني موسى ومن آواهم من رفالة وبني عياط وحرقوا مداشرهم وقطعوا أشجارهم إلى أن أذعنوا للطاعة، وقبضوا زكاتهم وأعشارهم ورجعوا عنهم.

وفي عام ثلاثة وعشرين ومائتين وألف، وجه السلطان العساكر مع جماعة من القواد كبيرهم وصيفه القائد أحمد مولى أتاي والخاتم والطابع، ونزلوا على حدود بلاد آيت أمالوا من كل ناحية في فصل الشتاء، ومنعوهم من النزول الى البسائط لجلب الميرة والمرعى إلى أن ضاعت مواشيهم وأنعموا بدفع الواجب عليهم من الزكوات، فدفعوا المواشي من الغنم والبقر والكراع، فخلى سبيلهم، وفي العام خرج السلطان من مكناس

---

(17) قوله : "وشبه الشيء منجذب إليه" هو صدر بيت للمتنبي، عجزه :
وأشبهنا بدنيانا الطغام

لتفقد الثغور البحرية، فعزل عاملها الحاج عبد الرحمان عشعاش وقبضه وولى عليها عامله محمدا السلاوي، وولاه قبائل الغرب والجبال كلها.

وفي عام أربعة وعشرين ومائتين وألف حرك السلطان لتادلا بقصد ورديغة بالعساكر وقبائل البربر، فأغار عليهم ووقع بينهم حرب كبير، مات من الفريقين عدد كثير ونهبت المحلة أموالهم وألجأوهم للطاعة فجاؤوا تائبين فعفا عنهم، ووجه السلطان العساكر لآيت يسري بعد أن قبضوا منهم عددا وشنوا عليهم الغارة إلى أن أنعموا بدفع المال، ولما دفعوه سرح لهم إخوانهم المقبوضين ورجع.

وفي عام خمسة وعشرين ومائتين وألف، حرك السلطان لقبائل الريف، فنزل عين زورة وسرح العساكر للريف فحاربوا قبائله وهزموهم وقتلوا مقاتلهم وسبوا أولادهم وحرقوا مداشرهم وألجأوا للطاعة وقدموا للسلطان تائبين فعفا عنهم على أن يدفعوا ما ترتب عليهم، وعين السلطان من يقبض منهم المال فدفعوه ورجع.

وفي عام ستة وعشرين ومائتين وألف قامت الفتنة بين قبائل البربر وهم آيت ادراسن وجروان مع آيت أمالو ولما وقع الحرب غدر جروان إخوانهم آيت ادراسن وجروان مع قبائل آيت أمالو فهزموا آيت ادراسن ونهبوا حلتهم ومواشيهم ولم يفلت منهم إلا أصحاب الخيل هربوا عليها وقدموا على السلطان باكين شاكين، فغضب السلطان لذلك، وقام وقعد ووعدهم بالانتصار من أعدائهم، وجهز العساكر لنصرهم لأنهم شيعته وشيعة والده من قبله، وتوجهوا لحرب جروان فانتصر آيت مالو لجروان وهزموهم مرة أخرى ورجعوا منهزمين. ثم اتفق البربر كلهم على حرب آيت ادراسن لأجل منافسة السلطان لهم ولبغضهم لقائدهم محمد وعزيز الذي يوليه السلطان عليهم لسوء سيرته، وهو السبب في هذه الفتنة من أصلها، فلما اتفقوا على ذلك بعثوا لدجالهم أمهاوش المعد عندهم لأمثالها من الفتن العظام، فعاثوا في الطرقات وفي رعايا السلطان فاتسع الخرق وخرجت لهم العساكر ونزلوا صفرو لنظر مشئوم العمال محمد الصريدي المبغوض عند البربر، كبغض محمد وعزيز وأكثر، واشتكوا منه مرارا

للسلطان، فلم يعزله عنهم فأعلنوا بالعصيان وصرحوا بالخلاف والخروج عليه، فتقدموا للعساكر بصفرو وهي نازلة مع سور البلد، وأحاطوا بها من كل ناحية فهزموها ونهبوها، وفر من أفلت منهم وتحصن الباقون بصفرو ونهبت القرى المجاورة له، وعاثوا في طرقات الصحراء، ونهبوا من وجدوا بها مقبلا أو مديرا والسلطان مقيم بمكناس يعالج داءهم فما نفع فيهم ترياق، وشمخت أنوف البربر بذلك، وكلما وجه لهم عسكرا هزموه وكل ذلك إنما نشأ من جور الصريدي، ورحم الله المامون القائل : والله ما من فتنة ظهرت في ملك مالك، ولا فساد تشبت بدولة إلا ومنشؤها جور عمالها، ولما أعيا السلطان أمرهم تركهم فوضى وكلف أعجز القواد وأوهنهم عبادا بتدبير أمرهم وتوجه لمراكش فزاد في فسادهم وقواهم بإعانته لهم بالعطاء والمئونة الجارية على كل من يقدم منهم المدينة من الطعام والعلف ينهبون أموال الناس وبهائمهم بباب فاس <ويدخلون ويقبضون الزطاطة والخفارة وأخذ الميرة وكل من تكلم معهم يعاقب>(18) ويقول إن السلطان أمرني بذلك لحمقه ولم يدر أنه ما أسند السلطان إليه أمرهم إلا ليحتال عليهم حتى تظهر له فرصة فينتهزها منهم بقبض جملة وافرة إذا دخلوا للمدينة للكيل فلم يكن له عقل لفهم مراد السلطان ولا همة عالية تسمو به لنحو هذا، وذلك كله من كثرة جبنه، فخاف إذا قبض آيت يوسى تقوم عليه القيامة، فكيف يصلح هذا الجبان للرياسة أو ترجى منه كفاية المهمات، وفي قبيلته من هو أكفى وأحزم وأضبط من الأبطال.

<هذا كله كلام الزياني وهو كلام ظاهر الفساد لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وما فعله عباد من مداراة العدو الذي لم يستطع دفعه هو الصواب، والناس يقولون اليد التي لا تقدر على عضها قبلها>(19)، ولما بلغ السلطان لمراكش جمع قبائل الحوز وقدم بهم لمكناس وأمر بخروج العساكر من العبيد والوداية وبني حسن وأهل الغرب وشراكة وأهل الفحص والمراسي والحياينة وأولاد جامع ومكناسة والأحلاف وقبائل البربر كلها ما

---

(18) ما بين العلامتين ساقط من (ل).

(19) ساقط من (ل).

عدا آيت أمالو وجروان ومن انضاف إليهم، فلما اجتمعت هذه الجموع كلها توجه لجروان وهم بتاسماكت فلما بلغ أزرو بقي بينه وبينهم مرحلة، وهو يرى محلهم ويرون محله، ظهر له أن يرجع لقصد آيت يوسى بأعليل، فرجع فكان ذلك الرجوع سبب الخذلان، ولما رآه جروان رجع عنهم تبين لهم أنه هابهم وخاف منهم فتبعوه من خلفه وصاروا يطلبون المتأخر من العساكر وينهبون ويقتلون ويجردون، فوقع القتال في آخر المحلة، ولا علم لأولها بشيء من ذلك، وأين أولها ؟ بينهما أزيد من مرحلة، فنزل السلطان بأعليل بين آيت يوسى وبنو مجيلد أمامه، وجروان وآيت أمالو من خلفه، فوردت عليه المنهزمة والمجردون والمجاريح من خلف المحلة، وأخبروا أن قائد العسكر محمد بن الشاهد قتل، فباتت المحلة في كرب عظيم، وخوف قاتل، وتجلدوا حتى أصبح الحال، وركبوا وقصدوا آيت يوسى ومن معهم، ووقع الحرب فانهزمت المحلة ووقعوا في شعب لا منفذ له، فترجلوا وتركوا الخيل ولجوا بأنفسهم وحمتهم آيت يمور وآيت ادراسن، وكانت حلتهم قريبة للعساكر فأتوا بهم للسلطان وخلصوهم من الاستئصال لو تبعهم الأعداء ما أفلت منهم أحد، فلما حصلت هذه المزية لهؤلاء البرابر الذين هم شيعة المخزن، جعل العبيد من وجدوه، من هؤلاء الشيعة يقتلونه ويقولون : البرابر كلهم سواء، فلما وقع ذلك بالشيعة رفعوا الشكوى الى السلطان، فأمر كاتبه وعامله محمد السلاوي أن ينظر في الأمر، فلما اطلع على حقيقة الحال ورأى أن فساد نية البربر بسبب ما وقع بهم من القتل في وسط المحلة، ورأى أن القصاص في ذلك المحل لا يمكن وعلم أن عاقبة الأمر غير محمودة مع البقاء هناك، فأشار على السلطان بالرجوع بسلامة الباقي قبل اتساع الخرق، فرجع وقنع (من الغنيمة بعد الكد بالقفل)[20] وتربص بالعدو يوما آخر يكون فيه سعدهم قد أفل، وجدهم قد انقلب الى أسفل، والله واسع عليم.

وسبب خيبة المسعى في هذه الحركة إنما هو كثرة الجنود المختلطة،

---

(20) اقتباس البيت التاسع من لامية العجم، للطغرائي، ونصه :

والدهر يعكس آمالي ويقنعني   من الغنيمة بعد الكد بالقفل

الغير المنضبطة، فإن السلطان قد حشد فيها المغرب بحذافيره كما تقدم وهجم بهم بلاد لا يعرفونها، وأقواما أولي بأس شديد في ديارهم وبين أولادهم ومحارمهم التي لا يمكن الفرار عنها دون الموت، وكل ذلك غفلة عن قواعد السياسة، فإنه ثبت في أصول الحكمة المجربة في تدبير الدول كما عند القاضي ابن خلدون وغيره، أن الإكثار من العساكر وهن لا تؤمن غوائله، ولا ينضبط أمره، موجب في الغالب لأقبح الهزائم، وكل من حارب بجميع عساكره فهو مخذول، وكل من تأمر من أمراء الأجناد على أكثر من ألف فقد تعرض للتلف، والأمير الحازم الذي يرجى الانتصار به هو الذي يضبط الألف كأنه آخذ بلجامه، يقف بوقوفه، ويسير بسيره، فإذا كان للملك عشرة أمراء كل أمير تحته ألف من العسكر منضبط فذلك بمنزلة مائة ألف مهملة غير منضبطة، ولا تحمل حومة الوغى أكثر من عشرة آلاف ليكون نظر المالك واقعا على جميعها، فإذا زادت العساكر على ذلك وقع الخلل وتسرع لها الهزائم، وقد شوهد ذلك في الجاهلية والإسلام.

قال الزياني : وفي عام سبعة وعشرين ومائتين وألف ورد كتاب من تونس لفاس وجهه المبتدع الوهبي القائم بجزيرة العرب بمذهب الطائفة الوهبية، من طوائف أهل البدع لما ملك الحجاز وتغلب على الحرمين الشريفين منع الناس من الحج والزيارة فكتب للافاق للعراق والشام ومصر وافريقية يدعوهم إلى اتباع مذهبه الخسيس، ولما بلغ كتابه لتونس وجه مفتيها نسخة منه لعلماء فاس لينظر ما عندهم في الجواب، فتصدى للجواب عنه الفقيه الأديب السيد حمدون بن الحاج[21] ولم يعلم به غيره، فكتب جوابه ومدحه بقصيدة ميمية مطلعها :

حق الهناء لكم جيران ذي سلم ... وبارق واللوى والبان والعلم

واستمر فيها غفر الله له إلى أن تخلص لمدحه فقال :

سعود بعد سلام الله شاعك من ... غرب يسير لشرق ضائع النسم

هذا كتاب إليك من محب أتى ... إذ ما تأتى له الإتيان بالقدم

مخاطب لك باللسان من قلم ... إذا ما تسنى له تخاطب بفم

(21) السلمي أصلا وحسبا المرداسي نسبا الفاسي دارا ومنشأ الشيخ الامام العالم العلامة الهمام المفسر المحدث الصوفي له تآليف عديدة. (الشرب المحتضر) لجعفر الكتاني ص 9. (امداد ذوي الاستعداد لمعالم الرواية والاسناد) للشيخ عبد القادر الكوهن ص17 خ خاص. (الاعلام) ج 3 ص 117. (الفكر السامي) ج 4 ص 129. ت 1232هـ 1816م.

وانه من سليمان وانه باســـ ... م الله لازلت باسم الله أي سمي
اعلم وقيت الردى لازلت بدر هدى ... لبوس أي ردا من السنا العمم
إن قمت فينا بأمر لم يقم أحد ... به فجوزيت ما يجزاه ذو نعم
يقطع أهل الحراب بالحجاز بأن ... يقتلوا أو يصلبوا بلا وهم
أو أن تقطع أيديهم وأرجلهم ... من الخلاف أو أن ينفوا من أرضهم
حتى جرى الماء في عود الحجاز لان ... طلعت سعد سعود غير ملتثم
لا شيء يمنع من حج ومعتمر ... وزورة تكمل المأمول من حرم
إذ عاد درب الحجاز اليوم سالكه ... أهنا وآمن من (...)[22] الحرم
قد لاح فيه سعود ماحيا بدعا ... قد أحدثتها ملوك العرب والعجم

واستمر عفا الله عنه على هذا الأسلوب، وتحمل ما أثقل كاهله من الذنوب، والله لو علم أمير المؤمنين ما اقترفه وجلبه، لكان في الحين عجل به وصلبه، وإن خفف عقوبته سبه وضربه، وإلى السجن جره وعذبه، فكيف يمدح المبتدع الضال ويشكر، بل يسب ويلعن ويهجر، انتهى.

قال مليه عفا الله عنه ولطف به :

ثم تمادى هذا المجهول الزياني على الفحش والتنقيص لعالم الدنيا وإمام الملة المحدث المفسر، بحر العلوم المنقولة والمعقولة، القائم الصائم الذي نفع الله بعلومه وتآليفه جميع المسلمين، مع أن الشيخ أبا الفيض سيدي حمدون إنما أجاب بأمر السلطان وعلى لسانه، وذهب بجوابه ولده وخليفته مولاي إبراهيم مع جماعة من العلماء حتى قرأوا جوابه على سعود، وكان لهم ذلك الجواب البديع سببا كريما ولكل من تعلق بهم من الحجاج شرقا وغربا حتى قضوا مناسكهم وزيارتهم على الأمن والأمان، وغاية البر والإحسان.

حدثنا جماعة وافرة ممن حج مع المولى إبراهيم في تلك الحجة مثل الفقيه العلامة القاضي السيد محمد بن إبراهيم الزداغي المراكشي،[23]

---

(22) بياض بالأصل وفي (م) بموضع البياض : «لحامة الحرم» وفي (ف) : حمامة الحرم

(23) الزداغي : قاضي مراكش الفقيه العلامة، كان من جملة الوفد الذي عينه المولى سليمان الى الحجاز لأداء فريضة الحج، ولاستطلاع الأمر حول الحركة الوهابية ودعوتها، ولتجيب الزعيم الوهابي على رسالته، ومترجمنا هو الذي تولى المناظرة معه، وأمير الوفد هو المولى ابراهيم بن السلطان مولانا سليمان، هذا ولم نعثر على وفاة عالمنا، (الضعيف) ص 285 تعليق 1861- (الاعلام) ج 6 ص 170.

والفقيه العلامة القاضي السيد العباس بن كيران الفاسي،(24) والفقيه الشريف البركة سيدي الأمين بن جعفر الحسني الرتبي(25)، والفقيه الموقت الصادق الأمين السيد عبد الخالق الوديي(26)، حدث كل واحد منهم أنهم مارأوا من ذلك السلطان سعود ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المناكر المحرمة وتنقية الحرمين الشريفين من القذرات والآثام التي كانت تفعل بها جهارا بلا إنكار، وذكروا أن حاله كحال احد من الناس لا تميزه من غيره بزي ولا لباس ولا مركوب، وانه لما اجتمع بالشريف الخليفة مولانا إبراهيم أظهر له التعظيم الواجب لأهل البيت الشريف، وجلس معه كجلوس هؤلاء المذكورين وغيرهم من خاصة مولانا إبراهيم، وكان الذي تولى الكلام معه هو القاضي ابن ابراهيم الزداغي، وكان من جملة ما قال لهم إن الناس يزعمون أننا مخالفون للسنة المحمدية، فأي شيء رأيتمونا خالفنا فيه السنة، وأي شيء سمعتموه عنا قبل رؤيتكم لنا، فقال له القاضي المذكور : بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم لجسمية المستوي، فقال لهم : معاذ الله إنما نقول كما قال مالك الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة انتهى، فهل في هذا مخالفة؟ فقالوا له لا، وبمثل هذا نقول نحن أيضا، ثم قال له القاضي : وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي وإخوانه من الأنبياء عليهم السلام في قبورهم، فلما سمع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ارتعد ورفع صوته بالصلاة والتسليم عليه، وقال : معاذ الله تعالى [بل](27) نقول إنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره، وكذلك غيره من الأنبياء حياة فوق حياة الشهداء، ثم قال له القاضي : وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته صلى الله عليه وسلم وزيارة الأموات قاطبة مع ثبوتها في الصحاح التي لا يمكن إنكارها، فقال له : معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا، وهل منعناكم أنتم منها لما عرفنا أنكم تعرفون كيفيتها وآدابها، وإنما نمنع منها العامة الذين يشركون العبودية بالألوهية ويطلبون من الأموات أن تقضي لهم

((24) الفاسي الأصل المكناسي الوفاة عالم زمانه وفريد عصره وأوانه ت 1271هـ 1854م. (الاتحاف) ج 5 ص 408.

(25) الزيزي نسبة الى زيز اصله الحسني العلوي من العلويين اليوسفيين. قدم من زيز الى فاس واستوطنها ت 1259هـ 1843م ودفن خارج باب الفتوح (الشرب المحتضر) لجعفر الكتاني ص 18. (السلوة) ج 2 ص 356

(26) الردي - لم نقف على ترجمته.

(27) اضافة من (ب).

أغراضهم التي لا يقضيها إلا الربوبية، وإنما سبيل الزيارة الاعتبار بحال الموتى وتذكار مصير الزائر الى مثل ما صار إليه المزور، ثم يدعو له بالمغفرة ويستشفع به الى الله تعالى، ويسأل الله تعالى المنفرد بالاعطاء والمنع بجاه ذلك الميت إن كان ممن يليق أن يستشفع به، هذا قول إمامنا أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ولما كان العوام في غاية البعد عن إدراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة، فأي مخالفة للسنة في هذا القدر انتهى.

هذا ما حدث به أولئك المذكورون سمعنا ذلك من بعضهم جماعة، ثم سألنا الباقي أفرادا فاتفق خبرهم على ذلك، وهذا المذكور كله ليس فيه ما ينكر، وغاية ما يقال في الوهبي المذكور إنه من غلاة الحنابلة أتباع الإمام أحمد رضي الله عنه مثل ابن تيمية وابن حزم، فإن الحنابلة رضي الله عنهم لهم مسائل ينكرها غيرهم من أرباب المذاهب، ولا يضرهم ذلك وهكذا كل أهل مذهب لا يقولون إلا بقول إمامهم، وينكرون غيره، فهذا أكبر أتباع الإمام أحمد رضي الله عنه وهو الشيخ الكامل المكمل مولانا عبد القادر الجيلالي[28] رضي الله عنه وأرضاه، فقد ذكر في كتابه الغنية الطائفة الطاهرة الأشعرية التي وقع الاجماع المعتبر على معتقد السنة هو معتقدهم.لما ذكر الشيخ رضي الله عنه في الكتاب المذكور الفرق الضالة وعدهم عدا ذكر الأشعرية من جملتهم، وقال في حقهم : إنه لاتؤكل ذبيحتهم ولا تسنم قبورهم إذا ماتوا ولا يناكحون، وأطال في ذلك، فإذا كان هذا واقعا من هذا الشيخ العظيم ولا ينقص ذلك من قدره شعرة واحدة، فإذا مدح شخص مولانا عبد القادر كما هو الواجب فهل يلام المادح له، ويقال له إنك مدحت من خالف الأشعرية باعتقاده باجتهاد إمامه الأعظم، فإذن لا ملامة على الشيخ العلامة الحجة أبي الفيض سيدي حمدون في مدحه لسعود بأمر أمير المؤمنين، إذ علم أنه ليس في علماء الوقت من يحسن الجواب عن ذلك الكتاب غيره، على أنه ما مدحه على اعتقاده المخالف، إنما مدحه بأفعاله الحسنة الظاهرة من تأمين الحجاز وتنظيفه وغير ذلك مما لا ينكر حسنه.

والذي أوقع الزياني في أمثال هذا في كثير من المواضع في كتابه

---

(28) الشيخ الجيلاني : ينتهي نسبه الى الحسن بن سيدنا علي كرم الله وجهه شيخ العراق الحنبلي، صاحب حال ومقال، وعالم، قطب الرجود، شهرته أشهر من ان تذكرت 561هـ 1166م. (الأعلام) الطبعة الثانية للزركلي ج 4 ص 171 وفي تعليقه مصادر ترجمته.

هذا وفي غيره من تقاييده التي نجس بها هذه الدولة الطاهرة إنما أداه الى ذلك الجهل المركب، فإنه أحد الاصول(29) التي هي أصول الكفر كما ذكره الإمام السنوسي رضي الله عنه في المقدمات وشرحها، والله يعصمنا من ذلك، والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاه به(30).

وفي عام ستة وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان ولده الخليفة مولاي ابراهيم لأداء فريضة الحج مع الركب النبوي الطالع من حضرة فاس على العادة المعلومة في طلوع الأركاب المغربية مع أعيان فاس وغيرها وتجارها وعلمائها على الهيأة المعهودة من الاحتفال وبروز الأبنية لظاهر البلد وقرع الطبول وإظهار الزينة والفرح والازدهاء مما يطول بنا وصفه.

وفي عام سبعة وعشرين ومائتين وألف وجه السلطان العساكر لقبائل الريف وقلعية إذ بلغه أنهم يبيعون الأقوات للكفار، وأمر على العساكر كاتبه عامل المراسي والثغور السيد محمد السلاوي البخاري، فتوجه بها وقصد قلعية التي هي عش الفساد، فنهبوا أموالهم وحرقوا مداشرهم ونسفوا مواطنهم نسفا، وقبضوا زكوات تلك القبائل كلها وأعشارهم ورجعوا، وفي رمضان من العام قدم ولد السلطان مولاي إبراهيم من الحج ونزل بطنجة في قرصان الأنجليز ‹وكان وجهه له أبوه مع مراكبه القرصانية

---

(29) كذا بالأصل، ومثله في (ف) أما (م) ففيها : الامور.

(30) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (ف) فأضفناه نقلا عن الملكية، ووقفنا على طرة بخط المؤلف بها كلام يتعلق بهذه المسألة الجهلاتية، وهذا نصه :

كتب بعضهم على قول المؤلف لما ذكر الفرق الضالة، ذكر الاشعرية منهم، ما نصه : انه لم يوجد في «الفنية» في نسخها الموجودة هنا تلك الألفاظ بعد مراجعتها. فإنه يعني الشيخ عبد القادر لم يعدهم أي الاشعرية في الفرق الضالة الخ فيقال له أي لهذا الكاتب : ما يكون لك أن تتكلم بهذا البهتان العظيم الذي هو انكار ما هو منتشر في آفاق الأرضين، فهذه الكرة والميادين وهذا الكتاب شائع عند أهل الملة مروي غير مجهول ولامفقود، وان كان يحتمل أن تكون رأيت أيها الكاتب نسخة متروكا منها ذلك ظنا ممن تركه ان ذلك ينفيه ويرفعه بعد وقوعه من الشيخ رضي الله عنه، والشيخ لا ينفي لأن ذلك مذهب إمامه ابن حنبل رضي الله عنه كما يعلم ذلك من مقاولة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لابن تيمية وأتباعه، فلا ينكر على الشيخ مولانا عبد القادر رضي الله عنه، ما هو مقلد فيه لامامه الأعظم، ولا ينكر على ذلك الامام ويرد عليه بمذهب غيره، وهذا كله معلوم لمن له أدنى مسيس بقواعد أصول الدين. وحسب هذا الكاتب أن يبحث عما لا يدري، ويسأل أهل الذكر، فوالذي أخرج العذق من الجريدة، والنار من الوثيمة : لقد سردت «الفنية» في زمن الاعتناء، وذلك عام 1239 وكانت النسخة قديمة بخط أندلسي مصححة، وفي طرتها في هذا المحل ما معناه : هذه المسألة قد ألف الناس عليها كثيرا، وأحسن ما رأيت من الرسائل المختصرة الرسالة المسماة بـ «أحسن المعاذر في الجواب عن الشيخ مولانا عبد القادر» وحاصل ما ذكر في هذه الرسالة : انه يجاب عن الشيخ بأحد جوابين. أولهما : انه يحتمل أن يكون قد ألف هذا الكتاب قبل الفتح عليه، وقبل زمن اشتغاله بالرسوم، لأن الأولياء قد اتفقوا على أن اعتقاد الاشعري، وكذلك اعتقاد أبي منصور الماتريدي هو اعتقاد أهل السنة والفرقة الناجية وثانيهما : انه يحتمل أن يكون هذا مما دس على الشيخ كما وقع كثيرا للعارفين في تآليفهم كالشيخ ابن العربي والشيخ الشعراني وغيرهما اهـ هذا ما علق ببالي وقد بحثت كثيرا على هذه المسألة فلم أجد إلا بعض شئ ذكره الشيخ محيي الدين في «الفتوحات» ومن أتقن ما أشرنا اليه أولا علم بالضرورة أنه لا محذور في ذلك، للقاعدة التي هي ان المجتهد لا يحتج عليه بقول مجتهد آخر، نعم لو أراد المجتهد محاجة مجتهد مثله، فله ذلك، والله سبحانه أعلم وأحكم اهـ. من خطه رحمه الله.

للإسكندرية فوجده بمرسى مالطة فركب في قرصان الأنجليز>(31)، فلما خرج توجه لحضرة السلطان وكان إذ ذاك بمكناس، وبعد ثلاثة أيام توجه لداره بفاس، فخرج لملاقته الأشراف والأعيان والخاصة والعامة، وركب الوداية وأهل الحوز وكان يوم دخوله من الأيام المشهودة، والأوقات المسعودة، ولما بلغ الحجاج الذين معه نشروا محاسنه وفضائله ومكارمه المحمودة. وفواضله في طريق الحج، وخصوصا في مفاوز الحجاز، التي عليها المجاز، فقد أنفق فيه على الضعفاء المتملقين ما لا يحصى من الصدقات والقربات، وشاع ذكره في الحرمين الشريفين، وجاوز الشام ومصر والعراقين، وحيث نفد ما كان عنده استسلف من تجار دولته من أهل فاس وغيرهم أموالا كثيرة كلها صيرها في سبيل البر والخير، وركب في البحر عند رجوعه كما قدمنا، ولما ورد أرباب السلف لمولانا السلطان بزمامات الأموال وعرف ما أنفقه ولده والوجه الذي أنفقه فيه أمر للتجار بقبض ما أسلفوه من أموالهم، وأن يزاد لهم أرباح تلك الأموال إكراما لهم وتطييبا لنفوسهم، وقال لهم : إنما تتعاطون التجارة لتربحوا، وتنمو بذلك تجارتكم وتنجحوا، وأما تجارتنا نحن فإنما هي ما أنفقناه في سبيل الله في مثل ما أنفقه ولدنا البار رضي الله عنه، ومن جملة ما حدث به الحجاج عن المولى إبراهيم أنه لو لم يكن معهم في هذا الركب ما حجوا ولا بلغوا تلك الأماكن المحترمة، وذلك لأن ذلك الوهبي عظمه غاية التعظيم، وعظم جميع من حج معه، وسبب ذلك التعظيم وذلك الاعتناء إنما هو حسن ذلك الجواب الذي أجاب به شيخنا أبو الفيض سيدي حمدون على لسان السلطان.

وقد بعث الفقيه العلامة البركة مفتي البلاد الإفريقية ومعول أهله وقدوة أئمتها أبو اسحاق سيدي إبراهيم الرياحي(32) التونسي لحضرة مولانا أمير المؤمنين قصيدة فريدة يهنئ بها المولى إبراهيم ويمدحه ويمدح أمير المؤمنين وهي هذه :

هذي المنى فانعم بطيب وصال ... فلطالما أضناك طول مطال
ماذا وكم أوليتني يا مخبري ... بقدومه من منة ونوال
بشرتني بحياتي العظمى التي ... قد كنت أحسبها حديث خيال

(31) ما بين العلامتين ساقط من (م).

بشرتني بابن الرسول لو انما　　روحي ملكت بذلتها في الحال
بشرتني بسلالة الخلفاء من　　أمداحهم تثنى بكل مقال
من حبهم فرض الكتاب أما ترى　　إلا المودة حين يتلو التالي
من ضمهم شمل العباء واذهبوا　　رجسا فيا لك من مقام عال!
من قوموا أمر المكارم بعدما　　شادوا الهدى بمعارف ونبال
لولاهم كان الورى في ظلمة　　مدت غياهبها بكل ضلال
آباءك الأطهار أقصد يا أبا　　إسحاق يا نجل المليك العالي
يا حبه وصفيه من قومه　　وخياره من سائر الأنجال
لو لم تكن أهلا لصفو وداده　　لم يستنبك لجدك المفضال
لكن توسم فيك كل فضيلة　　فحبا يمينك راية الإقبال
وأقام جودك بل وجودك زاد من　　يبغي ببيت الله حط رحال
أنت استطاعتهم فما عذر الذي　　ترك الزيارة خيفة الإقلال
ويك المشاعر أطربت طرب التي　　وجدت على وله فقيد فصال
ووصلتها رحما هناك قطيعة　　دهرا مضى (..........)[33]
وتأنس الحرمان منك بطلعة　　أغنتهما عن وابل هطال
كرم لكم أدريه يوم أفاضه　　عني سليمان بأي سجال
وهب الألوف وكان أكرم منزل　　يسلي الغريب ببره المتوالي
يوم التشرف لي بلثم يمينه　　وتمتعي من وجهه بجمال

---

(32) الشيخ ابراهيم بن عبد القادر الرياحي، قدم جده الاعلى ابراهيم المحمودي الطرابلسي من طرابلس الى البلاد التونسية. واستقر بالمكان المعروف باسم (العروسة) التابع لعمل رياح «منطقة مجاز الباب» الآن، ثم انتقل ابنه احمد الى بلدة «تستر» حيث ولد حفيده ابراهيم بن عبد القادر 1180هـ 1766 م، وتوفي في 27 من رمضان 1266 هـ 1850 م ودفن بزاويته التي أتم بناءها المشير احمد باي الأول سنة 1270 هـ 1854 م اهـ (ديوان الشيخ ابراهيم) تحقيق محمد اليملاري وحمادي الساحلي ص 5.
(الاعلام) للزركلي ج1 ص41 ط 2.

(33) بياض بالأصل، وبمخطوطة الملكية، وجاء هذا العجز في القاسمية وفي الاستقصا هكذا : «دهراً ولم تبلل به ببلال أما «تمطير التراحي» فورد فيه كالتالي :

دهر امضى «بللتها ببلال

وتلذ ذي بخطابه المعسول إذ   حفت به للدرس خير رجال(*)
لم أنسه يوما حسبت نعيمه   بلذائذ الجنات ضرب مثال
عجبا له يحيي القلوب بعلمه   ويميت جند الفقر منه بمال
وإذا تقلد للوغى بسنانه   تعنو الرقاب له بدون قتال
تتلوه بالفتح المبين عساكر   قد أرهفت بالنصر حد نصال
تخشى الملوك مقامه ولذكره   رعبا تطير فرائص الأبطال
وينال آمله بخفض جناحه   ما ليس يخطر منه قط ببال
حتى سعى لصفا مناهله الألى   يسعى لمروته ذووا الأثقال
وأتت لمغربه الشريف مشارق   والشمس تغرب لا قتضاء كمال
لما تكدر صفوها بضلالة   جاءته كيما ترتوي بزلال
ومتى تخلف عاجز فبقلبه   يسعى لفعل شعائر الإجلال
أمنية وقعت أشرت لذكرها   في مدحة قدما بصدق مقال
تهوى المشارق ان تكون مغاربا   لتنال من جدواه كل نوال
يافخر دين الله منه بناصر   وسعادة الدنيا به من وال
لا تفتخر فاس ولا مراكش   بولائه كل الأنام موال
أو ليس في كل البقاع ثناؤه   ورد البكور وسبحة الآصال
أو لم يشد للدين والعلماء والـ   أشراف والصلحاء أي جلال
أو لم يعم بجوده أقطارها   لا فرق بين جنوبها وشمال
أو لم تسر ركبانها بمحاسن   ضاءت لهم سرجا بجنح ليال
أو ليس أحيا سنة العمرين في   زمن الى بدع الهوى ميال
شيم يهز الراسيات سماعها   ويفحن في أنف الزمان غوال
أوصاف والدك الامام المرتضي   للدين والدنيا بحسن خلال
ذاك الربيع أبو الربيع ومن به   حيي الهدى وشرائع الافضال

(*) في "كمطهر التراعي" ج1 ص24 قال الشيخ ابراهيم الرياحي : وحضرت دروس المولى سليمان في التفسير حيث سمعته يقرر قوله تعالى : «وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» فكان مما قرره فيها أن وجه العدول عن جمع الكثرة الى جمع القلة ان الناس الذين يعملون بعمل أهل الجنة قليلون بالنسبة لما لا يعملون بعملها، فاستحسنت هذا التقرير من مولانا السلطان خلد الله ملكه. وقد اردف ما سبق بمناظرة وقعت بينه وبين الشيخ الطيب بنكيران، قال :
ان عز من خير الأنام مزار   قلنا بزورة نجله استبشار
فسردتها عليه، ولما وصلت الى قولي :"فطوال آمال العداء قصار" قال لي : ما الوجه في العدول عن المقصور الى الممدود، قلت له : لعلك تشير الى الخلاف بين النحاة في ذلك، قال : نعم. قلت : ان من يمنع المد يجوزه لضرورة الوزن. قال لي : هذا اذا لم توجد كلمة توازي تلك الكلمة، وأنت لك ان تقول : "فطوال آمال العداة قصار". فسلمت له تسليما جدليا وإن كان الحق خلاف ذلك. هـ

ياأيهـا الملـك الـذي آثـاره / تنبي عن أخبار له في الحال
يا أيها البحر الذي في الشرق ما / في الغرب من ذكر له بخصال
وافتك من خضراء تونس مدحة / تزري بشرب الصرف من جريال
خود تؤنس رائيا أو سامعا / بنقوش خط أو نقود مقال
جاءتك ترفل في لباس جليت / فيه وحليت عقـود لآل
وصدقت إبراهيم في أمداح ابـ / راهيم سبط الملك والإفضال
سبط النبوة والخلافة لم يزل / بهم ترى في عزة ودلال
أطربت اذ أطنبت حتى كان / إيجازا ولكن جل عن إخلال
أعجزت إذ أوجزت حتى كان إطـ / نابا ولكن صين عن إملال
وأتيت بالسحر الحلال مؤلفا / من مدح شبل الى أبي الأشبال
ملك بغـرب كـاد من شـوق به / شوق يجيء بنيل كل منال
ملـك حلـت أمداحـه للسـامعـين / ختامهـا كبراعـة استهـلال
يا بن الرسول الهاشمي بن العـوا / تـك من نسائم أشرف الأخوال
خذها بنيَّةَ ساعة لا كره في / حمل ولا وضع لها وفصـال
بنت ابن خنساء. وعباس ابنها / من لام بحر الجود في اقـلال
لكنه من وجد اعقب قاطعا / للسانـه عنه بسيب نوال
ما إن رأت كفؤا يكمل حسنها / ويه تجر الذيل في الكمال
إلا ك ياشمس المعالي والمعـا / ني والجمال مطرزا بجمال
<الاك يابدر الفضائل والفـوا / ضل والكمال معززا بكمـال
إلاك يابحر الحقائق والدقـا / ئـق والجلال مؤزرا بجلال>(35)
ياناثرا من فيه زهر خمائـل / مزري بنشر من فم ابن هلال(36)
يامن بذكره سار كل مشرق / ومغرب سيراً كسير شمـال
ويه القماري(37) فائح أو صائح / طيبا وصوتا مذهب البلبال
لازال ذكـرك متلـوا بمنـابـر / لازال حـمدك مـثل حـمد التـالي

وفي عام ثمانية وعشرين ومائتين والف بلغ السلطان ان اهل الريف يبيعـون الماشيـة والانعـام للكفـار، حيث قطع عنهم الوسق من مراسيه،

---

(35) ما بين العلامتين ساقط من (م)
(36) لم نعثر على ترجمته
(37) القماري: عود الطيب المميز عند بالعود القماري.

وطلعت شمس الغرب من عجب عجا ... ب أن جليت مسكن الزلزال
والكل تحت لواك في ظل ظليـ ... ـل آمناً ماخيف من أهوال
وكذا أبوك بيوم زحف طالـع ... والكل تحت لوائـه بظلال
أنزلت بالمكي والمدني والشـا ... ـمـي دار الوحـي والانـزال
دار النبوة والرسالة والسـلـ ... ولكل قلب لم يكن بالسالي
دار لشرح الصدر من ضيق ووضـ ... ـع (...) الذكر من إهمـال [34]
دار السيادة والرياسـة أطلعت ... شمسا بهـا لم تتصف بـزوال
لبيوت ارتفعت لذكر الله والتـ ... ـسبيح بالغـدوات والآصـال
بمقام إبراهيم نلت مثابـة ... جلت وأمناً مذهـب الأوجـال
وكذاك في مغنى أبي ابراهيم رو ... ض المحاسن زهـرة الآمال
وكذا ببيت القدس دار الزهر من ... دار لإبراهيـم أصـل الآل
فطلعت إبراهيم ذا كسر وذا ... خفض جناحا طلعـة لهـلال
ورجعت إبراهيم ذا فتح وذا ... رفع كمالا فوق بدر كمال
سر من الأسرار في كسر وفي ... فتح جمال لائح بمجال
ما كان من بلغ المنازل سامعا ... أهلا وسهلا يانزيـل نزال
ولمن أحلكها آحلـك مثلمـا ... لك من سنا الأعمال والآمال
بشرى أمير المؤمنين بما اشتهى ... في شبله صالح الأعمـال
بشرى أمير المومنين بما انتهى ... لـه طيره الميمون في الترحـال
لازال مطلع نجم نجل صالح ... أنواره تمحـو ظـلام ضـلال
ابني علي مالكم إلا العلـ ... ـو بكل دهر سافـل أو عـال
أبني أبي حسن بني الحسن الذي ... قطب ابي الاقطاب والابدال
كأبيكم الحسن البهي أبي أبي ... الحسن الشريف المنجلي بخـلال
بخلال اشتهرت بيوم نازل ... تغني عن الآلاف من نزال
لأبيكم الأدنى علـي مثـل ما ... لأبيكـم الأعلـى علـي وال
لهما بذى كفر وقائع كتبت ... بصفيحة الأعناق من أبطال
أنتم ملوك ظاهرا أو باطنا ... والباطن الملك النفيس العالي
ولكـم ملـوك سـادة بمناقـب ... جرت لأرض المعتلي بعوالي

---

34) بياض بالأصول، وجاء البيت في (ل) هكذا :

دار لشرح الصدر من ضيق ووضع الوزر والذكر من إهمال وهو مختل الوزن.

فبه لك الفخر الكبير وان يكن   لك في العلا نسج على منوال(*)
كل الكمال له وأنت مقـــره   والفـــرع عين الأصل عند مآل
يا ابن المليك ابن المليك يا ابـن المليـ   ـك ابن المليك سلالة الأقيال
أنسيتم ذكرى العبابسة الألى   زالــوا ومازالوا بعين جـــلال
لكـم الفخـــار بذاتـــه وسواكم   مستمسك من فخركـم بظـــلال
ولي الفخار بأن نسجت مديحكم   حللا تجد وكل شيء بسال
أملى معانيها على ودادكم   فجرى به طبع كما السلسال
ولو أنني حاولت مدح سواكم   عقل القريحة عنه أي عقـال
فكأنما طبعي شريف حيثما   لا يهتدي لســوى مديح الآل
أو قد درى أن المديح تعرض   وسواكـــم لا يرتضــى لسؤال
أبقاكم كهفا يلاذ بمجدكم   نختاركـــم لإنالـــة الآمـــال
وأدام للإسلام والدك الذي   هو رحمة وسعت بغير جدال
وعليكم وعلى الذي يهواكم   أزكى الرضى من حضرة المتعالي
مادام ذكركم بكل صحيفة   تبعا لأحمد سيد الأرسال
صلى عليه مسلما رب الورى   وعلى مقدم حزبه والتالـــي(**)

ونسج على منوالها شيخنا أبو الفيض سيدي حمدون بن الحاج الفاسي المرداسي رحمة الله عليه فقال :

بشراك إبراهيـــم بالإقبـــال   إقبال عز لم يكن فـــي البال
أوتيت رشدا من لدنه ورحمة   أوتيت سؤلا لم ينل بسؤال
بشراك بالحج الذي كنت المقد   م صادقا فيه وكنت التـالي
بانت نتيجته فذلـك واجب   صدق لها في سائر الأحـوال
أذنت في الناس بحج فانبـــرت   من كل فج مقبل بـرحال

(*) هذا البيت ساقط من الأصل و (ب) و (م) وذكر (في تعطير النواحي) و "الديوان".

(**) ولما وصلت القصيدة اللامية للمولى سليمان في تهنئة ولده مولاي ابراهيم لما جاء من الحج أجابه السلطان بقصيدة شعرية ونثر فقال الشيخ ابراهيم فأرسل الى السلطان مولاي سليمان خلد الله بقاءه، وأدام لي أوج سعادة الدارين ارتقاءه جائزة سنية مع قصيدة أحلتني والله يعلم انني لست بأهل مرتبة عالية، وكتابا أطراني فيه بأسحار بابلية أما القصيدة فمطلعها :

حييت فأحييت قلب صب صال   كيما تبشره بقرب وصال
واستفتحت بعد التحية سورة الـ   ـفتح المبين بقصد أخذ الفال
هيفاء ترفل في مطارف سندس   من نسج تونس لا تسام بمال
مخضوبة الكفين والقدمين في   طول القنا ملبوزة بدلال

الى آخر القصيدة، وتشتمل على 25 بيتا. ويعدها النثر المذكور انظر «تعطير النواحي» ج 1 ص 80.

فتوجهوا للريف يشترون منهم ما شاؤا، وكان الوالي عليهم السيد محمد السلاوي البخاري، وكان يعلم ذلك منهم فأعرض عنهم ولم يلتفت إليهم، وإذا قبض أعيان أهل الريف من يفعل ذلك منهم ووجهوه له سرحه بالطمع والرشوة فاختل الامر وأعضل داؤه، فلما تحقق السلطان ذلك امر رؤساء مراكبه البحرية ان يتوجهوا لمراسي الريف، وكل من وجدوه بتلك النواحي من مراكب الكفار ياخذونه، فتوجهوا لذلك وقبضوا واسروا فلم يقنعه ذلك فأمر بالحركة للريف وجهز العساكر مع السلاوي المذكور في خدمة ولده مولاي ابراهيم بعساكر الثغور واهل الغرب وغيرهم، وتوجهوا على طريق الجبل، وخرج السلطان من فاس مع السواد الاعظم على تازا وهي الطريق المعروفة النافذة على قارت فلم يرع أهل الريف الا غرر الخيل قد أطلت عليهم من كل ناحية واحاطت بهم الجنود من جميع الجهات فنهبوا أموالهم وأحرقوا مداشرهم وخربوا ديارهم واستخرجوا أمراسهم ودفائنهم، وولى عليهم السلطان احمد بن عبد الصادق الريفي [حفيد الباشا احمد بن علي المتقدم ذكره](38) وتركه ببلادهم في جملة من العساكر يستخلص منهم المال الموظف عليهم، ورجعت المحلة مع السلطان لدار الملك ولا زال في ترقيع ما يخرقه العمال، وهكذا وقع له مع قبائل تامسنا والشاوية لما ولي عليهم گران(39) وبالغ في الجور والطغيان، فحاصوا كما تحيص الحمر الوحشية، وخرجوا عليه فلبس الظالم على السلطان فخرج اليهم نصره الله في العساكر عام ثلاثين ومائتين وألف وأمر جيرانهم من القبائل بالزحف اليهم والربط عليهم، وهجم عليهم هو بالعساكر وأوقع عليهم وقعة شنيعة أتلفت أموالهم ونسفت حللهم، ومن فر منهم غرق في أم الربيع، وكانت في وقت حملها، وتوجه السلطان لمراكش وترك مع العامل جملة من العسكر، ومر على دكالة فأصلح من أمرهم ما يحتاج للاصلاح، ثم عزل وصيفه الحاج محمد بن عبد الصادق لما كثرت به الشكوى وكان واليا على الصويرة وعلى الشياظمة ودكالة وعبدة، وأطغاه طول مداه في الولاية، ونقله الى مراكش ثم لفاس وعاد الى الغرب.

وفي عام واحد وثلاثين ومائتين وألف وجه السلطان ولده مولاي

---

(38) ما بين المعلامتين إضافة من (م).

(39) كذا بالأصل وفي (م) : (اكروان) وأما (ف) ففيها : (أكروان)

ابراهيم في العساكر لقطع فساد قبائل الصحراء من عرب الصباح وبرابر آيت عطة فنزل على قصورها ‹ونصب عليهم آلات الحرب، فخرب ما خرب وبدد شملهم، ثم نازل آيت عطة في قصورهم وحاصرهم›(40) إلى أن طلبوا الأمان فأمنهم، وطلبوا منه أن تبعد المحلة عنهم حتى يخرجوا خوفا من معرة العساكر، وكان ذلك من مكايدهم المعروفة، فأبعد عنهم فأدخلوا ما كانوا يحتاجون اليه في الحصار من الرجال والسلاح والأقوات، فتمادوا على غيهم، فلما غدروا قتل من كان معه من رهائنهم قتل بعضهم بسجلماسة وقاد نحو المائة منهم لفاس فقتلهم بباب المحروق. وما بلغ خبر كيدهم له حتى بعد عنهم ونفس الخناق عليهم وذلك بعد الاشراف على الظفر بهم لم يستحسن السلطان ذلك وعد ذلك من نقصان عقله، ومن الخفة والطيش، وكذلك أنكر عليه قتل من جلبه من الأسارى ولما قدموا على السلطان مظهرين للتوبة على أن يبقيهم في مداشر المسلمين التي غصبوها، ردهم بالخيبة وطردهم من أبوابه، ولما انفصل رمضان من العام المذكور شرع في تجديد الحركة لهم وتجهيز العساكر لاخماد نارهم وكف عاديتهم، وقدم أمامه السواد الأعظم من جيش العبيد مع الوزير الأعظم صاحب الطابع والعلامة القائد أحمد ووجه معهم المدافع والمهاريز وآلات الحرب والطبجية وآلات الهدم، فخرجوا من فاس، وبعد انفصالهم بلغه الخبر من ثغور السواحل أن عمارة العدو الكافر تروج في البحر، وتجتمع بجبل طارق، فتأنى عن الخروج حتى يتبين مآل ذلك، فلما ظهر حالهم بالخبر اليقين أنها أرست بمرسى الجزائر وحاربوا أهلها ورجعوا خائبين بعد كثرة ما قتل وجرح منهم مما لا يوصف، وقد نالوا من الجزائر أيضا من تخريب بعض الأبراج والدور والمساجد شيئا كثيرا، ولكن لما رجعوا على ما ذكرنا من الذلة والنكس والخيبة والصغار هان الأمر والعاقبة للمتقين، فلما جاء البشير بانهزامهم وإقلاعهم عزم السلطان على متابعة العساكر الموجهة للصحراء وخرج في أول قعدة العام في قبائل الأعراب والبرابر ومن بقي من العسكر، فلما قطع واد ملوية لقيه البرير ببشارة الفتح والاستيلاء على القصور المغصوبة وفرار آيت عطة وإدبارهم بعد القتل والسبي والنهب والدخول عليهم عنوة وغلبة فجد السير الى أن نزل بغريس وكتب للعساكر وأمرهم

---

(40) ما بين العلامتين ساقط من (ف).

بملاقاته ببلاد فركلة ينزلون على قصور الخربات التي فيها آيت عطة فاجتمعوا مع السلطان هنالك ونصبوا آلات الحصار عليها بالمدافع والمهاريز ورمى عليها ثلاثة أيام، وكثر فيهم الهدم والقتل، وشاهدوا الموت وأيقنوا بالهلاك، فوجهوا النساء والصبيان طلبا للشفاعة على الخروج بمجرد رؤوسهم وأولادهم فأمنهم وخرجوا في الليل حاملين أولادهم، فلما أصبح نهب ما في القصور من الأقوات والأمتعة والبهائم وكان ذلك شيئا كثيرا، فتم فتح الله ونعمته على السلطان وحزبه المفلحين، والحمد لله رب العالمين، وفرق على القبائل والعساكر ما وسعهم من الخيرات والبركات، وأما الشرفاء والطلبة فإنه أفاض عليهم ما لم يكن في حسابهم ولا بلغته أمنيتهم، فإنه أعطى الشرفاء مائة ألف مثقال غير ما كان يعطيهم في كل عام، وقسم ذلك بخط يده لدار مولاي عبد الله كذا ولشريفات حمو بكو كذا، ولشرفاء تافيلالت كذا، ولشرفاء تزمي وأولاد الزهراء كذا، ولشرفاء الرتب كذا، ولشرفاء مدغرة كذا، ولشرفاء زيز والخنگ والقصابي كذا، وأعطى الطلبة والعمي والزمنى والمقعدين وزوايا تافلالت مائة ألف مثقال، قسم ذلك بخط يده للفقيه المدرس أربع قسمات وغيره قسمتان والقسمة كذا، والطالب الذي يحفظ القرآن برسمه حتى صفا لوحه قسمتان، ولغيره قسمة، والقسمة كذا، ولا فرق بين الأحرار والحراطين، ولكل واحد من الضعفاء والعمي والمقعدين كذا الأحرار والحراطين، وللزوايا كذا زاوية الشيخ سيدي الغاز كذا، وزاوية سيدي بوبكر بن عمر كذا، ولزاوية سيدي أحمد الحبيب كذا، ولزاوية سيدي علي[41] بن عبد الله كذا، وفي زيارته لضريح مولانا علي الشريف كذا، ولمقبرة أخنوس كذا، ووجه المال مع السيد المعطي مرينو للرصاني، وأمر الشرفاء أن يعينوا أربعين من ثقاتهم وأمنائهم حتى لا تقع زيادة فيما كتبه بيده ولا نقصان، وأمر القاضي أن يعين عشرة من الطلبة وعشرة من العوام الذين هم أكثر أمانة من الطلبة وأعطى الطلبة المدررين زيادة على ما تقدم، وكذلك الأئمة والمؤذنين، ولم ينس أحدا من مراتب أهل الخير، وكل ذلك بخط يده، وزمام ذلك كله ما زال عندي رحمه الله تعالى وأفاض عليه بحور الرضى والقبول ونفعنا ببركته آمين، ثم بعد زيارته توجه لمراكش على طريق الفايجة ليتفقد أحوال

(41) في (م) «احمد» بدل «علي»

العساكر التي وجهها من مراكش من قبائل الحوز لوادي درعة فبلغه أثناء طريقه أن آيت عطة الذين بدرعة لما سمعوا خبر العساكر القادمة عليهم خرجوا من القصور وتركوها وهربوا لجبل صاغرو، ولما بلغ السلطان مراكش وجه العساكر لسوس للجباية وتعاهد أحواله وأطرافه وقمع المفسدين، واشتغل هو باستصلاح قبائل الحوز عبدة ودكالة والشياظمة والسراغنة وزمران والدير فعزل من عزل، وولى من ولى، وقتل من قتل، وطهرهم من ولاة السوء، فاستقامت الأمور وقام الحق المبين في مركزه بحمد الله تعالى.

وفي عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف وجه السلطان ولديه مولاي علي ومولاي عمر لأداء الفريضة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج الركب النبوي على الهيأة المعهودة من الاحتفال والفرح والسرور من حضرة فاس بالسلامة والعافية، وفي هذا العام عزل السلطان الوصيف ابن عبد الصادق عن فاس وولى كاتبه مولاي أحمد القسطالي معلم أولاده، وأمره بمجاملة أهل فاس ومعاملتهم بالإحسان الى الضعفاء والشد على الذعار والفجار.

وفي عام ثلاثة وثلاثين ومائتين وألف عزله مولانا السلطان لما بلغه من مخالفة ما أمره به وولى على فاس خديمه الحاج محمد الصفار، وهو من بيت الرياسة القديمة بفاس، وفي هذا العام قدم ولدا السلطان من حجهما ونزلا بمرسى طنجة، وكان السلطان وجه لهما مركبا من مراكب الأنجليز تحملهما من الإسكندرية مع كل ما تعلق بهما من أصحابهما وخدامهما والتجار الموجهين معهما، ولما نزلا بطنجة ظهر الوباء مصحوبا مع من معهما، ثم شاع في المغرب وخصوصا تلك السواحل، ثم في جميع الحواضر والبوادي الى آخر أربعة وثلاثين ومائتين وألف، ثم توجه السلطان لحضرة مراكش، وفي رجب من العام المذكور أعمل السلطان الحركة العظمى من مراكش الى جبال فزاز من جبل درن لقبائل عصاة آيت أمالو برابر صنهاجة، واستنفر معه جميع قبائل الحوز أعراب وبرابر، ووجه لعسكر العبيد أن يلقوه بتادلا، وأمر ولده مولاي إبراهيم خليفته بفاس أن يقدم عليه في عسكر الوداية وشراقة وأولاد جامع وقبائل البربر وأعراب الغرب وبني حسن، وكان الناس في محنة شديدة من الوباء الذي طم وعم، وكان السلطان تركه خفيفا ولم يعلم أنه زاد وشاع وذاع، فلم يجد الناس بدا من الامتثال، وكان الواجب على الخليفة أن يعلمه بذلك ويتربص حتى يرجع

إليه الأمر، ولكن إذا أراد الله شيئا لا بد من كونه، فلما جمع الجموع وحشد الجنود المتكاثرة توجه الى ملاقاة السلطان، ولما بلغوا بلاد العدو أتاهم آيت أمالو بالنساء والولدان طلبا للمجاوزة والمسامحة، وأظهروا الطاعة والتوبة، وأنعموا أن يعطوا كل ما أمرهم به، وأن يفعلوا كل ما أراد منهم، فلم يساعفهم ومنعه من ذلك من كان معه من رؤساء الأعراب والبرابر، ولم يقبلوا الصلح، ولما انتشبت الحرب انخزل زمور، وكان ذلك أمرا دبر بليل، فإن الحاج محمد بن الغازي وكان إذ ذاك أعظم البربر كلمه ورياسة، ولم يقدر أحد منهم أن ينافسه ويقابله إلا ما كان من ابن حم وعزيز فإنه ينافسه، وكان من بطانة مولاي إبراهيم ومن خاصة ندمائه، وبه عاند ابن الغازي فأنف ابن الغازي من ذلك وضاق به {وكان يضمر ذلك زمانا، ويتربص به الدوائر، فلم يجد لذلك وقتا غير هذا المحل}(42) فبعث في الليلة التي يكون القتال في صبيحتها الي عرفاء آيت أمالو ووعدهم بالغدر للسلطان ومحلته، فلما ركبت المحلة للقتال وكانت خيل العدو مطلة من بعيد على رؤوس الربا والهضاب تنظر من زمور وشيعتهم ما يفعلون، فركب ابن الغازي ووقف كأنه يعبي الخيل للحرب، وأمر إخوانه أن يحملوا أثقالهم وأخبيتهم وينصرفوا لسبيلهم، فلما تحملوا وساروا ولم يبق منهم أحد صد وتبعهم بالخيل، فأخبر السلطان بأن زمور قد غدروا ونكصوا، فبعث من يرد ابن الغازي فلم يدركوه، فلما علمت المحلة بذلك سرى فيهم الفشل، فجعلت الأعداء تزحف إليهم شيئا فشيئا يتربصون بهم اقتراب الليل، وذلك في عشية النهار، فلما اصفرت الشمس رمت كل شعبة بأمثال الجراد من الخيل والرماة، وأحاطوا بالمحلة من كل جهة، وكانت المحلة لما رأوا البرابر فروا صار كل من قدر على الفرار وعرف الطريق فر وبقي مع السلطان من لم يعرف أين يتوجه من العبيد والوداية والحوزية، فتراكموا على سرادق السلطان حتى كادوا يقتلونه بالزحام، والعدو تغير سرية منه حتى تخرج في تلك الجموع المتراكمة وترجع ويسقط من المحلة كل من صادفه رصاصهم، ولا يقع إلا في الحي، والناس يطأون على من مات منهم ولا يبالون، وتأتي سرية أخرى تفعل مثل ذلك فيهرب الناس الى قبة السلطان، وأصحابه يكفون عنه حتى عجزوا عن الدفاع، وجاء ظلام الليل

(42) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) فأضفناه رواية عن (ف).

وتفرق الناس في الظلام، وفاض سيل العدو على انتهاب المحلة، ولو كان البربر يقتلون بعد الهزيمة ما أفلت أحد، ولكن ليس ذلك من عادتهم.

وحدثنا السلطان رحمه الله أنه ما وجد الراحة حتى أظلم الليل وتفرق الناس عنه، واشتغل كل أحد بنفسه وتخليص مهجته، فبقي وحده منفردا، فجاءه من جرده من الثياب في ذلك الظلام ولم يبق عليه إلا قميص واحد، ثم جاءه آخر يريد أخذ القميص فطلبه أن يبقي عليه قميصه فأبى وجعل يتهدده إن لم يخلعه، فلما رأى الجد منه قال له : أنا فلان السلطان، فاستحلفه أهو هو حقيقة فحلف له فنزل عن فرسه وأركبه وأعطاه سلهاما باليا فلبسه مع القميص الذي بقي عنده، وتوجه به لخيمته، فلما وصل لحلته فرح أهله وجميع أهل حلته، فجعلوا يضربون البنادر ويزغرتون، وتراكمت عليه نساؤهم يتبركون به ويتفرجون منه، وكادوا أيضا يقتلونه بالازدحام، وكان ذلك الولد الذي أسره فقيرا ليس عنده في خيمته الا الحصير، فشكا له السلطان صلابة الأرض فذهب يلتمس له فراشا فأتاه مع جماعة يحملون قطيفة بالية مملوءة بالبراغيث، فكانت تلك القطيفة أقبح عنده من صلابة الأرض، فأمرهم بإخراجها عنه وقال له : اطلب لي شاشية إن كان بعضهم نهب شاشية، فذهب ذلك الولد يطلبها فأبطأ فلم يجيء حتى انتفخ وجه السلطان وخياشيمه، فجاءه بشاشية بالية صغيرة عن رأسه فشقها من وراء فجعلها على رأسه، فزادت في مضرته، فلما أصبح اتوه بعمامة نقية فلواها على رأسه، فلم تغن عنه شيئا ولم تقم مقام القلنسوة، فسألهم عن ولده مولاي إبراهيم فلم يكن عندهم خبر به وقال لهم : هل هنا أحد من أهل المحلة ؟ فقالوا له " هنا رجل غليظ عربي في خيمة فلان الفلاني، فقال لهم : ائتوني به، فإذا هو ابن الجلالي ولد محمد الصغير الصراغني عامل الصراغنة، فوجده كذلك ليس عليه إلا قميص وسلهام بال متسخ مثل سلهام السلطان، قال رحمه الله : وأتيت بذلك السلهام ووضعته في ذخائري كلما طغت علي نفسي ذهبت بها حتى تراه، وأذكرها سطوة الله تعالى فتخمد تحت جلال قهره وكبريائه، فبقي عندهم يومين أو ثلاثة، وكل يوم يلعبون وهو كل يوم يدعوهم للذهاب به لمكناس فيعدونه ولا يفعلون حتى توهم أنهم لا يريدون إطلاقه وابن الجلالي ما زال معه، ثم أصبحوا يوما راكبين وأركبوهما وذهبوا حتى قربوا من أكراي نزل هناك ووجه لمكناس أن يأتوه بما يلبس هو وابن الجلالي، وما قدم شيئا قبل القلنسوة فجاءوا بذلك،

ودخل لمكناس وأحسن لذلك الولد غاية ولجميع حلته والذين قدموا معه، ولم يذكر لنا ما أعطاه ولا ما أعطى لقومه، والحمد لله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته.

وأما مولاي إبراهيم فإنه أصابته جراحات وأعظمها في رأسه، والناس يتحدثون أن الوداية هم الذين فعلوا به ذلك في الظلام لما اختلطت الناس، وكان قد أضر بهم غاية لأنه قيد عليهم صهره الحاج أحمد بن قدور فمكر بهم، والله أعلم، فحمل جريحا الى فاس فمات بها، وكانت مصيبته على السلطان أعظم مما أصابه في نفسه، والأمر لله سبحانه. قال بعض الناس : وما أظن سبب شؤم هذه الوقعة على السلطان ومحلته إلا لعدم قبول الصلح ورد الشفاعة حين طلب ذلك العدو في أول الأمر، وذلك معلوم في الغالب أن من طلب منه الصلح فمنعه لا تكون الكرة إلا عليه، وقد كان السلطان الحازم سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله وأرضاه لا يرد الاستشفاع في مثل هذا المقام، وربما أمر بعض الناس أن يصنع ذلك صورة وإن لم يكن العدو طلبه، فيقلع عن عز ويستدرك الأمر قبل تفاقمه، وهذا من أحسن السياسة ولطائف التدبير.

وفي عام خمسة وثلاثين ومائتين وألف بعد رجوع السلطان لدار ملكه بمكناس نصب السلطان حبالة الاحتيال للبرابر الذين حول مكناس وأضروا بها بقطع الطرقات ونهب المسارح والمزارع، فأمر من يعدهم بالطمع الكثير من السلطان والإحسان التام، فكان كل من وفد عليه منهم كساه فاخرالحلل وأعطاه فتسامعوا بذلك فقادهم الطمع حتى ورد منهم في مرة واحدة نحو سبعمائة من الخيل، فقبضوا وجردوا من الخيل والسلاح، وأمر السلطان بقبض كل من وجد بمكناس من المتسوقين منهم، وكذلك أمر بصفرو أن يقبض به آيت يوسى فقبض نحو المائة منهم، وكان هذا سبب اشتداد الأمر واشتعال النيران في جميع أقطار الغرب، فاجتمع البربر كلهم وصاروا يدا واحدة، ووجهوا للدجال المريد والشيطان اللعين موقد ضرام الحروب، ومشير عجاج الفتن والكروب، بوبكر أمهاوش، وكان قد أمر أمره جدا لما وقعت الكسرة على المحلة، وكان يعدهم بذلك، فاجتمعوا على معاداة كل من يتكلم بالعربية، وتداعوا لحصار مكناس، وأمرهم ذلك الدجال وزين لهم سوء عملهم، فنزل حللهم ببسائط الأرض حول مكناس أمامها ووراءها وعن يمينها وشمالها، فعظم الأمر واشتد الخطب، فجعل السلطان يعالج ذلك بما

ظهر له، وبالغ في الإحسان وبذل المال وإعمال أنواع الاستصلاح، تارة بالسلم، وتارة بالحرب، فلم ينفع ذلك فيهم شيئا، لأنهم شمخت نفوسهم وعظم فسادهم لما وقع الاتفاق بينهم وزال الاختلاف، فاستمر الحال على هذا، وسرى فسادهم الى جميع القبائل والرعايا من الأعراب والبوادي، ثم سرى ذلك في الحواضر، فقام أهل فاس على عاملهم محمد الصفار فأرادوا عزله، فانتصر له أهل عدوته، فافترقت فاس، ووقع الحرب في داخلها، ونهب بعض الأسواق حتى صاروا يترامون بالرصاص من أعلى منار الرصيف، بل سرى ذلك الفساد الى العسكر السلطاني، فقتلوا الوزير الأعظم الرجل الصالح الدين الخير المتمسك بسيرة سيده في أعمال الخير القائد أحمد، وبقتله تهدم جانب عال من ملك السلطان، فلما وقع ما ذكرناه على جهة الاختصار جاء المرابط البركة السيد عبد الله بن حمزة العياشي يريد مباشرة الصلح بين البربر والسلطان على أن يسرح لهم إخوانهم ويرجعوا للطاعة كما كانوا، والله يعلم إنهم لكاذبون، فلما سرح لهم إخوانهم على يد المرابط المذكور نقضوا العهود، ورجعوا لمذهبهم المعهود، ولما أعياه أمرهم وعلم أنه لا يفيد فيهم شيء تهيأ للخروج من مكناس على خطر عظيم، فأقام ولده مولاي الحسن خليفة بمكناس وخرج في جوف الليل وبات يسري ولم يتفطن البربر لخروجه حتى أصبح وتجاوز المهدومة، وقرب من وادي النجا، فتبعوا المحلة ينهبون كل من تخلف قليلا، ونهبوا كثيرا من روام السلطان، وكان المرابط المذكور مع المحلة، وكان يكف كثيرا منهم، ولكن كان يكف من ناحية، فتتغير ناحية أخرى لكثرتهم، فأنجى الله أمير المؤمنين ودخل الحضرة فاسا وأمر بنهب جميع ديار البربر التي بفاس ‹فتعدى الناس الحد في ذلك›[43] فنهبوا كل من فيه رائحة البربرية ولو كانت قديمة منذ أزمان ودهور ‹وقد أحاطوا بدار الزياني يريدون أن ينهبوها فقام أهل حومته فدافعوا عنه حتى سكنت الفتنة›[44] وكان في ذلك فساد كبير.

وكان السلطان لما كان بمكناس وبلغه ما فعل أهل فاس من القيام على العامل الصفار ووقوع الحرب بينهم كما قدمنا على جهة الاختصار

---

(43) ما بين العلامتين ساقط من (م)

(44) ما بين العلامتين ساقط من (م)

كتب لأهل فاس كتابا يعظهم فيه ويعاتبهم ويقرعهم ويشنع عليهم سوء أفعالهم ويذكرهم ويهديهم الى الصراط المستقيم ويأمرهم باتباع السلف الصالح، وأمر ولده مولاي علي بقرائته عليهم، فجمعهم وقرأه عليهم، وهيهات هيهات، قد انتبه أهل الذعارة من كل رقدة ولما انحلت العقدة، وقد شرح صاحبنا وشيخنا العلامة الذي هو شعلة الذكاء أبو عبد الله السيد محمد بن أبي بكر بن عبد الكريم اليازغي(45) ذلك الكتاب المذكور شرحا عجيبا أفاض فيه علوم التحقيق وتحقيق العلوم، ونص ذلك الكتاب :

باسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

إلى أهل فاس، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد فإن العثمانية باصطنبول، وأمره ممثل بتلمسان والهند واليمن، وما رأوه قط، ولكن أمر الله يمتثلون (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) وكان صلى الله عليه وسلم لا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن كان يعفو ويصفح، واعلموا أن العمال ثلاثة : عامل أكل السحت ووكله الغوغاء والسفلة، وعامل لم ياكل ولم يوكل غيره، وانتصف من الظالم، وعامل أكل وحده ولم يوكل غيره، فالأول تحبه العامة والسفلة، ويبغضه الله والملائكة والسلطان والصالحون، والثاني يحبه الله ويكفيه ما أهمه من أمر السلطان وغيره، والثالث كعمال اليوم يأكل وحده، ويمنع رفده، ولا ينتصر للمظلوم، فهذا يبغضه الله ورسوله والسلطان والناس أجمعوه، وهذا معنى حديث (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما بأيدي الناس يحبك الناس)وحديث العمال ثلاثة الى آخره، فلو كان للصفار مائدة خمر وطعام يأخذ من الأسواق ويتغذى ويتعشى عنده السفلة والفساق، ويدعو اليوم ابن كيران وغدا ابن شقرون، وبعده بنيس وابن جلون، ويفرق عليهم من الذعائر لأحبوه، وما قاموا عليه، وما دروا أن أولئك التجار بهم تعمر المدن لأنهم يجلبون إليها الأقوات والضروريات، ولو أردتم النصيحة لله ورسوله ولأمير المؤمنين لقدم علينا ثلاثة منكم أو ذكرتم ذلك لولدنا مولاي علي أصلحه الله فأخبرنا بذلك، وأقول للصفار إن الكلاب لا يتهارشون إلا على الطعام والجيف، وإذا رأوا كلبا لا شيء أمامه لا تعرج عليه، وإن رأته يأكل فإن هو تعامى وشاركهم فيما يأكل أكلوا معه وسكتوا، وإن هو قطب

(45) اليازغي : العمدة المحقق، المشارك المدقق 1238هـ 1822م ودفن بضريح ابي العباس السبتي بمراكش (الإعلام) ج 6 ص 177.

وكشر عن أنيابه تراموا عليه وغلبوه على ما بين يديه، وهذا الصفار لم يتق الله ولم يزهد الزهد الذي ينصره الله به، ولم يلاق الناس بوجه طلق ويطرف مما ياكل فسلطهم الله عليه.

ولما رأى يوسف بن تاشفين النعمة التي فيها ابن عباد المعتمد قال : أكل أصحابه وأعوانه مثله ؟ فقالوا : لا، فقال : إنهم يبغضونه ويسلمونه للمكاره لاستبداده دونهم، ولتغيير المنكر، شروط، وما يعقلها الا العالمون، وكم مرة قلنا لكم : العلماء هم ينكرون ما ينكر، ويعلموننا بما كان، ولكن الجلوس بلا شغل والفراغ وعدم حمد الله حملكم على ما يحرم عليكم الكلام فيه :

إن الشباب والفراغ والجده — مفسدة للمرء أي مفسده

وأما بيت مال الله والأحباس فالله حسيب من بدل، وقد كنتم تتكلمون على المكس والحرير والقشينية وغير ذلك فأراحكم الله من ذلك، وانظروا لمن تعرفونه من الملوك والعمال، وأما الفسق فعادة وديدن كل من قام في الفتنة، وكم مرة أردت قطعه فلم أجد إليه سبيلا لأن جل كبرائكم بالمصاري والعرصات، وإنما كنت أولي عليكم البراني لا تحسدونه وإن أكل وحده، والحاسد يريد زوال النعمة عن محسوده والتجار لأن التاجر لا يطمع في مال أحد ويكفيه الرفعة والجاه لنمو ماله وتجارته، وانظروا ما أجبتكم به وما كتبتم لنا به واعرضوه على فقهائكم فمن قال الحق منا ومن قال الباطل أخذتم بحظكم من الفتن.

انتهت الرسالة البليغة إلا أن مقاصدها الدقيقة، وأسرارها الرقيقة، المبنية على لطيف الشريعة والحقيقة، بعيدة عن أفهام العامة كما هو ظاهر، فلذلك لم يلتفتوا إليها ولم تغن فيهم شيئا.

وقد تقدم لنا ذكر أمهاوش، وربما سئل عن التعريف به وعن أوليته وحقيقة أمره فيقال : إن نسبه في بربر آيت شخمان من آيت يسرى من صنهاجة فازاز، وكان جده من أتباع الشيخ أحمد بناصر الدرعي رضي الله عنه، وكان الشيخ المذكور جرى في مجلسه يوما ذكر الدجال، فقال الشيخ : لا يخرج الدجال إلا بعد ظهور دجاجيل من جملتهم ممس وركاز معناه من جملتهم أولاد هذا الرجل، فكان الأمر كذلك، لما شب محمد وناصر والد بوبكر قرأ القرآن والنحو والفقه، وحصل على حظ من علوم الشريعة، ثم تنسك ولبس الخشن من الثياب، وأكل الخشن من الأقوات، وتقشف، وظهر

له بعض الكشف في بعض الأخبار يصدق مرة ويكذب عشرة، كما هو شأن الكهان، فشاع خبره في البربر، وتهافتوا عليه أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله رضي الله عنه، ولما بلغه خبره وقيل إن كروان هم خدامه وأنصاره، فنهبهم السلطان المذكور بسببه، وفر هو لرؤوس الجبال وأخفى حاله ولم يتظاهر بشيء حتى مات السلطان فعاد إلى حاله وكان الذي زاد في طغيانه هو مولاي اليزيد، وكان اتصل به قبل ولايته، وكان يكذب عليه وآواه مدة كونه فارا من والده، فلما قدم عليه بعد ولايته أعطاه عشرة الاف ريال دورو وأعطى للخيل الذين قدموا معه مائة ألف ريال، فثبت له العز في البربر بهذا العطاء وهذا الاعتناء، ولما مات محمد وناصر أمهاوش ترك عدة أولاد أكبرهم بوبكر ومحمد والحسن وغيره، إلا أن هؤلاء المذكورين تبعوا سيرة والدهم في التدجيل والكذب، وليس عندهم ما كان عند أبيهم من الدهاء والمكر الذي يؤيد به كذبه ويروج به بهتانه، وإنما بأيديهم التشيطن والإغواء والتنفير للعامة من أتباع الحق وطاعة السلطان بمجرد الكذب.

ولما وقع ما أراد الله من كسر المحلة وانتهاب جميع الخيول والسلاح والأمتعة والفرش والأواني والأبنية والكراع من الروام والدواب، وكانوا فيما أخبر به بعضهم أزيد من خمسين ألفا من العبيد والوداية والقبائل المحشودة لما وقع ذلك ظهر للبربر أن ذلك ببركة أمهاوش لأنه كان يعدهم ويمنيهم، فطار صيته في تلك الجبال والأمم البربرية، فتفرعن وتمرد كل التفرعن وغاية التمرد إلا أن كيده قاصر على بلاده وأهل لسانه لا يتعداه، ثم بعد ذلك بزمان انطفأ أمره ولم يزل في انتقاص وخمود شأن الباطل فإنه لا قرار له ولا ثبات.

وفي عام خمسة وثلاثين ومائتين وألف في رجب خرج السلطان لتعاهد قبائل الغرب وترميم ما أثرت فيه هذه الوقعة الهائلة، فبلغ الى قصر كتامة ومنه توجه لرباط الفتح، فقدم عليه قبائل الحوز كلهم من حاحة وسوس والشياظمة وعبدة وأحمر والرحامنة وزمران والسراغنة والشاوية وبني حسن وأهل الويدان وزعير وكان عزم على المقام بالرباط الى عيد الفطر، ثم بدا له أن يذهب لمراكش يقيم العيد فيه، وذلك بإشارة ابن الجلالي ولد محمد الصغير، فلما ذكر ذلك للعبيد تعللوا ثم صرحوا بالامتناع وأضمروا السوء إن عزم على ذلك، فتغفلهم وخرج كأنه بنية الاسترواح فقصد وسط المحلة

الحوزية في قبة ابن الجلالي وترك للعبيد مضاربه وأمتعته، وسافر مع أهل الحوز، فانتهب العبيد ما وجدوه وظهر لهم من قش السلطان ورجعوا لمكناس، ثم ندموا وجعلوا يتسللون شيئا فشيئا ويلحقون بالسلطان بمراكش، ولما رجع العبيد من الرباط عاد شباب الفتنة لعنفوانه، وماجت بحور الأهوال، فلما بلغ خبر ذلك إلى جيش الوداية كان أول ما فعلوا من الفساد هو نهب اليهود الذين بأيديهم وحول ديارهم، فوزعوا جميع أموالهم وأمتعتهم وما كان تحت أيديهم من بضائع تجارات المسلمين شركائهم من أهل فاس وغيرهم وما يصنعونه للناس من كتان وحرير وذهب وفضة، فضاع في ذلك من الأموال ما لا يدرك بحساب، ولم يقتصروا على الأموال بل هتكوا المحارم، فكل من له بنت حسناء أو زوجة أخذوها لفاحشة ومنعوه منها حتى يفديها منه بمال، ومن اتهموه بالمال قبضوه وضربوه حتى يقر بدفين أو وديعة، فلما فرغوا من اليهود خرجوا لأحواز المدينة ونهبوا جميع البهائم المعدة للحرث والأنعام السائمة، ومنعوا الداخل والخارج، فقام في المدينة هول عظيم وغلقت الأسواق، وتعطلت الصنائع والأسباب، واجتمعت أعيان البلد وعينوا من يقوم بأمرهم، فقدم اللمطيون واحدا منهم وهو الحاج أحمد الحارثي، وقدم أهل العدوة واحدا منهم وهو قدور المقرف، وقدم أهل الأندلس واحدا منهم وهو عبد الرحمان بن فارس، ثم ضبطوا بلادهم ونهبوا من هو ساكن معهم من الوداية وعزموا على محاربتهم وجهادهم، ثم إن الوداية وجهوا كبارهم وعقلاءهم لأهل فاس وتبرأوا من تلك الأفعال ونسبوها للغوغاء والسفهاء والتزموا رد ما ضاع لأهل فاس خارج المدينة، فسكن الحال بعض السكون، ثم إن أهل فاس قاموا إلى قاضيهم السيد العباس بن أحمد بن التاودي(46) وسبب هذا كله هو أنه وقع بين المفتي العلامة ابن إبراهيم(47) مع القاضي مخالفة في قضية الشفشاوني والعراقي، فعزل أمير المؤمنين المفتي المذكور، فتعصب للمفتي أقوام من الطلبة المدرسين وغيرهم وكتبوا كتابا على وفق أغراضهم، وفي ضمنه قصيدة نظمها بعضهم (وأظنه شيخنا أبا عبد الله سيدي محمد بن أبي بكر

---

(46) بن التاودي بن سودة القرشي، نشأ في عز وعفاف، لا يعرف لغير العلم طريقا، ولا يتخذ من غير أهله رفيقا، في (الشرب المحتضر) لجعفر الكتاني أنه توفي 1241 هـ 1825م وفي (سلوة الأنفاس) توفي 1272هـ 1855م أما (وفيات) عبد القادر سودة فتوفي سنة 1246هـ 1830م.

(47) الدكالي المستراني محتدا بنسبة الى مشتراة قبيلة من قبائل عرب دكالة العالم العلامة، مفتي الديار المغربية، بلغ أقصى المرتبة بالفقه والنوازل، د 1241هـ 1825م (الشرب المحتضر) لجعفر الكتاني ص 12.

بن الشيخ سيدي عبد الكريم اليازغي، فإنه كان بينه وبين القاضي المذكور شنآن عظيم وهي>(48) :

يا أيها الملك الذي عدالته ... أحيت مناثرها الصديق أو عمرا
يا أيها الملك الذي مناقبه ... في غرة الدهر قد لاحت لنا قمرا
أنت الذي وضع الأشياء موضعها ... وفي العلوم الذي أحيا الذي اندثرا
أنت الذي صير الدين القويم كما ... أوصى به من سما الأملاك والبشرا
تذب عنه بأسياف وأونة ... بهمة تحكم الأحكام والسورا
ومن يرم هدمه تأخذه صاعقة ... من راحتيك فلا تبقى له أثرا
وقد شكا الدين من هضم ومن كمد ... أصابه فهو يبكي الدمع منهمرا
سطت عليه يد القاضي الذي غمرت ... أقضية الجور منه البدور والحضرا
أعفى مراسمه جورا وأبدله ... جهلا بما يذهب الألباب والفكرا
جاء الولاية وهو من شبيبته ... يرى القضا حرفة يجني بها وطرا
فلم يكن همه فيها سوى قنص ... أو رفعة تترك المسكين منكسرا
أما حقوق الورى فإنها عدم ... مجهولة جعلت منبوذة بعرا
فاستنقذن ملة المختار جدك من ... هذا الذي ما درى وردا ولا صدرا
يأتي الحكومة عباسا ومنقبضا ... مما به من سقام يجلب الكدرا
ويستبد بآراء وحيث بدت ... فتوى تبصره ألقى بها حجرا
ولا يمكن خصما قد دعاه إلى ... تسجيله ما أرى في الحكم معتبرا
ملت قلوب الورى منه وليس لهم ... إلاك يا من به الإسلام قد نصرا
فاصرفه عنهم كصرفه ضعيفهم ... وأعزله عزلا فإن الله قد أمرا
فأنت غيثهم إن أزمة أزمت ... وأنت كهفهم إن حادث ظهرا

فلما بلغ ذلك إلى السلطان علم أن ذلك أصله التعاصر والمنافسة التي لابد منها بين الأقران، جبل عليها البشر، ولا سيما عالم على مثله فلم يلق لها بالا ولم يلتفت إليها. فلما ركعت الأيام بالأعالي وارتفعت الأسافل لم يكن أهون عليهم من القاضي فافتتحوا به سوء أعمالهم، وبلغوا فيه غاية أمالهم، فهجموا عليه في مجلس الأحكام، وأخرج فيه سيدي الطاهر الكتاني(49) عمارة كابوس ولم يصبه، فنزعوه وقدموا غيره،

(48) ما بين العلامتين ساقط من (ف).
(49) لم نعثر على ترجمته.

وهو ابن عبد الرحمان الدلائي(50) ثم عزلوه وقدموا السيد العربي الزرهوني(51) وهذا كله كان في العام المذكور، وفيه أيضا في شوال ورد كتاب من حضرة السلطان أوقد نارا أخرى أعظم من الأولى وأدهى وأمر مضمنه عبارة موجهة غير صريحة في المعنى الذي فهم منها، ولا في المعنى المقصور منها، إلا أن أهل فاس أعني رؤساء فتنتهم، جعلوا ذلك الكتاب أساسا لبناء فسادهم الذي كانوا منطوين عليه منذ أزمان ولم يجدوا إليه سبيلا حتى جاء إبانه بورود هذا الكتاب، وأمر السلطان ولده مولاي علي أن يقرأ الكتان على أعيان أهل فاس بحضور الفقيه العلامة المفتي السيد محمد بن ابراهيم والفقيه الشريف سيدي محمد بن الطاهر الفيلالي(52) والتاجر الأمين الحاج الطالب بن جلول، فجمعهم مولاي علي في المسجد الذي بباب داره وقرأ عليهم الكتاب، وكان المسجد غاصا بالخاصة والعامة فجعل كل واحد يطلب أن يرى الكتاب بعينه زيادة على سماعه، فتزاحموا على مولاي علي على طلب ذلك، فقام ودخل لداره، فقال الناس : السلطان خلع نفسه عن الملك، وقال للناس : قدموا على أنفسكم من يصلح بكم، ومولاي علي كتم الكتاب، فجعلوا يصيحون في باب مولاي علي ويدقون الباب أعطنا كتاب السلطان، فخرج إليهم وقال لهم : قد قرئ الكتاب وسمعه الخاص والعام، فاذهبوا لسبيلكم، وكان لما دخل أحرق الكتاب، فوجه إليه أهل فاس الحاج الطالب بن جلول وسيدي محمد بن الطاهر يقولون له : إن هؤلاء لا يتركونك حتى تدفع لهم الكتاب، فحلف لهم أنه أحرقه، فزادت التهمة بذلك الإحراق، وقويت الشبهة واتسع مجال الأقوال، وهذا الذي فعله مولاي علي من إحراق الكتاب هو سبب الفتنة في الحقيقة، وإلا فإن ذلك الكتاب لا حجة لهم فيه على مرادهم لو بقي بعينه، لأنه ليس بصريح، ولكنه يحتمل كذا ويحتمل كذا كما هو الكلام الموجه، ومراد السلطان به هو أن ينبه أهل فاس ويهيجهم ليزدادوا في محبته والرغبة في طاعته، وقد فعل مثل ذلك في مراكش، فإنه جمع أعيانهم وأعيان الرحامنة لما صلى الجمعة ذات يوم وقال لهم : قد رأيتم ما وقع وما

(50) الدلائي، لم نقف على ترجمته.

(51) لم نقف على ترجمته.

(52) الفلالي النجار بكسر النون، المراكشي الدار، الفقيه النبيه، الأتقى، النزيه مفتي الحضرة المراكشية في وقته. لم نقف على وفاته. (الاعلام) ج 6 ص162.

جرت به الأقدار من فساد قلوب الرعية، وما ظهر من القبائل من التمادي على الغي والفساد والظلم والطغيان وقطع الطرقات على الضعفاء والمساكين، فصار القوي يأكل الضعيف ولا يخاف عقوبة الله تعالى، ومن يوم رجعنا من وقعة زيان، ونحن نراود المسلمين بكل وجه ليرجعوا للحق والطريق المستقيم، وهم لا يزيدون إلا فسادا، وقد وقع أكثر من ذلك للملوك المتقدمين فلم يضرهم شئ، ولا أثر ذلك في رعيتهم، بل تمسكوا بحبل الطاعة وقاموا مع أمرائهم بالجد والنصيحة وأعانوهم على أهل الفساد حتى أصلحوهم، وأنا قد عييت بشهادة الله لأنني لم أجد معينا على الحق، وكم مرة تحدثني نفسي أن أترك هذا الأمر وأتجرد لعبادة الله ربي حتى أموت، فقال كبراء الرحامنة ومن حضر : يا سيدنا ومولانا بارك الله في عمرك وزاد في أيامك وجعلنا فداءك نحن قدامك ووراءك، فأمرنا بما تشاء فأمرك مطاع وقولك مقبول، نقاتل الإنس والجن على من خالفك وخرج عن طاعتك كائنا من كان، فليطب سيدنا نفسا فنحن عبيد وأنت مولانا ما رأينا الخير إلا منك، ففرح السلطان بمقالهم هذا، وكان الذي تولى الكلام هو القائد الجلالي الحويزي وكان رجلا صالحا، فلما فعل السلطان هذا بمراكش ظن أن أهل فاس أولى وأحرى أن يقولوا ذلك أو أكثر لأنه فعل معهم من الخير والاحسان ما يشهد به أهل الأرض قاطبة، ولكنه غلط لأنه كان يظن أن أهل فاس هم التجار وأهل الثروة والأموال، وليس كذلك، وإنما أهل فاس قوم لا خلاق لهم ولا ظهور الا في حالة الفتنة يقال لهم الرماة، وكان السلطان لا يبالي بهم لأنه يعلم ظلمهم وفسادهم ولا يميل الا لأهل المروءة والدين، وهؤلاء الرماة لا مروءة لهم فهو يبغضهم غاية، وكانوا مصرين على بغضه كذلك، فهؤلاء هم أهل فاس الذين قيل فيهم ما نصه :

فاما ارضها فاجل ارض واما ناسها فاقل ناس

قال في البستان : وهذا دأب أهل فاس في القيام على الملوك وتجاوز الحد في العصيان إذا قاموا ووجدوا ضعفا في المملكة حتى الأدارسة الذين هم موالي نعمتهم ومؤسسو بلدتهم، قال مقيده : صدق ‹فلذلك هدم عبد المومن بن علي أسوارها وقال والله لأدعنها كبيت زانية، يوتى من كل ناحية›(53) ثم إن أهل فاس وهم الحاج محمد بن عبد الرزاق والسيد محمد

(53) ما بين العلامتين ساقط من (م).

بن سليمان وعلال العافية وقدور عامر وكل هؤلاء من العدوة الأندلسية وغيرهم من اللمطيين والقرويين لما ذكر ولد السلطان أنه أحرق الكتاب جمعوا الطلبة الذين سمعوه عند قراءته وقالوا لهم : قد سمعتموه وعلمتم ما فيه، فليكتب كل واحد منكم ما سمع، فكتب كل واحد ما ظهر له أنه سمعه، ومن امتنع من الكتابة وتحرى الصدق هددوه، فاجتمعوا تلك الليلة في محل واحد ودعوا مساعر الحرب والفتن وخلصوا من تلك الكتب ما هو مرادهم، وهو كون السلطان عجز وعزل نفسه وأمر الناس أن ينظروا لأنفسهم من يصلح بهم، هذا حقيقة ما وقع من غير شك ولا ريب.

وأما ما نسب الزياني للعلامة المفتي سيدي محمد بن إبراهيم من أنه زاد في الكتاب بالبشر والكشط فهو كذب محض، وما دخل الكتاب بيده إلا في حالة قراءته، ثم أخذه الشريف وقام ودخل داره على الصورة التي شرحنا، ثم في صبيحة تلك الليلة اتفق أهل فاس على بيعة مولاي إبراهيم بن اليزيد، وكان مولاي إبراهيم هذا نشأت له هيبة عظيمة في قلوب الناس، ولكن ما تحتها طائل ولا فائدة، وإنما سببها أنه ما جالسه قط أحداً، ولا خالطه ولا واكله أحد ولا عرف أحد ما هو عليه في داره، ولا يكلم أحد ولا يكلمه أحد غير من لابد له منه ممن يقوم بفرسه وضرورياته، ولا يراه أحد في مسجد ولا غيره إلا يوم الجمعة يركب على فرسه ويذهب لأقرب الجوامع الى داره، وهو المدرسة العنانية لأن داره بدرب ابن زيان، هذا سبب هيبته، فلما أجمعوا على بيعته ونظروا في ذلك نظرا آخر فظهر لهم أن السلطان لابد له من أمرين لا يقوم ملكه إلا بهما معا، المال والجيش، فأعادوا النظر في الليلة المقبلة فتفاوضوا في ذلك، وكان معهم الحاج الطالب وابن حمو وعزيز، فقال لهم وعزيز : أما الجيش فلا تحتاجون اليه، عندنا من الرجال والخيل ما لا يغلب، وقال لهم : الحاج الطالب المال موجود هنا، ما ينهض بالسلطان وما يقوم به بدء أمره حتى يتيسر الأمر وتأتي الفتوحات، وقال لهم : إن السلطان مولاي سليمان له مال مودع عند أقوام من التجار أدلكم عليهم، وهذه خيانة من الحاج الطالب كان السلطان يعتدها عليه، وذلك أن السلطان لما أراد التوجه في غيبته الأخيرة الى الرباط كما ذكرنا قبل هذا دعا الحاج الطالب مفردا ولم يعلم به أحد ودفع له مالا يزيد على مائتين وخمسين قنطارا كلها ذهب، وكان يخرجها تحته تقاضيا كلما خرج من عند السلطان أخرج جملة، وكان يدخل كل يوم ثلاث

مرات وأربع مرات كأنه يقضي أغراض السلطان للحركة، فلما جمع المال كله في داره وحرزه قال له السلطان : اترك عندك أنت مائة قنطار وادفع لفلان كذا، وخذ خط يده بذلك وائتني بخطه، وادفع لفلان كذا واقبض لي خطه ولفلان كذا حتى فرق مائة وخمسين قنطارا. فدلهم الحاج الطالب على أولئك التجار الذين عندهم ذلك المال، ولم يذكر ما عنده، فباتوا وقد اتسع لهم المجال وأصبحوا على البيعة في الرابع والعشرين من المحرم عام ستة وثلاثين ومائتين وألف، فبايعوا مولاي إبراهيم وشرطوا عليه أن يخرج الوداية من فاس الجديد، وشرطوا عليه أمورا أخرى وهو كلما يطلبون منه أو يشترطون عليه يهز لهم رأسه أي نعم، وما سمعوا منه من يوم بايعوه الى أن مات كلمة صحيحة، فلما بايعوه كتبوا للعبيد فلم يساعدوهم إلا أن منهم من يكره السلطان يعدهم سرا، وكذلك في الوداية، وكان مولاي العربي الدرقاوي شيخ الطائفة حاضرا في هذه البيعة مع أهل فاس، وكان ابن الغازي الزموري من خاصة أتباعه وهو رئيس البربر في ذلك الوقت، وعليه وعلى ابن حمو وعزيز بنيت هذه الأمور كلها. فوجه أهل فاس مولاي العربي للوداية يأتي ببيعتهم، وكان له أتباع فيهم، فلما ذهب إليهم قبضوه وأدخلوه للسجن وكتبوا للسلطان بذلك فأقرهم على ذلك، ثم لما لم يحصلوا من العبيد والوداية على طائل ونفدت الدراهم التي أخذوها من التجار أكلها البرابر الذين معهم من غير فائدة، فقال لهم رؤساء البرابر نخرج الى المراسي ونأخذ الأموال التي فيها ونستعين بها ونقيم أمور السلطان ونقاتل من خالفنا من قبائل أعراب الغرب، فخرجوا بمولاي إبراهيم كأنه صنم لا يتكلم ولا يزيد ولا ينقص، وابن سليمان هو المتكلم والمقدم والمؤخر، وأما ابن عبد الرازق وجماعته الذين بدأوا هذه الفتنة فإنهم قتلوا في وقعة ظهر المهراز في حرب الوداية في عشية واحدة وحزت رءوسهم ووجهت للسلطان بمراكش، فلما خرجوا من فاس ذهبوا لبلاد آيت يمور ونزلوا بالولجة الطويلة يراودون أهل الغرب ودخيسة وأولاد نصير وبني حسن، فلم يحصلوا منهم على طائل، وعزم القائد محمد بن يش على أن يبيتهم ويشتت جمعهم، فأعلمهم محمد بن قاسم اللوشي بذلك وكان فاسدا من شيعتهم، وأمرهم بقطع الوادي الى ناحية في بلاد سفيان، وتركوا ابن يش وراءهم وذهبوا في خفارة اللوشي، وجازوا على القصر وكتبوا لأهل العرائش فأجابوهم بالمنع

والرد، وكذلك أهل طنجة إلا أن قاضيها السيد أحمد الفلوس(54) أجابهم بالقبول سرا واستدعاهم وهون عليهم دخولها إذا قدموا اليها، فلما تحقق عاملها العربي السعيدي وأعيانها ما فعل القاضي أخرجوه وطردوه وولوا موضعه الفقيه السيد خالد(55) فلم يقبلهم إلا أهل تطوان فذهبوا إليها وأخذوا ما في خزائن السلطان من مال المرسى ومن السلاح والملف والكتان، وفرقوا ذلك على البرابر، وعكفوا هنالك على الخمور والفساد، واستغووا قبائل الأخماس وغمارة الحوز بالطمع.

وأما السلطان فإنه لما بلغه الخبر بما فعله أهل فاس خرج من مراكش وكان قد تلاحق به العبيد أهل الحناطي كلهم وكل من كان معروفا مشهورا، وخاف على نفسه حتى اجتمعوا بمراكش كأنهم ماهرب منهم أحد، وكان خروجهم من مراكش في رجب من العام المذكور، فبادر ليعارض أهل فاس دون المراسي، فوجدهم قد سبقوا ووصلوا لتطوان على الحالة التي شرحنا، فلما بلغ الى القصر كتب لطائفة من عبيد مكناس بالقدوم عليه، ولطائفة من الوداية كذلك، وكتب لولده مولاي الطيب بفاس الجديد أن يوجهني إليه، وكنت أنا إذ ذاك بفاس البالي، فكتب إلى مولاي الطيب ووجه لي خط السلطان بيده، ووجه ذلك مع من يصعد على السور ليلا فأصبح عندنا ودفع لي الكتاب، فأقمت أدبر كيف يكون خروجي ووصولي إليه مع الحصار وفساد الطرقات، وليس عندي مركوب، ثم إن بعض من رأى عندي كتاب السلطان من الإخوان أخبر بذلك فشاع حتى بلغ قائد العدوة قدور المقرف فقبضني وطلب مني الكتاب فأنكرت ذلك وكان أمرهم قد تراخى قليلا لما سمعوا بخروج السلطان من مراكش، وكان لنا جملة من الإخوان ممن لهم العزوة العصبية، فاجتمعوا وذهبوا للمقرف في تلك الليلة فقالوا له : سرح فلانا فقال لهم إلى الصباح، فقالوا : إن لم تسرحه الآن سرحناه بغير أمرك، فلما أبصر الجد منهم سرحني، وكان من جملة اخواننا المذكورين الفقيه سيدي الطيب بن عمرو الداودي المتيوى(56) فقال لي : هذا ولد عمي السيد عبد الله بن عبد الملك خارج غداً للقبيلة فاخرج معه، فإن عنده ما تركب عليه ويكون طريقك على الجبل من قبيلة إلى قبيلة في ظلال

---

(54) لم نعثر على ترجمته

(55) مجهول الترجمة

(56) المتيوى : لم نقف على ترجمته

الأمن والأمان، وأكتب لك لزوج أختي الفقيه العلامة الشيخ البركة سيدي علي بن التهامي الحمومي[57] بقبيلة بني زروال، يوجه معك من يوصلك إلى السلطان أين ما كان، فخرجنا بكرة الغد على بلاد الحياينة، فلما بلغنا الشيخ البركة سيدي علي بن التهامي فرح وبنا غاية الفرح وأكرمنا غاية الإكرام، وكان عزم على التوجه معنا لملاقاة السلطان، ثم عرض ما منعه من ذلك فأقمنا عنده ثلاثة أيام، ووجه معنا أخاه السيد عبد القادر وكتب لخدامه أولاد جامع أن يوجهوا معي عشرة من الخيل، وقال لأخيه يعطيني البغلة التي عنده أركب عليها لأنها حسنة السير ويرجع هو على التي ركبت عليها وكلتاهما للشيخ المذكور، فلما بلغنا أولاد جامع ركب معي الخيل وذهبنا حتى وافينا السلطان برصانة على مرحلة من القصر، وكان أراد التوجه ليربط على تطوان، فلما جلست بين يديه وهو يسألني عن الأمور المتقدمة شيئا فشيئا، وكنت أنا بفاس حاضرا لجميع ذلك من أوله الى آخره، فشرحت ذلك كله على حقيقته، فوجدته كان يعتقد أن أهل فاس وأهل العصبية فيهم هم أصحاب الأموال والأصول والتجار، مع أنه ليس كذلك، وإنما أهل فاس وأهل العصبية منهم قوم يقال لهم الرماة لا يظهرون الا في وقت السيبة والفتنة، وأما في وقت الأحكام فانهم خامدون لا بال لهم، فإذا كان وقت ظهورهم كان أهل الأموال والأصول تحت ذمتهمالإكرام،

وكان عزم على التوجه معنا لملاقاة السلطان، ثم عرض ما منعه من ذلك فأقمنا عنده ثلاثة أيام، ووجه معنا أخاه السيد عبد القادر وكتب لخدامه أولاد جامع أن يوجهوا معي عشرة من الخيل، وقال لأخيه يعطيني البغلة التي عنده أركب عليها لأنها حسنة السير ويرجع هو على التي ركبت عليها وكلتاهما للشيخ المذكور، فلما بلغنا أولاد جامع ركب معي الخيل وذهبنا حتى وافينا السلطان برصانة على مرحلة من القصر، وكان أراد التوجه ليربط على تطوان، فلما جلست بين يديه وهو يسألني عن الأمور المتقدمة شيئا فشيئا، وكنت أنا بفاس حاضرا لجميع ذلك من أوله الى آخره، فشرحت ذلك كله على حقيقته، فوجدته كان يعتقد أن أهل فاس وأهل العصبية فيهم هم أصحاب الأموال والأصول والتجار، مع أنه ليس كذلك، وإنما أهل فاس وأهل العصبية منهم قوم يقال لهم الرماة لا يظهرون الا في

(57) الحمومي : الشريف الفقيه الزكي الفاضل، المدعر علال ، العالم الأوحد البركة الأرشد ت 1259هـ 1843م، ودفن بزاويته التي بحومة لبليدة بفاس. (السلوة) ج 1 ص 177. (وفيات) ابن سودة ص 74.

وقت السيبة والفتنة، وأما في وقت الأحكام فانهم خامدون لا بال لهم، فإذا كان وقت ظهورهم كان أهل الأموال والأصول تحت ذمتهم وتصرفهم يفعلون فيهم ما أرادوا، فبينما أنا بين يدى السلطان على تلك الحالة إذ جاء صاحب المشور بكتاب ووضعه بين يديه وقال له : جاء به رقاص من عامل طنجة العربي السعدي ففتحه ودفعه الي أقرؤه عليه، فقرأته فإذا هو يقول له : إنه ورد علينا الخبر اليقين من تطوان أن أميرهم مولاي إبراهيم قد مات وبايعوا أخاه مولاي السعيد، فقلت له الحمد لله الذي كفى سيدنا شره، فقمت ووجهني للنزول عند الباشا الحاج محمد بن عبد الصادق، فركبت المحلة للعب البارود فرحا وسرورا بموت مولاي إبراهيم، فتواردت الأخبار بذلك من كل ناحية، وفي الغد رحل السلطان راجعا للقصر، ومنه توجه لفاس، فكتب لولده مولاي الطيب ولقواد الوداية وكانوا إذ ذاك ثلاثة، وأعطاني بغلة القاضي الفلوس المتقدم الذكر، وكتب كتبا أخرى بخط يده وطبعها ودفعها لي، وقال : هذه الكتب أتركها عندك ولاتدفعها لمولاي الطيب، فإذا دفعت له كتبه وكتب الدار وكتب الوداية فلا تبت في فاس الجديد إلا ليلة واحدة، وفي الغد يوجه معك القائد عياد من يذهب معك حتى تأتي من جهة المطا لباب الجيسة، وادخل لفاس البالي وادفع هذه المكاتب للحاج أحمد الحارثي، وللطيب البياز فإنهما عاقلان، وإذا علموا بقدومي ورأوا خطي وتحققوا فإنهم يرجعون للحق بلاشك، فأخذت المكاتب وكنت أريد أن أقول له إن هذا لا يمكن ولاينفع شيئا، ثم ظهر لي أن الصواب هو عدم الرد عليه، ثم ذهبت مع عشرة من خيل الوداية فلما وردنا على مولاي الطيب فرح وفرح أهل دار السلطان لما قرأ عليهم مكاتب الفتح وموت العدو، فأمر الوداية بالركوب واللعب وإخراج المدافع ليسمع أهل البالي، فبت تلك الليلة فلما أصبحت ذهبت لعياد وأخبرته بما أمرني به السلطان ليوجه من يذهب معي على الجهة المذكورة، ووجدت القواد الثلاثة عنده، فقالوا كلهم هذا حمق لا يمكن، ونحن نكتب للسلطان ونعلمه بحقيقة الحال، فكتبوا له وكتب مولاي الطيب، فرجعت الى السلطان وصحبت معي ولده مولاي إدريس كان كتب له السلطان أن يلقاه في الطريق، فذهبنا ووجدناه نازلا بعين الجعبة ببلاد شراقة، فلما دخلت عليه وأخبرته بالواقع وما منعني من الدخول لفاس ودفعت له كتب القواد وعياد ومولاي الطيب لم يعجبه ذلك غاية حتى ظهر الغضب في وجهه، فقال لي : أين الكتب

التي دفعت لك فدفعتها له فدعا في الحين الباشا ابن عبد الصادق ودفع له تلك الكتب بعينها، وقال له : اركب الآن واصحب معك الطاهر بن معمر، وكمال عشرة من أمثاله من كبار عبيد البخارى، فتصبحون بباب الجيسة، فإذا دخلتم فادفعوا لهم الكتب، فيخرج معكم أعيانهم وأشرافهم للقائنا في الطريق، فذهبوا ولم يمكنهم المرور على باب الجيسة، فذهبوا على فاس الجديد ولم يدخلوها، فلما بلغوا قصبة شراقة وأرادوا التوجه على طريق الخميس لناحية البستيون ردهم الوداية وحذروهم، فقال لهم ابن عبد الصادق لابد لي من الدخول ولو قطعوا رأسي، وبنفس دخولهم لفاس البالي جردوهم من الخيل والسلاح ورموهم في السجن وجعلوا يخرجون المدافع على الأسوار، فلما بلغ السلطان وادي العرائش ونزل الراضة، وردت خيل الوداية وأخبروا أن أهل فاس قبضوا ابن عبد الصادق وأصحابه، فحينئذ تحقق السلطان جميع ما كنا أخبرناه به ورجع عما كان يعتقده وعول على الجد.

وورد الخبر أيضا أن مولاي السعيد سلطان أهل فاس وأهل تطوان يبيت تلك الليلة بقنطرة سبو وكان معه جميع البرابر الذين خرجوا به، فكان وصوله مع السلطان في يوم واحد، فلما دخل السلطان لدار الملك أمر الوداية والمحلة أن يبيتوا راكبين مع مولاي الطيب ولا يصلوا الصبح إلى دار ابن عمرو فيضربوا محلة البرابر وأهل فاس وهم غارون، لأنهم لما بلغوا ذلك المحل أمنوا وخرجت إليهم عشائرهم وإخوانهم بالأطعمة والهدايا وباتوا في فرح وسرور لأنهم تعبوا في مرورهم على الجبل غاية التعب، وكانوا يبادرون بلوغ السلطان لئلا يسبقهم لفاس، فلما علفت خيل المحلة والوداية خرجوا وباتوا على ظهور الخيل، فلما صلوا الصبح في الغلس هبطوا إلى القنطرة فلم تشعر محلة البرابر إلا والرصاص يصب عليهم صب المطر الغزير، فتركوا المضارب والأمتعة والأثقال التي حصلوها بتطوان وهربوا، وتركوا أهل فاس باليد، ففروا في الأجنة التي هنالك، وشغل المحلة كثرة الكتان والملف والسكر غير ذلك، فأفلت مولاي السعيد وبطانته السيئة وقتل من البرابر وأهل فاس خلق كثير، وقتل عنيقد طبجي تطواني لا نظير له في زمانه، أتى به أهل فاس ليهدموا فاس الجديد، فتركوا

المدافع والآلات والبارود ونجا من بقى حيا بنفسه، وكان في تلك الصبيحة ضبابة عوراء مع دخان البارود فلا يبصر الإنسان يده منها، ولولا ذلك ما أفلت أحد. فرجعت المحلة سالمة ما جرح فيها أحد، وربحت الناس بكثرة النهب والذخائر النفيسة، وقبضوا من الأحياء شيئا كثيرا، ولكن كان أكثرهم من المتفرجين الذين خرجوا من فاس لملاقاة أحبابهم، فأمر السلطان بإطلاق المتفرجين الذين يتيقن أنهم لادخل لهم في الفتنة ولا غرض لهم في شيء من ذلك، ثم إن الوداية طلبوا من السلطان أن يرمي البمب على أهل فاس فامتنع من ذلك كل الامتناع، وقال لهم : لو كانت البمبة التي نرميها تذهب بالقصد حتى تنزل بدار ابن سليمان أو البياز أو غيرهما من رؤساء الفساد، لكنا نرميها ولكن إنما تقع غالبا في دار مسكين أو هجالة أو يتيم أو طالب ضعيف حبسته القدرة معهم فألحوا عليه في الطلب ولج هو في الإباء والامتناع.

ثم إن أهل فاس بدأوا بالرمي وكانوا يقصدون بذلك دار السلطان، فوقعت واحدة في الموضع الذي يجلس فيه للقراءة، ووقعت واحدة في المدرسة التي في باب دار المخزن، وكان الطبجية نازلين بها وهم من أهل الرباط وسلا، وقتلت منهم أربعة منهم المعلم الأكبر محمد فنيش، فحينئذ أمر السلطان أن يوتى بالمهاريز الكبار من فرمة 80 وفرمة 100 من طنجة، فجاءت ونصبها عليهم فكان البمب يختلف في الهواء ليلا {بعضه من فاس القديم وبعضه من الجديد}(58) فاستمر الحصار على أهل فاس فلا يدخل أحد إليهم ولا يخرج إلا على خطر وغرر، ثم خرج السلطان وتوجه لناحية السواحل وترك الوداية على الحصار على فاس، فاستقر بطنجة مدة وهو يباشر أهل تطوان بكل ما يمكن، فلا يزدادون إلا عتوا ونفورا، فوجه محلة مع الصريدي ونزلوا بأبي صفيحة محاصرين لها، وقطعوا عنهم المداد، فما أفاد فيهم ذلك شيئا، فرجعت المحلة ونزلت بالزنات قرب طنجة، فلما انصرم الشتاء وجه السلطان لولد أخيه الذي هو طالع السعود مولانا عبد الرحمان بن هشام، وكان خليفة بالصويرة، فأمره بالقدوم عليه مع قبائل الحوز، فلما بلغوا الرباط ولم يجدوا السلطان ثقلت عليهم الزيادة على الرباط والقطع إلى الغرب، لأن السلطان إنما قال لهم يلقوه بالرباط، فكتب

(58) مابين المعقوفين اضافة من (م).

مولانا عبد الرحمان يعلم السلطان بقدوم الناس كلهم معه، وبأنهم لم يريدوا القطع الى الغرب، فوجهني السلطان بالمال أفرقه على المحلة خمسين أوقية للفارس، وقال لي : إذا بلغت سلا فانزل هناك عند بوجميعة ولا تقطع للرباط، واكتب لمولاي عبد الرحمان يقطع إليك بالمحلة ليقبضوا المال، فإذا قطعوا وقبضوا المال أقرأ عليهم هذا الكتاب، مضمنه أنه يأمرهم بالقدوم عليه للقصر يقبضون الكسوة التي جاءت من طنجة، فإذا قبضوها ذهب معهم السلطان للحوز، فلما خرجت من عنده [مودعا](59) قال لي : أتعرف مولاي عبد الرحمان ؟ قلت لا، قال هو : أفضل بيتنا أولاد مولاي عبد الله، وليس هو كمن تعرف من أولادنا وإخواننا، يصوم الخميس والاثنين، ويلبس الخشن من الثياب ولا يبالي، ومن الدليل على خيره أنني وجهته مع أولادي مولاي علي ومولاي عمر للحج فلم يخالطهم ولم يواكلهم ولم يجالسهم إلا إذا أجبروه على ذلك، فيجلس هنيأة ثم يذهب، لأن حاله ليس كحالهم ومذهبه ليس كمذهبهم، فلما حجوا ورجعوا رد إلي الداراهم التي أعطيته ليحج بها، وقال لي : يا سيدي إنما كنت أخذتها لأنفق منها إذا نفذ ما عندي، ثم إن ما عندي لم ينفد حتى رجعنا، وكانت لي بضاعة كنت جمعتها بقصد الحج، فلم أرد أن أخلطها بغيرها إذا حصلت الكفاية بها، وقد حصلت الكفاية بها، وقد حصلت بحمد الله من بركة سيدي، فقلت له : خذهابركة على بركة أصلحك الله ورضي عنك، فلما بلغنا للقصر وجدنا السلطان مازال بطنجة، فتركت المحلة هناك وذهبت لطنجة، فلما دخلت عليه وسأل عن المحلة ومن أتى من العمال ومن تخلف، وكم عدد كل قبيلة فأخبرته بجميع ذلك، ثم قال : وهل رأيت ما أخبرتك به من أوصاف الخير من مولاي عبد الرحمان وقد صحبته هذه المسافة وهذه المدة، فقلت له : والله ياسيدي إنه لأكثر مما تعلم وفوق ما تظن، فخرج السلطان من طنجة متوجها للعرائش ومر على أصيلة، وكان يريد الذهاب الى القصر بلا مرور بالعرائش، فلما بات بحد الغربية وجه ولي الله سيدي محمد بن مرزوق في نصف الليل قاضي أصيلة السيد مجاهد(60) مع أناس من أهل أصيلة، وقالوا : إن السيد وجهنا للسلطان ويأمره أن يكون مروره عليه، ويكون مبيته عنده، غدا، فأخبرنا السلطان بذلك فأمر المحلة بالمرور بأصيلة الى

(59) ما بين المعقوفين اضافة من (م).

(60) لم نقف على ترجمته.

العرائش ‹وتركت كيفية ملاقاة السلطان للشيخ سيدي محمد بن مرزوق رضي الله عنه وما خاطبه به لأن ذلك يطول بنا، وهو من أحوال المجاذيب التي لا تنضبط بحال، وذلك الشيخ وقع الإطباق على ولايته، ولا يقدر أحد أن يشك فيها كما لا يشك في الشمس وقت الظهيرة›(61) وكتب السلطان لمولانا عبد الرحمان أن تتنقل المحلة من القصر إلى العرائش وهنالك لقيه وفرح به ودعا له بكل خير عند ملاقاته على رؤوس الأشهاد، فلما دخل السلطان بعد الملاقاة وصلينا صلاة العصر خرج لمحل جلوسه ودعاني فوجدت بيده ورقة مكتوبة بخطه بخط غليظ ونصه :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد، فإن الإمام الذي يصلح أن يكون مالكا لأمور المسلمين وخليفة عن رب العالمين من شروطه المحافظة على الصلوات في أوقاتها في الجماعة، ومن شروطه أن يجتنب المحرمات الموبقات من سفك الدماء وشرب الخمور وفعل الزنا، ومن شروطه أن يحمي حرمات الله وحرمات المسلمين ويعظم ما عظم الله، ويرحم الضعفاء ويصل ما أمر الله بوصله، ويقطع ما أمر الله بقطعه ومن شروطه ألا يتعامى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد إن قدر عليه، ثم باللسان، ثم بالقلب، وذلك أضعف الإيمان، وهذه الشروط كلها قد اجتمعت والحمد لله في ولد أخينا مولاي عبد الرحمان بن هشام فأشهد الله أنه أهل لها، وهي أهل له، أقول الحق ولا أبالي، كتبه عبد ربه سليمان بن محمد غفر الله له والسلام.

فدفعه لي وقال : اقرأه فقرأته عليه فأخذه من يدي وطواه طيا وثيقا وقال لي غلفه مليحا ولككه واتركه عندك واحتفظ عليه حتى أسأل عنه، ثم دعا العمال الذين قدموا من الحوز منهم السيد عبد الملك أبيه، والقائد علال بن محمد الشياظمي، والسيد محمد بن الغنيمي خليفة الحاج حمان العبدي مع ولده فضول صغيرا وابن المزوار الدكالي، والحاج العربي الرقيبة، وابن حديدة البوعزيزي، والقائد المعطي الحمري، والصديق العمراني، ولم يكن فيهم أحد من الرحامنة إلا الحاج المعطي ولد السيد محمد الحاج، ولا من الصراغنة ولا من الشاوية، فلما اجتمعوا خرج وجلس على الاسطرمية فدعا السيد عبد الملك وأجلسه الى جنبه وكان بعيدا منه، ثم دعا لهم دعوات

61) ما بين العلامتين ساقط من (ل).

متعددة بالخير وقال لهم : إنكم تعبتم في سبيل الله ونحن أتعب منكم، ونسأل الله تعالى ألا يضيع أجرنا ولا أجركم، واعلموا أنكم في طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكم المزية التامة وقد وجب علينا الإحسان التام إليكم، وقد ظهر لنا أنكم لما بلغتم إلى هذا المحل أنه لا ينبغي لكم أن ترجعوا إلا بزيارة مولاي إدريس، وكنت أردت توجيهكم من هنا ولكن أنا لا يمكن أن أرجع إلا بعد أن يحكم الله ما يحكم في هؤلاء الظلمة الخارجين عن الحق، وأنتم إذا رجعتم بغير سلطان لا يليق بكم ولا بقبائلكم الذين ترجعون إليهم، فاصبروا قليلا وتمموا عملكم وتذهبون إن شاء الله بسلطانكم فرحين مسرورين فائزين برضى الله تعالى، فقالوا جميعا : سمعنا وأطعنا والله ياسيدي لا نفارقك حتى نرجع بك ولو مكثنا عشر سنين(62) انتهى.

وبعد هذا وجه السلطان مائتين من الخيل مفروضة من الحوزية ومن عبيد البخاري مع قائد خيل العسكر البخاري، وهو الحاج إبراهيم بن رزوق، وأمرهم بالتوجه لتطوان يقيمون بمرتيل ولا يتركونهم يصلون الى المرسى فتوجهوا ورحل السلطان الى سيدي عيسى بن الحسن بالأربعاء في وسط بلاد سفيان، فأقام هناك مدة، وفيها ورد الخبر أن العربي بن يوسف قائد تطوان كاد الخيل التي مع الحاج ابراهيم حتى أدخلهم للبلد، فقبض على جميعهم ونزع منهم الخيل والسلاح ورماهم في السجن(*) وأعطى خيلهم وسلاحهم لأعوانه، وكان رجلا حازما داهية مع أنه مسلما ني أبوه يوسف هو الذي أسلم فيما أظن فلما ورد ذلك الخبر وكان السلطان قد ألم به مرض خفيف كان يخرج معه متجلدا، وفي ذلك اليوم كان شرب مسهلا تهيبت فلم أقدر على إعلامه بذلك الخبر السوء على تلك الحال من المرض والإسهال، وقائد المشور لا يدخل عليه في محله، وكنت أنا هو الذي أدخل فذهبت إلى سيدنا ومولانا عبد الرحمان وذكرت له ذلك فتهيب هو أيضا ذلك فلم أزل أقبل رجليه ويديه حتى أتى، فأعلمت السلطان بحضوره وأنه أراد الدخول، فأذن له ودخل وأخبره بذلك، ولعله أخبره أنني لم أرد إعلامه، فلما خرج مولانا عبد الرحمان دعاني السلطان فلامني كثيرا ووبخني غاية وقال : لا تعد لمثل هذا، وكل ما يرد لبابي بلغه الي كيف ما كان ليلا أو نهارا ولا

(62) في (م) : عشرين سنة.

(*) وعلق المؤلف على هذه الخيانة الصادرة من قائد تطوان فقال : قلت صدق الله العظيم، (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) الآية.

عليك، فأثر فيه ذلك الخبر جدا، وزاد مابه من المرض، فبقي كذلك نحو العشرة أيام وهو يتجلد ويخرج في وقت خروجه ويصلي جالسا ويقرأ ورده من القرآن دائما، ثم أصبح ذات يوم في غاية الفرح والسرور والنشاط، وظهر في وجهه وزال أثر ذلك الكدر والمرض حتى كأنه ما مرض، فقال لي أنا وسيدي محمد بن عبد الجليل التهامي الوزاني، لقد حصلت لي مشقة عظيمة في هذه المرضة لا يعلم قدرها إلا الله، ولما ورد هذا الخبر الشنيع انحلت قواي، ألم تفهموا ذلك من حالي ؟ فقلنا والله ياسيدي لقد حصل لنا أكثر مما حصل لك ما رأينا من ضعف حالك، والحمد لله الذي من عليك بعافيتك وذهاب ما نزل بك، فقال : والله لقد هممت أن أترك هذا الأمر وأذهب هائما على وجهي، وقلت لما ورد خبر تلك الخيل إن الله تعالى لم يرد إصلاح خلقه، فما بالي أنا أعاند القدر ؟ فبقيت أتردد في ذلك فعلا وتركا، حتى كان في هذه الليلة المباركة رأيت رؤيا أزالت ما كان حصل لي لا من الألم ولا من الكدر، وهي أنني رأيت نفسي دخلت لفاس لزيارة مولاي إدريس على الحالة التي كنت أزوره فيها، فدخلت من الباب الذي من جهة العطارين من الجادلية، فلما دخلت رجعت عن يميني لباب الصومعة، فصعدت إلى أعلاها فأذنت بصوت عال وأنا أتلفت حالة الاذان يمينا وشمالا وأماما وخلفا، لأسمع الناس من جميع الجهات، فلما أكملت الأذان نزلت ووقفت بباب الصومعة أريد التوجه الى القبة لزيارة الضريح الشريف، فجاءني إنسان جميل الصورة وقال لي : قف هنا قليلا حتى يأتيك مولاي إدريس، فإنه خارج من قبته للقائك، فرأيت مولاي إدريس خارجا من القبة وبيده سكين في غمدها وحمالتها، وبنفس مارمى رجله من عتبة القبة وصل إلي في خطوة واحدة، فجعلت أريد أن أنحني لتقبيل رجليه فيمنعني وهو مشغول بتقليدي بذلك السكين، فقلدنيها من فوق السلهام وقال لي : الله معك، فانتبهت وما فرحت بشيء كفرحي بقوله : الله معك، انتهت الرؤيا.

قال ممليه عفا الله عنه ولطف به ومحل التعجب الدال على صدق رؤياه أنه يوم فتحت فاس ودخل لزيارة مولانا إدريس فعل مثل ما رأى فصعد للمنار قبل الدخول للقبة وأذن ولكن سرا، ثم نزل ووجد في باب المنار رجلا من أولاد البقال يقال له الحاج المختار [يعتقده الناس كثيرا

ويذكرون عنه كرامات)(63) وبيده سكين قصيرة في غمدها وعلاقتها فقلده بها من فوق حوائجه فتركها كذلك، فجعل ينظر إلي ويتبسم يشير إلى تصديق الرؤيا. فلما صعد لدار الملك بفاس الجديد وجلس على الشلية في محل جلوسه دعا سيدي محمد بن عبد الجليل وأنا واقف فقال : سبحان الله انظروا إلى هذا الاتفاق العجيب وسر الله تعالى وعنايته بهذا الولي الكبير مولانا إدريس، وهذا الرجل الذي أتى بهذا السكين في ذلك المحل لا شك أنه من الأولياء كما يعتقده الناس فيه، فقلت والله ياسيدي إنك لأنت الولي الأكبر، والسناية في هذا كله إنما هي بك، وقد ذكرنا هذه الحكاية قبل محلها لأن لها تعلقا بالرؤيا، وهي من تمامها في الحقيقة.

ثم نهض السلطان من سيدي عيسى بن الحسن وتوجه لناحية تازا، فلما نزل بالكور في بلاد الحياينة اجتمع الحياينة وغياثة ومكناسة وأهل تلك النواحي، وكانوا قد دخلوا في شيعة أهل فاس وبايعوا مولاي إبراهيم بن اليزيد ولأخيه بعده، وضربوا علينا ليلا والمحلة غارة، فأحاطوا بالملحة ونضحوها بالرصاص، فأمر السلطان الناس بالترجل ولا يركب أحد، وخرج هو بنفسه ووقف مع الناس والرصاص يصوت في الهواء ويخترق بين الناس والدواب والخيل، فسلم الله تعالى فلم يمت أحد من المحلة ولا من خيلهم ولا من دوابهم، فكان ذلك من الآيات الظاهرة والألطاف الباهرة التي لا تجحد، فلم يبق ذلك الا مقدار نصف ساعة فرجعوا خائبين وأصبحت القتلى منهم في أطراف المحلة مصرعة، ثم رحل السلطان لتازا وكان فيها ولده مولاي الطيب خليفة مع خاله الشيخ جلون(64) ولد عبد الله بن الخضر، فوردت تلك القبائل من أعراب المعقل وأعراب الصحراء وأهل الريف، يزدحمون على رؤية السلطان ويتعجبون ويقولون والله إنه هو مولاي سليمان، وذلك لأن أهل فاس وشيعتهم كانوا يكتبون للقبائل ويقولون لهم : إن السلطان قد مات، وإنما الوداية يكذبون ويقولون إنه حي، ورجع السلطان لفاس ونزل قنطرة سبو وذلك في رجب من عام سبعة وثلاثين ومائتين وألف، وكان أهل فاس قد أضر بهم الحصار، وتراكم الشدائد السود وسئموا من تلك الدولة النحيسة، ففتحوا باب الفتوح وخرجوا بالصبيان والأشراف والمصاحف

---

(63) ما بين المعقوفين زيادة من (ف).

(64) كذا بالأصل وفي (م) و (ف) جلول باللام.

وتهافتوا على السلطان في محلته فعفا عنهم، وكان يقول لكل من أتاه منهم : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، وجاء مولاي السعيد في خفارة مولانا عبد الرحمان بن هشام ومعه الحاج الطالب بن جلون، وتفصيل هذا الخبر يطول بنا جدا، فدخل السلطان لمولاي إدريس وزار على الصفة التي تقدمت، ووجد الشيخ سيدي الحاج العربي الوزاني بالضريح الإدريسي مستحرما، وكانت القدرة الالهية قد أقامته معهم تلك المدة كلها فلم يعاتبه السلطان إلا عتابا خفيفا، ثم وجهني السلطان أن آتيه بخيل بني حسن صحبة عاملهم القائد محمد بن العامري وخيل أهل الغرب سفيان وابن مالك صحبة عمالهم السيد محمد المعتوكي، وقاسم بن الخضر، والحاج محمد بن الفاسي، وعلي بن عيسى، فذهبت فوجدت الناس متهيئين للقدوم علي السلطان فرحين بفتح فاس وانطفاء نار أولاد مولاي اليزيد، فجاءت الخيل زيادة علي الفرض بأضعاف مضاعفة فلقينا السلطان بالحجر الواقف بين سبو وورغة، وكانت أيام المد والحمل، فأقامت المحلة هنالك نحو الثمانية الأيام في انتظار نقصان الويدان وإمكان العدو، وفي ذلك المحل ورد على السلطان أولاد مولاي العربي الدرقاوي في صبية صغار يشفعون في أبيهم ليسرحه السلطان، فأحسن إليهم السلطان وكساهم وقال لهم : والله ما قبضته ولا أمرت بقبضه، ولو كنت قبضته لسرحته، ولكن اتركوه فيسرحه الله الذي قبضه، فكان الأمر كذلك، بقي في السجن حتى مات السلطان وبويع مولانا عبد الرحمان فسرحه في الحين، وبتسريحه افتتح ولايته، ثم عدت المحلة بمشقة عظيمة، فلما نزل السلطان قرب مسعيدة قدم عليه أهل تطوان مع قائدهم العربي بن يوسف، وكان الناس يظنون أنه يمثل به ويشرد به من خلفه، فلم ير منه إلا البر، لأنه سكت عن جميع ما وقع في تلك الفتنة ولم يعاقب أحدا بعد فتح فاس، نعم أمر العربي بن يوسف أن يذهب ويسلم على مولاي السعيد سلطانه ويسأله عن حاله، لأن السلطان صحبه معه في المحلة، ثم توجه السلطان للرباط ومنه لمراكش، فدخل مراكش في رمضان من العام المذكور، وبعد عيد الفطر شرع السلطان في تجهيز الحركة لقبيلة زرارة والشبانات بإشارة قاسم الرحماني الذي تعجب في نفسه ورأى أنه لا يقاومه أحد كما تعجب ابن الجلالي قبله، فأخذهم الله في مدة قريبة، فحشد قاسم جميع حلل الرحامنة أمثال الجراد المنتشر، فصادمتها قبائل أهل سوس، فقتل قاسم لأول وهلة وانهزمت تلك الحلل وولت على أدبارها،

وكان السلطان قد خرج في حراك أهل الغرب ومن معه من العبيد، ولما فرت الرحامنة خالط الرعب والفشل من بقي، وكان من أمرا لله تعالى وتجلي عظمته وكبريائه ما يذهل العقول، ولا يفي بشرحه المقول، ولولا خوف السآمة لأوسعتها شرحا، وإن كنت لم أحضرها لأنني قبل خروج السلطان إليها بثلاثة أيام وجهني لسوس لما كثرت الشكايات بعامله وهو مولاي بنصر بن عبد الرحمان ولد أخي السلطان، وقال لي : اصحبه معك إن أراد المجيء طوعاً، وإن تعلل فاقبضه، وكتب له كتابا يأمره بالمجيء لملاقاة السلطان ويرجع لعمله، ودفع لي كتابين أبيضين مطبوعين، وقال اكتب فيهما ما توقف عليه الحال، فلما بلغت ردانة أقمت للاستراحة وتربصت في الأمر أتأمل وأسأل عن حالة الناس من أهل المدينة والبادية، فلم يفجأنا إلا ورود خبر الهزيمة على السلطان بالروايات المختلفة، فمن الناس من يقول إن السلطان مات وقتل، ومنهم من يقول إنه لا بأس عليه، فوجهنا رسلا متعددة يأتوننا بتحقيق الأمر، وكتبنا للسلطان، وحمدنا الله تعالى على التأني وعدم العجلة بما جئنا لأجله، فرجعت الرسل بحقيقة الحال وشرح الوقيعة من أولها إلى آخرها، وكتب لنا السلطان كتابا بخط الكاتب مطبوعا وكتاباً بخط يده تحقيقا لسلامته، غير أنه ما شرح شيئا من الواقع، وإنما قال إن هذه الحركة ما وقعت إلا لإهلاك الظلمة المتلبسين علينا المظهرين للمحبة، وهم في الباطن أعدى الاعادي مثل قاسم وفلان وفلان، وأما أولاد بوستة فقد قتل زرارة عمر على رائحة الرحامنة، وقتل الرحامنة محمد على رائحة أهل سوس، والشريف سيدي محمد بن عبد الجليل أصابته رصاصة رعاية(65) رحمة الله عليه، والحاصل هان علينا كسر الخابية بموت الفار، وقد أحسنت في التربص فاترك الأمر على طيته واصحب معك أشياخ سوس وعدهم منا بالإحسان ومساعدتهم على ما يطلبون والسلام، [قال كاتبه ومقيده : سبحان الله ! مازلنا نتوقع هذه الوقعة ونتخوفها كلما دخلنا قبيلة من القبائل، وذلك أن وليا من أولياء الله تعالى من مجاذيب أهل فاس يقال له سيدي أحمد الغواني رضي الله عنه كان خرج مع الناس مرجعهم من تطوان مع سلطانهم مولاي السعيد، فقبض الوداية ذلك الولي المذكور وجعلوا له حبلا في عنقه وأتوابه حافيا

(65) كذا بالأصل ومثله في (م) أما (ف) فقد سقطت منها الكلمة.

من جملة المقبوضين، وتعب بذلك غاية التعب، وكان مسنا أظنه جاوز الثمانين في ذلك الوقت، فلما أتوا به عرفناه، فخلصناه منهم بعد المشقة لأنه قال لهم أعطيكم مالا كثيرا، فذكرنا حاله للسلطان فأحسن اليه بما يناسب حاله، فلم نزل نتعطفه للسلطان ونبرئه مما وقع فيه، ونعتذر عنه بعدم العلم، وننسب ذلك لمن أتى به، فتارة يرضى، وتارة يغضب، وآخر الأمر أنه قال : والله ما يخصه من كسرة أخرى مثل كسرة زيان، انتهى. فلم تزل هذه المقالة بين أعيننا حتى وقعت هذه، والأمر لله سبحانه لا يسأل عما يفعل، فلما جاء كتاب السلطان فرحنا)(66) فحمدنا الله على سلامة السلطان وكتبنا لأشياخ سوس فلم يتخلف منهم أحد، وقدمنا على الحضرة ولم تخلص إليها إلا بمشقة من فساد الطرقات وهيجان العتو والطغيان من كل أحد لا من القوي ولا من الضعيف، وتركنا مولاي بنصر في محله، فلما اجتمع الأشياخ بالسلطان دعاهم وسألهم سؤال البحث والاستكشاف فلم يثنوا ولم يذموا، فقال لهم : أراكم قد أبهتم المقصود وأجملتم الخطاب، أما مولاي بنصر فقد عزلته عنكم فانظروا لأنفسكم أو نختار لكم نحن، فأطلقوا حينئذ ألسنتهم في ذكر مساوي مولاي بنصر بكثرة الكلام، فأمر بإخراجهم وولى عليهم الرجل الخير الطاهر الطالب الحسيب السيد محمد بن الكبير البخاري فخانه الأشياخ وتفرقوا لبلادهم وتركوه في ردانة لا يجد حتى علف دوابه، فلما ضاق عليه الفضاء بانحصار المدينة دبر الحيلة لخروجه، فلما خرج نهبوه وما أفلت بمهجته إلا بمشقة، وفي أثناء ذلك وقعت غدرة ذو بلال في أكلهم الصاكة باتفاق الذين أتوا بها من الصويرة وهم الشياظمة وقائدهم علال بن محمد، وهو الذي نهب أكثرها من الأموال الثقيلة والذخائر الفاخرة، وهذه الوقعة هي التي هدمت قوائم السلطان فاعتراه مرضه الذي كان سبب موته عند انقضاء أجله، وذلك في رابع عشر ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين ومائتين وألف، مات رحمه الله ثابت الذهن في غاية اليقين والفرح والاشتياق الى لقاء ربه.

وقد ختم ديوانه بالحسنة التي عرضها كعرض السماء والأرض، وهي عهده بالخلافة لولد أخيه مولانا عبد الرحمان بن هشام مع كثرة أولاده ووجود كبار إخوانه، فلم يكن عنده في مرضه ذلك أهم من ذلك العهد

(66) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) فأضفناه نقلا عن (ف)، ونسخة «كلية الأدب» الرباطية.

وتوجيهه لمولاي عبد الرحمان، وكان تركه خليفة بفاس لما فتحت كما تقدم، فلما أحس بتمكن العلة منه وظهور أمارات الفوات دعا بصفحة بيضاء، ودعا بالطابع الكبير، فدخل إليه ذلك ولم يحضره أحد إلا أهله الإناث، فطبع بيده أو طبع غيره بين يديه، وكتب بعض الكتاب وكملته بعض حظاياه، وكانت تحسن الكتابة، فطواه وطبع عليه(67) ودعا القائد الجلالي الحويوي الرحماني وهو قائد المشور، وقال له : يأتي بفارسين تكون خيلهما قوية يذهبان بذلك الكتاب لفاس، وقال له : إنه عين لهما سخرة كبيرة يقبضانها هناك إذا أسرعا، فكان ذلك الكتاب هو العهد الذي قرئ بفاس، ومات السلطان رحمة الله عليه، فلما فرغ من دفنه واجتمع الناس الأعيان بباب دار السلطان لتعزية من حضر من أهله وهو شقيقه مولاي موسى وولده مولاي بوبكر وصغار جعل مولاي موسى يشير إلى أنه أحق بالأمر وأنه لا أكبر منه، وهو صادق من جهة الجرم والسن، ولكن لا أصغر منه عقلا وهمة، وكان القاضي المزوري(68) والفقيه سيدي محمد بن الطاهر الفلالي إلى جنبي فأخرجت ذلك الكتاب الذي كان كتبه السلطان بالعرائش وأمرني بحفظه فأريته للقاضي وقلت إن السلطان قد عهد لمولاي عبد الرحمان(69) فقل لهذا الأحمق يسكت حتى يظهر الخبر من الغرب الذي فيه الجيش وأهل الحل والعقد، فلما قرأ القاضي ذلك الكتاب وتحقق خط السلطان دفعه خفية لسيدي محمد بن الطاهر فقرأه خفية ومولاي موسى مشغول بالثرثرة مع من حوله، فقال له القاضي : ما قلت ياسيدي إلا الحق أنت بركتنا وأنت ولد سيدي محمد وشقيق السلطان رحمه الله، ومن ذا الذي يتقدم عليك ؟ ولكن نحن لا كلام لنا في هذا الأمر، وإنما الكلام في الغرب الذي فيه العساكر السلطانية من العبيد والوداية وعلماء فاس، فقال له مولاي موسى : أنت يادقيه غير اسكت لا كلام لك، إنما أنت قاضي إذا أتاك من تحكم عليه فاحكم عليه، أليس هؤلاء الذين حضروا عسكرا هنا

---

(67) كتاب ولاية العهد هذا هو المذكور بعد رقم 61.

(68) المزوري لم نقف على ترجمته.

(69) وعلى هامش ذكر البهجة العهد الرحمانية أقول : ولما كان اهتمام المولى سليمان بشأن ابن أخيه مولاي عبد الرحمان، كتب كتبا ثلاثة رغبة منه في انتشارها، الكتاب الذي كتبه وتركه عند المؤلف المذكور بالجيش، والكتاب الثاني الذي كتبه لأهل فاس المؤرخ بتاريخ 27 ربيع الأول عام 1238 وقفت عليه بديوان الوزير ابن ادريس، والثالث مذكور في فهرست الفقيه بنانيي المعروف بـ (برنو) المراكشي، المخطوطة. الا أن كتاب الجيش مخالف في تعبيره لنص كتاب ابن ادريس. أما صاحب الاستقصا فقد نقل كتاب البهجة هذا بعبارة أخرى وذكر أنه بتاريخ رابع ربيع النبوي 1238 فتقدم على كتاب ابن ادريس بثلاثة وعشرين يوما.

العبيد وهنا الوداية وهنا العلماء، ومراكش هي دار السلطنة ؟ ومنها يخرج الملوك، فرفع سيدي محمد بن الطاهر يديه وقال : الفاتحة، الله يرحم السلطان ويجعل البركة في بقيته، فقرأ الناس الفاتحة، فقام سيدي محمد وانصرف، ومولاي موسى يناديه يافقيه يافقيه فلم يلتفت إليه كأنه لم يسمعه، وقام القاضي وجعل الناس ينصرفون حتى بقي مولاي موسى وحده مع أصحابه وخاصته، ثم بلغ مولاي موسى خبر الكتاب الذي عندي فوجه الي فلم آته، وأرسل الي صاحبه بهُ لأدفع له الكتاب، فقلت له : ما عندي كتاب، فجعل يغري علي ويقول : إنه زور علي السلطان كتابا وثبط الناس عن مبايعتي حتى تخوفت منه على نفسي وانتقلت من القصبة إلى المدينة عند بعض الأحباب حتى ظهر الضوء وطلع النهار، وجاءت أوامر سيدنا السلطان من الغرب، فرجع مولاي موسى لغمده، ثم جاء مولاي عبد السلام بن سليمان من تافلالت ببيعة أهل تافلالت لمولاي عبد الواحد على أن مولاي عبد السلام يكون خليفته بمراكش، فوقع كلام آخر، ولكن مولاي عبد السلام كان سهل الانقياد وكان بيننا وبينه محبة في أيام والده، فبينا له حقيقة الأمر، وقلنا له إن هذا الأمر قد فرغ منه، وقد ثبت الحق في نصابه، وقلنا له لا تكن ثاني مولاي موسى الذي ظهر حمقه لكل أحد، وأنت أكتم ما جئت به، وقل ما جئت إلا لداري وأولادي ورأى أمر السلطان رحمه الله وخطه الذي يعرفه في قضية يأتي شرحها إن شاء الله تعالى، فأذعن وسكن حاله، وأحرق تلك المكاتب التي جاء بها، وجرت الأحكام السلطانية في مجاريها، من غير معارض يعارضها ولا مبار يباريها، والحمد لله رب العالمين.

ومما رثى به أخونا في الله تعالى الوزير الأجل الفقيه أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس السلطان العادل مولانا سليمان هذه القصيدة الفريدة :

نبأ عرا أوهى عُرى الإيمان   وأبان حسن الصبر عن إمكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت   أرض النفوس ورُوج كل مكان
فقد الإمام أبي الربيع المرتضى   جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ملء جفونها   وجداً عليه وكل ذي إيمان.
لما نعى الناعون خير خليفة   وعرا الفؤاد طوارق الاحزان

مزقت ثوب تجلدي من فقده ... ونثرت در الدمع من أجفاني
عجبا لموت غالهُ إذ لم يخف ... فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب ... غضب الجنود وغيرة الأعوان
لو كان يمنع خاض فرسان الوغى ... حرصا عليه مواقد النيران
وحموه بالنفس النفيسة إنما ... يحمون روح العدل والإحسان
لكن قضاء الله حُمَّ فلا يرى ... للمرء في دفع القضاء يدان
والموت مورد كل حي كأسه ... وسوى المهيمن في الحقيقة فان
إن غاب عنا شخصه فلقد ثوى ... فينا الثناء له بكل لسان
ومناقب ومفاخر ومآثر ... شاعت له في سائر الأوطان
ومعارف وعوارف ووسائل ... ومسائل قد أوضحت ومعان
وبدور أولاد وآل قد قفوا ... آثاره في العلم والعرفان
تخذوا الديانة والصيانة شرعة ... وتقلدوا بصوارم الإيقان
أخلاقهم ووجوههم وأكفهم ... كالزهر والأزهار والأمزان
إن حاربوا أبدوا شجاعة جدّهم ... أو خاطبوا أزروا على سحبان
من كل من جعل القرآن سميره ... وسما بوصف العلم والتبيان
كم آية ظهرت له وكرامة ... دامت دلائلها مدى الأزمان
قد كان أوحد دهره وزمانه ... في العدل والتمكين والإحسان
قد كان عالم عصره وفريده ... في الفهم والتحقيق والإتقان
قد كان فردا في البلاغة إن جرت ... أقلامه بهرت بسحر بيان
من للعلى من بعده من للنهى ... من للتقى وتلاوة القرآن
يارمسه ماذا حويت من العلى ... وطويت من علم ومن عرفان
يارمس كم واريت من كرم ومن ... جود ومن فضل ومن إحسان
يارمس كيف حجبت عنا شمسه ... وضياؤه في سائر البلدان
ووسعت بحر علومه وسخائه ... فطما بضيق بطنك البحران
فلو استطعت جعلت قلبي قبره ... حبا وأحشائي من الأكفان
ولو أن عمري في يدي لوهبته ... وفديته بالأهل والإخوان
لكن يخفف بعض أثقال الأسى ... علمي به في جنة الرضوان
فسقى ثراه من المواهب ديمة ... وهمت عليه سحائب الغفران
ورد الرسول بموت خير خليفة ... وولاية العهد الرفيع الشان
فجزعت من حزن لما قد نابني ... وطربت من فرح بما أولاني

ما مات من ترك الخليفة بعده … مثل المؤيد عابد الرحمان
ملك تسربل بالتقى حتى ارتقى … من نهجه الأنقى على كيوان
ياواحدا في الفضل غير مشارك … أقسمت مالك في البرية ثان
لله بيعتك التي قد أشبهت … فيما تواتر بيعة الرضوان
قد أحكمتها يد الشريعة والتقى … بعُرى النصوص وواضح البرهان
سعد الذي أضحى بها متمسكا … وهوى العنيد بهوة الخسران
وجرى على التيسير أمرك فاستوى … ملك الورى لك في أقل زمان
وأتت لنصرتك المغارب كلها … فبعيدها لك في الحقيقة دان
عقدوا على النصح القلوب وإنما … عقدوا بنصرك راية الإيمان
لو شئت من أهل المشارق طاعة … لأتوك من يمن ومن بغدان
هابتك أصنافُ الطغاة برغمهم … لما وثقت بنصرة الرحمان
وبسطت عدلك في الورى فكأنما … قد عاش في أيامك العمران
ياأهل بيت المصطفى أوصافكم … جلت عن الإحصاء والحسبان
طاب المديح مع الرثاء بذكركم … فنظمته كقلائد العقيان

ما في الجيش من التراجم
مقدمة الجيش

صفحة

صفحة

حرف الألف

حرف العين

حرف الميم

حرف الهاء

حرف اليـاء


المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي ـ مراكش
30-37-74 فاكس: 30-49-23

صفحة	خطأ	صواب	سطر
أول الكتاب	مولاي علي السجلماسي	مولاي علي الشريف السجلماسي	2
"	الارضي	الارضي	1
"	هذا الرقم مكرر	يعتبر تكريره	
"	مأدبا	مؤدبا	16-19
"	اعدائكم	اعداءكم	20
"	مكت	مكث	26
12	ج	رقم أن ج ا	11من الهامش
13	مولان	مولانا	3
16هامش	البكارى	البكاي	4
16هامش	الجاب	الجواب	5
16هامش	النشر	للنشر	9
17هامش	عها	عنها	5
20	عصال	عصاه	17
22هامش	السيب	المسيب	7
26	زمان والذي وبعده	زمان إلا والذي بعده	21
27	أبو بكر	أبي بكر	6
24	عند موله رضي الله عنه هدها	في بيعة أبي بكر رضي الله عنه	9
30هامش	إذ	إذا	7
30هامش	وأشارك	وأشار	12
32	وعلى	وعلا	16
32	لأحدا	لأحد	19
38هامش	رأفس	رأس	5
39	عثمن	عثمان	11
41	بنى	بن	3
42هامش	الاصل	الأصل	3
48	الجببرى	الجيري	9

صفحة	خطأ	صواب	سطر
53	عبراء	غبراء	13
59	خلقان	خلكان	5
70	هذه	هذا	1
70	فما	فلما	7
72	فيصر	قصير	3
86	عفى	عفا	3

95 محو مطبعي (هامش 33)

(33) العياشي أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي نسبة لايت عياش قبيلة من البربر تتاخم بلادهم الصحراء من احراز سجلماسة "صاحب الرحلة المشهورة" وله رحلة أخرى صغيرة ذكر ابن سودة في الدليل انها عند العلامة عبد الحفيظ الفاسي ألفها لتلميذه احمد بن سعيد المجلدي سماها تعداد المنازل لم تكن هذه التسمية مذكورة في نسختنا توفي رحمه الله سنة 1091 هـ 1679 م لم نر ان أحداً من المؤرخين ذكر له هذه الرحلة (تعداد المنازل) والله اعلم "ولتراجع ترجمة المجلدي بالصنق ص 190.

صفحة	خطأ	صواب	سطر
97	الأردال	الأرذال	13
102	بطنحة	بطنجة	15
104	ملحوضا	ملحوظا	16
109	رفي	وفي	13
112	ضعفائها	ضعفاءها	07
115	السنونسي	السنوسي	09
115	(هامش) 16 تكررت	تعليقها تقدم	03
125	مقيدة	مقيده	15
133	اساعيل	اسماعيل	2
138هامش	أب	أن	3
140	يولى	يولي	24
141	بينها بين	بينها وبين	01
142	يقتدي	يقتدى	14
143	يدعى	يدعي	28
147	ينص	ينصر	14بالهامش
147	الله	لله	10بالهامش
147	واوضضح	واوضح	20بالهامش

صفحة	خطـأ	صـــواب	سطـر
152	ويؤيدون	ويؤدون	04
153	وذكرا ابن	وذكر ابن	11
155	بني	بنى	24
157	يحكى	يحكي	10 و 16
163	رتبذير	وتبذير	04
163	علي	على	23
175	علي	على	06
175	وولي	وولى	16
176	الاهربة	الاهرية	13
180	بحمده الله	بحمد الله	14
183	أثر	إثر	05
191	وتوجد	وتوجه	10
199	ثاب	تاب	02
202	مضاربة	مضارب	05
203	عروسها	عروشها	22
230	عينه	عينيه	26
204	خمس مائه	خمسمائة	23
208	يقطع	بفطع	11
215	اخبرك	أخيرك	23
218	انما	ان ما	04
218	فقيديها	فقيد بها	12
218	انشأوها	انشؤوها	17
225	سبر	يسر	05
225	الحياتية	الحيابنة	06
228	فقدمرا	فقدموا	22
229	نقل	ونقل	06
230	يقصد	بقصد	18
236	ح 4595	ج 5 ص 459	هامش(54)

صفحة	خطأ	صواب	سطر
237	يسببهم	بسببهم	01
247	وسول الله	رسول الله	22
257	للمعنيين	للمعينين	15
258	رحمه	رحمه الله	25
261	ورلا	وإلا	02
275	اليزيد	بن اليزيد	02
283	بخير	بخبر	19
284	لمحة	لمحلة	هامش 16
284	انهما	انما	08
299	شوق	شرق	11
304	كلمه	كلمة	07
308	وفرأه	وقرأه	03
312	رارتفعت	وارتفعت	24
313	المقصور	المقصود	05
313	الكتان	الكتاب	08
315	احداً	احد	15
317	العزوة العصبية	العزوة والعصبية	22
318	فرج وبنا	فرح بنا	05
318	تنبيه : تكرار من "الاكرام"	ص 318 سطر 17	-
322	الى "ذمتهم"	ص 319 سطر 17	-
335	الداراهم	الدراهم	13
338	اله	الله	14
340	حذيقة	حذيفة	08
	الحيلاني	الجيلاني	26



اقتــراح

اقترح بعض الاخوان أن أضع كلمة مختصرة "حول بدايتي العلمية" وحول مصدر بدايتها "نعم" الكلام في هذا الموضوع طويل الذيل اكتفي بقدر اجمالي يوضح مدلول هذا الاقتراح.

شاءت الأقدار الالهية عن هذه الناحية بدافع شوق كبير أن أشرع في أخذ العلم سنة 1345-1926 الى سنة 1360-1941 ثم تجردت للتدريس بأمر من بعض شيوخنا بجامعة ابن يوسف فصرت أعطي دروسا تطوعا الى أن انخرطت في سلك النظام سنة 1360-1941، ثم سميت عضوا بالمجلس العلمي سنة 1371-1951.

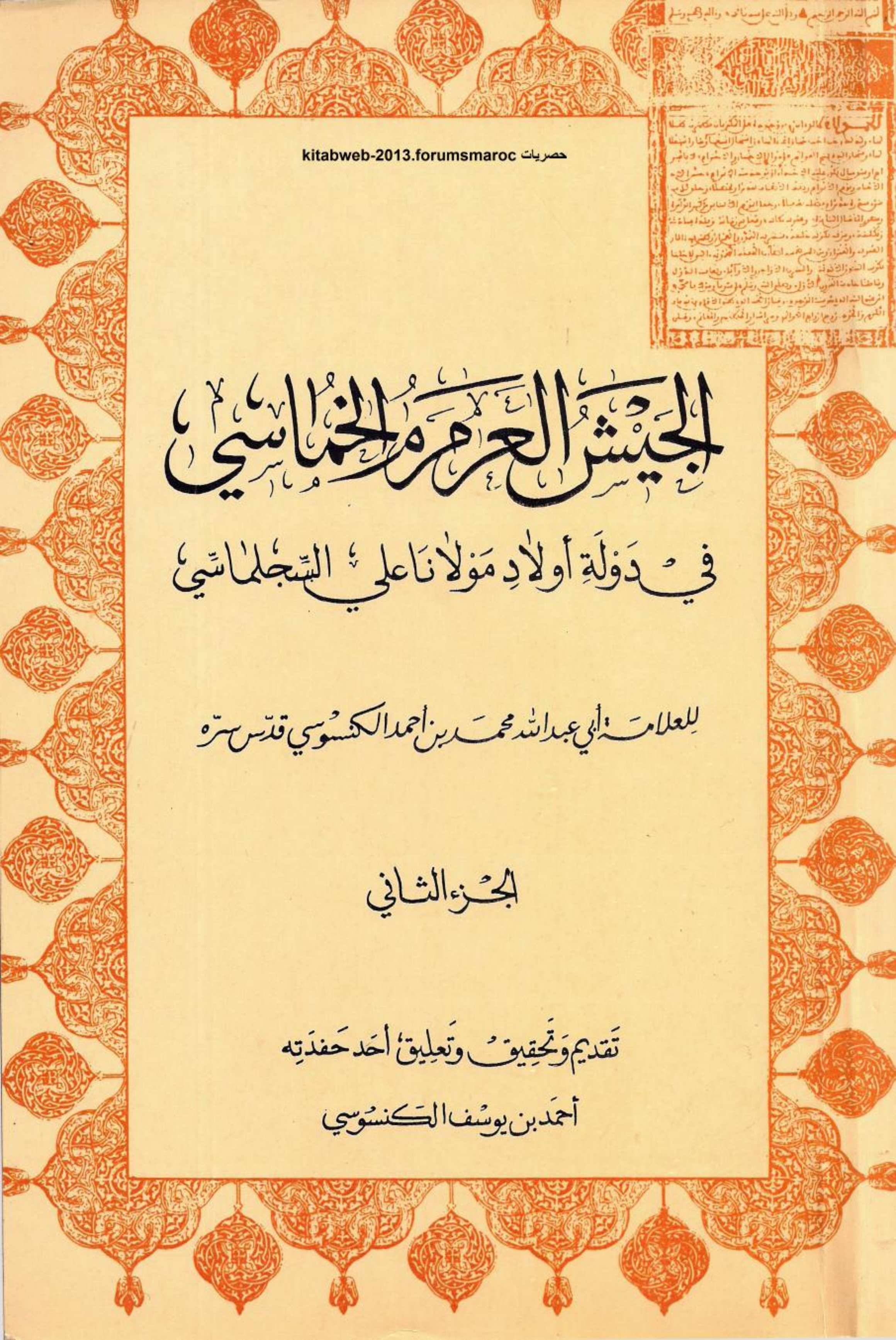
اما العلوم التي درستها على شيوخ الجامعة : النحو، التصريف، علوم البلاغة، المنطق علم الكلام، الفلك العروض، الأصول، الوضع ثم الفقه، الفرائض، الحديث التفسير.

الاجــازة

عندي اجازات من السادات العلماء الأفاضل :

1- محمد بن الحاج عمر المراكشي الملقب بالكتبية لسكناه بها
2- محمد بن الحسن الدباغ الحربيلي المراكشي شيخ الجماعة
3- علي بن عبد الرحمن السباعي المراكشي المفتي
4- الوزير محمد بن الحسن الحجوي المشارك المؤرخ
5- المشارك الحافظ الفيلسوف محمد الرافعي الجديدي
6- رئيس جامعة القرويين الصوفي الحسن مزور
7- صالح التونسي المدني اجتمعت به في داره بالمدينة
8- محمد الحافظ من الشيوخ الكبار بمصر اجتمعت به بالمسجد النبوي.
9- محمد فال الشنجيطي له في مريطانية نشاط كبير في نشر العلم.

وتراجم هؤلاء الشيوخ الأجلة مبسوطة في فهرستنا التي تظهر في القريب إن شاء الله.


حصريات kitabweb-2013.forumsmaroc
الجيش العرمرم الخماسي
في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي
للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره
الجزء الثاني
تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته
أحمد بن يوسف الكنسوسي

الجيش العرمرم الخماسي

في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي

للعلامة أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي قدس سره

المتوفى سنة 1294 هـ - 1877 م

الجزء الثاني

تقديم وتحقيق وتعليق أحد حفدته

أحمد بن يوسف الكنسوسي

ردمك 4-00-948-9981 (المجموعة)

ردمك 0-02-948-9981 (الجزء الثاني)

الراية الحمراء المشرقة اللون
التي لها من الله التأييد والعون
في دولة مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام
بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله
بن مولانا إسماعيل رحمه الله

قد أسلفنا كيفية العهد الشريف المبارك، وأنه أرسل من مراكش في ثامن ربيع الأول، فلما بلغ لحضرة فاس في سادس وعشرين من ذلك الشهر وافق ورود خبر موت السلطان فكأنما كانا على ميعاد، فاجتمع أعيان فاس من الشرفاء والعلماء والقاضي الشريف مولاي أحمد بن عبد الملك العلوي[1] والمفتي العلامة سيدي محمد بن إبراهيم، والتاجر الأمين {شيخ الركب النبوي}[2] الحاج الطالب بن جلول، والعلماء والأشراف، وكبراء الدولة من الوداية والعبيد، فقرئ عليهم العهد المبارك السعيد، فتأسف الجميع علي موت الإمام العادل، وارتفعت الأصوات بالدعاء له والترحم عليه، وبالنصر والتأييد لخليفته المظفر الرشيد، فأخذ القاضي بيده وبايعه، ثم ترادف الحاضرون على تقبيل يده ومبايعته، ووجه من ينادي في المدينة والأسواق لإعلام الخاصة والعامة، فتسامعت القبائل بذلك، فوردت وفود التهنئة من الحواضر والبوادي والأعراب والبربر، وحضرت رؤساؤهم الذين لهم الحل والعقد والأمر والنهي، مثل الحاج محمد بن الغازي الزموري، والحسن وبن حم وعزيز، وعلى هذين تدور دوائر البربر كلهم في ذلك الوقت، فكتبت الكتب الى الأقطار المغربية، فوردت بيعاتهم وهداياهم ولم يخالف أحد، وأرسل الله سواكب الأمطار، وكثرت الخيرات، واتضعت الأسعار، واستبشر الناس بطلعة هذه الدولة الميمونة اللائحة الأنوار، التي أتتها السعادة بدون استشراف ولا انتظار، قال كاتبه ووزيره أخونا في الله الفقيه أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس رحمه الله :

---

(1) أحمد بن عبد الملك العلوي المشهور بـ «دبيزة» ت 1241 هـ 1825 م «الرفيات» ص 8 و «الاتحاف» ج 1 ص 349 وقد حلاه صاحب الاتحاف بقوله : قاضي الجماعة بالحضرتين فاس ومكناس، له مشاركة في الفقة والتصريف واللغة والتاريخ والأدب والتوثيق والمعرفة الكاملة بصناعة الأحكام .

(2) ما بين المعقوفين اضافة من (م).

مولاي بشراك بالتأييد بشراك قد أكمل الله بالتوفيق سراك(3)
الفتح والنصر قد وافاك جيشهما والسعد باليمن قد حيا محياك
الله ألبسك الإقبال مكرمة وبالتقي والنهي والعلم حلاكا
فراسة الملك المرحوم قد صدقت لما تفرس فيك حين ولاكا
أعدت للدين والدنيا جمالهما فأصبحا في حلى من حسن معناكا
وزارك الغيث غوثا في سحائبه فجاد بالقطر قطرا فيه مأواكا

فطلع السلطان لدار الملك وقبة النصر، التي لا يدرك محاسنها الحد والحصر، وكان السلطان المرحوم قد عزل لكل واحد من أولاده محلا من قصوره يختص به، فعين لمولاي الطيب مع أمه رقية بنت عبد الله بن الخضر القصر المسمى بدار عياد الكبيرة، ولمولاي إدريس وأخويه مولاي عثمان ومولاي يوسف وأمهم مشرف القصر المسمى بدار عياد الصغيرة، ولكن ليس للقصور كلها إلا باب واحد وهو الباب الأكبر المعروف، فلما طلع السلطان المؤيد لدار الملك فتح لقصورهم أبوابا الى خارج وسد ما بينهم وبين دار قبة النصر، وأما مولاي علي فإن والده العادل بنى له ولمولاي إبراهيم دارين عظيمتين بفاس البالي، ولم يبق بدار قبة النصر إلا أخته وأمه مولاة الدار للامينة بنت سليمان، فاتفق اسم أبيها مع اسم أبي مولاة الدار لسيدي محمد بن عبد الله للافاطمة بنت سليمان وكلتاهما من شرفاء الأحلاف أولاد مولاي سليمان بن إسماعيل، ومولاي سليمان والد هذه ليس هو ولد مولاي إسماعيل لصلبه بل حفيده، بخلاف مولاي سليمان والد مولاة الدار عند سيدي محمد فإنه ولده لصلبه، وذكرت هذا لأنه وقع فيه غلط لمن يظن به الاطلاع على داخل الأحوال، وقال إنهما أختان متفقتان في أب واحد، فلما طلع المؤيد بعد خروج مولاة الدار وبنتها ورحلتا لدار مولاي علي بفاس البالي لم يتركا في الدار ما يساوي درهما واحدا، هكذا ذكر لي السلطان المؤيد أول ما لقيته يشكو بمولاي علي، قال : والله ما تركوا في الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما، فترك لهم ذلك، بل زادهم ورفههم أكثر من أبيهم.

(3) كذا بالأصل ومثله في (م) وفي (ش) أما (ف) ففيها (سراك).

فلما فرغ من مباشرة الوفود والتهاني التفت الى تمهيد أركان المملكة، فقيد على فاس وصيفه بوجمعة بن سالم الذي كان بوابا على الدار الكبرى بفاس الجديد، ثم بعد مدة قريبة لما أراد السفر قيد عليها سيدي محمد بن الطيب ولد عمه، وأما القاضي فأبقاه على عمله، ثم نهض نهوض العز والإقبال، وخرج من فاس يريد تفقد الممالك ومباشرة أحوالها فبلغ الى قصر كتامة ونزلت المحلة بظهر كدية مولانا إسماعيل، وهناك قدمنا عليه من مراكش ففرح بنا كل الفرح، وبنفس وصولنا أمر بدخولي إليه لشدة تشوقه لخبر مولانا العادل المرحوم، فدخلت إليه وهو في قبته السلطانية، وجلست بين يديه نحو ساعتين، فسأل عن كل شاذة وفاذة داخلة وخارجة، وبعد خروجي من عنده أذن لمولاي عبد السلام بن سليمان لأننا أتينا في صحبته رفقة واحدة، فلما خرجت وجدت الأحوال التي كنت أعرفها قد تبدلت، والأقوام قد تنكرت، وكان قدومي ودخولي على السلطان وفرحه بي قذى في عيونهم، وشجى في حلوقهم وصدورهم، ولما صلينا مع السلطان العصر وردت مكاتب قنصوات النصارى من طنجة، فدعاني السلطان فقرأتها عليه، فذهبت لمحل نزولي مع مولاي عبد السلام، فجاءني الفقيه الكاتب أخونا في الله تعالى سيدي محمد بن إدريس بتلك المكاتب وقال : إن سيدنا أمرني أن آتيك بها لتخبرني كيف كنتم تخاطبون هؤلاء النصارى، فأخبرته فوجدته هو أيضا قد استثقل قدومي(*) مع أنني معه كنا كأخوين شقيقين، ولما صلى السلطان المغرب ودخل دعاني أيضا وسألني عن بقية الأخبار، وحدثني هو أيضا بما وقع له مع أولادعمه السلطان العادل، وما ظهر منهم من كراهة ولايته، فقلت له : ياسيدي إن ذلك أمر طبيعي لابد منه إن لم يكن ظاهرا فهو في الباطن كامن، لاسيما من الأحداث الذين لا عقول لهم، وحلم مولانا وفضله يسع ذلك ويرفق بهم حتى يألفوا ما أزيل منهم، فقال : معاذ الله، والله لا يرون مني إلا الخير، وإنما أخبرتك بالواقع الذي يجر إليه الحديث، وهنا قال لي : إن مولاي علي وأمه للامينة ما تركوا في الدار حصيرا ولا ما يساوي درهما واحدا، ثم سألني

(*) وكتب هنا ولد الفقيه العلامة عبد الله الكنسوسي البيت المشهور :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه   فالكل أعداء له خصوم

عن كتاب العهد الذي كان عندي بخط مولانا الملك العادل المرحوم، وقد كان سمع خبره وما وقع من عمه مولاي موسى وما وقع من مولاي عبد السلام كان أخبره بذلك كله مولاي الوليد سليطن لأنه كان حاضرا لموت السلطان وقدم قبلنا، فلما سألني عن مآل هذا الكتاب دهشت من إخباره بالواقع خوفا على مولاي عبد السلام، لأنه لما قدم من تافلالت كما قدمنا وكنا مع جماعة منهم مولاي الوليد المذكور، فجعل مولاي عبد السلام يخبر ببيعة مولاي عبد الواحد ويعظمها، ويذكر من حضرها من الشرفاء وكبراء آيت عطة وآيت زدك، ثم التفت إلي وقال : أين الكتاب الذي عندك أيها الكذاب ؟ ما أكذبكم أيها الكتاب ! فقال له مولاي الوليد : والله ما كذب، وهل يجهل أحد خط السلطان، فلم أجد بدا من إخراجه، فأخذه مولاي بوبكر وجعل يقرؤه عليه، فانتزعه منه ومزقه، فقام مولاي الوليد مغضبا ثم ردوه، فلما سألني السلطان علمت أنه بلغه الواقع على حاله، فأخبرته فقلت يا سيدي : هذا من جنس ما ذكرت عن مولاي علي ومولاي الطيب، ثم إنني أحدث سيدي بالصدق وان مولاي عبد السلام يحب سيدنا اليوم محبة تامة، ويثني الثناء الجميل على مقامه، ويقر بإحسان والده المرحوم حيث لم يقدم أحدا من إخوانه، ويحلف انه لو قدم غير سيدنا ما فعل معهم إلا الشر، فقال : صدق هو كذلك، فلما قام السلطان لصلاة العشاء خرجت معه فازداد القوم علي حقداً وحسداً، واجتمعوا في تلك الليلة عند عبد الملك الجبوري وكان هو قائد المشور، والجماعة المذكورة هم الفقيه أخونا سيدي محمد بن إدريس، والفقيه الكاتب السيد المختار الجامعي، ومولاي الحجازي، ومولاي العابد، ومولاي الحبيب شريف من مدغرة، كان يكتب معهم، ومولاي الوليد، ولكنه من ناحيتنا، فاجتمعوا على ما يفعلون ويقولون في إبعادي عن السلطان، فلما أصبح جاءني مولاي الوليد وشرح لي ما وقع وقال لي : إنني قلته للسلطان وقال لي : قل له لا عليه فيهم، فإنني أعرفهم وأعرفه ومكانته وصدقه وأمانته، وقد صحبته من الرباط الى القصر مدة من شهر أو أكثر، جنبه الى جنبي، وما رأيت مثله دينا ومروءة، فقل له يرجع معنا الى الرباط ونرجع في قريب

فإنه لا يرى منا إلا الخير، فلما خلوت مع نفسي(4) ظهر لي أنه لا يمكنني معاشرة هذه الدائرة المتواطئة على بغضي وعداوتي، والواحد لا يقاوم الجماعة، ورأيت في تلك الليلة مولانا سليمان رحمه الله في المنام ودفع لي زمامات مطوية وقال لي : صائر داري يبقى على حاله، وأنت لا تذهب مع فرجي بيدي(5) وكأن فرجي أراد الخروج مع قوم لا أعرف منهم أحدا. فلما انتبهت ألقى الله في قلبي بغض مصاحبتي أولئك الناس، وضاق صدري حتى من رؤية أحد منهم، فذهبت الى مولاي الوليد وكانت له مكانة تامة عند السلطان يدخل عليه بلا إذن، فرغبت منه أن يعتذر عني بكل ما قدر عليه، وقلت له : إني لا محالة ذاهب الى فاس مع مولاي عبد السلام ولا أرجع للرباط فارتحل السلطان للرباط وارتحلنا نحن لفاس، فلما بلغ السلطان لمحل المبيت سأل عني فوجد أولئك الأعادي سبيلا الى مرادهم وقالوا ما شاءوا، وكان ما أراده الله سبحانه(6) ولم تفارقنا ألطاف مولانا سبحانه وبره وإحسانه وعنايته، فبلغ السلطان الى رباط الفتح وأتته وفود القبائل الحوزية وأعيانهم ورؤساؤهم، فعيد هنالك عيد الفطر ورجع الى فاس ليتهيأ للحركة للحوز، وجاء معه أشياخ الحوز وأعيانهم الذين قدموا للرباط، وهناك قدم عليه مولاي موسى مع أهل مراكش وكذلك مولاي عبد الواحد، ففرح بهم وعظم أقدارهم ولم يلم أحدا، ولكن عفا وصفح وباشر بالإحسان التام والكرامة الزائدة، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، ولما رجع

---

(4) تعقيب على ما كتبه ناصر الفاسي في "البحث العلمي" فيما يتعلق بهذه المسألة لما ترجم لمحمد بن ادريس وزير مولاي عبد الرحمن وشاعره. كتب في أثنائها حول كلام الجيش عن الجماعة المتآمرة عليه قال ما نصه : "ونحن لا نستطيع أن نثق بتأكيدات أكنسوس ثقة كاملة. ومن المحتمل أن تكون حاشية السلطان لم تر بعين الرضا وصول شخصية يمكن أن تنافسه" اهـ.

قلت : ومن أنت أيها الكاتب حتى لا تستطيع أن تثق بشيء صدقه ووثقه من هو أقرب منك وقتا الى كتابة هذا التاريخ بل أعرف منك وأدرك بسير الأمور في ذلك العصر كالعلامة عالم الملوك وملك العلماء الآمر بوضع الجيش المولى محمد الرابع وكوزيره أبي العشرين الطيب بن اليماني وغيرهما اهـ البحث العلمي عدد 1 السنة 1 بتاريخ شعبان-ذي القعدة 1383 يناير-أبريل 1964..

(5) جاء في طرة (ش) بإزاء كلمة (بيدي) ما نصه : "هو لقب لفرجي لأنه كان فرجيان أحدهما كبير وهو هذا والآخر صغير وبيدي بلسان كناوة هو الأكبر". .

(6) يشار هنا الى ما ذكره غريط في فواصل الجمان ص 11 بعد أن تكلم على ما فعله المؤتمرون وإذ قال في أثنائه الى أن حدث له ما حرك حفائظ سلطانه، وغير معين صفحه وامتنانه من اتهامه بالميل والتشيع الى من له تشوف للملك وتطلع، واتفق ان السلطان وجده لذلك المتشوف محادثا، فصدق من كان في عقد إذايته لذلك نافثا، فاعتقل وامتحن وجُهل قدره وامتهن.

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف لعمري عن قليل يذمها
إذا أقبلت كانت على المرء فتنة وإن أدبرت كانت كثيرا همومها

ثم سرح وما كاد، بعد مقاساة الهموم والأنكاد

(قلت) وما رأيت أحدا غير صاحب الفواصل ذكر أن الفقيه سجن، والله أعلم.

لفاس أمر بشراء دار السيد عبد السلام شقشاق، وكانت مجاورة لقبة مولانا إدريس بينها وبين القيسارية فاشتريت وأمر بهدمها وزيادتها في مسجد مولانا إدريس، فجمع الصناع والعملة وتأنقوا في بناء ذلك أحسن من المسجد القديم، وأوقف على مباشرة ذلك الشريف مولاي الهاشمي بن ملوك البلغيثي فبنى ذلك في مدة يسيرة على غاية الإتقان والإبداع وبولغ في تنميقه وترقيقه وتخريمه وتزويقه لا في أرضه ولا في سقوفه، ولا في سواريه الرخامية والزليجية، وكنت نظمت التاريخ المنقوش في خدود الباب المجاور لباب القيسارية ونظم الفقيه السيد عبد الواحد بن شيخنا القاضي أبي العباس سيدي أحمد بن التاودي(7) التاريخ المنقوش على السواري الزليجية التي في المسجد الجديد، وكان ضمن فيه قول المتنبي في سيف الدولة :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجِرِشَّي شريف النسب

والبيت من المتقارب، والشعر الذي ضمنه فيه من السريع، فأنكر الناس عليه ذلك، وكتبت له بطاقة أداعبه فيها وأمازحه على عادتي معه، ثم أنف من ذلك وغضب وظن أنني هجوته، وكان تعتريه سوداء في آخر عمره فشكا الى العامل سيدي محمد بن الطيب وكان صهره على بنته وبكى عليه بكاء شديدا، فهم ابن الطيب بالبطش بي وكان يتفاخر بذلك، فوجه علي فأتيت محل حكومته ووجدته قد دخل فكان ذلك من لطف الله بي لأنه ما وجه علي حتى سكر وأبرق وأرعد وقال لأصحابه : إن فلانا يكرهنا ويكره من يحبنا ويكره السلطان، والله لأعاقبنه فنهاه من حضر من أصحابه كالسيد عبد الخالق الموقت، والسيد العربي الساحلي، وقائد مشوره القائد إدريس البواب، فلم يزدد إلا غلظة وطفوحا والزبد متراكم على فمه، ثم غلبته الخمر ودخل للدار، فذهب أولئك الإخوان إلى عمه مولاي عبد الواحد وكان نازلا بقربه فأخبروه فجاء يجر رداءه مخافة أن يفرط علي أو أن يطغى، وأنا لما جاءني عونه أتيت ولا علم لي بشئ فأدخلوني الى محل هناك، فجلس مولاي عبد الواحد ينتظر خروجه، فلما

---

(7) هو ابن قاضي الجماعة أبي العباس احمد بن التاودي بن سودة المري الغرناطي الفاسي ت آخر رمضان عام 1253 هـ 1837 م "السلوة" ج 1 ص 120 "الوفيات" ص 70 "الاعلام" ج 8 ص 533.

خرج قام إليه ونهاه وزجره وقال : إن الطلبة يقع منهم مثل هذا، والسيد عبد الواحد بن سودة رجل أحمق وأنت أحمق منه، فسكن غيظه، وكفانا الله شره، والحمد لله ببركة مولانا عبد الواحد رحم الله الجميع، ثم وجه السلطان ولد عمه مولاي مبارك بن علي عاملا الى مراكش، وفي أثناء ذلك وردت قصيدة بليغة من تونس تهنئة لمولانا المؤيد بالولاية السعيدة من إنشاء عالم البلاد الإفريقية ومفتيها وبركتها أبي إسحاق سيدي إبراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي وهي هذه :

نصر من الرحمان جل لعبده … أيروم خلق نقض مبرم عقده
وعدت به الأقدار وهي نوافذ … لا تحسبن الله مخلف وعده
والله أعلم حيث يجعل نصره … والشاكرين لـه سوابغ رفده
فليبتسم ثغر الهنا مستبشرا … فالوقت ينطق عن سعادة جده
إن يمض مولانا سليمان الرضى … وعليه تبكي الباكيات لفقده
والعلم والتقوى وكل فضيلة … منشورة طويت به في لحده
فلقد أقام لنا أبا زيد هدى … نورا مبينا يستضاء برشده
لو لم يكن كفؤاً لما أوصى به … وبنوه ترفل في ملابس مجده
سعدت به الأيام ثم أراد أن … تبقى السعادة للورى من بعده
أعظم به نصرا يدوم سروره … للخافقين سرى تضوع رنده
أهدى إلى الأعداء أقتل غصة … والأوليا متنعمون بشهده
فاستبشروا باليمن من مرضاته … واستمطروا نيل المنى من وده
ما هو إلا ابن الرسول وهل فتى … في الناس يعدل عن مكارم جده
وتناسقت أسلافه كرما كما … راق النواظر لؤلؤ في عقده
لاغرو ان جمع المحاسن كلها … منهم فارث الجمع حق لفرده
لا يأفك الخراص حيث يقول قد … ذهب الزمان بعمره وبزيده
فبسيف ما ننسخ يقد أديمه … حتى ولو وفى العيان بسرده
فلكم وكم من آخر زمنا له … فضل عظيم لا يحاط بسرده
يا أهل فاس والمغارب كلها … والشرق من مصر لغاية حده
يهنيكم هذا الزمان فإن في … أيامه للدين مطلع سعده

والعلـم والتقـوى وكـل معـظـم	عند الشريعـة فهـو بالـغ قصـده
النـور أوقـد منهـم أتـراهـم	يرضـون إلا باستدامـة وقـده
اللـه يبقـي نـوره متـوقـدا	يفنى الزمـان ولا فنـاء لخلده
ويخـص مولانـا الأميـر بنعمـة	لا تنقضـي وعنايـة مـن عنـده
ويديمـه ظـلا وريفـا كلمـا	حمي الورى هـرعوا لجنة برده
وحسام فتـح كلمـا نهضـت بـه	عزماتـه فالنصر شاحـذ حـده
وتمام بدر كلمـا اقتعـد السـرى	لم يسر إلا في منـازل سعـده
وعليه تسليـم تـأرج نـده	لكنه في الفضل عـادم نـده
ثم الصـلاة علـى النبـي وآلـه	والحمد فـي بـدء الكـلام وعـوده

ولما بلغ مولاي مبارك إلى مراكش أساء السيرة في أهلها وفتح فاه لأكل الحرام، واستولت عليه بطانة السوء فتكررت به الشكايات إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه ينهاه ويشنع عليه فكف عن غربه بعض الكف، فعزم السلطان على إعمال الحركة الى مراكش بعد دخوله إلى مكناسة وتمهيد حالها وترميم ما تلاشى من قواعد الملك بها وإصلاح ما أفسدته الفتن السالفة المتوالية عليها، فإن العبيد قد لعبوا في أيام الفترة كيف شاءوا وبددوا بيوت الأموال التي فيها وأسرفوا في الاقتضاء بلا طائل ولا فائدة، وكانت البرابر تنهب دولهم من أبواب مكناسة وهم متكئون في ظلال الأسوار ينظرون إليهم، بل باعوا الخيل والسلاح وأكلوا أثمان ذلك وأفسدوه حتى أشرفوا على الاضمحلال لولا أن الله تداركهم بمولانا أمير المؤمنين المؤيد ما بقي منهم عين ولا أثر، فلما خرج من فاس وقرب من مكناسة خرجوا للقائه بالعلامات مرفوعة على العصي وليس معها إلا شرذمة قليلة، فقال لهم السلطان : أين عبيد البخاري ؟ فقالوا هذه البركة التي أسأرتها السيبة، وعلى الله وعليك الخلف، فما زال أعزه الله يجدد مددهم ويزيد عددهم بالخيل والسلاح والرواتب المترادفة، والمواهب الواكفة، مع أنه وجد بيوت الأموال التي هناك تتسابق فيها الفيران، وحاصل الامر أنه أيده الله وجد الدولة قد ترادفت عليها الهزائز، وصارت بعد حسن الشبيبة إلى حالة أشوه العجائز، تفانت رجالها، وضاق مجالها، من وقعة اصرو ببلاد زيان إلى موت السلطان العادل مولانا سليمان، فلما قام مولانا

المؤيد لم يجد فيها إلا رمقا قليلا، وخيالا عليلا، وقد وهت دعائمها، وتداعت للسقوط وأشرفت على الانهدام، المفضى إلى الانعدام، فأمده الله تعالى بالسعادة الخارقة للعادة، فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال ولا معين ناصح أمين، قريب، أو بعيد، فجعل يكابد تلك الشدائد بنهاية جهده والسعادة تكتنفه أماما وخلفاويمينا وشمالا، والتأييد من الله تعالى يمده، والتوفيق يسدده، والعناية تساعده والخور يباعده، حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي على أساسه الوثيق، وعاد جديده أبهج وآنق من العتيق، ثم أقام بمكناس حتى سدد أغراضه، وعالج أمراضه، وأزال علله، وجبر خلله، ثم صرف همته إلى آيت يمور وكانوا نازلين في الولجة الطويلة وسلفات فأطغاهم نزولهم بتلك البقاع المضمونة، والمزارع الخصيبة المأمونة، فسعوا الفساد في الأرض وأضروا بجيرانهم الزراهنة وأهل الغرب والسحيرة، فأمر عامله القائد محمد بن يش الغرباوي المالكي العروى، أن يحتال على فسادهم حتى يحصلهم، فكادهم ابن يش حتى قبض منهم نحو الأربعمائة، ونقلهم السلطان للحوز، ثم توجه السلطان الى رباط الفتح، ثم وجه أخاه مولاي المأمون خليفة لمراكش وعزل مولاي مبارك بن علي لسوء أفعاله وشكاية الناس به كما قدمنا، فلما مر أمير المؤمنين بالشاوية عزل وولى من ولى وأعرض عنهم حتى يتفرغ لهم، وقتل الهاشمي الزياني، فلما بلغ دكالة وجدها كلها رؤوسا يانعة تدعو إلى قطافها، فقتل من قتل، وقيد العباس بن المزوار وفتك بالعونات، فلما بلغ مراكش قبض ابن الغازي الزموري ووجهه للجزيرة، وأخرج من الجزيرة السيد أحمد بن سليمان الفاسي موقد نار فتنة أولاد مولاي اليزيد فقتله وعلق رأسه بباب الخميس ونجى الله تعالى السيد الطيب البياز فأخرجه من الجزيرة وسرحه ولم يكن على مذهب ابن سليمان، بل كان صاحب مروءة وجد في الأمور التي يتولاها، ولذلك ولاه السلطان بعد ذلك وجعله أمينا على مرسى طنجة، ثم ولاه على فاس بعد ذلك مدة مديدة، ثم شرع السلطان في غرس أگدال وجلب له الساقية السلطانية وانتزعها من أيدي مسفيوة رغما على أنوفهم، وكانوا من زمان سيدي محمد بن عبد الله السلطان المنصور يتغلبون عليها ويقطعونها ليلا، فلما أعيوا السلطان العادل مولانا سليمان أعطاها لهم على ألف مثقال في كل سنة، وإلى ذلك أشار أخونا في الله الفقيه الكاتب سيدي محمد بن

ادريس في القصيدة الجيمية وهي :

وردت وكان لها السعود[8] مواجها … والحسن مقصور على مواجها[9]
وبدت طلائع بشرها من قبلها … كالشمس طالعة لدى أبراجها
وتسير ما بين الأباطح والربى … ترمي فريد الدر من أمواجها
وتصوغ من صافي النضار سبائكا … حلت بها الأعطاف من ثجاجها
هبطت إليك من الجبال وطالما … تعبت ملوك الأرض في إخراجها
وأتتك راغبة تجر ذيولها … وتفيض غمر النيل في أفواجها
تنساب مثل الأفعوان وتنثني … كالغصن بين وهادها وفجاجها
خطب الملوك نكاحها فتمنعت … وأتتك واهبة حلال زواجها
فلتهنك الخود الرفيعة قدرها[10] … وليهنها أن صرت من أزواجها
حمراء عباسية بدوية … نشرت ذوائبها على ديباجها
وافتك وافية وقد صبغ الحيا … وجناتها وجرى على أدراجها
فكأنها بلقيس جاءت صرحها … لكنه صرح بغير زجاجها
عرفت أناملك الشريفة أبحراً … غرقت بحار الأرض في عجاجها
فأتتك طالبة الأمان لنفسها … لتنال بعض الطيب من ثجاجها
لبتك إذ سمعت نداك وأقبلت … مرهوبة تستن من إزعاجها
ونزعتها بالقهر من غصابها … والسابقون رضوا ببعض خراجها[11]

فلما جاء مولانا أمير المؤمنين المؤيد انتزعها منهم قهرا وغرس أگدالا ووجه على الأكارين والفلاحين من أجبالة وأهل تطوان، وجلب الأغراس المنوعة من كل بلد وكل نوع غريب وجنس عجيب وأمر الغراسين فغرسوا والزراعين فزرعوا فلم يمض إلا مدة قريبة فأطعم إطعاما خارقا للعادة. فلما بلغ إبان تعريشه أمر قبائل الجبل أهل الخشب فجاءوا بما لا يحصى من الخشب فعرشت الأعناب الدائرة مع الأسوار والتي على المشاءات كلها فجاء على أحسن الهيئات التي تبهر الأفكار، وتكل

(8) كذا بالأصل ومثله في (م) و (ش) وكذلك هو في مخطوطة الديوان بالمكتبة الملكية أما (ف) ففيها (الصعود) بالصاد.
(9) المراج : الكثير التمرج.
(10) في (ش) و (ف) : (منصبا) بدل : (قدرها).
(11) القصيدة أكثر مما أورده المؤلف إذ يبلغ عدد أبياتها 52 بيتا.

الأبصار، ولا أظن الوهوط(12) الذي كان لعمرو بن العاصي رضي الله عنه بالطائف يبلغ عشر أگدال، فإن الوهوط كان يعْرش في كل سنة بمائة ألف خشبة، كل خشبة بدرهم كما ذكره في القاموس، وأگدال لا أظن يكفيه مثل ذلك عشر مرات، وكنت أردت ذات يوم أن أعد جهة واحدة منه فغلطت وضاع الحساب، وكذلك المسرة التي كانت للموحدين لا إخال إلا أنها دون أگدال بكثير والله أعلم.

فلله در مولانا المؤيد ما أعلى همته، وأعظم حرمته، وأكثر نعمته، فإن السلطان الناصر المنصور سيدي محمد رحمه الله تعالى لو وجد السبيل إلى إدراكه لهذا ما كان يكتفي بالنيل أو رضوان أو يحتاج الى حصيرة أو عافية، وربما أدرك المتأخرون ما عجز عنه كثير من المتقدمين كما قال ابن مالك في التسهيل(13) ثم لما فرغ مولانا من شأن أگدال رجع لفاس لتفقد تلك النواحي وثغور السواحل مع أن أقطار المغرب كلها قد عمها الهناء والسرور ببركة وجود مولانا المنصور المؤيد لاسيما بعد ورود ولده البار المبارك السعيد سيدي محمد، فإنه ورد من تافلالت في طالع قد احتفت به السعود من كل جانب، وبوروده تهيأت لمولانا المؤيد جميع المطالب، وأكمل الله له جميع المرادات، وأقبلت لحضرته العالية جميع الإفادات، وأتم الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأفعم بالفتوحات والخيرات موارده ومعاطنه، وكان مولانا أمير المؤمنين المؤيد يذكر من يمن ولده هذا، وبركة وجوده أنه من يوم لاحت غرته، وأضاءت بنورها حضرته، تحولت حالته من الضيق الى السعة، ومن التعب إلى الراحة والدعة، وكان قبل ذلك من العيش في شدة شديدة، ومشقة عتيدة، فلما ولد عنده فاضت عليه الخيرات، من جميع الجهات، وكان لما حملت أمه به يترقب مولده ويتشوف إليه، ويتحين زيادته لديه، لأن وليا من الأولياء يقال له مولاي أحمد مشهور بالولاية، لما تزوج أمه هنأه بها وقال له : استوص بها خيرا فإذا ولدت ولدا فسمه باسم النبي

---

(12) كذا بالأصول المعتمدة والصواب : الوهط بالأفراد والوهط بفتح فسكون وطاء مهملة : المكان المطمئن المستوى الذي ينبت العضاه والسمر والطلح والوهط كما في معجم البلدان قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو بن العاصي قال ابن الأعرابي بالوهط يصفها :

"غرسُ عمرو بن العاصي بالوهط ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة ابتاع كل خشبة بدرهم فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال : أحب أن أنظر إليه فلما رآه قال : هذا أكرم مال وأحسنه ما رأيت لأحد مثله لولا أن هذه الحرة في وسطه فقيل له : ليست بحرة ولكنها مسطح الزبيب وكان زبيبه جمع في وسطه فلما رآه من البعد ظنه حرة سوداء". انتهى من معجم البلدان بتصرف.

(13) (التسهيل) كتاب لابن مالك في النحو.

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو سبب ربحك وسعادتك، وسيكون له شأن عظيم، فلذلك كان يستشرف إلى طلعته الملازمة للبشرى، المقابلة بالرحب والسهل ألفا لا عشرا، هكذا حدث مولانا المؤيد الفقيه العلامة البركة مولاي الهادي إمام الحرم الإدريسي رحمه الله، وأخبرنا الفقيه المذكور بذلك مرارا، والولد المذكور هو أمير المؤمنين اليوم أدام الله عزه ونصره ، وزين بدوام سعوده زمانه وعصره، فلما ورد الولد المظفر على الوالد المؤيد استبشر بثبات قدم عزه في مقام الملك الشامخ، والمجد الباذخ، فتهيأ لإعمال الحركة للحوز بقصد تخريب القرية الشرادية وتشتيت شمل جموعها، ومحوا آثارهم من ربوعها، فكتب لأخيه وخليفته مولاي المأمون أن يحشر القبائل الحوزية أعرابها وبرابرها، ويربط على زرارة والشبانات وأولاد دليم ومن انضاف إليهم، وخرج مولانا المؤيد من فاس بالعساكر السلطانية من العبيد والوداية وأهل الغرب وبني حسن وآيت ادراسن وزمور، وكتب إلى الشاوية ودكالة أن تكون خيلهم موجودة حين يمر عليها، فلما خرج من الرباط تعرض له الحجاج الذين نهبهم اشتوكة والشياظمة الذين في حوز آزمور، وشكوا إليه بهم، فصرف الوجهة إليهم حتى فتك بهم وشرد بهم من خلفهم، وتركهم عبرة للمعتبرين، فامتلأت أيدي المحال بأموالهم ومواشيهم بعد ما نسف زروعهم نسفا، وكانت هذه الوقعة طالعة الفتح ومقدمة الظفر.

ثم ازدلف بتلك الكتائب المنصورة، والعساكر المحشورة، حتى نزل على تلك القرية المنسوبة الى الشرود، تفاؤلا على رئيسها المخذول المطرود، فحاصرها مولانا المؤيد حصارا هائلا يذيب الحديد، وكان أهلها أولى بأس شديد، وحزم عتيد، فأوقع الله بينهم التنافر والخلاف، لما أراد الله بهم الإهلاك والإتلاف، فدخلهم الجزع، وتمكن منهم الفزع، فطلبوا العفو من أمير المؤمنين والتأمين، فعفا عنهم وأمنهم على شرط أن يخرجوا بأنفسهم وأولادهم وينتقلوا عن بلادهم، وفر صنمهم المعبود، بعدما أنفد في الدفاع غاية الجهد المجهود، فوقع عليه البحث والاستقصاء فخفي أثره حتى ظهر بعد مدة بسوس الأقصى، وأما قبائله فاجتاحتها الجوائح، وأطاحتها الطوائح، وعاد أمرهم بمنزلة الهبا، والنعم التي أطغتهم أيادي سبا، وأدركتهم دعوة مولانا سليمان السلطان العادل، التي تنشق لها الحجارة

وصُمّ الجنادل، والله تعالى قد يرجئ المتجاسر على حرماته، ويمهله ولكنه لا يهمله :

وهيهات أن ينجو الظلوم وخلفه   سهام دعاء من قسي ركوع

فسلط الله عليهم مولانا المؤيد آخذا بالثأر، بسيفه الصارم البتار، فسقاهم كأس الردى وأراهم كيف يكون مآل الطغيان والاعتداء ، وأشمت بهم الأعدا، فتركوا الديار بغير اختيار، وساروا الى بلاد أزغار، في أسمال الذلة والصغار، تحملهم الإبل ثلاثة أو أربعة على بعير، الذكر والأنثى والكبير والصغير، وأما الأموال والمتاع، وذات الحافر والكراع، فقد سارت بها الجنود المجندة، وتركت عجائزهم ومشايخهم في البراح كالخشب المسندة، ثم لما ظهر مرابطهم بحيث ذكرنا بعد زمان مديد، وجه من يشفع له عند أمير المؤمنين فشفع فيه، وأبدل تلافه بتلافيه، وقابله بالتجاوز والصفح، ثم ولاه على قومه فعاملهم بالإساءة والقبح، فعادت محبتهم المفرطة، عداوة محبطة، فاستغاثوا بالسلطان راغبين في عزله، والإراحة من ولايته بنقض غزله، ونعوذ بالله من رجعة النجم بعد استقامته، ومواخذة العفو الكريم وانتقامته، ثم طلب من السلطان المؤيد أن يأذن له في الحج، فأذن له فحج ورجع، ثم ولاه أيضا على إخوانه فلم يقبلوه، فعزله عليهم وسجنه مدة طويلة حتى ولي السلطان المظفر أمير المؤمنين نصره الله فسرحه، ولما ورد خبر هذا الفتح لفاس ومكناس، فرحت الناس، وزينت الأسواق، وركبت الخيل للمسابقة، واللعب، وضربت الطبول، وبرزت الزينة، ثم خرجت الأخبية والأبنية والمضارب لوادي فاس للتنزه، ونظم العلماء القصائد في التهاني لمولانا أمير المؤمنين، ووجهها القاضي العلامة مولاي عبد الهادي(14) لحضرة السلطان بمراكش، ولما أنشدت بين يديه بحضور البلغاء النقاد كالوزير الأعظم السيد محمد بن إدريس، والفقيه السيد عبد الله الديماني(15) فوقع الازدراء بالقاضي والغض منه، حيث وجه للحضرة العالية ما لا يناسبها من القصائد الركيكة الخالية حتى من الإعراب فضلا عن الوزن فضلا عن أسرار البلاغة التي تزف لحضرات السلاطين العظام،

(14) عبد الهادي هو ابن الفقيه مولاي عبد الله، الحسني العلوي السجلماسي المدغري وكان من الأئمة المعتبرين، والأعلام المشهورين توفي عام 1272 هـ - 1855 م "السلوة" ج 1 ص 117 "الإعلام" ج 8 ص 505.

(15) عبد الله الديماني : لم نقف على ترجمته

وذلك أن القاضي لما لم يكن من أهل هذا الشأن، لم يميز بين اللُّجَيْن واللُّجين، فصار كل من أتاه برقعة مكتوبة وقال له قصيدة أريد توجهها للسلطَان أخذها حتى جمع من ذلك شيئا كثيرا من الغث والسمين، والرخيص والثمين، وكان الفقيه العلامة الشريف سيدي محمد بن الطاهر الفلالي(16) حاضرا في الحضرة السلطانية، وكان يقرأ البخاري وكان بينه وبين القاضي منافسة تامة، فبالغ في تشنيع ذلك حين وجد سببا حتى أمر مولانا أمير المؤمنين بعض الحاضرين من الدائرة أن ينعي على أهل فاس ما فعلوه من توجيه تلك الأقوال السخيفة التي لا تليق نسبتها لحضرة فاس التي هي محل النفيس الفاخر من كل شئ، فنظم ذلك البعض ذلك كما أمر، وهو العلامة أبو محمد السيد عبد الله الديماني، ووجهه مولانا السلطان لحضرة القاضي، ووجه معه كتابا يقول فيه : إن من رد علي هذا القائل يقطع رأسه، فقرئ ذلك بحضرة القاضي بعد جمع أصحاب القصائد الموجهة كلهم، وإحضار الدراهم التي أمر مولانا السلطان أن يعطي منها لكل واحد على قدر شعره، حتى إن منهم من جعل له مائة مثقال، ومنهم من جعل له مثقال واحد، ثم إن القاضي أنف من ذلك ولم يظهر كتاب التفاضل وسوى بين العالي والسافل، والشارق والآفل، وكتب إلى السلطان بذلك، وكان مقبول الكلمة عنده، ومن القصائد قولنا :

بشائر لا تحيط بها الشروح ... كأن سميعها فنن مَرُوحُ
سقى ربع البشير بها غمام ... يباكره هتونا أو يروح
تفديه المحافل وهو يشدو ... فتوح في مضمنها فتوح
وتأمل أن تقبله الغواني ... تذيل له المباسم أو تبيح
بشائر كاد يسمعها دفين ... ويسرى بالجماد بهن روح
شفى المولى المؤيد كل صدر ... به من قبل وقعتها جروح
وأدرك ثأر عصبته وأضحى ... لعزة قدره شرف صريح
لقد حسم الفساد بكل أرض ... فساد لنا به الدين السميح
وزر على زرارة كل خزي ... تشق له المجاسد إذ تنوح
وقد كانت تصر على ازورار ... وكانت لا ينهنهها قبيح
ومن كانت مراكبه جماحا ... فسحقا حين يصرعه الجموح

---

(16) محمد بن الطاهر الفيلالي : لم نقف على ترجمته

أتيح لهم لحَيْنهم جهول غوى للضلال له جنوح
يقودهم الى العصيان سرا ويظهر أنه البر النصوح
يحدثهم إذا ما حم(17) خطب حديثا كان مصدره سَطيح
هو الدجال في سَمْت وفعل فمن يدعوه مهديا وقَيح
فأهلكه الإمام فكان عيسى كذا الدجال يهلكه المسيح
فصير دار منعته فلاة على أطلالها البوم السنيح
وفرعن الذمار على حمار عليل العرض جؤجؤه صحيح
فيا لؤم الذليل فلا وهين فيعذر بالفرار ولا جريح
وخير من حياة في هوان يبوء به الفتى موت مريح
أيطمع في النجاة فلا نجاة سيدركه الهزبر المستبيح
إذا كان السراب له بحارا تخوض إليه سلهبة سبوح
ستدركه العزائم من إمام تدك له المعاقل والصروح
إمام قد أعاد لنا سرورا وجاد لنا به الزمن الشحيح
أعز الله ملك بني علي بصولته وتم له الوضوح
وجرد من جلالته حساما يزيل به الضلالة أو يزيح
وقد كان الخلائق في ظلام فلاح على الخلائق منه يُوح(18)
وأصبحت المكارم باسمات وكان على مناظرها كلوح
أغر معود للنصر ساع إلى العلياء مسعاه نجيح
يخاطر في منال العز دأبا برأي كل مدركه رجيح
فرايات السعود عليه نشر وساحات الفخار لديه جوح
أبا زيد فأنت لنا ملاذ وجاهك في المهم لنا فسيح
فقد زانت مآثرك الليالي ولاح لعدلك الوجه المليح
وهذا الدهر كالطوفان موجا وطاعتك السفين وأنت نوح
وأنت خليفة الرحمان من لا تؤمنه فمشربه نشوح
كما أن الشبانة حين زاغت وهب لها من الطغيان ريح
عصفت عليهم بالبأس تزجي كتائب كالسحائب إذ تلوح
فألقيت الجران على ذراهم بجيش كلهم بطل مشيح
فجاء العفو منك وهم ثلاث أسير أو كسير أو ذبيح

(17) في (ف) : (طم) بدل (حم).

(18) يوح بالياء المثناة اسم من أسماء الشمس.

وقد قسمت بلادهم بعول ... ودورهم كما قسم الوطيح[19]
وكم نطحت مكايدهم قديما ... بني سعد وزيدان نطيح
فظنوا آل إسماعيل يرنو ... بغير الحزم طرفهم الطموح
وما علموا بأبكم سيوف ... بحدكم نجيعهم سفوح
أبا زيد إذا تبقى عليهم ... بصفح ربما ندم الصفوح
فلا تحلم فإن الجرح يكوى ... طريا بالمحاور أو يقيح
فلا زالت بك الدنيا عروسا ... ومجدك من مفارقها يفوح

ولنا أيضا باقتراح القاضي للقافية والوزن لبساط اقتضى ذلك :

فرحا يدوم لنا على الآباد ... ورد البشير ببرد الأكباد
جاد الإله وذاك من أوصافه ... بمسرة تسري بكل فؤاد
لما أفاض على الأمير مواهبا ... ظفرت مقاصده بكل مراد
مازال ينصره على أعدائه ... سبحانه ذو الفضل والامداد
حتى أقام به قواعد ملة ... جلت مآثرها عن التعداد
فالدهر مبتهج وكل زمانه ... آناؤه في الحسن كالأعياد
ملك مواطئه النجوم وخيله ... مستنة بمرابض الآساد
ملك يذيب المرهفات جلاله ... ملك يهد رواسي الأطواد
إن كان ينماع الحديد لبأسه ... أنى يلام الشارد الشرادي[20]
فليذهب الضليل طوع عنانه ... فالسيف حول النطع بالمرصاد
باغ تباشرت البلاد لفقده ... فلتهنإ البشرى لكل بلاد
وليهنإ المولى المعظم قدره ... قاضي قضاة العصر عبد الهادي
شيخ الجماعة عالم العلماء من ... هو واحد في مجمع الآحاد
زاك تلت أيامنا آياته ... لتَعَوُّذٍ من جنّة الإلحاد
وأغاث ربع الدين صيب علمه ... فَانشق زهر العَدل والإرشاد
يا أيها العلم الملوذ بظله ... من حر أزمان علينا شداد
زفت لك العلياء زف خريدة ... فأتيتها بجواهر الإنشاد

ومما أعجبني من تلك القصائد المتكاثرة قول بعضهم وأظنه الفقيه العلامة أبا محمد عبد الله الديماني أبقاه الله آمين.

(19) الوطيح : حصن من حصون خيبر.

(20) هو المنصرص عليه في وقعة زاوية الشرادي. حيث هنأ المؤلف المولى عبد الرحمن بهذه الدالية لانتصاره على الشرادي وجماعته.

بشـرى تقـر بأعيـن الإيمـان ... كالوصل ينسـخ دولـة الهجـران
جاء الزمـان بها علـى مقداركم ... فتقاصرت عنهـا خطى الأذهـان
أين المفـر لمن عتا عـن أمركم ... أتـرى البغـاث تفـوت للعقبـان
ألا هو(21) أمر الله غير منازع ... لاح الصبـاح لمـن لـه عينـان
يـا مـن يطالـب أمرهـم بدلائـل ... أتطـالـب البرهـان بالبرهـان
إن كنت تجهـل فالحسام معلـم ... يشفـي البرئ بـه ويشقـى الجاني
كم من غـوي قد عتا عن أمرهم ... كـزرارة فسـرى الـى الخسـران
أين المفر لكل مـن شق العصـا ... يوم الكفاح إذا التقـى الجمعان
لم يمنـع الأعـداء منيـم معقـل ... لـو أنهـم صعـدوا الـى كيـوان
لكهنـم بـاءوا بأخسر صفقـة ... فكأنهم عصبوا أبـا غبشان(22)
جيش تسد وفوده مسرى الصبا ... وتـهـد وطـأتـه ذرى ثهـلان
يا مالكا مـلأ الوجـود محاسنـا ... لا تختفـي عن أعيـن العميـان
أجريـت بيـن المعتفيـن مكارمـا ... يسلـو الغريـب بها عن الأوطان
لو قيل للغيث اعترف لم يعترف ... إلا بفضـل نـداكـم الهتـان
إنسان عين الدهـر أنـت، وإنمـا ... تكميـل شكل العيـن بالإنسـان
ذكراك في الأفواه يعذب كاللّمى ... وتخـف كالبشـرى علـى الآذان
أيقظـت جفن الحق من إغفائـه ... وأقمـت ميلـة عطفـه الكسـلان
ألقى لك الزمـن العصـي زمامـه ... وعنـا لطاعـة أمـرك الثقـلان
فالدهـر دونـك دافـع ومدافـع ... وصـروفـه لكـم مـن العبـدان
فإذا أشرتـم فـي الزمـان لمقصـد ... كان القضـاء لكـم من الأعـوان
أخلصـت للرحمـان في طاعاتـه ... فلذا دعيـت بعابـد الرحمـان
ألقيـت رحلـي في ذراك مخيمـا ... فجريت في الآمال طوع عناني
وتركـت أوطانـي وجئـت وإنمـا ... من فرط حبك غبت عن أوطاني
يا ليـت قومـي يعلمـون بأننـي ... من جودكم أرد الفرات الثانـي
لا زلتـم فـي أسعـد مبسوطـة ... مقبوضـة عنهـا يـد الحدثـان

ثم وجه السلطان أخاه مولاي المأمون بن هشام لاقليم سوس وجباية زكواتهم، ورجع السلطان لفاس ووجه القائد محمد أميمون الجرواني عاملا

(21) كذا بالأصل ومثله في (ك) و (ش) و (ف) أما (م) ففيها : (الأمر أمر الله...) وبه يستقيم عروض البيت.
(22) كذا بالأصل ومثله في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها : غصبوا بالغين وهو الأنسب للسياق وأبو غبشان هو المحترش بن حليل الخزاعي كان يتولى سدانة الكعبة قبل قريش وكان اجتمع مع قصي في مجلس شراب فأسكره قصي واشترى منه مفاتيح الكعبة بزق خمر وضربت به الأمثال في الندامة وخسران الصفقة... انظر تاج المرتضى ج 4 ص 329 مادة غبش.

لطنجة، وعزل العربي السعيدي، ووجه السيد الطيب البياز أمينا على مرساها، ووجه سيدي محمد بن الطيب لتافلالت وكان واليا على الشاوية ودكالة وقبائل الحوز فعزله وتوجه للصحراء فأخفق مسعاه فيها ولم يجد شيئا فرجع، ووجهه السلطان لوجدة فرجع كذلك بلا طائل.

ثم لما أخذ العدو الكافر بلاد الجزائر وذلك في محرم سنة ستة وأربعين ومائتين وألف جاء أهل تلمسان ووهران وأعيان تلك المملكة الى مولانا السلطان المؤيد، ورغبوا في الدخول تحت طاعته والاكتناف في كنف ولايته، فامتنع من ذلك وشاور في أمرهم أعيان الدولة وأهل دائرته، فاختلف الناس عليه في ذلك، فمنهم من زين له ذلك وقال له : إنما هي طعمة باردة، وسلطنة زائدة، كثيرة الفائدة، ومنهم من نهاه عن مقاربتها على كل حال، وهؤلاء هم أهل العقول الراجحة، والآراء السليمة، والطريقة الواضحة، فقالوا إن تلك الناحية تنور متقد الجمار، لا يصلح تملكها إلا لكل جاف جاهل حمار، كالأتراك السفهاء الأغمار، وأنها ما أضيفت لهذه الدولة قط إلا أثرت فيها فسادا وخللا، وأظهرت فيها آفات وعللا كما علم ذلك في أخبار الدول السالفة، وكان ممن زين له في قبول ذلك القاضي مولاي عبد الهادي لعدم اطلاعه على أحوال سابقي الأمم، وأخبره بذلك بعض الناصحين ليرده عن ذلك، فكان في حاسة سمعه صمم، وكان مولانا السلطان المؤيد يعتمد رأيه في المهمات، والنوائب العظام الملمات، فقبل السلطان مرغوبهم، ووجه معهم المحلة من العبيد والوداية، وحراك القبائل الغربية مع ولد عمه مولاي علي بن سليمان، وكان مولانا المؤيد قد انتقى تلك المحلة ولم يتوجه فيها إلا الأعيان، وكانت كلها رءوسا، مثل الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر العقيلي، وابن فرحون، وإدريس بن حمان [عامل وجدة](23) وأمثالهم من العبيد، وكان الوداية قد تناهوا في الصعود والعروج، حتى مالت بهم السروج، لأن مولانا السلطان قد بالغ في إكرامهم، وإعلاء شأنهم، وكان ذلك سببا في فسادهم وطغيانهم، فلما بلغوا تلمسان وجلسوا بلا شغل ولا قتال ولا ترويع وجدوا تلك البلاد كالغنم السائمة، التي مات راعيها وكل واحد يقول : أنا لها، فانتشأ من

(23) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

ذلك فساد البواطن، وتكدير المعاطن، فلما رجعوا رجعوا كذلك، فأنهي ذلك إلى علم مولانا المؤيد فأمهلهم أياما ثم دعا ابن الطاهر العقيلي وكان هو قائد المغافرة، وعلى مركزه كان مدار ذلك الفساد، فلما وقف بين يديه وبخه وشنع عليه سوء أفعاله وعددها، ثم أمر بقبضه وتوجيهه للسجن، فخرجوا به وهو يضحك لأنه في صبيحة ذلك اليوم تحزبوا علي أن من قبض منهم يطلقه الآخرون، فلما بعدوا به عن باب دار السلطان وجدوا الطاهر بن مسعود وحزبه جلوسا في الطريق، فقاموا وأطلقوه من يد من جاءوا به بعد محاربتهم حتى جرحوا إدريس البواب أحد القابضين له، فقامت حمية أصحاب السلطان لمدافعتهم فغلبتهم شيعة أهل الفساد، لأنهم قد استعدوا لذلك والناس غارون غافلون، فماجت فاس الجديد موج البحار، وبرزت ضباب الفتن بعد الانجحار، وزلزلت الأرض زلزالها، وأظهرت الدنيا أهوالها، ونكرت أحوالها، وأظلمت من فاس البالي أرجاؤها، وسبقت عند منقلب الدود عرجاؤها، وأشاع المرجفون أن السلطان قتله الوداية فتسارعت الغوغاء والهمج الى الطيب الوديني عامل فاس يريدون قتله، فهرب ودخل داره وسد الباب، وتفرق من معه من الأعوان والأصحاب، وأما مولانا المؤيد فإنه لما وقع ذلك ركب وخرج من باب البوجات، وتبعه أصحابه ومن حضر معه من العبيد المسخرين وغيرهم، منهم من ركب، والجل على أرجلهم، فلما رأى الوداية السلطان خرج ركبوا وخرج أهل قصبة اشراقة بحذافيرهم وأدركوا السلطان عند قنطرة عياد، فنزلوا الى الأرض يقبلون حوافر فرسه ويتشفعون له، ويتبرأون من فعل السفهاء، وكلهم في الحقيقة سفهاء، وكان الحال إذ ذاك حال مطر خفيف، والشمس قد غربت أو كادت تغرب، فساعدهم على الرجوع فرجعوا به الى قصبة اشراقة لدار ابن فرحون، ثم تلاحقت عقالهم وكبراؤهم فجاءوا وطردوا الغوغاء فركب السلطان فجاءوا به حتى دخل الدار العالية، فلما أصبح طلع أهل فاس الحاج الطالب بن جلون والأشراف والعلماء ورؤساء الوداية غير الطائفة المتمردة، وأخذوا بخاطر مولانا المؤيد فأظهر لهم الرضى والعفو، فسكن الحال بعض السكون، فجلس السلطان أياما حتى اطمأنوا وظنوا أنه نسي فركب في غفلتهم وذهب لبستان أبي الجلود، فانحازت أصحاب السلطان كلهم لفاس البالي، العبيد والأحرار، ووجه السلطان لعبيد البخاري بمكناس

أن يقدموا عليه، فجاء القائد بوسلهام وأصحابه المسخرون والتباعة، فلما قربوا من فاس ركب الوداية وتحالفوا أنهم لا يتركون العبيد يدخلون، فحاربوهم حتي دخلوا رغما على أنوفهم، ومات من الفريقين عدد كبير، فدخل العبيد لقصبة أبي الجلود مع السلطان وأهل فاس، وبقيت الوداية وحدهم، ثم تهيأ السلطان للخروج فخرج على طريق قبقب على بلاد أولاد جامع، وكانت الوداية قد وافقهم بعض البرابر فتبعوا المحلة يوم خروج السلطان فنهبوا كل من تأخر، فبلغ السلطان دار ابن يش، ومنها توجه لمكناس {وقد اختصرت هذه القضية أشد اختصار، وليس لقصور في اللفظ ولا لانحصار، ولكن المجال فرج والمقال ؛ بر منفرج}(24) فكتب للقبائل كلها للحوز والشاوية ودكالة وبني حسن وأهل الغرب وزمور وآيت ادراسن، فاستعد السلطان للحركة إليهم غاية الاستعداد، فلما تهيأ لذلك زحف إليهم بتلك الجنود التي لا قبل لهم بها، وكانوا في أثناء المدة التي أقام السلطان بمكناس يستغوون القبائل في الدخول معهم في حزبهم، فبعضهم يعدهم ويمنيهم، وبعضهم يردهم خائبين، وكان أولاد جامع ممن خالفهم وجاهرهم بالرد، فاستضعفهم الوداية وركبوا إليهم يظنون أنهم يستأصلونهم في ساعة واحدة، فأعان الله أولاد جامع فهزموهم هزيمة قبيحة، فقتلوا منهم عددا كثيرا وأخذوا كثيرا من الخيل والعدة ورجعوا خائبين، ثم لما أراد الله تعالى فضيحتهم والانتقام منهم، وجهوا طائفة منهم لابن الطيب وهو عامل بتازا وجاءهم مسرعا، وبايعوه فبذلك تبرأ جميع الناس منهم لأن ابن الطيب مبغوض عند جميع المسلمين {فلم يوافقهم على ذلك أحد إلا ما كان من جماعة من أهل العدوة أحداث أغمار استهوتهم الأوهام، وخانتهم العقول والأفهام، فخطبوا بابن الطيب يوم الجمعة بجامع الأندلس، وكان الخطيب لهم الشريف سيدي عبد الوهاب القادري(25) ولم يساعدهم أحد من أهل فاس البالي على ذلك، فانفرد الوداية بجريرتهم حتى أخذوا بسوء سريرتهم}(26) فلما جاء السلطان نزل عليهم وحاصرهم ونصب عليهم المدافع والمهاريز، فكان الضرب عليهم من المحلة بعين قادوس ومن بستيون بو الجلود وبستيون باب الجيسه وبستيون باب الفتوح، والقتال عليهم كل يوم

(24) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما. وفي (ش) فرج مكان حرج.
(25) عبد الوهاب القادري ت 1282هـ 1865م «الرفيات» ص 70.
(26) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) ثابت في غيرهما.

من كل ناحية، ولا يدخل إليهم شئ من المرافق حتى أشرفوا علي الهلاك، فوجهوا للحاج الطالب بن جلون وطلبوا منه أن ينظر في الصلح مع مولانا المؤيد، فكان يتردد بين السلطان وبينهم أياما، والسلطان كان عزم على المقام عليهم حتى يمحو آثارهم من الوجود، ولو أقام عشرة أعوام، وأراد البناء عليهم وجاء اللواحون وشرعوا في البناء، ثم لم يزل الحاج الطالب وقواد العسكر ورؤساء الأجناد يرغبون من السلطان في قبول التوبة منهم والصفح عنهم حتى أنعم بذلك علي شرط الخروج من فاس الجديد، فقبلوا ذلك على أن يمهلهم ريثما يتهيأون، فأمهلهم وخرجوا للاستشفاع بالصبيان والألواح والمشايخ والعجائز، ومعهم سلطانهم المذكور، فأظهر لهم مولانا المؤيد العفو والقبول، ثم ارتحل لمكناس وأطفأ الله نارهم التي أوقدوها، فلم يحترق بها أحد غيرهم [ومن ساعدهم من أهل العدوة](27) ‹وقد أعرضنا عن شرح حقيقة هذه القضية الهائلة فإن شرحها يفوت المقول ويذهل العقول›(28) ثم بعد ذلك أمرهم مولانا بالارتحال متفرقين، فرحل الوداية للعرائش، وأهل سوس للرباط، والمغافرة للحوز، وذلك بعد ما رجع السلطان لمراكش، ثم قبض على الطاهر بن مسعود، وابن الطاهر وابن فرحون وأمثالهم من مساعير الفتون، وأما إدريس بن حمان فهو مومن آل فرعون من أول الأمر الى آخره، وهو محل نظر السلطان وعيبة أسراره معهم، فأنجاه الله تعالى وأبقى السلطان عنايته عليه، ورفع له منار العز في قومه حتى مات وسدل ذلك الرواق على أولاده، ثم لما استقر السلطان مولانا المؤيد بمراكش أمر بقتل الطاهر بن مسعود وابن الطاهر في الموضع الذي أطلق فيه الأول الثاني، وكان الذي وقف على قتلهما الحاجة زويدة[*] إهانة لأمرهم، ومن حلم مولانا ورحمة الله التي جبله الله عليها وملأ بها باطنه لم يواخذ غير هذين اللذين هما أصل الفتنة، وقد كان أراد العفو حتى عن هذين لأنه نوى أن لا يواخذ أحدا كما حدث عنه بعض جلسائه، قال : وكل من عاقبه السلطان على هذه الفتنة إنما كان بإلحاح رجلين عينهما فأعرضنا نحن عن تسميتهما غفر الله لهما.

---

(27) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(28) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(*) الحاجة زويدة عريفة الدار العالية بالله.

ثم وجه السلطان وصيفه ابن عبد الصادق لسوس وكان واليا على مراكش فأمره أن يترك خليفته بمراكش الحاج عمر النجار، وذلك بعد فراغ مولانا المؤيد من إقامة العرس المبارك الذي ما سمع مثله منذ أزمان، وهو عرس ولده البار مولانا محمد أمير المؤمنين المظفر، فقد احتفل به غاية الاحتفال، وأظهر فيه من الأبهة الملوكية، وزينة الحياة الدنيا السلطانية، الخارقة للعوائد، الدالة على ضخامة الملك وفخامته، مما تذهل العقول عند سماعه، وتكل الألسن عن وصفه، وكان ذلك بحضرة مراكش، وأمر السلطان أهل فاس والقرى والمدائن كلها أن يوجهوا العلماء والأشراف والأعيان والتجار، وأكابر كل حرفة، فجاء أمين الأمناء وقهرمان الدار العالية السيد علال الشامي، وحشد كل من يحسن شيئا من أنواع الطبخ من أهل فاس وأهل تطوان وأهل الجزائر المستوطنين بفاس، وكل أهل الموسيقى وأنواع الملاهي والطرب والآلات المعدة للأفراح والسرور، فلما وردوا مراكش هُيِّئَ لهم محل متسع من بساتين السلطان بالقصبة يسع العالم، فاشتغلت كل طائفة بما هي بسبيله، وقد فرشت القباب والمنازه والمقاعد والمجالس بالفرش المنضدة، والستور المزخرفة، والبسط الديباجية المذهبة، وأفيضت نعم الله وبركاته الواكفة على الحاضرين، الخواص والعوام، ولم يحجب فيها أحد، واستمر الحال على ذلك عدة أيام حتى سئم الناس من ترادف الخيرات، وتكرر المفرجات المسرات، وكثرة الغيث والمطر، قد يعد من الخطر، وبالجملة، فهي وليمة تجلى الله فيها بصفة الإحسان والرضى، وأشرق نور جماله على الكون فأضا، وانهلت مواهبه فطبقت الفضا، ونودي لها كل حسن بلسان الكمال فأجاب الندا، وأهانت هذه الوليمة وليمة بوران وقطر الندى، ومن بركات هذه الوليمة أن مولانا المؤيد بفراغه منها استوى على كرسي السعادة والراحة، وأتته جميع المقاصد من غير أن يوجف عليها خيلا ولا ركابا أو يمد إليها الراحة، فإنه صدر ولده العروس، السلطان المظفر المحفوظ المحروس، فألقى إليه جملة أمره بأزمته، وفوض إليه كلية ملكه برمته، فكفاه جميع المهمات، قام دونه في النوائب والملمات، فتمهدت الأقطار بيمن إمرته، وسعادة غرته.

ولما زهد مولانا المؤيد في إيالة الجزائر، وتخلى عنها بعد ظهور شؤمها، وخستها ولؤمها، طمع فيها كل فتان مغرور، كولد محيي الدين

المعسكر موقد نيران الشرور، وكان مولانا المؤيد في أول الأمر ربما أعانه وأمده، لأنه يظن أنه في تلك الناحية لأهل الإسلام عدة، وأن طلب الحق هو الذي أنهضه وأعده، فنما أمره حتى بلغ أشده، وبرقت له بارقة فتعدى طوره وتجاوز حده، حتى إنه من فرط جهله، طمع في مملكة المغرب كله، وكان يصرح بذلك جهارا، ويظهره في محافله إظهارا، فجعل يستهوي بعض القبائل الريفية والجبلية. وشاع ذلك حتى تحققه مولانا المؤيد فوجه محلة لتلك القبائل يستكشف باطن الحال مع القائد محمد بن سالم الأحمر المالكي العروي، فقتل غيلة ورجعت المحلة، فازداد بذلك طمع المغرور، فجعل يحبو في تلك النواحي إلى تازا حبو الخائف المطمئن، تارة يتقدم، وتارة يتأخر، وتارة يتيامن وتارة يتياسر، ثم دبر مكيدة، ووجه شرذمة عتيدة، وأمرها أن تظهر أنها منه فارة هاربة، مع أنها مستبطنة أفاعيه وعقاربه، فجاءوا حتى قربوا من فاس ونزلوا، فطلبوا التأمين والأيواء، وزاد هو في حبوه وزحفه حتى نزل بالقعدة الحمراء، وهو يخفي أمورا ويظهر أمرا، فلما تفطن مولانا المؤيد لتلك الدسيسة أمر باجتياح تلك الشرذمة الخسيسة، فسارت إليهم الخيل والرماة، فدافعت بالقتال الشديد عن الأموال والحرمات، حتى إن منهم من قتل بنته وحليلته مخافة أن تؤسر وتهان بعده، ويتقابل اثنان منهم وقد أطلع كل منهما مكحلته، فيقول كل منهما لصاحبه أخرج في وأخرج فيك فيموتان معا. فلما حيل بينهم وبين ما يشتهون، وسمع المغرور ما وقع بقومه تأخر ويئس من نجاح تلك المكيدة، فرجع الى برابر الريف الصم البكم، فاشتغل فيهم بالإغواء يعدهم ويمنيهم، ويبعدهم من الخير وإلى الشر يدنيهم، فاشتد أمره فيهم وتمكن ناموسه، فخرج إليه أمير المؤمنين السلطان المظفر سيدي محمد بأمر والده بالعساكر المنصورة، والقوة القاهرة الغير المقهورة، فلما نزلت المحلة السعيدة بقربه، خنس الى الكيد على عادته ودأبه، فنادى في تلك البرابر الريفية، فجمعهم وأمرهم أن يتأهبوا في ليلة عينها لهم لتَبْيِيت المحلة، وقال لهم : إنه لا قدرة لنا على مكافحتهم نهارا. فجاء مَن أخبر مولانا المظفر، فأخذوا أهبتهم، فجاء المغرور في أثناء الليل بحرب شديد، فلم يصادف إلا النار والحديد، فرجع يجر ثياب الصغار والذلة والمهانة، بعد إنفاذ غاية الغلظة والمتانة، فأصبح في حوالي المحلة من جثتهم وجيفهم ما لا يعد ولا

يحصى، فأقلع عن محله متأخرا، فتبعتهم المحلة فضربت بقربه ثم صدمته صدمة الختام، ففر في سدفة العجاج والقتام، وترك مضاربه وخيامه، واستقبل ليالي الخزى وأيامه، وتوجه نحو بر النصارى، واتخذهم أعوانا على أهل الإسلام وأنصارا، ورجع مولانا المظفر ترف بألويته رياح النصر، وتقدمه السعادة التي لا نهاية لها ولا حصر، فلما بلغ حضرة مراكش أنشدته القصيدة النونية(29) المتضمنة للتهنئة بالظفر وبلوغ الأمنية.

وكانت خلافة مولانا المظفر عن أبيه مولانا المؤيد كخلافة السلطان سيدي محمد بن عبد الله عن أبيه مولانا عبد الله سواء بسواء، فقد أدرك كل منهما في أيام أبيه ما لا يقدر قدره، وخلد كل منهما من المآثر وشيد كل منهما من المباني والمصانع ما تعجز الأقلام عن وصفه، أما سيدي محمد بن عبد الله فقد تقدمت آثاره في رايته وراية أبيه، وأما مولانا المظفر فإن آثاره في أيام أبيه لا تحصر، فمن ذلك إجراء الأنهار، وتفجير العيون التي عجز الملوك المتقدمون عنها فتركوها بائدة مع كونها في أبواب ديارهم، ومناط استنباطهم واختيارهم، فنهض إليها مولانا نصره الله فأحياها بعد مماتها، ونسخ آياتها، فصير القفار رياضا ناضرة، ذات أزهار عاطرة، وثمار حاضرة، وغلل متكاثرة، وفاخرت بها مراكش غوطة الشام، وأنست بني مروان ملوك بني مولانا هشام، فمن ذلك تكميله ما أنشأه والده المؤيد من أغراس أكدال، فإنها في زمان المصيف تنالها المعطشة الفادحة، لأن البرك والصهاريج التي كان يختزن فيها الماء ويدخر من الشتاء للمصيف كما كان ذلك في أيام مسرة الموحدين قد تعطلت بامتلائها بالتراب والطيون التي تجلبها السيول إليها حتى بطل الانتفاع بها، وأكبرها البركة العظمى التي بدار الهناء، وكان يقال لها البحر الأصغر، لأن ملوك بني عبد المؤمن الذين أنشأوها جعلوا فيها الزوارق والأفلاك الصغار للتفرج والتنزه بها، وفي ذلك الصهريج غرق أحد ملوكهم وهو عبد الواحد بن المأمون كما تقدم في لوائهم، وطول هذه البركة اثنتا عشرة مائة قدم، وعرضها تسعمائة كما أخبرنا من قاسها، وهي أيضا مردومة عاطلة، وكانت دائرتها المربعة بمنزلة سور قصبة، فجاء من بنى في وسطها قرية

(29) لم نقف عليها فيما تبقى من شعره.

بدورها وأزقتها وأسواقها، فجاء مولانا محمد المظفر فأمر بإخراج ما في تلك البرك والصهاريج كلها وتنقيتها من الطيون المتحجرة، حتى صارت كالربى والهضاب العالية، لاسيما البحر الصغير الذي هو البركة الكبرى، فاجتمع على ذلك عوالم من المخلوقات حتى أفرغوا ما فيها وعادت البرك الى حالها الأول الذي وضعت لأجله، وهو اختزان الماء لوقت المصيف، وبذلك كمل المراد من أگدال وصار آمنا من العطش والهلاك، ومن ذلك أيضا إحياء عين أبي عكاز خارج المدينة يخرج إليها على باب الطبول، وتلك العين أيضا من آثار الموحدين، ولها بركة بائدة على الوصف الذي ذكرنا، فقام إليها مولانا المظفر ففجر لها عينا غدقا وأجراها إلى البركة التي صار طينها المتراكم طبقا طبقا، فأمر نصره الله بإفراغها وتنقيتها وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها، فعاد ذلك البسيط الذي حولها مزارع نفاعة، تغني الزارعين، وتبهج الناظرين، وبنى نصره الله حولها قلعة عجيبة يأوي إليها الحراثون بأنعامهم ومواشيهم، واتخذ هناك من الخيل الإناث المعدة للنتاج عددا كثيرا، ومن ذلك أيضا إحياء عين المنارة وبركتها العظمى التي تقرب من البحر الصغير الذي بدار الهناء المتقدم الذكر، وهي أيضا من آثار الملوك الموحدين أبناء عبد المؤمن بن علي، إلا أنها تعطلت منذ أزمان، فقيض الله لإحيائها مولانا السلطان المظفر، فأجرى لها العيون والأنهار، وجمع الخلائق لإخراج الجبال التي في جوف البركة وإلقائها خارجا، ورتب العملة في إصلاح ما اختل من حيطان دائرة البركة، وفي أقرب زمان عادت كأحسن ما كانت عليه، فأمر نصره الله بغرس ما دار حولها من الفضاء المتسع بأنواع الأشجار من الزياتين والتيون والفواكه الصيفية والخريفية، ضاهى بها أگدال الذي أنشأه والده المؤيد، فلما رأى مولانا المؤيد ما ابتكره سيدنا ومولانا المظفر تعجب من تسخير الله له ما عجز عنه الأولون والآخرون، وعلم أن قدرة الله تعالى لا تحد بحد، ولا تقيد بقيد، ومن ذلك أيضا إجراء النهر المسمى بتارقى المستمد من وادي نفيس، فإنه ضاهى به النهر القديم السلطاني المسمى بأسكجور، وهذا النهر المحمدي الجديد أنفع منه وأوسع مجالا، فقد أحيا الله به تلك البسائط، التي بين مراكش ووادي نفيس، وصار النهران به القديم والجديد بمنزلة الفرات ودجلة بأرض العراق ببركة مولانا المظفر، وقد كنت خاطبته نصره

الله لما أبطأ بفاس في بعض حركاته بالقصيدة الرائية وذكرت فيها المصانع المراكشية تشويقا له واستدعاء وهي هذه :

لك الخير تحدوه إليك البشائر ... هل اذكرت أحبابهن العشائر
أراهم على شحط المزار هواجعا ... وطرفي من طول التفرق ساهر
تحن إليهم كل حين ركائبي ... عشارا وتحكيها الجياد الضوامر
وترقص ما بين المرابط كلما ... سرى من حواليها الخليط المجاور
أما والذي لو شاء قرب دار من ... هويتهم والله ربي قادر
لقد نال منا البين ما لا تناله ... عداة بأيديها الصفاح البواتر
ولكن إذا ما الأمر بالغ وانتهى ... لغايته لاشك فالأمر قاصر
وقد آن من نور الصباح انصداعه ... فتنزاح بعد الانصداع الدياجر
إذا ما بدا وجه الإمام محمد ... فقد جاء نصر الله والفتح ظاهر
محمد نور الله في الأرض كلها ... محمد سيف الله للدين ناصر
سليل أمير المؤمنين وزيره ... ومن أهله يرضى الفتى من يوازر
وشبل ملوك من ذؤابة هاشم ... تراثهم ملك الورى والمفاخر
يجاذبه أنى تلفت سؤدد ... أوائله مشهورة والأواخر
فأعمامه مثل الشموس ضواحيا ... وأخواله مثل البذور زواهر
هو الملك الجحجاح ليس لمعتف ... سواه إذا دارت عليه الدوائر
هر السيد المرهوب يفلق بأسه ... رءوس الأعادي لا تقيها المغافر
يسير فتغشاه السعود مطيعة ... أماماً وخلفا حيث ما هو سائر
وتختفق الرايات فوق كتائب ... لها عزه ناه لهن وآمر
أسود على جُرْد إذا احتدم الوغى ... لها النقع غاب والسيوف أظافر
هو العالم البحر المحيط علومه ... تناقلها في الناس باد وحاضر
تضيء وراء الغيب أنوار رأيه ... فما هو راء فهو بالنجح سافر
به جبر الله المغاربَ فاغتدت ... صحاحا ونالت ما تروم المكاسر
أسيدنا يا كهفنا يا إمامنا ... دعاك اشتياق في الجوانح ثائر
دعاك إلى هذي المواطن أهلها ... فكلهم من فرط حبك سادر
دعاك الى أرض البديع منارة ... يزايل عنها الصبر من هو صابر
مبان كما شاء الجمال تكونت ... تحار بمرآها الأنيق النواظر
قباب على سمت السعادة شيدت ... تحف بها الأدواح وهي نواضر
فمنها التي في النيل تلعب حولها ... ظباء تجاريها المها والجآذر

وفي مدخل رضوان أخرى تصوبت | قد ابتهجت في جانبيها المشاور
وأخرى على أرض المصلى مطلة | قد اعتدلت أهواؤها والعناصر
وفي وسط الزهراء ذات مجالس | مفتحة تفتر فيها الأزاهر
ودار الهنا حول الخليج مقاعد | يلذ بها للسامعين المزاهر
وفي ابن عقيل للمقيل مسارح | يردد فيها الطرف والطرف حائر
كذلك أگدال الصغير الذي له | منارة عز ترتضيها المنائر
إذا انفجرت تلك المنارة أو جرت | فليست تضاهيها البحار الزواخر
وليس لفاس مثلها برياضه | وليس يحاكيها زرود وحاجر
ولكنها لا يستتم جمالها | وبهجتها إلا بأنك حاضر
فبادر أدام الله عزك وصلها | فكم حاز إدراك المنى من يبادر

ومن ذلك أيضا إجراء النهر الذي جلبه من تاساوت إلى بسائط القفار التي بين بلاد زمران والرحامنة والصراغنة وهي المسماة بفيطوط من جملتها كدى تملالت فعاد ذلك كله رياضا مخضرة، وبساتين ذات أزهار مفترة، ومزارع مضمونة، ومحارث مأمونة، وغابات من الزياتين ظليلة، تنظر الأبصار الى غايتها فترجع كليلة، وبنى فيها مولانا المظفر قصبة عامرة، يصرف فيها الفلاحون والوكلاء نواهيه وأوامره، وكانت تلك الفيافي مفازة مخوفة، ومهلكة للسيارة بشدة العطش موصوفة، تضل فيها القطا، وتقصر فيها الخطا، فأحياها الله وأمنها ببركة مولانا المظفر، وعمرها بعد الخلاء بيمنه الموفر، الى غير ذلك من الآثار العظام، التي أثلها وخلدها، والمباني والمصانع التي شيدها، ومرادنا بذكر هذا بيان الشبه الذي أشرنا إليه بينه وبين سَمِيّه جد أبيه، الذي ليس له سواه شبيه، وسيأتي ذلك في رايته المرفوعة بيمين السعود، الظافرة بالعز الموعود، ثم إن مولانا أمير المؤمنين المؤيد وجه ولديه مولاي سليمان ومولاي الرشيد لأداء فريضة الحج وزيارة سيد الوجود صلى الله عليه وسلم، ولما عزما على السفر المبارك أمر وزيره الأعظم الأجل الأكرم الفقيه لسان الدنيا البليغ أبا عبد الله سيدي محمد بن إدريس أن ينشئ قصيدة على لسانه يخاطب فيها جده خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم، ويشكو إليه بحال الزمان وأهله، فكتب إلي الوزير رحمه الله بما نصه :

بعد حمد الله والصلاة على رسول الله صدر الأفاضل، ومظهر

الفضائل، الفقيه العلامة الأخ في الله، والمحب من أجله فلان حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله، وبعد، فإن مولانا نصره الله أراد توجيه ولديه لحج بيت الله الحرام، وأمرني أن أنظم قصيدة على لسانه توجه معهما لحضرة رسول الله صلي الله عليه وسلم، يكون مضمنها التوسل إليه بالرحم والشكاية بهذا الزمان الذي قل فيه المعين على الحق، وترادفت فيه الأهوال، وتقلب الأحوال، وقد علمت ضعف أخيك وكثرة ما يعتريه من الأمراض، ولاسيما هذه المدة، فإني من يوم ورود هذه الحضرة المباركة، اشتد بي صداع لازم، ويكثر آخر النهار من الزوال إلى أنصاف الليل، عافاك الله، وأريد من أخي أن ينوب عني في ذلك ويكفيني مئونته كفانا الله وإياك جميع النوائب، واعلم أن سفرهم في أول الشهر الداخل والسلام، انتهى.

فلم أجد بدا من الامتثال فأنشدت القصيدة اليائية(30) وهي هذه :

أركبا سرى إذ شام برقا يمانيا ... ليهنكم أنا بلغنا الأمانيا
تألق في ظلمائه فكأنه ... مباسم تحكي في سناها اللآليا
زجرنا به الآمال فابتسمت لنا ... وضاءت كما أضحى يضيء الدياجيا
وروع أحشاء تحن لمعهد ... تقضت به عهد الشباب تقاضيا
وما زال هذا البين يوقد لوعة ... أبت في فؤاد الصب إلا تماديا
فؤاد دعاه الحب من بعد كبرة ... وما للهوى بعد المشيب وماليا
ولكن أدواء الهوى إن تمكنت ... لواعجها لم تلف منهن شافيا
ألا حي مغنى للحبيب وإن نأى ... وماذا على صب يحيي المغانيا
ونحن وقد جف الكتاب معاشر ... رضينا الهوى فليقض ما كان قاضيا
رعى الله أهل الحب من كل حادث ... ولا راعهم عذل لمن كان لا حيا
نرد على الأعقاب صوب مدامع ... حذار رقيب ليس يبرح واشيا
ولولا عيون الكاشحين لأخلفت ... مدامع نجريها الغمام الغواديا
وهيهات إطفاء الجوى بجوانح ... تذوب إذا ما الركب أصبح غاديا
يهيج الصبا إن هب من أرض حاجر ... كوامن أشواق تزيل الرواسيا
عذير غرير في الهوى لعبت به ... صبابات ذكراه الربوع القواصيا
إذا غردت في الأيك وهنا حمامة ... تذكر نجدا والنقا والمطاليا

(30) نسبت هذه القصيدة في اتحاف أعلام الناس لابن زيدان للوزير محمد بن ادريس وهي من إنشاء صاحب الجيش كما أشار إلى ذلك هنا. قلت وكم لها من نظير.

وبيتا عتيقا في أباطح مكة ... رفيعا من الديباج مازال كاسيا

إذا ما دنا الركبان منها تجردوا ... وطافوا بها شعثا ظماء بواكيا

وأيقن كل أنه ببلوغه ... لذاك الحمى نال المنى والأمانيا

وأضحى أمينا من عَذاب إلاهه ... ومن بعد سخط يستبيح المراضيا

هنيئا لقوم ناظرين جمالها ... عكوفا لديها يحمدون المساعيا

قضوا تفثا بعد الإفاضة وانثنوا ... لطيبة يزجون القلاص النواجيا

وراحوا على إثر الوداع وحصبوا ... على مرح يطوون تلك الفيافيا

وما فصلوا حتى تراءت بعيدة ... من الغور أنوار تنير المحانيا

وهبت رياح* عاطرات بليلة ... كما فاح روض بالأزاهر حاليا

فجدت على الأين الركاب وهيمنت ... ركائبهم كيما تنال التدانيا

ولما دنا أرض الحبيب ترجلوا ... وأظهرت الأشواق ما كان خافيا

وعفر كل في التراب وجوههم ... تراب به خير الورى كان ماشيا

وخرت ملوك الأرض فيه جلالة ... لمن بان فيه يسحبون النواصيا

ألا يا بقاعا في البقيع وواديا ... به خيرة الرحمان حييت واديا

فوالله لا أنسى زمانا قطعته ... بمغناك حيث السعد كان مواتيا

ويا وافدا قد أنزلته عناية ... هناك فأضحى بالكرامة راضيا

نك الله ما أهنا وأكرم موطنا ... ثويت به حياك ربي ثاويا

فَعَنِّي لخير الرسل أد رسالة ... وإياك تنسى أو ترى متناسيا

فقل بعد إهداء السلام تحية ... تعم ضجيعيه الكرام المواليا

إليك رسول الله من أرض مغرب ... عن المذنب الجاني أتيتك شاكيا

عن ابن هشام الاسير لنفسه ... وأهوائه يبغي لديك التفاديا

عن ابن هشام الذي قد تقاعدت ... به عنك أشغال أصارته غانيا

عن ابن هشام الذي ليس يرتجي ... سواك فحقق فيك ما كان راجيا

يحاول إصلاحا لأمتك التي ... رجوناك تنفي عن حماها الأعاديا

رجوناك تكفينا المخاوف كلها ... فما زلت من كل المخاوف كافيا

رجونا لديك النصر في كل حالة ... على من غدا بالغي في الناس باغيا

رجوناك ترعانا من الفتن التي ... غدا أهلها فيها الأسود الضواريا

فليس لهذا السرح غيرك كالئ ... فكن يا رسول الله للسرح كاليا

وليس لنا إلا بملة أحمد ... دعاء إذا ما الغير أصبح داعيا

وحاشاك من ينمى إليك تمله ... وتسلمه إن أصبح الهول داجيا

وحاشا ندى كفيك وهو مفجر ... على سائر الأكوان يترك صاديا
ألا يا رسول الله إني خائف ... وأنت مجير الخائفين الدواهيا
ولي رحم موصولة بك أبتغي ... لها صلة تولي لديك التراضيا
ومثلك للأرحام يرعى ذمامها ... ولا شك ترعى لي كذاك ذماميا
فرحماك للرحم القريب وعطفة ... فأولى بعطف منك من كان دانيا
وعونا لنا من صولة الدهر إننا ... بغيرك لا نرجو من الدهر واقيا
فقد أحكمت فينا المقادر حكمها ... سياسة أقوام تحاكي الأفاعيا
وقد ألزمتنا أن نعاشر معشرا ... يسرون شيئا غيرما كان باديا
على قلة الإنصاف والخير فيهم ... وكثرة أقوال تطيل التناجيا
سوابق للأطماع ينتهبونها ... كواسل عند الروع تخشى التلاقيا
عزائمهم في نيل ملء بطونهم ... فندعوهم روبى بطانا بواطيا
فلا عون إلا من عنايتك التي ... بها نتقي هذي الذئاب العواديا
ولا ملجأ إلا إلى عزك الذي ... نلوذ به حصنا من الضيم عاليا
بجاهك يا قطب العوالم كلها ... ويامنبع الأمداد نرجو الأمانيا
فوجه من النصر الإلهي عاجلا ... لنا مددا مادام عزك باقيا
وصلى عليك الله في كل لحة ... بكل صلاة لا تروم التناهيا

وفي هذا العهد وجه السلطان المؤيد ولده البار المظفر لناحية وجدة لحياطة البلاد وحفظ الإيالة من العدو الكافر الفرنصيص لأنه تكالب على من جاور قبائل إيالة الأتراك التي التقمها أعوانه، فخرجت العساكر من مكناس وفاس وما أضيف إليهما من الأعراب والبربر مع مولانا المظفر، وكانت الرؤساء من تلك المحلة غير مؤتلفة، والأجناد الداخلة في العسكر من زرارة الشبانات وأولاد دليم غير ناصحة لأمرائهم لسوء أفعالهم، فلما بلغ مولانا المظفر بلاد أنجاد، ونزلت المحلة بالعيون جاءه أهل البلاد العارفون بمكايد الروم، المباشرون لحربهم، المطلعون على عوائدهم، وقالوا يا سيدنا : إنه يجب أن تبقى المحلة ههنا ولا تتعداه، وتكون الخيل تغير على الأعداء وترجع لمأمنها، فقال لهم : نعم ذلك هو الذي يكون عليه العمل إن شاء الله، ثم جاءه رؤساء المحلة وقالوا له : هذا خور ووهن لا يليق مع القدرة والصولة وكثرة الجنود التي لا يطيق أحد مقابلتها، والذي يليق هو أن تربط المحلة بطرف بلادنا، وتغير على العدو في بلاده، فوقع الخلاف في

ذلك وغلب من لا رأي له على أهل الآراء والتجارب، فزادت المحلة إلى حيث أرادوا، فنزلوا غير مبالين ولا مكترثين، غارين آمنين، كأنهم في ديارهم، واغتروا بكثرة الجنود، وظن الرؤساء أن قلوب الأتباع متواطئة، وأنهم معولون على صدق اللقاء، وجاءت العيون وأخبروا أن العدو في غاية الاستعداد، وأنه عازم على أن يسوق إليهم بكرة غد، فلم يبال أولئك الرؤساء بأخبار العيون، وقالوا : إنهم مرجفون يعظمون شأن الكفار ويوهنون شأن المسلمين، فأصبحوا متكئين على أرائكهم، يطبخون أغديتهم، فلم يرع الناس إلا طائفة من خيل المحلة كانت راكبة، فجاءوا يستبقون وقالوا : إننا رأينا جيش العدو بأبصارنا مقبلا، وسمعنا طبولهم، فلم يفرغوا من ذلك الحديث حتى أطلت رايات العدو، وعاجلت الناس عن إسراج مواكبهم،فضلا عن حمل مضاربهم، ومولانا المظفر ما أخبروه بحقيقة الأمر إلا في هذه الحالة، فجاءوه بمراكبه، فلم يرد الركوب لئلا تفر المحلة إذا رأوه ركب، فقيل له إن المحلة وسرعان زرارة والشبانات ومن وافقهم ساروا وقد قطعوا مسافات وبلغوا مأمنهم، وباتوا معولين على الفرار، فكان مولانا المظفر آخر من ركب من المحلة فرجعت المحلة إلى فاس على كثرتها بلا قتال ولا وقوف ولا التفات، بل جل من نهب المحلة أولئك الخونة الهراب لإنكاء قوادهم وأمراءهم.

وفي عام ستين ومائتين وألف هجم الفرنصيص على ثغر الصويرة غدرا والناس غافلون، فرمى عليها من البمب آلافا، ودخل الجزيرة التي فيها المساجين : أهل الجرائم، فأخذهم ولم يتجرأ على دخول الصويرة، وإنما وقف في البحر ينظر إلى المسلمين ينهبون إخوانهم المسلمين، وذلك أن الشياظمة والغوغاء الأخلاط البطالين الذين بداخل البلد لما رأوا العدو دخل الجزيرة لم يشكوا أنه يدخل البلد، فمدوا أيديهم في متاع الناس، وكان ذلك أولا في أهل الذمة، ثم عم غيرهم فضاعت في ذلك أموال التجار، ودخلت في ذلك دار الأعشار التي فيها ذخائر السلطان وأموال بيت مال المسلمين، وخرج الناس جافلين نحو البادية، فكل من دخل بلاد الشياظمة نهبوه وفضحوه وسلبوا الحرمات، ولم يتركوا شيئا من المحرمات، ومن دخل بلاد حاحة الغالب عليه السلامة والأمان على المحارم والأعراض، وقد ظهر بهذا الفعل من المسلمين أن الدين قد بلغ الغاية في الضعف نسأل الله البر

الرحيم أن يجبر كسر هذه الملة ويرحم ضعفها، والذي يدل عليه حال عوام الأعراب سكان البوادي اليوم أنهم لولا ما يتقون من سطوات الملوك والحكام لا يفرقون بين الحلال والحرام، ولا يدينون دين الحق إلا بألسنتهم، وهذه المعرة التي وقعت بالصويرة وقع مثلها لأهل الأندلس، لما أخرجهم النصارى إلى هذه العدوة ونهبهم إخوانهم الذين يقولون بألسنتهم إنهم مسلمون، قال المقري في نفح الطيب ولما كان إخراج النصارى لهم بهذا العهد القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخرى بتلمسان ووهران، وجمهورهم خرج بتونس فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله سبحانه في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهكذا ببلاد تلمسان وفاس وقليل من نجا من هذه المعرة، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم انتهى. ثم لما أقلع العدو وأخذ المساجين الذين بالجزيرة تراجع الناس إلى عقولهم وإحساسهم، وانتبهوا من منام غفلتهم، وأمر السلطان المؤيد عمال حاحة والشياظمة أن يردوا الناس إلى منازلهم، ووجه السلطان أمينه المحتسب بمراكش مولاي إبراهيم البوكيلي المعروف بالسوارت، ووجه معه مالا كثيرا يفرق علي من سلب ولم يبق له شئ يصلح به بعض شأنه، ويستعين به علي الرجوع حتى يستقيم حاله، وعلى أهل الذمة كذلك، فعاد الناس إلى منازلهم، وسكن الحال واطمأن الناس بحسن مراعاة مولانا السلطان المؤيد وبرحمته وإحسانه، ‹ومن بركته وحسن نيته لم يمر إلا زمان يسير جدا حتى عادت الصويرة كما كانت أو أحسن، وزادت عمارة وامتلأت بالتجار من المسلمين وغيرهم›(31).

وبعد هذا بقريب، ورد أحد الشيبيين حجبة بيت الله الحرام على مولانا السلطان المؤيد فاحتفل بوروده فوق ما يوصف، وركبت القبائل كلها التي يمر عليها بأمر السلطان من قبيلة إلى أخرى، كلما بلغ قبيلة لقيته بخيلها ورماتها وهداياها، ولم تترك شيئا من كل ما تفعل عند ملاقاة السلطان، وهكذا من فاس إلى مراكش ‹فلما بات بقنطرة تانسيفت ركبت العساكر السلطانية والجنود›(32) وخرج أهل مراكش بحذافيرهم فرحا وسرورا وتبركا برؤيته، فكان يوم دخوله من الأيام التي أظهر الله فيها

(31) ما بين العلامتين ساقط من (م).

(32) ما بين العلامتين ساقط من (م).

تعظيم حرماته، وأفاض فيه على سدنة بيته العتيق أعظم رحماته، فأنزله مولانا المؤيد في أعز أماكنه، وأبهج رياضه ومساكنه، ووالى عليه سوابغ النعم، وسحائب الكرم، وأقام مدة طويلة ثم رجع إلى فاس في ظلال المبرة والإفضال، وغاية العناية والاحتفال، فأقام بفاس وتزوج بها حتى أدركه هناك أجله ‹بطنجة بعد خروجه من فاس قافلا لبلاده›(33) وختم عمله، وبعد ذلك بقليل ورد بعض لغوات الحجرة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام لحضرة مولانا المؤيد، ففعل به مثل ذلك الاعتناء وزيادة، وكلاهما أحق بغاية التشريف والسيادة، إلا أن هذا واسمه زكرياء لم تطل إقامته فأكرمه مولانا وبلغه مقاصده ورغائبه، وملأ بكل خير حقائبه.

وفي إثر هذا وفدَ رجل ادعى أنه ولد السلطان مصطفى العثماني، وأنه إنما جاء يطلب من مولانا أمير المؤمنين المؤيد أن يكتب لعمه السلطان عبد المجيد يقبله ويؤمنه ويقبل شفاعته فيه، فأكرمه مولانا غاية الإكرام، كما تكرم الملوك العظام، وأظهر غاية الفرح به وبقدومه، وقابله من كل خير بموجوده ومعدومه، وأكرمه مولانا بإيصاله إليه في حضرته، وملاقاته، ومشاهدة عزيز طلعته، وكان يركب لزيارة الصالحين ومقاماتهم، ويزعم أنه ملتمس لبركاتهم وكراماتهم، ثم أجازه السلطان علي وفادته بأعظم الجوائز، ثم انصرف وقد حاز بالاحتيال ما هو حائز، فلما بلغ جبل طارق ظهر أنه نصراني بطريق من البطارق.

وبعد هذا وردت قصيدتان بديعتان بخط عربي رفيع في غاية ما يكون من الفصاحة والسلاسة، من نفائس الأشعار، إحدى القصيدتين في مدح مولانا أمير المؤمنين المويد، والأخرى في مدح وزيره الفقيه العلامة أبي عبد الله بن إدريس، وهما من إنشاء نصراني من مالطة، يقال له فارس الشدياق، فكان ذلك من عجائب ما يروى، وذكر لنا أن فارسا هذا تعلم العلوم الأدبية من النحو والتصريف والبيان والمنطق والعروض وغير ذلك من علوم الإسلام بدمشق، وتضلع من ذلك حتى بلغ الغاية التي لا تدرك لأهل اللسان العربي، فضلا عن المتوغل في العجمة الفادحة،

---

(33) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (م) و (ف).

فسبحان القادر على ما يشاء، وشأن الشدياق المذكور ودأبه وعادته استجداء مواهب ملوك المسلمين بأشعاره ومدائحه العجيبة، فأدرك بذلك أموالا طائلة، وله مكانة عند كل دولة، وهو اليوم عند سلطان العثامنة على مطبعة اصطنبول.

وفي هذا العهد عزل السلطان المؤيد عامل فاس الرئيس الأجل السيد الطيب البياز الأنصاري الخزرجي، وولى السيد علال الشامي، ولم يعزله لريبة أو نقيصة، وإنما ظعن في السن وضعف عن مباشرة الأحكام، وفيما قرب من ذلك مات أمير الركب النبوي الحاج الطالب بن جلون، وكان ركنا شديدا من أركان الدولة رحمه الله تعالى، وكان له أموال لا تحصى، وتجارات منتشرة في آفاق الدنيا برا وبحرا، في السودان ومصر والشام، وبلاد أجناس النصارى، في كل بلد وإقليم له شركاء وعمال، إلا أنه لما توفي لم يظهر من ماله ما يناسب سعة حاله، وذلك لأنه أصابه داء السكتة فحيل بينه وبين بيان أمواله وتعيين متاعه، فأقام كذلك ينظر ولا يتحرك منه عضو إلا إذا حركه محرك نحو عشرين يوما على ما قيل، فنهب أهله وعبيده وإماؤه ومن يدور به كل ما ظهر له على وجه الأرض في مساكنه، فكانوا ينتهبون ذلك وهو ينظر ولا يقدر على منعهم، فلما مات لم يوجد في حوزه إلا الشيء اليسير بالنسبة لحال أمثاله، نعم بقيت له الأصول الكثيرة لأنه كاد يملك نصف أملاك فاس من رباع وعقار، وجل ذلك حازه السلطان في مقابلة ما في ذمته من متاع المخزن، لأنه كان يخوض في مال السلطان طولا وعرضا، رحمه الله تعالى آمين،

وفي ضحى يوم الاثنين الرابع من محرم فاتح أربعة وستين ومائتين وألف مات الوزير الأعظم، الفقيه الأجل الأكرم، إمام عملة اليراع، ومقدم حملة ذلك الشراع، مقلد الدولة بقلائد النثار والنظام، في المواقف العظام، والمزري ببدائعه، وأوابده وروائعه، ببديع الزمان، والفتح بن خاقان، أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس جدد الله عليه ملابس الرضا، كلما لاح نجم وأضا، فولي مكانه الفقيه النجيب، الوجيه الحسيب، ذو الأخلاق العاطرة، والأنامل الواكفة الماطرة، والرأي الأصيل والأمر المحبوك، والباطن الصافي الذي يحاكيه الذهب المسبوك، أبو عبد الله السيد العربي بن المختار

الجامعي(34) ثم لما قدم مولانا المؤيد لحضرة مراكش آخر قدمة قدمها عام خمسة وسبعين ومائتين وألف(35) عزله وولى مكانه الفقيه الكاتب الحيي النزيه السيد محمد الصفار التطواني(36). وفيما قبل هذا العهد وقعت فتنة إبراهيم ولد يسمور اليزدكي، وهو رجل مكار خداع من قبيلة آيت ازدك من قبائل الصحراء، وكان يتظاهر بمحبة أهل الخير والأشراف، ويبالغ في ذلك، وكان يأمر قومه بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويظهر بذلك نصيحة السلطان، حتى اشتهر بذلك وكثر الثناء عليه، وقبائل الصحراء عائدة إلى لفين، لف آيت عطة وأتباعهم، ولف آيت يفلمال، والغلبة في الكثير لآيت عطة، ولما ظهر إبراهيم هذا ظهرت له بعض الغلبة على آيت عطة الذين يتافلالت، وكان ذلك أمرا غريبا، فمالت القلوب إليه حتى إن مولانا السلطان المؤيد ولاه على تافلالت وقبائلها الصحراوية وكان هذا الظالم مبسوط الكف بالعطاء، لا يمسك شيئا، فاستغوى بذلك أكثر الناس خصوصا البُله من الشرفاء لأنه كما تقدم يبالغ في إظهار محبتهم والإحسان إليهم أكثر من غيرهم، فاشتد بذلك أمره، وشمخ قدره، فسرت فيه نخوة الرياسة العظمى، ونصرت راياته على كل من خالفه، فيغير على هؤلاء ويعطي هؤلاء، وكان يحدث نفسه وخاصته سرا أنه يملك المغرب، وهو يدعي أنه إنما هو في طاعة السلطان، فلما تحقق عند مولانا المؤيد مكره وخداعه، وأيقن بما تبطنه من الفساد، جعل يكتب له بالأمور التي يعلم أنه لا يريدها، يختبر بذلك ما أظهره من الطاعة، ينظر هل يمتثل أمره أم لا ؟ فكان يخالفه في ذلك، وكلما أمره بأمر لا يوافق غرضه نبذه وراء ظهره، ويقول للناس : انظروا هذا الحمق، وهل يأمر بمثل هذا عاقل، ثم صار ينقص أمور مولانا المؤيد ويصرح بذلك، فلما تفطن له الكذابون على الله تعالى قصدوه من كل ناحية حتى اجتمع عنده من الشياطين عدد كثير، يمدونه ويمنونه، ويزينون له المخالفة، فطبق أقطار المغرب صيته، وجعل

---

(34) محمد العربي الجامعي بن المختار استكتب بالصدارة، وشبابه في عنفوانه الى أن تأدب وتدرب، وجرب من أمور السياسة ما جرب، ففرعت له العدلية من الصدارة، وشارك صدرها في اسم الوزارة ثم أحله السلطان مولاي عبد الرحمن محل الصدر، حسب «فواصل الجمان» لغريط ص 61 الى آخر قصته المذكورة في الكتاب المذكور، توفي عام نيف وسبعين ومائة وألف هـ.

(35) كذا بالأصل وهو الذي في (م) أما (ك) و (ش) و (ف) ففيها 1271 وانظر تقييد ابن اليمني في المقدمة.

(36) الصفار التطواني الفقيه المدرس العدل المفتي الكاتب الوزير. وهو التطواني الوحيد الذي تولى الوزارة مع ثلاثة من سلاطين المغرب المولى عبد الرحمن وابنه المولى محمد وابنه المولى الحسن. ت 1298 هـ 1880م ودفن بقبة الولي الصالح سيدي يوسف بن علي بمراكش «تاريخ تطوان» مجلد 7 ص 78 «فواصل الجمان» ص 70 «الإعلام» ج 7 ص 34.

أمره يزداد كل يوم شدة وظهورا ومالت قبائل البربر كلها إليه اتباعا للفساد الذي جبلوا عليه، واهتم مولانا المؤيد بشأنه كثيرا، فبينما هو كذلك إذ قيض الله له من قتله من إخوانه، وأقرب الناس إليه، فكفى الله تعالى مولانا المؤيد أمره، ورد كيده في نحره، وأخذه من حيث أمن، وافتضح بمقتله افتراء المفترين واغترار المغترين، والحمد لله رب العالمين.

ثم وجه مولانا المؤيد أولاده لبيت الله الحرام، وزيارة قبر جده عليه السلام، وهم مولانا علي، ومولانا إبراهيم، ومولانا عبد الله، ومولانا جعفر، وولد عم أبيهم مولاي أبو بكر بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الله، وكانوا وفدوا عليه للوداع لحضرة فاس، ثم خرج لمكناس، ومنه كتب لهم وأمرهم بالانصراف بالسلامة، وبالغ مولانا المؤيد في حسن تجهيزهم بما لم يتقدم له مثله لإخوتهم الذين حجوا قبلهم، لا من الأموال ولا من الرجال ولا من الأدوات والمراكب الفارهة، المرافق العديدة، ووجه معهم من الأموال كثيرا لأشراف الحرمين، وللخواص المعينين من الأئمة والفقهاء والمجاورين، ووجه أكابر التجار الأمناء العارفين بعوائد البلاد والأقاليم والأمم، مثل الحاج محمد الزريني التطاوني، والسيد محمد البارودي الطنجي(37) ووجه معهم قاضي مكناس الفقيه العلامة السيد المهدي بن الطالب بن سودة الفاسي(38) المري، مع جملة من الطلبة الذين يقرأون عليهم، فركبوا من مرسى طنجة وكل جنس من النصارى يرغب أن يكون ركوبهم عنده في قرصانه، وقد هيأوا القراصين العجيبة فكان ركوبهم في قرصان النجليز فلما بلغوا إلى الإسكندرية تلقاهم سلطان مصر بغاية الفرح والسرور، وفوق ما يوصف من الإكرام والبرور، وأنزلهم في أعز مساكنه وأبهاها، وأبهجها وأشهاها، وأعد فيها كل ما يحتاج إليه من أواني الفضة والذهب، وفرش الحرير والديباج، والنفائس الغريبة، ورتب لهم الرواتب العالية من أنواع الأطعمة والأشربة الفاخرة الملوكية، التي تناسب أقدارهم، وأباح لهم الدخول الى كل محل أرادوا رؤيته من الأبنية والمصانع والرياض والبساتين

---

(37) كذا بالأصل وفي غيره (التلمساني)

(38) المهدي بن سودة المعروف بابن الطالب المري كان فقيها محدثا أصوليا بيانيا منطقيا نحويا مشاركا، وكان يقرأ البخاري في الأشهر الثلاثة مع المولى عبد الرحمن ثم مع ولده سيدي محمد ثم مع ولده المولى الحسن ت 1294 هـ 1877 م. «السلوة» ج 1 ص 303 «الإعلام» ج 7 ص 283 عفى الله عنه.

السلطانية التي يتعجب من رؤيتها، وتنقل أخبارها، فشاهدوا من ذلك ما لا يكشف حقيقته اللسان، وما لا يظن أن تناله قدرة الإنسان، ثم ركبوا في بحر القلزم إلى جدة {ومنها إلى مكة}(39) فقضوا مناسكهم، وشفوا غلتهم، من مباشرة شعائر الشريعة المطهرة، من الطواف والسعي والوقوف وزيارة المشاهد المباركة، وتوجهوا الى أعظم المقاصد وأسناها، التي هي لنفوس المؤمنين غاية مناها، زيارة شفيع الأمم، في الموقف الأعظم، وكانوا صادفوا بمكة وخما وفساد هواء مات منه كثير من الحجاج الآفاقيين، فمات من أصحابهم جملة، ومات أحد الشرفاء أولاد السلطان بمكة، ومات آخر منهم يوم دخول المدينة المشرفة، وسلم الله الباقي وأكرمه، وأعلى مقامه وعظمه، وجمع له بين شرف الحياة وثواب احتساب مصيبته بمن مات ‹ولما فازوا بزيارة سيد الأرضين والسماوات، ووافقتهم السعادة في›(40) ذلك المقام الذي تتضاءل دونه جميع المقامات، وأدركوا ما أملوه من لثم تراب أشراف البقاع وأكرم الحجر، وانفجر عليهم من كرم الله ما انفجر، ونال كل واحد ما كان يأمله ويرجوه، فخرجوا من المدينة راجعين بكل خير، وغسلوا بالدموع ما كانوا عفروه في تلك الأماكن من الوجوه، ولكن نالتهم مشقة فادحة من عتاة الأعراب، في المسافة التي بين المدينة والينبوع لأنهم انفردوا عن الركب عند الرجوع، لولا لطف الله لاستؤصلوا عن آخرهم، وهلكوا حتف أنوفهم ومناخرهم، ولقد كانت نجاتهم من تلك الشدة من أعجب العجاب، وفي خلوصهم منها عبرة لأولي الألباب، فإنهم كمن بعث بعد مماته وإقباره، وانقطاع أنفاسه وأخباره، والحمد لله الذي لا تخفر ذمته، ولا تنتهك حرمته، فلما بلغوا للينبوع وجدوا المراكب التي تحملهم في انتظارهم، فركبوا قافلين، ورياح السلامة تسوقهم، وأرباح التجارة والسعادة تكفل بها سوقهم، فلما وردوا حضرة مراكش تحت ظلال السلامة، وقد نشر عليهم القبول بنوده وأعلامه، باتوا بقنطرة تانسيفت وفي الغد ركبت الخيل السلطانية والعساكر، وخرج أهل مراكش في زينتهم، وكان يوم لقائهم يوما مشهودا، وموسما من المواسم المعظمة معدودا وكان أبو الحسن مولانا علي بن أمير المؤمنين مركز ذلك الركب السعيد، وبياض

(39) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

(40) ما بين العلامتين ساقط من (ك).

غرته، ومناط رضا أمير المؤمنين وموقع نظرته، فوجهت له ذلك اليوم هذه القصيدة تهنئة بكمال حجته، وسلامة رجعته وهي هذه :

نضت عن محياها المحجبة السترا ... وأبدت على خوط الأراك لنا بدرا
وقامت تجر الذيل من نشوة الصبا ... كما ريع ظبي عندما استشعرا الذعرا
وباحت بأسرار الغرام تهتكا ... وتلزمنا في الحب أن نكتم السرا
ومن فضحته في هواه دموعه ... وأرهقه التبريح من أمره عسرا
وأضرمت الأشواق بين ضلوعه ... ضراما فلم يسطع خلاصا ولا صبرا
تسابقه في جريها عبراته ... ومن ذا يرد السيل إن وجد المجرى
فكيف يواري بعد ذلك سره ... وقد عاد منه السر بين الورى جهرا
فذاك الذي لا يختشي لوم لائم ... وذاك الذي في الحب قد بلغ العذرا
يهيم به مستعذبا لعذابها ... فلا يرتجي وصلا ولا يشتكي هجرا
فتاة زهاها حسنها وجمالها ... فلم ترض سدلا للبراقع والخمرا
تميس كغصن البان رنّحه الصبا ... تخال بها سكرا وما شربت خمرا
وما هو إلا أن أتاها مبشر ... يقول لمن في الحي يهنيكم عشرا
هنيئا فنجم السعد قد لاح طالعا ... وأصبحت الآمال يانعة خضرا
فمن كان يرجو أن توافيه المنى ... فقد آن أن يرضى وحقت له البشرى
فقد عاد مولانا أبو الحسن الذي ... يقول أنا سعد السعود ولا فخرا
سليل أمير المؤمنين وشبله ... وصارمه إن حاول الفتكة البكرا
علي الذي قد شرقت ثم غربت ... علاه فلم تترك حجازا ولا مصرا
ومن كعلي في المكارم والندى ... إذا ما الغمام الجون قد منع القطرا
ومن كعلي في مصادمة العدا ... إذا اقتادها جردا محجلة غرا
{فتى ذخرت منه الليالي ذخيرة ... سيوسعها جبرا إذا صادفت كسرا}(41)
له همم أعلى من النجم قدرها ... فما قيصر قد نالهن ولا كسرى
وقد عاد من أرض الحجاز مهنأ ... بأفضل سعي فيه قد ربح التجرا
وفاز بحج واعتمار وزورة ... لخير الورى أعظم بما ناله قدرا
تسنم أثباج البحار إجابة ... لداعي الهدى مستسهلا مركبا وعرا
ولما استقل البحر منه بمثله ... عجبنا لبحر حامل فوقه بحرا
وهبت له باليمن من كل جانب ... رياح من الإقبال دائمة المسرى

(41) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م) .

إلى أن أحلته السعادة منزلا ... بمكة في مثواه قد وقع الإسرا
وطافت به بين المقام وزمزم ... وقبل ما في الركن واحتجر الحجرا
وشاهد هاتيك المواقف كلها ... ونال من الخيرات مرتبة كبرى
وقال له الإسعاد ها أنت والمنى ... ودونك فالدنيا تجيبك والأخرى
ومن بعدما حاز الرغائب كلها ... وودع بيت الله واستكمل الأمرا
دعاه اشتياق المستجن بطيبة ... فصار يجوب البيد والمهمه القفرا
تلوح له الأنوار من نحو يثرب ... وتهدي إليه الريح من أرضها العطرا
فود لو أن الريح كانت تقله ... على منتها أو كان قد صاحب الطيرا
فما زالت الأكوار والعيس ترتمي ... به ودواعي الشوق موقدة جمرا
فلما تبدت للحبيب دياره ... جرى الدمع واهتاجت صبابته الحرى
وخرت وجوه العاشقين على الثرى ... سجودا لمولانا الذي أوجب الشكرا
هنالك تعتز الملوك بذلها ... ويترك فيه الكبر من ألف الكبرا
هنالك حيث الدين لاحت شموسه ... وحيث بدا الإيمان واختزل الكفرا
منازل حن الجذع فيها لأحمد ... وزلزلت الأحزاب إذ مكرت مكرا
منازل كان الوحي فيها منزلا ... وكانت لها الأملاك زائرة تترى
مواطن كانت تحت باطن أخمص ... به وطئ المختار فبالعرش إذ أسرى
ألم تك أهلا أن تداس بأوجه ... وتجعل في الأجفان تربتها الغبرا
تراب يهين المسك نفح أريجه ... ويرخص أثمان اليواقيت والتبرا
فلو ديف من ذاك التراب وضمخت ... به عاهة كانت بتضميخها تبرا
أمولى الموالي يا علي بلغتك ما ... رجوت من الفخر الذي جاوز الشعرى
دخلت على باب السلام مسلما ... على سيد الأكوان خير الورى طرا
كذاك على الشيخين سلمت بعده ... ضجيعي رسول الله في الروضة الغرا
وصليت بين القبر والمنبر الذي ... لديه يحط الوزر إن أثقل الظهرا
شفيت غليلا واقتضيت مآربا ... جلائل لكن لا تباع ولا تشرى
{وجاءك نصر الله والفتح فارتقب ... لطوى نصر الله أن يعقب النشرا}(42)
وأعطيت كنزا من مواهب ربنا ... فأعظم به كنزا وأكرم به فخرا
وألبسك المولى الكريم ملابسا ... من العز لاتبلى ولاربها يعرى
بعز أمير المؤمنين وسعده ... وأيامه اللاتي عرفنا بها الخيرا

(42) ما بين العلامتين ساقط من الأصل ومن (م).

فنسأل ربي أن يمد ظلاله ونسأل ربي أن يطيل له العمرا(43)

‹وفي هذا العهد كتب السلطان وهو بمكناس لولده وخليفته مولانا المظفر سيدي محمد وهو بمراكش يأمره بقبض أحد عاملي الرحامنة القائد علال بن عبد الله، فقبضه واستخلص منه أموالاً كثيرة، ثم بعد مدة قريبة سرحه ووجهه عاملا على قطر السوس الأقصى، وكان في قبضه مفسدة لقبيلته وإيالته، لأنه كان ضابطا حازما قاهرا للمردة منهم والشياطين، فلما قبض انفسح لهم المجال، ولكن في قبضه مصلحة أخرى هي أرجح من دفع تلك المفسدة، وهي أنه كما ذكر بعضهم حصلت منافرة بينه وبين عامل الحضرة المراكشية أبي العباس السد أحمد بن عمر بوستة، فلما قبض علال بن عبد الله، وقيد غيره أظهر ذلك الغير الموافقة والمحبة والمساعدة في غالب الأمور، وانحسمت العداوة المفضية إلى الأضرار والضغائن فيما ظهر، واستقامت الأحوال، وجرت المصالح مجراها بين المتجاورين، وهذه المنابذة التي تحصل بين عمال الرحامنة وعامل الحضرة سببها أن الرحامنة ذاقوا لذة الولاية على المدينة في بعض الأزمان الماضية، فلم يكن عندهم أعدى من عامل مراكش، وسار كل من ولي على الرحامنة لا تكمل لذته وولايته عند نفسه إلا بالولاية على المدينة، وولايتهم على المدينة هي الطامة الكبرى، وما فطمهم عنها مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان إلا بتوفيق الله وسعادة الجد، وكان علال بن عبد الله لما علا أمره في الولاية، وشمخ قدره فيها قوى طمعه في ولاية المدينة كما ذلك عادتهم كما أشرنا إليه، وكان عامل المدينة أبو العباس بن عمر لولا سعة أخلاقه ووفور عقله ودهائه وتحمله لأذى الرحامنة، لظهر منهم الفساد الكبير، والعتو الخارج إلى غاية الطغيان الذي لا دواء له، فما زال القائد السيد أحمد يداري علال بن عبد الله حتى انتقم الله منه، وعزله مولانا وكفى الله شره.

(43) كان الممدوح بهذه القصيدة أميرا عالما وكان تلميذا وصديقا محبا لمؤلف الجيش وتلميذه في علوم التنجيم والتوقيت والتعديل وكان ملازما له ملازمة الظل وفي الاعلام للمراكشي وهو يترجم هذا الأمير ما نصه : ولصاحب الجيش المذكور محمد الكنسوسي في المترجم مولانا علي أمداح كثيرة جمعت نحو سفر. توفي عام 1299 هـ 1881 م كما رأيته منقوشا على رخامته بضريح الغزواني بحومة القصور قال في الاعلام المراكشي ز 9 ص 242، انه كان يحضر مع أخويه مولاي العباس ومولاي الرشيد عند العلامة قاضي مراكش الطالب بن الحاج في سرد صحيح البخاري بين العشا ءين بجامعة ابن يوسف. كما قال عنه ص 249 انه أخذ عن سيدي الحسن الصالح المراكشي مع أخويه مولاي الرشيد ومولاي برعزة كانوا يردون عليه لمسجد أبي حسون القريب من داره بحارة الصورة في أيام والدهم (يعني المولى عبد الرحمن) هـ وكانت أيامه من عام 1238 الى 1276 هـ. قلت ومن جملة شيوخهم العلامة الأديب أبو مهدي عبد الله بن محمد بن احمد أكنسوس كانوا يحضرون درس الشيخ خليل صباحا. كما وقفت عليه في رسالة كتبها لتلميذه المولى الرشيد. هـ

ولما توجه مولانا المؤيد للغرب في هذه المرة الأخيرة استعد غاية الاستعداد، بالجنود والعساكر المنصورة، فمر في طريقه على قبيلة زمور وبني حكم ومن انضاف إليهم، فاكتسح أرضهم وديارهم وخرب مساكنهم واستباح زروعهم المخزونة والمحروثة، وقد ناهزت الحصاد فلم يبق لهم من الأقوات أخضر ولا يابسا، وأما أرواحهم ففروا بها الى قنن الجبال الرواسي، وهكذا كانت عادتهم معه في كل مرة كلما حرك لهم لا يقفون أمامه إلا في الوقعة الهائلة التي أوقعها بهم في صدر ولايته، فإنهم ظنوا أنهم يقدرون على مقابلته فاستعدوا غاية الاستعداد بكثرة الخيل والرماة، واستهانوا بكل من جاورهم من أهل الفساد من الأعراب والبربر، فوقفوا وقاتلوا قتالا شديدا، فكانت جولة بعد جولة، ثم انهزموا أقبح انهزام، وقتل منهم ما لا يحصى، وقطعت رءوسهم ووجهت لأسوار البلاد، وعلقت بها، وقبض منهم عدد كثير من الأسارى، وعمرت بهم السجون حتى هلكوا فيها، ثم بعد ذلك ما قابلوه قط ولا وقفوا أمامه، مع أنهم أولو قوة وأولو بأس شديد، فلما دوخهم في هذه المرة وسلبهم كل ما ينتفعون به ذهب لحضرة مكناس ولم يطل المقام بها فذهب لفاس فأقام بها ما يقرب من سنة ثم رجع لمكناس فاستعد أيضا لغزو زمور فخرج إليهم وزحف إليهم بالجنود المجندة، وفعل بهم مثل ما كان يفعل كل مرة، وكذلك هم فعلوا مثل فعلهم المعهود من الفرار بالأنفس وترك الأموال والديار، فرجع لمكناس، قال بعض الكتاب من خاصة الدائرة المولاوية الذين حضروا معه إنه في بلاد زمور في هذه الحركة، ابتدأته علته التي لازمته حتى انتقل لحضرة الرضى والكرامة في الدار الآخرة، فلما رجع لمكناس أطال المقام بها خلاف عادته، فإنه كان لا يدخلها إلا عابر سبيل مستوفزا للرحيل حتى قيل إنه إنما كان يتجنبها لأنه مخبر أنه بها يقبر، والله أعلم، وكان في إقامته بمكناس هذه المرة مواعد كل مسرة، ومواسم لأنواع الخيرات والأفراح ومحافل للانبساط والانشراح›(44) فأقبلت لحضرته جميع المسرات، وتباعدت عنه جميع المناحس والمضرات، كأن الدنيا أقبلت في زينتها توادعه، وتنفي عنه كل ما ينازعه ويصادعه، فأقام الأعياد الثلاثة، كما تقام الأعراس، فحضرها

---

(44) ما بين العلامتين هو ما في الأصل وقد اختلفت النسخ الأخرى عن الأصل بالزيادة والنقص وتبديل الشكل ولكن المنصوص فيها كلها من الخبر قريب من قريب في المعنى.

جميع أعيان الأمم ووجوه الناس. ولا سيما العيد الأنور النبوي، كما هو عادة هذا الملك الشامخ العلوي، إلا أن مولانا السلطان المؤيد كان يزيد فيه على غيره من أسلافه الكرام بغاية الاحتفال، وكانت له فيه عادة لم يدركها أحد من مواليها أسلافه الملوك العظام الأماجد الكرام، وهي أنه في صبيحة المولد الشريف، إذا فرغ المداح من إنشاد الأمداح النبوية، والقصائد المصطفوية، يختم ذلك المجلس بإنشاء قصيدة مبتكرة مصدرة بمدح سيد الوجود، وهو في الحقيقة عين المقصود، ثم يستشفع به وبجاهه عند الله تعالى لحضرة أمير المؤمنين، والدعاء له بكل خير والسلامة من كل ضير، مع ذكر محاسن دولته، وتواتر نعم الله على كريم حضرته، ويكون سماع ذلك في ذلك الزمان وذلك المحل من الأبهة المعظمة، والجلالة المفخمة، وكان مولانا المؤيد أخذ ذلك من أخبار أعاظم السلاطين في غير هذه الدولة كدولة السعديين خصوصا المنصور الذهبي، فإن له في ذلك شأنا معروفا، ومقاما بفخامة القدر موصوفا، وكدولة بني مرين، خصوصا أبا الحسن وولده أبا عنان، فقد جعل ذلك شريعة من جملة الافتراض والاستنان، وكدولة بني زيان ملوك تلمسان، خصوصا واسطة عقدهم أبا حم، فله في ذلك ما خرق الاعتياد، ولا يمكن عليه الازدياد، وأما بنو مروان بالأندلس فلا يسأل في ذلك عن مبالغتهم وإعجابهم، وإطنابهم وإسهابهم، فاقتفى مولانا المؤيد أثرهم في زيادة التشريف لما شرفه الله، وتعظيم حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تكون تلك القصيدة إلا من إنشاء وزيره رئيس الكتاب، وإمام خدمة أشرف الأعتاب، أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس هكذا أخبرني رحمه الله بتكرر هذه الثلاثة في نسبته، وربما حصل له عذر يمنعه من إنشاء تلك القصيدة المعتادة في تلك الليلة، فاستنابنا في إنشائها على لسانه كما ننبه على ذلك بحول الله تعالى، فمما أنشده في بعض الأعياد قوله :

أعد الحديث عن الحما وظبائه ... فالسمع مشتاق الى أنبائه
وصل الحديث عن اللوى وعقيقه ... والنازلين الجزع من جرعائه
فهناك معترك النواظر والنهى ... ومجال أفراس الهوى وظبائه
كم من صريع هوى بأفنية الحمى ... فتكت عيون العين في أحشائه
ومتيم لعب الغرام بقلبه ... لما سقاه الوجد من صهبائه
وأسير وجد في إسار جمالهم ... قادته مرسلة العيون لدائه

إن القتيل من الغرام ودائه ... مثل الشهيد مضرجا بدمائه
ياصاح إن وافيت منزلة اللوى ... ومررت ما بين العذيب ومائه
ولقيت أسراب الظباء رواتعا ... حول الحمى يمرحن في أرجائه
فاحفظ فؤادك من ظبا تلك الظبا ... فلكم كمي صيد في أحيائه
وإذا بدا سلع فعرج نحوه ... وتنشق الأرواح من تلقائه
وإذا مررت بحي قومي حيهم ... وصل السلام على الحمى وظبائه
واخلع نعالك في مقدس وادهم ... واحطط رحالك خاشعا بفنائه
نهناك طابت طيبة من طيب ... طاب الوجود بطيب طيب ثنائه
وهناك روضة خير من ركب المطا ... وأجل من لاذ الورى بعلائه
وهناك قبر المصطفى من فضله ... غمر الوجود بجوده وعطائه
وهناك من أسرى الإله بذاته ... ليلا فنال الفوز في إسرائه
وحباه قربا لا يضاهى خصه ... بمصون سر الحب في إيحائه
وأراه من آياته وصفاته ... ما كلت العقلاء عن إحصائه
وكساه من إجلاله وجلاله ... ما حارت الأفكار في إنهائه
أو ليس ادم قد توسل باسمه ... بعد الخطيئة فاهتدى لدوائه
وغدا يكون وما تكون بعده ... من ذي احتباء تحت ظل لوائه
أو ليس كل الرسل من نوابه ... وجميعهم هاد بنور ضيائه
قد بشروا أتباعهم بظهوره ... وتوطإوا طرا على عليائه
أخذ العهود عليهم أن يومنوا ... إن أدركوه وينصروا لدعائه
يا أمة المختار طولوا رفعة ... واستبشروا طرا بنيل ولائه
ولتكثروا أمداحه في ليلة ... رد النهار لها سنا لألائه
قد فاقت القدر الرفيعة منصبا ... وسما الزمان بها على آنائه
كم آية شفت القلوب بنعتها ... رفعت بها الأخبار عن شفائه
فدنت إلى الأرض النجوم محبة ... وبدت قصور الشام من بطحائه
وبدا الرجوم من النجوم لطرد من ... رام استراق السمع من أعدائه
خمدت به نيران فارس واعترى ... إيوان كسرى الكسر من اعلائه
غارت بحيرة ساوة وأساءهم ... ما قد رأى في النوم من أسوائه
وله من الآيات ما عجز الورى ... في وصف بعض البعض من أجزائه
والوحي أعظم آية قد نالها ... وأدل معجزة على استعلائه
أسراره لا تنقضي وعلومه ... لا تنتهي أبدا على استقرائه
كم معجزات قد تواتر ذكرها ... دلت على تصديقه وسنائه

كالظبي في تكليمه والضب في تسليمه والجذع عند بكائه
والماء في تفجيره والزاد في تكثيره والنخل عند دعائه
والصم في تسليمه والجن في تعليمه والفحل في استعدائه
والشمس ردت بعدما عزبت له والبدر شق له بأفق سمائه
وكذا الحصى قد سبحت في كفه ورمى بها فأصاب أهل نوائه
نطق الدراع له وأفصح معلنا عن سمه وأبان خافي دائه
أربى على الإحصاء باهر فضله وسما عن الإدراك كنه علائه
من ذا يروم مديحه وإلهنا أسماءه قد شق من أسمائه
هل بعد مدح الوحي مدحة مادح فاقرأه تلق ثناه في أثنائه
علقت آمالي بجاه محمد وقصرتها قصدا على عليائه
ورجوت من رب المفاز بجاهه والظن ألا أخيب عند رجائه
وعلقت من آل النبي بذمة تدني القصي إلى كريم فنائه
من طهر المولى وخص المصطفى شرفا وجللهم كريم كسائه
وخدمت واسطة الأئمة منهم نجل النبي المهتدي بضيائه
مولى الخلائف عابد الرحمان من رحم الإله الخلق عند ولائه
أحيا به الدين الحنيف وزانه بسنائه وحيائه ووفائه
وأعاد أرض الغرب روضا ناضرا برخائه وسخائه ورقائه
ونفى عن الإسلام كل ضلالة وأضاء نور العلم في أرجائه
وأشاد مغنى الملك فاستعلى به وقضى حقوق الله في أعدائه
وأعاد في جسم الخلافة روحها وشبابها وكساها ثوب بهائه
من حاز مجموع المكارم مفردا وروى حديث الجود عن آبائه
الحلم من أوصافه والعلم من آلافه والفهم عبْد ذكائه
والعدل من أحكامه والفضل من إنعامه والفصل من ندمائه
والنصر من أحزابه والشكر من أصحابه والبحر من أسمائه
والحسن من قسماته والأمن من حسناته واليمن من وزرائه
والجد من أترابه والمجد من أثوابه والسعد تحت لوائه
والسيف من عزماته والعيث من سطواته والغيث من نظرائه
والزهر من نفحاته والزهر مثـ ـل صفاته والفخر تحت ردائه
والحق في أفعاله والصدق في أقواله والحذق من عرفائه
والسر في كلماته والبر في جنباته والأجر في استرضائه

فاق الثواقب والمناقب والحلى وزرى بطيب المسك نشر ثنائه
قد فاخر الأعصار عصر وجوده وتنافس الأملاك في استصفائه
غمرتني أنعمه التي قد أعجزت شكرا فقمت لها ببعض أدائه
وأتيت من حر الكلام بمدحة خلع الجمال عليها. حسن روائه
وجلوت عذراء المدائح غادة وشى حلاها الفكر في إنشائه
أهدى البيان لها عقود جواهر نظمت على همز الروي وهائه
وأتى بكاملها الرفيع لكامل بحلى الكمال سما على أكفائه
والله أسأل بالشفيع محمد في أن يمتعنا بطول بقائه
ويديم نصرته ويثبت عزه وعلاءه ويثيبنا برضائه
صلى عليه الله ما حي الحيا وترنم الحادى بحسن غنائه
وعلى الأماجد آله وصحابه والتابعين الحق من خلفائه

وهكذا كانت سنة مولانا المؤيد في ختم أمداح الليلة المباركة، بمثل هذه القصيدة الفريدة، من إنشاء وزيره الأعظم المذكور، ولم يتخلف قط إلا في المدة التي عزل فيها وقام غيره مقامه ممن حرم مراضع الأدب، ونسلت إليه الجفاوة من كل حدب، ونعاه الدست السلطاني مع وجوده وندب، فلما عاد الوزير الأعظم إلى نصابه، واسترجع حقه من غصابه، عادت الدولة الشريفة إلى شبابها، وتمسكت بمتين أسبابها، وجرت سنة التعظيم والتشريف على مجراها، ونالت من المحامد كبراها وصغراها، ولم يزل قائما في مركزه الأعز الأسنى، ملازما لعادته الحسنى، الى أن توفاه الله تعالى عام أربعة وستين ومائتين وألف، فأصبح الدست العالي من تلك الحلية عاطلا، وغريم الزمان بقضاء تلك الديون مماطلا :

وكان رحمه الله تعالى سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف بعد انتقالنا من الحضرة الفاسية إلى الحضرة المراكشية لما أثقلته أعماله السلطانية وأشغاله، وازداد سبحه في بحارها وايغاله كتب إلي ما نصه :

الأخ الشقيق، الأود الحقيق، فلان بن فلان حفظك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فهذا شهر المولد الشريف قد أطل، وقد علمت أن من عادتي التطفيل على حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصيدة المدحية التي تختم بها الأمداح في صبيحة المولد الشريف، في

ذكر الليلة المباركة وبعض أوصافه عليه السلام ثم التخلص إلى مدح أمير المؤمنين والدعاء له بكل خير، وقد اختبرت فكري في هذا الشهر فوجدت به كلا لا عن ذلك وعجزا لتوالي الأشغال المولاوية، واستغراق النهار كله في حوائج المسلمين، فأردت من فضل أخي أن ينوب عني في ذلك بإنشاء قصيدة علي ذلك النمط، نغتنم جميعا أجرها، ونحتسب أنا وأنت ذخرها عند الله تعالى، وإن تفضل أخي بكفاية ذلك في كل سنة يكون فيها مولانا نصره الله معيدا في هذه الحضرة فإن شأنك التفضل بالخير والإعانة عليه، ولا نحتاج إلى إعادة الطلب، والله يبقيك إمام هذه العصابة، سباقا إلى غاية الإجادة والإصابة، وعلى المحبة والسلام. فمما رفعت إليه في العام المذكور هذه اللامية :

عهدي لكم جيرة البطحاء موصول ... يا ناسي العهد إن العهد مسئول
أشيم برقا سرى من نحو ربعكم ... وفضل ذيلي بوبل الدمع مبلول
فيلهب الشوق أحشاء مروعة ... منى وللشوق ترويع وتهويل
يا ليت شعري والأيام شيمتها ... تمنع وضمير الغيب مجهول
هل من وفاء بوعد من أحبتنا ... والوعد عند حسان الدل ممطول
أو هل ترى مقلتي دارا عهدت بها ... بيضا يلاحظها سمر بها ليل
سقيت حبهم قدما على ظمأ ... فحبهم في صميم الروح مجبول
يا حبذا في هواهم ما غدوت به ... كأنني طافح بالراح معلول
لا أجتلي أحدا إلا تمثل لي ... في وجهه من أحبائي تماثيل
وذاك أن قد سرى في الكون سرهم ... وليس أن الهوى زور وتخييل
فوالذي سجدت في شطر كعبته ... أهل الخشوع لهم ذكر وتهليل
لقد سرى سريان الروح في جسدي ... غرامهم فأنا من ذاك متبول
يا لائمي إن فرط الحب معذرتي ... وفي الصبابة لي عرق وتأصيل
فكيف أصغي إلى اللاحين إن عذلوا ... فعاذل المبتلى بالحب معذول
مهلا فلي كبد تهتاج لوعتها ... إذا دنا من ربيع النور تجليل
شهر تشرف بالإسلام حق له ... بين المواسم تعظيم وتبجيل
شهر تعاظم مجدا أن يماثله ... عيد ولا زمن بالفضل مشمول
شهر غدا غرة في كل مكرمة ... وأين من غرة في الفخر تحجيل
فيه تكون كون الفضل وانفتحت ... أبوابه وأتانا العز والسول
فيه تفجر كل الخير منبجسا ... على الخلائق طرا فهو مبذول

فيه البشائر قد لاحت أشعتها ... فيه تعين للخيرات تسهيل
وزخرفت لعباد الله جنته ... واستبشر الملأ الأعلى وجبريل
في ليلة المولد الأسمى وسحرته ... يا أمة سعدت بالمصطفى قولوا
قولوا وتيهوا على الأكوان وافتخروا ... فقولكم لمكان الصدق مقبول
أهلا بمولد خير المرسلين ومن ... له على الكون تسييد وتمويل
بمولد الصفوة العليا الرسول إلى ... كل الوجود وما للحق تبديل
سر العوالم والأرواح عنصرها ... من ذكره في قديم الذكر منقول
ألواح موسى بن عمران مبشرة ... ببعثه ويقرب البعث إنجيل
يا من بدا روحه للخلق مبتدأ ... وجسمه لمناط الوحي تكميل
يا دعوة الحق يا مجلى المحامد يا ... من نطقه كله وحي وتنزيل
لك اللواء لواء الحمد يشملنا ... من ظله عند هول الحشر تظليل
لك الشفاعة والحوض المعد لنا ... لك الجنان جنان الخلد تنفيل
لك المقام الذي قد عز مدركه ... برؤية ما لها في الصدق تأويل
إن لم يطق حملها موسى الكليم فقد ... عاينت ربك والتقديس مسدول
لك الوسيلة والجاه العظيم إذا ... ما أنت فوق نطاق العرش محمول
يا من يخلص من أضحى لمدحته ... على جناب كريم منه تطفيل
هذي مدائح راج أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تنويل
صلى عليك مفيض الجود منك على ... كل الخلائق والتعميم تسجيل
وآلال والصحب ما زمت على مرح ... إلى زيارتك العيس المراسيل
يا حاشر الخلق يا ماحي الضلال ويا ... من مدحه لرضا الرحمان توسيل
كم آية لك لا تحصى ومعجزة ... باب المحاول منها الحصر مقفول
ومن توهم أن يهدى لغايتها ... فذاك أثول والأوهام تسويل
إن كان من جودك الدنيا وضرتها ... فالقول كالصمت والإكثار تقليل
يا واضع الإصر عنا في شريعته ... فضلا ومن قبلنا بالإصر مغلول
قد جئتنا بحنيف كله نزه ... ميسر واضح الأحكام معقول
فيه الخبائث بالأحرى محرمة ... وللأطايب ذات الحسن تحليل
تركتنا وسبيل الحق واضحة ... أعلامها ومحيا الدين مصقول
بآل بيتك والذكر الحكيم لنا ... كل اعتصام إذا ما اغتالت الغول
هذا حفيدك سلطان الملوك أبو ... زيد إمام بنصر الحق مشغول
سبط الخلائف باني العز في شرف ... عال على مجده للناس تعويل

قوم تداركت العليا سعادته ... لما غدا وإليه الأمر موكول
ما زال مجتهدا في الله منتصرا ... بالله والسيف في يمناه مسلول
حتى استنارت نجوم للهدى فلها ... والحمد لله تقويم وتعديل
فهو المؤهل للسمحا يجددها ... من بعد ما عز للتجديد تأهيل
وهو الذي سنة المختار قد حييت ... به وقد غالها نسي وتعطيل
هو المؤيد بالإسعاد همته ... لبنية العز تشييد وتطويل
ففضله روضة غناء دانية ... قطوفها وجنى كفيه معسول
وبأسه في ديار الكفر صاعقة ... فيها لحزب ذوي الأهواء تنكيل
يا خزي من حاد عن منهاج طاعته ... ويلمه إنه والله مثكول
إن سار يوما الى الهيجاء تتبعه ... أجناد جرد أبابيل أبابيل
من كل أروع في إقدامه بطر ... وسيفه من قراع الهام مفلول
يجرها كعديد الطيس عابسة ... وماله غير وجه الله مأمول
يعنى به النصر لا ينفك يلزمه ... كأنه علة والنصر معلول
وعزمه نافذ لا شئ يحجبه ... فكل ما يبتغي في الحين مفعول
وتلك سنة ربي في عزائمه ... وما لسنة رب الناس تحويل
وللسعادة أسباب مقدرة ... في سابق العلم لا كسب وتحصيل
من أسرة زين الأقطار ملكهم ... كأن ملكهم تاج وإكليل
تملكوا فأتت كالروض دولتهم ... ظلالها العدل والإحسان عثكول
بَنُو عليّ أدام الله عزهم ... فهم لمغربنا عز وتفضيل
وابن الإمام هشام نال بعدهم ... ما فاتهم ولأخرى البيت ترفيل
أتته واسطة بالطوع حين غدا ... للعقد واسطة وهم أكاليل
يا أيها الملك الأتقى المحيط به ... من الجلالة إجمال وتفصيل
بقيت للمولد المبرور تشهده ... وعزه بجلال منك مكفول

وفي عام ثلاثة وخمسين ومائتين وألف رفعت إليه هذه الدالية :

أرائح أنت نحو الحي أو غاد ... بالله فاستنجز الأظعان أو عادي
واذكر لأهل النقا عهدي القديم به ... وحي أهل النقا حييت يا حاد
واسأل مناخ المطايا عند كاظمة ... هل من معاد بها يوما لميعادي
واستخبر الدمنة الخضراء من إضَم ... عمّن عهدت بها أيام اسعادي
إن كان مثواهم وادي العقيق فها ... دمعي من البين يحكي ذلك الوادي
كم لي على الغور إن لاحت بوارقه ... أنوح نوح حمام فوق ميّاد

أهفو إليه وأشواقي تقربني ... منه ويبعد مني كل إبعاد
وكم أحن إلى نجد فينجدني ... جفن سفوح قريح أي إنجاد
واها لنجد ومن حلوا بأجرعه ... مراتعا لظباء بين آساد
مرابع كلما هاجت نواسمها ... هاجت على القلب أشجاني وأنكادي
آه لأجيدكم سالت أباطحه ... من المطايا بأعناق وأجياد
ونحن نسدي أحاديثا ونلحمها ... من الصبابة لا إسداء أبراد
لا والبناء الذي طاف الحجيج به ... مجردين بلا ظلم وإلحاد
ذاك المجلل بالديباج تأمن في ... ساحاته الطير من أشراك صياد
ذاك الذي رفعت كف الخليل له ... قواعدا عندها رفد لو فاد
لا والذي وجه الله العباد إلى ... شطريه ما بين ركاع وسجاد
ذاك المعظم في البطحاء يقصده ... كل الأنام بأزواج وأفراد
مالي وقد سارت الركبان معتذر ... والحال موسعة من فضلة الزاد
لكن للذنب تعويقا لكاسبه ... عن الورود إذا ما استخدم الصادى
سار الموفق والزلفى تسوق به ... والحظ يقتاد منه خير مقتاد
وأثقلتني أجرامي ومجترحي ... وأقعدتني ذنوبي شر إقعاد
وليس لي حيلة أرجو المفاز بها ... إلا مديح البشير الشافع الهادي
خير البرية روح الكون عنصره ... من نوره كل تكوين وإيجاد
محمد حجة الرحمان علة ما ... في الكون من رحمة تبدو وأمداد
لا شئ من هذه الدنيا وضرتها ... إلا منوطا بأحمد وحماد
من أجله دارت الأفلاك وابتهجت ... حور الجنان ابتهاجا غير معتاد
لولاه ما بعث الرسل الكرام ولا ... تنزل الوحي تنزيلا لإرشاد
لولاه ما أمسك الله السماء ولا ... أرسى بحكمته أرضا بأوتاد
لولاه ما أخذت أرض زخارفها ... وازينت بين أغوار وأنجاد
ولا لساكنها أجرت مذانبها ... ولا استقرت بأشباح وأجساد
فهو النبي الذي حقت نبوءته ... وآدم بعد في طين وأثآد
وهو الذي طاف جبريل الأمين به ... أعلى العلى بين أملاك وحفاد
ثم انثنى عنه جبريل وزج به ... في وحدة النور أو في نور إفراد
سما إلى العرش كي يحظى برؤية ما ... هناك من آية كبرى واحماد
وجاوز الحجب إكراما وسر به ... أهل السماوات ألفاهم بمرصاد
في حضرة العز أدناه وأشهده ... منه الجمال بلا كيف لإشهاد

وجاء بالصلوات الخمس أمته فهن قرة أبصار لعباد
مازالت الأمم الأولى تبشرها أرسالها بظهور منه مرتاد
وكل ما أنزل الرحمان من كتب يثني عليه بترتيل وترداد
يا أحسن الخلق أخلاقا وأطولهم في الجود باعا ويا نجلا لأجواد
يا أكرم العرب بيننا في مفاخرة من غالب خير آباء وأجداد
أجر عبيدك من يهدي قصائده إليك محكمة كنسج زراد
يا خاتم الرسل يا أعلاهم شرفا كم آية لك لا تحصى بتعداد
غرست نخلا فأضحت وهي مثمرة من عامها ببنان ذات ازفاد
أجريت منها زلالا باردا فغدا منه الرواء لأجناد ووراد
وسبحت عندها الحصباء يسمعها من كان حاضر ذاك اليوم في النادي
رميت أهل حنين بالحصى فغدوا ما بين مستأسر أعمى وشراد
ويوم أصبحت الأصنام ناكسة إذ لاح وجهك بدرا عند ميلاد
وبحر ساوة قد غاضت منابعها والنار بعد وقود ذات أخماد
وحنن الجذع إذ فارقت جانبه وقمت تخطب يوما فوق أعواد
وظبية كلمتك أن تسرحها فاسترضعت خشفها في جانب الوادي
وظللتك الغوادي من هواجرها فسرت ملتحفا أبراد أبراد
يا دعوة الحق ياسر الهداية يا من أنقذ الخلق من أشراك إلحاد
خلفت فينا عتادا نستعد به لكل هول وغي أي اعداد
هذا الكتاب الذي يهدي لقارئه منه الشفاء لأرواح وأكباد
وآل بيتك أبقى الله مجدهم حصنا حصينا لنا من كل إفساد
هم الأمان لأهل الأرض حبهم ينجي من النار إن شبت لأوغاد
كل الدوائر قامت من مراكزهم على سموت من التقوى وأبعاد
فمنهم كل غوث يستغاث به ومنهم كل أقطاب وأفراد
ومنهم كل سلطان تنال به مصالح الدين والدنيا لمرتاد
مثل الإمام أبي زيد إمام هدى وأين مثل أبي زيد لقصاد
موفق قد تولى الله نصرته ولاية ذات إعزاز واعضاد
مبارك أنقذ الله العباد به من الردى بعد اشفاء واجهاد
أغر أشرقت الدنيا بطلعته بالعدل والأمن في نهد وأوهاد
مؤيد بمهابات فأنصله تغزو العدا وهي في أثناء أغماد
إن سار يوما فريح النصر تصحبه تهفو براياته في كف بناد

والسعد يقدم أجنادا يقدمها والرعب يردفها منه بأجناد
ما زال ينشر إحسانا ومرحمة في الناس من غير إجحاف وإلهاد
حتى استلانت قلوب الناس سيرته واستذعنت كل قاسي القلب معناد
نذاك مراكش الغراء حضرته محسودة الفضل في مصر وبغداد
يا مالكا ورث العلياء عن سلف عالى المجادة يرويها بإسناد
يا ابن الملوك الأولى كانت رعيتهم يضحون من عزهم في ظل أطواد
لا زلت ترفل في عز وفي دول موصولة أبدا من غير انفاد
تفيض أبحر جود في مواسمنا فيضا تهين به أبناء عباد
ودم كما شئت مسرورا تقيم لنا مجالسا ذات إنشاء وإنشاد
تهنيك ليلتنا هاذى ولا برحت تأتيك في كل إقبال وإسعاد
هي ليلة المولد الباهي وبكرته وليلة يومها عيد الأعياد
من ليلة شرف الله الوجود بها وتلك خير ليال دون افناد
يا شاديا يجتلي مدح الحبيب لنا ردد لنا مدحه يا أيها الشادي
وناده بلسان غير محتشم نداء ذي وله في القلب مزداد
يا من على الرسل والأملاك كلهم والإنس والجن طرا فضله باد
يا معجزا للبرايا في فصاحته يا خير من مازبين الظاء والضاد
قم بابنك ابن هشام في الأمور كما تقوم في الأمر آباء بأولاد
فإنه يورد الأشياء موردها في نصر دينك دأبا خير إيراد
بجاه وجهك حقق ما يؤمله من كل خير لأولاد وأحفاد
وكن له ناصرا وامدد عساكره بالفتح في حال أرباب وإسآد
ثم السلام كعرف الزهر ينضحه صوب الغمام عليك طول آياد

وفي عام ستة وخمسين ومائتين وألف عيد السلطان ببلاد دكالة عيد المولد الشريف، وكنت هيأت هذه القصيدة فلم يتيسر من يذهب بها حتى أرهق العيد، فلم توافه إلا في اليوم الذي قبل الليلة، ولما أبطأت عنه شرع في إنشاء ما يقيم به العادة، فلم يكمله حتى وردت عليه هذه، ومن عجيب الاتفاق أن التي شرع في إنشائها موافقة لهذه في رويها وبحرها، وهذه هي التي وجهناها وقرئت :

راح الفؤاد بأثر الركب إذ راحا سكران لكنه لم يشرب الراحا
مالي وكنت كتوما للهوى زمنا أرى هواك وإن أخفيت براحا
كم ذا وقوفك بالأطلال تسألها ودمع عينك لا ينفك سفاحا

لا ينفع الصب تسآل الربوع ولا ... يزيـــد إلا صبابـة وأتـراحـا
قم بالغـرام قيـام العارفيـن بـه ... إن الغـرام مجـد ليـس مـزاحـا
وانهض على ذمم الأشواق في مرح ... إلى السرى راكبا وجناء سرداحا
ولا تقل عند سير القوم معتذرا ... (سرتم جسوما وسرنا نحن أرواحا)(45)
يا قاطنا في غرور من أمانيـه ... قد أفلح الظاعنـون اليوم إفلاحا
ناداهم هاتف الاسعاد من حرم ... يعمـم الـزور أفـراحـا وأربـاحـا
تاتي إليـه الورى شعثـا مجردة ... مغبـرة تبتغـي عفـوا وإسجاحـا
من كل معتـرف بالذنـب ملتـزم ... لثمـا للمتـزم شوقـا وإلحاحـا
ومن قريح ضلوع في المطاف له ... تضـرع ساكـب العينيـن نواحـا
وذي هيام عن الأكوان في شغل ... مستوحش لم يزل في الأرض سياحا
فازوا لعمرك بالأمر الذي طلبوا ... وأدركوا لثأي(46) الدارين إصلاحا
بشراهم لم يبالـوا بعدما نعمت ... أرواحهم ما أمـض الكـد أشباحا
قد انتهى بهم الجد الذي ركبوا ... فيه مجاهل تغـوى السَّفْرَ تجياحا
لبنيـة يسعـــد الأشقـى برؤيتهـا ... ويغتـدى في ظلال الأمن مرتـاحا
لساحة تأمن الطيـر المخاف بها ... يا فوز من حل يوما تلكم الساحا
لبلـدة لاح نـور المصطفى وبـدا ... فيها السرور على الأكوان إذ لاحا
أرض بهـا ولـد المختـار سيدنـا ... محمـد ساطع البرهـان وضاحا
شمس الهداية نور الحق رحمته الـ ... مهـداة من أوضح التوحيد إيضاحا
سر النـدى حجة المولى ودعوتـه ... أسعد به ما حيا للكفر جحجاحا
من جاء بالعدل في الأحكام ينشره ... نشرا يغـادر جـور الظلـم منزاحـا
لا يمكن العد فـي آيات مولده ... مـن كان للعـد للآيـات طمـاحـا
إيوان كسرى غدا إذ ذاك منكسرا ... وملك مالكه في الحين قد طاحا
وبحـر سـاوة قـد غـارت ينابعـه ... ونارهـم كرمـاد ليـس لفاحـا
والشهب تنقض والأصنام ناكسة ... والجن تنفـر عنـد الرجـم جماحـا
وأنـزل اللـه في الإنجيـل حليتـه ... كما قد أنزل في التوراة ألواحـا
وكـل حبـر وكهـان وذي خبـر ... بقرب ميلاد خير الخلق قد باحا
ثم استفاضت وضاءت بعد ذاك له ... آيات صدق كما أوقدت مصباحا

---

(45) هو عجز بيت صدره :
(يا واصلين الى المختار من مضر)
والبيت واحد من أبيات أربعة لأبي العباس أحمد بن العريف الصنهاجي الصوفي الشهير المتوفى سنة 536 هـ.
(46) الثأي : الفساد.

كشق صدر بلا وصم ولا ألم وشق بدر غدا في الأفق ملتاحا
ورد أعين من سالت عيونهم فهم أحد من العقبان ألماحا
والجذع حن حنينا حين فارقه والماء من كفه الفياض قد ساحا
وجاءه الشجر الفينان منقلعا يجر في الأرض أغصانا وأدواحا
والغيم عند هجير الشمس ظلله ظلا بمثل رشاش الطل رشاحا
وأفصح الحجر الصفوان معجزة بأن أحمد خير الخلق إفصاحا
يا من به قد أفاض الله من كرم على العوالم ألطافا وأمناحا
لولاك في الأرض ما اخضرت منابتها ولا همى الغيث بالأنواء نضاحا
ولا تمايل روض في خمائله ولا تفتق زهر لا ولا فاحا
أنت الذي جعل الرحمان طاعته عنوان منجاة من لولاه قد جاحا
أنت الذي جعلت من يُمْنِ غرته صلاته لجنان الخُلْد مفْتَاحَا
يا عدتي يا مجيري يا معَاذيَ يا كهفي إذا جار خطب الدهَر مَلحاحا
يا سيدي يا رسول الله دعوة ذي فقر لفيض نداك يبسط الراحا
يا سيدي يا رسول الله دعوة من يرجونك توسعه فوزا وإنجاحا
يا سيدي دعوة من شاعر غزل لجاه قدرك لا ينفك مداحا
يشكو إليك بنَأي منك يجرحه والنأي ما زال للعشاق جراحا
ينوح للذنب في أقصى مغاربه فارحم غريبا لخوف الذنب قد ناحا
يرجوك يا رحمة الرحمان تلمحه منك العناية بالإسعاد تلماحا
كيما يوافي ذراك الرحب وافده يشتد منشرح الأحشاء مفراحا
فليس والله بعد الشيب ملعبة إن كان قد وجد الإنسان نصاحا
يا رب بالمصطفى يسر لنا سببا حتى تحبر في مرآه أمداحا
يا رب بالمصطفى وانصر خليفته من لم يزل ذكره كالمسك نفاحا
خير الملوك إمام العدل من ضحكت آثاره في زمان صار مكلاحا
من أيد الدين بالتقوى وشيده وكان لولاه بالأهواء صحصاحا
من ألبس الله إجلالا وأصحبه مهابة لبغاة الغي مكشاحا
واختصه بسعود لا تزايله لو باشر الصخر عاد الصخر تفاحا
فهو الذي من ملوك الأرض ننسبه درا نفيسا بجيد الدهر ملتاحا
آثاره فضحت آثار كلهم والدر ما زال للحصباء فضاحا
إذا ذكرت سجاياه وسيرته أنستك معتصما منهم وسفاحا
حمدا لمن صان دين المسلمين به مجردا دونه قضبا وأرماحا

وخصنـا بمثـول فـي مجالسـه ... نديرُ من خمرة الأفـراح أقداحـا
وزان موسمنا هـذا بطلعتـه ... معاشرا لشفيع الخلـق مداحـا
يا من لعزتـه الملاك خاضعـة ... بالعزم يأتي الذي يرضيه(...)(47)
هذا الفرنج يرجي أن تساعـده ... على مهادنـة للسلـم جناحـا
لو لم يكن لك بالإذعان معترفا ... لكان قد مسخ الخنزير تمساحا
حياك ربي أبا زيد وأفسح في ... أيامك الغـر ذات الخير إفساحا
وأكمل الله ما ترجو وتأمله ... فإنه لم يزل بالسؤل سماحا
وحاط أبناءك الأمجاد كلهم ... أخص أبلج للأنصار فتاحا(48)
محمدا أسعد الله الرعايا به ... من بز وهو ثني السن قراحا
إذا دعوت أمير المؤمنين به ... دعوت برا إلى الخيرات مجناحا
مرافق الرفق يطفي من لطافته ... نار الذي لم يزل للشر قداحا
محمد هو أهل أن تتوجه ... تاج الرضا منك إيثارا وإرجاحا
لا زال آل هشام ظل مجدكم ... ممددا في رياض العز نشاحا
ولم تزل صلوات الله عاطرة ... تهدى إلى المصطفى كالزهر فواحا
ما أنغمت هذه الأمداح سامعها ... وأعجزت في مجال الحسن وشاحا

ولما توفي الوزير الأعظم بهاء الدولة، أخونا في الله أبو عبد الله سيدي محمد بن إدريس عام أربعة وستين ومائتين وألف رحمه الله، انقطعت هذه السنة الحميدة، والخصلة السعيدة، وبوفاته رحمه الله تهدم ركن عال من أركان الدولة، وظهر أثره في أخلاق مولانا السلطان المؤيد، وقد قال لبعض جلسائه ذات يوم : والله من يوم مات ابن إدريس ما وجدنا مثله ولا من يقاربه(49) <وهكذا وقع بعد عزله وتأخيره وولاية الفقيه الوزير الرئيس السيد المختار بن عبد الملك الجامعي وذلك عام سبعة وأربعين ومائتين وألف، فإنه ظهر كل الظهور أثر فقده من الباب المولاوي، وعرف مقدار كفايته وبركة غرته السعيدة، وتنكرت الأحوال السلطانية عما عهدت من لين الجانب، ولطافة السياسة، ومباشرة الخلق بالخلق الجميل، فلما توفي

(47) بياض بالأصول وجاء الشطر في الطبعة الفاسية هكذا :
بالعزم يأتي الذي يأتيه وضاحا
(48) كذا جاء هذا العجز في الأصول أما الفاسية فجاء فيها كالتالي :
لا سيما من سما مجدا وأفلاحا
(49) يوجد بالنسخة الأم هنا كلام شطب عليه المؤلف بسبب سهو وقع فيه فيما يتعلق بترتيب وزراء المولى عبد الرحمان ونبه عليه في تقييد ابن اليماني السالف الذكر وقد أصلح المؤلف ذلك السهو فيما وضعناه من كلامه بين القوسين الآتيين.

الوزير الرئيس السيد المختار بمراكش عام 1251 هـ قدم مولانا المؤيد الفقيه السيد محمد بن علي الحاجي النكنافي مدة قريبة والسلطان يتوسم وينتقي من وجوه الدولة المتأهل لحمل ذلك الوزر الثقيل، فلم يجد بدا من أن يتمثل بقول القائل :

وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر[50] ولا حك الجرب مثل الظفر، ولما لم يجد من يضيف إليه الأمر ويسنده خاطب نفسه بلسان الحال وهو ينشده :

أرى اليوم دستا للوزارة فارغا أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فقالوا هو القرم ابن إدريس ماله مثيل ومن ذا في الرجال يقاربه

فأعاده مولانا إلى محله، ورمى إليه زمام الباب السعيد كله، فاستقامت الأحوال، وتبينته وأخذت الأرض زخرفها وزينته، فلما توفي في التاريخ المذكور ظهر لمولانا المؤيد مطلع الرغبة بكثرة اللمعان، بعدما أمعن النظر فيمن يصلح غاية الإمعان، فقلد الوزارة والحجابة، رئيس العصابة، وأضاف إلى النصل مقبضه ونصابه، وظهر له أن مرماه صادف موقع الإصابة، فأجرى أحكام القضية مجاريها، وأعطى القوس باريها>[51] وهو الفقيه الأجل الكاتب، الذي تفتخر به المناصب والمراتب، الشاب الحازم النجيب، ذو النظر السديد والخلق العجيب، أبو عبد الله السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي فقام بما حمل أحسن قيام، وأنزل الأمور في مراكزها، واضطلع بأعباء المنصب كما يجب، فاستقامت شئون الحضرة العالية كل استقامة، ولم يقدر أحد أن يتعدى مقامه، فلم يزل كذلك برهة من الزمان، حتى ظن أنه قد أعطي من صروف الدهر ملابس الأمان، وكان قد أعجبته نفسه غاية الإعجاب، وطغت عليه لمكان الجدة والشباب، فكان ربما رد على مولانا السلطان المؤيد بعض القضايا وأنكرها، وشنع عليه في الباطن وربما أظهرها، ومولانا لما جبل عليه من المروءة والحياء، يتحمل له ذلك حتى أدركه من ذلك غاية السآمة والإعياء، فلما كان عام ثلاثة وسبعين ومائتين وألف بنفس دخول مولانا المؤيد حضرة مراكش عزله بلا

(50) هذه القرينة عجز بيت لأبي فراس الحمداني صدره :

ولسد غيري ما سددت اكتفوا به

(51) هذا الاصلاح وارد في المخطوطة الملكية أما مخطوطة كلية الأداب والمخطوطة الشنرفية فبقي فيهما السهو على ما هو عليه ومثلهما في ذلك طبعة فاس.

سبب ظاهر، فلم يفهم أحد ما أوجب ذلك، والموجب ما أشرنا إليه، ومع ذلك فإن سيدنا ما نقص له من حاله شيئا ما عدا التأخير عن الحجابة، فلم يزل ملازما حضرته وبابه، وخطته التي هي الكتابة، وقيل إنه أعطى ما تيسر عليه من المال من غير تكليف ولا إلزام، وولى السلطان حجابته الفقيه، العلامة الوجيه، الكاتب النزيه السيد محمد الصفار التطاوني، فلم يزل كذلك حتى توفى الله السلطان آخر المحرم فاتح عام 1276.

فصل في ذكر ما خص الله به السلطان المؤيد من المآثر والمفاخر والمحاسن التي ما نالها أول ولا آخر

قد تقدم لنا في صدر هذه الراية المباركة أن السلطان العادل ما مات حتى أشرفت الدولة العلوية على الانتشار، والاضمحلال والاندثار، وذلك أن البرابر الذين هم روح جسد العصبية، بالبلاد المغربية قد اتفقوا في وقعة زيان وبعدها باتصال على أن لا يتركوا للمخزن صولة ولا استبدادا، وكان الحاج محمد بن الغازي هو رئيسهم في ذلك، لأنه لما وقع منه ما وقع من الغدر والفرار في تلك الوقعة كما شرحنا، خاف على نفسه أن يواخذ بذلك ممن يقوم من الملوك، فاستعان على مكره وتدبيره بالشيطان بوبكر أمهاوش، فريض له رءوس قبائل البربر كلهم، حتى جمع له اتفاقهم على أنهم لا يتركون المخزن تقوم له قائمة، فتحالفوا على ذلك، وربما دخل معهم من جاورهم من قبائل العرب الذين لهم بال وقوة كبعض بني حسن، مثل الصفافعة والتوازيط، ومثل زعير وجل أهل تادلة، فلما أراد الله سبحانه نقض مبرم كيدهم، وتدمير تدبيرهم بعث الله تعالى من حضرة فضله وكرمه هذا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وأمده من السعادة بالجنود التي لا تحصى ولا تعد، ولا تغالب ولا ترد، فكان في جميع أموره كلما توجه لأمر عسير تيسر، وانجبر منه ما تكسر، وكلما حاول شيئا مغلقا انفتحت أبوابه، وعوض من خطئه صوابه، وكلما تعلقت همته ببعيد ولو بمناط الثريا تقرب ذلك البعيد إليه، وألقى بنفسه لديه عليه، حتى يكون بين يديه، هذه عادة الله التي عوده، وتأييده الذي أيده، وهذا كله بالمشاهدة والعيان، ومن

لمتفق عليه الذي لا يختلف فيه اثنان، من أول ملكه إلى آخره، فما خالفه أحد في أمر إلا كبه الله على مناخره، وأدل دليل على ما ذكرناه أن البرابر الذين تقدم حديث مكرهم والتمالؤ على معاندتهم للمملكة وغدرهم، لما أراد الله تعالى فصم ما عقدوه، وهدم ما شيدوه، جعل لذلك سببا قويا، ولطفا خفيا، وقد قلنا إن منشأ ذلك الفساد هو ابن الغازي الزموري، وقد قدمنا أنه تلميذ مولاي العربي الدرقاوي، وأنه لا يخالفه في أموره كلها، وكان مولاي العربي كما قدمنا محبوسا عند الوداية في أيام فتنة أولاد مولاي اليزيد، ولما فتحت فاس وسقطت رايتهم، جاء صبيان من أولاد مولاي العربي إلى مولانا السلطان العادل يرغبون في تسريح أبيهم، فحلف بالله أنه ما أمر بقبضه ولكن الله قبضه، وهو لا يسرحه حتى يسرحه الله الذي قبضه بغير أمره، فأحسن إلى الصبيان وكساهم، فلما مات مولانا العادل وتولى خليفته المؤيد دعت الضرورة ابن الغازي الى تسريح شيخه لأن أولاده قد نزلوا عليه وألحوا عليه، فلم يجد بدا من إظهار الطاعة، والدخول مع الجماعة، فورد على السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بإخوانه وبيعتهم وهديتهم، فلما رآه البرابر الذين تحالفوا معه خالف ما تعاقدوا عليه ظهر لهم أنه غدار مكار كذاب، وهو كذلك، فنبذوا ذلك العقد وسارعوا إلى طاعة السلطان بأنفسهم وأموالهم، فسبحان من إذا أراد شيئا هيأ أسبابه، وفتح بابه، وأما ابن الغازي فإن مولانا السلطان المؤيد من لطف سياسته، قابله بغاية الإحسان، وأفاض عليه سجال الامتنان، وجعله عمدة آرائه، ومستند أموره من أمامه وورائه، فكان لا يقطع أمرا دونه من قنطار إلى موززنة، بعدما سرح له شيخه ورفع قدره، وشرح بذلك صدره، فأوصاه الشيخ على طاعة السلطان، ونهاه عن شق العصا واتباع الشيطان، ومن مبالغة السلطان المؤيد في الإحسان إلى ابن الغازي أنه زوجه زوجة عمه السلطان العادل ابنة بوستة،(52) وكانت من حظايا مولانا العادل، وذلك من حسن السياسة العجيبة، فإن ابن الغازي لما رأى السلطان سمح له في تزوج حظية عمه ظن أنه نسي ما فعله من غدره وتسببه في إهلاك تلك الجنود المجندة من عساكر المسلمين وأمير المؤمنين، وهدم قواعد المملكة

(52) جاء بهامش الأصل بخط ابن المؤلف سيدي عبد الله ما نصه : "تزوج ابن الغازي بكلثوم بنت بوستة أم مولانا عبد العزيز بن سليمان".

التي لولا أن الله سبحانه جبرها بولاية هذا السلطان المبارك الغرة لما كان لها قيام إلى آخر الدهر، فلما اطمأن هذا الظالم الغادر، وأمن من مكر الله، لما أرخى له مولانا المؤيد عنانه، وأفاض عليه مبراته وإحسانه، وذهب معه لمراكش في ظلال الكرامة التامة، ورجع معه إلى فاس، ثم عاد معه أيضا الى مراكش وهو لا يزداد إلا تقريبا وإيثارا ورفعة شأن وضخامة جاه، فلما استقر في حضرة مراكش تعرض له عبيد البخاري ليلا وهو نازل من الحضرة العالية، فضربوه بالرصاص فأخطأوه وأفلت، وأصبح يسب ويبرق ويرعد، ولم يطلع لدار المخزن أياما غاضبا على الدولة كلها، وأخبر السلطان أنه يدبر الهروب سرا، فأمر السلطان بالقبض عليه وتوجيهه للجزيرة التي هي سجن أهل الجرائم العظام، فبقي بها زمانا ثم أصبح ذات ليلة ميتا ولم يدر سبب موته.

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد   وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر(53)

وعلى كل حال قد انتقم الله منه، وأراح المسلمين من شره ومكره، وواخذه بسوء عمله، ولعذاب الآخرة أشق، وهذا كله إنما ذكرناه دليلا على سعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن سعادته أيضا أنه لما ولي وجد بيوت الأموال فارغة قد أكلت الفتن المتوالية ما كان فيها، فإنه من حين وقعة زيان انقطعت الجباية، ومنع القبائل ما بأيديهم، فرجعت المملكة إلى بيوت الأموال في ضرورياتها ورواتبها ولوازمها المتكاثرة، ولا سيما عبيد البخاري فإنهم وجدوا بيت المال على طرف الثمام،(54) بين أيديهم، فجعلوه نصب أعينهم، وغاية معولهم، حتى نسفوه نسفا، وأظهروا في ذلك على مولاي الحسن الخليفة عليهم جرأة وعسفا، فما مضى من ولاية مولانا المؤيد إلا زمن قريب حتى أذعنت القبائل للحق، وأدوا ما فات من واجب الزكوات، وعادوا الى المعهود من الجبايات، وترادفت الخيرات على المملكة من كل جانب. وما ذلك إلا بسعادة مولانا السلطان المؤيد، ومن ذلك أيضا أن الجيش البخاري لم يبق من خيلهم عند موت السلطان العادل إلا ما لا عبرة به كما قدمنا في أول هذه الراية، فأحياه مولانا المؤيد حتى عادت له

(53) البيت من رائية ابن عبدون في رثاء بني الأفطس التي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

(54) يقال : هذا منك على طرف الثمام   أي قريب سهل التناول.

الصولة، وقامت به الدولة، إلا أنه لم يأمنهم على اختزان الأموال في جوارهم وبين ديارهم، بل أخذ حذره منهم في جميع أمره، والسعيد من اتعظ بغيره، ومن مآثر هذا السلطان المؤيد التي ادخرها للمعاد، وآثاره التي شيدها في البلاد، وذلك ما افتتح به ولايته وهو بناء ما تهدم من مرسى ثغر طنجة، وصير عليه مالا عظيما حتى أعاده أحسن وأحصن مما كان، ومن ذلك أيضا شراء دار شقشاق المجاورة لحرم مولانا إدريس بفاس وزيادتها في مسجده، فكمل بذلك رونق ذلك الحرم الشريف، وتم بهاؤه وحسنه، ومن ذلك بناء ما تهدم من سقالة الثغر السويري فإنه وجه على العملة البنائين من بر النصارى، وكان يلزمه من ذلك في كل يوم من الأموال ما يتعجب منه حتى أزال فسادها من الأساس الواغل في البحر، فجاءت في غاية الإتقان والحصانة، ومن ذلك المساجد التي جددها بحضرة مراكش كجامع الكتبيين مرتين، مرة على يد ابن العادل،(55) ومرة على يد الشريف مولاي إبراهيم البوكيلي(56) المحتسبين، فإن ذلك الجامع كان قد تداعى للخراب لولا إصلاحه له، ومن ذلك الزيادة في جامع سيدي أبي إسحاق على يد مولاي إبراهيم المذكور، ومن ذلك هدم جامع الوسطى وإعادته على شكل بديع وهيأة عجيبة على يد القائد السيد أحمد بوستة، ومن ذلك بناء جامع أبي حسون وإقامة الجمعة به كما كانت أولا، ومن ذلك بناء جامع القنارية والزيادة فيه على يد القائد المذكور، ومن ذلك وهو أعظم من ذلك كله إصلاح جامع المنصور، فإنه كان ما بقي منه إلا الاسم مع ضخامة بنائه الأصلي الذي كانت تضرب به الأمثال، وكان قد أشرف على اضمحلال آثاره، فأمر مولانا المؤيد رحمه الله عامله المذكور السيد أحمد بوستة بالوقوف على إصلاحه، فاستفرغ ذلك العامل جهده في ذلك ليلا ونهارا، وأنفد الجهد والطاقة فيه حتى عاد إلى شبابه الأول، ومن ذلك إصلاح قبة الشيخ أبي العباس السبتي، ومن ذلك صيانة سور أكدال بالسور الهائل الذي لا تؤثر فيه الأيام بتطاولها على يد مولاي إبراهيم المذكور أولا، ثم على يد القائد بوستة المذكور ثانيا، وأما إنشاء غرس أكدال فقد تقدم لنا خبره في أول هذه الراية السعيدة، ومن ذلك أيضا

(55) ابن العادل هو السيد عبو محتسب مراكش.

(56) مولاي ابراهيم البوكلي محتسب مراكش.

بحضرة فاس العليا عمارة عرصة للامينة (57) التي كانت خرابا تألفها الوحوش مع أنها في باب الدار السلطانية، وفي سرة حضرة الملك، وقد كانت في الدولة المرينية التي أنشأت تلك البلدة من أصلها على هيأة بهية، جامعة للمحاسن الغير المتناهية، فيها ظهرت زينة تلك الدولة وضخامتها، وجلالة سلطنتهم وفخامتها، فيها مقاعدهم ومنازههم العالية، ومجالسهم المشرفة على بساتين المستقى المجاورة والموالية، يشقها نهر فاس عرضا، ولكن لا يسقي لها أرضا، يدخل من الجهة الغربية، ويخرج من الناحية المشرقية، ومرادهم بالدخول التمتع بالتنزه على ضفتيه وإقامة مواسم الأنس حول صفتيه، وأما سقي العرصة فقد رفعوا له الماء بالدواليب السامية النحاسية، وأجروه في القواديس والقنوات الرصاصية، وبالجملة فقد كانت تلك العرصة منية من زينة الحياة الدنيا، وجنة حائزة من الابتهاج المرتبة العليا، ثم أخنت عليها الأيام بصروفها، ومحت من تلك الرسوم جميع حروفها، فرآها الملوك قبيل مولانا المؤيد فلم يرقوا لحالها، ولا أنقذوها من أحوالها، مع أنها في أقرب جوارهم، وفي عقر ديارهم، فعطف الله عليها هذا السلطان المبارك، فأعاد بعد الممات محياها، وأبرز من ظلمات العدم جميل محياها، فأقام دولابها الذي هو كالفلك الدوار، حتى تفتقت في جنباتها الأزهار والأنوار، ولبست حلل الزينة تلك الأبراج والأسوار، ورقصت فيها الأدواح بدون اختيار، لما تغنت على فروعها سواجع الأطيار، والتحفت خمائلها الملابس السندسية، المطرزة بالأزهار الزخرفيه، وتبخترت من جداولها بخلاخل النضار، فكان عندها موقف استحسان النظار، أما غوطة الشام فقد نعاها هزارها الغرد وأما المسرة فليست إلا على ضفة نهرها المطرد، وأما أبو الجلود فقد طوى جلوده، لما رفع هذا الدولاب العالي بنوده، وذلك بسعادة مولانا المؤيد، وهذا بعض مآثره التي شيد.

وأما أوصافه الجبلية التي طبع عليها، ومال في كلية أموره إليها، فلا تحصى ولا تعد، ولا ترسم ولاتحد، من ذلك الكرم والشجاعة والحياء، والحلم والصبر والوفاء، وطهارة الباطن، التي عنوانها نزاهة الظاهر، وعدله في القضايا التي وصلت إليه على حقيقتها، وقيامه بنوافل الخيرات من

(57) جاء بهامش الأصل بخط سيدي عبد الله ولد المؤلف ما نصه : "علة آمنة بنت السلطان المريني كانت فقيهة عالمة أديبة لها سطرة وجاه وهي مذكورة في جذوة الاقتباس لابن القاضي".

الصيام والقيام والمحافظة على أداء الصلوات، وحسن الظن بالله، والتوكل على الله في جميع الأمور، هذه الأخلاق كلها كانت فيه على الكمال بالمشاهدة التي لا تحتاج إلى برهان، ولو ذهبنا إلى ذكر ما وقع له منها لطال بنا الحال، وسلفه فيها وإمامه وشيخه هو عمه السلطان العادل مولانا سليمان رحمهما الله تعالى، فإن مولانا المؤيد كان من عادته المقررة ألا يخرج عن سنة عمه وطريقته غالبا، فكان يبحث ويسأل في الأمور العارضة له كيف كان يفعل في مثل هذا، فإذا أخبر به جعل حكمه في ذلك الأمر فصل قضيته، وما علمنا أنه خالفه في شيء إلا في النزر القليل، ولا يخالفه إلا إذا ظهرت له مصلحة تحقق وجودها في زمانه دون زمان السلطان العادل، وذلك صحيح في قواعد السياسية المدنية، فإن التمدن الذي سببه العمران تختلف أحكامه باختلاف الأعراف المنتقلة بحسب الأزمان، فرب أمر كان يصلح في زمان كان العرف فيه مناسبا لذلك الأمر ولا يصلح في زمان آخر إذا تبدل عرفه وحدث عرف آخر، وهذا مشاهد بالضرورة حتى في الأحكام الشرعية فضلا عن المدنية، ومما خالف فيه مولانا المؤيد عمه العادل قضية تجديد العمال إذا كثرت الشكايات بهم من رعيتهم، فإن مولانا السلطان العادل رضي الله عنه ما كان يتوقف في ذلك والعمال عنده محمولون على الظلم والطغيان، ولا يحتاج في إثبات ظلمهم إلى بينة، لا سيما إن طالت ولايته، وربما يستشهد بقول المالقي في قصيدته السياسية :

لا تنكر الظلم ممن دام في عمل   فإن طول مداه فيه أطغاه

وهو والله العظيم صادق في ذلك، ناصح للملة وأهلها، إلا أنه نشأ عن ذلك النهج الذي اعتمده فساد آخر، وذلك أنه لما اشتهر عند العامة أن السلطان لا يحتاج في الشكاية بالعامل إلى بينة صار كل من أراد عزل عامله اجتمعت شرذمة منهم وشكوه إلى السلطان فيعزله، ثم إذا لم يوافقهم العامل المجدد على مرادهم فعلوا مثل ذلك، وهكذا فلا يستقيم للحكام حكم على الرعية، وبذلك يحصل الخلل وانحلال الأمور المدنية، فكان الضرر الناشئ عن تبديل العمال بأدنى سبب أقبح وأشد من الضرر الناشئ عن الصبر على ظلم العامل، وهذا هو الذي حمل مولانا المؤيد على مخالفة

عمه، وكان يقول : الرعية أظلم من العامل، وظالم واحد أخف من ظلم العدد الكثير، وسبب هذا هو ما أشرنا إليه من اختلاف الأعراف باختلاف الأزمان، وإن كان الذي ذهب إليه مولانا العادل هو الحق الموافق للسياسة الشرعية، فقد ذكر المقري في نفح الطيب أن الإمام الأجل الكامل المكمل أبا عبد الله سيدي محمد بن عباد(58) شارح الحكم كتب إلى عامل فاس في زمانه على قضية يرشده فيها الى فعل ما هو الأصلح، فخالفه العامل فيها ولم يعبأ بقوله، وكان ابن عباد رضي الله عنه هو الإمام في جامع القرويين فصلى السلطان ذات يوم الجمعة بالقرويين بقرب مخالفة العامل للشيخ، فكان من جملة ما قال الشيخ في أثناء خطبته أن قال : من الأمور المستحسنة ألا يبقى العامل أكثر من سنة، فسمعه السلطان فعلم أنه هو المخاطب بذلك، فعزل العامل في عشية ذلك اليوم، انتهى بمعناه. وهكذا في كل ما خالف فيه مولانا المؤيد عمه إنما هو لمصلحة أوجب الزمان اعتبارها، وكذلك مولانا السلطان العادل خالف والده في أمور عديدة مما اقتضته المصلحة الزمانية كما ذكرناه، من ذلك أن مولانا السلطان سيدي محمد كان ظهر له أن اشتغال طلبة الفقه بقراءة المختصرات في كتب الفقه والإعراض عن الأمهات المبسوطة الواضحة الدلالة على الأحكام الشرعية، تضييع للأعمار في غير طائل، وكان ينهى عن ذلك غاية، ولا يترك من يقرأ مختصر خليل ومختصر ابن عرفة وأمثالهما، يبالغ في التشنيع علي من اشتغل به حتى كاد الناس يتركون كتابته وقراءته، وكان يحضهم على كتاب الرسالة وأمثالها، ووضع في ذلك كتابا(59) معلوما مبسوطا، وأعانه علي ذلك المذهب بعض علماء دولته، كالعلامة الغربي(60) الرباطي، ورفيقه العلامة ابن الأمير السلاوي(61) وكذلك كان ينهى عن قراءة كتب التوحيد المؤسسة علىّ القواعد الكلامية المحررة على مذهب الأشعرية رضي الله عنهم، وكان يحض على مذهب السلف من الاكتفاء بالاعتقاد المأخوذ

---

(58) محمد بن عباد شارح الحكم لابن عطاء الله الاسكندري، وابن عباد النفزي الرندة نشأ ببلده رندة على أكمل طهارة وعفاف وصيانة وحفظ القرآن ابن سبع سنين وله تأليف عديدة ت 792 هـ 1389 (معجم المطبوعات) 1 ص 157 * نيل الابتهاج بهامش الديباج * ص 279.

(59) كتاب سيدي محمد بن عبد الله في التعليم.

(60) الغربي الرباطي سبقت ترجمته بهامش راية سيدي محمد بن عبد الله في سفارة مع ابن الأمير السلاوي.

(61) ابن الأمير السلاوي سبقت ترجمته مع المذكور أعلاه.

من ظواهر الأيات والأحاديث الصحيحة بلا تأويل على ما ذهب إليه جماعة من الأئمة المجتهدين كالإمام أحمد وداوود الظاهري واتباعهما، وكان يقول عن نفسه : إنه مالكي مذهباً، حنبلي اعتقاداً، ومجالسه ومحاضراته كلها تدور على هذا المركز، وله في ذلك أخبار عجيبة، ووقائع يمتحن بها بعض الناس، وذلك أمر محمود سديد لا حرج فيه، وهو طريق مضمون السلامة، قريب علي المتناول من عوام المسلمين، وأما العلماء أرباب الأنظار التي أوسع الله لها المجال في إدراك المسائل بحججها المعقولة، فإن هؤلاء لا يكتفون بتلك الظواهر التي تنفر العقول من قبولها بدون تأويل، لا سيما إذا ألقيت إليهم بما أضاف إليها غلاة أهل الظاهر كابن حزم وأمثاله، في مسألة الاستواء، وقدم الأصوات بالقرآن والمداد المكتوب به المصحف والأوراق المكتوب فيها ونحو ذلك مما هو معلوم من أقاويلهم، فلما تولى مولانا السلطان العادل لم يكن عنده أهم من إبطال ما ذهب إليه والده الناصر مما ذكرناه، لا من قراءة المختصر ولا من مسألة الاعتقاد، فلم يكن عنده أعز ممن يحفظ مختصر خليل، بل من لم يحفظه من الفقهاء عنده ناقص لا يعول على فقهه، فتنافس الطلبة في حفظه، فكان يعطي على ذلك العطاء الكثير، وقد أخبر بصبي مراهق يحفظه فأمر بإحضاره، فاختبره فوجده كما ذكر عنه فأعطاه ألف مثقال، فلم يقدر على حمله لصغره فأعطاه غلاما يحمله له، وكساه وكسا والده، فلما علم أن جل الطلبة يحفظونه رتب لهم حزبا في جامع القرويين يقرءون منه كل يوم جزءا كما يقرأ القرآن، وحبس على ذلك أوقافا معتبرة، ومن أجل اعتنائه بذلك كان جل أولاده يحفظونه، بل بعض بناته كذلك، وهو من أعظم مآثره التي لم يسبق فيها ولم يشاركه فيها أحد ممن تقدمه رضي الله عنه.

وأما مسألة اعتقاد الأشعرية فإنه كان يحض الناس على قراءة عقائد الإمام السنوسي وأمثالها، ولا أعز عنده ممن يحسن التكلم في مذاهب المتكلمين، وليس عنده عالم إلا من له حظ من فن الكلام وغيره من المعقولات، لا سيما البيان، فله فيه ذوق عجيب، سألني يوما أظنه على جهة الاختبار عن قوله تعالى : {ولكم في القصاص حياة} مع ما كان

العرب يقولون إنه لا أوجز منه في كلامهم، وهو قولهم : القتل أنفى للقتل، فذكرت له ما قاله السعد في المطول على التلخيص وكنت قريب العهد بذلك، فأعجبه ذلك مني غاية علي البديهة، وذلك من عناية الله تعالى بي، وبذلك كان يرى لي مزية، وأوجب لي مكانة وعناية منه على صغر سني إذ ذاك، وكان يقدمني على من هو أكبر مني رحمه الله ورضي عنه، وكان جلساؤه من العلماء كلهم أئمة في هذه الفنون، كالعلامة السيد عبد القادر بن شقرون(62) والسيد محمد الهواري(63)، والشيخ السيد حمدون بن الحاج، والسيد الطيب بن كيران(64)، والعلامة الفقيه السيد محمد بن عمرو الزروالي(65)، والسيد محمد بن منصور(66)، فهؤلاء كلهم أشياخنا، ما عدا ابن شقرون وابن كيران، والهواري ما أدركناهم، وكل واحد منهم حجة في البيان والأصول والمنطق والكلام والتفسير والحديث، وكلهم عنده في غاية القبول والمكانة العالية.

ومن جملة ما خالف فيه مولانا السلطان العادل والده سيدي محمد مسألة المكس، فإنه كان ينكرها ويعجبه قول ابن البراء(67)، وأما السلطان الناصر سيدي محمد فقد تقدم لنا أنه استفتى العلماء فاعتمد فتواهم، فكان يأخذ على الأبواب والأسواق وجميع السلع والغلل، فكان قدر ما كان يجتمع في ذلك كل سنة نصف مليون وهو خمسمائة ألف مثقال، معلومة مشهورة ثابتة مقررة في الدفاتر، مبيعة في ذمم قواد البلدان وعمال القبائل، كل مدينة وما عليها، وكل قبيلة وما عليها.

ومن ذلك المكس كان صائر العساكر في الكسوة والسلاح والسروج

---

(62) عبد القادر بن شقرون الفاسي. علم راسخ، ومجد شامخ، وتحقيق وتدقيق ومشاركة في كل طريق، فضّاض كل مشكل ونور كل معقل قاضي سجلماسة وفاس ت 1219هـ 1804م "السلوة" ج1 ص95 "الفكر السامي" ج4 ص128.

(63) محمد الهواري الشيخ العلامة والحبر النهامة، واسطة العقد في العلوم الأدبية ت 1220هـ 1805م ودفن بضريح سيد أنوار معه في بيته، "فهرست الكوهن" مخطوط خاص ص 9 "السلوة" ج1 ص307.

(64) الطيب بن كيران، عالم محقق نقاد، حامل لواء العلوم المعقولية في المغرب، صاحب المؤلفات الكثيرة، ومنها شرح على الحكم العطائية ت1227هـ 1812م "فهرست الكوهن" مخطوط 11 "الفكر السامي" ج4 ص128 "السلوة" ج3 ص2 "الشرب المحتضر" ص7.

(65) محمد بن عمرو الزروالي الأصل الفاسي الدار والمنشأ، كان رحمه الله بحرا لايجارى في مجال العلوم، ت30 وقيل 1229هـ 14-1813م "السلوة" ج3 ص5.

(66) محمد بن منصور الفريسي المراكشي، وفي "الاعلام" العيسي، الأديب ت بمكناس 1203هـ 1788م "الاتحاف" ج4 ص188 "الإعلام" ج6 ص109 وقد ذكره "الضعيف" في تاريخه، ص195.

(67) ابن البراء لم نعثر على ترجمته.

والعدة والإقامة، والخياطة والتنافيذ لوفود القبائل والقاصدين والمئونة للعساكر ولديار السلطان وتعلقاته، فكان ذلك المكس كافيا لمصارف الدولة كلها، لا يدخل بيت المال إلا مال المراسي وأعشار القبائل وزكواتها، وكان متحصل المكس يعادل مال المراسي والأعشار، هكذا كان في دولة السلطان الناصر سيدي محمد، وكان المكس أيضا في الدول التي قبل هذه الدولة الشريفة، فقد ذكر الشيخ سيدي أحمد باب أن الشيخ العلامة البركة سيدي عبد الله العبدوسي(68)، كان يعطي في الأبواب ما يعطيه الناس، فيقال له: لا تحتاج لذلك، فيقول لا أريد مخالفة الناس، وكان من العلماء العاملين والأولياء الصالحين، وكان في دولة بني مرين عام 841، قال له سلطان زمانه أبو الحسن : أريدك أن تخرج مع العامل لقبض الزكاة، فقال له : أما تستحيي من الله تعالى، تسمي مغرما من مغارم الظلم بلقب من ألقاب الشريعة، فغضب السلطان غضبا شديدا، فضربه بالسيف في غمده، فقام الوزير وأخذ بيد السلطان، وأخرج الشيخ، فأخذ السلطان ألم شديد حتى أشرف على الموت في الحين، فعلم أنه أصيب من جهة الشيخ، فأمر به فرد إليه فطلب منه الدعاء وتاب إلى الله، فدعا له فعوفي في الحين، فكان بعد ذلك يذهب على رجليه إلى دار الشيخ ويزوره، انتهى، وقد زهد مولانا سليمان رحمه الله في هذا المكس ولم يلتفت إليه، وإنما ذكرنا هذا لئلا يتوهم أن مخالفة مولانا المؤيد لعمه العادل تنكيت عليه أو تخطئة له فيما ذهب إليه، لا سيما في مسألة العمال فإنني سمعت بعض الجهال يخطئ مولانا سليمان في كثرة عزله للعمال بمجرد الشكاية بهم، ويصوب فعل مولانا عبد الرحمان في أرخاء العنان لهم والثقة بهم، حتى يتحقق كل التحقق سوء فعلهم، وشدة ظلمهم، ولا يقبل مطلق الشكاية بهم من رعاياهم، لأن الرعية تكره العامل على كل حال، وقد بينا السر في ذلك كله، ووجه السياسة فيه، والله أعلم وأحكم، وتلك الخصال التي قلنا إنها جبلية في مولانا عبد الرحمان موجودة فيه على الكمال هي في مولانا سليمان كذلك، موجودة فيه وهي فيه أكمل.

أما الحياء فإنه رحمه الله تعالى أشد حياء من العذراء في خدرها،

(68) عبد الله العبدوسي كان إماما هُماما عالما عاملا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، حسب "الدرر البهية" ج2 ص348 ت 848هـ 1444م والمترجم رحمه الله خطب بالقروين، ولشدة زهده لم يرجد عند وفاته الابرنس ودراعة.

فكان إذا أراد أن يقبض أحدا لا يمكنه من رؤية وجهه، ومن رآه وواجهه يأمن من ضرر يلحقه في تلك الحالة، وأما الجود والكرم فكان أجود من الغمام الصيب، لا سيما على جنس العلماء وحملة الشريعة، فقد تمولوا الأموال الثقيلة، وأدركوا القناطير المقنطرة بعد الشدة الشديدة، وتأثلوا الرباع والعقار والأصول التي لا يدركها إلا أهل الأسباب الكثيرة، وأما الحلم فإنه أحلم من الأحنف بن قيس وخاله قيس بن عاصم، لا يصده عن ذلك حز الغلاصم، فمن حلمه رضي الله عنه حلمه على أهل فاس الذين بلغوا الغاية في السعي في هدم أركان دولته ومحو آثاره بكل ما قدروا عليه وحاربوه بماله ونعمته، فلما أمكنه الله منهم عفا عنهم بعد الشدائد التي يهد الجبال سماعها فضلا عن مشاهدتها، وكان القاضي السيد العباس بن أحمد بن التاودي(69) لما جئت أودعه عند خروجي من فاس، والذهاب الى ملاقاة مولانا العادل كما تقدم أوصاني بأمور أبلغها للسلطان عند ملاقاته، من ذلك أنه قال لي : إذا وجدت فسحة وسعة في مخاطبته فقل له : يقول لك العباس : إننا نخاف إذا ظفرت بهؤلاء الظلمة الفساد أن تصفح عنهم وتتجاوز عن جرائمهم، فقلته له في أول مجلس، فقال لي : كيف أصفح عنهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عزيز لما ظفر به النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه أن يسرحه ولا يعين عليه وعاهده على ذلك، فعفا عنه عليه الصلاة والسلام وسرحه، فلما بلغ إلى مكة نقض ورجع إلى ما كان عليه، فلما ظفر به مرة أخرى في بدر الموعد(70) فقال له : اعف عني فإني لا أعود، فقال له صلى الله عليه وسلم : لا أتركك تمسح سبلتك بمكة وتقول خدعت محمدا مرتين، انتهى، فلما قال لي ذلك ظننت أنه إذا فتحت فاس لا يترك أحدا من أولئك الشياطين إلا قتله، ولو أحرقه لكان قد أصاب بعض حقه، فلما فتح الله عليه فاسا ما غير أحدا ولا أخذه بل عجل الخروج من فاس مخافة من حمل أهل محبته له على الانتقام الذي ليس من جبلته، وكنا نظن أنه يمثل بمولاي السعيد بن اليزيد وإخوته وأبناء إخوته كابن عبد الكريم بن اليزيد الذين سعوا في الأرض الفساد فأعرض عن ذلك كله، ومن حلمه أيضا حلمه على مولاي عبد الملك

(69) العباس بن أحمد بن التاودي سبقت ترجمته.

(70) كذا بالأصول والصواب أنه ظفر به في غزوة أحد.

بن إدريس الذي قام عليه في الشاوية كما تقدم خبره، بل تركه على حاله ولم يغير من نعمته شيئا، بل زاده إحسانا وتركه في ديار أبيه، <وكان له مجلس وخواص لا شغل لهم ولا حديث عند جلوسهم على موائدهم إلا سب السلطان والفرح بمساءته، وانتظار زوال ملكه وانقضاء أيامه>(71) وكان يبلغ ذلك إلى السلطان فلم يبال به وصبر على إذايته حتى كفاه الله شره بموته وانقضاء أيامه بدل ما كان هو يتمنى أن يبقى وراء السلطان، وهكذا عادة الله في كل من عاداه أو آذاه من الأقارب والأباعد، <وذلك مصداق قوله عليه الصلاة والسلام (لا تتمنوا تغيير الدول فتحرموها) انتهى>(72) وقد اقتدى به مولانا المؤيد في هذا الحلم الذي لا يقدر عليه إلا أكابر الرجال، وهذه الخصلة الشديدة على النفوس البشرية (ولا يلقاها إلا الصابرون) كما فعل مولانا العادل مع أهل فاس، فعل مولانا المؤيد مع الوداية، وكما فعل مولانا العادل مع مولاي السعيد وأهل بيته، فعل مولانا المؤيد مع ابن الطيب حذو النعل بالنعل، وكذلك فعل الله تعالى بأعداء مولانا عبد الرحمان فأبادهم وأفنى أعدادهم (فهل ترى لهم من باقية).

وأما عبادة الله تعالى من القيام والصيام ففي ذلك جعل الله قرة عينه وراثة نبوية، فكان رحمه الله لا يترك شيئا من أوراده حضرا وسفرا، في المنشط والمكره، كان يختم القرآن في كل شهر ثلاث مرات موزعة على الأيام، يعد ذلك عدا، ولا يشغله عن ذلك شاغل، ويختم دلائل الخيرات في كل جمعة، ولا يطلع عليه الفجر إلا متوضئا مستقبلا القبلة، مصليا أو تاليا، وكان يوصينا في السفر أن نوقظه إذا بقي للفجر القدر الذي يكفيه لورده، وذلك يختلف باختلاف طول الليل وقصره، فإذا جئنا نوقظه وجدناه قد سبقنا وجلس في مصلاه، وكان لا يتلو إلا إذا أحضر من يسمعه، وإن كان حفظه غاية إلا أنه كان يفعل ذلك حزما، وإن بقي عليه شئ من ورده من التلاوة تلا وهو راكب في الطريق بحضور من يسمعه، هذه عادته رضي الله عنه، وكذلك مولانا المؤيد، أخبرنا الثقة من أولاده الكرام أنه لا يجده الفجر إلا كما ذكرنا عن عمه متوضئا مستقبلا، وكان يكثر الصيام أكثر

(71) ما بين العلامتين وارد في الأصل وحده.

(72) ما بين العلامتين ساقط مما سوى الأصل.

من مولانا سليمان، الله أكبر، انظر الى هؤلاء السادات الكرام الذين لم تلههم الدنيا بزينتها عن الآخرة، ولم تشغلهم النعمة الظاهرة، والمراتب الفاخرة، والفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والمحابيب المضاجعون(73)، والندماء المجالسون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

هذا بعض ما خص الله به مولانا المؤيد من المحاسن والمآثر والمحامد التي لا حصر لها، ولأجل ذلك أيده الله تعالى بالسعادة في جميع أموره، وأصحبه العناية في كل أحواله، وحركاته وسكناته، فتيسر له كل عسير، وأذعن لأمره كل جبار عنيد، والتزم طاعته القريب والبعيد، وأصلح الله له جميع ذريته، فلم يكن في أولاده مثل أولاد الملوك الذين تغلبهم سورة الملك ونخوة السلطان وشرة الغلبية على الناس، بل كلهم منغمس في المروءة، وملتحف بالطهارة، ومتزر بالمسكنة، وذلك من عجائب قدرة مولانا تبارك وتعالى ومن خرق عوائده التي يتعجب منها، ولم يتفق لأحد من الملوك في أولاده مثل ذلك حتى في أولاد مولانا سليمان الذي بالغ في استصلاح أحوال أولاده بكل ما تبلغه طاقته، فأقرأهم بالسبع الروايات، وحفظهم الأمهات، وألزمهم مرافقة أهل الخير والديانات، فلم يكن إلا ما أراد الله تعالى، وكان رحمه الله يأسف على ذلك، وأما ساداتنا أولاد مولانا المؤيد فإنهم ما نالوا ذلك بكثير اعتمال، وإنما هو بتسخير الله وموهبته، ورضا والدهم وسعادته وحسن نيته، وقد حقق الله تعالى رجاءه، فجعل الخلافة وقفا مؤبدا على عقبه، وظهرت بركته وعنايته في أكبر أولاده وأعزهم عنده، ومحل نظرته وخليفته في حياته وبعد مماته مولانا أمير المؤمنين سيدي محمد، فإن مولانا المؤيد كان عزم على العهد له عام إحدى وسبعين ومائتين وألف، وفاوض في ذلك بعض كبار عماله العقلاء النصحاء، وهو فلان، فأشار عليه ذلك البعض بالمسارعة لذلك، واستحسن رأيه وعزمه عليه وشكره، وقال له : لقد كنت أردت أن أشير بذلك على سيدي فخفت أن يكون مني فضولا غير صواب، لأنني لم أعلم ما نظر سيدي وما في باطنه، فلما ألهم الله مولانا له كان ذلك علامة الإذن فتجب المبادرة له على سيدنا والعزم به، فإن العزم له بركة، ولكن ينبغي لمولاي

(73) كذا بالأصول والمناسب المضاجعات.

يده الله أن ينتبه لأمر عارض ربما كان فيه تشويش وتعويق دون مرادنا، وبين له ذلك الأمر وعرض ببعض العمال الذي له في ذلك الأمر دخل تام، وهو فلان وفهم مولانا السلطان ذلك وقال له : صدقت، وها نحن ندبر في إزالة ذلك الأمر العارض إن شاء الله تعالى، ثم إن العامل الذي له دخل في ذلك الأمر سمع الخبر وتحقق الحكاية وما نسب إليه فيها، فصرف همته إلى إفساد ما بين ذلك العامل الأول المشاور وبين السلطان بكل ما قدر عليه، فلم يزل يغرى به السلطان وينقل عنه كل سيئة تقع في الحوز، واستعان على ذلك بأناس آخرين من كل جانب حتى من داخلة السلطان، وحرم داره، وكان له اتصال شديد بالحضرة العالية، واطلاع على بواطن الأحوال وظواهرها، فلم يمض على ذلك إلا زمن يسير حتى تغير خاطر السلطان على ذلك المشاور، فقبض عليه ونهب داره واستصفى جميع أمواله، وقيد غيره بدله، وقامت قيامته، ولكن لم يزل مولانا السلطان يتخيل ذلك الأمر الذي حذره منه ويحتال في إزالته، وبعد ذلك ظهر له صدق ذلك المشاور المقبوض، فسرحه وأكرمه وعمله في محل آخر عمالة أكبر من التي كان فيها، ثم سافر مولانا المؤيد إلى الغرب آخر سفراته، فأقام بمكناس كثيرا حتى أدركه مرض موته، فأذهله عن ذلك العزم مع كونه مصرا عليه، فعلم الله تعالى شدة اعتنائه بذلك العهد، وأنه ما صرفه عنه إلا مرضه، فلم يحوجه سبحانه لذلك، فلما توفاه الله تعالى لم يختلف أحد في ولاية مولانا أمير المؤمنين من أهل المغرب قاطبة، وكان ذلك بمنزلة العهد الثابت المتفق عليه، وكانت وفاة مولانا المؤيد رحمه الله يوم الثلاثاء التاسع وعشرين من شهر المحرم فاتح ستة وسبعين ومائتين وألف(74).

(74) كذا بالأصل وفي غيره : "وكانت وفاة مولانا المؤيد يوم الثلاثاء في تسعة وعشرين من شهر ذي الحجة متم عام خمسة وسبعين ومائتين وألف". والصواب ما في الأصل أما ما في غيره فقد كان من سهو المؤلف الذي أصلحه وانظر تقييد ابن اليماني السالف الذكر.

الراية الخضراء المباركة الجليلة، ذات الأفياء الوارفة الظليلة والأذيال الوافرة الطويلة
راية مولانا أمير المؤمنين مولانا محمد بن مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل

هذه الراية هي درة تاج هذا اللواء العظيم وواسطة عقده النظيم، ونتيجة جميع مقدماته، وزهرة أدواح رياضه ومقاماته، ومضمن حججه وبيناته، وبرهان محكم آياته، فيها ظهرت بشارة البشير، وإليها تعود إشارة المشير، وعندها استوى الملك العلوي الحسني على كرسي جلاله، وأوى إلى مبلغ عزه ومحصل آماله :

هذي لعمرك راية مرفوعة	بيد السعود يقلها التوفيق
رفعت على خير الملوك محمد	ملك إلى كل الكمال سبوق
خضل البنان بنائل من دونه	وجه يجول البشر فيه طليق
ورث الإمامة كابرا عن كابر	عالي المجادة بالعلاء خليق
أفضت إليه خلافة نبوية	من دونها للمشرفي بريق
فرحت ببيعته القلوب فلم يمل	منها إلى أحد سواه فريق
فاختال منبرها به وسريرها	وكلاهما طرب إليه مشوق
فالآن قرت في معرسها الذي	كانت على قلق إليه تتوق
شرف هشامي ومجد تالد	يسمو به نسب أغر عتيق
ومناقب يزداد طولا عندها	باع بتصريف الأمور لبيق
وشمائل رسخت بهن من العلى	في منبت الشرف الأصيل عروق(1)

كان أهل الحضرة المولاوية لما ابتدأ المرض بمولانا السلطان المؤيد يظنون أن ذلك مرض خفيف مثل ما كان يعتريه المرة بعد المرة، فيعافيه الله منه، وكان الذي يباشره ويليه في ذلك المرض هو ولده الأعز الأغرّ البار الفقيه النجيب، ذو الأوصاف الطاهرة والخلق العجيب، أبو الفضل مولانا

(1) القصيدة من نظم المؤلف.

العباس ولذلك لم يعزموا على مولانا المظفر أمير المؤمنين، ولم يخبروه باشتداد المرض بمولانا المؤيد، وكان مولانا أمير المؤمنين المظفر مشغولا بشئون خلافته بحضرة مراكش، ولم يكن عنده من الخبر إلا كون السلطان مريضا، فظن هو أيضا أن ذلك كغيره من الأمراض المعتادة التي تعقبها العافية عن قريب، فلم يرعه إلا ورود الخبر من أخيه مولانا العباس وغيره من أهل الحضرة، كالوزير الكاتب الفقيه السيد محمد الصفار التطواني أن السلطان قد أشرف ووقع اليأس من حياته، فخرج من مراكش مزعجا ليدرك به الحياة، فلما صدر عن الحضرة بليلة أو ليلتين لقيه الخبر بموت مولانا المؤيد رضوان الله عليه مع بيعة أهل الحضرتين فاس ومكناس وجميع العساكر البخارية وغيرهم من الشرفاء والعلماء وأهل الحل والعقد وأعيان القبائل من الأعراب والبرابر، فوجهها لمراكش، فلما وردت اجتمع الناس كلهم بجامع الكتبيين أهل مراكش والعسكر السوسي ومن حضر من الرحامنة وأهل الحوز والدير وغيرهم بحضور كبار أولاد مولانا المرحوم بالله تعالى، وأجلهم أبو الحسن مولانا علي، وعامل البلد السيد أحمد بوستة، وباشا الجيش السعيد القائد إبراهيم الجراوي، وعمال الرحامنة، وشرفاء البلد وعلماؤها، فلما غص الجامع بالخلائق الذين لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه، قرئ عليهم كتاب مولانا المنصور المتضمن للأخبار بموت والده السلطان، فارتفعت الأصوات بالترحم على السلطان الصائر إلى عالم الرضا والرحمة، وبالنصر لمولانا أمير المؤمنين المظفر الذي اختاره الله لحماية هذه الأمة، وأقامه لصيانة الحرمة، فلم يختلف في ذلك أحد، ولا استنكف ولا جحد، فاتفق رؤساء ذلك المشهد المبارك الحفيل، على أن تكتب البيعة المحمدية السعيدة، بالنفس البليغ والخطاب الجميل، فقال لي الفقيه العلامة القاضي أبو عبد الله السيد محمد السعيد(2) الذي يبدئ في كل المحامد والمحاسن ويعيد، والله ما سواك لها بأهل، ومثل هذا المقام لا يقدم فيه أولوا الجهل، فألح على ذلك الجمع بالمبادرة والاستعجال، ولم يجعلوا لي فسحة في ذلك المجال، فكتبت منها نسخة مباركة على لسان أهل مراكش المحفوظة المحروسة، ونسخة على لسان الجيش السعيد السوسي أنصار الحضرة

---

(2) القاضي محمد السعيد قاضي الجماعة بمراكش، كان رحمه الله فقيها علامة استقضاه مولاي سليمان بسجلماسة، وهو ابن خمس وعشرين سنة بعد موت والده قاضيها ت بمراكش 1291 هـ 1874 م "الإعلام" ج7 ص5.

العالية التي هي في ساحة العز والسعادة مغروسة، ونسخة ثالثة على لسان الرحامنة، القبيلة التي هي لحسن الجوار ضامنة، ‹وبحسن جوارهم تكون الحضرة آمنة›(3) ثم أمر القائد الأجل الضابط الحازم، الذي هو لحسن الخدمة والنصيحة ملازم، أبو العباس السيد أحمد بوستة، أعيان الحضرة وأشرافها، ورؤساءها وعرافها، أن يتأهبوا للوفادة والتوجه لحضرة مولانا أمير المؤمنين بحضرة مكناس لأجل التهنئة والتعزية، وكذلك الباشا القائد إبراهيم بن سعيد الجراوي، هيأ أعيان الجيش وأشياخ إيالته من قبائل الدير، وكذلك عمال الرحامنة وجميع القبائل الحوزية فتوجه كل ببيعته وهديته، فلما وردوا على مولانا المظفر فرح بهم غاية الفرح، وأفاض على الجميع فضله وإحسانه وكرامته، وأجازهم بالجوائز المعتبرة، وفرح جميع المسلمين بولاية مولانا المظفر، ولم يتغير شئ من أمور الدولة الشريفة، لأن الحالة التي كان عليها مولانا المظفر في حياة والده هي التي ظهر فيها بعد وفاته، وقد قدمنا أنه أيده الله في غاية الشبه بجده وسميه السلطان الناصر سيدي محمد بن عبد الله، فإنه لما مات مولانا عبد الله ما تغير شئ من أحوال السلطان سيدي محمد، فإنه كان سلطانا في حياة والده، وكذلك أمير المؤمنين مولانا المظفر نصره الله فإنه كان هو السلطان في حياة مولانا المؤيد والده، ولما وردت البيعة المراكشية على أمير المؤمنين كما ذكرنا، أمر أن تقرأ بالحضرتين فاس ومكناس، وكنت أردت أن أثبتها هنا، فبحثت على نسخة منها عند تقييدي هذا المحل فلم أجدها عندي(4)، وكنت وجهت لحضرة مولانا نصره الله مع وفود التهنئة هذه الأبيات في رثاء مولانا المؤيد المرحوم جدد الله عليه ملابس الرضوان في كل حين :

هـذي الحيـاة شبيهـة الأحـلام	ما النـاس إن حققـت غيـر نيـام
حسب الفتى إن كان يعقل أن يرى	منـه لأدم رؤيـة استعـلام
فيـرى بدايـة كـل حـي تنتهـي	أبـدا وإن طـال المـدى لتمـام
والنفس من حجب الهوى في غفلة	عمـا يـراد بهـا مـن الأحكـام
أو ليس يكفي ما يرى متعاقبا	بين الـورى من سطـوة الأيـام
من لم يصب في نفسه فمصابه	بحبيبـه حكمـا علـى الـلـزام

---

(3) ما بين العلامتين ساقط من (ك) و (ش) و (ف).

(4) نثبت هنا صورة نسخة هذه البيعة أخذا عن كتاب الاتحاف لابن زيدان ج 3 بين صفحة 370-371 مع نصها مطبوعا.

نص البيعة بخط مؤلف الجيش نقلا عن الاتحاف
لمؤرخ الدولة المولى عبد الرحمان بن زيدان
المتوفى 21 ذي الحجة 1365 / 16 نونبر 1946 م ج 3 ص 374

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما ومن تكن برسول الله نصرته ان تلقه الأسد في آجامها تجم.

إن ينصركم الله فلا غالب لكم، {نصر من الله وفتح قريب وبشر المومنين}.

الحمد لله الذي اطلع شمس الخلافة في مطالع السعود، وأثمر في رياض منته لأجله كل عود، وأنجز لمن أهله لادراك التقدم على عباده صادق الوعود، وفتح أبواب السعادة لقارعها، وأربح بيعة ملتمس فضله لمشتريها وبائعها الذي بنوره تنجلي الغما، وتتصل النعما، نحمده حمدا يتكفل بتحسين العواقب، وترقية الآمال الى أرفع المراقي والمراقب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي تفجرت بوجوده بحور المواهب، وجاءت شريعته بأوضح المسالك والمذاهب، وأنزل عليه {ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما} صلى الله عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين وسلم تسليما، والرضى عن أصحابه الذين كانوا له خير أنصار وأعوان، وخصوصا أهل بيعة الرضوان.

أما بعد، فهذه بيعة شريفة مباركة ميمونة، بها سعادة الدين والدنيا ان شاء الله مقرونة مضمونة، بيعة كريمة يصلح الله بها الأمة، ويفيض بسببها سحائب النعمة، ويشمل ببركاتها جميع الأقطار بكل رحمة.

تولى اختيار الله حسن اختيارها فلم يحتج الانسان فيها لانسان

بيعة حسنية علوية اسماعيلية هشامية محمدية بيعة عاطرة تعبق في رياض البشائر أزهارها الفواحة الندية، بيعة صحيحة شرعية، ثابتة شروطها المرعية، بيعة لا يحوم حولها زيغ ولا طيش يشيد بنائها الأئمة من قريش، فلا ينحل عقدها، ولا ينقض عهدها.

تمد بنود النصر منها ظلالها على الأرض طرا بالمسرة والأمل

حضرها العامة والخاصة والملائكة الذين أضحت بهم البسيطة غاصة، واحتف بها القبول والسرور وكانت مركزا تطوف بها الكمالات وتدور، وتتمنى محاسنها الشموس والبذور، ما تخلف عنها أحد من أهل هذه الحضرة المراكشية وأحوازها وبواديها، ولا بقي أحد من اعرابها وبرابرها الا حضر في ناديها، وأجاب دعوة مناديها، من الشرفاء والعُلماء والصلحاء والقضاة والعدول، والكبار والصغار وكل فاضل ومفضول.

جحاجحة غـر الوجوه كأنها إذا أسفرت ليلا بدور كوامل

وخصوصا الأعيان والرؤساء والرماة، الذين هم لحوزة الاسلام أسوار وحماة، الا صرح بالاذعان والقبول حين حضر انعقادها، واضمر اعتقادها، وكل فرد فرد من أولئك الاشهاد، يعلن بالاشهاد على نفسه غاية الاشهاد، وما منهم الا من آمن بها وآمن عليها وصدق، وغض بصره خاشعا من هيبتها وأطرق، وينادي اشهدوا فإني أشهدكم وأشهد الله، وأقول : {الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله}.

ثم انه لما استأثر الله سبحانه بمولانا أمير المومنين، وإمام المسلمين السلطان الهمام، المعتصم بالله مولانا عبد الرحمان بن مولانا هشام، ونقله من دار الاسلام الى دار السلام، وآثره بجواره وقربه، ومهد له بساط الكرامة الى جنبه، وأقدمه الى مدخرات حسناته الجسام، وحوز له من جزيل المثوبات أوفر الأقسام، واختار له في مقر رحمته من جملة حزبه وأوليائه فريقا {مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} اكرم الله مثواه وأحسن مأواه آمين.

ووالله ثم والله لولا انه خلف فينا خلفا صالحا، والجبر لنا متجرا رابحا، لكان من فقده تضيق الأرض بما رحبت وتجزي كل نفس بما كسبت، وتخر الجبال هدا، وتصد الأرواح عن أجسادها صدا، ولم يكن في النسب العلي الطاهر، ولا في البيت الاسماعيلي الشهير الظاهر، ولا من بيوت الخلفاء من بقية أولئك الأباء والجدود، بل ولا ممن تنتج به الليالي وهي عاقر غير ولود، من تسلم في يده الأمة زمامها، وتقدمه في محراب السلطنة العظمى إمامها، إلا واحد قد اختص بجميع الكمالات البشرية وتفرد، وذلك الواحد هو الامام المؤيد المنصور، والأسد الورد الهصور، أمير المومنين وخليفة رب العالمين، سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الرحمان بن سيدنا ومولانا هشام بن سيدنا ومولانا محمد بن سيدنا ومولانا عبد الله بن سيدنا ومولانا اسماعيل أعز الله ذكرهم، وخلد في صفحات الأيام مجدهم وفخرهم، فلذلك وقع هذا الاتفاق على بيعته، والدخول تحت طاعته، والاذعان لكلمته والرمي على نيته، وتمت له كلمة ربه الحسنى بإدراك هذا المقام الأكبر الأجل الاسمى واحتياز ميراث النبوءة والملك المتخلف عن آبائه، الغائظ لأعدائه السار لاحبائه، فيا لها من بيعة تامة غاية التمام، جاثمة عفوا على طرف الثمام، محبوكة على عادة إيمان البيعة وحدودها المحدودة، وشروطها المؤكدة في أقسامها المعدودة.

ويا له من إمام، أسعد الله به جميع الانام :

هذا الـذي هبت نواسم حمده وأتت بعرف الروضة المعطار

هذا الذي طلعت شموس سعوده تغشى أشعتها قـوى الأبصار

هـذا اذا افترت مباسم بشره وهب النفوس وزاد في الأعمار

والله المسؤول سبحانه ان يبارك لمولانا فيما وهبه، ويوضح في اتباع الحق وافعال الخير مذهبه، ويجعل مفاتيح جميع السعادات في يمينه، كما مسح في الأزل بيمينه المقدسة على جبينه، ويملكه مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها وشاهدها وغائبها، ويجعل النصر والظفر مصاحبين لاعلامه، والفتح والقبول عن يمينه وشماله ومن خلفه ومن أمامه، ويقر بولايته المباركة عيون أهل ملة الاسلام بجاه جده سيدنا ومولانا محمد عليه وعلى آله أزكى الصلاة والسلام، قال ذلك وكتبه شاهدا على الجموع المذكورة بما فيه باشهادهم قرة وفعلا العبد الضعيف محمد بن أحمد اكنسوس لطف الله به - من خطه.

وقد غلط الدكتور ادريس العلوي العبدلاوي في بحثه المعنون "أساس بيعة الملوك العلويين" ندوة البيعة والخلافة في الاسلام، ج 3 ص 1153 - حيث نسب هذه البيعة الى المولى عبد الرحمان على ان البيعة هي لولده المولى محمد بن المولى عبد الرحمان بن هشام. هـ.



بسم الله الرحمن الرحيم

نصر من الله وفتح قريب

بعد الشبيبة شيبة يخشى لها ... ذو صحة أن يبتلى بسقام
دار أريد بها العبور لغيرها ... ويظنها المغرور دار مقام
منع البقاء بها تخالف حالها ... وتكرر الإشراق والإظلام
لو كان ينجو من رداها مالك ... في كثرة الأنصار والخدام
لنجا أمير المؤمنين ومن غدا ... أعلى ملوك الأرض نجل هشام
خير السلاطين الذين تقدموا ... في الغرب أو في الشرق أو في الشام
سر الإله ورحمة منشورة ... كانت سرادق ملة الإسلام
قصدته عادية الحمام فما عدت ... أن هددت علما من الأعلام
لم تحجب الحجاب منها طارقا ... كلا ولا دفعت يد الأقوام
والملك في عز مَهيب شامخ ... وإمامه في جرأة الضرغام
عجبا لها لم تخش من فتكاته ... والأسد تزأر حوله وتحامي
عجبا لها لم تستح من وجهه ... والوجه أبهج من بدور تمام
عجبا لها لم ترع طول قيامه ... متهجدا لله خير قيام
تبا لها لم تدر من فجعت به ... من معتف وأرامل الأيتام
أسفا على ذاك الجلال وإنه ... لأجل من أسف وفرط هيام
يا مالكا كانت لنا أيامه ... ظلا ظليلا دائم الإنعام
لا ضير أنك قد رحلت ميمما ... دار الهناء وجنة الإكرام
في حضرة تغدو عليك بشائر ... من حورها بتحية وسلام
ضاجعت في تلك القصور كواعبا ... دريّة الألوان والأجسام
تسقيك صرف السلسبيل مروّقا ... وتدير كأسا من مدام مدام
فلك الرضا فانعم بما أعطيته ... ولك الهناء بنيل كل مرام

وبعد ذلك بأيام وجهت ولدي عبد الله حفظه الله لحضرة مولانا المظفر مهنئا له بهذه القصيدة الأخرى :

وجوه الأماني حسنها متجدد ... ومنظرها يحكيه خد مورد
قضى الحب في كل القلوب بأنها ... ممالك أرباب الجمال وأعبد
وكم من عصي للهوى متعفف ... يفر من السود العيون ويبعد
تصيده ظبي على حين غفلة ... مهفهف مستنّ الوشاحين أغيد
فأصبح مفقود الفؤاد مخبلا ... وأي فؤاد عاشق ليس يفقد
ولله في أسر الغرام وقهره ... نفوس ضعاف ليلهن مسهد
إذا الليل أضواها تكنفها الهوى ... وليس لها غير الكواكب منجد

وذي ظمأ بين الضلوع يجنه
إلى رشفات للصبابة تبرد

تراءى له من منحنى الجزع برقه
فظن بأن الجزع ثغر منضد

وتذكره تلك البروق مباسما
عليهن مرفض الجمان معقد

يراقب أسراب النجوم بمقلة
تقسمها شطرين نسر وفرقد

ويهفو لأيام العقيق فتنثني
مدامعه مثل العقيق تبدد

وهل يتناسى عهد من سكن اللوى
إذ العيش غض والحبائب تسعد

وما زالت الأيام تغري بنا النوى
وتُنئي الذي نهواه عنا وتبعد

ولست أبالي للزمان صروفه
وكهفي أمير المؤمنين محمد

خليفة رب العالمين بأرضه
وصارمه الشاكي الشباة المهند

إمام تولى الله تشييد ملكه
وناهيك ملكا بالإله يشيد

وصفوة هذا الخلق من آل هاشم
وأعلى ذوي التيجان فخرا وأمجد

وأرحبهم في العز باعا وفي العلى
وأكثرهم في الفضل حظا وأزيد

أتته عروس الملك عاشقة له
وكم عاشق عنها يذاد ويطرد

وألقت على شوق إليه زمامها
فطاب لها منه الجناب الممهد

فأصبحت الأيام تزهو بعدله
وتنعم في ظل الهناء وتسعد

ففي بابه مأوى المكارم والندى
وفي بابه الخيرات تولى وتوجد

ودولته للعز والنصر مألف
وحضرته للأمن واليمن موعد

تذل ملوك العالمين لبأسه
وتركع مهما أبصرته وتسجد

له راحة في الجود ما الغيث عندها
وما البحر والدر النفيس المقلد

له أنعم تأوي إلى ظلها المنى
وتسحب أذيال السماح وترفد

وعزم على الخيرات ليس بسامع
مقالة من في المكرمات يزهد

ورأي ينير الخطب عند اعتكاره
ويفسخ ما أيدي النوائب تعقد

ووجه إذا ما لاح أيقنت أنه
محيا له وقت السعادة مولد

حيي كثير الابتسام مبارك
يكبر ربي إن بدا ويوحد

أغر يهز المدح منه معاطفا
تجر ذيول الفخر إن هو يحمد

له العسكر الجرار تبرق في الوغى
صوارم منه والمدافع ترعد

يعد إلى الأعداء كل كتيبة
من الرعب يحذوها الوشيج المسدد

وكل كمي كالغضنفر مغضبا
وكل صقيل وهو ماض مجرد

يبيد العدا قبل اللقاء مهابة
فصارمه يفري الطلى وهو مغمد

هو الملك المشهور بالحلم والدها
وبالعلم والشهب الدراري تشهد

تشد لأدراك الغنى عند بابه
ركائب أنضاها الدءوب المشدد

يحدث عنه الوفد عند صدوره أحاديث عن بحر إذا البحر يزبد
إلى مجده آمالنا قد تطاولت وليس لها إلا حماه المؤيد
فيا مالكا يحمي الرعية بأسه ويحييهم بالبذل والبذل أرغد
يدبر فيهم كل يوم مصالحا تعود بما يرضون والعود أحمد
ويشملهم بالعدل والفضل والندى ويصلح بالصمصام من هو مفسد
هنيئا لك الملك الجديد فإنه يدوم بحول الله وهو مسرمد
هنيئا لنا نحن العبيد فإننا بسؤدد مولانا الإمام نسود
ودونك يا خير السلاطين كاعبا بديعة حسن للنهى تتودد
تدير كئوس الراح دون تأثم إذا هي أثناء المحافل تنشد
فلا زلت ما بين الملوك مخيرا كما اختير من بين المعادن عسجد

ولما ورد ولدنا عبد الله لحضرة مولانا المظفر بحضرة مكناس مع وفود التهاني من كل ناحية من جميع أقطار المغرب، فرح بهم وأنزلهم وأفاض عليهم أنواع البر والإكرام، وأصناف الخير والبركات، وخصوصا ولدنا ومن في صحبته، وكساهم بالملابس الفاخرة التي تناسب عطايا أعاظم الملوك وأساطين السلاطين، وأجازهم بالجوائز المتكاثرة المتعددة، فصدروا راجعين بالسلامة والفرح والسرور، وذلك بعد اضمحلال ما صدر من بعض البرابر الذين يسعون في الأرض الفساد وليس لهم غرض إلا في توهين المملكة، وليس للمملكة أعداء غيرهم، وذلك أن المولى عبد الرحمن بن مولانا سليمان وقع له مثل ما وقع لمولانا عبد الواحد في صدر خلافة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، لما مات السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله، بايعه أهل سجلماسة جهلا منهم بعواقب الأمور، ووجه مولاي عبد السلام بن سليمان خليفة لمراكش كما قدمنا شرح ذلك في راية السلطان المؤيد، ووردت عليه مكاتب من الغرب ممن يرتقب ولايته من أهل مودته، يحضونه على القدوم، وقالوا إنك إذا قدمت فإن الناس لا يقدمون غيرك لأنك البركة الباقية من أولاد سيدي محمد بن عبد الله، فخرج من تافلالت مغترا بذلك، ولم يكن عنده علم بأن أخاه المرحوم السلطان العادل قد عهد الى من هو أولى من غيره، وهو يرى مكان إخوته وأولاده، وترك ذلك كله اتباعا للحق وإيثارا لمصالح المسلمين، فلما كان مولانا عبد الواحد في أثناء الطريق، وبلغه خبر عهد أخيه لمولانا عبد الرحمان، ندم على ذلك،

فكتب في الحين ببيعته لولد أخيه السلطان المؤيد ووجهها له، وكان مولانا عبد الواحد رحمه الله من الدين والمروءة وعلو الهمة والعقل الراجح بالمكان العالي، وما رأينا مثله في محاسن الأخلاق ونزاهة النفس مع المشاركة في العلوم ومحبة الخير وأهله، لا يجالس غير أهل الفضل والعلم والأدب رحمه الله تعالى، وهكذا وقع لمولانا عبد الرحمان بن سليمان فإنه صدرت منه هذه الفلتة بسبب كتابة بعض الأحداث من أبناء أعمامه الذين بفاس ومكناس ومن بعض جهال البربر وأفذاذ من عبيد البخاري، وكانوا يستحثونه ليسرع بالوصول الى الحضرتين بإثر موت مولانا السلطان المؤيد قبل وصول مولانا أمير المؤمنين المظفر، ولم يعلموا أن الله تعالى بالغ أمره، فلما قرب من فاس ووجد الأمر قد استحكم لمولانا أمير المؤمنين أراد الرجوع الى محله والقدوم على مولانا المظفر كما فعل مولانا عبد الواحد، ويا ليته فعل، فإنه والله لو قدم عليه لنال المنزلة العالية، والمرتبة الشامخة السامية، ولكن جاءه بعض رؤساء الفتنة من البرابر وهونوا عليه الأمر، ووعدوه بالنصر له والذب عنه والقتال دونه حتى يدرك ميراث آبائه، فنهضوا به للزيادة الى فاس، فحالت جنود السلطان بينهم وبين الوصول إلى فاس.

وكان الوزير الفقيه النجيب ذو الرأي الأصيل والخلق العجيب أبو عبد الله السيد العربي بن المختار الجامعي رحمه الله قد وقف في ذلك غاية الوقوف، كما يجب، فلما رأى البرابر الجد فروا على ما هو عادتهم من الغرور والكذب، فرجع مولانا عبد الرحمان لسبيله على أنه لا حرج عليه في ذلك، وعذره ظاهر، كما قال هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب عن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : هل كان في آبائه من ملك ؟ فقال له أبو سفيان : لا فقال له هرقل : سألتك هل كان في آبائه من ملك فزعمت أن لا، فقلت : لو كان في آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه انتهى، فظهر من كلامه أن من يطلب ملك أبيه لا لوم عليه، وقد تقدم لنا في راية مولانا عبد الله بن إسماعيل قوله لأخيه مولاي المستضيء بعد أن انطفأ نوره وسلب، وأمضى جميع مقدوره حتى غلب، وأنت يا أخي لا لوم عليك لأنك إنما تطلب ملك أبيك انتهى، وكذلك مولاي عبد الرحمان بن سليمان لا لوم عليه في ذلك، وإنما عليه الملام حيث لم يأو إلى مولانا السلطان المظفر لما ظهر له أن الله تعالى قد اختاره واصطفاه لرعاية خلقه لما جبله

عليه من الرحمة، ولو فعل كما فعل مولاي عبد الواحد مع السلطان المؤيد لأدرك من العز والكرامة ما لا غاية فوقه، وقد ورد أخوه شقيقه مولاي عبد الله بن سليمان على مولانا السلطان المظفر فأكرمه فوق ما يظن الظان، ووجهه لأخيه المذكور مولاي عبد الرحمان وهو بالزاوية العياشية يدعوه إلى القدوم للحضرة المولاوية على الأمان، وقال له يتكفل عنه بكل ما يرضيه، فلم تطاوعه نفسه، وكأنه لم يعلم ما خص الله به مولانا السلطان المظفر من الحلم والسماح ومحبة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، أبناء عمه الأباعد فضلا عن أقرب القرباء، فضلا عن أولاد مولانا سليمان أخواله، فإن الله تعالى شرفه بهذه الخصلة التي هي محبة الشرفاء بما لم ينل أحد من أسلافه الكرام مثله، إلا ما كان من سميه جد أبيه السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله، سبحان الله، فإن أخلاقهما متقاربة، وأوصافهما متشابهة، وقد نبهنا على ذلك غير ما مرة في هذا التقييد، وسيأتي لذلك إن شاء الله تعالى مزيد.

وقد كنا ذكرنا أن الوزير الأجل الأمجد، الكاتب الأكرم الأسعد، السيد العربي بن المختار الجامعي كان ظهر منه غناء كاف، وكفاية تامة، بنفسه وقومه، وحسن تدبيره، وعرف له مولانا أمير المؤمنين ذلك، فاستوجب عنده المزية التي لا يطمع غيره في إدراكها، لولا أنه اعتاقه حمامه، وانقطع في يد القضاء بانقضاء الأجل زمامه، فمات بإثر خمود نار تلك الفتنة، ونوخ له بازل الارتحال، فركب متنه، وسبب موته ما كان يصيبه من شبه الإغماء الذي يفيق منه بعد الشدة، إلا أنه في هذه المرة لا إفاقة بعده، فرحم الله تلك النسمة الطيبة، والغمامة الصيبة، فإنه كان وجه ابتهاج الدولة، وصارم الانتصار لها وعدة الصولة، وقد راعى له مولانا أمير المؤمنين حرمته، وجعل كيقظته نومته، فرفع شأن أولاده، ولم يرزأه شيئا من طرافه ولا تلاده، بل أبقى عليهم ولاية أبيهم ووظيفته وجميع أملاكه وأصوله وبلاده، وهكذا دأب مولانا المظفر، فإنه ما فضح قط أحدا من خدامه ولا أعراه، وإن بلغ الغاية فيما اجترحه وافتراه، فأحرى أهل المحبة الصادقة والولاء، ومن أخلصه السبك بعد نيران الابتلاء، فلما صفت الخلافة لمولانا أمير المؤمنين، وتمهدت، واستوت على كرسيّ السعادة وتقعدت، وجرت أحكامه في جميع أقطار المغرب، ولم يتخلف أحد من

أشياخ المسلمين ورؤساء القبائل وأعيان العرب والبربر عن المثول في حضرته العالية، وأداء الطاعة لعزته والغالبة، فأقر كل عامل على عمله، ولم يحل بين أحد وأمله، وكذلك أجناس النصارى وملوكهم ما خرج أحد منهم على عادته المقررة، وشريطته المدونة المحررة، فقد وجه كل جنس رسوله ومكاتبه وهداياه، وأبرز له من طلب البقاء على المهادنة خباياه، فأنعم مولانا نصره الله لجميعهم بما طلبوا، وقابلهم بالإحسان والمجازاة لما جلبوا، إلا ما كان من جنس الصبنيول فإنه كان حالهم مع أهل هذه الدولة الشريفة في أيام السلطان المنصور سيدي محمد بن عبد الله رحمه الله في غاية الاعتناء بهم دون غيرهم من الأجناس، وكانوا عنده بمنزلة الجند يقضي بهم الأغراض الكبار، لقرب جوارهم وإظهارهم للخدمة التامة، والعناية بكل ما يأمرهم به من قليل أو كثير أو قريب أو بعيد، وكان سيدي محمد يباهي بهم الأجناس في جل الأمور، وربما تغير عليهم وأظهر لهم العداوة والشدة والقوة، حتى يؤدبهم ثم يعود لاستخدامهم ومعاملتهم بالإحسان، فألفوا ذلك مع هذه الدولة، ثم لما مات سيدي محمد وانهدمت تلك القواعد التي كان بناها معهم بولاية غيره، لا سيما مع مولاي اليزيد، فإنه تظاهر بالعداوة لهم ولم يظفر منها بشيء لا ما قل ولا ما جل، وإنما أزال حجاب الهيبة الذي كان مسدولا على أهل هذه العدوة المسماة عندهم بالبربرية، فلما زال ما ألفوه مع سيدي محمد، ومات مولاي اليزيد بعد ما أظهر ضعف المسلمين، حيث جمع القوة التي قدر عليها، وحاصر سبتة بلا تأويل ولا حسن تدبير، فأنفد جهده وانخزل عنها بلا طائل لما قام عليه أهل مراكش، فهذا كان السبب في اغترار الصبنيول حتى تجرأوا وطمعوا في الاقتدار على المقابلة بعد أن كانوا خدمة للسلطان المنصور سيدي محمد.

فلما جاء الله بمولانا سليمان واطلع على حقيقة الحال، وما آل إليه الأمر من الوهن، وعلم أنه لا دواء لتلك العلة إلا مساعدتهم على ما رغبوا فيه من المهادنة جعل ذلك صوب أمره معهم، فكان لا يحدث نفسه بغير ذلك، فلما جاء مولانا السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان سلك مسلك عمه مولانا العادل في ذلك ولم يزغ عن مذهبه، فلما جاء الله بمولانا المظفر بادر الكفار إلى انتهاز الغفلة، والناس في شغل بما أذهلهم من موت السلطان المؤيد ومولانا أمير المؤمنين المظفر كذلك في الاشتغال بتمهيد المملكة

وترتيب وظائف الخلافة، واستدفاع غصص التفجع بالمصاب الهائل الذي هو موت والده، والعدو المذكور متكالب على إساءة الأمور وإيرادها على موارد التعنت وإظهار القوة، واستشار(5) أمير المؤمنين نصره الله بعض أهل الحدة والطيش، فأشار عليه بمبارزتهم ومحاربتهم، ومنابذتهم واستهون أمرهم غاية، فوجه مولانا نصره الله بعض خدامه يؤذنهم بالمحاربة، فأساء ذلك البعض الوساطة وأفرط في التفحش في غير محله، فاستنفر مولانا المظفر نصره الله غزاة المسلمين وعساكر الدولة الشريفة، وفتح بيوت الأموال والعدة والقوة المدخرة لذلك، فأفاض على الناس ما جاوز الحد من العطايا والمبرات والمؤنات والأقوات، وقال : ليوم سوء جمعنا ما جمعناه، ووجه أخاه وخليفته البطل الحازم الفقيه العلامة أبا الفضل مولانا العباس فأقبلت القبائل والعساكر والجنود المجندة من جميع الأقطار بالأعداد التي لا تحصى، غير أنها جزاف بلا ترتيب ولا تعبية ولا على هيأة الحرب ولا بالقرب من ذلك لطول عهدهم بالقراع والضراب، بل لعدم مشاهدتهم ذلك قط، وظنوا أن كثرة العدد تغني في ذلك شيئا، ولم يعلموا أن الكثرة المفرطة هي سبب الانهزام والخذلان، فلما نزلت تلك الجنود بالسواحل الفحصية في مقاربة العدو وأطالوا المقام وعكفت رؤساء المحلة على الراحة، استلذاذا واغتناما لكثرة الأموال والرواتب والمئونات التي يفيضها مولانا أمير المؤمنين بقصد الجهاد، ومولانا نصره الله يستحثهم كل حين ويأمرهم بالمناجزة، وهم في غفلتهم ساهون، والعدو قد أخذ أهبته، ويلغه على ألسنة عيونه وجواسيسه ما عليه جنود المسلمين من عدم التأهب ومن الاغترار، فعاملهم بالمطاولة، وعلم ما يئول إليه الأمر، فكان إذا قرب منه المسلمون حصبهم بالرصاص ودفعهم بالمدافع فيتأخرون ويتقدم هو، وهكذا حتى آل الأمر إلى زحفه إلى تطوان بعد انكشاف الغزاة عنها، في أخبار لا يحسن جلبها وكان من قدر الله تعالى دخول العدو إليها، ومع ذلك لم يأمن على نفسه من المكر به، وانقلاب الدائرة عليه، لأنه رأى من كثرة الناس ما لا يمكن أن يغلب في العادة، فتخوف العدو أن يكون ذلك مكيدة له، فلذلك عرض على المسلمين المهادنة إن أرادوا. فلما رفعوا ذلك إلى الخليفة مولانا العباس قبل ذلك لما رأى من سوء عمل المسلمين، وعدم نصحهم لله

(5) انظر ملحوظة ابن اليماني على المسألة في التقييد المودع بالمقدمة

ورسوله ولدينهم، فشرط العدو على المسلمين أن يدفعوا له جميع ما أنفقه في حربه ذلك وحركته، فقبله الخليفة على شرط أن يخرج العدو من تطوان فانبرم الصلح على ذلك، وكان في ذلك لطف من الله تعالى بالمسلمين ورحمة لهم، ريثما يستعدون ويراجعون أنفسهم، ويتداركون محل التفريط إن كانوا يعقلون، وما أصيبت هذه المحلة إلا من كثرة الجموع بلا ترتيب، ولا مدرب تجدته التجارب ومباشرة الحروب، أما كثرة العساكر ففي كتب الحكمة أنه اتفق أهل السياسة من العرب والعجم على أن كثرة الجموع لا تؤمن غوائلها، ولا ينضبط أمرها، ولا ثمرة لها إلا الهزائم، وكل من حارب بجميع عساكره فهو مخذول، وكل أمير أمر أميرا على أكثر من ألف من عسكره فقد عرضه للتلف، والأمير الحازم هو الذي يضبط الألف، فإذا كان للملك عشرة أمراء عند كل أمير ألف من العسكر مضبوط، فذلك بمنزلة مائة ألف مهملة، ولا تحتمل حومة الميدان أكثر من عشرة آلاف، ليكون نظر الملك على جميعها، فإذا زادت العساكر على ذلك يقع فيهم الخلل، وتسرع إليها الهزائم، وقد وقع ذلك في الجاهلية والإسلام، ومن طالع أخبار الأمم الماضية تيقن مصداق هذا. وأقرب شيء إلينا واقعة السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله في حركته لجبل فازاز لقبائل آيت أمالو زيان وغيرهم، فإنهم ما أوتوا إلا من الكثرة المهملة، والجموع الجزافية الغير المرتبة الخالية عن الأحكام القانونية، والرؤساء الضابطة التي تقوم أتباعهم بقيامهم وتقعد بقعودهم، ومن ذلك أيضا في غير هذه الدولة ما وقع في دولة السعديين لجنس البرتقيز في وادي المخازن، فإنه أي البرتقيز حشد ما بلغته طاقته من الجنود فوقعت الكرة عليه كما هو معلوم في محله، ومن ذلك أيضا في دولة الموحدين ما وقع للناصر بن المنصور في غزوة العقاب، قال في نفح الطيب إن الناصر جمع جموعا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش، فصاف الفرنج فكانت عليه ولم ينج من الستمائة ألف إلا عدد يسير جدا لم يبلغ الألف، فيما قيل، وهذه الوقعة هي الطامة الكبرى على الأندلس، بل على المغرب جميعا، وما ذاك إلا لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الفرنج استخف بهم الناصر ووزيره، وشنق بعضهم، ففسدت النيات، فكان ذلك من بخت الفرنج

والله غالب على أمره انتهى كلام نفح الطيب، ومن ذلك أيضا ما وقع لأبي الحسن المريني في حركته المعلومة الإفريقية قيل إنه كان معه من جنس الكتاب أربع عشرة مائة محفة فوقع به ما هو مشهور.

قال مليه عفا الله عنه ولطف به آمين، وعلة ذلك والله أعلم، هو ما فيه من الإعجاب، فان النفوس البشرية مجبولة على الاعتماد على ما يظهر لها من استحسان حالها، ومن تعجب في نفسه هالك لا محالة، وقد أشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « إذا بعثت سارية فلا تنتقهم واقتطعهم فإن الله ينصر القوم بضعفائهم » (6) فقوله عليه السلام فلا تنتقهم أي لا تخترهم، ففي الحديث إشارة إلى أن المؤمن لا يتكل إلا على الله تعالى في مهماته، وإذا اتكل على شيء من أسباب نفسه من كثرة أو اختيار أو غير ذلك هلك، ألا ترى أن الله تعالى بعدما أخبر المؤمنين بأنه أمدهم بالملائكة قال لهم (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله) لئلا يتكلوا على الملائكة، حدثنا بعض الثقات أن السلطان العادل مولانا سليمان رحمه الله لما جاوز بلاد تادلة وقطعوا واد أم الربيع من أعلاه، ودخلوا بلاد آيت أمالو ورأى كثرة الخيل والجنود المحشودة، قال لبعض من حضر : انظر هذه البلاد ما أنعمها وأسهلها، وقد كان المرابط السيد العربي بن المعطي(7) يحذرنا منها ويخوفنا من أهلها، ولو كان حيا في هذه الحركة ما تركنا نجاوز أم الربيع انتهى، فهذا القول يدل على أن مولانا العادل رحمه الله أعجبه ما رأى، ووقعت له غفلة ليقضي الله ما أراد، والكمال لله سبحانه.

وقد قلنا إن هذا الصلح الذي صدر في هذه القضية من لطف الله بالمؤمنين ورحمته لهم، ومن أغرب ما اتفق لنا مع بعض من يدعي العلم والرياسة فيه أننا كنا في بعض المجامع، وجرى في ذلك المجمع ذكر هذا الصلح المنبرم مع الخزيان، فأطلق ذلك البعض لسانه بغير احتشام، وصرح بأنه صلح محرم لا وجه له في الدين، وكان عادتي أني لا أريد منازعة أحد من أمثال هذا ولامجادلته، ثم ظهر لي أنه يجب في مثل هذا المقام عدم

---

(6) حديث : (اذا بعثت سارية)... لم نعرف مصدره.

(7) العربي بن المعطي، الشيخ الإمام، أبو المواهب، كان عالما عابدا زاهدا ت 1234هـ 1818م "الإعلام" ج5 ص180 الطبعة الأولى، "الزاوية الشرقاوية" ج1 ص110.

السكوت لأن السكوت عن إبداء الحق هو عين الباطل، لا سيما مع حضور جماعة يستفيض الخبر بهم، فقلت يا هذا إن مثل هذا الصلح صحيح، بل واجب، وقد وقع نظيره في مواطن عديدة لجماعات المسلمين، وفي حضرة العلماء الذين هم حجة الله في الأرض، ووافقوا عليه ولم يقع من أحد منهم أدنى إنكار، فقال : أين وقع مثله ؟ فذكرت له صلح أمير المؤمنين بالأندلس ابن الأحمر بغرناطة وحضور جميع علماء حضرته في ذلك العهد، وصلح أهل طليطلة قبل أخذها على يد أميرها ابن ذي النون بإذن علمائها وصلحائها، وصلح أهل إفريقية مرارا كما ذلك مسطر في كتب التاريخ بنقل الثقات، وصلح أمير المؤمنين العثماني في هذه الأزمان على شروط لا يكاد يظهر لها وجه في ظاهر الشرع، ولم ينكر أحد من علماء إيالته الواسعة لا في الشام ولا في مصر ولا غير ذلك، وكل هذا والرجل مصر على إنكاره، جامع في زمام أوهامه وسيئ أفكاره، ذاكر لحجج واهية، إلى غاية التهافت متناهية، ثم قال : في المختصر : (وإن بمال)، يعني يأخذه المسلمون من الكفار لا يعطيه المسلمون للكفار، فقلت له هذه المبالغة لا يتعين رجوعها للمفهوم، وإن كان هو الراجح، فقال : كلامنا في الراجح، فقلت له : فأين أنت عن الاستثناء المذكور بعد ذلك، وهو قوله (إلا لضرورة) فإن أحسن ما يقرر به كلام خليل هو كلام الإمام المازري وهو قوله ولا يهادن الإمام العدو بإعطائه مالا، لأنه عكس مصلحة أخذ الجزية منهم، إلا لضرورة التخلص منهم خوف استيلائهم على المسلمين، وقد شاور صلى الله عليه وسلم السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة لما أحاط قبائل الأحزاب بالمدينة في أن يبذلوا للمشركين ثلث الثمار لما خاف أن تكون الأنصار ملت القتال، فقالا : إن كان هذا من الله تعالى سمعنا وأطعنا، وإن كان رأيا فما أكلوا منها في الجاهلية تمرة واحدة إلا بشراء أو قرى، فكيف وقد أعزنا الله بالاسلام، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزمهم على القتال ترك ذلك، فلو لم يكن الإعطاء عند الضرورة جائزا ما شاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه انتهى، فلما شرحت له هذا جعل يجعجع على الحاضرين من العوام، فإذا هو ما فهم محل الشاهد من القضية أصلا، فذكرت له صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا مبينا في القرآن المبين مع ما تضمنه في بادي الرأي من شبه الدنية الذي أنكره

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى بين له الصديق الأكبر ما هو المراد من الوحي الصادق، فلما ذكرت له ذلك صار أصمت من سمكة، ولم يحرك بعد ذلك حنكه، ولو بجزء كلمة، كأنما ألقم حجرا يملأ فمه وإن كان بلغنا أنه بعدما انصرف عن هذا المجلس ظهر منه أنه لم يحل عن الإنكار، نسأل الله السلامة والعافية.

ولما نظمت القصيدة الهائية في العيد النبوي عام 1282 في مدح مولانا أمير المؤمنين وتهنئته بالعيد المبارك على العادة، أشرت الى هذه القضية ولم أصرح بهذا الرجل ولا أصرح به، لأنه جاهل مركب، والله سبحانه أمرنا بالإعراض عن الجاهلين، وهذه هي القصيدة :

بشراك قد حل ما ترجو وترضاه ... وكل ما يتوقى الناس تكفاه

فالدهر ممتثل أمرا تشير به ... فمر بما يقتضيه الرأي تعطاه

أضحت بك الملة الغراء ضاحكة ... والدين أظهر مفترا ثناياه

والملك قد أشرقت أرجاؤه فرحا ... بنور وجهك حيا الله مرآه

ورفرفت برياح النصر رايته ... وأنت في ظلها الميمون تغشاه

وأشرق العدل والأيام داجية ... لما جرى الحق من يمناك مجراه

بشرى فقد أنجز الأيام موعدها ... من ملكك الأمر أدناه وأقصاه

إن الكواكب في أفلاكها حكمت ... بما ظفرت به والحاكم الله

هذي المغارب قد ألقت أزمتها ... إليك فاحكم بما تبغي وترضاه

وللمشارق شوق لو مددت لها ... يمناك مد إليك اليمن يمناه

ولو رميت النجوم الساريات لما ... أخطأت منها الذي نويت مرماه

بشرى الزمان الذي أضحيت مالكه ... بالعز والعدل والإحسان بشراه

فأنت للدين والدنيا جمالهما ... وأنت تهدي الورى للحق إن تاهوا

سست الممالك للتوفيق مصطحبا ... ملازم الحزم لا تنفك ترعاه

جبرت منكسرا سترت مفتضحا ... نصرت مشتكيا أزلت شكواه

فالخير منتشر والعزم مجتمع ... والعز مقتبل قد لاح مبداه

أطفأت ما أوقد الخزيان من ضرم ... وخاب موقدها والله أخزاه

جنحت للصلح بالرأي السديد بما ... سيحمد الدين والإسلام عقباه

صلح تبلج نور من جوانبه ... حتى استبان الهدى من ضل معناه

صلح وحق مزاياك التي شهرت ... ما كان يظهر وجه الرشد لولاه
أبرمته بيد بيضا مباركة ... أكرم بمبرمه ما كان أزكاه
بنيته في يفاع العز عن ثقة ... من أن يتم لك الرحمان مبناه
صلح الحديبية المتلوّ في صحف ... فتح مبين بهذا الله سماه
قد أنكر البرءاءُ ما تضمن من ... شبه الدنيّة والفاروق يأباه
وفيه سر وراء العقل محتجب ... والسيد الأيّد الصديق أبداه
وصورة الحال في هذا مشابهة ... وللحقائق أمثال وأشباه
يا خير آل هشام وابن سيدهم ... ومن له في سماء المجد أعلاه
لو كان غيرك هذا الأمر فاجأه ... لكان حيّره وكان أعياه
وأنت يا ناصر الإسلام منتصر ... بالله لا ترتجي في الأمر إلاه
مظفر فتحت لك العلا كرما ... أبوابها وكفت ما أنت تخشاه
مؤيد بجنود السعد مكتنف ... بالرعب تنزل بالأعداء بلواه
يا من له برسول الله منتسب ... عال له غاية التعظيم والجاه
يهنيك مولد خير المرسلين فما ... أجل مولده فينا وأهناه
عيد تشرف بالتشريف مطلعه ... إذ لاح للمصطفى فيه محياه
وأنت يا خير من يدعى خليفته ... كفلت أمته نصرت دعواه
وَالَيْتَ في الله من والي وكنت له ... ركنا وعاديت من في الناس عاداه
يابن الأجاود من أبناء فاطمة ... ومن هم لبحور الجود أمواه
إنا رجوناك للجلّى وأنت لها ... لا خيب الله فيك ما رجوناه
نداك أغنى وأقنى كل مقترب ... ونحن أقرب من راعيت قرباه
وفاض فضلك فيض الغيث منبجسا ... حتى الأباعد نالتهم عطاياه
ما بال عبدك هذا قد ألظَّ به ... ناب الزمان فعناه وأعناه
عبد مطيع طويل الباع مفصله ... مهند شحذت بالطبع متناه
يهدي إلى قدرك العالي مدائحه ... في كل عام لعل الفوز يلقاه
وأنت يا ابن رسول الله لو لحظت ... رحماك حالته لفاز مسعاه
ولو رنوت بعين العطف جانبه ... لاهتز فخرا على الأكفاء عطفاه
وقد دعاك أمين الله مُضْطَرِاً ... حاشاك تهمله حاشاك تنساه
لا زلت في دولة ترخي ذوائبها ... على خمائل عز طاب رياه

وقد وفى النصارى بما شرط عليهم في عقد الصلح من الخروج من تطاون، فلما خرجوا أمر مولانا نصره الله برجوع من خرج منها فرجع كل إلى محله، ولم يرزأهم النصارى شيئا إلا القليل، وإنما نهبهم إخوانهم الذين يدعونهم المجاهدين، ولولا أنهم أخذوا حذرهم لفعل بهم كما فعل بأهل السويرة، ولكن وقعة السويرة علمتهم(*).

والسعيد من اتعظ بغيره، ولقد بالغ مولانا المظفر نصره الله في الاحتياط لهم والاعتناء بهم والشفقة عليهم حتى عادت بلدتهم أحسن مما كانت عليه، وأخلف الله عليهم كل ما ضاع لهم، وحسنت أحوالهم وربحت تجارتهم، ونمت أموالهم، أخبر بذلك بعض الصادقين من تجارهم، وكان فطنا مستبصرا وقال : إن ذلك مصداق ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجود البركة في بقية الجوائح، فقلت له هو كذلك بلا ريب، وقد وجه مولانا نصره الله كاتبه الفقيه الأريب الصادق الأمين الحازم الناظم الناثر، الحسيب الأديب أبا العلاء سيدي الحاج إدريس بن الوزير الأعظم الأجل الأكرم العلامة سيدي محمد بن إدريس(8)، في هذه القضية وفي غيرها من شئون المملكة التي تقتضيها السياسة والعادة المقررة بين الدول إلى جنس الفرنصيص، ومرة ثانية إلى جنس الصبنيول، ووجه كاتبه الفقيه العلامة الماجد الأصيل السيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي الفاسي(9) ‹إلى جنس الصبنيول في المرة الأولى، والفقيه النجيب الحبي الأريب السيد محمد بن القائد الرئيس السيد علال الشامي إلى جنس النجلير›(10) حتى تقررت الأمور وتمهدت على الوجه المعروف وتيسرت الأسباب في البر والبحر، وكل ذلك تدبير صالح، وفعل مبارك ناجح، من حكيم بار ناصح، وهو مولانا أمير المؤمنين نصره الله، وكانت هذه الأجناس الثلاثة المذكورة وجه كل واحد منهم باشا دوره وطلبوا من مولانا المظفر نصره الله أن ينوه بهم ويشرفهم بتوجيه بعض خواصه وخدامه الأقربين ليعلم الأجناس أن لهم حظوة عنده ومكانة، وذكروا أن لهم من حق الجوار ما يقتضي ذلك، وأن

(8) ادريس بن محمد بن ادريس العمروي كان فقيها، أعجزت مفاخره كل ناقل وعجز عن بلاغته سحبان وائل، وهو أشهر من أن يعرف، وهو صاحب "الرحلة البارزية" ت 1296هـ 1878م، "فواصل الجمان" ص142 "الاعلام" ج3 ص22.

(9) عبد الرحمان الشرفي بن محتسب فاس محمد بن العدل، وكان وزير الخليفة السلطان بمراكش، عالما أديبا مشاركا، من بيت شهير بالمغرب ت 1304هـ 1886م "الدرر البهية" ج 2 ص 357 "تواصل الجمان" ص208 "الإعلام" ج8 ص147.

(10) ما بين المعقوفين كتبه المؤلف على هامش مخطوطه إضافة، انظر تقييد ابن اليماني.

(*) وقعة السويرة المتقدمة الذكر في عام 1260، كما سبق في راية المولى عبد الرحمان.

أسلافه السلاطين الأعاظم كانوا يفعلون معهم ذلك وهو كذلك، فساعدهم مولانا بتوجيه من ذكر، فكمل المراد بحمد الله تعالى، واتسقت الأحوال، وفاضت الخيرات، وشاع الأمان في جميع أقطار المغرب، وشمل الناس جميعا عدل مولانا المظفر نصره الله، لم يفقدوا شيئا مما ألفوه في حياة والده المؤيد رحمه الله، بل ازدادوا بركة على بركة، وخيرا جديدا إلى خير قديم، ذلك فضل الله، والله ذو الفضل العظيم.

ولما تمهدت الخلافة ببركة مولانا المظفر، ولبست حلي زينتها وحلاها وأشرق نور جمالها في مطالع علاها، ورجع مولانا نصره الله إلى حضرة مراكش، وذلك عام تسعة وسبعين ومائتين وألف أنشدته في المولد الشريف على العادة الماضية هذه الدالية :

حنانيك إن الشوق قد بلغ المدا	أما ترحم المضنى الكئيب المسهدا
ورحماك إن المستهام من النوى	له حالة سوأى ترق لها العدا
فلا تسأل الولهان عما أصابه	وسل حاله إن شئت عنه فتشهدا
تقاضته دينا كن حاكمة به	لواحظ ظبي مر أحور أغيدا
هو الصب لا تزداد لوعة حبه	إذا حاول الإطفاء إلا توقدا
فما تركت فيه الصبابة والهوى	على حمل أعباء الغرام تجلدا
وكم عاث في أهل الغرام هيامهم	وحرق أحشاء ومزق أكبدا
وكم سلب الحب الرجال عقولهم	وحب الفتى يعميه عن سبل الهدى
فلا تعجبوا من عبرة قد سفحتها	على زمن بالجزع قد كان مسعدا
فيا حسن ذاك العهد يا طيب ذكره	سقاه الغمام الجود غيثا مرددا
ولله عيش بالحمى سمحت به	ليال ملاح ما ألذ وأرغدا
ليال تولى السعد حسن طلوعها	فكانت كما نهواه يمنا وأسعدا
ليال بها قد أرغم الله كاشحا	وأحزن حسادا وأنكى وأكمدا
إذا ذكرت نفسي هنالك جيرة	أهاج لها وجدا مقيما ومقعدا
وكم غرد القمري في خوط أيكة	فجاوبت ذياك الحمام المغردا
وقلت كفاك الله ما أنت حاذر	وبوئت في الأدواح وكرا ممهدا
فإنك قد اذكرتني زمنا مضى	به ضرب الأفراح للهو موعدا
نديربظل السرح كأس مسرة	إذا بلى الإيناس فيه تجددا
على أن ما قد فات ليس بعائد	ولا يدني بالوهم ما كان أبعدا

فأمـا وقـد زم الركـاب ويممـوا | زيارة خيـر الإنـس والجن أحمدا
فقد شاقني من نحو طيبة بـارق | ينسي مشوق الروح ما قد تعـودا
وأزعجني حادي المَطيّ وقـد شدا | وردد خلف العيس هيمنة الحـدا
رويدك يا حادي المَطايا فإنني | أنادي رسول الله أسمعـه النـدا
ألا يا رسـول الله دعوة قاطـن | تخلـف خلـف الظاعنيـن وأفـردا
ولا عـذر إلا الضعـف منه فإنـه | تقمص فضفاضا من العجز وارتـدى
وأوثقـه جـور الزمـان وأهلـه | فيشكوك من دهر عليه قد اعتدى
ومن نفسه يا حجة الله يشتكي | فتلك التي ألقته في هوة الردى
بجاهك يدعـو اللـه مالـك أمـره | يخلصـه مما بـه قـد تقيـدا
فليس لـه يابن العواتـك ملجـأ | سـواك ولا يرجـو بغيـرك مقصدا
فإنـك قـد حـزت المحامـد كلها | وأنـت لمرتـاد النـدى لجـة النـدى
عليـك لـواء الحمـد ينشـر آدم | فمن دونه في ظل منشوره غدا
إذا جمـع اللـه الخلائـق كلهـم | دعيت لمن في ذلك الجمع سيـدا
وكنت شفيعـا فيهـم ولبسـت من | حلى الحمد ما يـزداد عـزا وسـؤددا
سموت إلى أعلى الطباق وجزتها | وخلفت جبريـل الأميـن المؤيـدا
وذلك في وهن قليـل من الدجـا | وجئت بأنوار الهـدى لمـن اهتـدى
وأطلعت شمس الحق من أفق العـلا | وفتحـت بابـا للسعـادة موصـدا
وأنذرتنـا من نـار كـل شقـاوة | وبشرت من أضحى حنيفـا موحـدا
وغيضت بحرا للضلالة قـد طغـى | على أهله حتى استجاش وأزبـدا
وغادرت عين الشرك تبكي دماءها | علـى من بغى من أهلـه وتمـردا
وبـددت في بـدر رءوس كُمَاتهـم | فصـارت لقى عند القليب مقددا
وأحزنت في الأحزاب صخرين حربهم | وأرجعتـه يجتـر خزيـا مخلـدا
وحكمت فيهـم كـل أسمـر ذابـل | وكـل حسـام كالشـواظ مهنـدا
يصول بها من هاجروا ثـم جاهـدوا | ومن نصروا الدين القويم المسددا
هم الملأ العالون في حضرة الرضـا | وهم أسسوا هذا البنـاء المشيـدا
وهم بذلوا في طاعة الله أنفسـا | مطهـرة تبغـي الثـواب المؤبـدا
وما زلت يـا روح العوالـم فيهـم | إلى أن محوت الشرك محوا مسرمدا
وجاءك نصر الله والفتـح وارتضـى | لك الله في أعلى الفراديس مقعدا
وصرت إلى الرضوان حيا لتبتنـي | لنا في جـوار الحـق عـزا ممهـدا
وخلفت فينا الذكـر والآل حاكمـا | فآلك والذكر الحكيم لنـا هـدى
هما الثقـلان بـارك اللـه فيهمـا | وخـص أميـر المؤمنين محمـدا

خليفتك المأمون نجل خلائف ... أجل ملوك الأرض فخرا ومحتدا
من الذروة العلياء من آل هاشم ... وآل هشام ما أجل وأمجدا
هو الملك الحامي الذمار ومن له ... روينا حديثا في الأصالة مسندا
كسا دولة الأشراف عزا وزادها ... وأصلح ما أوهى الزمان وجددا
وجالد عباد الصليب فأذعنوا ... لعزته تحت الضراعة أعبدا
وعدد أمثال الأسود عساكرا ... تخر لها الأسد الضراغم سجدا
وتهتز منها الأرض عند ركوبها ... وترجف أطواد الجبال تميدا
وتحسب أن الجو نار تأججت ... يضج لها باغي الفساد مشردا
وتخفق ريح النصر بين بنودها ... على غرة المنصور أكرم من غدا
على الملك الجحجاح أبهى متوج ... تبختر واقتاد الخميس المجندا
وأعلى ملوك العالمين مآثرا ... وأطهرهم قلبا وأطولهم يدا
وأكثرهم رجحان عقل وحكمة ... وأعذبهم في مشرع العلم موردا
وأوضحهم برهان مجد ومفخر ... وأوثقهم بنيان عز ومصعدا
قضى الله تعنوا الناس طرا لأمره ... وتنقاد إجلالا له وتوددا
فما زال يوليهم عواطف بره ... ويصفح عن ذنب المسيء إذا بدا
وبالعدل والإحسان ما زال آمرا ... إيالته الغراء أمرا مؤكدا
به حييت أرض المغارب وازدهت ... وأضحت لهم أهل المشارق حسدا
هنيا لنا قد أسعد الله أرضنا ... بملك همام في العلا قد توحدا
بأبهر من بدر التمام جلالة ... وأسمح من فيض الغمام وأجودا
يقيم لنا في كل عام مواسما ... مباركة فطرا وأضحى ومولدا
يفيض علينا من سحائب جوده ... مواهب، لاتنفك نفسي لها الفدا
ونهدي له حر المدائح جوهرا ... فيمنحنا بالفضل تبرا منضدا
فلازال بالعمر الطويل ممتعا ... ولازال منصور اللواء مؤيدا
ولابرح الأعياد يشرق نورها ... بغرته إن راح يوما أو اغتدى

ومن فضائل مولانا المظفر نصره الله، التي ماسبقه إليها أحد قبله في هذه الدولة الشريفة اتخاذ العسكر على الهيأة المبتكرة المحمودة المعتمدة، عند جميع الدول اليوم في أقطار الأرضين، ويقال لها عند المشارقة النظام، ولم تكن عندنا بهذه الدولة فاستحسنها مولانا نصره الله فاقترحها على والده المؤيد رحمه الله فأذن في اتخاذه، فلم يزل مولانا المظفر نصره الله يزيد فيه ويبالغ في تقويته وإصلاح أموره وإقامة أوده وإعلاء شأنه مع

كون أهل الدولة قد ثقل عليهم ذلك غاية، ونفرت طباعهم منه لأمور منها : أنهم لم يعهدوه، ومنها أنهم لم يتوقفوا عليه لأنهم لم يحاربوا ولم يباشروا المصافة به حتى تظهر لهم مزيته، ويعلموا أنه لا تمكن الغلبة بدونه اليوم لمن قابلهم به لأن المغالبة هي مقابلة الشيء بمثله، وإذا انتفت المماثلة فلا مغالبة، هذا بعض الأسباب التي أوجبت كراهيته لمن كرهه، وهنالك أسباب أخر لا يقتضي المقام ذكرها، ومولانا نصره الله لما أطلعه الله على حقيقة الحال لم يزل جادا في إغاظة من خالف في ذلك حتى قعد قواعده، ورفع بناءه على أساس وثيق، وذلك في راية والده المؤيد رحمه الله، وأحرى اليوم في هذه الراية العالية فإن عنايته به في غاية الازدياد، الخارق للاعتياد، ولا أظنها تقف عند عدد مألوف، دون المئين من الألوف، أيد الله هذا الدين بتأييد مولانا وعزته، وأمده بباهر قدرته، وجعل من أنصاره أرواح الكواكب العلوية، تقدمه السعادة بمنصور الألوية.

ومن علو همة مولانا المظفر نصره الله أنه ما سمع بخصلة من الخصال، إلا وجه إليها سوابق الاستحصال، حتى تستقر بين يديه، وتلقي جرانها لديه، فصارت أجناس النصارى تتحفه بكل غريب الشكل مما استنبطوه، ولا يرده غالي الأثمان إذا شرطوه، فكانت حضرته العاليه من أجل ذلك مظهر العجائب، ومنال الفوائد والرغائب.

من ذلك الآلة التي يعصر بها السكر ويعقد، حتى يوجد في كل حين ولايفقد، ويغنى عن جلبه من أقاصي البلدان، لما أجرى الله العادة اليوم باستعماله في سائر الأوقات لاستصلاح الأبدان، فأراد مولانا نصره الله أن يكفي الناس مئونة اجتلابه، ورأى نصره الله أن هذه البلاد لكثرة مرافقها دون غيرها من الآفاق أولى به، فأمر بغرس القصب الحلو واستنباته، وتهيئه المزارع الطيبة واختيار أطيب أوقاته، ووجه على من يحسن أعمال إخراجه من القوة إلى الفعل، بغاية ما يطلب من الإجارة أو الجعل، فجاء من النصارى كثير من العملة، الذين زعموا أنهم يحسنون عمله، فذكروا أنه لابد لذلك من محل مخصوص، وبناء هائل مرصوص، فأمر نصره الله بالبناء في أخريات أگدال، على ما وصف أولئك الأنذال، فأنفق على ذلك أموالا كثيرة العدد، في زمان طويل المدد، ووجه على ما يتوقف عليه من

الأواني العجيبة، والآلات الغريبة فجاءت من بر النصارى، ولم يرتكب في ذلك تقريبا ولا اختصارا، فكمل ذلك كله على أكمل الوجوه، كما يأمله الآمل ويرجوه، ثم إن أولئك المباشرين من الأروام توقفوا في أثناء العمل عن الإتمام، ولعلهم إنما كانوا من جملة العوام، فبعث مولانا نصره الله على الصناع المهرة، فجاءوا من مصر القاهرة.

ومن ذلك قنطرة من الحديد، مما أحدثه حكماء النصارى في هذا الزمان الجديد، من عجائب القدرة، ولا يقدر أحد قدره، كان مولانا المظفر نصره الله أراد أن ينصبها علي وادي أم الربيع للجواز عليها في أوان السيول، وترادف الأمطار، وكان المأمور بالوقوف على اصطناعها وعلى جلبها من بر النصارى هو التاجر ولد مصطفى الرباطي، وقد صير عليها من الأموال الثقيلة ما يبهر سماعه، وما لا يمكن غير الملوك العظام أن تبلغه أطماعه، فلما جاء بها على أكمل الحالات وأتقنها، حسده بعض من له الوجاهة على ما قيل، فزيفوا ما جاء به عند السلطان نصره الله، وقالوا إنها لاتصلح ولا تناسب، وإنها يختل نظامها في أقرب مدة، ثم إن مولانا المظفر عزم على بناء القنطرة على المحل المذكور بناء أزليا، هائلا أبديا، فأمر من زعم أنه يحسن النظر في ذلك فوجهه يختار المحل الذي يصلح لذلك، ويهيئ ما تدعو إليه الحاجة من الاقامة والحجارة، ويقدر كم يكفي من ذلك ويرفع ذلك إلى حضرة مولانا، فيأمر بترتيب كل ما يحتاج إليه حتى يكمل الغرض، وكان ذلك الموجه كاذبا فيما زعم من حسن النظر، فشرع على ما قيل في الحفر بلا تأويل ولا تمهيد ولاترتيب، فظهر سوء نظره في الحين، وكان الناس يودون أن لو تم ذلك، وليته ساعدت الأقدار في وجوده، فإنه من الآثار الباقي نفعها، التي تحصل منها الفائدة العظمى للملكة، وقد كانت في القديم فيما يحكى عند أبي العوان، وكانت هنالك قصبة عامرة لأجل حراسة ذلك المجاز، باقية في أيام مولانا إسماعيل، وبقيت إلى أيام مولانا عبد الله كما تقدم ذلك في أخبار رايتيهما، ولعل الله تعالى يوفق مولانا المظفر نصره الله لبنائها ويعينه عليه، ويوجه عنايته إليه، ويجعل في ذلك خيرا عاما للمسلمين.

ومن ذلك أيضا الرحى التي جاء بها مولانا نصره الله إلى ثغر

طنجة، فإن الحديث عنها من الأعاجيب، ويذكر أنها تطحن في ليلة واحدة عددا كثيرا من الأوسق.

ومن ذلك أيضا برج الفنار الذي بناه مولانا نصره الله على ساحل البحر في المسافة التي بين طنجة وأصيلة، يوقد فيه الضوء الذي يظهر للسيارة في البحر ليلا من المسافة البعيدة، وذكروا أنه يوقد فيه من الزيت في كل ليلة شيء كثير، قيل إنه كان في الزمن القديم وأحياه مولانا نصره الله وأنفق عليه آلافا مؤلفة من الريال، تقبل الله من سيدنا حسناته، ورفع بذلك في معارج القبول درجاته.

ومما تقرر في هذه الدولة الشريفة وفيما قبلها من الدول المغربية فيما بلغنا قراءة السلطان صحيح البخاري في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان حتى صار ذلك أمرا لازما لا يتخلف إلا لمانع لا يمكن رفعه، وكان مولانا المظفر نصره الله جاريا على ذلك السنن القويم حتى في أيام خلافته عن والده المؤيد، وكنت أرفع إليه في كل ختمة من ختماته على العادة قصيدة يستدعيها المقام ويقتضيها، ويستحسنها كل سامع ويرتضيها، ولم يحضرني الآن أكثرها، ومما رفعت إلى حضرته عند الختم في السنة التي رجع فيها من حرب ولد محيي الدين غير النونية المتقدم ذكرها، فإن تلك إنما هي تهنئة بمرجعه، وهذه في الختم عند حضور مجمعه، وأشرت فيها إلى ظفره بالعدو المذكور بإشارة بعض من طلب ذلك مني، وهي هذه :

ألا حي آثار الحبيب وداره	ولا تله عن حال الرقيب وداره
وحدث عن الحي الحلول بعالج	يغاديهم وهنا شميم عراره
فلله، آثار أثارت غرامنا	وربع يذيب القلب عند اذكاره
تقاضته عهد الحب وهي سواكب	محاجر أدماها بسوء اندثاره
معطلة أطلاله لعبت بها	صروف زمان لا يقام بثاره
فيا صاحبي والصب ليس لدائه	دواء يقيه من وغول بحاره
يلذ له في الحب أن قيل إنه	صريع حمياه عقير عقاره
فلا تحسبن الحب عارا لمبتلى	فذاك الذي يرضى الغرام بعاره
ولاتحسبن الشوق مني لمربع	دريس يحار السفر بين قفاره
ولا أن تهيام الفؤاد لمنزل	وروض يسلي الشجو شدو هزاره

أيجعل للكفار من قلة الحيا | عليه سبيلا طائعا غير كاره
ولو أسرته الخيل وهو مقارع | لادرك فخرا طائلا بإساره
فتبا له في ذمة الخزي جاثيا | معنى يداني خطوه في حظاره
وتبا لمن يمشي فتضحك إن مشى | أصيبية الخزيان عند عثاره
جزى الله مولانا الأمير محمدا | بكل جميل قائما بانتصاره
كفى ملة الإسلام كل ملمة | وكل عدو يختشى من ضراره
وكل غوي هائم في ضلالة | وكل سفيه فاتن بحذاره
فيا أيها القرم الذي قد بنى لنا | من العز سورا عاليا باقتداره
لك الفخر لا ما تدعيه من العلا | قياصرة نالته دون احتقاره
لك الشرف المرفوع عند كنانة | وعند معد راسخا في نزاره
تركت بهذا الفتح كل مملك | قرين حياء لائذا باعتذاره
وأرضيت مولانا أباك بنيله | فأرضاك ما بين الورى باختياره
فأنت إذن أولى بكل فخامة | وكل العلا قد حزته بابتداره
ومجلسك العالي عروس مجالس | وهذا نظام الدر بعض انتشاره
فلا زلت مكلؤ الجناب مهنأ | ودهرك طوع خادم بائتماره
تقابلك الأعياد منه بمنظر | ومبتسم يبدى جميل افتراره

وكان مولانا المظفر نصره الله لما ورد عليه الخبر باشتداد المرض على السلطان والده خرج من مراكش وخلف أخاه الأبر الأجل الأكرم المفضال، ذا الأخلاق العاطرة التي يحسدها الروض الآنف المخضال، أبا الحسن مولانا علي حفظه الله، فباشر الأوامر والنواهي، مباشرة العقلاء الدواهي، وكان لا يقطع أمراً قليلا أو كثيرا إلا بعد مشاورة مولانا نصره الله، وكان يعالج ما يضايق به الزمان بسعة أخلاقه، ويقابل كل ما يتعسر باستفتاح اغلاقه، حتى تملك القلوب بلين الجانب وخفض الجناح، وتسهيل المشاق ورفع الجناح، ولولا ذلك لاحترق الحوز كله بما استوقده الرحامنة الصحراويون من نيران الفتون، وانصبابها كالمطر الهتون، فإنهم عمدوا إلى سوق الخميس بمراكش فنهبوه، وكل من ظفروا به خارجا أو داخلا سلبوه، فانقطعت السبل برهة من الزمان، لعموم المخافة وعدم الأمان، وارتفعت الأسعار، وأكل ما استعد بالادخار، وقطع ما حول الأسوار من الأشجار واحتطب، وحصد الزرع

وصار يخوض الهول بين عجاجة ... تشابه فيها ليله من نهاره
يسير بجند ينسف الأكم غائرا ... ويذهل من آساده وغماره
يسير بريح النصر في لجج الوغى ... كما سار فلك في هبوب شواره
ويغني عن الشمس المنيرة وجهه ... إذا ما دجى وقت الضحى من غباره
له الحرب أهنى من مسالمة العدى ... إذا استوخم الأقران خوض غماره
له في ظهور الصافنات مجالس ... لعمرك أشهى من مقاصير داره
ومسح لأعراف السوابق عنده ... مهين لمسح الخز عند اعتجاره
له الرعب جند حائط من جهاته ... مسيرة شهر من تراث نجاره(11)
إذا ما نوى إتيان قوم بغارة ... أتاه الذي ينوي رهين ضفاره(12)
وإن كان يبغي غزوة لمعاشر ... فليس لمن يبغيه غير فراره
كما فر عبد القادر الغمر خاسئا ... على عقبيه خائفا من غراره
له الويل لو نالته حينا سعادة ... وتاب إليه نال حسن اغتفاره
ولكنه قد راعه من حماته ... مصاب فكل واقع في دماره
وكان أمير المؤمنين سقاه من ... تفضله من تبره ونقاره
سقاه يظن العود من فرع كرمة ... وغرس لذيذ المجتنى من ثماره
إذا أنه لا ظل فيه ولا جنى ... ولكنه مستوقد لجماره
على أنه لو كان فيه فطانة ... لما أمن الضرغام حين اكتشاره
هو الجاهل المغرور قد نزلت به ... وخامة ما أعطاه سوء اغتراره
يظن طلاب الملك أكلة جائع ... ويحسب أن الغرب مثل قراره
ويحسب أسد الغرب في الحرب مثلما ... تعاوى من الذؤبان حول دياره
فلولاه ما صارت جسوم أناسه ... مطاعم طير في فناء وجاره
أصابهم ما قد أصاب بشؤمه ... كحي ثمود باجتراح قداره
أصابهم ما قد جنى بجهالة ... وكم من مصاب من جناية جاره
وكم حافر للغير بئرا فخر في ... غيابات ذاك الحفر بعد احتفاره
أسائله بالله يوم انحيازه ... إلى دار كفر في لباس صغاره
أكان مفيقا حين ذاك من الكرى ... فريد(13) به أوطافحا في خماره

(11) يشير الى قوله صلى الله عليه وسلم : نصرت بالرعب الخ...
(12) في الأصل ضفان بالضاد وكتب عليه مؤلفه ضفار كسحاب الحبل، وفي (م) و (ف) ظفان بالمشالة وفي ·ش صفان).
(13) في (ف) غريق.

في دار ابن عودة وقتله بلا دفاع ولا معارض، حتى إن الذين جاءوا لقتاله ما تجرأ أحد على القرب منه، ولا نصح في شأنه، فلما دخل لزيارة مولانا إدريس وكان هناك أبطال من الشرفاء العلويين، ومن زرارة والشبانات فشدوا عليه الأبواب وحصروه في مشربة من الحرم فقتلوه وحزوا رأسه ويديه ووجهوا ذلك لمولانا السلطان نصره الله، ووجه ذلك لحضرة مراكش وبذلك انطفأ بعض نيران الحوز بحمد الله تعالى.

وقد كان حدث في أثناء ذلك بالقلعة ببلاد الصراغنة حادث فظيع من نمط ما قبله، وذلك أن محمدا ولد أحمد بن القائد كان ذهب لفاس صحبة مولانا المظفر نصره الله، فجاء وأظهر أنه جاء بأوامر السلطان، فجمع جماعة من أهل الفساد مثله فدخل على العامل عمه الرجل الصالح الحاج محمد العبوبي، وهو غافل آمن فقبضه وقيده وقال للناس : إن السلطان أمرني بذلك، وقد قيد أخي العربي، وهو قادم في أثرى بأمر السلطان، فأمر في الحين بمرس زرع المخزن ففتحه وجعل يبيع ويقبض الأموال الثقيلة التي لا يعلم قدرها، ويعطي أهل الفساد من أتباعه بلا قياس ولا عد فتبعه الغوغاء، وأنفد الخليفة مولانا علي جميع الحيل في تسريح العامل العبوبي من ثقافه مدة مديدة حتى وجه مولانا نصره الله حاجبه الفقيه السيد عبد الله بن أحمد فسرحه بنوع من الاحتيال، وذلك الفاجر مصر على ما هو عليه من الغي والطغيان حتى أفرغ ذلك المرس الذي كان يقال إنه لو انقطع الزرع من المغرب لكان يكفي أهله هذا المرس، فاستهلكه ذلك الفاسد في مدة قريبة بلا فائدة ولا طائل، مع ما أخذ من متاع دار العبوبي وذخائره وأمتعته وخيله وبهائمه وأنعامه، وكل ذلك ذهب في الحين كما يذهب الدخان، ولم تزل مراكش في شدة الهول والغلاء من أجل فساد الرحامنة، وفسادهم هو أصل فساد الحوز كله، لا الصراغنة ولا غيرهم، ولولا أنهم تجرأوا على الحضرة المراكشية ما تجرأ أحد عليها.

فلما فرغ مولانا المظفر من استصلاح الغرب واخماد نار الفتن الثائرة فيه توجه لحضرة مراكش فلما قرب منها جمع الرحامنة قضهم وقضيضهم، وعزموا على محاربة السلطان جهارا، وظنوا أنهم مانعتهم كثرتهم من الله، فانحازوا كلهم إلى ناحية زاوية ابن ساسي والودان والرميلة ليحولوا بين

المدرك في إبانه لغير زراعه واغتصب، واشتد الحصار، وتخادل الأعوان والأنصار، والخليفة المذكور يدافع مزيد شرورهم بالاحسان، وحسن الخلق وحلاوة اللسان، ومولانا المظفر نصره الله بحضرة فاس، في نحر العدو الكافر وتقوية العساكر المقابلين لهم بالسواحل، وكان جهاد هؤلاء الذين هم في باب الدار أولى من الذين تعمل إليهم الرواحل.

وفي خلال ذلك وقرب انفصال قضية النصارى ظهرت فتنة أخرى بالغرب في سفيان وبني مالك، وذلك أن رجلا أخرق منهم معتوها يقال له الجلالي الروكي كان قبل ذلك مسخرة لكل أحد، لازمه جماعة من الشياطين، وجعلوا ينسبون إليه الخوارق، وزعموا أنه يخبرهم بالمغيبات، فتقع كما أخبر، وصوروا من ذلك صوراً غريبة استغووا بها العامة، وجعل أمره يزداد كل حين، وكثر عليه الناس كثرة فادحة، والسلطان فيما ذكرنا من الاشتغال بأمر الكفار وانبرام ما أشرنا إليه من المهادنة، فلم يشعر أحد بأمر ذلك المعتوه والشياطين الذين نصبوه حتى أضرموا الغرب نارا تتأجج، باضعف من نسج العنكبوت من الحجج، وسبب ذلك الظهور أن أولئك الشياطين زحفوا بتلك الجموع إلى دار عاملهم الطالب الغر النزيه السيد عبد الكريم بن عودة، وكان على قرب من ولايته وقتل أبيه في جهاد النصارى وقبل استحكام حاله، وهذا هو الذي أطمع فيه أولئك الفساد، ورصدوه حتى لم يبق معه في الدار من عبيده وأنصاره وإخوانه إلا القليل، فجاءت تلك الغوغاء المتكاثرة فجأة وأحاطوا به ودخلوا عليه فقتلوه ونهبوا الدار وكانت ممتلئة بالخيرات من الأموال والكساوى والأمتعة والأنعام والخيل والعدة، فأخذوا جميع ذلك وفرقوه على أتباعهم من أهل الفساد، وقوى بذلك أمرهم في ساعة واحدة، وحصلت لهم عصبية تامة لا تقدر قبيلة يتوجهون إليها على دفعهم، فأمر مولانا المظفر نصره الله جميع القبائل المجاورة لهم من العرب والبربر بمحاربتهم، وأمر أخاه الأبر الهمام البطل قدوة الكرام أبا السعادة مولانا الرشيد بالخروج في العساكر إليهم، فخرج في الحين مسارعا، فأوردهم من الردى مصارعا، بعد حروب كانت لشيوخ الفتن مضاجعا، ولأطفالها مراضعا، فلما أراد الله سبحانه الانتقام منهم، ذهب قاصدا نحو مكناس، وقال لهم : نقدم زيارة مولانا إدريس وبعد ذلك ندخل مكناس، وفي الحقيقة قد دخل الناس الدهش منه لما وقع له ما وقع

تحن حنين النِّيبِ شوقا لسالف ... ومطلب ما قد فات صفقة خسران
لعمرك ما يجديَ على متذكر ... حنين لأحيان مضين وأزمان
وقد كان أشفى للغرام قلائص ... تسام بمرعى من عرار وسعدان
تسود بسودان مناخا وتشتهي ... شميم شمام واعتسافا بعسفان
ومسرى لنجد والأباطح والنقا ... وملتزم عند الحطيم وأركان
ويحدو بها الحادي إلى شعب هاشم ... بمكة لا شعب مضاف لبوان
فما لي مُنًى إلا منِّي وإنابتي ... لياليها أدعو برحمة رحمان
فكم عندها تمنى دَماء وأدمع ... وكم من ضجيج للحجيج وإرنان
وكم بمحاني الجزع بين ربوعها ... تجاذب ظل الأيك ارام غزلان
هناك بذاك الشعب قد كان مولد ... به بشر الأرسال في كل ما آن
وشاد به إنجيل عيسى بن مريم ... كما شاد توراة لموسى بن عمران
بمولد محبوب الإله ومن له ... ومن أجله تكوين سائر أكوان
بمولد خير المرسلين محمد ... نبي له قد زخرفت دار رضوان
بمولد من حاز السيادة كلها ... على كل خلق الله متنى ووحدان
إذا جمع الله العباد بموقف ... وطافت بهم إذ ذاك أمواج نيران
ولاذ به الأشهاد قال أنا لها ... وقال جميع الرسل نفسي وجثماني
مهاجره في طيبة براغم ... كثير لأنصار على الحق أعوان
صناديد من أبناء قيلة منهم ... معاذ وعباد وبشر وسعدان
تخوض غمار الموت منهم غطارف ... كأنهم في الروع آساد خفان
هنالك غيث الوحي حل نطاقه ... فأفعم أحشاء القلوب بإيمان
هنالك دين الحق أقبل نوره ... وأدبر دين الإفك عباد أوثان
مواطن خير الرسل مسكن أهله ... ومضجعه عند انتقال من الفاني
فتربته قد أجمع الناس أنها ... أجل من العرش العظيم بإيقان
فكم خطر الروح الأمين خلالها ... وكم دارس المختار فيها لفرقان
وكم جاءها مستلئما متقنعا ... فزلزل بالأحزاب أحزاب شيطان
فأعظم بجاه المصطفى وبقدره ... وأكرم بمبعوث إلى الإنس والجان
ومن كان جبريل الأمين ملازما ... لخدمته في السر منه وإعلان
خلاصة سر الكون منبع نوره ... سعادة مشقو هداية حيران
هو القلم الأعلى الذي كتبت به ... كوائن ملك الله في كل ديوان
فيا آدم الأرواح يا بذرة النهى ... ويا علة الكونين يا عين أعيان
صدعت بأمر الله وحدك واثقا ... بمولاك لا واهي الفؤاد ولاوان
وجالدت أهل الجاهلية بالظبى ... وجادلتهم فاستعتبوا بعد عصيان

مولانا نصره الله وبين دخوله لمراكش، فلم يبال بهم ولا أخذ لهم أهبة، بل هجم عليهم ونزل بهم نزول الصاعقة، والداهية الطارقة، والمصيبة العامة الدافقة، فلم يمض إلا ساعة من نهار حتى سيقوا إلى مراكش مقرنين في الحبال، والسلاسل والأكبال، حتى ضاقت بهم السجون، ولولا أن مولانا نصره الله أمر الجنود أن لايقتلوهم ما كانوا من الاستئصال ينجون، ولا بقيت لهم باقية، ولا وقتهم واقية، ومولانا نصره الله راعى فيهم عهد الأسلاف، ونظر نظر الرحمة الى أكثرهم الضعفاء الخارجين من دائرة الخلاف، فأقال لهم هذه العثرة، فلم يرق من دمهم قطرة، وهذا من حلمه الذي هو أخص أوصافه، على أنه لا يلام لو تظاهر بالانتقام من الظلمة على انتصافه، وقد شرط عليهم مولانا نصره الله رد المظالم التي ظلموها، وغرم الأموال التي أتلفوها وأكلوها، فأدوا بعضا من ذلك وأكل العمال جله، وان شئت فقل كله، وغاية ما عاقبهم به مولانا نصره الله انتزاع البلاد الثلاثة التي لايقدر على انتزاعها منهم الا الله تبارك وتعالى، وهي بلاد الودان وبلاد آيت سعادة، وبلاد أغواطم، وهذه البلاد من نعم الله التي أغنتهم وأطغتهم، وبها كانوا يضادون قبائل أهل سوس الحوزية، (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) لما كانوا عن الحق لا هين، وعن الباطل غير متناهين، نعوذ بالله من سلب النعم، وفجأه النقم.

ولما حل مولانا نصره الله حضرته المراكشية حلول الشارق أسعد أبراجه، وتصاعده الى أعلا أدراجه. وحضر عيد المولد الشريف المبارك المنيف رفعت إلى حضرته العالية، على العادة الماضية، هذه القصيدة وأشرت فيها إلى ما أسلفت شرحه، وجلوت صبحه، وهي هذه :

تذكر أزمان مضين وأحيان ... قضيت بها دين الشبيبة أحياني
زمانا حباني فيه شرخ شبيبتي ... مناي فأعطاني ففَيَّضَ أعطاني
أجر به ذيل الشباب وأرتدي ... بأسمح من فرع الذوائب فينان
وألبسني ريعانه كل ملبس ... بَهِي وأوطاني مآلف أوطاني
إذا ذكرته النفس يوما ترنحت ... ترَنّح مرتج المعاطف نشوان
سقى الله هاتيك الليالي وأهلها ... وبوأهم أفياء روح وريحان
رويدك إن القلب لج به الهوى ... وما في سراب من شراب للهفان

له همم دراكة وعزائم ... تفوت مباغيها مطالع كيوان
أعد عتادا للعدا بعساكر ... مسومة ركبان خيل ورجلان
ليوث افتراس كلما زأرت على ... ديار أناس زارها كل أحزان
فوارس تغتال النفوس كأنها ... إذا صبحت أرضا عصائب عقبان
ترابها كمثل السيل يخسف تحتها ... تراها وترمي كالأثير بشهبان
تصول بأسياف تحيض ذكورها ... وتسطوا بأرماح كأنياب ثعبان
وتنشر رايات تنوش ذيولها ... رياح سعود من رخاء سليمان
إذا اضطربت في الجو قال هبوبها ... ألا إن نصر الله والفتح وافاني
أيا ابن الملوك الأكرمين ومن بنوا ... مباني العلا والمجد أرفع بنيان
ويا ابن هشام والهمام الذي به ... يهان مسماه من أبناء مروان
لك العز لا ما تدعيه قياصر ... لك الفخر لا ما تدعي آل ساسان
فقد شاعت الأخبار من غير واحد ... وليس بأفاك وليس بميّان
يقيم دليل الصدق أنك فاطمي ... وأنك مهدي بآلة حسبان
ولا شاهد أجلي وأوضح عندنا ... كقتلك للكذاب كذاب سفيان
ستملأ كل الأرض بالعدل بعدما ... غدت كلها ملأى بجور وعدوان
وتملك من أهرام مصر ونيلها ... إلى الهند أو ما كان خلف خراسان
فمد إلى الاقطار كف تناول ... توافيك طوعا أو تقاد بأرسان
بعزة رب العالمين وحوله ... وقوته والحق ليس ببهتان
فدم للعلا تحيي موات رسومها ... ودرس علوم من حديث وقرآن
تقيم لنا في كل عام موالدا ... مشرفة بالمصطفى خير عدنان
تفيض علينا فيه كفك أنعما ... مدفقة تحكي تدفق خلجان
وتلبسنا من كل خير مطارفا ... طويلة أذيال بسيطة أردان
ولا زالت الأعياد تهدي سرورها ... لحضرتك العليا المعظمة الشان

وجئـت بمقبـول العقـول وأذعنـت ... وقد سعدت واستبشرت كل إذعان
وباهلـت بالحـق المبيـن معانـدا ... فأحجـم إرهابـا كرهبان نجران
سموت إلى السبع الطباق وجزتها ... إلى حيث لا حدْث سواك ولا ثان
وحيث لأقلام التصاريف والقضا ... صريـف لذيـذ سمعهـن لآذان
وصليت بالأملاك والرسل كلهم ... إماما فبان الفضل من غير كتمان
عليك صلاة مثل قدرك تنثني ... إلى العمرين مع علي وعثمان
ويشمل كل ألآل والصحب بشرها(14) ... وأزواجك اللاتي حظين برجحان
ألا يا رسول الله جئتك مادحا ... رجاء ثواب الله عفو وغفران
ألا يا رسول الله جاهك واسع ... عظيم إذا ما الأمر ضاق وفاجاني
فكن لي شفيعا في القيامة عندما ... تجلى إله الخلق في حال غضبان
وكن لي مجيرا عند ذاك فلا أرى ... تطاير صكي أو تقلص ميزاني
وكن لي في دنياي كهفا وموئلا ... أعوذ به من كل خسف ورجفان
وخذ بيدي خير الملوك إمامنا ... سليلك أولى الناس منك بإحسان
ومد له أطناب عزك واحمه ... حماية آباء كرام لولدان
وتوجه تاج النصر وهو مكلل ... بكل قبول من علاك ورضوان
وأيده تأييدا مبينا وكن له ... معينا فلا يحتاج يوما لأعوان
فقد قام بالدين الحنيف مجاهدا ... عداك ومن يعزى لكفر وعدوان
وشتت شمل المفسدين من الورى ... فليس يرى كاسيهم غير عريان
ومزقهم في الأرض كل ممزق ... وغادر أرواحا لهم دون أبدان
بعز أمير المؤمنين محمد ... ينادي إذا ضاق الفضا كل لهفان
بعز أمير المؤمنين محمد ... نلوذ فلا نخشى إخافة خوان
بجود أمير المؤمنين محمد ... نقابل إمساك السماء لأمزان
فدولته كالروض طيبا ومنظرا ... تمايح دوح أو تفاوح ريحان
وأيامه تفتر عن ثغر باسم ... وتسفر عن وجه كأزهار بستان
لقد أينعت آمال كل مؤمل ... لديها ونال المبتغى كل إنسان
ودولته زادت بهاء وبهجة ... على ما عداها من ممالك عمران
بها رفعت للملك أقوى دعائم ... بها أظهر الإسلام غرة جذلان
بها أمن الله البلاد من الردى ... فلم يخش قاص من مخاف ولادان
هنيئا لنا أهل المغارب إننا ... نفاخر من يبغي الفخار بسلطان
فمالكنا سلطان كل متوج ... إذا ابتهجت يوما ملوك بتيجان
هو الملك المنصور لا شك أنه ... أجل ملوك الأرض عجم وعربان

(14) في (م) نشرها بالنون.

[illegible] وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

محبنا الأرضى الأود الشيخ الفقيه العلامة البركة الخير الدين السيد محمد بن احمد اكنسوس حفظك الله
وسلام عليكم ورحمة الله موجود بخير الله وبعد وافانا كتابك وكان أعجب ما افاده مالي بعد التيمن به
حسن دعائك لنا وتبشيرك إيانا بان هذه المحلة السعيدة محروسة مظفورة محفوظة مصونة كما هو المراد
والمقصود آيبة بالسلامة والغنيمة والفتح [illegible]
[illegible]
وان ولدك البارك بتسال الطالب عبد الله اكلمه الله كاتبك ايضا [illegible] وانك عافاك الله على
حاله من الضعف والهرم نرجو الاحسان والتفضل بعوايد الكرم أمـــــا عانى لنا من دهور
النفس ما ادخرناه وانفع ما ثلثناه وذا الذي الضروري والله يشهد ان النية قديما وحديثا ونصيحتك وامـــا
البنتين حفظها الله فذلك بحول الله دريتكم وانفع ماله من واقع وأمـــا الحزب الرشيد فانه كلفنا به العامل جزما
والزمناه جماعة ورئيسه ونقلدوا ملا الدار حتما حتى ما افتى حتمه وأمـــا ما كتبه الولد البار
فلعله ممن في الاخبار وانه عندنا ممن المصطفين الاخيار وامـــا ما انت عليه مما اشرت اليه فنسال الله
ان لا يشقيك بنا [illegible] عليك حنانا وحبا [illegible] الشفا وبعثنا عليك [illegible]
المسنون تعجيل شفائك وارائحة [illegible] 1000 [illegible] صحبته ماية مثقال
اكراما لك وهدية والقبول من شيم امثالك [illegible] ولا تنسنا من صالح دعائك [illegible]
وانت والحمد لله من حملة العلماء [illegible] والسلام 24 ربيع [illegible]

وفي هذا العام وجه مولانا نصره الله ولده الأبر، وخليفته الأسعد الأغر، مولانا الحسن(*)، الذي أنبه كل المحاسن من الوسن، وقاد جميع المحامد برسن، للقطر السوسي بالعساكر والجنود، والأولوية المنصورة والبنود، بعد رجوعه من حركته المباركة التي هي له طالعة الفتح، ومقدمة الربح، وهي التي ابتدأ بها أعماله، وخبر بها مولانا نصره الله مأمَّ سعده فاستبان كماله، وذلك في توجيهه إلى القبائل الجبالية المتكاثرة مثل هنتيفة وأعتاب وولتانة ومن انضاف إليهم من البرابر ومن جاورهم من أعراب الصراغنة وبني مسكين وغيرهم، فإنهم قد انتشر نظامهم بما غشيهم من نيران الفتن التي أضرمها أولاد أحمد بن القائد كما قدمنا، فأصلح مولانا الخليفة المذكور جميع ذلك ومهده، وأخمد نيرانه وسدده، وفرحت تلك القبائل كلها بوروده، وأذعنوا للحق بلا مشقة ولا كبير عمل ولا حرب ولا ضرب، ورجع مؤيدا منصور اللواء، وظهرت لمولانا نصره الله أمارة نجابَته وسعادته، فلما توجه لسوس وجده على أشد ما يكون من المنعة كما هو

(*) وعلم هامش ذكر الخليفة المولى الحسن اذكر هنا ظهيرين شريفين يدلان على العلاقة بين مؤلف الجيش ومولانا الحسن قدس سره وكانت العلاقة شديدة الى ان كان مولانا الحسن يزور الفقيه في داره حسب ما يفهم من الظهيرين.

الحمد لله وحده

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

محبنا الأغر الارضى الاود الشيخ الفقيه العلامة البركة الخير الدين السيد محمد بن احمد اكنسوس حفظك الله وسلام عليكم ورحمة الله يرجود سيدنا نصره الله وبعد، والفانا كتابك فكان احب ما أفدناه بعد التبرك به حسن دعائك لنا وبشراك ايانا بأن هذه المحلة السعيدة محفوظة مضمونة محوطة مصونة ظافرة بالمراد والنجح ابية بالسلامة والغنيمة والفتح. وان ولدك البار كاتبنا الطالب عبد الله أصلحه الله كاتبك ءانفا بمزيد اعتنائنا به وانك عافاك الله على حالة من الضعف والهرم توجب الاحسان والتفضل بعوائد الكرم.

اما دعاؤك لنا فهو والله أنفس ما ادخرناه وأنفع ما تأثلناه وذلك الظن فيك والله يشهد انا لنحبك قديما وحديثا ونصطفيك. واما البشرى حققها الله فذاك بحول الله وبركتكم واقع ما له من دافع. واما الحرث الدكالي فانا كلفنا به العامل جزما والزمناه حصاده ودرسه ونقله وأصلا للدار حسبما طبق ما اقترحته. واما ما كتبه الولد البار فلقد صدق في الاخبار وانه عندنا لمن المصطفين الأخيار. واما ما أنت عليه مما اشرت اليه فتالله لتأسفنا وتألمنا عليك حنانا وحبا وودونا لو أن بيدنا الشفاء فصببناه عليك صبا، لكن الله سبحانه المسؤل تعجيل شفائك وإزاحة سائر ادوائك عنه وطوله، آمين، ويوافيك صحبته مائة مثقال اكراما منا وهدية، والقبول من شيم أمثالك شنشنة أخزمية، ولا تنسى من صالح دعائك كل حين فأنت والحمد لله من جلة العلماء الصالحين وعلى المحبة والسلام.

14 ربيع 2 - 1290

الحمد لله وحده

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه

مستقر هذا الرقيم الكريم المعهود بالطوابين والخواتيم راحة ماسكه المنوح له كاتبنا الارضى الطالب عبد الله اكنسوس الجمقري يستجلى من مسطور طروسه ويستجنى من جنى غروسه اننا بعون الله خلعنا عليه حلل الامتنان والتوقير وخلعنا عنه ملابس الامتهان والتحقير وحاشيناه من جميع سماة العوام وادنيناه لظلال جانبنا العالي بالله مدى الدوام وحررناه من جميع الوظائف والكلف وأقررناه على ما عهد لمن مضى من سلفه بحيث لا يسأم جانبه سوء ولا هضما ولا يحام حماه خسفا ولا ضيما رعاية لتحليه بالعلم الشريف وملازمته خدمتنا الشريفة منذ نيط به التكليف تحريرا كاملا شاملا يشمل ولده المهدي وأخاه الطالب العربي وصهره المرابط الطالب الزوين وجميع دورهم واملاكهم ومساكنهم ومحالهم وأماكنهم. تأمر كافة عمالنا وولاة أمرنا بتنفيذه وأعماله وعدم رفضه أو إهماله. صدر به أمرنا العالي بالله في 17 رجب الفرد عام 1300.

فليس بكائي من جفاء خرائد ولا شادن قد حيل دون مزاره
ولكن شوقي للعلوم وأهلها علوم حديث المصطفى وشعاره
فذاك مثير الشوق بين جوانحي وحرقة قلبي من شرارة ناره
وذلك علم كان للدين معقلا وخير سبيل يهتدى بمناره
ففيه لعمر الله نور هداية لمن ضل في ليل الهوى واعتكاره
وفيه شفاء للقلوب من العمى وفيه حياة للنهى باعتباره
جزى الله بالخيرات جامع شمله محمد الجعفي حامي ذماره
أتاه على حال تسوء لأنه تشابه فيها زيفه من نضاره
فماز صحيحا من عليل وأصبحت مجالسه تهنى بجبر انكساره
سقي روحه سحب الرضى كل ساعة ولا برحت مخضلة بانهماره
وقابل بالحسنى خليفتنا الذي ألاح له بدرا بعيد سراره
يقيم له في كل عام محافلا مزينة من حسنه واحتضاره
تدارسه الأعلام وهو إمامها ويذهلهم بالفهم عند ابتكاره
وإن وقفوا عند انغلاق عويصة أبان صوابا في مقال اختصاره
هو البحر لو أن البحار مقيسة إليه لكانت نقطة لانفجاره
ولو أن نجم الأفق كانت مداركا لخافت منالا من مشق غواره
أقام لنا سوق العلوم فأصبحت مضاعفة الأرباح عند تجاره
ورفع بين الناس أقدار أهله فجرر كل فضلة من إزاره
وأعطى فما أكدى وحاشا جلاله وأغنى وأقنى من أتى لجواره
وعمت عطاياه البقاع كأنما يروضها صوب الحيا بانتشاره
فلو أبرقت ريح الشمال وأرعدت ورامت تباري كفه لم تباره
فلا جود فيما قد سمعنا لغيره وإن ضرب الأمثال عند افتخاره
وكيف يضاهي من يجود بنفسه مهينا لها في الحرب أو في المكاره
فهذا الذي قد أدرك المجد والعلا صغيرا بحال فيه عجز كباره
تسنم أثباج الزعامة فاستمى إلى مستوى للعز تحت شفاره
وأركب خيل الله كل مدجج يشن الردى فوق العدا بمغاره
كتائب خضر بالحديد إذا رست على أرض قوم زلزلت بشراره
تظن صهيل الجرد فيها رواعدا حداها نئيم الريح عند اعتصاره
أهاب بها الصقر الهمام محمد فجاءت كصقر في انقضاض مطاره

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله



منتقى من الأجل الأنبه المكرم المعروف بالهواسير والفقراء منهم زاهية فاسيه الممنوح له كتابنا ابن زكى
الطالب عبد الله اكنسوس الجعفري يستعلي من مشهوريهم وسره وينتهي من جنسهم وسره أننا بعون
الله خلعنا عليه حلل الاحترام والتوقير وخلعنا عليه ملابس الإنعام والتخفيف وحمايته
من جميع تكاليف العوام وأدلينا له بظلال جانبنا العالي بالله مدى الدوام وحررناه من جميع
الوظائف والكلف وأقررناه على ما بيده مما هو ملك له من سلف بحيث لا يسام جانبه سوءا ولا
هضما ولا يضام حماه خسفا ولا ضيما رعاية لتحليه بالعلم الشريف وملازمته خدمة الشريعة منذ
نيط به التكليف نحو أربعين عاما فما يشمل ذلك الطالب المذكور وأخاه الطالب العربي وصهره
أبا رابطة الطالب الزويتني وجميع ذوي رحمهم وأملاكهم ومساكنهم ومحالهم وأماكنهم كما كان
عمل السلف وكذا أمرنا بسهمه وأعماله وعدم رفضه أو إهماله صدر به أمرنا العالي بالله في 17
رجب الحرام عام 1355   الحمد لله مستقلا للغير (؟)

شأنهم في غالب الأحوال عند طول العهد بتدويخهم بكثرة المحالّ التي تجوس خلال الديار، وتحول بينهم وبين التمكن من الاختيار، فلما ورد عليهم مولانا الخليفة السعيد أقبلوا إليه يزفّون لما رأوا من حسن خلقه ويمن طلعته فوق ما يصفون، وأكثر مما كانوا يعرفون، فأدوا جميع ما توفر عليهم من زكوات أموالهم ومواشيهم وغللهم، فجمع تلك الجبايات التي لا تعد، ولا توصف ولا تحد، فرجع بالسلامة والغنيمة، والسعادة الجسيمة، ووجد مولانا المظفر بالحضرة السلطانية المراكشية ففرح بوروده غاية الفرح، وأمر بركوب الجنود لملاقاته، والتهيّؤ لموافاته، فكان دخوله للحضرة موسما عظيما، وقدومه قدوما مباركا كريما، وكان مولانا نصره الله وجه أخاه مولاي عبد القادر يربط بالمحلة والعسكر على أهل الدير الذين أطلقوا الأعنة في مجال الفساد، لما سمعوا فساد الرحامنة بوساطة عنصر الغواية، والغي والطغيان أولاد بو السبع، فإنهم منشأ كل فتنة، وقعت في الحوز من قديم الزمان، وكان السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله أخرجهم منها أذلة وهم صاغرون، ثم تراجعوا في الفتن التي كانت بعد موته، وفي هذه أكثر، فإنهم أعوان لكل من أراد الفساد وضعف عنه، وإخوان لكل شيطان مريد يستعاذ منه، فهم الذين أشأموا متوكة حتى خربت ديارهم، وهم الذين أوقدوا نار الشياظمة فأحرقتهم نارهم، وكذلك مزوضة وجدميوة، فهم مساعير تلك الشرور كلها، ومصادر جميع الفتن قلها وجلها، وكان الذي أمسك زمام الأحكام السلطانية في هذا القطر وقطر سوس الذي وراء الجبل إنما هو القائد الأجل السيد الحاج عبد الله بن الرجل الصالح القائد السيد عبد الملك أبه الحاحي، فإنه ما بقي جانب من جوانب المغرب إلا مال، ولا قبيلة من القبائل إلا دخلها الزلزال، ماعدا قبيلته، والناس كلهم متشوفون إليه، فلما رأوا ثباته واجتهاده في الطاعة، ولم يروا ازوراره ولا التفاته أمسكوا أعنتهم في الظاهر، حتى قدم مولانا نصره الله، فأمر نصره الله أخاه المذكور أن ينزل في سفح الجبل على رأس الحية الذين ظهروا في ذلك كل الظهور، وهم مزوضة وأولاد بو السبع المجاورين لهم في البسيط، فنزلت المحلة هنالك نحو سنة كاملة، فكان ذلك من أكبر وجوه المكيدة، فكل قبيلة من تلك القبائل تظن أنها هي المقصودة، فتسارعوا إلى أداء ما وظف عليهم من المغرم، وهو شيء كثير، ولم يشقل

عليهم ذلك لأجل الخوف الذي خامر أجوافهم مع كثرة المؤن واللوازم لتلك المحال الكثيرة، والعساكر المظفرة الخطيرة، فلم تقم عليهم الجنود حتى أضعفوا قواهم، وأوهنوا مسعاهم، فرجعت المحلة سالمة بعد المدة المذكورة.

وفي عام ثمانين ومائتين وألف رجع مولانا المظفر نصره الله من مراكش لحضرة فاس، وأقام في مروره على قبائل تادلة بجنوده وعساكره المنصورة، حتى أخمد نيرانهم، وخلص من إذايتهم جيرانهم، وكانوا قد عتوا في الأرض عتوا كبيرا، فثبرهم الله سبحانه بصولة مولانا المظفر تثبيرا، فقبض من رجالهم الصناديد عددا كثيرا، وغرمهم الأموال الثقال، مع ذلك الاعتقال، ولم يرتحل عنهم حتى طهرهم وأنقاهم، ولولا المرابط البركة السيد ابن داود(15) حفيد الشيخ سيدي المعطى بن الصالح ما أبقاهم، ثم لما بلغ السلطان نصره الله رباط الفتح أقام بالدار الجديدة، المباركة السعيدة، التي ابتكر بناءها، وجعل المحاسن كلها ساكنة أحوازها وأفناءها، وهي فيما بلغنا من أخوات البديع، بل تزيد عليه بالانفراد بالمحل الرفيع، الذي يشرف المقيم فيه بفضيلة الجهاد، ويرجو المفاز بالمثوبة المنبجسة فيه بالغمائم العهاد، وترفع فيه أعمال المقيم، الجاري على الصراط المستقيم، وقد أباح نصره الله الدخول إلى ذلك القصر السعيد، الذي يقرب منه كل أمل بعيد، لأعيان حضرة الخلافة من الوزراء والحجاب، وأهل المراتب والأتباع والكتاب، وكبراء الدولة من الأجناد والعساكر، وكل صالح وتال وذاكر، فأفاض عليهم الخيرات، وأنواع النعم والمبرات، فجعلها وليمة تجوس السعادة خلالها، وتلتزم البركة ظلالها، فشاهدوا من تلك الآثار العجيبة ما بهر أبصارهم، وأوجب عن إدراك أوصافه انحصارهم، وقد أحسن مولانا نصره الله كل الإحسان في تعمير ذلك الثغر المبارك الذي هو سرة البلاد، وغرة الفتح المبين عند الجلاد، في جوار جده المجاهد الناصر لدين الله تعالى سيدي محمد بن عبد الله، فلو رأى رحمه الله ما شيده مولانا المظفر نصره الله لاقتضى منه العجب العجاب، وعلم أنه ترك الأمراء الفضلاء الأنجاب، وأن له زرعا يغيظ الكفار نباته، وخلفا مثل

---

(15) ابن داوود حفيد المعطي بن الصالح، وابن داوود اسمه الشخصي وذلك لأن والدته من أولاد سيد ابن داوود، فسمي بذلك تبركا، كان رحمه الله سالكا زاهدا متقشفا ت 1307هـ 1889م بأبي الجعد، "الإعلام" ج1 ص193.

الجبال رسوخه في الدين وثباته، ولو حيي يعقوب المنصور الذي أسسه، ورأى ما صونه مولانا المظفر وحرسه، لقال الآن صار الرباط رباطا، وازداد دون غيره من ثغور الإسلام اغتباطا، لما أصبح للأسد الهصور عرينا، وأضحى لمدينة السلام قرينا، وأظهرت فيه الدولة المحمدية آثارها، ونثرت عليه الأبهة الهمامية نثارها، فصارت تحاكي المباني المحمدية المراكشية، والإسماعيلية المكناسية، إلا أنها تفوقها بأنها في نحور العدو عتاد، ولسرادق العز الأثيل أوتاد، وعندها للبر والبحر صدور وأعجاز، ومنها إلى الشرق أو الغرب مجاز، فأجزل الله الثواب لأمير المؤمنين على حسناته، وبارك للمسلمين وله في حركاته وسكناته.

ولما استقر مولانا نصره الله بالحضرة الفاسية في ظلال السعادة وجه خديمه القائد محمد الشرقي ولد با محمد مع عامل سلا القائد محمد بن سعيد لجنس الفرنصيص لأمور اقتضاها الحال في شأن ولد حمزة ولد الشيخ بوسماحة القائم على الفرنصيص في عمالة الجزائر، فإنه شوش عليهم وروع سربهم فطلبوا من مولانا نصره الله أن ينظر كيف يكفه عنهم مع أنه ليس في ولايته ولا في إيالته، فوقع الكلام في ذلك بينهم وبين مولانا وتكررت الرغبات منهم، فوجه مولانا عامليه المذكورين لحسم مادة الكلام في هذه القضية، فذهبا لذلك ففرحوا بهما وأطالوا مكثهما عندهم في الكرامة التامة، وراجعوا مولانا نصره الله بالمكاتبة مرارا حتى انفصل الأمر على الوجه الجميل، فرجع الوفد مقضي المآرب، ثقال الحقائب، وذلك عام اثنين وثمانين ومائتين وألف.

وكان مولانا المظفر نصره الله لما صدر عن مراكش ترك ولده البار، المتوج بالمهابة والإكبار، أبا علي مولانا الحسن خليفة، فنهض بأعباء ما حمل، وهو بأثواب السعادة مدثر مزمل، ولاحت عليه من رضى والده المنصور المظفر أنوار، فلم يتعاص عليه من الإيالة أنجاد ولا أغوار، مع اختلاف الأحوال وتعاور الأطوار، ولم يشغله شئون الخلافة المترادفة آناء الليل وأطراف النهار، ولا ما في قصوره السلطانية من الحدائق والأنهار المطردة والأزهار، عن وظائف الدين من نوافل الخير من صلاة وصيام وتلاوة، وكما حدثني بذلك بعض بطانته، وقال إنه يجد لذلك في الخلوات

لذة وحلاوة، وهذا من عطاء الله تعالى الذي لا يدركه الإنسان إلا بالسابقة الأزلية، لا سيما في سن الحداثة الغالبة الطبيعية، والانغماس في الترف والرفاهية، فسبحان واهب الأرزاق الحسية والمعنوية.

ومن أدب مولانا الخليفة المذكور مع والده المظفر أنه لا يبرم شيئا مما جل أو قل من أموره إلا بعد المشاورة مع أنه مفوض له كل التفويض في جميع الأمور، ومراده بذلك أرضاه الله ألا يصدر منه ما عسى يغير خاطر والده نصره الله في الباطن وهو لا يعلم، وهكذا كان مولانا المظفر نصره الله مع والده المؤيد لا يقضي قضاء إلا بأمره مما هو بصدده، فجعل الله جزاءه من ذريته الطيبة وأفلاذ كبده، وكذلك لا يجني إلا ثمار ما غرسهُ الإنسان، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

وفي شوال من عام اثنين وثمانين ومائتين وألف، مرض مولانا المظفر نصره الله مرضا شديدا حتى وقع الخوف عليه، وتوهم من يباشره أن الأجل متسرع إليه، وسبب تلك الخشية، أنه أصابته غشية، ثم أفاق بعد مدة قريبة، وتركت به حالة مريبة، فأفرق من دائه وهو شديد الوهن، مع تحقق السلامة وانفكاك المرتهن، فلم تزل العافية تنزل بمولانا على سبيل التدريج، والنفوس تنبسط بتيقن التفريج، حتى كملت بحمد الله قوته، واضمحلت علته، وفرح كل مؤمن صالح باستقلاله، واستمر كل شيطان مارد في أغلاله، وقد كان الناس أشرفوا على هوة الإتلاف، وهم كل متفق بالاختلاف، واشْرَأَبَّ أهل الذعارة إلى معاودة عوائدهم، والنفخ في جمارهم الخامدة في مواقدهم، وفرحوا بما أصاب مولانا نصره الله من المرض واعتراه، وأرجف كل مرجف واختلق ما يوافق هواه وافتراه، حتى رجت الأرض رجا، فلم يخص ذلك الهول موطنا ولا ترك فجا، وصار الناس كمن أظلم ليله، وأعصفت رياحه، وهم بالانطفاء مصباحه، فلما تفضل الله الكريم على خليفته بملابس العافية، عادت الموارد المتكدرة صافية، وقرت النفوس بعد انزعاجها، واستقامت الأمور من اعوجاجها، وانكمشت ضبابُ النَّافقَاء في الأنقاب، خوف الصيال من أمير المؤمنين والعقاب، ولما ظَهرت من علة مولانا نصره الله أمارات الإفراق والإبلال، وإقبال الصحة وانهزام الاعتلال، كتب حجاب الحضرة المولاوية لخليفتنا المستنصر مولانا الحسن

بمراكش يبشرونه، ويهنئونه بسلامة مولانا المظفر ويسرونه، فلما وردت الرسل بذلك أمر مولانا الخليفة أعزه الله تعالى بإخراج المدافع والأنفاض، فشاع بذلك خبر سلامة مولانا وعافيته واستفاض، فلم تزل المدافع تخلى حتى اهتزت الجبال الرواسي، ولانت القلوب القواسي، فقام الناس كلهم إلى إقامة النزاهات والأفراح، وكل موجب للانبساط والانشراح، طائفة بعد طائفة، وقبيلة بعد قبيلة، وكان مولانا الخليفة أعزه الله هو الذي ابتدأ بذلك وانتهج سبيله، فإنه دعا الناس الدعوة الجفلى، فلم يتخلف ممن حضر بمراكش أحد من العقلا، فأمر أيده الله بتهيئة جنان رضوان، ففتحت أبوابه، وفرشت قصوره وقبابه، وفجرت أنهاره الدافقة، حين فاحت أنواره العابقة، وضربت فيه المضارب السلطانية، التي هي من أبهى زينة الحياة الدنيا الفانية، فحضرت وجوه الدولة وأعيانها، ورؤساء القبائل وربانها، وكان ذلك باثر عيد الأضحى قبل انفصال من حضره من العمال وغيرهم، ومن قدم بعده باثرهم، بأمرهم أو بغير أمرهم، فلما حضر ذلك الجمع الحفيل، الشبيه بالسيل الجفيل، أنزل كل واحد بالمحل المناسب له، فامتلأ ذلك الجنان المتسع حتى عم الازدحام فجاجه وسبله، ثم اندفقت عليهم من الدار المولاوية سيول موائد الطعام الفاخر، ما عم الأول منهم والآخر، حتى صار في جميع الرحاب تدوسه الأقدام، وتكنسه الوزعة والخدام، هذا للعامة المطلقة، والأوزاع الملفقة، وأما الخواص والوجوه، ممن يأمله الآمل ويرجوه، فلهم الحظ الأوفر من العناية، والخطاب بزائد الترحيب وصريحه دون كناية، بالفرش الحريرية المذهبة، والمقاعد العالية المطنبة، والرش بمياه الأزهار، ومباخر الطيب، وكل معنى لطيف ومنظر عجيب، ومسمع لذيذ، وموطئ رطيب، وقد أحضر كل أحد ما شاء من آلات اللهو والطرب والفرح، على حسب ما اشتهى واقترح، فلا تكاد تسمع في تلك المجالس والمغاني، إلا أصوات المثاني، والمثالث وأنواع الأغاني، فلم يبرح الناس الخواص والعوام في ذلك الازدهاء ثلاثة أيام، ومولانا الخليفة أعزه الله مع إخوانه وبني عمه في القبة المحمدية الصويرية، المشرفة على مجاري الخيل وملاعبها، ومطاردها ومضامرها ومتاعبها، وفي كل عشية يركب من بالحضرة على عتاق الخيل المسومة، والصافنات الجياد المقومة، وقد لبس كل من فرسان ركابها زينته المدخرة، وما تضمنته خزانته مما أعده للأيام التي يبرز فيها

مفتخرة، فلما انفضت هذه النزهة الشريفة، ذات الأظلال الوريفة، شرع أحد عاملي الرحامنة في مثل ذلك، فبالغ حتى جاوز مقدوره، فأعد جفانا كالجوابي، وقدور كالروابي، فدعى الناس دون تنقير، ولا تعظيم لأحد ولا تحقير، فأفاض عليهم المطاعم البدوية، التي لا تكاد تقدر عليها أهل الحضرية، ويكفيها عند الاحتجاج، ما فعل في وليمة الحجاج، ثم تتابع الناس في نزاهاتهم، وإظهار أبهاتهم، وانتخاب دواعي الأفراح، ومقتضيات الازدهاء والانشراح، فما يمر أحد ببستان ولا حديقة، ولا روضة أنيقة، إلا ويرى أو يسمع جماعة زاهية، أو طائفة منبسطة لاهية، وهكذا سمعنا عن الحضرتين الفاسية والمكناسية، وأنه عم ذلك كل ذي كف سيالة كاسية أو جاسية، ولم يخص عارية ولا كاسبة، فرحا بشفاء مولانا الإمام، أدام الله عزه وعافيته لحماية الإسلام، وكان مرض مولانا المظفر نصره الله خفيفا في التصوير، وإن كان خطيرا في المصير، لو كانت المباشرة لفحول الأطباء المهرة، والأساطين المشتهرة، والمرض المذكور فيما بلغنا إنما هو المسمى بالحلاقم، وهي نوعان : ظاهرة وباطنة، وكلاهما أمر من العلاقم، والظاهرة أخف من الباطنة، الخفية الكامنة، والأولى يكفي في علاجها الترطيب لورمها الظاهر عند اللمس بالاستحجار، وأما الثانية فإن بحرانها بالانفجار، ولما كان خفيا لا تدركه أدوية الإنضاج، كان أكثر شدة عند إرادة الإدخال في الحلق والإخراج، ولذلك كان داء خطيرا، وعارضا عسيرا، وكثير من الناس يعتريه كثيرا، وكان أخونا في الله الفقيه العلامة الوزير لسان الدولة ابن إدريس في أول أمره أوان تردده في مجالس التعلم يكاد أن لا يمر عليه شهر من الشهور إلا ويصيبه، وينفجر له من داخل بعد أسبوع لكن لا يمر ذلك الأسبوع إلا وقد أشرف على الهلاك، فأضر به ذلك في ذاته غاية، ثم إني رأيت ابن الهندي ذكر في كتاب الرحمة دواء ذكر أن من استعمله يشفى منه ولا يعود إليه أبدا، فأوقفت عليه الوزير المذكور فاستعمله فلم يعد إليه بعد ذلك، وكان كدواء المسيح، وكذلك جربناه لكم من واحد فلم تتخلف تلك الخاصية المذكورة، وهو أن تذبح دجاجة وتوخذ مرارتها ويحتفظ بها ثم تطبخ الدجاجة فإذا نضجت أخذ من مرقها فتفرغ فيه تلك المرارة ويشربها العليل مع ذلك المرق انتهى.

هذا وقد كان الملوك الذين أدركناهم أو بلغنا خبرهم من هذه الدولة الشريفة وغيرها لهم العناية التامة والاهتمام الزائد بالعلماء الأطباء أكثر من غيرهم، وكانوا يلازمونهم حضرا وسفرا، ويتفقدون أحوالهم صباحا ومساء، ويستخبرون من طبائعهم ومشاكلهم ومشاربهم ومناكحهم ومضاجعهم، فيصلحون ما حضر من ذلك، ويستدركون ما فات عن قرب ولاينا في هذا التوكل على الخالق المنفرد بالتدبير، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء،(16) وقد شرع سيد المتوكلين صلى الله عليه وسلم التداوي، وكان يستعمله في نفسه، ويأمر به غيره، حتى قيل إن القدر التي تطبخ فيها أدويته عليه السلام لا تكاد تنزل عن النار، وذلك تعليم وإرشاد منه عليه السلام لأمته المرحومة، وأخبار الملوك القدماء وإن كانوا أئمة علماء مع أطبائهم معروفة من محاسنهم كأبي جعفر المنصور، وولده المهدي، وولده الرشيد، وولده المأمون وغيرهم من الدول السالفة، وكذلك دولتنا هذه المباركة الشريفة، فإن أبا السلاطين مولانا إسماعيل رحمه الله تعالى كان لا يفارقه طبيبه العلامة الحكيم السيد عبد الوهاب أدراق الفاسي،(17) وكانت له مكانة عظيمة لا تدرك لغيره، بحيث لا ترد شفاعته، ولا تهمل إشارته، وكان مضربه ومنزله في الأسفار أعظم من مضرب أكبر العمال، وكذلك السلطان الناصر للدين سيدي محمد بن عبد الله، وكان له بذلك اعتناء زائد أكثر من غيره من الملوك السابقين، لأنه رحمه الله كان إذا سمع خصلة من خصال أعاظم الملوك لا يرضى لهمته إلا أن تأتي بمثلها أو أحسن منها، وكان من شأنه أن يبعث للفرائلية من بر النصارى إدالة في كل ستة أشهر، فينزل بعضهم بحضرة مراكش، وبعضهم بمكناس، وبعضهم بفاس، وأما في الثغور فأحرى، وجعل لهم مالا عظيما يصير عليهم في جميع ما يحتاجون إليه في أدويتهم وأوعيتها وأوانيها التي تعطى فيها للمرضى، وكل من أصابته علة ذهب إليهم فيعطونه ما يليق به من الأدوية مجانا، فإذا مضى ستة أشهر رجعوا لبلادهم وجاء بدلهم، هكذا حدثنا من شاهد ذلك من أهل وقته رحمه الله تعالى فلينظر الناظر ما أشد عناية هذا السلطان العظيم القدر رحمه الله تعالى بالمسلمين، وأما طبيبه الخاص فهو

(16) حديث الداء والدواء اشارة لمعنى حديث صحيح مروي لدى البخاري والترمذي وابن داوود في اللفظ.

(17) الطبيب عبد الوهاب أدراق تقدمت ترجمته.

الفقيه السيد أحمد ادراق (18) وليس من ذرية الحكيم السيد عبد الوهاب المذكور، بل هو من قومه وقبيله، وكان هذا القبيل في فاس من قديم الزمان، لهم الرياسة في هذه الحرفة، وكانت منزلة السيد أحمد أدراق المذكور عند السلطان سيدي محمد عالية البناء، في براج الاعتناء ملازما له في جميع حضراته، يطلع كل بكرة وعشية، فيفتقد أحوال السلطان وأحوال من يحتاج إلى ذلك من أهل الدار المولاوية، وكان يحمل رامته في الأسفار على أزيد من ثلاثين من البغال، وكان السلطان في حركته لتادلة أصابه مرض شديد في القصبة التي على أم الربيع، وكان طبيبه المذكور يباشره حتى أفرق من علته، وعاوده ما عرف من صحته، فأعطاه ألف دينار وقال له : هذه دية المسلمين الأحرار فقال له الطبيب مباسطا ياسيدي هذه دية مطلق الناس، يعني لا دية عظماء الملوك، فزاده ألف دينار أخرى، ولما نقل الزياني هذه الحكاية ترك هذه الجملة الأخيرة، وهي قول الطبيب مع الزيادة المذكورة، ثم حكى ما وقع لأمير المؤمنين يعقوب المنصور الموحدي مع طبيبه ابن زهر(19)، وهي معروفة مشهورة، قال بعضهم إن الزياني قال له : والله ما ذكرت هذه الحكاية عقب ما وقع لأدراق مع سلطاننا إلا ليعلم ما بين السلطانين من درجات الكرم والبخل انتهى، فانظر إلى هذا الظالم كيف يقول مثل هذا في مخدومه الذي تراب أسفل نعله أشرف من عشرة من مثل يعقوب المنصور، ولكن مسك السوء لا يعجز عن عرف السوء، ومرادنا ببسط الكلام في هذا الفصل تنبيه مولانا أمير المؤمنين المظفر نصره الله وبارك في عمره، وإيقاظ لهمته العالية إلى الاعتناء بهذه الخطة، فإنها < في الزمان الأول والدول السالفة كان لها غاية التنويه والتشريف، حتى إن العامة كانوا يقولون لما مات صلاح الدين بن أيوب وكان طبيبه غائبا لو أراد الله بقاءه ما غاب طبيبه، قال ابن خلكان ما نصه : وكان من

---

(18) الطبيب أحمد أدراق تقدمت ترجمته.

(19) ابن زهر وذكر حكايته مع يعقوب المنصور : ابن زهر أشهر من أن يعرف، له ترجمة حافلة، تعرف من مصادرها، ت بمراكش 595هـ 1198م ودفن بروضة الأمراء، أما حكايته مع الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، فله معه مواقف عظيمة، وقد قربه إليه قربا بلغ الغاية القصوى في الاعتناء بشأنه وأغدق عليه من العطايا ما يعجز عن الحصر، ومن ذلك قضيته التي أشار إليها صاحب "الاستقصا" حيث تذكّر ولده وسكنه بإشبيلية، فأمر الخليفة بإرسال مهندس ليأتوا بخريطة سكناه من إشبيلية دون علمه، فجاءوا وأمرهم ببناء المسكن بمراكش على هيئته وشكله، ونقل إليه أسرته، فقيل له : ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت، فحصل له من السرور ما لا مزيد عليه ولا يعبر عنه. "التكملة" ج2 ص555 "الاستقصا" ج2 ص180 "الإعلام" ج4 ص134.

أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفرا وحضرا انتهى، والدليل على أن العادة السلطانية كانت ملازمة الطبيب لباب الملك حضرا وسفرا قضية أمير المؤمنين يوسف بن عبد المومن لما سأل عمن بالباب من الأصحاب فقيل له إنما فيه الطبيب سعيد الغماري(20) والوزير الأعظم أحمد بن عبد السلام الجراوي،(21) فقال السلطان سبحان الله من العجائب طبيب غماري، ووزير جراوي، فلما سمع ذلك أحمد بن عبد السلام المذكور قال : وضرب لنا مثلا ونسي خلقه، أعجب منها خليفة گومي فبلغ ذلك السلطان فحلم عنه عبد المومن ولم يواخذه، لأنه كان رئيس دولتهم وإمامها وممهدها، وكان خدم عبد المومن وولده يوسف هذا، وولده يعقوب، وهو مؤلف صفوة الأدب وديوان العرب(22)، المتكفل بمآثر دولة الموحدين، ذكرنا هذه الحكاية لغرابتها›(23) وأما في هذا الزمان فقد أهملت وتنوسي اعتبارها في الحضرة السلطانية، وليس المراد مطلق من يدعى طبيبا من الجهلة الذين يأخذون المسائل من الأوراق، وهو لا يكاد يحسن تهجي الحروف، فإن هذا يجلب إلى الاصحاء كل داء، كالذي أبدل الحبة السوداء بالحية السوداء(24)، ولكن المراد الذي يناسب الحضرة السلطانية إنما هو المهرة الدهاة، لا من يبهرج بالترهات، بل ينبغي أيضا أن يكون الإمام له اطلاع على أمهات مسائل هذا العلم، كتحقق أشخاص الأدوية المفردة، ومقدمات العلم وجمله الكلية، وطبائع المطعومات المتداولة، حتى لا يغتر بأقوال كل أحد، وخصوصا فيما يخص ذاته الشريفة، مما يوكل أو يشرب، وهذا القدر هو الحامل للإمام المازري(25) رحمه الله على تعلم الطب حتى

---

(20) سعيد الغماري : الطبيب الماهر، وهو مع الجراوي صاحبا القصة الطريفة مع يوسف بن عبد المومن الموحدي، المذكورة في التاريخ ت 585هـ 1189م "المن بالامامة" ج2 ص482 تعليقا، "وفيات الاعيان" ج6 ص136 "مظاهر النهضة الحديثة" لعبد الهادي احمد الحسين ج1 ص154.

(21) الجراوي، سبقت ترجمته في أول الكتاب لدى ذكر المؤلف مؤرخي الدولة الموحدية.

(22) المعروف أن صفوة الأدب مجموعة أشعار ضاهى بها الجراوي حماسة أبي تمام.

(23) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ك) و (ف) وسقط جله من (م) أيضا.

(24) هو توما الحكيم المذكور في أبيات أبي حيان الأندلسي التي يقول فيها :

يظن الغمر أن الكتب تهدى ... أخا فهم لادراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها ... غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ... ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى ... تصير أضل من توما الحكيم

(25) المازري محمد بن علي بن عمر التميمي يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالإمام ت 556 هـ 1160م "الديباج" ص279 "الشجرة الزكية" ص127.

مهر فيه لما كان أصابه مرض وكان يباشره طبيب يهودي فقال له : ياسيدي أما تخاف من معالجة مثلي لمثلك، وأي قربة هي أكبر في ديني من إتلاف مثلك للمسلمين، فتنبه الإمام المازري لذلك واشتغل بالطب حتى دون فيه كتبا نافعة.

وفائدة الطب هو حفظ الصحة الحاصلة حتى تبقي على صاحبها إلى الأجل المسمى، وأورد الصحة الزائلة حتى تعود إلى حالها الأول، وثمرة ملازمة الطبيب كل يوم أن الإنسان بصدد تغير الأحوال عليه وتبديل حال بحال آخر، لأن دوام الحال من المحال عند المتكلمين، لأن العرض لا يبقى زمانين، والصحة لا محالة أنها عرض من الأعراض، فإذا تبدلت الأسباب المقتضية للصحة ظهرت لها أمارات في ذات الإنسان، يجدها كل عاقل فطن، فيخبر الطبيب بذلك فيدله على ما يقابل ذلك التغير حتى يرد الطبيعة إلى مجراها المعتاد، فتبقى الصحة محفوظة، هكذا كل يوم يخبر الطبيب بما ازداد عليه أو نقص، وهذا المهيع لا يشك في أن من سلكه يجد بركته في حفظ الصحة عليه إن كان معلمه عالما صادقا في علمه، وكان المتعلم لا يخالف أمر معلمه فإن قيل : هذا يقتضي أن الملوك الذين لهم أطباء حكماء يتعاهدون أحوالهم على المنهاج المذكور لا يمرضون، ونحن نرى أكثرهم يمرض، بل ربما كان يسرع المرض إليهم أكثر من غيرهم، فالجواب أننا شرطنا في طول الصحة طاعة المطبوب لأمر الطبيب وعدم مخالفته، والغالب على الملوك كونهم مغلوبين لشهواتهم مع كثرتها عندهم في كل حين، وحضورها لديهم، وتيسر وجودها عليهم، ومن كان هكذا حتى من السوقة تغلبه نفسه، فلا يقدر على كفها عن شهوتها، وهذا يجده كل أحد من نفسه، وقد أشار رسول اله صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء»(26) وهذه الكلمة الشريفة جمع فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع ما دونه الحكماء في دواوينهم على كثرته، وهو مضمون ما ذكرناه في مشاورة الطبيب وطاعته فيما يأمر به، وهو أمر شاق علي النفوس الغالبة كما ذكرنا، ومن أقدره الله على مغالبة نفسه، ومدافعة هواه جنى ثمرته، ووجد لذته، والله على كل شئ

(26) حديث : (المعدة بيت الداء) ، لا أصل له، إنما هو من كلام بعض الأطباء، كما نص على ذلك السيوطي في "الدرر المنتشرة" والعجلوني في "كشف الخفاء" ج2

قدير، ومما يدل على صحة ما ذكرناه أن الحكماء والفلاسفة الذين جاهدوا نفوسهم حتى ملكوها ولم يبق لها تصرف في أرواحهم، بل صار الحكم للأرواح تطول حياتهم وتقل عللهم وعاهاتهم، وربما عاش بعضهم المئين من السنين كما هو مذكور مشهور عند نقلة الأخبار.

ولما فرغ الناس من نزاهاتهم فرحا بشفاء أمير المؤمنين وجه كل أحد من العمال والقبائل وفودهم وهداياهم لحضرة مولانا للتهنئة بما منحه الله من الإبلال، والمعافاة والاستقلال، والتخليص لذلك المقام العالي، المتوج بتاج الجلال، وكنت نظمت في التهنئة له أعزه الله تعالى هذه الهمزية لما ورد الخبر بشفائه :

جاد الزمان وجاء بالسراء ... ورمى إساءته وراءَ وراء
وافى كتاب في يمين مبشر ... متضمن لمسرة غراء
فلثمت وجه الأرض من فرح بما ... جاء البشير به من الأنباء
نبأ شهي للنفوس سماعه ... متبلج عن مأمن وهناء
لبست به الدنيا لباس جمالها ... وتبخترت في بهجة وبهاء
ونفى عن الأرواح كل كآبة ... كالصبح ينسخ سدفة الظلماء
ضاءت به الأرجاء وابتهجت به ... مهج النهى وجوانح الأحشاء
يا برد مورد ذلك النبأ الذي ... عم الوجود بسابغ النعماء
يا برده بين الجوانح مخبرا ... قد عم بالألاء والآلاء
وازداد نورا في مطالع سعده ... قمر الدجا وكواكب الجوزاء
ورد البشير به فكان وُرودُه ... بردا على أحشائنا الحراء
ولذا فرحت فرحت أرقص مثلما ... لعب النسيم بسرحة غناء
أو كالذي سلبته ثوب وقاره ... كأس مروقة من الصهباء
قل للبشير فدتك يابن مكرم ... نفسي وأنفس سائر الكرماء
ويقل شكرك يا بشير وأنت قد ... وافيت للأموات بالأحياء
بشرتنا بشفاء من بشفائه ... ماء الحياة يسير في الأعضاء
بشفاء مولانا الإمام محمد ... ملك الممالك كعبة العلياء
ملك نمت في الأنبياء أصوله ... ورست به الأعراق في الخلفاء
وخطى الملوك الصيد تقصر دونه ... ويطول فيه المدح بالإطراء
لما اشتكى سارت إلى كل الورى ... شكواه حتى ارتج كل بناء
وتكدرت كل المشارب بعدما ... كانت مروقة ذوات صفاء

فاليوم قد جبر الإله بفضله	صدع الوجود وزال كل عناء
واسترجع الأرواح من أشباحها	ما كان منتسبا إلى الأصداء
وأضاء مصباح الخلافة آمنا	لا يختشي أبداً من الإطفاء
هذا أمير المؤمنين مسلما	ومبرأ من سائر الأدواء
والله ذو فضل عظيم قد حبا	سلطانه بعد الضنى بشفاء
وأباحه صفو الحياة وطيبها	فحياته متبوأ السراء
فله الهنا كل الهناء فذاته	خلصت خلوص التبر بعد صلاء
وله البشارة أن تطول حياته	في ملكه ذي العزة القعساء
حتى يشيد للفخار مبانيا	لم يبنها أحد من العظماء
ويزاد في عمر الخلافة مثلما	زادت مآثره على الأمراء
فالحمد لله الذي ألطافه	معلومة بالكشف للضراء
والحمد لله الذي لم يبلنا	بشماتة الحساد والأعداء
عكس الإله بفضله آمالهم	وجزاهم بفجاءة البأساء
كذبت ظنونهم التي يرجونها	وكذا الظنون كواذب الاملاء
واغبر منتجع العدا فرياحهم	نكبت بإعصار بعيد رخاء
بينا هم يتضاحكون إذا هم	في مأتم يا ويلهم وبكاء
فلنا الهناء معاشر القرباء قد	فض القضاء معاشر البعداء
وضحت لنا الآمال تعبق مثلما	عبق الأزاهر غب جرى الماء
لا زال مولانا تضاحكه المنى	منصور رايات رفيع لواء

ثم رفعتها للحضرة المولاوية مع وفود التهاني، ترفل في حلى أنصع المباني، وحلى أحاسن المعاني، تأمل وترجو من مولانا القبول وبلوغ الأماني.

ومما رفع لحضرة مولانا الخليفة الأسعد، المبارك الأمجد، مولانا الحسن أعزه الله تعالى تهنئة الفقيه العلامة النحرير القاضي أبي عبد الله سيدي محمد الطيب بن محمد التاملى الرداني(27) حفظه الله وهي :

(27) محمد التاملي الرداني نكتفي عن ذكر ترجمته بما نص عليه في الجيش بتحليته الحافلة التي منها ذكر قصيدته الحائية الرائعة.

وترجمه الأستاذ المختار السوسي في كتابه "رجالات العلم العربي في سوس" ص111 حيث قال : عالم جيد كبير أديب حسن الآثار، ذويد طولى في التفنن، وهو أريحي نزيه وتولى القضاء بعد والده في تارودانت، وعنده أشعار ت 1282هـ 1865م.

غرام يفوت الحد والوصف والشرحا ... ولحظ جرى دما من أحشائي الجرحى

وتبريح شوق أرق العين فهي من ... دواعي الهوى ماتعرف الليل والصبحا

ولاعج حب أضرم النار في الحشا ... ولم يطفها وبل العيون الذي سحا

نشأ ذاك عن زهر الرياض وطيرها ... وقد خطبت في بانها الخطبة الفصحى

تحض على خلع العذار ذوي الهوى ... إذا الشمسُ حلت من منازلها النطحا

ليغتنموا الوقت الذي طاب منه والـ ... نسيم العليل والهواء الذي صحا

ويقتطفوا ورد الخدود مفتحا ... ويرتشفوا ثغرا بمسك زري نفحا

فكم قد دعا فصل الربيع وزهره ... نفوس كرام فاستجابت له فرحى

وكم بين محبوب نفسور وحبه ... سعى لطفه يوما فضمهما صلحا

دعاني فيمن قد دعاه بلطفه ... فأضربت عن داعي القبول له صفحا

وقلت له لاتطيبني محاسن ... أتيت بها فليلحني فيك من يلحى

فلي همة لا أرتضي أن أحطها ... لما يقتضي من حالها اللهو والمزحا

أخاف عليها أن تشاب بغير من ... جوانحنا من حبه قد غدت طفحا

ومنٍ ملكت اثاره الناس كلهم ... فمن مبتغ منحا ومن متسق رمحا

فتىً جمعت فيه المحاسن مفردا ... خصوصية فاستوجب الحمد والمدحا

إذا حسن اسمه الشريف جرت به ... منا طقنا ازدانت به سائر الأنحا

فقد حسن الله اسمه وفعاله ... وحقق في معناه ما يعجزه الشرحا

خليفة مولانا الإمام ونجله ... وعمدته فيما يروم له نجحا

ترشح في حال الصبا لتحمل الـ ... خلافة فاستعلى من آطامها الصرحا

له اليمن عين والسعادة ساعد ... ينيلانه التيسير والنصر والفتحا

تمهد سوس منذ ولي أمره ... مع الحوز حتى صارأهلهما مرحى

فقد سار في تهذيبهم خير سيرة ... فنالوا بها الربح الذي أعظم الربحا

وما احتاج في تمهيدهم غير رأيه ... وتدبيره لا العاديات بها ضبحا

فكم هزم التدبير والرأي عسكرا ... ولم يغنه ان أعمل السيف والرمحا

وكم كف كف الجور والبغي عدله ... وكم وكفت كفاه للمعتفي سحا

فيا سيدا يغني العفاة تكرما ... عليهم كما يفنى العداة إذا أنحى

ليهنك والأنام بسرء إمامنا ... وعافية أضحت لمغربنا روحا

فإن سلامة الإمام سلامة ... لكل رعاياه وأعظم بها ربحا

أدام الإله عزه وبقاءه ... وعوضه من كل ما مرض صحا

ويهنيك بالمجد السعيد وبالرضا المـ ... ـزيد وإدراك المنى عيدك الأضحى

تؤمك أشتات الوفود تقربا ... إليك فتوليها المبرة والمنحا

فطوبى لمن أمسى ليومه شاهدا هناك مشاهدا محياك أو أضحى
لئن عاق عبد الدار عن ذاك بعده فقد زاره قلبا وإن لم يزر شبحا
وزف إلى ذاك الجناب خريدة مخدرة عن غيره قد طوت كشحا
عسى أن ترى منه بعين الرضى إذا تأملها خبرا وحققها لمحا
فإن ترضه أو يرضها فاز قدحها ولم يلف فيها ناقد عيبا أو قدحا
على أن در مدحها لك زانها فإن نقصت فصحا فقد كملت مدحا

‹وهذا القاضي عين أعيان زمانه، لا خصوص قطره وبلده، قد أدرك المجد يافعا قبل بلوغ أمده، محتده كريم، ومفخره عظيم، ومحاسنه في جيد الزمان لؤلؤ نظيم، تحلى بالأدب الظاهر، والفضل الباهر، والكرم الذي صار به حاتم أيامه، وتدين به في قعوده وقيامه، فاتفقت القلوب على حبه، والألسن على امتداحه، لدينه وحسن خلقه وسماحه›(28).

ومما رفعت لحضرته نصره الله في بعض أعياد الفطر عند ختمه للصحيح الجامع هذه الميمية الكاعب العذرا، التي هي بالتقدم أحرى، وهي :

حديث الحمى يهتاج منه غرامي ومن بان عند البان فيه مرامي
أعيدوا على سمعي محاسن ذكرهم وماذا عليكم في ارتداد كلامي
ولا تنكروا مني حنينا إليهم فإن حنين الصب غير حرام
ألا حظهم خلف النوى ثم أنثني بأربعة مثل الغمام سجام
سقى الله صوب الغيث أو بمدامعي، أباطح حلوها وراء آكام
وإن بخلوا حتى بطيف خيالهم يمر سرارا في ضمير ظلام
فكم ظمأ بين الضلوع اجنه إلى ظبيات في الصريم ظوامي
ولا أتناسى ما حييت مغاهدا مخضلة يبتل منها أوامي
أقمت زمانا عندها بمسرة بنجد وقد ساء الغيور مقامي
وغالبت ريب الدهر فيها على المنى فلم تتكدر صبوتي بملام
وقضيت فيها العيش غضا كأنما أعير ازدهاء الروض غب رهام
هوى سلب الأيام غير ادكاره فتعلو له الأنفاس وهي حوام
وحق المعالي حلفة لا يبرها على لَغَب إلا نفوس كرام
لشد الذي نالته مني صبابتي ولذ لقلبي شقوتي وهيامي
رضيت بدين الحب لا أبتغي به بديلا وفي حبي فضضت لجامي
ولا أختشي كيد الليالي وأهلها ولا أتقي منهن رمية رام

(28) ما بين العلامتين سقط من (ك) و (ش) و (ف).

فلي عدة للحادثات أعدها ... محمد نجل المالك بن هشام
سأنزل من علياته كل حاجة ... إلى ماجد رحب الثناء همام
وأطفئ إن شب الخطوب ضرامها ... بنجل أمير المؤمنين ضرامي
وجيه مهيب كلما لاح وجهه ... تلفع رغما أوجه برغام
أغر المساعي توجته جلالة ... تغض لها الأبصار وهي سوام
محجب أفناء إذا ما ذكرته ... ذكرت ربيعا مستهل غمام
وإن تدع يوما باسمه لمهمة ... وجدت منال الرغب حول ثمام
يفيض الندا من راحتيه على الورى ... تفيض نائي الحجزتين ركام
فتى لا يسير الدهر إلا بسيره ... يقادله طوعا بغير خطام
تشاهده بدرا تكامل حسنه ... إذا ادرع الفرسان ليل قتام
إذا ركب ارتجت له الأرض كلها ... بذي لجب جم الصهيل لُهَام
يجاذب أطراف الأعنة واطئا ... على جثث للمارقين وهام
إذا مال قوم للضلال وأوغلوا ... وأغواهم طغيان كل طغام
رماهم بعقبان عليها ضراغم ... سيوفهم فيها مدب حمام
وروى غليل المشرفية منهم ... وحكم في الأوصال كل حسام
وطهر دين الله من كل فاتن ... وأبرأه من علة وسقام
فما زال بالبيض الصفاح وبالقنا ... يدافع عنا دائما ويحامي
ويحيي من الآثار ما كان دارسا ... تعاظم عن إدراك كل امام
فأجرى من الأنهار ما روض الفضا ... وأبدت فيه الأدواح حسن قوام
وفجر في القفر المهامه أبحرا ... تموج بأحلى من كئوس مدام
تفيض فتغني الأرض عن واكف السما ... من المزن رجاف الرواعد هام
فهبت به الآمال بعد ضياعها ... لدى معشر عن رعيهن نيام
أيا سيدا لم يبق فخرا لسادة ... شيوخ وقد أضحى بسن غلام
فلله مجد أعجز النجم دركه ... أحلك أعلى ذورة وسنام
بقيت لناما لاح في الأفق كوكب ... وما جاء فطر بعد شهر صيام
تقيم لنا في كل عام مواسما ... ذوات وجوه للوفود وسام
وأعظمها قدرا وأحسن منظرا ... جلوسك للإقراء يوم ختام
ختام الصحيح الجامع الحجة الذي ... رميت إلى احكامه بزمام
تحكمه عند الحكومة مثلما ... تقوم بحكم الوحي خير قيام
فمن نوره الوضاح تقتبس الهدى ... وترمي به نحو العدا بسهام

فنورك نور الله ليس بمنطف   وسيفك سيف الله غير كهام
وأهدي إلى مثواك مني بشائرا   دواني قطاف في بديع نظام
على وجهك المحمود في كل موطن   صلاة من المولى وأزكى سلام

ساقة الجيش العرمرم، الغالب المظفر المغنم(*)
في أركان الملك ودعائمه، وأوتاده وقوائمه

اعلم أن للملك أمورا لا يقوم إلا عليها بناؤه، ولا يستنتج إلا من مقدماتها هناؤه، وأمورا يكمل بها حسنه ورواؤه، وينصع بها بهاؤه(*)، ويشرق بها ضياؤه، ومجموع القسمين هو المستفاد من هذه الساقة، وإليها يوجه الاعتناء مساقه.

أمّا القسم الأول : وهو ما لا يقوم الملك إلا به، وهو أولى ما تنصرف الهمة أولا إلى استجلابه، وهي أمور سبعة : العدل، وحسن السيرة، وحسن النظر(*)، وذكاء الفطنة، والمشورة، وتدبير الحرب، وجباية الأموال، وهذه الأمور كلها في الحقيقة ترجع الى السياسة.

وأمّا القسم الثّاني : وهو الأمور التي يكمل بها حسنه، فالشجاعة، والحلم، والجود، فهي ثلاثة، وفي هذا القسم تذكر أمور مستحسنة، يجر بها القلم رسنه، وأمور أخرى تلزم الملك لزوم الظل لشخصه، وشعاع الشارق لقرصه، وهي الحجابة، والوزارة، والقهرمانة، والكتابة، فمجموع المسائل التي يسأل عنها في هذه الساقة أربع عشرة مسألة، ولك أن تدعوها السرايا لمناسبة الجيش، والخاتمة في مواعظ تناسب الملوك، وتهدي الموفق منهم إلى سبيل النجاة في السلوك، والله المستعان،

السرية الأولى من القسم الأول في العدل

قال الله تبارك وتعالى {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} قرن الله العدل مع الإحسان إشارة إلى أن العدل قد لا يمكن إلا مع الإحسان، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي العطاء البالغ للمؤلفة، لأن مجرد العدل فيهم لا يمكن في الحال، ومنزلة الإمام العادل عند الله تعالى عظيمة، قال صلى الله عليه وسلم : «عدل الإمام في رعيته يوما واحدا

(*) في الأصل و (م) المغنم وفي (ف) و (ش) و (ك) المعظم.
(*) في (ش) ساقط.
(*) نفي (ش) النظام.

خير من عبادة خمسين سنة بقيامها وصيامها»(1)، وقال صلى الله عليه وسلم : «الإمام العادل لا ترد دعوته»(2)، وما ذلك إلا لما فيه من صلاح هذا النوع الإنساني الذي هو أشرف المخلوقات، فبالعدل تصلح الدنيا وتعم البركة، وتكثر المنافع، وبه يكون صلاح الآخرة، فما أحق ما به صلاح الدنيا والآخرة أن تعظم منزلته عند الله تعالى، قيل : ليس فوق منزلة الإمام العادل منزلة إلا نبي مرسل، أو ملك مقرب، وقد وعد الله تعالى أهل العدل بالنصر على الأعداء لنصرهم شريعته، فقال : {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز}، ثم بين سبحانه من ينصره فقال {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر} وما بعث الله رسولا، ولا أنزل كتابا، إلا لتحصيل هذه الخصلة الشريفة، قال الله تعالى {يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله} وقال {إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق}، قال الفهري العدل ميزان الله في الأرض، يؤخذ به(*) للضعيف من القوي، وللمحق من المبطل، فمن رفع ميزان الله الذي وضعه بين عباده، فقد تعرض لسخط الله، وقالت الحكماء : المملكة صورة في صورة رجل، فرأسه الملك، أي السلطان، وقلبه قوته، ويداه الجند، ورجلاه الرعية، وروحه العدل، فمملكة لا عدل فيها كجسد لا روح فيه، «ومما يعين الملوك على العدل تقريب من يؤثر التقوى، واجتناب من يقبل الرشاء واستكفاء من يعدل في القضية، واستخلاص من يشفق على الرعية، فإنه ما عدل من جار وزيره، ولا صلح من فسد مشيره»(3)، ولما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى الحسن البصري وقال له : اكتب لي صفة الإمام العادل، فكتب إليه : اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لماشيته أطيب المراعي، ويذودها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، ويكتسب لهم

---

(1) نص عليه الشنراني في شرحه "مختصر ابن أبي جمرة ص 84 ولم يخرجه.

(2) رواه البخاري والترمذي وابن ماجه والامام احمد.

(3) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف) و (ك) أثبتناه هنا.

(*) (منه) في (ك).

في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح، تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العادل قائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، الى آخر كلام الحسن، وسيأتي إن شاء الله تعالى تمامه في الخاتمة.

وروى أن عامل حمص كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن سور المدينة احتاج إلى تحصين، فكتب إليه عمر حصنها بالعدل، ونق طرقها من الجور والسلام، وروي أن بعض عمال أبي جعفر المنصور غصب ضيعة لرجل، فارتحل ذلك الرجل حتى أتى أبا جعفر فاستأذن فأذن له، فلما وقف بين يديه قال : أصلح الله أمير المؤمنين إن الطفل الصغير إذا نابه مكروه إنما يفر إلى أمه لأنه لا يعرف غيرها، فلا يرى ناصرا له فوقها، فإذا ترعرع واشتد وأوذي كان فراره إلى أبيه لعلمه أن أباه أقوى من أمه، فإذا بلغ وصار رجلا ونزل به أمر شكا إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا قوي عقله واشتد به الأمر شكا إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكا إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان، وقد نزلت بي نازلة وليس فوقك أحد أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعتها إلى الله تعالى في الموسم، فإني متوجه إلى بيت الله وحرمه، فقال بل ننصفك ولا نحوجك إلى هذا، فكتب إلى الوالي برئت من آبائي الكرام إن لم ترد إلى هذا ضيعته ساعة قراءتك كتابي لأتاك مني ما لا قبل لك به، وزود الرجل وأحسن إليه وانصرف، وقال يزدشير لولده : إن الملك والعدل أخوان، لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالملك أس، والعدل حارس، فما لم يكن له أس فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع، وقد قال وهب بن منبه : إذا هم الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله النقص في مملكته في الأسواق والزرع والضرع وفي كل شيء، وإذا عمل بالخير أو هم به أدخل الله البركة في مملكته في كل شيء، ولما لقي سفيان الثوري أبا جعفر المنصور قال له : إني أعلم أن رجلا إن صلح صلحت الأمة وإن فسد فسدت الأمة، قال : ومن هو ؟ قال أنت، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ملكا خرج يسير في مملكته مستخفيا، فنزل برجل له بقرة فراحت البقرة وحلبت قدر حلب ثلاثين بقرة، فعجب الملك مما رأى، وحدث نفسه بأخذها،

فلما راحت من الغد حلبت على النصف، فقال الملك لربها، ما بال حلابها نقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس ؟ قال : لا، ولكن أظن أن ملكنا هم بأخذها، فإن الملك إذا هم بالظلم أو ظلم ذهبت البركة. فعاهد الله تعالى في نفسه وتاب ألا يأخذها، فلما راحت من الغد حلبت حلب ثلاثين بقرة، فعاهد ذلك الملك ربه ألا يترك العدل ما بقي انتهى.

‹ومثل هذا ما حكاه محمد بن عبد الملك الهمداني في تاريخه عن ملك شاه بن البارسلان السلجوقي، وكان سلطانا عظيم الشأن، متظاهرا بالعدل. قال الهمداني : إنه دخل عليه واعظ فوعظه فقال له : إن بعض الأكاسرة اجتاز يوما منفردا عن عسكره على باب بستان فطلب ماء يشربه، فأخرجت له صبية إناء فيه ماء السكر والثلج، فشربه وأعجبه واستطابه، فقال لها : كيف يصنع هذا ؟ فقالت له : إن قصب السكر عندنا يزكو حتى إننا نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، وكانت الصبية لا تعرفه، فقال لها : ارجعي وأحضري منه شيئا آخر، فرجعت فقال في نفسه : الصواب أن أعوضهم من هذا المكان وأصطفيه لنفسي، فلم يكن بأسرع من خروجها باكية، فقال لها : ما بالك ؟ فقالت : إن نية سلطاننا قد تغيرت، فقال : ومن أين علمت ذلك ؟ قالت : كنت آخذ من هذا القصب ما أريد فأعصره من غير تعسف، والآن قد أجهدت نفسي في عصره فلم يسمح لي إلا بقليل، فقال لها : ارجعي فإنك تجدينه كما تحبين، وعاهد الله تعالى ألا يفعل ما كان عزم عليه، فخرجت ومعها شيء من السكر وهي فرحة مستبشرة، فقال السلطان لذلك الواعظ : ما لك لا تعظ الرعية ؟ وتقول لهم إن كسرى اجتاز على بستان فقال للناظور : ناولني عنقودا من حصرم عنبك، والناظور لا يعرف أنه كسرى، فقال له : لا يمكنني ذلك، فإن السلطان إلى الآن لم يأخذ حقه منه، فلا يحل لي أن أخونه انتهى، فتعجب الناس الحاضرون من مقابلة الحكاية بمثلها ومعارضته ما أوجب الحق عليه بما أوجب الحق له انتهى›(4) وفي هذا القدر كفاية في بيان فضيلة العدل الذي هو روح جسد المملكة، ولو ذهبنا إلى بسط القول في هذا المقام بذكر وقائع العدل الصادرة من الخلفاء الراشدين وأمراء السلف لأدى ذلك الى الطول الموجب للسآمة.

---

(4) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ف) و (ك) ومدناه بخط مؤلف الأصل بهامشه فأثبتناه هنا تتميما ؟

السوية الثانية من القسم الأول في حسن السيرة

وهي من السياسة لما قدمنا، قال الله تبارك وتعالى : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته»(5) وقال أبو بكر رضي الله عنه : لا يصلح هذا الأمر إلا شدة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان :(6) صف لي عمر بن الخطاب، فقال : كان راحما لرعيته، عادلا في قضيته، عاريا من الكبر، قابلا للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحريا للصواب، رفيقا بالضعيف، انتهى، وروي أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام أن يعرفهم الزمان الذي يرضى فيه الله سبحانه وتعالى عن الناس، فقال : إذا استعمل عليهم الهيّن اللين الحيي، انتهى، وأوصى أبرويز ولده شيرويه فقال : لا توسع على جندك ساعة يستغنون بها عنك، ولا تضيق عليهم ضيقا يضجرون به منك، وأعطهم عطاء قصد، وامنعهم منعا جميلا، وابسط لهم في الرجاء لا في العطاء انتهى.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جزأ نهاره ثلاثة أجزاء، جزءا لله، وجزءا لأهله، وجزءا لنفسه، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس، فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول : «أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه على الصراط، وأمنه من يوم الفزع الأكبر، انتهى». وكان بعض الملوك أصابه صمم فأهمه ذلك من أجل رعاية المظلومين، فأمر بالنداء في جميع مملكته ألا يلبس الأحمر إلا من كان مظلوما، وقال : لئن منعت سمعي لم أمنع بصري، والحمد لله، فكان كل من رآه لابسا الأحمر استكشفه عن مظلمته، فقضى فيها بالحق، وسئل بعض الملوك بعد خلعه : ما سبب ذهاب ملكك ؟ فقال : الاشتغال باللذات، عن التفرغ للمهمات، ووثقنا بعمالنا فآثروا مرافقهم علينا، فظلموا الرعية، ففسدت لنا منهم الطوية، فضعفت

---

(5) رواه البخاري ومسلم وأبو داوود والترمذي.

(6) صعصعة بن صوحان من أهل الكوفة. قال ابن سعد : كان من أهل الخطط بالكوفة وخطيبا، وهو من أصحاب سيدنا علي، وشهد معه وقعة الجمل وأسلم في عهد الرسول ولم يره، توفي في خلافة سيدنا معاوية.

الإمارة، وقل الخراج، وبطل العطاء، فلما قصدنا العدو، قل الناصر، وأعظم ما أوجب زوال ملكنا استتار الأخبار عنا انتهى، قال الفهري : ومعظم ما رأينا وسمعنا ممن سبقنا في دخول الفساد على الملوك من حجبتهم عن مباشرة الأمور، قال : ولا تزال الرعية ذات سلطان واحد ما وصلوا إلى سلطانهم، فإذا احتجب عنهم فهنالك سلاطين كثيرة، انتهى، ولما غزا سابور ذو الأكتاف ملك الروم، وخرب كثيراً من بلاده، كتب إليه : أخبرني بالذي سست به مملكتك، حتى قويت على ما أرى وبلغت ما لا يبلغه أحد من الملوك، فإن كان ما يضبط به الملك أديت إليك الخراج، وصرت كبعض رعيتك، فقال له سابور : إني لم أزد في السياسة على أني لم أهزل في أمر ولا نهي، ولا أخلفت في وعد ولا وعيد، ووليت أهل الكفاية، وأثبت لا على الهوى، وضربت للأدب لا للغضب، وأودعت قلوب الرعية المحبة من غير جرأة ولا ضغينة، فدانت لي الرعايا وأدت الخراج، انتهى، وقال زياد لحاجبه : إني وليتك حجابتي، وعزلتك عن أربعة منها : عن المنادي للصلاة، لا تعرجه عني، ولا سلطان لك عليه، وعن طارق الليل لا تحجبه فإنه ما جاء به تلك الساعة إلا أمر مهم، وعن رسول الثغور، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله علي ولو كنت في لحافي، وعن صاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد، وأوصت بعض الملوك أمه فقالت له : يا بني، ينبغي للملك أن تكون له ستة أشياء، وزير يثق برأيه، ويفضي إليه بسره، وحصن يلجأ إليه إذا خاف وسيف إذا نازل الاقران لم يخش أن يخونه، وذخيرة خفيفة المحمل أذا نابته نائبة كانت معه، وزوجة إذا دخلت عليه أذهبت همه وحزنه، وطباخ إذا لم يشته طعاما صنع له ما يشتهيه، انتهى، وكتب بعض الملوك ثلاث رقاع، ودفعها لوزيره، وقال له : إذا رأيتني غضبت فادفع لي واحدة منها، وكان في إحداها إنك لست بإله فتفعل ما تريد، وإنك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضا، وفي الثانية ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء، وفي الثالثة اقض بحكم الله بين الناس فإنه لا يصلحهم إلا ذلك.

لما احتضر أبو بكر الصديق أرسل إلى عمر رضي الله عنهما، وقال له : إن وليت على الناس فاتق الله والزم الحق، فإنه ما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحق الميزان إذا وضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلا، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة إلا باتباعهم الباطل في الدنيا، وخفته عليهم، وحق الميزان اذا وضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفا.

واعلم أن لله تعالى عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وأن الله تعالى ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف ألا ألحق بهم، وأن الله ذكر أهل النار بسوء أعمالهم فرد عليهم أحسنها، فإذا ذكرتهم فقل إني أخاف أن أكون منهم، وأن الله تعالى ذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون المؤمن راهبا لا يتمنى على الله، فإن أنت حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو آتيك، وإن أنت ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولست بمعجزه، انتهى، وقيل للاسكندر : فلان يسيء الثناء عليك، فقال : أنا أعلم أنه ليس بشرير، فينبغي أن نعلم هل نابه من جانبنا أمر دعاه الى ذلك، فبحث عن حاله فوجدها رثة فأمر له بصلة سنية، فبلغه بعد ذلك أنه بسط لسانه بحسن الثناء عليه، فقال : أما ترون أن الأمر إلينا فيما يقال فينا من خير أو شر، انتهى، فهذا من حسن النظر، وكان لعبد الله بن الزبير أرض مجاورة لأرض معاوية رضي الله عنهما قد أقام فيها معاوية عبيدا يعمرونها، فدخلوا في أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية : أما بعد، يا معاوية : فانْهَ عبدانك عن الدخول في أرضي وإلا كان لي ولك شأن، فلما وقف معاوية على كتابه، دفعه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ فقال أرى أن تنفر إليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه، فقال : أو خير من ذلك يا بني، علي بداوة وقرطاس، فكتب : وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وساءني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسي صكا بالأرض والعبدان، وأشهدت

على فيه، فليضفها مع عبدانها إلى أرضه وعبيده، والسلام. فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية، كتب إليه : وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما بلغ معاوية، قال لولده : إذا بليت بمثل هذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء، انتهى.

ولما خاف المامون انتقاض أهل خراسان بيعتهم عليه أيام فتنته مع أخيه الأمين، استشار وزيره الفضل بن سهل فقال له الفضل : إنك قد قرأت القرآن والحديث، فأرى أن تجمع العلماء وتحسن إليهم، وتكرم القواد والملوك وأبناءهم وتعدهم بالمواعيد السنية، والمراتب العالية، وتحط ربع الخراج عن الرعية، ففعل ذلك فمالت إليه وجوه الخلائق وقالوا : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا، انتهى، وقال ابن الهندي : رفعت إلى المامون أن رجلا ما زال يصرخ بذمه، قال فدعاني، وقال لي، قد عرفت قصة الرجل، وأنا عازم على أن أوجه إليه عشرة آلاف دينار أقطع بها لسانه عني، فقلت : يا أمير المؤمنين، إذن يطمع فيك كل من في مثل حاله حتى يطمع فيك السوقة، ومثل هذا يؤدي إلى الإجحاف بأموال أمير المسلمين والجرأة عليه، فقال : والله لئن كان ما تخاف لأفتحن بيوت أموالي ولأغلقن عن شتمهم أسماعي، فألق هذا الرجل وادفع له عشرين ألف دينار يصرفها فيما ينوبه، وأخبره أني على توليته، قال : ففعلت، ثم دعا بالرجل فرفع مجلسه وولاه.

السربة الرابعة من القسم الأول في ذكاء الفطنة

كثيرا ما أتى الملوك من تولية الأمور لخامدي الفطن وأهل التغفل، وإن كانوا أمناء صالحين كما وقع لمولانا علي كرم الله وجهه في قضية التحكيم لما وجه لذلك أبا موسى الأشعري في مقابلة من هو أدهى أهل زمانه عمرو بن العاصي، ذكر الجرجاني آخر كتاب الكنايات ما نصه : وحكي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال : بلغني أن عتبة بن أبي سفيان قال لابن عباس رضي الله عنه ما منع عليا أن يبعثك مكان أبي موسى ؟ فقال عبد الله بن عباس منعه حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني لاعترضت في مدارج نفس معاوية ناقضا لما أبرم، ومبرما

لما نقض، أسف إذا طار، وأطير إذ أسف، ولكن مضى قدر وبقي أسف، والآخرة خير لأمير المؤمنين، فقال في ذلك خريم بن فاتك الأسدي(7) مشيرا لهذه القضية :

لو كان للقوم رأي يرشدون به أهل العراق رموكم بابن عباس
لله در أبيه أيما رجل ما مثله لفصّال الأمر في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

انتهى.

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إني لأستعمل الرجل وأدع خيرا منه، لأنه أيقظ عينا، وأوسع ذهنا، وأشد جرأة، وأصبر على شدة، انتهى، وبعض الناس ينسب هذا القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما يذكر من ذكاء الفطنة الصادر من الملوك، ما روي عن المنصور بن أبي عامر أنه قدم عليه تاجر من اليمن بجوهر نفيس وأحجار ياقوت كثيرة، فأخذ منه ما استحسنه، ورد إليه الباقي، فصرّه التاجر في قطعة يمانية حمراء وأخذ طريق الرملة على الشط، وكان اليوم حارا فدعته نفسه إلى التبرد في النهر، فنزع ثيابه ووضع الصرة عليها، ودخل في النهر يتبرد، فمرت حدأة فاختطفت الصرة تحسبها لحما، وارتفعت بها في الأفق حتى قطعت ما أدركته عين الرجل، فقامت عليه القيامة حتى أصابته من ذلك علة، فلما كان وقت دفع أثمان ما اشترى من التجار، جلس المنصور بن أبي عامر لذلك بنفسه، فنظر المنصور الى التاجر فاستبان له ما هو عليه من المهانة والكآبة بعد النشاط وشدة العارضة، فسأله عن شأنه فأعلمه بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر ؟ فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها، قال : مر مشرّقا على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك، يعني الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فقال لهم ابحثوا عمن غير حال الإقلال منهم سريعا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا في ذلك ثم قالوا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناوبون السبق على

(7) خريم بن الأخرم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وكعب الاحبار توفي بالرقة في عهد سيدنا معاوية.

أقدامهم عجزا عن شراء دابة، فابتاع الآن دابة واكتسى هو وأولاده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر، وقال له سبب ضاع منا وسقط إليك، فما فعلت به ؟ فقال ها هو ذا يا مولانا فضرب بيده الى حجزة سراويله وأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور صف لي حديثها. فقال نعم، بينما أنا أعمل في جنان تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني حسنها، ومنظرها، فقلت إن الطائر اختطفها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة دنانير عيونا كانت معها في الصرة، وقلت أقل ما يكون من كرم مولانا المنصور أن يسمح لي بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر خذ صرتك وانظرها واصدقني عن عددها ففعل وقال : وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له، فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك ولا ننقض عليك فرحتك، ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان توابه موفورا، ثم أمر للتاجر بالعشرة دنانير ولصاحب الجنان بعشرة دنانير توابا على تأنيه عن إفساد ما وقع بيده، وقال له لو بدأتنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناك جزاءا وإحسانا، قال : فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقال له : والله لأبثن في الأقطار عظمة ملكك، وأبين أنك تملك طير عملك كما تملك بشرها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك فضحك المنصور وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك، انتهى.

وذكر ابن عذارى في البيان المغرب حكاية أخرى عن المنصور بن أبي عامر أغرب من هذه تدل على شدة فطنته ودهائه ونصه : قال ابن حيان إنه أي المنصور كان جالسا في بعض الليالي وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فدعا بأحد الفرسان وقال له : انهض الآن إلى فَجِّ طليارش وأقم فيه، فأول خاطر يخطر عليك سقه إلي، قال فنهض الفارس في الحين وبقي في الفج في البرد والريح والمطر، واقفا على فرسه إذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب، فقال له الفارس : إلى أين تذهب يا شيخ ؟ قال وراء حطب، فقال الفارس في نفسه : هذا شيخ مسكين نهض إلى الجبل يسوق حطبا فما عسى أن يريد المنصور منه، قال :

فتركته، ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته، فنهضت الى الشيخ وقد سار عنّي قليلا، فقلت له : ارجع الى مولانا المنصور، فقال : وما عسى أن يريد المنصور مني ؟ سألتك بالله لا تفعل واتركني لطلب معيشتي، فقال له الفارس : لا أفعل ولا أتركك حتى تقوم بين يديه، ثم قدم به على المنصور ومثله بين يديه، فقال المنصور للصقالبة أي عبيد الدار فتشوه هل تجدون معه كتابا، ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا، فقال فتشوا بردعة حماره، فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى يأمرونهم أن يقبلوا ويضربوا في إحدى النواحي المعلومة، فلما انبلج الصبح أمر المنصور بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة فضربت أعناقهم وضربت رقبة الشيخ معهم(8)، انتهى، وهذا من العجائب التي كادت أن تكون من الإخبار بالغيب، لا مدخل للدهاء فيها، ولكنها سعادة محضة.

<ومما حكاه القاضي شمس الدين بن خلكان في ترجمة ملك شاه بن البارسلن أن سواديا لقيه وهو يبكي، فسأله عن سبب بكائه، فقال : إنني ابتعت بطيخا بدريهمات لا أملك غيرها، أردت الاستفضال ببيعها أتقوت بذلك، فلقيني ثلاثة أغلمة أتراك فأخذوه مني، ومالي حيلة سواه، فقال له : أمسك ثم استدعى فراشا وقال له : إن نفسي اشتاقت إلى البطيخ، فطف في العسكر وانظر من عنده شيء منه، فأحضره فعاد ومعه بطيخ، فقال له عند من رأيته ؟ فقال عند الأمير فلان، فقال فأحضره، فقال له : من أين لك هذا البطيخ ؟ فقال جاء به الغلمان، فقال : أريدهم الساعة، فذهب وقد عرف نية السلطان فيهم، فهربهم وقال : لم أجدهم فالتفت السلطان الى السوادي وقال له : هذا عبدك قد وهبته لك حيث لم يحضر القوم الذين أخذوا متاعك، والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذ السوادي بيده وأخرجه فاشترى الأمير منه نفسه بثلاثمائة دينار، فعاد الى السلطان وقال يا سيدي قد بعت ذلك العبد بثلاثمائة دينار، فقال له : وقد رضيت ؟ قال : نعم يا سيدي، قال اذهب بسلام>(9)، انتهى.

---

(8) قصة الشيخ في (بيان المغرب) لابن عذارى ج 2 ص 290.

(9) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش) و (ف).

ومما روي من دهاء إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية أن رجلا من سجلماسة ذكرت له رفقة توجهت إلى مصر، فخرج مبادرا ليدركها ومعه ثلاثة آلاف دينار، قال : فإذا بالرفقة قد فاتتني، فجعلت أطوي المراحل وحدي حتى وصلت إلى قابس، فلما خرجت منها وسرت أميالا لقيني سبعة من الفرسان، فأنزلوني عن دابتي وأخذوا الخرج بما فيه، وأرادوا ذبحي فتضرعت إليهم، فقلت : قد أخذتم ديتي مضاعفة، وأنا رجل غريب لا أعرفكم، فأطلقوني، فرجعت إلى قابس، ثم سرت إلى القيروان، وقصدت الأمير إبراهيم بن الأغلب وهو في المقصورة، وقلت رجل غريب، وصحت وراءها رجل ملهوف، فأمر بإدخالي وسألني عن أمري ؟ قصصت عليه قصتي، فأمرني بالجلوس وجعل يأمر وينهى ويسارر بعض من هو معه، وظننت أنه نسيني، فلما انصرف قال لخادمه : الحقني بهذا الرجل، فركب ومضينا في أثره حتى دخل القصر، فأدخلت في بيت وأنا لا أدري ما يفعل بي، فبعد ساعة أتيت بالمائدة التي رفعت من بين يديه فوضعت بين يدي فاطمأننت وأكلت ونمت، فلما انتبه الأمير من قائلته دعاني فرفعت إليه وهو في روشن على باب القصر، وقد فتحت البويبات التي فيه، فأمرني بالجلوس إلى جنبه، وإذا به قد دعا حاجبه في الوقت الذي ذكرت له قصتي، وقال له : هل وجهت إلى طرابلس خيلا في هذه الأيام ؟ قال : نعم، وجهت سبعة من الفرسان، وقد أتوا، فقال له مر جميع من على بابك من الخيل أن يأتوا بعد قيامي من القائلة، ووجه مناديا بأسمائهم، قال فوقف خادم بين يدي القصر ينادي فلان بن فلان، فيجوز ناحية، وقال لي إن وقعت عيناك على واحد من أصحابك فعرفني به، فكلما مر واحد عرفته به فيأمر بوقوفه ناحية، فلم يزالوا يمرون حتى عرفت السبعة، فأمر بصرف غيرهم وأدخل السبعة وأنا جالس إلى جنبه، فقال لهم : أتعرفون هذا الرجل ؟ فأنكروا، فجعل يلاطفهم حتى قالوا نحن سلبناه، وماله بدار فلان في الخرج لم نأخذ منه إلا سبعة دنانير، فقال : أحضروها فجاءت ووضعت في المال، وقال لي خذ متاعك، وقال لي أتقيم أو تلحق بالرفقة ؟ فقلت له وأنَّى لي بالرفقة ؟ فقال لي لم أبرح من الجامع حتى وجهت إلى عامل طرابلس بحبس الرفقة عليك، وإني أوجه معك من يصحبك إليها، فدعوت الله له ووجه معي من يصحبني ويلحقني بالرفقة فبلغتها سالما بجميع مالي، انتهى.

‹ومما حكي من فطنة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور العباسي، أنه لما دخل المدينة في حجته، قال للربيع وزيره أبلغني رجلا عاقلا عالما ليوقفني على دور المدينة، فقد بعد عهدي بديار قومي، فالتمس الربيع له فتى من أعلم الناس وأعقلهم، فكان لا يبتدئ بالإخبار عن شيء حتى يسأل عنه فيجيب بأحسن عبارة، فأعجب المنصور به فأمر له بمال، فتأخر عنه ودعته الضرورة الى استنجازه، فمر ببيت عاتكة بنت عبد الله بن أبي سفيان الأموي فقال : يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدد لأميل انتهى

فكر المنصور في قوله وقال : لم يخالف عادته ابتداء بالإخبار دون استخبار، إلا لأمر، وأقبل يردد أبيات القصيدة ويتصفحها شيئا فشيئا حتى وقف على قوله فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق لحديث يقول ما لا يفعل

فقال المنصور : يا ربيع، هل أوصلت إلى الرجل ما أمرنا له به ؟ فقال إلى الآن ما وصل إليه، فقال : عجله له مضاعفا، انتهى، وهذا من الذكاء والفطنة من أمير المؤمنين المنصور رحمه الله›(10).

السرية الخامسة من القسم الأول في المشورة

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوما وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تبصر ما منها نأى ودنا ولا ترى نفسها إلا بمرآة

لا أضر على الرأي من الاستبداد، ولا أنفع في الحزم من الاستعداد، وأما ما وقع للرشيد لما استولى عليه وزراؤه البرامكة، فأمر بعض الشعراء مغنية فأنشدته قوله :

(10) ما بين العلامتين ساقط من (ش) و (ف).

ليت هنـدا أنجزتنا ما تعـد　　وشفـت أرواحنـا مما نجـد
واستبـدت مـرة واحـدة　　إنما العاجز من لا يستبـد

فكان ذلك سبب الانتقام من البرامكة كما هو معروف، فإن هذا مقام آخر، ونوع من المكر والاحتيال على التوصل إلى كفاية من أريدت كفايته من الأعداء، وذلك من الحكم التي اشتمل عليها الشعر كما قيل :

الشعـر نـار بـلا دخـان　　وللقـوافـي رُقـىً لطيفـه

وأما المشورة لو لم تكن أعظم الأسباب، لسعادة أولي الألباب، ما أمر الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : {وشاورهم في الأمر} مع أنه صلى الله عليه وسلم في غاية الاستغناء بأنوار الهداية، بما تكفل الله له به من إرشاده، ووعده به من تأييده وإمداده، وإنما أمره الله تعالى بذلك ليستن به غيره، لما علم فيها من الفضل الكثير، قال صلى الله عليه وسلم : «ما تشاور قوم إلا هداهم الله لأرشد أمورهم»(11)، وقال صلى الله عليه وسلم : «المشورة حصن من الندامة، وأمان من الملامة»(12)، وقال صلى الله عليه وسلم : «لن يهلك امرؤ عن مشورة»(13)، وقال صلى الله عليه وسلم : «من نزل به أمر فشاور فيه من هو دونه تواضعا عزم له على الرشد»(14)، وقال الإمام علي كرم الله وجهه : «نعمت الموازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد، وقال الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الرأي الواحد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين، والثلاثة آراء كالثلاثة خيوط لا تكاد تنقطع، وقال عمر بن عبد العزيز : المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يعضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم، وقال بعض الحكماء : من كثرت استشارته، حمدت إمارته، وقيل لحكيم : ما يؤيد العقل وما يضر به ؟ فقال يؤيده ثلاثة : التثبت، والتجربة، والمشورة، ويضره ثلاثة : العجلة، والتهاون، والاستبداد، وقيل لرجل من بني عبس : ما أكثر صوابكم ! فقال : نحن ألف رجل فينا حازم واحد، فنحن نشاوره ونطيعه فصرنا ألف حازم.

---

(11) لم نقف على تخريجه.
(12) لم نقف على تخريجه.
(13) لم نقف على تخريجه.
(14) لم نقف على تخريجه.

ويطلب في المشاور أمور : منها أن يكون ذا عقل وافر، قال صلى الله عليه وسلم : «استرشدوا العاقل ترشدوا»(15) وقال عبد الله الكامل لولده محمد النفس الزكية : احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان عدوا، وقال بعض الحكماء : من استعان بذوي العقول، فقد فاز بإدراك المأمول، ومنها أن يكون ذا تجربة للأمور، ولذلك قال مولانا علي رضي الله عنه : رأى الشيخ خير من مشورة غلام، ومنها أن يكون ذا دين، فإن من غلب عليه الدين كان مأمون السريرة، موفق العزيمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «من أراد أمراً فشاور فيه مسلما تقيا وفقه الله لأرشد أموره».

ومنها أن يكون ذا نصيحة ومودة، فبذلك يمحض الرأي، ويصدق الفكر، قال بعض الحكماء : بترداد الفكر ينجلي عنك الغمر(16)، ولا يكون ذلك إلا من ناصح ودود، ومنها أن يكون سليم الفكر من هم قاطع، وشغل مانع، فإن من غمرت فكره الهموم، لم يستقر له رأي، وقد مر حارثة بن بدر بالأحنف بن قيس فقال له : لولا أنك عجلان لشاورتك، فقال له : أجل، كانوا لا يشاورون الجائع ولا العطشان ولا الحاقن ولا المضل، يعني الذي ضل رحله أو حمله، ولا الطالب، وكان كسرى إذا أهمه أمر استشار مرازبته، فإن قصروا في الرأي عاقب قهارمته، وقال : أبطأتم بأرزاقهم، فعلقت خواطرهم بها، فأخطأوا في رأيهم، وكان ملوك العجم إذا أرادوا مشاورة رجل أعطوه قوته وقوت عياله لسنة حتى يتفرغ لبه لما يراد منه.

ومنها أن لا يكون له في الأمر غرض، فإن الرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد، ومنها أن لا يكون المشاور ممن سبقت له عداوتك ثم دعته الضرورة الى مصادقتك، فأظهر لك غاية المحبة والنصيحة فإنه يتربص بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولا يرتجى صلاحا إلا في فسادك، ولا يرى رفعة إلا في سقوط جاهك، قال الأخطل :

إن الضغينة تلقاها وإن قدمت   كالضر(17) يكمن حينا ثم ينتشر

(15) رواه الخطيب، حديث ضعيف.

(16) الغمر مثلث الغين ومحرك. وهو من لم يجرب الأمور. الجاهل الغر.

(17) في (ش) فالضر.

وفي حكمة الهند : إذا أحدث لك العدو صداقة لعلة الحاجة إليك، فمع ذهاب العلة ترجع العداوة، كالماء تسخنه فيسخن، فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله باردا، والشجرة المرة لو طليتها بالعسل وسقيتها برب النخل ما أثمرت إلا مرا، وكل ذي عقل سليم يدرك ذلك كما قال دريد بن الصمة :

وما تخفى الضغينة حيث كانت ولا النظر المريض من الصحيح

روي أن بعض ولاة خراسان قطع يد رجل وكان ذلك الرجل دليلا خريتا ثم احتاج ذلك الوالي إلى دليل في بعض غزواته، فلم يجد غير ذلك المقطوع، فدعاه وأحسن إليه ثم سار به وقال له : إني أختصر لك الطريق، فمضى به في مفازة ثلاثة أيام ثم قال له : اسمع إنك الآن في فلاة بينها وبين الماء ثلاثة أيام من كل ناحية كلها سبخاء قرعاء لا ماء فيها ولا مرعى، وأنت وكل من معك هالك، فافعل ما بدا لك، فمات هو ومن معه من الجنود عطشا، ومن كلام الحكماء : من نالته إساءتك، فهمته مساءتك، وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس :

اذا وترت امرأ فاحذر عداوته من يزرع الشوك لم يحصد بها عنبا
ان العدو وان ابديى مسالمة اذا رأى منك يوما فرصة وثبا

وقال غيره :

ذعرته ثم أفسحت المجال له فلا تنم عنه فالمذعور يقظان

السرية السادسة من القسم الأول في تدبير الحروب

هذا من أشد أركان الملك، فإن أهل الإمامة الكبرى، والرياسة العظمى، بصدد معاداة كل أحد، روى أن المأمون كان في سفر فانعزل عن الجيوش لحاجة، فلما بعد عنهم لقي أعرابيا فسأله المأمون عن اسمه وبلده، فأجابه عن ذلك كله، فقال الأعرابي : قد سألتني فأجبتك، فأنا أسألك من أنت ؟ فقال له : أنا جميع العرب، فقال له : إذن أنت من قريش، فمن أيهم ؟ فقال له : أنا من الذين تعاديهم وتكرههم جميع قريش، قال له : إذن أنت من بني هاشم، فمن أيهم ؟ قال : أنا الذي تعاديه وتكرهه جميع بني هاشم، فقال : إذن أنت المأمون، السلام عليك يا أمير المؤمنين، انتهى.

فإذا كان الإمام بهذه المثابة فما أحوجه إلى الاعتناء الكثير بتدبير أمور الحرب، قال بعض العلماء الحكماء : إن الله تعالى قد جمع آداب الحرب في آية واحدة، وهي قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين}. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشا أو سرية يقول : «اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، تقتلون من كفر بالله، لا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً»(18)، وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ما نصه :

إلى سعد بن مالك ومن معه من المسلمين، أما بعد، فإني آمرك ومن معك بتقوى الله، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من العدو، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله، وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل من هو شر منهم، إذ عملوا بمعاصي الله، كفرة المجوس، (فجاسوا خلال الديار، وكان وعدا مفعولا)، واسألوا العون من الله على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم، وترفق على المسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص منهم ولا من قوتهم، فإنهم صائرون إلى عدو مقيم، جام النفس والكراع، وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، لتكون لهم راحة بها، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأوا أحدا من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

(18) رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة والدارمي والإمام أحمد.

بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فوفوا لهم ما صبروا لكم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح، وإذا وطئتم أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض ممن تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وإذا دنوت من أرض عدوك فأكثر من الطلائع، وبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا ابتدارهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، واختر للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، واجعل أمر السرايا إلى أهل الرغبة في الجهاد والصبر على الجلاد، ولا تخص أحدا بها بهوى فيضيع من أمرك ورأيك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليهم فيه ضيعة، وإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ولا تعاجلهم بالمناجزة، ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعه بك، ثم أذك حراسك على عدوك، والله ولي أمرك ومن معك وولي النصر لكم على عدوكم وهو المستعان هـ.

وهذه الرسالة المباركة ما تركت قليلا ولا كثيرا مما يحتاج إليه في الحرب، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحرب خدعة»(19)،هـ وقالت الحكماء : رب حيلة أنفع من قبيلة، وقال المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهي المحل الثاني

فالحازم من الملوك هو الذي يدبر مملكته بالآراء والمحاولة والاحتياط والمداراة التي لا تخل بمنصب الملك، وآخر ما يرتكب قرع الكتائب انتهى، وقد أوصى عبد الملك بن مروان أميرا سيره لأرض الروم فقال له : أنت تاجر الله تعالى لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحا تجر وإلا تحفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك انتهى.

---

(19) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي.

وينبغي لمن وجه جيشا أن لا يقدم عليه إلا الرجل الشجاع الباسل البطل، الرابط الجأش، الجريء القلب، الصادق البأس، الممارس للحروب، المقارع للأقران، فقد قالت الحكماء : أسد يقود ألف ثعلب خير من ثعلب يقود ألف أسد، انتهى. وأول ما يجب عند إرادة الحرب هو إذكاء العيون كما تقدم في رسالة مولانا عمر رضي الله عنه، ليكون ما يأتي أمير الجيش وما يذر من توقف وحركة وسرعة وإبطاء على معرفة منه، وتيقن بسرائر عدوه، فليختر أمير الجيش لذلك قوما عقلاء فطناء نصحاء أوفياء، لا يقدر غيره على استخراج ما في ضمائرهم، فإن ظفر بهم على هذه الصفة فقد أصاب حاجته، وإن لم يصب على هذه الصفة إلا واحدا ضم إليه جماعة لا يعرف بعضهم بعضا، ويبعثهم مفترقين، فبذلك يعرف صدقهم من كذبهم باتفاقهم واختلافهم، حتى لا يقدم على أمر إلا بعد تيقن حاله، وعلى أمير الجيش أن يخفي نفسه على العدو قدر طاقته، فلا تكون له حالة واحدة يعرف بها من ملبوس أو مركوب أو مستقر أو حلية، بل لا يزال يبدل ذلك ويغيره في أكثر أوقاته حتى يعمي أمره على عدوه، فإنه إذا عرف بزي طلبت غرته، وبحث عليه بكل وجه من وجوه الإذاية والهلاك، فقد اتفق ذلك لكثير من الملوك قبل الإسلام وبعده، وذلك كملك الحبشة باليمن الذي قام عليه سيف بن ذي يزن حسبما ذكر في السير، وكجرجير ملك النصارى بإفريقية الذي قتله عبد الله بن الزبير أيام عثمان بن عفان رضي الله عنهما، كما ذكره أصحاب الفتوحات، وكقضية علي بن عيسى بن ماهان مع طاهر بن الحسين، وكقضية أبي الفتح البارسلان التركي مع ملك الروم وغيرهم ممن يكثر ذكره، ولذلك قالوا : إن أمير الجيش لا يباشر الحرب بنفسه بوجه إلا إذا رأى فرصة يخاف فوتها، أو رأى متورطا في حبائل العدو ورجا إنقاذه، أو رأى ناحية من جيشه يرى فيها خلل ولم يجد من يسده غيره، وليجتهد في إخفاء شخصه عن عدوه في ذلك ما أمكنه، وأما في غير هذه الوجوه فلا ينبغي له أن يباشره، وروي أن المهلب بن أبي صفرة رأى في بعض وقائعه مع الترك اضطرابا من أصحابه، فألقى مغفره على رأسه وتقدم مستسلماً للموت، فأتاه القعقاع بن الأعلم وقال له : أيها الأمير ليس لنا عنك غنى، وأرجو أنك لا تحتاج إلى هذا الذي أردت، ولو أصبت ما كنا إلا كغنم لا راعي لها، وليس للأمير أن يباشر المكافحة ما

وجد من يحامي عنه، فتقدم القعقاع في الناس يحرضهم ويرغبهم في الجهاد، فثابت قوى الجيش فقصدوا الجلاد حتى هزموا العدو انتهى، وقد تقدم لنا في لواء اللمتون أن الشيخ عبد الله بن ياسين قال لأميره يوسف بن تاشفين : إنه وجب عليك حد لابد أن آخذه منك، فقال له : ما هو ؟ فقال لا أذكره لك حتى آخذه منك، فقال له : دونك فكشف القميص عن ظهره، وضربه عشرين سوطا، فقال له : إنك باشرت القتال بنفسك وغررت بالمسلمين.

ومن مكايد الحرب اتخاذ الكمائن، قالوا ويجب أن يختار لها المواضع الخفية المنخفضة، وينتخب لها من الجند أهل التيقظ والجرأة ومن ليس به سعال، ومن الدواب ما ليس له صهيل، ويكون إقدامهم بعد الثقة بإصابة الفرصة، وليكن إيقاعهم كضرام الحريق سرعة، ويكون نهوضهم من مكمنهم في وقت يظن فيه غفلة الحراس، فإن كان في الصيف ففي أشد ما يكون من الحر، وفي الشتاء في أشد ما يكون من البرد، وليكن أكبر همهم النكاية في العدو، قال بعضهم : وكما يجب في حق الملك اتخاذ الجند من السيوف كذلك ينبغي له اتخاذ جند من الكفوف، وذلك مما يتنافس فيه أفاضل الملوك وأخيار الوزراء، ومن أحسن ما روي في ذلك ما رواه الفهري قال : كان نظام الملك وهو الذي تنسب إليه المدرسة النظامية ببغداد قد توزر لأبي الفتح بن البارسلان ملك الترك، وكان وزيرا لأبيه من قبله، فقام بدولتهما أحسن قيام، فشد أركانها، وشيد بنيانها، واستمال الأعداء، ووالى الأولياء، وعم إحسانه العدو والصديق، والمحب والمبغض، والقريب والبعيد، حتى ألقى الملك العزيز بجرانه، وذل الخلق لسلطانه، والذي مهد له ذلك مع توفيق الله تعالى أنه أقبل بكليته على مراعاة حملة الدين، فبنى المدارس للعلماء والرباطات للعباد والصلحاء، وأجرى لهم الجرايات مشاهرة، ورتب لهم الكسا، وعم بالخيرات جميعهم، فلم يكن أحد ينتمي إلى العلم وإلى الصلاح إلا ونالته كرامتهم الشاملة السابغة في جميع مملكتهم، وهي مسيرة أربعة أشهر من أطراف الشام إلى ما وراء نهر جيحون، وما بالشام والعراقين وسمرقند وخراسان إلا من عمته صلته وإحسانه، فيخرج من بيوت أمواله في تلك الأسباب الصالحة ستمائة ألف ألف دينار في كل سنة، فاشتغل به السعاة عند الملك وقالوا : هذه الأموال

يقام بها جيش تركز رايته في سور قسطنطينية، فحمله ذلك على أن قال له يوما : يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف ألف إلى من لا ينفعنا بشيء، فبكى نظام الملك وقال للملك يا بني : أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أبلغ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تبلغ ثلاثين دينارا، وأنت مشتغل بلذاتك، منهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا جميعا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان، وقسي أقصى مدى مرماها ثلاثون ذراعا، وهم معك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا نامت جيوشك قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدي مولاهم، فأرسلوا دموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم، يدعون لك ولجيوشك، فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وببركاتهم تمطرون، وبدعواتهم ترزقون، تخرق سهام دعائهم إلى السماء السابعة وتجاوزها بالدعاء والتضرع، فبكى أبو الفتح وقال لنظام الملك : يا أبت أكثر لي من هذا الجيش، فجزاك الله على حسن نظرك خيرا.

السوبية السابعة من القسم الأول في جباية المال

إذا أخذ المال من وجهه ووضع في محله أمدته البركات، وحفظته العنايات، فكان نافعا لصاحبه، وإن كان قليلا، مكفولا بالله وكفى بالله كفيلا، وإن كان مجموعا من تهاوش أذهبه الله في نهائر(20) وإن كان كثيرا فهو كأمس الدابر، وهو على الوصف المحمود مادة الملك، وأغزر عناصره، وأقوى مؤيده وناصره، وقد صنع أرسطاليس للإسكندر الشكل الدوري المعروف عند الحكماء، وكتب عليه : العالم بستان سياجه الدولة، الدولة سلطان تعضده السنة، السنة سياسة يسوسها الملك، الملك راع يؤيده الجيش، الجيش أعوان يكفلهم المال، المال رزق تجمعه الرعية، الرعية عبيد يقودهم العدل، العدل مألوف به صلاح العالم، العالم بستان، انتهى، وقولنا : وهو على الوصف المحمود أي إذا أخذ من وجهه وصرف في محله، هذا

(20) في الأصل "نهابر" وصوابه "نهائر".

القيد لابد منه في كونه نافعا لصاحبه، وإلا كان وجوده كعدمه، وكثرته كقلته، وهذا مشاهد الضرورة كم رأينا وسمعنا من جمع من الأموال ما لا يعد فلم ينفعه عند الحاجة إليه، بل يكون ماله أشد ضررا عليه، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون لا يدخرون الأموال بل يبذلونها في وجوهها، ويصرفونها في حقوقها، فقد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال الثقيلة فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد، ‹وقدمت على عمر رضي الله عنه خزائن كسرى التي ليس على وجه الأرض أكثر منها ولا أفخر ولا أنفس من الذهب والفضة واليواقيت والجواهر والمسك والعنبر والحلي والحلل فوضعت في المسجد، فجلس إليها فلم يقم حتى لم يبق منها درهم واحد›(21) وما ذاك إلا أن ادخارها غير نافع، وإنما ينفع ادخار الرجال وما يقوم بهم من آلات الحرب والكراع، قال بعضهم : بيوت الرجال، خير من بيوت الأموال، لقوله تعالى {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} وكان بعض الحكماء يقول : عدو الملك بيت ماله، وصديقه جنده، فإذا ضعف أحدهما قوى الآخر، فإذا ضعف بيت المال ببذله للحماة قوي الناصر، واشتد بأس الجند، وأدرك الملك كل ما أراد، وإذا قوى بيت المال بالاختزان ضعف الحماة، وقل الناصر، وهان أمر الملك، فوثب عليه الأعداء انتهى، وقد أوصى بعض الملوك ولده فقال له : يا بني لا تجمع الأموال لتتقوى بها على الأعداء، فإن في جمعها تقوية للأعداء، فإنك إذا جمعت الأموال ضعفت الرجال، فاحتقرك الصديق ووثب عليك العدو انتهى.

ولما قام أبو عبد الله داعية بني عبيد في قبيلة كتامة على أمراء إفريقية واستجابت لدعوته البربر وزحف بهم إلى السلطان زيادة الله القائم بدعوة بني العباس جعل زيادة الله يعطي للناس بلا عد، بل يحثو للرجل ما يحمله من الذهب بالأطباق، ويعطيه من الخيل والسلاح فيخرج من عنده ويذهب للداعية، فلم ينفعه ماله المدخر حين احتاج إليه، لأنه إنما كان ادخر عداوة الناس لما احتجن عليهم مال الله المأخوذ لأجلهم، فكانوا يتربصون به الدوائر، فلما أمكنهم القيام لم ينفعه حينئذ دفع المال بعد فوات محله، وهذا دليل على عدم الانتفاع بالمال المدخر عن أهله.

---

(21) ما بين العلامتين ساقط من (م) و (ش).

وأما قلة البركة فيه فإنه روي أنه لما مات هشام بن عبد الملك بن مروان خلف أحد عشر ابنا، وكان أوصى لهم بمال فاقتسموه، فناب كل واحد منهم ألف ألف دينار، ثم إن الله تعالى محق ذلك كله في مدة قليلة، حتى ما كان يرى من ولده أحد إلا وهو فقير، ولقد شوهد أحدهم يوقد في تنور الحمام، بملء بطنه، ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دعا أولاده وكانوا أحد عشر، فلما نظر إليهم بكى وقال : يأبي وأمي من خلفتهم بعدي فقراء، فقال له مسلمة بن عبد الملك : تعقب يا أمير المؤمنين فعلك، وتدارك أمرك، وأغنهم فما يمنعك أحد في حياتك، ولا يرجعه الوالي بعدك، فنظر إليه مغضبا وقال : يا مسلمة، منعتهم إياه في حياتي، وأشقى به بعد موتي، أما ولدي فبين رجلين، إما مطيع فالله رازقه وكافيه، وإما عاص فلم أكن لأعينه على معصية الله، ثم التفت إلى بنيه وقال : إني لم أترك لكم مالا ولكني تركتكم وما لأحد قبلكم اتباعة، ولا تقع على واحد منكم عين أحد إلا ويرى له عليه حقا، فلما مات خلف بضعة عشر دينارا، فجهز منها بخمسة، واقتسموا الباقي، فحصل لكل واحد ثلاثة أرباع الدينار، ثم إن الله وسع عليهم حتى إن أحدهم جهز مائة فارس من خالص ماله في سبيل الله تعالى.

القسم الثاني : فيما يكون به حسن الملك وكماله، ويظهر به رونقه وجماله وفيه ثلاث سرايا، وخصال حميدة ومزايا.

السرية الأولى من القسم الثاني في الجود

أما الدرجة العليا من الجود فهي خاصة بنبينا مولانا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد كتب في الأزل بلسان القدم، أنه لولاه : لم تخرج الدنيا من العدم(22)، وذلك أمر واضح شهير صريح، كما قال البصيري في بردة المديح :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

هذا في سر الحقيقة، وأما في الشاهد فقد كان صلي الله ليه وسلم لا يبارى في الوجود ولا يجارى، قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله

(22) وجدناه هكذا ولم نقف على أنه حديث أو اثر.

عنهما كان رسول الله صلى اله عليه وسلم : أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في رمضان إذا لقيه جبريل، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة(23) انتهى، وسأله رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال لهم : أسلموا، فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة أخرى، ثم مائة أخرى، فكان صفوان يقول : كان محمد أبغض الناس إلي، فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إلي، وأعطى المؤلفة أزيد من ألف بعير في يوم واحد، ورد على هوازن سبيهم وكانوا ستة آلاف، وأعطى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه من الذهب ما لم يطق حمله، وجيء يوما بتسعين ألف درهم ففرقها وما رد سائلا حتى فرقت، وأهدي له طبق فيه رطب وقثاء فرده مملوءا ذهبا، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : «الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»(24)، ويقول : «الكريم قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من الناروالبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار«(25)، وقال : «اصطناع المعروف يقي مصارع السوء»(26) وقال لبلال : «أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا»(27)، وقال له رجل أوصني يا رسول الله فقال له : «لا تحقرن شيئا من المعروف أن تأتيه ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، أو تلقي أخاك بوجه طلق»(28)، وقال : «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»(29).

واقتدى به صلى الله عليه وسلم أصحابه وأهل بيته، روي أن أبا بكر رضي الله عنه أنفق على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانين ألفا، وروى أنه خرج عن ماله ثلاث مرات، وورد عليه في صدر خلافته مال من بعض العمال فصبه في المسجد وأمر فنودي : من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم دين أو عدة فليحضر، فجاء أبو أيوب وقال : إن

(23) رواه البخاري بلفظ آخر.
(24) رواه الطبراني في الكبير.
(25) رواه الترمذي.
(26) رواه البخاري.
(27) رواه الطبراني في الكبير.
(28) رواه مسلم بلفظ آخر.
(29) رواه الطبراني في الأوسط.

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي : «إن جاءني مال أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا وأشار بكفيه» فقال له أبو بكر : اذهب فخذ، قال فحفنت حفنة فقال : عدها، فوجدت فيها خمسمائة دينار، فقال عد مثليها، فانصرفت بألف وخمسمائة، ثم قسم الباقي على المسلمين.

وكان عمر رضي الله عنه يلبس المرقع ويأكل الخشن ويعطي نفائس الذخائر للمسلمين، ولا يرضى بإعطاء القليل، وكان يقول إذا أعطيت فأغن، ولما فتح العراق وجيء إليه من المال بما لم ير مثله قيل له : أدخله بيت المال، قال : لا ورب الكعبة، لا يرى تحت سقف بيت المال حتى يقسم، فغطي في المسجد بالأنطاع، وحرسه رجال من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أصبح ورأى الذهب والفضة والدرة والياقوت والزبرجد يتلألأ بكى، فقيل له : ما هذا يوم بكاء، ولكنه يوم شكر وسرور، فقال : والله ما كثر هذا في قوم إلا رجع بأسهم بينهم، ثم توجه الى القبلة وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أكون متدرجا، فإني أسمعك تقول «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون» ثم قال أين سراقة ؟ فأتى به أشعر الذراعين فأعطاه سواري كسرى فقال البسهما، ففعل، فقال : قل الله أكبر، فقال : الله أكبر، فقال : قل الحمد لله الذي سلبهما كسرى لكفره، وألبسهما أعرابيا من بني مدلج لإيمانه، ولم يعط سراقة سوى السوارين، وكان فيهما غنى الأبد، وقسم سائر المال على المسلمين، ولم يدخر منه شيئا، وإنما أعطى السوارين لسراقة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له يوما وقد نظر إلى ذراعيه : «كأني بك وقد لبست سواري كسرى، فقال سراقة ملك الملوك، قال : نعم وقال عمر رضي الله عنه لما قسم تلك الأموال : إن الذي أدى إلينا هذا لأمين، فقال رجل : لما كنت أنت أمينا كان الناس كلهم أمناء، ولو رتعت لرتعوا، فقال : نعم.

وكان عثمان رضي الله عنه ذا جود وعطاء يتبع بعطاياه وجوه البر، فقد روي أنه لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو تبوكا رغب الناس في النفقة في سبيل الله تعالى، فقال عثمان : علي مائة بعير بأقتابها وأحلاسها، ثم رغب صلى الله عليه وسلم في النفقة في سبيل الله

فقال عثمان : وعلي مائة أخرى بأقتابها وأحلاسها، ثم فعل مثل ذلك في الثالثة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما على عثمان ما فعل بعد هذه»(30)، وكانت في المدينة المشرفة بئر جديدة لرجل من اليهود فما يسقي أحد منها إلا بثمن، فاشتراها عثمان بأربعين ألفا وصرفها للمسلمين، وكان بإزاء المسجد بيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من اشتراه وزاده في المسجد فله الجنة، فاشتراه عثمان بعشرين ألفا وأدخله المسجد(31)، قال الحسن البصري : شهدت عثمان بن عفان يخطب وأنا قد راهقت، فلم أر منظرا أحسن منه، فسمعته يقول : أيها الناس أغدوا علي كسوتكم فيجاءُ بالحلل، فتقسم بينهم حتى إنه والله يقول : يا معشر المسلمين، اغدوا علي السمن والعسل فيقسم بينهم، ثم قسم بينهم الطيب من المسك والعنبر وغيره، والأعطيات دارة والخير كثير انتهى.

وكان الإمام علي رضي الله عنه في الدرجة العليا من الجود، قدم عليه أعرابي فقال : يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، رفعت إليك حاجة قد رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله وشكرته، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال له : خطها، فإني أكره أن أرى عليك مذلة السؤال، وكذلك كان يقول رضي الله عنه كل من عرضت له حاجة عندي فليرفعها إلي في كتاب، فإني أكره أن أرى ذل المسألة في وجوهكم، فكتب الأعرابي في الأرض إني عار وأنا فقير، فقال علي لغلامه : يا فتى ائت بالحلة الفلانية، فدفعها الى الأعرابي فلبسها وقام بين يديه وأنشد :

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... وسوف أكسوك من باقي الثنا حللا
إن نلت حسن ثناء نلت مكرمة ... وليس تبغي بما قد نلته بدلا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه ... كالغيث يحيي نداه السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به ... كل امرؤ سوف يجزى بالذي فعلا

(30) رواه البخاري في كتاب التفسير.
(31) رواه البخاري ومسلم.

فقال علي رضي الله عنه : هات يا فتى الدنانير التي عندك وادفعها للأعرابي، ثم قال له يا أعرابي أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير فلأدبك، وكانت مائة دينار، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «تشكَّروا لمن أثنى عليكم (32)، انتهى.

وقال رجل لمعاوية يوما أعطني فإني أتيت من عند أبخل رجل وأجبنه وألكنه، فقال معاوية : من هو ويحك ؟ قال علي، فقال له : كذبت والله لو كان لعلي بيت تبر وبيت تبن لأنفق تبره قبل تبنه، وما كان علي قط في فئة إلا غلبت، ولا أخطب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي، فقم قبحك الله، وأشرف الإمام علي يوما في أيام ولايته على بيت ماله فرأى فيه فضة كثيرة وذهبا كثيرا فتغير لونه وأرعد وقال : يا بيضاء ابيضّي وغري غيري ويا حمراء احمري وغري غيري، ثم أمر بقسم جميعه على الناس وأمر بكنسه ورشه، ودخل وصلى فيه وقال : الآن استرحت والحمد لله، وحسبك من منقبة في جوده رضي الله عنه جوده بنفسه في الليلة التي مكرت فيها قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم، التي أنزل الله في شأنها قوله تعالى : {وإذ يمكر بك الذين كفروا} الآية، فقد فدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه، فلبس لباسه، وارتدى بردائه، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انج بنفسك ودعني في مكانك أقيك بنفسي، فنام على فراشه، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرجو الله أن يقيك شرهم(33)، وروي أن الله تعالى قال في تلك الليلة لجبريل وميكائل عليهما السلام، إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالزيادة، فاختار كل منهما أن تكون الزيادة له، فأوحى الله إليهما : هلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبيي محمد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض واحفظاه من عدوه، فكان جبريل عند رأسه وميكائل عند رجليه، وهما يقولان بخ بخ، من مثلك يا بن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة، وفي ذلك أنزل الله {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة{ الله}(34)،هـ.

---

(32) رواه ابن عساكر في تاريخه، والأصفهاني في ترغيبه.

(33) رواه الطبراني.

(34) متفق عليه.

هذا بعض البعض مما روى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم في هذه الخصلة التي هي الجود، وأما بقية المشاهير من الصحابة فإنه لا يمكن أن يجمعه ديوان وذلك كالحسنين السبطين رضي الله عنهما، وابن عباس وابن جعفر وابن عوف وطلحة بن عبيد الله ومن لا يحصى من المهاجرين والأنصار.

وأما أجاود الملوك من الدولتين الأموية والعباسية ومن بعدهما، فلو ذهبنا الى ذكر القليل من ذلك لخرجنا عن المقصود، ولا بأس بالإلمام بما فيه غرابة أو طرفة أو حكمة، من ذلك ما حكى عن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه مرض مرة فاستبطأ الناس في عيادته فسأل فقيل له : إنهم يستحيون منك لمالك عليهم من الديون، فقال : أخزى الله مالا يمنع من زيارة الإخوان، فأمر مناديا ينادي من لقيس عليه مال فهو في حل، فازدحم الناس عليه حتى كسرت عتبة بابه من كثرة العواد، ووقفت عليه امرأة يوما وقالت له : أشكو إليك قلة الجردان في بيتي، تعني الفئران، فقال : ما أحسن هذه الكناية، فأمر أن يملأ بيتها بالحنطة والإدام وسائر الأقوات، ومن ذلك ما حكى عن عرابة الأوسي الذي قيل فيه :

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين(35)

قيل إنه لما ضعف حاله في آخر عمره خرج الى المسجد ويده اليمنى على كاهل غلام، ويده اليسرى على كاهل غلام، وهما يقودانه لأنه صار أعمى، فلقيه رجل في طريقه فسلم عليه وقال له : إني رجل غريب انقطعت بي السبل، ونفدت نفقتي وقصدتك لتعينني بما يجري الله على يديك، فرفع يديه عن الغلامين وقال له خذهما مباركا لك فيهما، والله ما يملك عرابة غيرهما، وجعل يقول : من يأخذ بيدي الى المسجد وأجره على الله، ومن الأجواد عبيد الله بن أبي بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاه، روي أنه كان ينفق على جيرانه أربعين دارا عن يمينه وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، يقوت الجميع ويكسوهم ويضحي لهم، وكان يعتق كل عيد مائة رقبة، وروي أنه اشترى يوما جارية بعشرة

(35) عرابة بن أوس الحارثي الأنصادي من سادات المدينة الأجواد المشهورين، أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم صغيرا ترفي بالمدينة من "الاصابة" ج 2 ص 473.

آلاف وقال لغلامه ائت بدابة تحمل عليها، فقال له رجل : هذه دابتي فقال احملوها عليها إلى داره، ومن الأجواد مخلد بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، كان كأبيه وجده وأهل بيته المهالبة، أنشده رجل :

آل المهلب قوم إن نسبتهم ... كانوا الأكارم آباءا وأجدادا
لو قيل للمجد حدْ عنهم وخلهم ... بما احتكمت من الدنيا لما حادا
إن المكارم أرواحَ يكون لها ... آل المهلب دون الناس أجسادا

فأعطاه مائة ألف درهم، ثم عاد إليه فقال له مخلد : ألم تكن أتيتنا قريبا فأجزناك، قال : بلى، ولكن ذكرت قول الكميت فيك :

سألناه الجزيل فما تلكا ... وأعطى فوق منيتنا وزادا
فأعطى ثم أعطى ثم عدنا ... فأعطى ثم عدت له فعادا
مرارا ما أعود إليه إلا ... تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

فأعطاه ضعف ما كان أعطاه قبل، ومات مخلد هذا في حياة أبيه يزيد، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز، وقال : اليوم مات فتى العرب، ولو أراد الله بأبيه خيرا أبقاه له، ثم أنشد عمر بن عبد العزيز فيه متمثلا :

على مثل عمرو تذهب النفس حسرة ... وتضحى وجوه القوم مغبرة سودا

ومن أجاود العرب المضروب بهم الأمثال في الدنيا معن بن زائدة الشيباني أحد أمراء الدولتين المروانية والعباسية، روى أن الصاحب بن عباد فرق على الناس كسا كثيرة، فسمع بذلك بعض شعراء زمانه فكتب إليه بهذه الأبيات :

أيا من عطاياه تدني الغنى ... إلى راحتي من نأى أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين ... كسا لم تخل مثلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في ... ثياب من الخز إلا أنا

فقال الصاحب : قرأت في أخبار معن بن زائدة أن رجلا سأله مركوبا فأمر له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية ونعل وقال : لو علمت مركوبا غير هذا لأمرت لك به، وأنا قد أمرت لك بجبة وقميص ودراعة وفروة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وكساء وجورب وخفين، ولو علمت ملبوسا غير هذا لأمرت لك به انتهى. وروي أن رجلا قصد معنا فقيل له :

هو داخل هذا البستان، فأخذ عودا فنقش فيه هذا البيت وجاء الى مدخل الماء للبستان فألقاه في الماء والبيت هو هذا :

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فليس إلى مَعْنٍ سواك رسول

فدخل الماء بالعود فرآه معن فأخذه وقرأه وقال : انظروا هل بالباب أحد ؟ فوجدوا الرجل فأدخل عليه وقال له : أنت صاحب هذا العود ؟ قال نعم، فأمر بإنزاله في محل، وبعث إليه مائة ألف ووضع العود تحت وساده، فلما كان الغد قرأ العود أيضا وبعث إليه بمائة ألف أخرى، وفي اليوم الثالث قرأ العود وبعث إليه بمائة ألف أخرى، فلما رأى الرجل كثرة المال الذي وصل إليه فاستعظمه وخاف ألا يبقى له، فجمع تلك الأموال وذهب بغير استئذان، فلما كان اليوم الرابع بحث عنه فلم يوجد له خبر، فقال معن : عزمت أن أبعث إليه كل يوم مائة ألف كلما قرأت شعره حتى يفنى جميع ما في بيوت أموالي. كان معن بن زائدة يتصرف لبني أمية في أنواع من الولايات، وكان منقطعا الى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقين، فلما وقعت الحروب التي بين ابن هبيرة وأبي جعفر المنصور أبلى فيها معن بلاءا عظيما، فلما قتل ابن هبيرة خاف معن فاختفى، واشتد طلب أبي جعفر له، وجعل لمن يأتيه به عشر ديات، قال معن : فلما طال بي الأمر تعرضت للشمس حتى حال لون وجهي، وخففت عارضي، ولبست جبة صوف، وركبت جملا، وخرجت في زي الأعراب متوجها الى البادية، فلما خرجت من باب المدينة تبعني أسود متقلدا بسيفه، حتى إذا بعدنا عن الحرس قبض على خطام البعير وأناخه، وقبض على يدي، فقلت له : مالك ؟ فقال أنت طلبة الملك، فقلت : ومن أنا حتى يطلبني الملك، قال : ألست معن بن زائدة ؟ فقلت له لست بمعن، فقال أنا أعرف بك منك، فلما رأيت منه الجدّ قلت له : عندي جوهر هو أضعاف ما جعله المنصور لمن يأتي بي إليه، فخذه، ولا تكن سبب سفك دمي، فقال : هاته، فأعطيته إياه، فلما نظر إليه قال : صدقت في قيمته، ولكن لست أقبله منك حتى أسألك عن شيء، فإن صدقتني أطلقتك، فقلت : قلْ، فقال : إن الناس قد وصفوك بالجود، فأخبرني هل وهبت مالك كله قطُّ، قلت لا، قال : فنصفه ؟ قلت لا، قال فثلثه ؟ قلت لا، حتى بلغ العشر فاستحييت، فقلت أظن أني فعلت

هذا، قال : ما ذاك بعظيم، أنا رجل رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما، وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير، وقد وهبته لك، ووهبتك لجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، فلا تعجبك نفسك، ولتحقر بعد هذا كل شيء تفعله، ولا تتوقف عن مكرمة، ثم رمى العقد في حجري وأطلق خطام البعير وقال : انصرف في حفظ الله، فقلت يا هذا، قد والله نصحتني وأحسنت إلي، فخذ ما دفعته لك فإنني عنه في غنى، فضحك وقال : أردت أن تكذبني في مقالتي هذه، والله لا أخذت في معروف ثمنا أبدا، ومضى لسبيله، قال معن : فوالله لقد طلبته بعد أن أمنت وبذلت لمن يأتيني به ما شاء، فما عرفت له خبرا، ولم يزل معن مختفيا إلى أن كان يوم الهاشمية، وكانت في ذلك اليوم مقتلة عظيمة، وكان معن متواريا بالقرب، وهو يوم ثار فيه جماعة من أهل خراسان على أبي جعفر في المدينة التي بناها السفاح بالأنبار، وتسمى الهاشمية، فخرج معن متلثما فتقدم وقاتل بين يدي المنصور قتالا عظيما أبان فيه نجدة وشهامة، وفرق القوم شذر مذر، فلما أفرج عن المنصور قال : من أنت ؟ فكشف لثامه، وقال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين، أنا معن بن زائدة، فأمنه وكساه وحباه وصار من خواصّه، وقال في ذلك شاعره المنقطع إليه مروان بن أبي حفصة قصيدة بديعة يمدحه بها فأعطاه عليها مائة ألف درهم، فروي أن مَعْناً دخل يوما على المنصور فقال لاهيه يا معن أتعطي ابن أبي حفصة مائة ألف على أن قال فيك :

معن بن زائدة الذي زيدت به ... شرفا إلى شرف بنو شيبان

فقال لا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته ذلك على قوله في هذه القصيدة :

ما زلت يوم الهاشمية معلنا ... بالسيف دون خليفة الرحمان
فمنعت حوزته وكنت وقاءه ... من وقع كل مهند وسنان

فقال أحسنت، انتهى.

وقد جمح بنا القلم عما نحن بصدده من الاختصار، لأن النفوس تستلذ مطاعم الكرم وإن كان حبله اليوم قد انقطع وانصرم، والمراد إنما هو الإشادة بفضيلة الجود، الذي اتفق أهل العقول المتقدمون والمتأخرون على أنه محبوب عند كل أحد محمود، قال الحكماء : إن الجود أساس الملك

وكماله، وحسنه وجماله، تعنو له الوجوه، وتذل له الرقاب، وتسترق به الأحرار، وتستمال به الأعداء، وتحقن به الدماء، فكم من شخص فارق بسببه وطنه وأهله وأحبابه، وكم من تارك لأجله دينه وملته، وأحق الناس به أحوجهم إلى عطف القلوب عليهم، وصرف الوجوه إليهم، وهم الملوك وولاة الأمر، انتهى.

وقد حكى أن الامام أبا الوليد بن رشد الجد(36) لما سمع أخبار الشيخ أبي العباس سيدي أحمد بن جعفر المعروف بالسبتي، وجه صاحبا له وقال له : الزم هذا الرجل حتى تستقرئ أحواله على التمام وأخبرني بذلك، فلازمه ذلك الرجل سنة كاملة، فلما رجع إلى ابن رشد قال له حاصل الخبر عنه أنه رجل تدور أموره كلها على الصدقة، فقال أبو الوليد : لعله من قوم يرون أن الوجود، ينفعل بالجود، انتهى، هذا مبلغ علم أبي الوليد في شأن من لم يدر ما وراء ما هو فيه، والمراد من حكاية هذا الكلام قوله، ان الوجود ينفعل بالجود، فإنه صحيح لا يحتاج إلى برهان، دليله المشاهدة والعيان.

وليكن هذا القدر كافيا في هذه السرية، وإلا لو أراد الإنسان أن يعد من اشتهر بالجود في الإسلام والجاهلية، لأعجزه ذلك من الملوك وغيرهم مثل حاتم الطائي ومعاصره، أوس بن حارثة، وهرم بن سنان، وعبد الله بن جدعان، وأبي دلف العجلي، وكعب بن مامة، والبرامكة : يحيى بن خالد الذي قيل فيه البيتان اللذان طارت بهما رياح الاشتهار، وبلغا مبلغ الليل والنهار، وهما :

سألت الندى هل أنت حر ؟ فقال : لا ... ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء ؟ قال : لا بل وراثة ... تملكني عن والد بعد والد

وولديه جعفر والفضل، فقد أفرد الناس أخبار جودهم ومآثرهم بالتأليف، ومثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن بن سهل، ومثل طاهر بن الحسين الخزاعي وولده عبد الله بن طاهر وغير من ذكر ممن يفوت العد، و لا ينتهي إلى حد، والله واسع عليم.

---

(36) أبو الوليد زعيم فقهاء وقته بالأندلس والمغرب ومقدمهم المعترف له بصحة النظر وجودة التأليف ولي قضاء الجماعة بقرطبة سنة 511هـ وله كتاب «البيان والتحصيل» ت 528هـ 1126م شجرة النور ج 1 ص 142.

هذه الخصلة بها تظهر سعادة أهل الرياسة، وتتم المقاصد لولاة الأمر وأرباب السياسة، فمن خلا منها لم يتم أمره، ولم يلح في مشارق الكمال بدره، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحل الأعلى منها، قال ابن عمر رضي الله عنهما، ما رأيت أشجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أنجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال مولانا علي رضي الله عنه : كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، وقال أنس رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عري والسيف في عنقه، وهو يقول : لن تراعوا لن تراعوا، وقال عمران بن الحصين رضي الله عنه : ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب، انتهى.

قيل ما من شجاع إلا وأحصيت له فرّة سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اتفق المؤالف والمخالف على أنه ما نكص قط ولا أحجم، فقد حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الأبطال غير ما مرة، وهو مقبل غير مدبر، وقد قيل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر، لقد رأيته على بغلته البيضاء يركضها نحو الكفار وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وكان عمه حمزة وابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أشد الناس إقداما بعده صلى الله عليه وسلم، وقد تقدم بعض أخبار مولانا علي رضي الله عنه، وأما سيدنا حمزة رضي الله عنه فيكفي فيه ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السماوات : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، وكان يوم بدر معلما بريش نعامة أحمر، ولما أسر عبد الرحمان بن عوف أمية بن خلف وابنه عليا، قال له : يا عبد الرحمان من المعلم بريش نعامة

أحمر ؟ قال : حمزة، قال ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، وكان ذاك كالفحل الهائم لم يلقه أحد إلا صرعه، فقتل من صناديد قريش الذين يعدون بألف أحد عشر رجلا منهم شيبة بن ربيعة وطعيمة بن عدي، وكانت له يوم أحد في المشركين نكاية عظيمة، قتل منهم في أول حملة ثلاثة، منهم أرطاة صاحب لواء المشركين.

ومن مشاهر أبطال الصحابة خالد بن الوليد رضي الله عنه، وكفى في فضله أن النبي صلى الله عليه وسلم سماه سيف الله على الكفار، وكان من عظماء قريش في الجاهلية، له كانت القبة والأعنة، أما القبة فكانوا يجمعون فيها ما يجهزون به جيوشهم، وأما الأعنة فهي قيادة الجيش في الحروب رضي الله عنه، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف الصديق رضي الله عنه ولى خالد اقتال أهل الردة فكان له في ذلك الغناء العظيم كما هو مشهور لا سيما أهل اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب الذين لم يلق الصحابة أشد بأسا منهم، وهم المراد بقوله تعالى {ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد} فلما فرغ من أهل الردة وجهه أبو بكر رضي الله عنه إلى العراق، ووجه أبا عبيدة إلى الشام، فلما بلغ أبو عبيدة إلى الشام جمع الروم من الجنود ما لا يحصى لقتال المسلمين، فكتب بذلك أبو عبيدة إلى أبي بكر، فقال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد، فكتب إليه أن الحق إخوانك المسلمين بالشام، فإن الروم قد جمعوا لهم، وإذا بلغتهم فأنت أمير الجماعة، فكان فتح الشام كله على يديه أميرا في خلافة الصديق، وتحت لواء أبي عبيدة أيام الفاروق رضي الله عنهم أجمعين، قال بعض من حضر وقعة فحل وكانت من الوقائع العظام بالشام، لما لقينا العدو حمل خالد على الميمنة فدق بعضها ببعض، ثم على الميسرة فدق بعضها ببعض، وعلى القلب كذلك قتل من بطارقتهم أحد عشر دون من سواهم وهو ينشد :

أضربهم بالصارم المهند ضرب طبيب الدين هاد مهتد
لا واهن الحول ولا مميد

وأعظم الوقائع في تلك الحروب وقعة اليرموك كان عدد المشركين فيها مائتي ألف وأربعين ألفا، وكان المسلمون في ستة وثلاثين ألفا،

فنصرهم الله على عدوهم حتى لم يفلت منهم إلا قليل، مات منهم غريقا في نهر الواقوصة مائة وعشرون ألفا، وقتل باقيهم بالمعركة، واستشهد من المسلمين قريب من ثلاثة آلاف، وكان خالد متولى الحرب ذلك اليوم وهو أول من هزم من تولى قتاله فتوالت بعد ذلك الهزائم وفي ذلك يقول بعضهم :

لما لقينا أولياء الشيطان دعوا هرقل ودعونا الرحمان
والله قد أخزى جنود باهان بخالد النجح أبي سليمان

ومن طالع كتب الفتوحات لم يخف عليه قدر خالد وشهامته ومكانه من الإقدام، ولما حضرته الوفاة قال : شهدت أزيد من مائة زحف وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء.

ومن مشاهير الشجعان الصحابة رضوان الله عليهم الزبير بن العوام وولداه عبد الله ومصعب، وبيت بني العوام بيت شجاعة وإقدام في الجاهلية والإسلام، أما الزبير فمواقفه شهيرة، وكان يعد بألف، خرج في أول يوم للتعزير من أيام اليرموك بطريق يطلب البراز فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم خرج ثان فخرج إليه الزبير فقتله وأخذ سلبه، ثم ثالث كذلك ثم رابع كذلك فخرج خامس فأراد الخروج إليه فأقسم أبو عبيدة عليه فرده، ولما بعث عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر يستمده لما رأى جيوش أهل مصر كثيرة وطلب منه أن يمده، فبعث إليه أربعة آلاف على كل ألف منها رجل يعد بألف فارس، وهم الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت وخارجة بن حذافة، وكتب إليه : اعلم أن معك اثني عشر ألفا، وكان في عصر الصحابة جماعة غير هؤلاء يقوم الواحد منهم مقام ألف، وأما عبد الله بن الزبير فهو الذي قتل جرجيرا أمير الروم في أول فتوح إفريقية، ونفله عبد الله بن أبي سرح ابنته كما هو مشهور، ومعها أربعون جارية، وهي من أعظم الغنائم، وأما مصعب بن الزبير فتكفيه شهادة عدوه، روي أن عبد الملك بن مروان قال يوما لجلسائه : من أشجع العرب ؟ فقال بعضهم أمير المؤمنين، وقال بعضهم شبيب الخارجي، وقال آخرون قطري بن فجاءة، وذكروا أناسا، فقال عبد الملك بل أشجع الناس رجل جمع بين سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب التي لا أجمل منها في عصرها، وعائشة بنت

طلحة التي تساميها في الحسن والجمال، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز وابنة زبان سيد العرب، وولي العراقين خمس سنين، وأصاب الأمان، وأعطى ألف ألف وألف ألف وألف ألف فأبى وسل سيفه وتقدم يصرع الأبطال حتى قتل حميدا عزيزا مقبلا غير مدبر، ذاك مصعب بن الزبير، فقال القوم : صدق أمير المؤمنين.

ومن شجعان الصحابة وهو أولى بالتقديم طلحة بن عبيد الله، كانت له مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد مشهورة سيما يوم أحد، فقد روي أنه جرح يومئذ خمسا وسبعين جرحا ما بين ضربة وطعنة ورمية، ووقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه حتى شلت يده وقطع منها أصبع، فقال صلى الله عليه وسلم : إنها سبقته إلى الجنة، ومع ذلك لم يوهنه ما أصابه، فإنه حين أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصعد فوق الصخرة ولم يقدر برك له طلحة فرقي فوق ظهره حتى استوى عليها، وكان الصديق رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال ذلك يوم كله لطلحة، وهو أحد الأجواد المشاهير كما هو معلوم.

ومن مشاهير الشجعان من الصحابة رضوان الله عليهم أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه، وهو ممن يقوم مقام ألف، روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرج يوم أحد سيفا وقال من يأخذه بحقه ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ فقال أن تضرب به في العدو حتى ينحني، فقال أنا آخذه بحقه، فأعطاه إياه، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه يقاتل، وكان الزبير ممن سأل السيف، فلما أخذه أبو دجانة، قال الزبير منعني وأنا ابن صفية عمته. وأعطاه إياه، والله لأتبعنه حتى أنظر ما يصنع به، قال فأخرج عصابته الحمراء وعصب بها رأسه، فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في مثل هذا المقام أو مثل هذا الموطن فتقدم وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

وجعل لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحا إلا دفف عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله يجمع بينهما، فلما التقيا اختلفا ضربتين فعضت سيف المشرك في درقة أبي دجانة وضربه أبو دجانة فقتله، قال الزبير فقلت حينئذ الله ورسوله أعلم، قال أبو دجانة رأيت رجلا يحمش الناس حمشا شديدا فصمدت إليه، فلما حملت عليه السيف ولول فإذا هو امرأة، فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة، وقال أبو خيثمة : لما انكشف المسلمون يوم اليمامة رأيت أبا دجانة يضرب بسيفه في نحور القوم أمامه وعن يمينه ويساره، وصرع رجالا منهم فتفرقوا عنه ونكصوا حتى تراجع المهاجرون والأنصار، فحملنا على المشركين حتى أقحمناهم الحديقة، فقال أبو دجانة : ارفعوني على الترسة وألقوني في الحديقة، فضاربهم حتى فتحنا الحديقة فوجدناه ميتا رحمة الله عليه، وقتل مسيلمة لعنه الله في الحديقة قتله وحشي بعدما ضربه عبد الله بن زيد الأنصاري بسيفه فأوهنه، ثم زرقه وحشي بحربته، والله أعلم أيهما قتله، انتهى.

ومشاهير الأبطال من الصحابة يفوت عدهم من طلبه، فأحرى غيرهم من سائر العرب في الجاهلية والإسلام، وليس مرادنا في هذه السرايا المذكورة في هذه الساقة الاستقصاء، ولا بلوغ الغاية في الإحصاء، والشجاعة باقية في هذا الجنس الإنساني ما بقي الدهر، ولكن شجاعة كل زمان بحسبه، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم.

السرية الثالثة من القسم الثاني : في الحلم

هذه الخصلة من خصال الشرف العالي، ومن أحق ما يتصف به ذوو الألباب، وفيها راحة للأسرار، وسلامة للأعراض، واستجلاب للمحامد والثناء الجميل، لا سيما لولاة الأمر وملوك الأمم، فما أحوج من ولاه الله شيئا من أمور خلقه إلى ما يملك به قلوبهم، ويستدعي به رضاهم، وهو الحلم عليهم الذي هو غاية الإحسان إليهم، والنفوس مجبولة على حب المحسنين، قال بعض العلماء : حد الحلم ضبط النفس عن هيجان الغضب، وقال جعفر الصادق : لأن أندم على العفو خير من أن أندم على العقوبة، وسئل أبوه محمد الباقر : ما حقيقة الحلم ؟ فقال كيف يعرف فضل شيء ما

ظهر كماله في أحد، فإن الناس أكثر ما يغشون أبواب الملوك عند تنازعهم، وضيق أخلاقهم، فإذا لم يكن الملك ذا حلم يرد به بوادرهم تحمل من أمورهم حملا ثقيلا، ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أعلى درجات منه، فقد أثنى الله على الخليل عليه الصلاة والسلام فقال {إنَّ إبراهيم لأوَّاه حليم} وقال في ولده الذبيح إسماعيل عليه السلام «فبشرناه بغلام حليم» وقال في نبيه شعيب عليه السلام على لسان قومه : {إنَّك لأنت الحليم الرشيد} وروي أن عيسى عليه السلام مر على قوم من اليهود الملاعين فقالوا له شرا : فقال لهم خيرا، فقيل له في ذلك، فقال كل ينفق مما عنده، انتهى، ولأجل ذلك قال بعض العلماء : كاد الحليم أن يكون نبيا.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم في الدرجة العليا من الحلم، فكان لا يزيد على كثرة الجهل عليه إلا صبرا، ولا على إساءة المسيء إلا حلما، قالت عائشة رضي الله عنها : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها إلا أن تنتهك حرمة من حرم الله سبحانه، وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما قوله تعالى {وقال نُوحٌ ربِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين ديَّارا} فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما أحلمك وأكرمك ! لقد دعا نوح على قومه فهلكوا، ولو دعوت علينا لهلكنا عن آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمي وجهك، وكسرت رباعيتك، وقيل لك : ادع عليهم فأبيت أن تقول إلا خيرا وقلت «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» وروي أنه لما كذبه أهل مكة وبارزوه بالعداوة جاءه جبريل ومعه ملك الجبال، فقال له : يا محمد إن الله أمر ملك الجبال أن يطيعك فيما تأمره به، وقال له ملك الجبال، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت، فقال صلى الله عليه وسلم «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا»، وقد هبط عليه من التنعيم ثمانون رجلا عند صلاة الصبح ليقتلوه فأخذوا فعفا عنهم وأطلقهم، وفي ذلك نزلت {وهو الذي كفَّ أيديَهم عنكم» الآية، وعفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره، وقد أوحي إليه بشرح ذلك فلم يعاتبه فضلا على أن يعاقبه، وعفا عن اليهودية التي سمته في الشاة التي سمتها وشوتها وأهدتها إليه، فأخبره بذلك ذراع الشاة عند مناولته فدعي بها فاعترفت، وقال لها : ما

حملك على ذلك ؟ فقالت قلت إن كان نبيا لم يضره، وإن كان كاذبا أراحنا الله منه، فعفا عنها على الصحيح، ولما أظفره الله بأهل مكة بعدما فعلوا به من قتل أصحابه وعمه وتمثيلهم بهم وتحزيبهم عليه، فما زاد على أن عفا عنهم، وقال : ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال : أقول كما قال أخي يوسف «لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء» ومن ذلك حلمه عن عبد الله بن أبي وغيره من المنافقين بعد إطلاع الله له على خبث رأيهم وقبيح أسرارهم، وقال لمن سأله قتلهم «لا يتحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه»(37) إلى غير ذلك مما يناله من جفاة الأعراب، وكان يقول إذا رأى منهم جفاء وغلظة «يرحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(38) وقال عليه الصلاة والسلام «وجبت محبة الله تعالى لمن أغضب فحلم»(39) وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يحب الحليم الحي ويبغض الفاحش البذي»(40) وقال للأشجِّ عبد القيس «إن فيك لخصلتين يحبهما الله، الحلم والأناة»(41) وقال «إذا كان يوم القيامة ينادي : من له أجر على الله تعالى فليقم، فيقوم العافون عن الناس»، ثم تلا «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» وقال «ما ازداد أحد بعفو إلا عزا فاعفوا يعزكم الله»(42) وقال «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه»(43) ولما نزل قوله تعالى {فاصْفَحِ الصَّفْحَ الجميلَ} سأل جبريل عن معناه ؟ فقال : «يا محمد إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك وتعطي من حرمك»(44) وروي مثل هذا في قوله تعالى {خُذ العفوَ وامرْ بالعُرف، وأعرضْ عن الجاهلينَ}.

وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه : والله لأسبنك سبّا يدخل معك قبرك، فما زاد على أن تبسم وقال : بل معك يدخل يا أخي والله لا معي، واغتاظت عائشة رضي الله عنها على خادم لها، ثم رجعت

---

(37) رواه البخاري في كتاب التفسير.

(38) رواه البخاري ومسلم.

(39) رواه ابن عساكر في تاريخه والاصفهاني في ترغيبه.

(40) رواه الطبراني.

(41) متفق عليه.

(42) رواه مسلم.

(43) لم نقف على تخريجه.

(44) رواه أصحاب السنن.

إلى نفسها فقالت : لله در التقي ما ترك للغيظ شفاء، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عيينة بن حصن استأذن له الحر بن أخيه على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فلما دخل عليه قال له : والله يا بن الخطاب ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل، فغضب عمر وهم أن يوقع به، فلما رأى ذلك ابن أخيه، قال : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول {خُذِ العفوَ وأمُرْ بالمعروف وأعْرض عن الجاهلين} قال فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقافا عند كتاب الله تعالى، انتهى.

وأقوى ما ورد في حلم عثمان رضي الله عنه قضية يوم الدار إذ قام عبيده وخواصه وجماعة من المهاجرين ليقاتلوا الذين حاصروه، فقال لعبيده من أغمد سيفه فهو حر، وقال لغيرهم : من كانت لي في عنقه بيعة فليغمد سيفه، فقالوا إنهم يقتلونك ؟ قال : وإن قتلوني فلا تراق دماء المسلمين بسببي، وكان مولانا علي رضي الله عنه يحرض على الحلم ويوصي به ويقول : من تحلم ساد، ومن تفهم ازداد، وقال له سلمان يوما : ما الذي يباعدني من غضب الله ؟ قال : ألا تغضب، وقال يوما لعامر بن مرة : من أحمق الناس ؟ قال : الذي يظن أنه أعقل الناس، قال : فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال، قال : صدقت، وقال : أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصاره، ولذلك كان الأحنف يقول : وجدت الحلم عن الرجال أنصر لي من الرجال، وما ذاك إلا لأن من حلم كان الناس أنصاره، وقال أكثم بن صيفي : العز والغلبة للحليم، وقال معاوية رضي الله عنه لخالد السدوسي : إنك تحب عليا حبا مفرطا ؟ فقال : أحبه والله لحلمه إذا غضب، وعدله إذا حكم، ووفائه إذا وعد، وصدقه إذا حدث، وسأل علي رضي الله عنه أحد كبراء الفرس عن أحمد ملوكهم عندهم ؟ فقال : لأزدشير فضل السبق، غير أن أحمدهم سيرة أنوشروان، قال : فأي أخلاقه كان أغلب ؟ قال : الحلم والأناة، فقال علي رضي الله عنه : هما توأمان ينتجهما علو الهمة، ولما قبض الملعون ابن ملجم بعد طعنه لعلي رضي الله عنه قيل له : ما تأمرنا أن نصنع به ؟ قال : إن أعش فالأمر إلي، وإن مت فالأمر إليكم (وأن تعفوا أقرب للتقوى)، وروي أنه دعا غلاما له يوما فلم يجبه، فدعاه ثانيا وثالثا كذلك فقام إليه فرآه مضطجعا، فقال : أما سمعت ندائي ؟ قال : بلى، قال فما منعك من جوابي ؟ قال

أمنت عقوبتك فتكاسلت، فقال : امض فأنت حر لوجه الله العظيم {ومن كرم الرجل سوء أدب غلمانه}(45) وقال إنا نصافح أكفا نود قطعها، واستمر ذلك في أهل بيته رضي الله عنهم، فروي أن رجلا من أهل الشام قال : دخلت المدينة فرأيت رجلا راكبا على بغلة فلم أر أحسن منه وجها ولا سمْتاً ولا مركوبا، فمال قلبي إليه، فسألت عنه فقيل لي : هو الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فجئته وقلت له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال لي : أنا ابنه، فقلت : فعل الله بك وبأبيك، وجعلت أسبه وأسب أباه وهو يتبسم، فلما انقضى كلامي قال : أحسبك غريبا ؟ فقلت أجل، فقال : إن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإن احتجت إلى مال واسيناك، وإن احتجت إلى معونة أعناك، قال : فانصرفت وما على وجه الأرض أعز ولا أحب إلي منه، وكان لسيدنا الحسين رضي الله عنه غلام جنى جناية توجب عقوبة شديدة، فلما أقعده للضرب قال : يا مولاي «والكاظمين الغيظ» فقال : قف فقال : يا مولاي «والعافين عن الناس» قال : قد عفوت عنك، قال : يا مولاي «والله يحب المحسنين» قال : أنت حر لوجه الله العظيم، ولك ضعف ما كنت أعطيك، وروي عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر أنه كان يقول : من كظم غيظا يقدر على إمضائه حشا الله قلبه إيمانا، وكان ابنه جعفر الصادق يقول : لأن أندم على العفو أحب إلي من أن أندم على العقوبة، وروي أن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي هجاه أبو عاصم الأسلمي، فلما ولى الحسن المدينة أتاه مستنكرا في زي الأعراب وأنشده :

ستأتي مدحتي الحسن بن زيد ... وتشهد لي بصفين القبور
قبور لم تزل مد غاب عنها ... أبو حسن تعاديها الدهور
قبور لو بأحمد أو علي ... يلوذ مجيرها حفظ المجير
هما أبواك من وضعا فضعه ... وأنت برفع من رفعا جدير

فقال الحسن : من أنت ؟ قال أبو عاصم الأسلمي، فقال ادن حياك الله ويسط له رداءه وأجلسه عليه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، وكان الداعي العلوي صاحب طبرستان من ولد الحسن هذا، فكان إذا افتتح

(45) ساقط من (م).

الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها، فيفرقه في قبائل قريش على درجاتهم، وفي الأنصار والفقهاء وأهل القرآن وسائر الطبقات حتى لا يبقى منه شيء، فجلس في سنة من السنين ليفرق على عادته فبدأ ببني عبد مناف، فتقدم إليه رجل فقال : من أي بني عبد مناف أنت ؟ قال له : من بني أمية، فقال : لعلك من بني معاوية ؟ ومن ولد يزيد ؟ قال نعم، قال بئس ما اخترت لنفسك، إذ جئت آل أبي طالب وعندك ثأرهم، وجعل العلويون ينظرون نظرا منكرا، فقال لهم الداعي : كفوا عافاكم الله تعالى، فليس في مثل هذا أدرك لثأر الحسين، وقد حرم الله تعالى أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت ووالله لا يعرض له أحد إلا أقدته به، واسمعوا مني حديثا يكن لكم قدوة، حدثني أبي عن أبيه قال : عرض على المنصور سنة حج جوهر فاخر فعرفه وقال : هذا كان لهشام بن عبد الملك وصار لابنه محمد، وما بقي أحد غيره، ثم قال للربيع : إذا كان غدا وصليت بالناس في المسجد الحرام فأغلق أبوابه كلها وافتح بابا واحدا وقف عليه فلا يخرج إلا من عرفته، فلما كان الغد فعل الربيع ذلك فعرف محمد إذ ذاك أنه المطلوب، فتحير، وإذا بمحمد بن زيد بن علي بن الحسن، فلما رآه متحيرا وهو لا يعرفه أنكر أمره فقال له : يا هذا أراك متحيرا ؟ فمن أنت ولك الأمان، وعلي تخليصك إن شاء الله، قال أنا محمد بن هشام بن عبد الملك، فمن أنت ؟ قال أنا محمد بن زيد بن علي بن الحسن، قال : فعند الله احتسب نفسي إذن، قال : لا بأس عليك يا ابن عمي، فإنك لست قاتل زيد، وأنا أولى بخلاصك مني بإسلامك، ولكن تعذرني فيما أتناولك به من مكروه يكون سبب خلاصك إن شاء الله تعالى، فقال : أنت وذاك، فطرح رداءه في عنقه ولببه وأقبل يسحبه، فلما قرب من الربيع بحيث يراه لطمه وقال للربيع يا أبا الفضل هذا الخبيث، جمال من الكوفة أكراني جماله ذاهبا وعائدا وقد هرب مني في هذا الوقت، وأكرى لبعض قواد خراسان، ولي عليه شهود، فضم إلي حرسين يسيران به معي الى القاضي ويمنعان الخرساني من التعرض لنا، فأمر الربيع حرسين فمضيا به معه، فلما بعد من المسجد قال له : يا خبيث أتؤدي إلي حقي ؟ قال نعم، يا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال للحرسين انصرفا في حفظ الله، ثم أطلقه، فقبل محمد بن هشام رأسه وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالاته، ثم أخرج

جوهرا له قدر عظيم ودفعه له وقال : يا سيدي تشرفني بقبوله فأبى، وقال إنا نحن أهل بيت لا نأخذ على معروف أجرا، وقد تركت دم زيد وهو أعظم قدرا من متاعك، فانصرف رحمك الله راشدا واختف من هذا الرجل، فإنه مجد في طلبك، فانصرف وقد نجا ثم أمر الداعي للأموي بمثل ما أمر به لسائر بني عبد مناف وضم إليه جماعة من مواليه وأمره أن يبلغوه مأمنه، ويأتوه بخطه بسلامته.

وكان معاوية رضي الله عنه يقول : إني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، وجهل أكبر من حلمي، وعورة لا يواريها ستري، ويقول : إني لألقى الرجل أعلم في قلبه علي ضغنا فأستشيره فيثور إلي منه بقدر ما في نفسه، فيوسعني شتما وأوسعه حلما، حتى يعود صديقا أستنجده فينجدني، وقسم يوما قُطُفاً على الناس فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة لم تعجبه فحلف أن يضرب بهما رأس معاوية، وجاء وأخبره وقال له أوف بنذرك، وليرفق الشيخ بالشيخ، وكان قيس بن عاصم المنقري رضي الله عنه من أشهر العرب بالحلم، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وفد عليه مسلما «أتاكم سيد أهل الوبر»(46) وفيه يقول بعض الشعراء وقد مر على قبره :

عليك سلام الله قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ غادرته غرض الردى	إذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد	ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان خال الأحنف بن قيس، ومنه تعلم الأحنف الحلم، قال : بينما نحن عنده يوما جلوس إذا جاءته خادم بسفود عليه شواء فسقط من يدها على ابن له صغير كان بين يديه فمات، فدهشت الأمة فقال : لا روع عليك أنت حرة في سبيل الله، وقال لا يذهب ما أصابها من الروع إلا سرورها بتعجيل العتق، وسئل الأحنف ممن تعلم الحلم ؟ فقال من خالي قيس بن عاصم، ولقد كنا نتردد إليه لنتعلم الحلم كما كنا نتردد الى العلماء لنتعلم

---

(46) قيس بن عاصم، قال ابن سعد : كان قد حرم الخمر في الجاهلية ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم، فأسلم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا سيد أهل الوبر، وكان سيدا جوادات نحو 20 هـ 640 م بالبصرة. "الاصابة" ج 3 ص 252 «رغبة الآمل» ج 3 ص 10 ج 4 ص 99-234.

العلم، وكنا يوما عنده وهو جالس يحدثنا فإذا بجماعة قد أتوا بقتيل ومكتوف وقالوا له : هذا ابنك قد قتله أخوك هذا، فوالله ما قطع حديثه ولا حل حبوته حتى فرغ، ثم أنشد :

أقول للنفس تأساءً وتعزية　　إحدى يدي أصابتني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه　　هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ثم التفت الى ابن له آخر وقال يا بني : أطلق عمك ووار أخاك وسق إلى أمك مائة من الإبل دية ولدها فإنها غريبة فيكم، والبيتان اللذان تمثل بهما هما لامرأة من العرب قتل أخوها ابنها فأنشدتهما في ذلك، وقد ذكروا قضية الحيص البيص الذي قتل جرو كلبة فهجاه بعضهم، والقصة مشهورة لا نطيل بها، وكان الأحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم، روي أن رجلا أدركه في طريق فجعل يسبه بأقبح سب وهو يماشيه، فلما قرن من الحي وقف الأحنف وقال يا أخي إن كان بقي لك شيء من السب فقله ها هنا، فإني أخشى أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، وجعل عمرو بن الأهتم ألف درهم لمن يسفه الأحنف فأقبل عليه رجل يسبه سبا عنيفا ليغضبه، والأحنف مطرق صامت، فلما رآه الرجل لا يكلمه جعل يعض أصابعه ويقول واسوأتاه والله ما منعه من جوابي إلا هواني عليه، وفعل به آخر كذلك وأطال إلى أن أراد الأحنف القيام إلى الغذاء فأقبل على الرجل وقال : يا هذا إن غذاءنا قد حضر فانهض بنا إليه فإنك منذ اليوم تحدو على جمل ثفال أي بطيء، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول ما قرن شيء الى شيء أفضل من علم الى حلم ومن عفو الى قدرة ويقول : من اجتمعن فيه فقد سعد من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا قدر عفا وصفح، وجنى رجل في أيامه جناية أوجبت عقوبته، فنذر لئن أظفره الله به ليفعلن به ما يستحقه فلما ظفر به أمر بعقوبته فقال له رجاء بن حيوة قد فعل الله لك يا أمير المؤمنين ما تحب فافعل أنت ما يحب الله من العفو، قال صدقت وأمر بإطلاقه، وأسمعه يوما رجل كلاما يكرهه، فقال له عمر : لا عليك إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا، فانصرف غفر الله لك ورحمك، فانصرف وهو يقول :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا　　حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان كاسفة　　لا صفح ذلّ ولكن صفح أحلام

وروى أن المهدي العباسي نذر دم رجل كان سعي في فساد دولته وجعل لمن دل عليه ألف درهم، فتوارى الرجل حينا ثم ظهر وهو خائف يترقب، فرآه من عرفه فأخذ بمجامع ثوبه وقال : هذا بغية أمير المؤمنين، فأيقن الرجل بالهلاك، وإذا بوقع الحوافر فنظر الرجل فإذا معن بن زائدة في موكبه، فصاح يا أبا الوليد أجرني أجارك الله، فوقف معن وقال للذي تعلق به أرسله، فقال له : إنه بغية أمير المؤمنين الذي بذل فيه لمن دل عليه ألف درهم، فقال انطلق إليه وأخبره أنه عندي، وحمل معن الرجل وانطلق الآخر الى المهدي بالخبر، فأمر بإحضار معن، فلما أتاه الرسول دعا بنيه ومواليه وقال لهم : لا يخلص أحد إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف وركب وأتى المهدي فسلم عليه ولم يجبه وقال : أتجير علي يا معن ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، قال ونعم أيضا، واشتد غضبه، فقال معن يا أمير المؤمنين قتلت على طاعتكم في يوم واحد خمسة عشر ألفا إلى أيام أخرى كثيرة كان لي فيها حسن بلاء أفما تروني أهلا أن يوهب لي رجل واحد استجار بي ؟ فأطرق المهدي كثيرا ثم قال : قد أجرنا من أجرت، وقال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة فيكون قد أحياه وأغناه ؟ فقال قد أمرت له بخمسة آلاف، فقال يا أمير المؤمنين إن الملوك صلاتهم تكون بقدر جنايات الرعية، وإن ذنب الرجل كبير، وعفو أمير المؤمنين أكبر، فأجزل له الصلة، فقال : قد أمرت له بمائة ألف، قال عجلها يا أمير المؤمنين فإن أفضل الخير أعجله، فأمر بتعجيلها له، فدعا له معن وانصرف ولحق به المال فأعطاه للرجل وقال : الحق بأهلك وإياك ومخالفة الخلفاء فبهم يؤيد الله الدين ويحوط الإسلام.

وقيل إن هارون الرشيد خرج عليه رجل فجهز إليه جيشا فظفروا به، فلما أدخل عليه قال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال : الذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، فأطرق الرشيد مليا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلما خرج قال بعض الحاضرين يا أمير المؤمنين يقتل رجالك، ويفني أموالك، وتفلته بكلمة واحدة ؟ هذا يجرئ عليك أهل الشر، فأمر برده، فعلم الرجل أنه سعى به عنده، فلما وقف بين يديه قال : يا أمير المؤمنين، لا تطعهم فيَّ، فلو أطاعهم الله فيك ما استخلفك عليهم لحظة واحدة، فأمر بإطلاقه وقال لهم لا تعاودوني فيه.

وكان للمأمون في الحلم ما برز به على سائر أهل بيته حتى صار له جبلة، فكان يقول : ليس علي في الحلم مئونة، ولو وددت أن أهل الجرائم علموا رأيي في العفو، فذهب عنهم الخوف مني، فخلصت لي قلوبهم، وقال أيضا : لقد حبب إلي العفو حتى إني خفت أن لا أوجر عليه، ولو علم الناس بما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إلي بالجرائم، قال القاضي عمر بن الحبيب العدوى(47) وفد أهل البصرة على المأمون وأنا معهم، وكنت أصغرهم سنا لينظر لهم قاضيا فنحن معه إذ جيء برجل مقيد مغلل، ثم بسط النطع وجيء بالسياف وأمر بضرب عنقه، فقلت في نفسي : لأقومن فأكلمه لعل الله تعالى ينجي هذا، فقمت وقلت يا أمير المؤمنين حدثني أبوك عن جدك عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «إذا كان يوم القيامة ينادي مناد من بطنان العرش ليقم من كان أجره على الله، فلا يقوم إلا من عفا عن أخيه»(48) فاعف عنه عفا الله عنك فقال المأمون : آلله أن أبي حدثك بهذا الحديث، فقلت والله إن أباك حدثني به، فقال : صدقت ان أبي حدثني به على الوجه الذي ذكرت فأطلقوه وأمر لي بالقضاء انتهى، ولما خالف عمه إبراهيم بن المهدي عليه وظفر به في خبر طويل عجيب مشهور، ووقف بين يديه وأنشده :

أتيت ذنبا عظيما وأنت للعفو أهل
فإن عفوت فمن وإن جزيت فعدل

رق له المامون وقال له : لو لم يكن يا عم في حق رحمك ما يوجب الصفح عنك لبلغك ما أملت حسن توسلك، ولطف تنصلك، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق المعتصم وابنه العباس ومن حضره وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشاروا عليه بقتله، وسكت أحمد بن أبي خالد(49) وكان وزيره وقال له : تكلم، فقال يا أمير المؤمنين : إن قتلت فلك نظراء تقدموا واقتديت بهم، وإن عفوت لم يكن لك نظير، فنكس المامون رأسه ساعة ينظر متفكرا، ثم أنشد متمثلا :

---

(47) عمر بن حبيب العدوي قاض، من رجال الحديث، ولي قضاء البصرة وغيرها في خلافة المامون، لم نعثر على وفاته، وكيع في "أخبار القضاة" ج 2 ص 142، "تهذيب التهذيب" لابن حجر ج 7 ص 432 "الأعلام" ج 5 ص 43 (سير أعلام النبلاء) ج 9 ص 409.

(48) لم نقف على تخريجه.

(49) أحمد بن أبي خالد، كان من الموالي عند المامون العباسي، وهو على جانب كبير من رجاحة العقل، كما كان كاتبا فصيحا، بصيرا بالأمور، وقد وزره ت 210 هـ 825 م (تاريخ الاسلام السياسي) لحسن ابراهيم حسن ج 2 ص 257.

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت أصابني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جَلَلاً ولئن سطوت لأوهنن عظمي

ثم قال المأمون يا عم لا تثريب عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك جميع أموالك وضياعك، وقد شاورت العباس وأبا إسحاق فأشارا بقتلك، فرأيت أن حقك أعظم من جرمك، فعفوت عنك، فإن غيرت فالله مغير بك، فقال إبراهيم بن المهدي : أما إنهما قد بلغا في نصحك الغاية رعيا لعظيم قدر الخلافة، وما جرت به عادة السياسة، ولكن أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم أنشد :

أفديك يا خير من يعيا(50) بمؤتلف من الثناء ائتلاف الدر في النظم
اثني عليك بما أوليت من نعم وما شكرتك إن لم أثن بالنعم
رددت مالي ولم تبخل علي به وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
فأبت منك وقد خولتني نعما منها الحياتان من موت ومن عدم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
لئن جحدتك معروفا مننت به إني لفي اللؤم أحظى منك في الكرم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية رجعت إليك لو لم تهبها لم تكن تلم
رأيت ذلك أجرا فاحتسبت به قربى إلى الله في الإسلام والرحم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به فلا عد مناك من عاف ومنتقم

فقال المامون : قد مات حقدي عليك بحياة عذرك، وأعظم من عفوي عنك رفعي عنك مرارة شفاعة الشافعين، انتهى ؟ ولما قال عبد الله بن طاهر الخزاعي قصيدته التي يذكر فيها مآثر أبيه ويفخر فيها بقتلهم المخلوع محمد بن زبيدة الأمين عارضه محمد بن يزيد الحصني، وكان من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان فأفرط في السب وجاوز الحد، في قبيح الرد، فمن ذلك قوله :

يا بن بيت النار يوقدها ما يحاذيه سراويل
من حسين ومن أبوك ومن مصعب غالتكم غول
نسب في الخزي مؤتشب وأبوات أراذيل
قاتل المخلوع مقتول ودم المقتول مطلول

---

(50) في (م) يفي و (ف) يعيا.

وهي طويلة، فلما ولي عبد الله بن طاهر مصر ورد إليه تدبير أهل الشام قامت على الحصني قيامته، وعلم أنه لا يفلت منه إن هرب، فأقام بموضعه مستسلما وفتح باب حصنه، قال محمد بن الفضل : وكان من خواص ابن طاهر لما شارفنا بلده، ونحن نتوقع من الأمير أن يوقع به، دعاني عبد الله ليلا فقال : بت عندي، وليكن فرسك معدا، فلما كان السحر أمر أصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس، وركب في السحر، وأنا وخمسة من غلمانه الخاصين به معنا، فصبحنا الحصني وإذا بباب حصنه مفتوحا، وهو جالس مترسل، فقصده عبد الله وسلم عليه، ونزل وجلس عنده، وقال له : ما حبسك هاهنا وحملك على فتح باب حصنك ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل مع ما في نفس أميره عليك فقال : ان هذا لم يغب عني ولكن فكرت في أمري فقلت إني أخطأت في أمري خطيئة حملني عليها نزق الشباب، وإني وإن هربت لم أفته، فاستسلمت نفسي، وكل ما أملك فأنا من أهل بيت أسرع فينا القتل ولي فيمن مضى أسوة، ووثقت بأن الرجل إذا قتلني وأخذ مالي شفى غيظه ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم، فوالله، ما تلقاه عبد الله إلا بدموعه على خديه، وقال له : أتعرفني ؟ قال : لا والله، قال أنا عبد الله بن طاهر، وقد أمن الله خوفك، وحقن دمك، وحرس نعمتك، وصان حرمك، وما تعجلت لك وحدي إلا لتأمن قبل هجوم الجيش لئلا تخالط عفوي عنك روعة تلحقك، فبكى الحصني فرحا وقام وقبل رأسه، فضمه عبد الله وأدناه، ثم قال : أما إنه لابد من عتاب، إني قلت شعرا في قومي أفخر بهم، وكانوا أهلا لذلك، ولم أطعن فيه على حسبك، ولا ادعيت عليك فضلا، وفخرت بقتل رجل هو وإن كان من قومك فهو من القوم الذين ثأرك عندهم، وكان يسعك السكوت وإن لم تسكت لا تسرف، فقال : أيها الأمير الكريم، قد عفوت تفضلا، فاجعله عفوا لا يخالطه تثريب، ويكدر صفوه بتأنيب، قال : قد فعلت، فقم بنا ندخل منزلك حتى توجب علينا حقا بالضيافة، فقام مسرورا ودخلنا منزله وأتى بالطعام كأنه كان أعده، فأكلنا وجلسنا نشرف في مستشرف له، وأقبل الجيش، فأمرني عبد الله أن أشير عليهم بالجواز، وأن لا ينزلوا إلا بعد ثلاثة فراسخ، وأقام عنده إلى العصر، ثم دعا بدواة وكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين، وقال له : إن نشطت فالحق بنا وإلا فأقم بمكانك، فقال : بل أتجهز وألحق

بالأمير، ففعل ولم يزل عنده أثير المنزلة مدة ولايته.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، إن أخبار الحلماء المنقولة في دواوين أهل الأدب لا تنحصر، ولا فرق بين المطنب والمختصر، وقد أشرنا إلى المستحسن الكافي في هذه السرايا العشر، واكتفينا من ذلك بخالص اللب دون القشر، وبقي الكلام على الأمور التي لها بالرياسة الكبرى غاية الاشتباك، ولا يمكن عنها انفكاك، وهي (الوزارة) و (الحجابة) و (القهرمانة) وهي من جملة السرايا المرصودة في هذه الساقة.

حكم الوزارة

أما الوزارة، فهي التي يسدل بها الملك رداءه ويعقد إزاره اعلم أنه لما كانت الرياسة الكبرى التي هي سياسة النوع الإنساني من أعظم المشاق اللاحقة بالظاهر الجسماني، والباطن النفساني، كما قال بعض رؤساء الحكماء : لمعاناة نقل الجبال من أماكنها بأضعف الحبال، أهون من معاناة قلوب الرجال، كان الملك القائم بها أحوج الناس للمؤازرة وهي المعاونة على ما دفع إليه من استرعاء أحوال الخلق، فإنه لا يقدر على الاستغناء عن غيره حتى في أمور نفسه الخاصة به، في تدبير معاشه، فأحرى أمور الرعية، فلابد له حينئذ بالضرورة ممن يشد به أزره، ويشاركه في أمره كما قال نبي الله موسى عليه السلام : (واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي) وقال تعالى : {وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا} ومازال الأمر على هذا فيما قبل الإسلام في دول فارس والروم حتى جاء الإسلام الظاهر الظاهر على الأديان، وصار الملك خلافة، وذهب رسم الملك، وذهبت تلك الخطط اللازمة له بذهابه، وبقيت المعاونة بالرأي والمفاوضة في المصالح المستجلبة، والمفاسد المستدفعة، فلم يمكن زوال هذا اذ هو أمر طبيعي لابد منه فكان صلى الله عليع وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم في المهمات العامة والخاصة فيما لم يوح إليه فيه شيء، ويخص الصديق بخصوصيات أخرى حتى كان بعض العرب الذين عرفوا دول العجم قبل الاسلام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزير النبي صلى الله عليه وسلم، وكذا كان عمر مع أبي بكر وعلي وعثمان مع عمر، ولم تكن العرب تعرف لفظ الوزير في هذه المرتبة، وإنما علمها منهم من خالط العجم كما ذكرنا، هذا حاصل ما

ذكره ابن خلدون، وقد اختصرناه وحصلناه وشرحناه بزيادة عليه وقد ذكرنا أن السلطان لا يستغني عن غيره بالضرورة وأنه لابد له من أعوان، وهم أصحاب الخطط الأربعة التي قلنا انها تلازمه، ولا تنفك عنه ولا ينفك عنها، وأشدها الوزارة التي معناها في لفظها فهي اما من المؤازرة التي هي المعاونة وذلك أظهر من غيره، وإما من الوزر الذي هو الحمل، وذلك لأن الوزير يشارك الملك في تحمل المحمولات، وثقل النوائب والشدائد، فعلى هذا كل أمر تكون فيه معاونة السلطان يقال لمن تولى ذلك الأمر وزير، سواء كان ذلك الأمر من ناحية رياسة السيف، أو من ناحية رياسة القلم«هذا على الوجه العام الذي يقتضيه الاشتقاق المذكور)(51) وأما ما جرت به الأعراف في الدول السابقة فهو مختلف كل دولة تطلق لفظ الوزير على ما جرى به عرفها، ويعلم ذلك باستقراء أخبار الدول الماضية، فمن الدول من لا يسمى الوزير إلا من له أعنة الخيل، واستتباع حملة السلاح، ومنهم من يشترط في هذا أن يكون من قبيل السلطان وذوي رحمه، ومنهم من لا يشترطه، ومن الدول من يطلق الوزير على رئيس الكتاب الذي له التصرف التام في جميع أمور الباب {السلطاني}(52) وهذا هو الواقع في زماننا وما قرب منه، بل ولو لم يكن له حظ في الكتابة، وإنما له النظر العام في الكتاب وغيرهم من رؤساء الأجناد، ومباشرة العمال، والوساطة بين الناس وبين السلطان مثل العربي قادوس عند السلطان سيدي محمد بن عبد الله، والقائد أحماد مولى أتاي عند السلطان العادل مولانا سليمان، وإذا كان مع ذلك يحسن الكتابة والترسيل فهو غاية الكمال فيه، كالسيد عبد العزيز الفشتالي عند المنصور السعدي، ومثل العلامة الرئيس أبي العباس اليحمدي عند مولانا إسماعيل، ومثل أخينا في الله جمال الدولة أبي عبد الله سيدي محمد بن إدريس عند السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، ومثل سعد الدولة الوزير الأعظم أبي الثناء سيدي الطيب بن اليماني عند مولانا المظفر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان.

ولابأس بالإشارة الخفيفة إلى بعض أحوال هؤلاء الوزراء المذكورين في هذا اللواء الشريف الحسني أعز الله بها برهانه.

---

(51) ما بين القوسين ساقط من (م).

(52) ما بين القوسين ساقط من الأصل و (ش) و (ف).

أما الوزير أبو العباس اليحمدي

فقد كفانا مؤونة التعريف به الفقيه العلامة الداهية أبو الحسن السيد علي المصباحي بتأليفه المسمى "سنا المهتدي الى محاسن اليحمدي"(53) وهو تأليف عجيب ملأه آدابا غضة، أنصع من جوهري الذهب والفضة، وهو موجود تقريه عين من وجده، وملك لؤلؤه وعسجده، وهو من أنفس الذخائر، التي يفاخر بها من يفاخر، رأيت نسخة منه بخط مؤلفه بفاس عند بعض حفدة المؤلف، ذكر فيه المؤلف أن اليحمدي منسوب الى بني يحمد، مضارع حمد يحمد فهو إذن بفتح الميم لا بكسرها كما يجرى على الألسنة، وهي قبيلة من قبائل جبال الزبيب، وكفى هذا الوزير ثناء عليه ما تقدم لنا في راية مخدومه السلطان الأعظم مولانا إسماعيل بن الشريف أنه لما ولى ولده مولاي المأمون مراكش أمره أن يذهب إلى رئيس الحضرة وإمام الكتاب الفقيه الكبير أبي العباس اليحمدي يأخذ منه رسم التقليد، ويسمع وصيته، ويعمل بها، وكان مولاي المأمون يكره اليحمدي أشد الكراهة، فتوجه إليه كرها وأخذ المكاتب من عنده، وسمع وصيته جبرا عليه، وعاد إلى والده وقال له يامولاي : إن اليحمدي ينقصك ويزعم أنه هو الذي علمك الدين، وأنك جاهل لا تعرف الفرض والسنة، فقال له السلطان : والله إنه لصادق إن قال ذلك، هو الذي علمني ديني، وعرفني بربي، انتهى، فهذا يدل على فضل السلطان والوزير والله ذو الفضل العظيم.

وأما الوزير أفاندي العربي قادوس

وهذا اللفظ عجمي، وهو أفاندي، فإن سلطانه سيدي محمد بن عبد الله كان يدعوه بذلك استعظاما واستفخاما لشأنه، وكان من مواليه الذين نشأوا في حجور تربيته، ورضعوا أخلاق حضرة الملك وارتشفوا لبانها، وتدرجوا في مغارس الرفاهية أنبوبا فأنبوبا حتى صاروا دوحة، وصار غاية العز أفنانها وقضبانها، وأصله من أعلاج الإسبنيول كما أخبرني ولده السيد محمد، وكان الوزير المذكور شعلة من الذكاء والفطنة، وركنا شديدا من أركان الدولة المحمدية في حسن التدبير والحزم الذي لا يعزب عنه من

(53) علي بن احمد المصباحي الزروالي صاحب كتاب سنن المهتدى الى مفاخر الوزير ابن العباس اليحمدي ترجم فيه لوزير السلطان المولى اسماعيل، توفي سنة 1150 هـ 1737 م.

أمور الحضرة قليل ولا كثير، وكان شأنه في أمور الكتابة أن يأمره السلطان أن يأمر الكتاب بالكتابة لفلان بكذا، ولذوي فلان بكذا، فيكتبون ما أمرهم به فيأخذه منهم ويطبعه ويدخل إلى حضرة السلطان فيسرد عليه تلك الأوامر، ثم يخرج بها ويدفعها لأربابها.

ومن أغرب ما نقل عنه في هذا أن السلطان أمره ذات ليلة أن يكتب نحو ثمانين كتابا في أمور متعددة مختلفة، فنسي أن يمليها على الكتبة، فلما جاء في الصباح دعاه السلطان وقال له كتبت تلك المكاتب، فلم يجد بدا من أن يقول نعم، وكانت الرقاع البيض تكون عنده مطوية مهيأة للكتابة فيها، فجعل يخرج صفيحة بيضاء وينظر فيها ويسرد على السلطان مضمن المراد لفلان ويطويها، ثم يأخذ أخرى كذلك حتى سرد عليه جميع تلك الأوامر التي أمره بها والسلطان يظن أنها مكتوبة مطبوعة على العادة، فخرج إلى الديوان فأملى على الكتاب [فكتبوها](54) ودفعها لأربابها، هكذا أخبر بعض أصحاب السلطان المذكور، وهذا من العجائب إن صح، وقد أدرك من فخامة الجاه، وضخامة الرياسات أقصى الغايات، قالوا : كانت الملوك الأعاظم تقيم ببابه فلا يتيسر لهم لقاؤه إلا بعد ثلاثة أيام ونحو ذلك، ولما مات السلطان امتحن مولاي اليزيد ذلك الوزير غاية الامتحان، وفعل في عذابه ما يبغضه الله، ويحبه الشيطان، وعند الله تجتمع الخصوم، ويقتص من الظالم للمظلوم.

وأما الوزير الأكبر، الحاجب الأشهر، الرجل الصالح، القائد أحمد، فإنه أحق أن يخص ويفرد

كان هذا الرجل مع طول رياسته، ونفوذ كلمته، في جميع مملكة المغرب، واتصال عزه، وعدم منازعته ومشاركته في مرتبته، ما نقلت عنه قط مظلمة ارتكبها، ولا موبقة اعتمدها، ولا مسألة خان فيها مخدومه أو لبس عليه فيها، أو مضرة كتمها عنه اتباعا لهواه، أو موافقة لغيره، كان سلطانه العادل يذكر عنه ذلك ويمدحه به في كثير من المقامات رحمهم الله تعالى، كانت وزارته ممتدة بطول ولاية سيده نحوا من ثلاثين سنة، ولا أظنه فاتته صلاة في جماعة حضرا وسفرا ولا يفارقه دلائل الخيرات في قبه كلما

(54) ما بين القوسين ساقط من (م) و من الأصل.

وجد فسحة من الأشغال أخرجه وقرأها، ما تيسر منه، مع ملازمة أوراده، وإقامة الرواتب المشروعة، هكذا رأيناه، وأما مباشرته الناس، وملاقاة الضعفاء وذوي الحاجات والضرورات، فكان أرحم وأرفق بهم من الوالدة بولدها، ولا يخاطبهم إلا بالسيادة والتمويل، وأما أن يقهر أحدا أو يسبه فإنه في البعد الأبعد عن ذلك، وكان هو ووالداه وإخوته مماليك لمولانا السلطان العادل رحمه الله أعطاهم له والده السلطان سيدي محمد، فنشأ الوزير في كفالته، وتخلق بأخلاقه، من زمن الصبا إلى مماته، وكانت حياته مقرونة بسعادة السلطان العادل، فإنه من يوم قتل رحمه الله سنة خمسة وثلاثين ومائتين وألف، انتشر نظام مملكته، واختلت أسبابها، فلم تزل في اضمحلال حتى انطفأ سراجها، وكان قتله عبيد البخاري ظلما وعدوانا بعد رجوع السلطان من وقعة زيان، وكان السلطان بعد قتله يقول في كثير من الأمور : لو كان أحمد حيا ما وقع هذا، أو لكان كذا، ومن مناقبه الدالة على فضله الذي لا يطمع في مثله الا أفراد الرجال، أنه خرج من الدنيا ولم يخلف قليلا ولا كثيرا إلا كسوته التي على ظهره مع ماذكرناه من عظم الشأن، وعلو المرتبة، ونفوذ الكلمة في أقطار الأرض، فإنه كان هو السلطان في حقيقة الحال.

حدثنا السلطان العادل رحمه اله تعالى وقد ذكره يوما وأكثر من الثناء عليه حتى قال : والله لولا أنني كفنته وجهزته ما وجد ما يكفن به، فإننا وجدنا في صندوقه الذي وجدنا مفتاحه معلقا معه ستمائة مثقال، ووجدنا زماما بخطه عليه من الدين ستمائة مثقال، فقضينا ذلك الدين بتلك الدراهيم فخرج من الدنيا كيوم وضعته أمه، مع ما ظفر به من الشهادة، انتهى، فمن سمع هذا وتحققه فليعلم أن من سبقت له السعادة لا يضره شيء، فهذا الرجل قد خاض في غمرات الدنيا وقام في مقام مجموع الفتن، ومزرعة المظالم والسيئات، التي تستفز الرجال، وتهد الجبال، ووقف مع الذين قيل إنهم دعاة على أبواب جهنم، فلم يتعلق به من تلك الأدناس شيء، وأدرك الفوز الذي وقف دونه أطماع السابقين، فسبحان المتفضل الكريم، الواسع العليم، ومن تشوف إلى البرهان على ما ذكرناه، يقال له طلبك البرهان على مثل هذا مما لا تقول به أولو العقول والأذهان، فهل رأيت هذا الرجل شيد القصور، أو غرس البساتين، أو تأثل الأصول، أو

ادخر الذخائر، أو استعد للنوائب، كما يفعله من عمر دنياه ولم يبال بما تخرب من أخراه عافانا الله بفضله آمين.

وأما الوزير العلامة المفوه الرئيس أخونا في الله
سيدي محمد بن ادريس

فإنه كان عصام الدولة وحلية جمالها، ومجلى محاسنها ومظهر كمالها، بآثاره تزري دولة بني مولانا هشام، بدولة بني مروان بالشام، ساعدته أحكام السعود، وعاملته بإنجاز الوعود، فأدرك في ظلال دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان من الجاه والعز والصولة، ما لم يدركه الوزير المهلبي مع ملوك الديلم ومعز الدولة. فضحكت له الأيام بعد عبوس، وأركبته أعز المراكب وألبسته أفخر ملبوس، وبيته في فاس ومنبته منبت طيب، وأصله الأصيل ناشئ عن واكف من الأصالة صيب، وجدت بخطه يوما في ذكر بعض آبائه الكرام، محمد بن ادريس بن محمد بن إدريس بن محمد بن إدريس ثلاث مرات، فقلت له ما هذا التكرار ؟ فقال لي : هكذا بخط والدي مرفوعا إلى السيد محمد بن الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل، تكرر محمد بن إدريس في عمود آبائنا تبركا بالجد المذكور، وقال : فقلت لوالدي هذا النسب صحيح ؟ فقال : هكذا كان أباؤنا ينتسبون، وكانت عندهم ظهائر الملوك المتضمنة للتوقير والاحترام، وضاعت لهم في بعض الفتن الواقعة في باديتهم قبل انتقالهم لفاس، وكان بعض من ذكر في ذلك العمود، وهو السيد عبد القادر بن محمد بن إدريس رجلا صالحا زاهدا في الدنيا معرضا عن كل شيء من أسبابها، وكان أولاده أرادوا تجديد تلك الرسوم التي ذهبت فنهاهم عن ذلك، وقال لهم : أما النسب فإنه ثابت لنا والحمد لله بالحيازة المستمرة، والمزية النافعة النفع الحقيقي إنما تظهر في الآخرة، وأما في الدنيا فإن كان مرادكم التوقير بين الناس والخروج من وظائف العوام فأنا ضامن لكم ذلك إلى آخر الدنيا، انتهى.

(قال ممليه غفر الله له : ينبغي هنا التنبه لنكتة جليلة، وذلك أن أكثر الناس، لا سيما من يدعي الورع يزهد في الانتساب إلى من لم يتحقق له

عنده الاتصال به، مثل هذا السيد الذي نهى أولاده عما ذكر، وذلك جهالة محضة، ومخاطرة في الدين، قال العلامة القادري في أزهاره في ترجمة الشريف سيدي عبد القادر الشبيهي(55) لما ذكر الحديث المعروف وهو(من انتسب لغير أبيه الى آخره)(56) ما نصه : قال الشيخ الكامل المكمل، برزخ الشريعة والحقيقة، سيدي أحمد زروق رضي الله عنه : من وجد بيد آبائه نسبا فليتمسك به للتبرك، وإن لم يقف على صحته للحديث (تبرء من نسب وإن دق كفر)(57) والناس مصدقون في أنسابهم ما لم يعلم خلاف ما قيل انتهى كلام الشيخ زروق، وعبارته في شرح الوغليسية(58) لما تكلم عن فضائل أهل البيت الشريف، والناس مصدقون في أنسابهم حتى يعرف ذلك بيقين انتهى كلام الأزهار، وقولنا : إن ذلك مخاطرة في الدين، أعني لما يظهر من قوله عليه السلام (تبرّؤ من نسب وإن دق كفر) انتهى، فهذا وإن كان يحمل على التغليظ مخاطرة لا محالة.

وكنت أنا وقع لي مثل ذلك، وجدت آبائي ينتسبون إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فحصلت لي ريبة في ذلك لما وقفت على قول الشيخ بن عبد السلام التونسي(59) وتلميذه ابن عرفة، يصعب إثبات نسب له ستمائة سنة، فبحثت عن تحقيق تلك النسبة لأسلافنا كل البحث، فلم أقف لذلك على ما يعتمد عليه، إلا أن الشيخ ابن ناصر كان ينسب لهم ذلك لما صاهرهم على ابنته ولم أتحقق أيضا قول الشيخ ابن ناصر رضي الله عنه، فتركت ذلك الانتساب، فلما وقفت على الحديث الذي نقله الشيخ زروق رجعت إلى تلك النسبة رجاء بركتها، وخوفا من الوقوع في ذلك الخطر).

وكان مقام سلفهم بقبيلة زمور من بني عمرو منهم من عهد قيام مغراوة على الأدارسة، واختفاء الأدارسة في أغمار القبائل، وكان والده

(55) عبد القادر بن عبد الله الشبيهي الجوطي الحسني دعي بالشبيهي للشبه بمحمد صلى الله عليه وسلم بسبب ما كان بين كتفيه من صورة الخاتم ت 1099 هـ 1687 م.

(56) في الجامع الصغير بالفاظ متقارنة.

(57) روى الامام احمد والدارمي بألفاظ متقاربة.

(58) كتاب فقهي للامام احمد زروق توفي سنة 899 هـ 1493 م.

(59) أبو الفتح محمد بن عبد السلام التونسي نزيل دمشق ولد بتونس وبها نشأ وطلب العلم عالما حافظا متفننا توفي سنة 749 هـ 1344 م الديباج المذهب ص 336.

المذكور سيدي إدريس رجلا صالحا أدركناه وزرناه مرارا، وكان يلتمس منه الخير، ويرغب الناس في صالح دعواته، فلا يلقاه أحد إلا قبل يده، وطلب منه الدعاء، ولا يعرف أحدا إذا لم يكلمه كأنه مصطلم ولكن ليس كل الاصطلام، ويذهب من داره بدرب اللمطى إلى جامع الأندلس، ولا يلقاه أحد الا هنالك وكان يقرأ الأحزاب الموظفة بجامع الأندلس ويصلي الصلوات المفروضة كلها هنالك، ويجلس في ناحية من المسجد، وإذا لم يحضر الإمام الراتب لا يصلي غيره، حتى كان كأنه هو الراتب، لأن الأئمة يتكلون على وجوده هنالك في كل وقت، فلا يحتاجون إلى طلب من ينوب عنه، هكذا أدركناه، وكنت أقرأ هناك حزبا بين الظهرين، وهو من جملة أهل ذلك الحزب، فأغتنم زيارته وتقبيل يده ودعائه، مع ما كان بيني وبين الوزير المذكور من شدة الاتصال في زمن القراءة بسبب المناسبة الأدبية الجامعة بين المتجانسين، وسببه أني لما قدمت لفاس أول مرة وذلك عام تسعة وعشرين ومائتين وألف، وكنا نحضر معا عند الفقيه الأزمي، وجدناه في باب الشهادات من المختصر، فلما ختم أنشد الناس في ذلك قصائد على العادة، ومن جملة ذلك قصيدة لي أولها :

ختام الهوى قد فض منك بسره   فما لك تطوي الحب من بعد نشره

فكتب إلي الوزير يطلب نسخة منها بقطعة أولها :

ختام الهوى هام الحبيب بحسنها

فتمكن من يومئذ بيننا وبينه حب روحاني، بقضاء سابق سبحاني، فقضينا زمان الشبيبة في تحصيل ما كتب من علوم الرسوم في اشتراك المشايخ والمجالس، واقتناء الفضائل والنفائس، وإقامة الأفراح والمتنزهات والمخاطبات والمساجلات والمباسطات، في الجد والترهات، فمضت لنا في ذلك ليال وأيام أرق وأطيب من أيام ذي سلم، بلا منغص إلا سرعة زوالها كأحلام من حلم، وكان والده المذكور في أول أمره يعلم الصبيان في المكتب الذي بباب درب اللمطي زمانا، وانتفع الناس به، فلما ترعرع ولده الوزير أقامه مقامه، وغلب عليه الهروب من الناس والانفراد كما أشرنا إليه، فكان الوزير في ذلك لامتثال أمر أبيه، وكان لا يخالفه لا فيما قل ولا فيما جل، ولا يفعل أمرا من الأمور المهمة إلا بإذنه، ولا يسقط في يده

درهم فأعلى إلا ألقاه في يد أبيه، فأقام في ذلك المكتب فأعانه الله عليه، وبارك في حركته، وأعطى القوة الباهرة، فكان يكتب الصبيان ويكتب غالب الكتب التي يقرأ بها، ولا يفوته ما هو بصدده من حضور مجالس التعلم، وإذا ذهب إلى القراءة يترك عمه سيدي أحمد ينوب عنه في المكتب حتى يرجع، وقد كتب على تلك الحالة كتبا عديدة زيادة على الأنصبة التي يحضر بها وهي شيء كثير، كتب ثلاث نسخ من الشفاء وسفرها بيده وباعها ودفع ثمنها لأبيه، ونسختين من القاموس وباعهما بثلاثين مثقالا لكل واحدة، وذلك أغلى ثمن في ذلك العهد، والشفاء بعشرة مثاقيل لكل واحدة وهو ثمنها، والأشياء في ذلك الوقت رخيصة، والدراهم قليلة.

ولما فرغ السلطان العادل مولانا سليمان من بناء الدارين اللتين بزقاقي الحجر والرواح، لولديه مولاي إبراهيم ومولاي علي، جعل وليمة عظيمة للشرفاء والعلماء وخواص الطلبة ومن يشار إليه بالخير، فأحيا الناس تلك الليلة بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الوزير المذكور ممن حضر وأنشد قصيدة طنانة عجيبة المنزع أولها :

حياك حياك رب العرش يادار ولاتحل حماك الدهر أكدار

فعجب الناس بها في ذلك المجمع وأنشدها الناشدون في كل بيت من بيوت الدارين، وكان من جملة الحاضرين شيخنا أبو الفيض سيدي حمدون بن الحاج فأخذها وتركها عنده، وفي صبيحة الليلة طلع بها للسلطان وقال له : هذا نفس غريب في هذا الزمان، ظهر في ولد من أهل فاس، وأنشد هذه القصيدة في هذه الليلة، فأمر له السلطان بمائة مثقال، ولكل واحد من الفقهاء بخمسين مثقالا، ولكل واحد من مطلق الحاضرين بعشرة مثاقيل، فدعا شيخنا الوزير ودفع له مائة مثقال، وكان مائة مثقال إذ ذاك لها بال عظيم، فقال الناس فلان أعطي مائة مثقال، فذهب بها الوزير وصبها في حجر أبيه، وبذلك مع ما باع به الكتب التي كان يكتب زوجه أبوه، فما زالت الأيام تدرجه وترقيه حتى كان ما تقدم من قيام أهل فاس على الإمام العادل مولانا سليمان ومبايعتهم لأولاد مولاي اليزيد، حتى انطفأت نارهم، وانكشف دخانهم، ورجع الناس لإمامهم العادل، وولى على فاس ولد أخيه

السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، فاتصل الوزير بخدمته، فلما بويع بعد موت عمه العادل بقي الوزير على رتبته تسمو به السعادة حتى استقل بالوزارة وكان يقول : إنه ما أدرك ما أدرك إلا ببركة ولي الله تعالى سيدي مولاي عمرو، وهو رجل صالح مشهور بالزهد والعبادة والتجافي عن جميع أسباب الدنيا ، مقبل بكليته على ما خلق لأجله، وكان الناس يقصدونه للزيارة، ويستمدون منه الخير والبركة، وهو مقيم بمدرسة الصهريج التي في جوار جامع الأندلس، وهو رجل أستاذ يقرأ بالجماعة، دائم العكوف على التلاوة والذكر، قيل إن السلطان العادل كان طلب منه الوصول إليه فامتنع فأتاه السلطان في بعض الليالي مختفيا ، وهو لا يعرفه، فزاره ودعا له، ولو عرفه ما ظهر له، وكان الوزير ملازما له لأجل الخدمة، والقيام بكل ما يحصه من الضروريات زمانا طويلا، وكنت طلبت منه أن يوصلني إليه لطلب الزيارة، فاستأذنه لي فأذن، فدخلت عليه في بيت بأعلى المدرسة، فرأيت رجلا تذكر الله رؤيته جالسا على حصير أظنه بلا لبدة، لابسا حائكا وقميصا لا غير، وكان الزمان باردا جدا ، وهو ضعيف الجسم، نحيل مائل إلى الطول، أسود اللحية، فدعا لنا بالخير، وقرأ الفاتحة والحمد لله على لقاء أهل السعادة، فإنه ما أفلح من أفلح، إلا بصحبة من أفلح، وكان هذا السيد لا يقبل عطية أحد، ذكر الوزير أنه كان يعرف في بعض الكهوف بخارج باب الفتوح من حضرة فاس معدن الفضة، فكان إذا احتاج الى القوت يأتي بتراب منه ويدفعه للوزير أو لرجل آخر كان يخدمه أيضا ، يقال له السيد محمد المغيرفي فيسبكه من دفعه إليه فيصرف منه عليه حتى ينقضي ويأتي بآخر، ولم أتيقن تاريخ وفاة السيد عمرو المذكور، وإن كنت حاضرا في الصلاة عليه وفي دفنه، إلا أنني ما كنت أقيد شيئا من أمثال هذا ، وأما وفاة الوزير فإنها كانت سنة أربع وستين ومائتين وألف في أوائل المحرم كما تقدم.

وأما الوزير الأعظم، المبارك الأعز الأكرم، الذي له في ساحة المجد أرفع المباني، العلامة أبو الثناء سيدي الطيب بن اليماني

فإن هذا السيد انتشأ في حجور السعادة والصون، وصادف من العناية كل تأييد وعون، فجمع له بين الرياستين، فتردد بين المرتبتين

النفيستين، بعدما اقتنى من علوم الشرع ما اقتنى، وحاز منها ما توجه إليه الاعتناء، اتخذه السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان بن هشام معلما لأولاده الكرام، الذين خصهم الله بغاية الاعتزاز والاحترام، فلما قدم مولانا المظفر مراهقا من سجلماسة في صدر خلافة والده أضافه إلى تربيته ونظره، وخصه بكفالته في ورده، وصدره، فانتشأ مولانا المظفر في حضانته انتشاء الدر في صوان الصدف، وما خرج عن أخلاقه الحسان ولا صدف، حتى جمع عليه القرآن العظيم حفظا ورسما، وأدرك غاية الكمال مسمى واسما، وقرأ مقدمات العلوم وأمهاتها، وأحاط بصورة النجابة من جميع جهاتها، فلازمه بعد ذلك حتى تجلت شمس الخلافة في مشرقه، ولاح تاج الإمامة الكبرى على مفرقه، فهو الآن قطب دائرة ملكه، ويتيمة عقد سلكه، بيمنه حفظ الله الله سيادته وأدام في سماء العلى سعادته، ومما كتبت له في بعض قدماته مع مولانا نصره الله من فاس لمراكش،وكان قد طال مكثه بالغرب مانصه :

أيها السيد الرفيع المكانة والذي شرف الإله مكانه
أنت يا أيها الوزير همام أمر المجد أن يكون فكانه
طيب الأصل والفروع زكي أنت والله حافظ للأمانه
بيس للملك غيرك اليوم كاف رافع بالنهى له بنيانه
كلما دجت الخطوب أنارت منك ما قد دجى شموس الفطانه
قد وسعت الورى بخلق كريم وأبنت الأمور كل الإبانة
قدم اليمن إذ قدمت وجاءت كل من يستعين منك الإعانة
فهنيئا لهم بمقدم بحر لافظ دره لهم وجمانه
بحر علم من آل قيلة قوم نصر الدين بأسهم وأبانه
حفظ الله ذلك المجد حفظا دائما وأعزه وأعانه

المراد بآل قيلة الأوس والخزرج، وهو أعزه الله ليس ببدع في هذه المرتبة، ولا بأجنبي من خدمة عز هذه العتبة، فإن والده المرحوم كان في دولة السلطان العادل مولانا سليمان رئيس الكتبة، وكان للوزير الصالح القائد احمد به اعتناء زائد خارق للعوائد، لا يفارق جنبه الأيمن في صدر الديوان، لأنه لا يتلون بغير الصدق والعفاف، والمروءة بشيء من الألوان، وكان لنا رحمه الله معاشر الكتاب موردا صافيا، لا نخشى تغيره ولا كدره، وكنا له طائعين أولادا برره، وبيته في مكناس ثابت السيادة والأصالة ولا يبلي طول الزمان مآثره وخصاله.

حضرت يوما عند صاحبنا الفقيه الحاج المعطي الزداغي المراكشي (60) وكان قدم لحضرة السلطان العادل لحضرة مكناس بقصد سرد صحيح البخاري على العادة، فأنزله عند قهرمان الحضرة الأمين الحاج الطاهر بادو فأنزله بدار العريفة حول داره، فبينما نحن جلوس إذ قدم عليه الفقيه الكاتب سيدي اليماني، جاءه بأمر سلطاني، فساره بذلك ثم خرج، وكان معنا فتى من أهل مكناس، بذي اللسان مسلط على الأعراض، لاسيما أهل المروءة والدين، وكان إذ ذاك مشهورا بالأنظام الملاحين، التي يتعاطاها سفهاء العوام، لاسيما أهل مكناس، فلما خرج الفقيه الكاتب قال ذلك الفتى الموصوف كلمة ناقصة غاضة في حق الكاتب، فسمعه رجل كان معنا يقال له الحاج قدور الواقي، شيخ كبير تاجر من أهل مكناس، جال البلاد شرقا وغربا، وسودانا وبرا وبحرا، أخباريا نسابة صادق في كل ما يحدث به، يرجع إليه في الأمور العظام، لاسيما في الأنساب، فلما قال ذلك الفتى تلك المقالة قالله الحاج قدور، ماذا تقول ؟ قال له : كذا وكذا، فسأل عنه فقال للحاضرين ولد من هذا ؟ فقالوا هذا يقال له السيد فلان، طالب نجيب، حسن الخط أديب <وهو الذي غلب العميري شيخ الكلام لما تهاجيا بالملحون وفضحه على رؤوس الأشهاد>(61) فقال لهم : سألتكم عن أبيه ؟ فقالوا لا نعرف أباه، وكان في ذلك المجلس أيضا رجال مسنون السيد المكي بادو واثنان آخران لا أعرفهما، فقال له أنت مجهول الأب، وهؤلاء كبار أهل مكناس لا يعرفون أباك، وتقول في الفقيه المسلم السيادة والأصالة مما لا يليق بمنصبه ثم قال لأولئك الأشياخ : هل فيكم من يجهل والد الفقيه السيد اليماني ؟ فقالوا : نعرفه ونعرف جده بالمعاصرة، ونعرف سلفه المشهور بالخير والدين والنباهة والسيادة والوجاهة، فقال لهم : ما بالكم تسمعون كلام هذا السفيه المجهول {الأب}(62) ولا تنكرون عليه، هذا سبب خراب العالم، أن يسب الفاسد الصالح ولا ينكر عليه، لا حول ولا قوة إلا بالله، وما زال يشنع على القوم ويقبح سكوتهم عن ذلك، وكان أكبر منهم بكثير، وكان فيهم ذا جلالة وقدر، وجعلوا يأخذون بخاطره ويسعون

---

(60) المعطي الزداغي المراكشي من علماء دولة مولانا سليمان الذين يحضرون معه قراءة صحيح البخاري عام 1232 هـ، وجه عليه لذلك من مراكش ومكناس الاعلام المراكشي ز 7 ص 257.

(61) ما بين القوسين ساقط من (م).

(62) ساقط من (م) والأصل و (ش) وموجود في الفاسية.

في رضاه حتى استنزلوه من حالة الغاضب الذي اعتراه، فسكن قليلا، ثم قال والله اني لأعرف أصل هؤلاء القوم بني العشرين فإنهم من بلاد الأندلس، وكانوا أولا بتونس عند انتقالهم من الأندلس، ثم انتقلوا لتلمسان، ثم لفاس، ثم لسلا، ثم كانوا مدة بجبال الزبيب، ومن ثم انتقلوا لهذه البلدة، وهم ينتسبون الى الأنصار، انتهى كلام الحاج قدور المذكور.
وكانت هذه القصة عام اثنين وثلاثين ومائتين وألف، ولما كانت فتنة أولاد مولاي اليزيد، قدم الفقيه الكاتب سيدي اليماني لحضرة السلطان لفاس الجديد، وهو محاصر لفاس البالي فنزل معنا سيدي اليماني بدار الموقت التي هي متصلة بمنار الجامع الكبير، ونحن جماعة، وكنت أنا أباشره وأتسخر له، لأني أصغر القوم، وكان به ضعف وألم، لأنهم قدموا به ليلا فتضرر بذلك، وكانت الطريق التي بين فاس ومكناسة مخوفة لا تسلك إلا ليلا على خطر ‹وكانوا يمرون على طرف من جبل زرهون علي قنوفة فتعب الفقيه بذلك غاية التعب، وكان السلطان أمر خليفته بمكناس مولاي الحسن بتوجيه الفقيه سيدي اليماني، أراد سؤاله عن الأحوال الباطنة الخاصة ببيت المال، لأنه وقع فيه إسراف وتبذير، وعلم السلطان أنه لا يشفي غليله في ذلك إلا الفقيه سيدي اليماني، وقال السلطان لمولاي الحسن يركب القائد محمد أو ميمون الجرواني مع طائفة من إخوانه مع سيدي اليماني حتى يصل إلينا عزما فجاءوا به على الحالة المذكورة، فلما جاء نزل معنا كما تقدم›(63) ثم حدثته ذات يوم بما وقع من حديث الواقي، فقال لي صحيح كل ما ذكره عن سلفنا، إلا أنني ما عرفت إلا الانتقال من تونس لفاس، لا إلى تلمسان ثم فاس، وقال لي : إن سبب الانتقال من سلا الى الجبل أن بعض الأسلاف اذ ذاك كان متزوجا ببنت بعض أهل الجبل ‹الساكنين بسلا›(64) ثم حصلت هيعة بسلا من الغلاء فخرج بقومنا صهرهم الى الجبل، فأقاموا هنالك مدة ومنه الى مكناس، والله يعلم، ثم الى أين، قال لي : وكان قومنا يقال لهم بنو أبي العشرين البياشي بالشين المعجمة فتنوسي الوصف الأخير، وبقي الأول، ولم أدر ما سبب الوصفين لا الأول ولا الثاني، هذا حاصل ما ذكر لي الفقيه سيدي اليماني رحمه الله تعالى.

(63) ما بين القوسين من هامش الأصل بخط مؤلفه وساقط من (ش) و (ف).
(64) ما بين القوسين ساقط من (م).

قلت : رأيت السيد أحمد المقري في نفح الطيب ذكر أبا العشرين في محلين وذهب عني ذلك المحل، وكنت عهدت من عادتي في المطالعة أن أوقف على المهمات في الهامش عند المطالعة، ولم أكن طالعت منه إلا السفر الثاني والثالث، فأعدت مطالعة السفرين المذكورين، لكن إنما أنظر في الهامش لعلي أرى توقيفة على ذلك فسردتهما ورقة ورقة، فلم أجد ذلك، وعجزت عن مطالعة السفرين من أصلهما. ثم إني رأيت في وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان، في ترجمة الشيخ أبي الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي الأنصاري، قال أحد فضلاء الأندلس وحفاظها، ثم قال وطاف بأكثر بلاد الأندلس، وتنقل فيها، ولما قدم من جزيرة الأندلس الى مدينة تونس جمع للأمير أبي زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر صاحب إفريقية كتابا سماه "الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام" ابتدأ فيه بمقتل الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وختم بخروج الوليد بن طريف الشاري على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة الفراتية، ثم قال ابن خلكان في آخر ترجمته : وكان مولده يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وتوفي يوم الأحد الرابع من ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وستمائة بمدينة تونس، والبياسي بفتح الباء الموحدة والياء المشددة المثناة من تحت والسين الغير المنقوطة، هذه النسبة الي بياسة، مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، هكذا قاله ياقوت الحموي في كتاب المشترك وضعا، انتهى كلام ابن خلكان. وهذا يدل على أن ما ذكره الفقيه سيدي اليماني من أن البياشي بالشين المعجمة إنما هو تصحيف جرى على ألسنة العوام، كما هي عادتهم في كثير من الألفاظ، هذا ولا يبعد أن يكون هذا النسب هو الذي ينتمي إليه قوم البياز بفاس، فأبدلوا السين بالزاي لقرب المخرج، وكثيرا ما يتعاقب الحرفان المذكوران، كالسراط والزراط، والسعتر والزعتر، فيكون نسبهم الى البياسي المذكور، ويصح لهم نسب الأنصارية بلا إيراد ما حدثني به الفقيه أبو مالك السيد عبد الواحد الضرير السجلماسي البوعصامي(65) رحمه الله تعالى، قال : كنت عند القاضي الشريف مولاي عبد الهادي، وكان عنده عامل فاس السيد الطيب البياز، فقال له القاضي : هذا النسب الذي

(65) تقدمت ترجمته.

تنتسبون فيه الى الأنصار هل تنتسبون الى بعض المشاهير من صحابة الأنصار ؟ قال نعم، قال الى من منهم ؟ قال : لعبد الله بن رواحة، فقال له القاضي : عبد الله بن رواحة ما عقب ؟ فقال له العامل السيد الطيب ومن ذكر أنه ما عقب ؟ قال : فسكت القاضي، فلا أدري هل سكوته لكونه ليس على يقين من ذلك، أو إنما ترك ذلك خشية اللجاج انتهى، وربما يكون إنما اغتر القوم أهل فاس المذكورون لما سمعوا إطلاق البيازين على ربض غرناطة من الأندلس، فتمسكوا بهذا اللفظ، وإلا فالأصل البياسي كما قلنا، وهو مسلم النسبة الأنصارية، والله أعلم.

وقد ظهر بمجموع ما ذكرناه أن نسب القوم آل أبي العشرين إلى الأنصار واضح الصحة جدا، بل هو أصح من نسب البيازين ومن كثير من الأنساب الطويلة المدى، ‹بل صرح بذلك الأئمة الثقات الأماجد الهداة كالإمام أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي، قال مؤلف "دوحة المجد والتمكين، في وزارة العالمين ابني العشرين"، قال العلامة أبو زيد الفاسي في الورقة الثانية من تأليفه في مشاهير علماء فاس في القديم ما نصه : ومنهم بيت بني عشرين الخزرجيين، بيت علم وأصالة، منهم فقهاء أئمة، كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين، كان فقيها حافظا محصلا مستبحرا في الفقه، تفقه عليه فقهاء المغرب، وكان يحفظ المدونة، ومن صدره نقلت بعد أن أحرقها ملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي، يروى أنه لما جبرت من صدره في أول الدولة المرينية قوبلت بعد ذلك مع نسخة فوجدوها كما هي، لا خلاف بينهما إلا في مثل فاء أو واو، انتهى بلفظه، يعني كلام الفاسي وإن أردت بيان ما ذكر وإيضاحه فانظره في رسالتنا المسماة "بخمائل النسرين في الوزراء بني العشرين"›(66)، ومآثر هذا الوزير ومحاسنه وآثاره في تشييد أسباب الخير في الدولتين الهشاميتين لا تعد، ولو ذهبنا الى تقييد ما شاهدنا من ذلك بالعيان لا انقضي الزمان قبل انقضائه، وأفضى بنا الى براح العجز وفضائه، ولو

(66) ما بين القوسين ساقط من (ش) و (ف) وأما رسالة خمائل النسرين في الوزراء بني العشرين فهو لمؤلف المبشر قلت وعنده كتاب آخر في نفس الموضوع سماه حسام الانتصار في بني العشرين الانصار، وفي الاعلام ان الفقيه الأديب السيد ج محمد بن الوزير ج ادريس بن الوزير الط أخبره بأن الحسام قد طبع، وان الخمائل ذيل الأول في أربع كراريس وان الأصل في عشرين كراسيا هـ الاعلام ج 6 ص 322 بترجمة الوزير محمد الط.

أفرد بالتأليف لكان بذلك حقيقا، وكان فعل ذلك لفاعله إلى نيل السعادة سببا وثيقا.

وأمـــا الحجابـــة

فإن هذا اللقب ظاهر معناه أن الحاجب هو الذي يحجب السلطان عن العامة، ويغلق الباب دونهم أو يفتحه لهم على قدر المصالح الضرورية السلطانية، وهكذا كان في دولة بني مروان وبني العباس، وأما في الدولة الأموية بالأندلس فإن الحاجب يحجب الخاصة والعامة، ويكون واسطة بين الناس وبين السلطان، الوزراء فمن دونهم، فلا تبرم الأمور الجليلة ولا الحقيرة إلا على يده، فتكون هذه المرتبة لها الرياسة على غيرها من المراتب، ثم تعاظم قدرها حتى وقع استبدادها، أي الحجابة واستقلالها كما وقع للمنصور بن أبي عامر في حجابته لهشام المويد، وأما دولة اللمتون فليس فيها شيء من ألقاب المملكة لبداوتها الصرفة، وكذلك أول الدولة الموحدية فإنها لم تستمكن في مقام الحضارة ‹الداعية الى انتحال الألقاب وتمييز المراتب والخطط الملوكية›(67) إلا في أواسطها لما استفحل أمرها، فلم يكن عندهم من المراتب إلا الوزير، وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام المشارك للسلطان في الرأي الخاص، كابن عطية وعبد السلام الكومي، ثم خصوا بعد ذلك هذا اللقب الذي هو الوزير بأهل نسب الدولة، كابن جامع وغيره، وكذلك دولة الحفصيين بإفريقية، وأما دولة زناتة وأعظمهم بنو مرين فلم يكن عندهم أثر لهذه المرتبة التي هي الحجابة.

وأمـــا القهرمانـــة

فإن السلطان إذا اتسع ملكه، وكثر في داره رواتب المرتزقين فإنه يحتاج بالضرورة إلى قهرمان خاص، أي أمين متصرف في أحوال أهل الدار من كل ما تدعو الحاجة إليه يجريها على قدرها ويرتبها علي مراتبها المضبوطة، وقوانينها الطبيعية، فلا يتعدى شيء مركزه من قوت وكسوة ونفقة في المطابخ والصطبلات وغير ذلك، ومن ذلك حصر الذخائر وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، وربما أضافوا إليه كتابة العلامة

(67) ما بين القوسين ساقط من (م).

على السجلات، وهذه المرتبة في الدولة الشريفة الحسنية الإسماعيلية أعز الله ذكرها كلها بجميع تفاصيلها مندرجة في اسم الأمين في الاصطلاح، كالحاج حمو بن حيون عند السلطان العادل مولانا سليمان، وابن العادل في أول دولة السلطان المؤيد مولانا عبد الرحمان، وابن شقرون في دولة مولانا أمير المؤمنين نصره الله تعالى.

وأمـــا الكتـــابـــة

هذه المرتبة أشرف من جميع المراتب المتقدمة، لتوقف الجميع عليها، وعدم قيام شيء منها بدونها، فإنها أخت السيف وقرينته، بل قالوا إن القلم أحد وأمضى من السيف، وشأنه أجل من أن يدرك بالكيف، قال ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت   له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يقاومه   ما زال يتبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للاقلام مذ بريت   إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

وإنما أخرت الكلام في هذه المرتبة لأتفرغ لها، فإن بيننا وبينها رحما وشيجة العروق، ومنتسبا واضح الشروق، إذ كنا لها برهة من الزمان منتحلين، وإن لم نكن في عصبتها مستفحلين، فأردنا بحول الله تعالى أن نأتي في هذا التقييد عند بسط الكلام، بما يكون تحفة لحملة الأقلام، صلة لتلك الرحم المهجورة، وتسريحا لمثابة الحسن والاحسان المحجورة، فإن هذا الزمان قد غمص هذه الرتبة حقها، حتى ساومها(68) محوها ومحقها، ولم يبق لها حرمة، ولا راعى حقوق الذمة، فليس إلا أطلالا بالية، ورسوما خالية، وعسي الله أن يجري فلكها جري السعادة ويدير، فإنه على كل شيء قدير.

فنقول : إن الكلام فيها ينحصر في سبعة مقاصد، الأول في مدلول الكتابة في لغة العرب، الثاني في أوليات تتعلق بها كأول من خط الخط العربي، وأول من كتب أما بعد، وأول من قال من فلان الى فلان، الثالث في آلات الكاتب، الرابع في المكتوب فيه، الخامس في المكتوب به، السادس في الكاتب، السابع في المكتوب إليه.

(68) في (م) سامها بدل سوامها.

المقصد الأول : في معنى الكتابة في اللغة

يقال كتبه كتبا وكتابا خطه ككتّبه واكتتبه أو كتبه خطه، واكتتبه استملاه، كاستكتبه انتهى بلفظ القاموس، ولم يذكر الكتابة من المصادر، وكأنه جعلها حرفة كالتجارة، وقد فسر كتب بخط، وليس مراده بالخط الامتداد الوهمي الذي هو قسيم النقطة والجسم، ولكن المراد الرقم الظاهر على وجه الصحيفة ونحوها، ولم يعرفها صاحب الاقتضاب، وإنما قال في بعض كلامه، الزبارة والتزبرة : الكتابة، قال رجل من أهل اليمن : أنا أعرف تزبرتي أي كتابتي، قال أبو ذؤيب :

عرفت الديار كرقم الدواة يزبره الكاتب الحميري

وقال امرؤ القيس :

كخط زبور في مصاحف رهبان(69)

قال ابن قتيبة الزبور في هذا البيت الكاتب، يقال زابر وزبور بالزاي وذابر وذبور بالذال المعجمة انتهى، وأما أهل الرياضي فإن رئيسهم إيقليدس عرف الخط الذي هو بمعنى الكتابة، فقال : الخط هندسة روحانية ظهرت بآلات جسدانية، وقال أيضا : الخط شيء أظهره العقل بواسطة هي القلم، فلما قابل النفس عشقته بالعنصر.

المقصد الثاني : في أول من كتب بالعربي

{قال القاضي شمس الدين ابن خلكان ان أول من خط العربي إسماعيل عليه السلام، والصحيح عند أهل العلم أنه مرامر بن مرة من أهل الأنبار، وقيل : إنه من بني مرة، ومن أهل الأنبار انتشرت الكتابة في الناس هـ}(70) قال في القاموس : مرامر بن مرة أول من خط الخط العربي انتهى، وقد ضبط مرامر بقوله كعلابط وقال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة في كتاب آلة الكتاب ذكر أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه قال : أول من وضع الخط يعني العربي نفر من طي من

---

(69) شطر بيت :

أتت بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

من قصيدة قفا نضحك من ذكري عيب وعرفان لا من قصيدة قفا نضحك وذكري حبيب ومنزل.

(70) ما بين القوسين بهامش الأصل وفي الملكية وساقط من (ش) و (ف).

بولان، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة، فصاروا إلى مكة فتعلمه منهم شيبة بن ربيعة بن حرب بن عبد شمس، وعتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهشام بن المغيرة المخزومي، ثم أتوا الأنبار فتعلمه نفر منهم، ثم أتو الحيرة فعلموه جماعة منهم : سفيان بن مجاشع بن عبد الله بن دارم، وولده بالكوفة يسمون أولاد الكاتب، ثم أتوا الشام فعلموه جماعة فانتهت الكتابة إلى رجلين من أهل الشام، يقال لهما الضحاك وإسحاق بن محمد، وكانا يخطان الجليل، فأخذ إبراهيم بن الشجزي الخط الجليل من إسحاق بن حماد، واخترع منه خطا أخف منه وسماه الثلثين، وكان أخط أهل دهره بخط الثلثين، ثم اخترع قلما أخف من الثلثين وسماه الثلث، وأقام ابن الخميس على الخط الجليل الذي أخذه عن إسحاق بن حماد إذ أخذ عن إسحاق بن حماد الخط الجليل اخترع منه قلما آخر أهون من الجليل تاما مفرط التمام مفتحا، فأعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل فأمر الكتاب ألا يحرروا الكتب إلا به، وسماه الرياسي، ثم أخذ ابن الأحول عن ابن الشجزي الثلثين والثلث، فاخترع منهما قلما سماه النهصف، وقلما آخر سماه خفيف النصف، وقلما أخف من الثلث سماه خفيف الثلث، وقلما سماه المسلسل متصل الحروف لا ينفصل بعضها عن بعض، وقلما سماه غبار الحلبة، وقلما سماه خط المؤامرات، وقلما سماه خط القصص، وقلما قصيرا خفيفا سماه الحوائجي، وقلما سماه المحدث، وقلما سماه المدمج، وقلما سماه الطوماري، انتهى، وحاصل ما نقل عن ابن مقلة من الأقلام ما يبلغ عدد أصنافه أحدا وعشرين، وهي هذه : الجليل، وقلم الثلثين، ويسمى السجلي، والرياسي، والنصف، وخفيف النصف، والثلث، وخفيف الثلث، ويسمى قلم الرقاع، والمسلسل، وغبار الحلبة، وصغير الغبار، وهو المسمى قلم المؤامرات، وقلم القصص، والحوائجي، والمحدث، والمدمج، وثقيل الطومار، وخفيف الطومار، والشامي، ومفتح الشامي، والمنشور، وصغير المنشور، وقلم الجزم قال ابن مقلة : للخط أجناس قد كان الناس يعرفونها ويعلمونها أولادهم، ثم تركوا ذلك وزهدوا فيه كزهدهم في سائر العلوم والصناعات، وكان أكبر تلك الأجناس وأجلها قلم الثلثين، وهو الذي كانت السجلات تكتب به فيما يقطعه الأئمة، وكان يسمى قلم السجلات، ثم ثقيل الطومار، والشامي، وكان يكتب بهما في

القديم عن ملوك بني أمية، ويكتب إليهم في المؤامرات بمفتح الشامي، ثم استخلص أولاد العباس قلم النصف فكتب به عنهم، وترك ثقيل الطومار والشامي، ثم إن المامون تقدم الى ذي الرياستين بأن يجمع حروف قلم النصف ويباعد بين سطوره ففصل ذلك وسمى القلم الرياسي، فصارت المكاتبة عن السلطان بقلم النصف والرياسي، والمكاتبة إليهم بخفيفهما، والمكاتبة من الوزراء الى العمال بقلم الثلث، ومن العمال إلى الوزراء بصغيره، ومن الوزراء الى السلطان بقلم المنشور عوضا عن مفتح الشامي. وصغير المنشور، وسميا بقلم المؤامرات وقلم الرقاع وهو صغير الثلث، للحوائج والظلامات، قال : وأكثر أهل هذا الزمان لا يعرفون هذه الخطوط ولا يدرون ترتيبها، قد اقتصر كل كاتب على ما وقف عليه خطه كاقتصارهم في سائر الأمور.

وأما أول من افتتح كتابه بالبسملة فسليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام، وأول من قال أما بعد فداوود عليه السلام، وأول من كتبها من العرب قس بن ساعدة الإيادي، وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها باسمك اللهم، فجرى الأمر على ذلك في صدر الإسلام حتى نزل {باسم الله مجراها ومرساها} فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم الله حتى نزل {قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان} فكتب باسم الله الرحمان، حتى نزلت {وإنه باسم الله الرحمان الرحيم} فصارت سنة إلى يومنا هذا.

وأما أول من طبع الكتاب أي الطبع عليه من خارج بعد طيه فعمرو بن هند، وسبب ذلك أنه كتب كتابا للمتلمس الشاعر الى عامله بالبحرين يوهمه أنه أمر له بجائزة، وقد أمر العامل فيه بضرب عنقه، فاستراب المتلمس فدفعه الى من قرأه عليه فأخبره القارئ، فرمي بالكتاب في النهر وفر على وجهه وفي ذلك يقول :

وألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك أجزى كل قط مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها يجول بها التيار في كل محفل

فلذلك أمر عمرو بن هند بالكتب فختمت، وفي الصحيح أن رسول الله عليه وسلم كتب إلى ملك الروم كتابا فلم يختمه، وقد روي أن أول من ختم الكتاب نبي الله سليمان بن داوود عليهما السلام، وقالوا في تأويل

قوله تعالى {إني ألقي إلي كتاب كريم} أي مختوم.

وأما أول من كتب من فلان الى فلان فرسول الله صلى الله عليه وسلم، فصار ذلك سنة، يكتب الكاتب ويبدأ باسمه قبل اسم من يخاطبه، ولا يكتب لقبا ولا كنية، حتى ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتسمى بأمير المؤمنين كما تقدم في رايته أول هذا التقييد، فجرت العادة بذلك الى أول ولاية الوليد بن عبد الملك، فكان الوليد أول من اكتنى في كتبه، وأول من عظم الخط والكتب، وجود القراطيس، ولذلك قال أبو نواس :

سبط مشارفها دقيق خطها وكأن سائر خلقها بنيان
واحتازها لون جرى في جلدها يقق كقرطاس الوليد هجان

وكان الوليد يقول : لا أكاتب الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضا، فجرت العادة على ذلك إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ويزيد الكامل، فإنهما لما وليا ردا الأمر الى ما كان عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزمان الصحابة رضوان الله عليهم، فلما ولي مروان بن محمد رد ما كان في زمان الوليد.

المقصد الثالث : في آلة الكتابة

كالدواة ومدادها وصوفتها، والخرقة التي يمسح بها، والسكين وقرابها، والمقص وما يجعل فيه الأقلام، هذه هي الآلات المشهورة التي يتوقف الكاتب عليها، وربما توقف على أمور أُخَر في النادر.

فأما الدواة فيقال : هي الدواة والنون، قال بعض المفسرين في قوله تعالى {نون والقلم} إن النون هي الدواة انتهى، وجمع الدواة دويات كقناة وقنوات، ويقال دواة ودوى كما يقال أيضا قناة وقنا، قال الشاعر :

لمن الدار كخط بالدوى أنكر المعروف منها وامحى

ويقال دواة ودوي كما يقال قناة وقني قال الشاعر :

وكم تركت ديار الشرك تحسبها تلقى الدوى على أطلالها ليقا

وجمع النون في العدد القليل أنوان وفي العدد الكثير نينان، كما يقال في جمع حوت أحوات وحيتان، واشتقاق الدواة من الدواء، لأن بها صلاح أمر الكاتب، وجعلها بعض الشعراء من دوى الرجل يدوى اذا صار

في جوفه الداء فقال :

أما الدواة فأدوى حملها جسدي   وحرف الخط تحريف من القلم

وليس للنون فعل يصرف منها، وأما الدواة فقد صرف منها أفعال، واشتقت منها أسماء، فقالوا ادويت دواة، إذا اتخذتها فأنا مدو، فإذا أمرت غيرك أن يتخذها قلت ادو دواة، ويقال للذي يبيع الدوي دواء، كما يقال لبائع الحنطة حناط، ولبائع التمر تمار، فإذا كان يعملها فهو مدو، كما يقال للذي يعمل القناة مقن قال الراجز :

أطر الثقاف خرص المقنّي(71)

ويقال للذي يمسك الدواة ويحملها داو، كما يقال لحامل السيف سائف، ولحامل الترس تارس ويقال لما تدخل فيه الدواة ليكون وقاية لها صوان وغلاف وغشاء، فإن كان شيء يدخل في فمها لئلا يسيل منها شيء فهو سداد وصمام وعفاص، وكذلك القارورة ونحوها، ومن اللغويين من يجعل العفاص ما يدخل في رأس القارورة، ويجعل الصمام والسداد ما يدخل فيها، ووزن دواة فعلة، وأصلها دوية تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا، ويدل على أن لامها ياء قولهم في جمعها دويات، فإن قال قائل : فإن الواو في دواة قد تحركت أيضا وانفتح ما قبلها فهلا قلبت ألفا، ثم تحذف إحدى الألفين للالتقاء الساكنين، فالجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أن حكم التصريف يوجب أنه إذا اجتمع في موضعي العين واللام حرفان، يجب إعلالهما أعلت اللام وتركت العين، لأن اللام أضعف من العين وأحق بالإعلال، إذ كانت طرفا، وفي موضع تتعاقب عليه حركات الإعراب، وهي محل التغيير، والثاني أنهم لو فعلوا ما سامنا هذا السائل لأجحفوا بالكلمة وذهب معناها، ويقوي هذا الجواب ويدل على صحته أنك تجد الواو التي يلزم إعلالها إذا وقعت بعدها ألف لم يعلوها في نحو نزوان والكروان لئلا يلزمهم حذف إحدى الألفين، فيلتبس فعلان بفعال، ولم يأت في الكلام إعلال العين وتصحيح اللام إذا كانا جميعا حرفي علة إلا في مواضع يسيرة شاذة مما عليه الجمهور نحو غاية وآية

(71) وفي كتاب الاقتضاب عض الثقافي خرص المثني.

وطاية وثاية وراية انتهى. من كتاب الاقتصاب للشيخ الجليل أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي(72) رحمه الله تعالى وأما إصلاح الدواة بالمداد فإن صوفة المداد قبل أن تبل بالمداد يقال لها : البوهة فإذا خالطها المداد، فهي الليقة، وجمعها ليق، يقال لقت الدواة وألقتها فهي ملاقة، ويقال لها ليقة قبل بلها تسمية لها بما تؤول إليه، كما يقال للكبش ذبح وذبيحة قبل أن يذبح، وللصيد رميّة قبل أن يرمى، تقول العرب بئس الرمية الأرنب، وقال تعالى (وقديناه بذبح عظيم) فإذا عظمت الصوفة فهي الهرشفة، فإن كانت قطنة فهي قطفة، والكرسفة والقطن كله يقال القطف والكرسف، ويقال كرسفت الدواة كرسفة وكرسافا.

وأما المداد فإنه يذكر ويؤنث فيقال : هو المداد وهي المداد، ويقال له نقس بكسر النون، وأما النقس بفتح النون فهو مصدر نقست الدواة إذا جعلت فيها نقسا، وقد حكى الإمام ابن قتيبة في كتاب آلات الكتاب أنه يقال للمداد نقس ونقس بالفتح والكسر، قال : والكسر أفصح وأعرب، ويقال مددت الدواة أمدها مدا إذا جعلت فيها مدادا، فإذا كان فيها مداد فزدت عليه قلت أمددتها إمدادا، وإذا أمرته أن يأخذ بالقلم من المداد قلت استمدد، وإذا سألته أن يعطيك على القلم مدادا قلت أمددني من دواتك، وقد استمدته إذا سألته أن يمدك، وحكى الخليل : مدني وأمدني أعطني من مداد دواتك، وكل شيء زاد في شيء فهو مداد له، قال الأخطل :

رأت بارقات بالأكف كأنها مصابيح سرج أوقدت بمداد

يعني الزيت، والحبر من المداد مكسور لا غير، فأما العالم فيقال له حبر وحبر، وقال بعض اللغويين يسمى المداد حبرا باسم العالم كأنهم أرادوا مداد حبر فحذفوا المضاف، ولو كان ما قالوه صحيحا لقالوا للمداد حبر بالفتح أيضا، فالأشبه أن يكون سمي بذلك لأنه يحسن الكتاب من قولهم حبرت الشيء إذا حسنته، ويقال للجمال حبر وسبر، وفي الحديث (يخرج من

(72) البطليوسي كان عالما بالأدب واللغة، متبحرا فيهما، مقدما في معرفتهما وإتقانهما سكن مدينة بلنسية، توفي سنة 521 هـ 1127 بمدينة بلنسية، وله مؤلفات كثيرة منها : "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب" وجدير بالذكر التنبيه على ان شرح أدب الكتاب له، نسبه بعضهم إليه، ورأيت في التكملة لكتاب الصلة ج 1 ص 20 بترجمة احمد أبي العباس بن بلال : أنه أي المترجم هو مؤلف "الاقتضاب" لا البطليوسي بل قال أبو عبد الدين ابن خلاصة النحوي أنه أغار عليه وانتحله اهـ "وفيات الأعيان" ج 2 ص 282، ازهار الرياض ج 3 ص 103، وترجمه ترجمة طويلة من كتاب خاص لابن خاقان في التعريف بابن السيد.

النار رجل قد ذهب حبره وسبره)(73) فإذا قيل مداد حبر فكأنه قيل مداد زينة وحسن، ويجوز أن يكون مشتقا من الحبر والحبار وهو الأثر، سمي بذلك لتأثيره في الكتاب، قال الشاعر :

لقد أشمتت بيَ آل فَيْدٍ وغادرتْ بجسمي حَبراً بنت مصَّانَ باديا

ويقال أمهت الدواة إذا جعلت فيها ماء فإذا أمرت بذلك قلت أمه دواتك وموه.

وأما الخرقة التي يمسح بها الكاتب قلمه فهي الوقيعة بالقاف، كما في الاقتضاب، قال كذا حكاها الثعالبي في فقه اللغة، وقال أبو عمرو الشيباني : وفيعة بالفاء، وكذا وجدتها مقيدة بخط علي بن حمزة، وأما ما يدخل فيه القلم فهو غمد وغلاف وقمجار وكذلك للسكين.

قال مقيده عفا الله عنه ولطف به، كنا أردنا أن نذكر هنا طرفا من صناعة المداد، ثم رأينا ذلك يخرج بنا إلى فادح الطول، والدخول في الفضول، فإن ذلك باب واسع، ولكن لا بأس أن نذكر منه صنعة غريبة نسبها بعضهم إلى الإمام الشافعي، وذكر الأبيات العشرة في صفتها ونسبها له أولها :

إن رمت صنعة حبر بين الأفاضل تذكر

وتلخيص هذه الكيفية أن تأخذ من الماء رطلا وثلثا وتلقي فيه أوقية ونصفا من عفص مسحوق ينقع فيه خمسة عشر يوما حتى يصير أحمر اللون، ثم يصفى، وتأخذ أوقية زاج مسحوق ويجعل في خرقة صفيقة ويغمس في ذلك الصفو ويحرك ويعصر المرة بعد المرة حتى لا يبقى في الخرقة شيء، ثم تسحق أوقيتان من الصمغ العربي الأشقر، ويلقى في الماء المذكور ويحرك حتى يذوب، ثم يجعل في ذلك ثلاثة دراهم سكرا، ثم يرفع في الإناء للادخار، والله أعلم.

وأما السكين فهي المدية والخيفة والصلت والمجزأة، والرميض، والمذبح، والمبراة، والسلط، والفالية، وآكلة اللحم، والسخينة، والشلقاء ممدودة على وزن الحرباء، قال الفراء : السكين يذكر ويؤنث، وأنشد :

---

(73) لم نقف عليه.

فعيث في السنام غداة قر بسكين موثقة النصاب

وقال ابن الأعرابي : في المدية ثلاث لغات، الفتح والضم والكسر، ويقال إن السلط هي الكبيرة منها، ويقال لجانب السكين الذي يقطع به الحد والغرب والغر والغرار والذلق، ولجانبها الذي لا يقطع الكل، ولطرفها الذباب والظبة، وللذي يمسك الكف منها المقبض والمقبض بفتح الباء وكسرها، والنصاب، والعتر، والجزأة، يقال جزأت السكين وأجزأتها إذا جعلت لها جزأة، وأنصبتها إذا جعلت لها نصابا، وأقبضتها إذا جعلت لها مقبضا، وذكر ابن قتيبة في أدب الكتاب أن النصاب للسكين والمدية، والجزأة للإشفى والمخصف، وهو رأي كثير من اللغويين، ويقال للمسمار الذي تشد به الحديدة في النصاب الشعيرة، وكذلك السيف، قال الراجز :

كأن وقب عينه الضريرة شعيرة في قائم مسمورة

ويقال لما يشد به النصاب اللكك، ويقال للحديدة التي تدخل في النصاب من السكين السيلان، وكذلك من السيف، ويقال لوجهي السكين الألان واحدهما ألل فإذا كانت حادة قيل سكين حديد وحداد وحداد ومرهف وذليق ومذلق وهذام وحد وصف بالمصدر قال الشمردل بن شريك :

كأن جزارا هدام السكين جزله لميسر أفانين

ويقال وقعت السكين ورمضتها وطررتها وذريتها بالتخفيف وذريتها بالتشديد وأرهفتها كل ذلك إذا أحددتها، ويقال الرمض أن تحد الحديدة بين حجرين، فإذا انكسر طرفها قيل : انفلت انفلالا وتفلل تفللا، وقضمت قضما، وكذلك يقال في السيف قال الشاعر :

فلا تعدني إنني إن تلاقني معي مشرفي في مضاربه قضم

ويقال لغمدها قمجار وغلاف وقراب، أنشد المطرز

(وأخرج السكين من قمجارها)

فإذا أدخلتها في غمدها قلت غلفتها وأغلفتها، وقربتها وأقربتها، الثلاثي مشدد العين، وقيل أقربتها جعلت لها قرابا وقربتها إذا أدخلتها في القراب، وغمدتها بالتخفيف وأغمدتها، وهذه الآلة التي هي السكين

هي آكد آلات الكتاب لابد من حضورها وإلا كان عرضة للعوائق عن جملة أمره، قال الفقيه العلامة السيد العربي المستاري(74) في نظمه المعلوم :

ولتجعلن حولك سكينا إذا ما قلم عصى فرأسه أنبذا

وأما المقص فلها أيضا أسماء متعددة، فهي المقص والمقطع والمقراض والجلم، فإذا أردت الموضع الذي يقص فيه ويقطع، قلت مقص ومقطع، ففتحت الميم، وكذلك مقرض ومجلم، وأكثر ما يقال بالتثنية، يقال اشتريت مقصين ومقراضين وجلمين، يجعلون كل واحدة من الحديدتين مقراضا ومقصا وجلما قال الشاعر :

ولولا نوال من يزيد بن مزيد لصوت في حافاتها الجلمان

وقد جاء فيها الإفراد أيضا قال سالم بن وابصة :

داويت صدرا طويلا غمره حقدا منه وقلمت أظفارا بلا جلم

وقال بعض الأعراب :

فعليك ما اسطعت الظهور بلمتي وعلي أن ألقاك بالمقراض

ويقال في تصريف الفعل منها : قصصت وقطعت وقرضت وجلمت وقد قالوا : جرمت بالراء، ويقال لطرفيها الذبابان والظبتان ولحديهما الغراران ولجانبيهما اللذين لا يقطعان شيئا الكلان، ولحافتيهما السمان وكذلك يقال لثقبي الأنف السمان، وأنشد أبو حاتم :

ونفست عن سميه حتى تنفسا وقلت له : لا تخش شيئا ورائيا

ويقال للحديدة التي تسمر بها الشعيرة، ولصوتها الصليل والصرير، وللثقب بطرفيها الوخز، وكل طعن وخز، قالت الخنساء :

ببيض الصفاح وسمر الرماح فبالبيض ضربا بالسمى وخزا

ويقال خسقت وخزقت بالسين وبالزاي إذا ثقبت بسهم أو بإبرة أو نحو ذلك.

---

(74) العربي المستاري أديب كثير النظم نسبته الى بني مسارة من قبائل الجبال قرب وتهان، صاحب المنظومة "سراج طلاب العلوم" التي شرحها البلغيثي في كتابه "الابتهاج بنور السراج" توفي بعد 1199 هـ 1785 م "الابتهاج" ج 1 ص 5 الى 14 "الاعلام" للزركلي ج 4 ص 224 ط 5 سنة 1980.

قال ابن قتيبة : إن كان الذي يكتب فيه جلدا فهو رق وقرطاس بكسر القاف، وقرطاس بضمها، وقرطاس، وقد تقرطست قرطاسا إذا اتخذته، وقرطست قرطاسا إذا كتبت فيه، وتقول قرطسنا يا فلان أي جئنا بقرطاس فإن كان من خرق فهو كاغد بالدال المهملة وحكي بالمعجمة، وقد يستعمل القرطاس في كل بطاقة يكتب فيها ، ويقال لما يكتب فيه صحيفة ومهرق، وأصله بالفارسية مهره، والقضيم والقضيمة قال الأعشى :

ورب كريم لا يكدر نعمة وإذا تنوشد بالمهارق أنشدا(75)

وقال امرؤ القيس :

(وبين الشبوب كالقضيمة قرهب)

ويقال السجل والوصر بمعنى واحد، ويقال للصك قط، وجمعه قطوط وقطاط، وكذلك كتب الجوائز والصلات قال الأعشى :

وألقيتها بالثني من جنب كافر كذلك أقنو كل قط مضلل

وقال المتلمس :

ولا الملك النعمان يوم لقيته بغبطته يعطي القطوط ويأفق

وقال الله تعالى {ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب} فإن كان كتابا كتب فيه بعد محو فهو طرس، ويقال رقمت الكتاب رقما ولقمته لقما، ونمقته نمقا، ونمقت تنميقا، وحبرت تحبيرا، ونبقته تنبيقا، النون قبل الباء، وبنقته تبنيقا الباء قبل النون، ورقشته ترقيشا، وزبرجته زبرجة وزبرجا وزورته تزويرا، وزخرفته زخرفة، كل ذلك إذا كتبته كتابة حسنة، فإذا نقطته قلت وشمته وشما، ونقطته نقطا، وأعجمته إعجاما، ورقنته ترقينا قال طرفة :

كسطور الرق رقشه بالضحى مرقش يشيمه

وقال المرقش :

برقم ووشم كما نمنمت بمنشمها المزدهاة الهدي

(75) يشار الى ما في هامش الأصل، وهو : رب كريم لا يكدر نعمة.

قالوا وبهذا البيت سمي المرقش مرقشا، وقال رؤبة :

(دار كرقــم الكاتــــب المرقــــش)

فإذا فسد الخط قيل مجمجه مجمجة، وثبجه تثبيجا، وشرمجه شرمجة، وهلهله هلهلة، ولهلهه لهلهة، فإذا لم يبين خطه قيل : دخمسه دخمسة، ومجمجمة مجمجمة، وعقمه عقما، وعقله عقلا، فإذا أدق الحروف وقارب بعضها من بعض، قيل قرمط قرمطة، وقرضع قرضعة، فإذا مد الحروف قيل مشق مشقا، ويقال المشق سرعة الكتابة وسرعة الطعن، وقد تقدم لنا ذلك، فإذا عظم الحروف وطولها قيل مد مدا ومط مطا، ومططها تمطيطا، فإذا نقص من الكتابة شيئا فألحقه بين الأسطار أوفي عرض الكتاب فهو اللحق وجمعه ألحاق :

عــــور وحـــــول وثالــــث لهـــم كأنــــه بيــــن أسطــــر لحـــــق

فإذا سوى حروف كتابه ولم يخالط بعضها من بعض قيل : جزم يجزم جزما، وخط مجزوم وجزم، ويقال من السطر سطر بالتخفيف وبالتشديد، وسيطر، ويقال سطر وسطر بتسكين الطاء وفتحها وجمع سطر الساكن أسطر وسطور، وجمع سطر المفتوح أسطار، ويجوز فيه سطور كما قالوا أسد وأسود، وجمع الجمع أساطير فإذا وضع على الكتاب ترابا بعد الفراغ من كتبه قال أتربة إترابا، وتربته تتريبا، ومن اللغويين من يقول أتربت ولا يجوز تربت.

قال النضر بن شميل كنت يوما عند المأمون وعلي أطمار فقال يا نضر: أتدخل علي في هذا اللباس ؟ ثم تجاذبنا الحديث فقال المأمون : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(76) : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز" قال النضر فقلت يا أمير المؤمنين حدثني عوف الأعرابي عن الحسن بن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها فإن فيه سدادا من عوز" وكان المامون متكئا فجلس وقال : السداد في هذا الموضع لحن ؟ قلت نعم، قال ما الفرق

(76) ذكره السيوطي في "الجامع الصغير" وعزاه للشيرازي.

بينهما ؟ قلت هو بالفتح القصد في الدين، وبالكسر البلغة وما يسد به الشيء، قال أتعرف العرب هذا ؟ قلت نعم، هذا العرجي من ذرية عثمان بن عفان يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر
كأني لم أكن فيهم وسيطا ولم تك نسبتي في آل عمر

فأطرق طويلا ثم رفع رأسه وقال : قبح الله من لا أدب له، فقلت ما لحن أمير المؤمنين وإنما لحن هشيم، وكان لحانة فتبع ذلك أمير المؤمنين، كما تتبع ألفاظ الفقهاء، فقال لي كيف روايتك للشعر؟ فقلت أروي الكثير منه، فقال انشدني أحسن ما قالته العرب في الحلم فأنشدته :

إذا كان دوني من بليت بجهله أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محل من العلى هويت إذن صفحا وحلما على المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا رأيت له حق التقدم والفضل

فقال ما أحسن ما قال، فقال أنشدني أحسن ما قالته في الحزم ، فأنشدته :

على* كل حال فاجعل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فإن نلت أمرا نلته عن عزيمة وإن قصرت عنه الحقوق فللعذر

فقال أحسن فيما قال، فأنشدني أحسن ما قالته في استصلاح العدو فأنشدته :

وذي غيلة سالمته فقهرته وأوقرته مني بعبء التجمل
ومن لايدافع سيئات عدوه بإحسانه لم يأخذ الطول من عل
ولم أر في الأشياء أسرع مهلكا لضغن عدو من وداد معجل

فقال ما أحسن ماقال، فأنشدني ما قالته في التسكين والتهدين فأنشدته :

إني ليهجرني الصديق تجنبا فأريه أن لهجره أسبابا
وأراه إن عاتبته أغريته فيكون تركي للعتاب عتابا
وإذا بليت بجاهل متحكم حسب المحال من الأمور صوابا
أوليته مني السكوت وربما كان السكوت عن الجواب جوابا

فقال أحسنت، ثم قال ما لك يانضر ؟ فقلت أريضة بمرو الروذ أتمزرها(77) فقال أفلا أفيدك مالا ؟ قلت إن رأى أمير المؤمنين فذلك عادة فضله، فدعا بداوة وقرطاس فكتب، ولا أدرى ما كتب، ثم قال إذا أردت أن تترب الكتاب كيف تأمر ؟ قلت أقول يا غلام أترب الكتاب، قال فهو ماذا؟ قلت مترب، قال فمن إسحائه ؟ قلت أقول يا غلام : اسح الكتاب، قال فهو ماذا ؟ قلت مسحى، قال : فمن الطين ؟ قلت أقول ياغلام طن الكتاب وأطن الكتاب، قال فهو ماذا ؟ قلت مطين ومطان، فقال أترب وأسح وأطن، وامض به إلى الفضل بن سهل، فلما أوصلته له قال : بما استحققت أن يأمر لك أمير المؤمنين بخمسين ألفا ؟ فقصصت عليه الحديث، فقال لحنت أمير المؤمنين، فقلت ما لحن إلا هشيم، فأعطاني الفضل أربعين ألفا أخرى من عنده.

رجوعا إلى ما كنا بصدده، قال ابن قتيبة : فإن جعل عليه براية من العيدان التي تسقط عند نشرها قيل أشره تأشيرا، ووشره توشيرا، ونشره تنشيرا، لأنه يقال : أشرت الخشبة ووشرتها ونشرتها وهو المئشار بالهمزة والميشار من غير همزة والمنشار بالنون، ويقال لما يسقط منه الأشارة والوشارة والنشارة والذي يفعل ذلك الآشر والواشر والناشر، والعود مأشور وموشور ومنشور، ويقال سحوت الكتاب سحوا وسحيته سحيا، إذا قشرت منه قشرة، واسم تلك القشرة سحاءة وسحاية وسحاة، والجمع سحاءات وسحايات وسحاء مكسور ممدود وسحا مفتوح مقصور وسحايا وكذلك القطعة الصغيرة منه، فإذا شددته بسحاءة قلت سحيته بالتشديد تسحية، ويقال للسحاة التي يشد بها خزامة، وقد خزمته فهو مخزوم، ويقال لها أيضا إضباره وضبارة بكسر الضاد، وقد ضبرته بالتخفيف وضبرته بالتشديد والإضبارة أيضا صحف تجمع وتشد، ويقال : وحيت الكتاب أحيه وحيا فأنت واح إذ كتبته، وأوحيت فأنت موح، وقد قيل في تفسير قوله تعالى : (فأوحى إليهم أن سبحوا) أي كتب إليهم، قال الشاعر :

ما هيج الشوق من أطلال ... أضحت قفارا كوحي الواحي

(77) في (ش) و (ف) أريضة أتزرها.

ويقال للخطوط التي يكتبها الكتاب والصبيان ويعرضونها ليرى أيهم أحسن التناشير(78) والتحاسين، ويقال للكاتب اذ أسقط شيئا من كتابه، قد أوهمت إيهاما، فإذا غلط قيل له وهمت وهما بالفتح على مثال وجلت وجلا، فإذا أراد شيئا وذهب وهمه إلى غيره، قيل له، وهمت تهم وهما ساكن الهاء على مثال وزنت تزن وزنا.

وللكتاب أسماء وقع الاصطلاح عليها من اللغويين، فمنها ما يعم جميعها، ومنها ما يخص بعضها، فمن الأسماء العامة الكتاب والصحيفة فإنهما يقعان على جميع أنواعها، وليس كذلك المصحف لأن هذا الاسم لا يوقعونه في المشهور المتعارف إلا على الكتب السماوية المنزلة على الرسل، وقد يستعمل في غير ذلك وهو قليل، وأما القنداق والزمام والأوارج والاخذندج، وهو القنداق فلا تستعمل إلا في الكتب المتصرفة في الخدمة وحساب الخراج والعمال، ويقال من الأوارج أرجت تأريجا وورجت توريجا، والرسائل لا تستعمل إلا في المخاطبات والمكاتبات، والوثائق والسجلات لا تستعمل إلا في الكتب المتصرفة في مجالس القضاة والحكام، وقد تستعمل السجلات في كتب السلاطين، والعهدة لا تستعمل إلا في كتب الأشرية، والصكوك والقطوط الغالب عليها أن تستعمل في كتب الولايات والإقطاعات والإنزالات والمحاشاة عن الوظائف والكلف، وربما استعملت في غير ذلك، والأشهر استعمالها فيما ذكرناه، قاله العلامة أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي في الاقتضاب وقد جرت العادة في الأكثر ألا يقال سفر إلا لما كان عليه جلد، وأما الدفتر فيطلق على المجلد وغيره، واشتقاق السفر من قولهم أسفر الصبح إذا أنار كأنه يبين الأشياء كما يبينها الصبح، وهذا الاشتقاق يوجب أن يقال : السفر لكل ما كتب، ولكن العادة بما ذكرناه قبل.

وأما الطبع والختم فإنه يقال طبعت الكتاب أطبعه طبعا وختمته ختما واقفته اقفا، ويقال للذي يطبع به طابع وطابع وخاتم وخاتم بالفتح والكسر، وأما الرجل الذي يطبع ويختم فطابع وخاتم بالكسر لا غير، ويقال للطابع أيضا مطبع، وفي الخاتم الذي يختم به لغات، خاتم وخاتم وخيتام وخاتام

(78) في (ف) تأشير بدل التناشير.

وختام وختم، وقول الأعشى :

وصهباء طاف يهوديها وأبرزها وعليها ختم

اختلفوا في قوله وعليها ختم، فقال قوم أراد الخاتم، وقال آخرون إنما ختم فعل ماض أراد وختم عليها وأما الطين الذي يختم به فيقال له ختام وجرجس وجولان وجعر، قال تعالى {ختامه مسك} وقال امرؤ القيس :

ترى أثر القرح في جلدتي كما أثر الختم في الجرجس

وقال ملحة الجرمي :

كأن قرادى صدرها طبعتهما بطين من الجولان كتاب أعجم

وقال أبو رياش : إن الجولان في هذا البيت موضع بالشام، وذكر أبو عمر المطرز : أن الجعرطين خاتم القاضي، ويقال أكرمت الكتاب اذا ختمته، قال بعض المفسرين في قوله تعالى {إلقي إلي كتاب كريم} أي مختوم، ويقال لخاتم الملك الحلق والهجار، قال المخبل السعدي يذكر أن رجلا من قومه أعطاه الملك النعمان بن المنذر خاتمه :

وأعطي منا الحلق أبيض ماجد سليل ملوك ما تغب فواضله

وقال الأغلب العجلي :

ما إن رأينا ملكا أغارا أكثر منه قرة ونارا
وفارسا يستلب الهجارا

وذكر المطرز أن الهجار خاتم القاضي، وذكر أشياء كأنها مخصوصة بالقاضي، وهي جائزة في غيره، ويقال للقاضي : الفتاح والفتوحة والحكومة، والقواري عدوله، والخول أمناؤه، وأحدهم خائل، والهداهد أصحاب مسائله، والمنافدون وكلاء خصومه وأحدهم منافد، قال والدرانية حجابه، والمثالي كاتبه، والنون دواته، والمجزأة سكينه، والمزابر أقلامه، والبوهة صوفة مداده، والزبرة قمطر المحاضر، والأوصار السجلات واحدها وصر، يقال هذا وصري وخذ وصرك، والسلاب سواد القاضي، والساج طيلسانه، والأخدرية قلنسوته، والمقطرة مجمرته، واللية بخوره، أنشد عليه ثعلب :

لا تصطلي ليلة ريح صرصر إلا بعودلية ومجمر

والسندل جوربه إذا كان من خرق، فإذا كان من صوف رقيق فهو المسماة، وإذا كان من كتان فهو الغلالة، والميزل خفه، والتلوة بغلته، والبساط حصيره، والحسبانة وسادته، والهجار خاتمه، والجعرطين خاتمه، ويقال طنت الكتاب إذا جعلت عليه طينا، وتأمر من يفعل ذلك فتقول : طن الكتاب فإن أكثرت من ذلك فقل طينت، ويقال لما يجعل فيه الطين ميطنة(79) وأما الطابع الذي يطبع به الدنانير والدراهم فيقال له روسم، قال كثير :

إلى النفر البيض الذين وجوههم دنانير شيفت من هرقل بروسم

وأما العنوان فيقال فيه عنوان وعلوان وعنيان، يقال عنونت الكتاب أعنونه عنونة وعنوانا فهو معنون، وعنته أعونه عونا فهو معون، وعننته أعننه تعنينا فهو معنن، وعننته أعنه عنا فهو معنون، وعنيته أعنيه تعنية فهو معنى، وعنوته أعنوه عنوا فهو معنو وأفصحهن عنونته فهو معنون قال الشاعر :

ضحوا*بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا(80)

وقال آخر :

رأيت لسان المرء رائد عقله وعنوانه فانظر بماذا تعنون

فالعلوان باللام مشتق من العلانية، والعنوان بالنون مشتق من عن الشيء يعن إذا عرض، والواو على هذا زائدة، ووزنه فعوال، وقد قيل إنه مشتق من قولهم عنت الأرض تعنو إذا ظهر فيها النبات، ويقوى هذا القول ما ذكرناه من قولهم عنوت الكتاب وعنيته، فيلزم على هذا أن يكون وزن عنوان فعلان، وتكون الواو أصلا والنون زائدة، وهو عكس القول الأول، ويلزم على هذا أن تكون اللام في علوان بدلا من النون كما قالوا في جبريل جبرين، واما من قال عننته وعننته بالنون فلا يكون في هذه اللغة إلا من عن يعن إذا عرض، وتكون الواو في علوان زائدة، واللام في علوان

(79) بكسر الميم.

(80) في (م) و (ش) ضحوا.

بدلا من النون، لا يصح غير ذلك، ومن قال عنته أعونه على مثال صغته أصوغه فإنه مقلوب من عنوته أعنوه، وقد قال قوم إن العنوان مشتق من العناية بالأمر لأن الكتب في القديم كانت لا تطبع، فلما طبعت وعنونت جعل القائل يقول من عني بهذا الكتاب، ولقي عني كاتبه به، وهذا الاشتقاق لا يصح إلا على لغة من يقول عنيان بالياء ولا يليق بسائر اللغات انتهى وقال قوم آخرون أصل العنوان الأثر، وبه سمي عنوان الكتاب، واحتجوا بقول الشاعر :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وهذا القول فيه نظر لأنه يلزم في العنوان الذي هو الأثر من الاشتقاق ما يلزم في عنوان الكتاب.

وأما الديوان فإنه اسم أعجمي عربته العرب، وأصله دوان بواو مشددة، فقلبت الواو الأولى ياء لانكسار ما قبلها، ودل على ذلك قولهم في جمعه دواوين وفي تصغيره دويوين، فرجعت الواو حين ذهبت الكسرة، ومن العرب من يقول في جمعه دياوين بالياء قال الشاعر :

عداني أن أزورك أم عمرو دياوين تشقق بالمداد

قال ابن السيد البطليوسي هكذا رويناه بالياء، وفي ديوان شذوذ عما عليه جمهور الأسماء في الاعتلال من وجهين : أحدهما أن الواو الساكنة إنما تقلب ياء للكسرة التي قبلها إذا كانت غير مدغمة في مثلها، نحو ميزان وميعاد، فإذا كانت مدغمة في مثلها صحت نحو اجلواذ واعلواط، والوجه الثاني أن الواو والياء من شأنهما في المشهور المستعمل من صناعة التصريف أنهما إذا اجتمعتا وسبقت إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء، نحو لويته ليا، وطويته طيا، ونحو سيّد وميت، والأصل في تسميتهم الديوان ديوانا أن كسرى أمر الكتاب أن يجتمعوا في دار ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام وأعجلهم فيه واطلع عليهم لينظر ماذا يصنعون، فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يكون، وينسخون ذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال أي ديوانه معناه هؤلاء مجانين، وقيل شياطين، فسمي موضعهم ديوانا واستعملته العرب وجعلوا كل محصل من علم أو شعر ديوانا. وروي عن سيدنا عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما

أنه قال : إذا قرأتم شيئا من القرآن ولم تعرفوا ما غريبه فاطلبوه في شعر العرب، فإنه ديوانها . ويقال لخاتم الديوان الفيج وقد فيجت فلانا جعلته فيجا ، والفيج أيضا الذي يحمل الكتب من بلد الى آخر ، وأما فوجت بالواو فمعناه جمعت فوجا من الناس.

وأما البراءة فهي في الأصل مصدر من قولك برئت من الأمر براءة وبراء أي تبرأت منه تبرؤا ، ويقال فلان بريء من ذلك، وهما بريئان، وهم برءاء على وزن ظرفاء، فإذا قلت هو براء بفتح الباء لم تثن ولم تجمع لأنه مصدر وصف به، ويقال قوم بِراء بكسر الباء على وزن ظِراف، وبراء بفتح الباء وبراء بضمها ، وهو اسم للجمع بمنزلة تُوام جمع تَوأم وَعراق جمع عرق، وهو العظم بما عليه من اللحم، ونوق بساط وهي الناقة(81) معها ولدها ، ولم يأت شيء من الجمع على فعال إلا ثمانية ألفاظ هذه بعضها ويروى بيت زهير :

إليكم إننا قوم براء

بالفتح والكسر والضم، فأما البراءة المستعملة في صناعة الكتابة فسميت بذلك لمعنيين أحدهما : أن يكون من قولهم برئت إليك من الدين براءة أعطيتك ما كان لك علي، وبرئت إليه من الأمر براءة اذا تخليت له عليه، فكأن المرغوب يتبرأ من الراغب مما أمله لديه، ويتخلى له عما رغب فيه، وقيل إنما كان الأصل في ذلك أن الجاني كان إذا جنى جناية يستحق عليها العقوبة ثم عفا عنه الملك كتب له أمانا مما كان يتوقعه ويخافه، فكان يقال كتب لفلان براءة أي أمانا ، ثم صار مثلا استعير في غير ذلك.

قال في الاقتضاب : وقد جرت عادة الكتاب ألا يكتبوا البسملة في أول البراءة اقتداء بسورة براءة التي كتبت في المصحف بدونها ، واختلف في العلة في عدم كتابتها فيها ، فقال قوم : وهو رأي محمد بن يزيد المبرد ، لم يفتتح بها لأن باسم الله افتتاح للخير ، وأول براءة وعيد ونقض للعهد ، وسئل أُبي بن كعب رضي الله عنه : ما بال براءة لم تفتتح ببسم الله الرحمان الرحيم ؟ فقال : لأنها نزلت في آخر ما نزل من القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم يأمر في كل سورة ببسم الله، ولم يأمر في براءة

(81) انظر "الاضافة"

فضمت الى الأنفال، لشبهها بها، يعني لأن أمر العقود مذكور في الأنفال، وهذه نزلت بنقض العهود، فكانت ملتبسة بها.

وأما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك أو من له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه، بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك : ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب : لترد لهذا ظلامته، ولينظر في أمر هذا، ونحو ذلك، وكما يروي عن جعفر بن يحيى بن خالد أنه رفع إليه كتاب يشتكي فيه بعامل، فوقع على ظهره : يا هذا، قد قل شاكروك، وكثر شاكوك، فإما عدلت، وإلا عزلت، وقال الخليل بن أحمد : التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ منه، واشتقاقه من قولهم وقعت الحديدة بالميقعة، وهي المطرقة إذا ضربتها، وحمار موقع الظهر أصابته في ظهره دبرة، والوقيعة نقرة في صخرة يجتمع فيها ماء، قال ذو الرمة :

وقلنا سقاطا من حديث كأنه جنى النحل ممزوجا بماء الوقائع

فكأنه سمي توقيعا لأنه تأثير في الكتاب، أو لأنه سبب إلي وقوع الأمر وإنفاذه من قولهم أوقعت الأمر فوقع.

وأما التاريخ فيقال أرخت الكتاب تاريخا، وهي أفصح اللغات، وورخته توريخا، فهو مؤرخ ومورخ، وأرخته مخففة الراء أرخا، فهو مأروخ، وهي أقل اللغات، والتاريخ نوعان : شمسي وهو المبنيّ على دوران الشمس، وقمري على دوران القمر، وكان المتقدمون يسمون الحساب القمري خَسْرَمَان، وتاريخ العرب هو القمري، وهو الذي يجرى به العمل. عند الفقهاء في الأحكام الشرعية، وكانت العرب تؤرخ بالكوائن العظام، والحوادث المشهورة، من قحط أو خصب، أو قتل رجل عظيم، أو موته، أو واقعة مشهورة، قال الربيع بن ضبع الفزاري :

ها أنذا آمل الحياة وقد أدرك عمري ومولدي حُجُرا
أبا امرئ القيس هل سمعت به هيهات هيهات طال ذا عُمُرا

وقال آخر :

" أزمان تناعى الناس موت هشام "

يعني هشام بن الوليد المخزومي، وقال النابغة :

فمن يك سائلا عني فإني من الشبان أيام الخنان(82)

وقال حميد بن ثور الهلالي :

وما هي إلا في إزار وعلقة مغار بن همام علي حي خثعما(83)

وكانوا يؤرخون بعام الفيل والفجار، وبناء الكعبة، وبين الفيل والفجار عشرون سنة، وسمي الفجار لأنهم فجروا فيه، وأحلوا أشياء كانوا يحرمونها، وبين الفجار وبناء الكعبة خمس عشرة سنة، وبين بناء الكعبة ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس سنين.

وكانت الفرس تؤرخ بالوقت الذي جمع فيه أزدشير ملك فارس بعد أن كانوا طوائف، ولم يكن في صدر الإسلام تاريخ إلى أن ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فافتتح بلاد العجم، ودون الدواوين، وجبي الخراج، وأعطى الأعطية، فقيل له ألا تؤرخ ؟ فقال : وما التاريخ ؟ فقيل شيء كانت تفعله الأعاجم، يكتبون في شهر كذا من سنة كذا، فقال عمر هذا شيء حسن، فأرخوا، فقال قوم نبدأ بالتاريخ من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وقال قوم بل من وفاته، وقال قوم بل من الهجرة، ثم أجمعوا على الابتداء من الهجرة في شهر ربيع الأول، وكان مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت منه، فقدم التاريخ على الهجرة بشهرين، واثنتي عشرة ليلة، وكانوا يكتبون شهر رمضان وشهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر، فيذكرون الشهر مع هذه الثلاثة الأشهر، ولا يذكرونه مع غيرها من الشهور، والشهور كلها مذكرة الأسماء إلا جمادى الأولى والثانية، وهي كلها معارف جارية مجرى الأسماء الأعلام انتهى.

(82) في (ف) من الشباب، وهو مخل بالوزن.

(83) في (ف) عقلة بدل علقة.

وهو القلم والمزبر بالزاي، والمذبر بالذال المعجمة، سمي بذلك لأنه يزبر به ويذبر أي يكتب، وقد فرق بعض اللغويين بين زبرت وذبرت، فقال : زبرت بالزاي كتبت، وذبرت بالذال قرأت، وسمي قلما لأنه قلم أي قطع وسوي كما يقلم الظفر، وكل عود يقطع ويحد رأسه ويعلم بعلامة فهو قلم، ولذلك قيل للسهام أقلام، قال الله تعالى {إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم} وكانت سهاما مكتوبا عليها أسماؤهم، ويقال للذي يقلم به مقلم، ولما يبرى به مبرى، ومبراة، وقد بريته أبريه بريا، وحصرمته حصرمة، عن ابن الأعرابي، ويقال : لما يسقط عن التقليم القلامة، وعن البرى البراية، وجمع القلم أقلام وقلام، كجبل وجبال وأجبال، وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ فجعل يفكر ويقلب أصابعه وينظر فيها، فقال : لا أدري فقيل له توهمه في نفسك، فقال عود قلم رأسه وجوانبه، كتقليم الأظفر، ويقال لعقده الكعوب، واحدها كعب، فإن كانت فيه عقدة تشينه وتفسده فهي الأبنة، ويقال لما بين العقد الأنابيب واحدها أنبوب، والمقالم واحدها مقلم، والأنابيب والكعوب تستعمل أيضا في الرماح، وفي كل عود فيه عقد، وكذلك الأُبَنُ، فإن كان في القصبة أو العود تأكل، قيل فيه قادح وفيه نقد، وكذلك في السن والقرن قال جميل :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وقال الهذلي :

تيس تيوس إذا يناطحها يألم قرنا أرومه نقد

ويقال لباطنه الشحمة، ولظاهره الليط، فإن قشرت منه قشرة قلت تليطت من القلم ليطة، أي قشرتها، والليط أيضا اللون، قال أبو ذؤيب :

" صلاة طيب ليطها واصفرارها "

ويقال للقصب اليراع والأباء، وقال قوم : الأباء أطراف القصب، والواحدة يراعة وأباءة، قال متمم بن نويرة يذكر فرسا :

ضافي السبيب كأن غصن أباءة ريان ينفضه اذا ما يقدع

ويقال للقطن الذي يوجد في جوف القصبة البيلم والقنصف، والفشغ، واحدها بيلمة، وقنصفة وفشغة، فإن كان فيه عوج فذلك الدرء وكذلك العود، قال الشماخ :

أقام الثقاف والطريدة درأها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز

الطريدة خشبة صغيرة فيها حديدة تسوى بها الرماح ونحوها، ويقال لغشائه الذي عليه الغلاف واللحاء والقشر، فإذا نزعته قلت قشرته وقشوته وقشيته ولتمته ولفأته وكشأته ولحوته ولحيته وسجفته وسحيته وسحوته وجلفته وجلهته ووسفته ونقحته، ويقال لطرفيه اللذين يكتب بهما : السنان واحدها سن، والشعيرتان واحدتهما شعيرة، فإذا قطعت طرفيه وهيأته للكتابة قلت : قططته أقطه قطا وقضمته أقضمته قضما والمقط بالكسر ما يقط عليه، والمقط بالفتح الموضع الذي يقط من رأسه، قال أبو النجم :

"كأنما قط على مقط"

وقال المقنع الكندي يصف القلم :

يحفى فيقضم من شعيرة أنفه كقلامة الأظفور في تقلامه

فإذا انكسرت سنه قيل : قضم يقضم قضما، كحذر يحذر حذرا، وكذلك كل تكسر في سن أو سيف أو رمح أو سكين، فإن أخذت من شحمته بالسكين قلت : شحمته أشحمه شحما، فإذا أفرطت في الأخذ منها قلت : بطنت القلم تبطينا، وحفرته حفرا، وقلم مبطن ومحفور، واسم موضع الشحمة المنتزعة الحفرة، فإذا تركت شحمته ولم تأخذ منها شيئا قلت أشحمته إشحاما، ويقال للشحمة التي تحت برية القلم الضرة، شبهت بضرة الإبهام، وهي اللحمة التي في أصلها، كذا قال ابن قتيبة في آلة الكتاب وهو المعروف، ولكنه خالف في أدب الكتاب، فقال : الألية اللحمة التي في أصل الإبهام، والضرة اللحمة التي تقابلها، فإن جعلت سني القلم الواحدة أطول من الأخرى قلت قلم محرف، وقد حرفته تحريفا، وإن جعلت سنيه مستويتين قلت : قلم مبسوط وقلم جزم، فإن سمع له صوت عند الكتابة فذلك الصريف والصرير والرشق، ويقال قلم مذنب بفتح النون أي طويل الذنب، فإذا كثر المداد في رأس القلم حتى يقطر المداد قيل : رعف

القلم يرعف رعافا شبه برعاف الأنف، ومج يمج مجا وأرعفه الكاتب إرعافا وأمجه إمجاجا، ويقال للكاتب استمدد ولا ترعف، ولا تمجج ولا تمج أي لا تكثر من المداد حتى يقطر، ويقال للخرقة التي يمسح بها الكاتب الوقيعة بالقاف وتقدم لنا عن أبي عمرو الشيباني أنها الوفيعة بالفاء.

المقصد السادس في الكاتب

ليس المراد هنا بالكاتب خاصة الإنسان الماخوذة في رسمه بقولهم : الحيوان الكاتب، فإن ذلك بالقوة، وهذا بالفعل، بل المراد بالكاتب هنا مقابل الشاعر، كما يقال فلان كاتب وفلان شاعر، فالأول ناثر، والثاني ناظم، ويشترط في كل منهما البلاغة التي هي المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة، وليس كل من نظم الكلام يقال له شاعر، ولا كل من كتب وإن كان خطه في غاية الحسن والتقويم يقال له كاتب، فظهر بهذا أن المرسل البليغ هو الكاتب، سواء كان يكتب كما يراد منه مثل العماد الاصفهاني، أو كما يريد فقط مثل القاسم الحريري، وأما الذي يحسن الخط وتقويم الحروف وهو خال من غير ذلك، فهو قال فيه ابن قتيبة في أدب الكتاب : معرضا بكتاب زمانه وتنقيصهم وهجوهم ما نصه : "فأبعد غايات كاتبنا اليوم في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف" انتهى. قال الزجاجي في حواشيه : هذا إنما أنكره على من اقتصر من الكتاب على تحسين الخط دون ما سواه من الأدب ورأى أنه قد تناهى في الكمال إذ حسن خطه، وهو لعمري كما قال منكرا على من كان هذا مذهبه، ورآه فخرا ورضي به مرتبة، لأنه إنما هو في ذلك الحال بمنزلة مزوق نقاش، وليست هذه من المنازل التي يرضى بها كاتب عاقل في نفسه، فأما حسن الخط فمحمود في الجملة، يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله عز وجل {أو أثارة من علم} قال الخط الحسن، وقال جل ذكره في الحكاية عن يوسف عليه السلام {اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم}، قال : كاتب حاسب وقال بعض المفسرين في قوله تعالى {يزيد في الخلق ما يشاء} هو الصوت الحسن، وقيل الخط الحسن، ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخط الحسن يزيد الحق وضوحا"(84) وقال بعض العلماء :

(84) لم نقف على تخريجه.

"من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتاب إلا به"، وقيل : "اللسان أكثر هذرا، والقلم أبقى أثرا، والكتاب يقرأ في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، وقال بعض أذكياء الحساب : وزن القلم من حساب الجمّل نفاع، وذلك أن الألف بواحد، واللام بثلاثين، والقاف بمائة، واللام بثلاثين، والميم بأربعين، ومجموع ذلك مائتان وواحد، وكذلك نفاع النون خمسون، والفاء ثمانون، والألف واحد، والعين سبعون، فذلك مائتان وواحد، فقد استوى حسابهما، وقد أكثر الناس في مدح الكاتب والقلم، وأتوا في ذلك بكل عجيب، فمن ذلك قول أبي تمام الطائي في الوزير محمد بن عبد الملك المعروف بالزيات، وهو من أجود ما قيل في القلم والكاتب، وهو هذا :

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... يصاب من الأمر الكلي والمفاصل
لك الخلوات اللاء لولا نجيبها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأري الجنى اشتارته أيد عواسل
له ريقة طل ولكن وقعها ... بآرائه في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن ناطقته[85] وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف الرماح وقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل[86]
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وشددت[87] ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنافل
رأيت جليلا شأنه وهو مرهف ... ضنى وسمينا خطبه وهو ناحل

وقال القطامي[88] :

لك القلم الذي لم يجر يوما ... بغاية منطق فكبا بعيّ
ومبتسم على القرطاس يأسو ... ويجرح وهو ذو بال رضيّ
فما المقدار أعضب من شباه ... ولا الصمصام سيف المذحجيّ

(85) في ((م) أنطقته بدل ناطقته.

(86) في الديوان "أطاعته أطراف القنا وتقوضت".

(87) في (ف) وفدته بدل رفدته.

(88) القطامي هو عمير بن شييم من جشم أبو سعيد التغلبي الملقب بالقطامي، شاعر غزل فحل، كان من نصارى تغلب في العراق، وأسلم وذكر له في "معاهد التنصيص" طائفة حسنة من أخباره توفي سنة 130 هـ 727 م "الأعلام" للزركلي ج 5 ص 88 وفيه مصادر ترجمته.

وقال أبو بكر بن دريد :
نحيل جليل الخطب أخرس ناطق يزف بنات اللب طوعا الى القلب
إذا اليد أصغت لتعمل غربه رأيت بنات الفكر تصغي إلى اللب
ونظر بعض الملوك الى جارية له تكتب كتابا فقال :
وزادت لدينا حظوة يوم أطرقت وبين أصبعيها(89) أسمر اللون أهيف
أصم سميع ساكن متحرك ينال جسيمات المدى وهو أعجف

قال ابن مقلة : الكتاب على أصناف خمسة : كاتب خط، وكاتب لفظ، وكاتب عقد، وكاتب حكم، وكاتب تدبير، فكاتب الخط هو المورق والمحرر، وكاتب اللفظ هو المرسل، وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعمال، وكاتب الحكم هو كاتب القضاة ونحوهم ممن يتولى النظر في الأحكام، وكاتب التدبير هو كاتب السلطان أو كاتب وزير دولته، وهؤلاء الكتاب الخمسة يحتاج كل واحد منهم الى أن يتمهر في علم اللسان حتى يعلم الإعراب ويسلم من اللحن، ويعرف المقصور والمدود، والفصل والوصل، والمذكر والمؤنث، ويكون له بصر بالهجاء، فإن الخطأ في الهجاء كالخطأ في الكلام، وليس على واحد منهم أن يمعن في علم النحو واللغة إمعان المعلمين الذين صناعتهم وبضاعتهم ذلك، ولا إمعان الفقهاء الذين أرادوا بالإغراق فيه فهم كلام الله تعالى واستنباط الأحكام والحدود والعقائد بمقاييس كلام العرب ومجازاتها وحقائقها، إنما على الكاتب من ذلك ما لا تسعه جهالته، ثم يكثر بعد ذلك من معرفة ما يخص صناعته من ممارسة رسائل الأئمة، كما في ضمن ريحانة الكتاب لابن الخطيب وغير ذلك، قال ابن مقلة ونحن نذكر مراتب الكتاب على ما كانت عليه في الزمن القديم، وأما اليوم فقد تغيرت عن رسمها المعلوم، ولكل دهر دولة ورجال، ولكل حال إدبار وإقبال انتهى.

وحاصل المراتب التي ذكرها إحدى عشرة مرتبة، كاتب الخط، وكاتب اللفظ، وكاتب العقد، وكاتب المجلس، وكاتب العامل، وكاتب الجيش، وكاتب الحكم، وكاتب المظالم، وكاتب الديوان، وكاتب الشرطة، وكاتب التدبير، ولا نحتاج في هذا المحل إلا كاتب التدبير وكاتب الديوان وكاتب الجيش.

---

(89) في (فـ) في بدل بين.

أما كاتب التدبير فهو أعظم مراتب الكتاب لأنه كاتب السلطان الذي يكتب أسراره، ويحضر مجلسه، وهو الذي يدعى وزير الدولة المرجوع إليه في جميع أنواع الخدمة، وهذا أحوج الكتاب المذكورين الى أن تكون له مشاركة في جميع العلوم بعد إحكامه لما يحتاج إليه في صناعته، وينبغي أن يكون أكثر علمه التواريخ وأخبار الملوك والسير والأمثال والأشعار وعيون الأحاديث، وقال ابن رشيق(90) في عمدته ويعرف المنازل القمرية وأعيان النجوم المشهورة، ومن ذلك معرفة حساب فصول السنة ودرجة الشمس من كل {برج}(91) مما ينقص الانسان جهله انتهى، وقال في الاقتضاب : ولا بأس أن يدخل في تضاعيف سطوره جيد الأشعار والأمثال، متمثلا أو مقتضبا، ويصل بذلك حجته اذا حاور، وإنما يحسن ذلك في مكاتبة الأكفاء ومن دونهم، ويكره ذلك في مخاطبة الملوك والوزراء إلا إذا علم أنهم يرغبون فيه، فإن الملوك الى هذه الأنواع من العلوم أميل، وهم بها ألهج وقلما يميلون الى غير ذلك من العلوم، وبالجملة فينبغي لهذا الكاتب أن يعتني بتعلم الأشياء التي يعلم أن رئيسه يميل إليها ويحرص عليها، وأن يتجنب كل ما ينكره الملك وينافره فإن ذلك يحببه إليه ويحظى منزلته لديه، ويدعوه الملك الى الإيثار له والتقريب والإغضاء على ما فيه من العيوب، فقد روى أن زيادا الذي قيل إنه أخو معاوية عوتب في تقريبه لحارثة بن بدر الغداني وكان قد غلب على أمره حتى كان لا يحجب عنه شيئا من سره، فقيل له : كيف تقربه وأنت تعلم استهتاره بشرب الخمر ؟ فقال : كيف باطراح رجل هو يسايرني مذ دخلت العراق ولا تصطك ركابي ركابه، ولا تقدمني فنظرت الى قفاه، ولا تأخر عني فلويت عنقي إليه، ولا حجب عني الشمس في شتاء قط، ولا الروح في صيف قط، ولا سألته عن علم فظننت أنه يحسن غيره، انتهى. وإذا اجتمع للكاتب مع التفنن في العلوم والمعارف العفاف ونزاهة النفس عن القبائح فقد تناهى في الفضل وحاز غاية النبل إن شاء الله تعالى.

---

(90) ابن رشيق أحد الفضلاء البلغاء صاحب التصانيف المليحة، منها "العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه" قال ابن بسام في كتاب "الذخيرة" بلغني انه ولد بالمسيلة، وتأدب بها قليلا ثم ارتحل الى القيروان توفي 406 هـ وقيل 456 هـ 1015-1063م "وفيات الأعيان" ج 1 ص 366 "شجرة النور الزكية" ج 1 ص 110..

(91) ما بين القوسين ساقط من (م) و (ش).

وأما كاتب الديوان فيحتاج مع ما قدمناه من الأوصاف الي أن يكون عارفا بأصول الأموال التي تحمل الى بيت المال، وأقسام وجوهها، وأحكام الأرضين، ووظائفها، وأملاك أهلها، وما يجوز للإمام أن يقطعه منها، ووجوه تفرقة الأموال وسبلها، وما يجوز في ذلك وما لا يجوز، وما جرت به العادة مما هو خارج عن أحكام الشريعة مبتدع في حكم الرياسة، ووجوه الأموال ثلاثة فيء، وصدقة، وغنيمة، فالفيء يقسم خمسة أقسام : أحدها ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين مما يوجد في بلاد الكفار بعد فتحها، مثل كنز النجير جان الذي وجد بعد فتح الأهواز وما جرى مجراه، والثاني ما أفاء الله على رسوله وعلى المسلمين من أموال أهل البلاد الذين أجلاهم الرعب ولم يقاتلوا ولم يوجف عليهم بخيل ولا ركاب، والثالث الأرضون التي صالح أهلها عليها بشيء يؤدونه في كل عام، والرابع الأرضون التي فتحت عنوة وأقرت بأيدي أهلها وجعلوا عمالا للمسلمين فيها، وضرب عليهم فيها الخراج كما فعل عمر رضي الله عنه بالسواد، والخامس جزية أهل الذمة، وأما الزكاة فهي الصدقة الواجبة على المسلمين، وقد اختلف المسلمون في الأصناف التي تجب فيها الزكاة اختلافا يطول ذكره، وعلى من تجب الزكاة، وعلى من لا تجب، فينبغي لكاتب الديوان أن يعلم ذلك ويتفقه فيه، وأما الغنيمة فما غنمه المسلمون من بلاد الكفار أو عساكرهم.

وفي أحكام الديوان أمور كثيرة تخالف أحكام القضاة، ولهذا فصلت أحكام الديوان من سائر الأحكام، وذلك أن صاحب الديوان يحكم بالخطوط التي يجدها في ديوانه، ويلزم من نسبت إليه الأموال إذا عرفت والحكام لا يفعلون ذلك ويمضي ضمان الثمار والغلات وسائر وجوه الجبايات ولا يمضي ذلك الفقهاء لأن تضمين الغلة قبل الحصاد ضرب من المخابرة التي نهي عنها، وبيع الثمار قبل ظهور صلاحها من بيع الغرر، وبيع ما لا يملك وقد نهي عن ذلك كله، وأبواب الأموال من الجوالي وغيرها فيه أيضا خلاف لما توجبه الأحكام، لأن الجوالي مال على رقاب بأعيانها، ومتى مات الواحد منهم قبل أن يحل ما عليه أو أسلم بطل ما كان يلزمه، ووجوه الجبايات من الأسواق والعراص والطواحين على الأنهار التي لا ينفرد بملكها إنسان من المسلمين دون سائرهم مخالفة أيضا لما توجبه أحكام الشريعة، وجميع ذلك

جائز عند الكتاب على مذهب أحكام الخراج، قاله العلامة ابن السيد في الاقتضاب، ثم قال ولأجل هذا رأى قوم من الكتاب أن يجعلوا مكان تضمين الغلات {تضمين الأرض}(92) وكانوا يتناولون في ضمان الارحاء أن ماءها ماء الخراج فيجعلون الجباية خراجا، وكذلك في الأسواق فإنهم كانوا يجعلون الجباية فيها لما كانت مشتركة بين المسلمين وأصحاب الدواوين كانوا يجعلون تاريخ سني الخراج بحساب الشمس لا بحساب القمر، لأن الشهور القمرية تنتقل بخلاف الشمسية، وكان كثير من الكتاب إذا ذكروا الحساب الشمسي يزيدون أن يقولوا : ويوافق ذلك من شهور العرب شهر كذا، أو شهر كذا، من سنة كذا من سني الهجرة إذا كان التاريخ عند الحكام بالسنين العربية دون العجمية، وأما كاتب الجيش فيحتاج بعد إتقان الحساب الى معرفة مقادير الأطماع أي الرواتب وأوقاتها وأربابها وضبطهم بالحلى، وكيف توخذ، ويعرف ما يتوفر منها إذا أسقط الأموات والغياب.

المقصد السابع في المكتوب إليه

هذا باب مهم يقع فيه الغلط كثيرا للكتاب لأنهم لا يبالون بمراتب المكاتبين، وهو أمر أكيد يحتاج الكاتب الى معرفة قدر المكتوب له عند الذي يأمره بالكتابة إليه، وما يليق به من التحلية والتكنية والأدعية، والفنونات الأدبية التي تجرى بها المخاطبات بين الأكفاء والأعلى الى الأمثل أو الى الأدني، على حسب ما تقتضيه مرتبة المخدوم الذي يأمر الكاتب بالكتابة.

ومراتب المكاتبين ثلاثة : مرتبة من فوقك، ومرتبة من هو مثلك، ومرتبة من هو دونك، والمرتبة العليا تنقسم الى ثلاثة أقسام : فأعلاها مرتبة الخليفة ووزيره ومن كان نظير الوزير عنده، ثم مرتبة الأمراء ومن جرى مجراهم ممن هو دون الوزير، ثم مرتبة العمال وأصحاب الدواوين، والمرتبة الوسطى تنقسم الى ثلاثة أقسام أيضا : فأعلاها مرتبة الشريف من الأصدقاء والعالم، والثانية مرتبة الشيخ من الإخوان الذي يجب توقيره وإن لم يكن شريفا ولا عالما، والثالثة مرتبة الصديق إذا خلا من هذه الأحوال،

(92) ما بين القوسين ساقط من (ف) و (م) و (ش).

والمرتبة السفلى تنقسمم الى ثلاثة أقسام أيضا : أعلاها من قرب محله من محلك، والثانية من لك رياسة عليه ووليته عملا هو من رعيتك فيه، والثالثة مرتبة الحاشية ومن جرى مجراهم من الأولياء والخدم، ولكل طبقة من هذه الطبقات مرتبة في المخاطبة ومنزلة متى زيد عليها أو قصر به عنها وقع في الأمر الخلل وعاد بذلك بالضرر وأدى الى الهزء والمضاحك، وذلك أن الرئيس إذا قصر به عما يستحقه أو يرى نفسه أهلا لذلك أغضبه ذلك وأحنقه، والتابع إذا زيد على استحقاقه أطغاه ذلك وأبطره، إلا أن يكون قد فعل في الخدمة ما يقتضي التنويه رفعه عن تلك المنزلة ومثل هذا يرجع فيه الكاتب العالم الى مراعاة مقتضيات المقام.

ودليل ما ذكرناه في المرتبة العالية ما وقع لصلاح الدين يوسف بن أيوب أمير مصر والشام، حيث كتب لأمير المغرب يعقوب المنصور الموحدي وخاطبه بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين فغضب يعقوب فلم يساعده علي ما طلب، وقد تقدم هذا في راية يعقوب المنصور، ودليل ما ذكرنا في المرتبة السفلى ما ذكره المقري في نفح الطيب في ترجمة حريز بن عكاشة بعض أمراء الأندلس قال المقري : كان لحريز كاتب يقال له عبد الحميد بن لاطون فيه تغفل شديد، فأمره أن يكتب الى المامون بن ذي النون في شأن حصن دخله النصارى، فكتب الى أن قال : وقد بلغني أن الحصن الفلاني دخله النصارى إن شاء الله تعالى، فهذه الواقعة التي ذكرها الله تعالى في القرآن العظيم بل هي الحادثة الشاهدة بأشراط الزمان، فإنا لله عن هذه المصيبة التي هدت قواعد المسلمين، وأبقت في قلوبهم حسرة الى يوم الدين انتهى فلما وصل الكتاب الي المامون ضحك حتى وقع على الأرض وكتب لابن عكاشة جوابه، وفيه وقد عهدناك منتقيا لأمورك، نقادا لصغيرك وكبيرك، فكيف جاز عليك أمر هذا الكاتب الأبله الجلف، وأسندت إليه الكتب عنك دون أن تطلع عليه، وقد علمت أن عنوان الرجل كتابه ورائد عقله خطابه، وما أدرى من أي شيء يتعجب منه، هل من تعليقه إن شاء الله بالماضي، أو من حسن تفسيره للقرآن ووضعه مواضعه، أو من تورعه عن تأويله الا بتوقيف، أو من تهويله لما طرأ على من يخاطبه، أو من علمه بشأن هذا الحصن الذي لو أنه القسطنطينية العظمى ما زاد علي تهويله شيئا، ولو أن حقيرا يخفي عن علم الله تعالى لخفي هذا الحصن

ناهيك من صخرة حيث لا ماء ولا مرعى، منقطع عن بلاد الإسلام خارج عن سلك النظام، لا يعبره إلا لص فاجر، أو قاطع طريق، باعه أحد حراسه بعشرين دينارا، ولعمري إنه لم يغبن في بيعه ولا ربح مبتاعه، فليت شعري ما الذي أعظمه في عين هذا الكاتب الجاهل انتهى المراد منه الذي تعلق به الغرض، وقد أكمل المقري القصة فلينظرها من أراد قال في الاقتضاب فينبغي للكاتب أن ينزل كل واحد من هذه الطبقات في مرتبته التي تليق به، على قدر منزلته منه، وعلى ما جرت به عادة الكتاب في زمانه، فإن العادة تختلف باختلاف الأزمنة، فيستحسن أهل كل زمان ما لا يستحسنه أهل زمان آخر.

ومن مقتضيات هذا المقصد، أنه يجب على الكاتب أن ينتبه في مخاطبات النساء، فإن في ذلك آدابا تجب مراعاتها، فمن ذلك أنه لا ينبغي للكاتب أن يبدأهن بدعائهن بالكرامة ولا بالسعادة لأن كرامة المرأة وسعادتها موتها، ولا يقال لإحداهن : تمم الله نعمه عليك لأنهن يكرهن أن يكون شيء عليهن، ولا يقال لواحدة منهن بلغ الله أملي فيك، ولا كان هذا يقيني فيك، لاستقباح أن يكون شيء فيهن، ولا يقال لها جعلني الله فداءك، لأن هذا يجري مجرى المغازلة، ولا قوله : كل شيء منك حسن، وبالجملة يجتنب كل لفظة يقع فيها الاشتراك ويمكن أن تتأول في العرف على ما يستقبح، فإن ذلك يعد من نبل الكاتب. ‹ومن ذلك ما حكى أن أعرابيا مدح زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد، فقال :

أزبيدة ابنة جعفر طوبى لسائلك المثاب
تعطين من رجليك ما تعطي الأكف من الرغاب

فوثب إليه خدمها وهموا بضربه، فمنعتهم وقالت لهم : إنما أراد خيرا فأخطأ، وهو أحب ممن أراد شرا فأصاب، سمع قولهم شمالك أندى من يمين غيرك، فظن أنه إذا قيل هكذا كان أبلغ، أعطوه ما أمل، وعرفوه ما جهل›(93) والله سبحانه أعلم وأحكم.

(93) ما بين القوسين ساقط من (ف) و (ش).

خاتمة نافعة، جالبة، دافعة

فيها بعض المواعظ التي تختص بالملوك، وتكف من جماحهم عند السلوك، والمواعظ المنقولة في ذلك كثيرة جدا، كمواعظ الفضيل بن عياض(94) لأبي جعفر المنصور العباسي، ومواعظ الحسن البصري، ومواعظ ذي النون المصري(95)، ومواعظ العمري(96) للرشيد. وكانت المواعظ التي تصدر من هؤلاء السادات رضي الله عنهم شديدة الموقع في القلوب، لأنهم لا يبالون بأحد ولا يخافون في الله لومة لائم، وكان الأمراء والخلفاء يطلبون ذلك منهم، وربما دعوا أحدا منهم لأجل ذلك، فيهرب منهم فيأتونه لبيته ليلا، فإذا أحس بهم أطفأ السراج فيلتمسونه في الظلام بأيديهم، فإذا وجدوه وعظهم على تلك الحالة كما وقع لأبي جعفر المنصور مع الفضيل بن عياض، فإن قلت ان مواعظ الملوك والأمراء اليوم لما فسد الزمان وأهله لا يظهر نفعها إلا إذا تجردوا عما هم فيه، وانخلعوا عنه بالكلية وذلك لا يمكن، فالجواب، ان هذا غير صحيح فإن الذي لا يمكن كله لا يترك كله، فإن الداء المتمكن كل التمكن العسير البرء يعالج ليخف ألمه، وتحد زيادته، وهذه فائدة ظاهرة.

وها نحن نذكر من هذا الدواء ما ترجى بركته، وتدخر ثمرته، ونقتصر من ذلك على النزر الكافي، والقدر المبارك الشافي، من ذلك ما روى عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه انه قال : بعث إلي المنصور والى محمد بن طاووس(97) فدخلنا عليه وهو جالس على فرش نضت له، وبين يديه أنطاع قد بسطت، والجلاوزة قائمة بأيديهم السيوف، فأومأ الينا فجلسنا فأطرق مليا ثم رفع رأسه وقال لابن طاووس : حدثني عن أبيك :

---

(94) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي شيخ الحرم المكي، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث أخذ عنه خلق، منهم الإمام الشافعي ولد بسمرقند، ونشأ بأبي ورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة توفي سنة 187 هـ 803 م من كلامه : من عرف الناس استراح" (الأعلام) للزركلي ج 5 ص 153، وفيه مصادر ترجمته.

(95) ذو النون المصري، ثوبان بن ابراهيم الأخيمي المصري، أحد الزهاد العباد، من أهل مصر، هو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال، ومقامات أهل الولاية، اتهم بالزندقة ت 245 هـ 859 م (الاعلام) للزركلي ج 2 ص 102 ط 5 وبهامشه مصادر ترجمته.

(96) في حيلة أبي نعيم ج 8 ص 283 حلاه بقوله : ومنهم العابد العدوي الزاهد البدوي عبد الله به عبد العزيز العمري ولم يذكر وفاته، في حين أنه ذكره في الجيش : من مواعظ الرشيد، ثم ذكره ابن العربي في "محاضرة الابرار، ومسامرة الأخيار" ج 1 ص 56. و (سير أعلام النبلاء) ج 8 ص 373 وفيه سنة وفاته 184 هـ 800 م.

(97) الذي عند ابن خلكان، في الوفيات ان المرسل اليه مع الامام، هو عبد الله بن طاووس لا محمد بن طاووس، كما هنا، من ابن خلكان ج 2 ص 195.

فقال له نعم، حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تبارك وتعالى في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه" قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن يصيبها دمه، فأمسك المنصور ساعة ثم قال : عظني يابن طاووس : فقال أما سمعت يا أمير المؤمنين قول الله رب العالمين : {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل} {ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد}. قال مالك : فضممت أيضا ثيابي مخافة أن يملأني دمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسْود ما بيننا وبينه، ثم قال : يابن طاووس ناولني هذه الدواة، فامسك عنه، ثم قال : ناولني ويحك الدواة، فامسك عنه ثم قال : ما منعك ان تناولني الدواة ؟ فقال له أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فقال المنصور حينئذ انصرفا، فقال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغ، قال مالك : فمازلت أعرف لابن طاووس فضله، ومازال عليه أثر الخير من هذه المقالة إلى أن توفي رحمه الله تعالى.

ومن ذلك أيضا ما روى أن عمر بن عبد العزيز لما بويع بعث الى الحسن البصري وقال له : اكتب لي صفة الإمام العادل الناجي من عذاب الله، بفضل الله، فكتب إليه : اعلم يا أمير المؤمنين ان الله تعالى جعل الإمام العدل قوام كل مائل، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف، والإمام العدل كالراعي الشفيق الذي يرتاد لماشيته أطيب المراعي، ويبعد بها عن المراعي المهلكة، ويحميها من أذى السباع وغيرها، وكالأب الحان على ولده يسعى لهم صغارا ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم لما بعد مماته، وكالأم الشفيقة على ولدها تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته، وكالقلب بين الجوارح تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، والامام العادل قائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم، وينقاد الى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبذر المال، وأفقر الأهل، وأجاع العيال، وشردهم، واعلم أن الله أنزل

الحدود ليزجر بها عن الفواحش، فكيف الحيلة إذا أتاها من يليها، وأنزل القصاص حياة للعباد، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم. واعلم يا أمير المؤمنين ان لك منزلا غير المنزل الذي أنت به، يطول فيه ثواؤك ويفارقك عنده أحباؤك، فاذكر الموت وما بعده، وقلة أشياعك وأنصارك عنده، وتزود ليوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، واحكم بين عباد الله بسيرة السلف الصالح، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فتبوء بأوزارك وأوزارهم، وتحمل أثقالك مع أثقالهم، ولا تنظر الى قدرك اليوم، ولكن انظر الى قدرك غدا حين تقف بين يدي ربك في مجمع الملائكة والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحي القيوم، وقد خاب من حمل ظلما، واعلم اني يا أمير المؤمنين وان لم أبلغ من حقك في عظتي ما بلغه أولوا النهى قبلي فلم آلك شفقة ونصحا، فاجعل كتابي إليك كمداوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له بذلك من العافية، والصحة والسلام عليك ورحمة الله وبركاته انتهى.

ودخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهو أمير على العراقين في يوم شديد الحر، وبلال في بيتة، وعنده الثلج، فقال له بلال : يا أبا عبد الله كيف ترى بيتنا هذا ؟ فقال : إن بيتك لطيب، والجنة أطيب منه، وذكر النار يلهي عنه، قال : فما تقول في القدر ؟ فقال : على جيرانك أهل القبور ففكر فيهم، فإن فيهم شغلا عن القدر، قال ادعو الله لي ؟ قال : ما تصنع بدعائي وعلى بابك كذا وكذا من خلق الله، كل واحد يقول : إنك ظلمته، ودعاؤهم يرتفع قبل دعائي، فلا تظلم أحدا، فلا تحتاج الى دعاء أحد انتهى.

هذه المواعظ يجب أن توخذ بالقوة والشدة على النفس، بحيث لا يقع بها ميل الى رخصة، ولكن لا ينبغي أن تبلغ الى القنوط واليأس من رحمة الله العفو الغفور الرحيم، فإنه ما قوبل شيء برحمة الله الا ضاق واتسعت الرحمة، لا سيما لهذه الأمة، نعم من طمع في رحمة الله فليرحم خليقة الله، فإنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : "الراحمون يرحمهم الله"(98) وورد أيضا "من لم يرحم الناس منعه الله من

(98) رواه البخاري.

رحمته"(99) وورد "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"(100) وفي حديث قدسي : ما يمنع من القنوط وما يدل على سعادة من رجاؤه برحمة الله منوط يقول مولانا تبارك وتعالى [يابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان ولا أبالي، يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يابن آدم إنك لو أتيت بقراب الأرض خطايا ثم أتيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة](101).

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه وفي 5 ربيع الأول عام 1283 هـ رزقنا الله خيره ووقانا شره آمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. انتهى.

---

(99) رواه البخاري ومسلم والترمذي بألفاظ متقاربة.

(100) رواه البخاري ومسلم والترمذي بألفاظ متقاربة.

(101) رواه الترمذي.

تذكير :

ما هو أسفله مكرر وذلك بالجزء الأول ص 318

الإكرام ، وكان عزم على التوجه معنا لملاقاة السلطان ، ثم عرض ما منعه من ذلك فأقمنا عنده ثلاثة أيام ، ووجه معنا أخاه السيد عبد القادر وكتب لخدامه أولاد جامع أن يوجهوا معي عشرة من الخيل ، وقال لأخيه يعطيني البغلة التي عنده أركب عليها لأنها حسنة السير ويرجع هو على التي ركبت عليها وكلتاهما للشيخ المذكور ، فلما بلغنا أولاد جامع ركب معي الخيل وذهبنا حتى وافينا السلطان برصانة على مرحلة من القصر ، وكان أراد التوجه ليربط على تطوان ، فلما جلست بين يديه وهو يسألني عن الأمور المتقدمة شيئا فشيئا ، وكنت أنا بفاس حاضرا لجميع ذلك من أوله إلى آخره، فشرحت ذلك كله على حقيقته ، فوجدته كان يعتقد أن أهل فاس وأهل العصبية فيهم هم أصحاب الأموال والأصول والتجار، مع أنه ليس كذلك، وإنما أهل فاس وأهل العصبية منهم قوم يقال لهم الرماة لا يظهرون إلا في وقت السيبة والفتنة، وأما في وقت الأحكام فإنهم خامدون لا بال لهم، فإذا كان وقت ظهورهم كان أهل الأموال والأصول تحت ذمتهم الإكرام...

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريـــظ

نحمدك اللهم كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ونشكرك شكرا يؤذن بازدياد برك وبجزيل أمتنانك وسئلك بجاه ذاتك أن ترسل سحائب صلواتك وتسليماتك وسوابغ رحماتك وبركاتك على روح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الأرواح وعلى جسده في الأجساد وعلى قبره في القبور ثم على أرواح آل بيته الطاهرين وأصحابه حماة الدين وعلى أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل من رفع للعلم رمحا وأبدي به لدى الظّلماء صبحا.

وبعد

فقد طالعت كتاب الجيش العرمرم الخماسي لمؤلفه العالم العلامة النحرير الدراكة الفهامة البدر المنير سيدي أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي رحمه الله وقدس سره مع تحقيق شيخنا وقدوتنا أستاذ المحققين الذي يعد ممن تلقوا راية العلم باليمين، عين أعيان قطره وفخر علماء عصره سيدي أحمد بن يوسف الكنسوسي متعنا الله بطول بقائه ونفع المسلمين بعلمه، وقد أضفى هذا التحقيق على الكتاب رونقا دل على ما للمحقق من قدم راسخة في العلم وتبحر واسع فيه.

أقول طالعت الكتاب المذكور فألفيته بحرا طاميا وكوكبا هاديا. لا جرم أنه أنهل فأروى وجمع فأوعى وسيلقى لدى كل ذي لب ما يلقي الحبيب من المحب ويحل من ذوي الفضل محلا لم يكن حل من قبل، فرأيت على ما أنا عليه من الشغل المحتدم والفكر الغير منتظم أن أسطر هذه السطور إقرارا لما لهذا السفر المسطور والعمل المبرور من مكانة علمية فائقة .

والله نسأل أن يجعل هذا العمل الجليل في ميزان الشيخين الجليلين الجد والحفيذ وان يتغمد الأول بواسع رحمته وأن يطيل بقاء الثاني في عافية وسرور إنه على كل شيء قدير .

د. الشيخ ولد حرمة ولد بابانا العلوي

مراكش في الخامس من شهر رجب الحرام 1416

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد اشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

اذا قلنا بان "الجيش العرمرم الخماسي" كتاب في تاريخ الدولة العلوية الغراء فإنه يعتبر عمدة لابد منها في التعريف بالحقيقة التي شارك مؤلفه رحمه الله في احداثها، وقدم شهاداته حولها، وتفاعلت مشاعره معها.

وبالاضافة الى كون "الجيش" كتاب في تاريخ المغرب السياسي، فإنه مؤلف متعدد المقاصد والمحتويات، فهو كتاب الملك والملوك وتدبير شؤون الرعية واستتباب الأمن وتوحيد البلاد، كتاب تفسير وحديث وفقه، وكتاب في الأبحاث اللغوية العميقة والمناظرات الأدبية البديعة والأوصاف البلاغية المثيرة.

وان مما أغنى مضمون الكتاب الشمولي، ويسر مناولته، وتمم محاسنه، وجعله موثوقا به أكثر، تقديمه في طبعة منقحة جيدة، روجعت على مخطوطات خاصة ونسخ متداولة وغير متداولة، ولقد عززت هذه الطبعة كذلك بإيضاحات وتعليقات وترجمات وتخريج للأحاديث النبوية الشريفة، فاكتسب الكتاب رونقا ودقة وأهمية تناسب مقام الابهة والعظمة التي سخر لها :

وإذا سخر الإله اناسا لسعيد فإنهم سعداء

ان ما قام به استاذنا الجليل، سيدي احمد حفظه الله. يعد مفخرة للعلم والعلماء ومحط اعجاب لنا نحن طلبة العلم الابرار في ربوع هذه الديار، كعادته، وفقه الله، في احترام رأي الآخر لم يفرض على القارئ نظرة النص المعين الضيقة، ولو كان أساسها النسخة الأصلية التي احتفظ بها خلفا عن سلف، بل احالنا رعاه الله على الخلافات الواردة في النسخ المختلفة التي عثر عليها، وأثبتها بكل أمانة، ودعانا لأعمال فكرنا وتحقيق الكتاب بأنفسنا وتكوين رأينا. لقد فتح لنا، جازاه الله خيرا، وبكل

موضوعية، فضاءات أوسع لقراءة كتاب "الجيش العرمرم الخماسي" من منطلقات جديدة.

نفعنا الله بثمرة هذا المجهود القيم، وأثاب القائمين على هذا العمل كما هو أهله، وألهمنا الصواب في السر والعلن، والحمد لله رب العالمين.

(محمد) عثمان فضلـــي
مراكش في ١٣ محرم ١٤١٧ / ٣١ ماي ١٩٩٦

فهرس الجزء الثاني

صفحة



المطبعة والوراقة الوطنية
IMPRIMERIE PAPETERIE EL WATANYA
زنقة أبو عبيدة الحي المحمدي – مراكش
30-37-74 فاكس: 30-49-23

فهـــرس الاعـــلام
بالجـــزء الثانـــي



تم بحول الله وقوته الجزء الأول من الجيش العرمرم الخماسي ويليه الجزء الثاني وأوله : الراية الحمراء المشرقة اللون التي لها من الله التأييد والعون، في دولة مولانا عبد الرحمن بن مولانا هشام بن مولانا محمد بن مولانا عبد الله بن مولانا إسماعيل رحمه الله .

ويليه إن شاء الله الجزء الثالث المشتمل على ترجمة مؤلف الجيش مؤرخ الدولة العالية المحفوظة بعين الرعاية الربانية محمد بن أحمد الكنسوسي قدس الله روحه .

وقبل كل شيء وبعد كل شيء تحت ظل الراية العلوية المنصورة بالله وكما هي تحت حماية حامي الملة والدين عالم الملوك وملك العلماء جوهرة عقد الدولة ووارث أخلاقها وفضائلها المنصور بالله مولانا الحسن بن مولانا المقدس بطل الأبطال محرر الأمة المغربية بمغربها العزيز مولانا محمد الخامس أكرمه الله بما يستحق من الدرجة المرفوعة بنور اليقين في جوار جده مولانا محمد صلى الله عليه وسلم في جنة الفردوس ، آمين .